دكتور مصطفى الشكعة

إسلام بلا مذاهب

طبعة مزيدة ومنقحة



الخوارج
الإباضية
الشيعة الإمامية
الزيدية
الإسماعيلية
الأغاخانية ، البهرة
الدروز
العلويون
القاديانية
الأحمدية
المعتزلة
السنة
السلفيون
المتصوفة

الدار المصرية اللبنانية

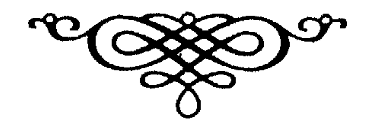
الناشر : **الدار المصرية اللبنانية**
١٦ ش عبد الخالق ثروت ـ القاهرة
تليفون : ٣٩٢٣٥٢٥ ـ ٣٩٣٦٧٤٣
فاكس : ٣٩٠٩٦١٨ ـ برقياً : دار شادو
ص . ب : ٢٠٢٢ ـ القاهرة

الطبعة السادسة : ١٤٠٧ هـ ـ ١٩٨٧م
الطبعة السابعة : ١٤٠٩ هـ ـ ١٩٨٩م
الطبعة الثامنة : ١٤١١ هـ ـ ١٩٩١م
الطبعة التاسعة : ١٤١٣ هـ ـ ١٩٩٣م
الطبعة العاشرة : ١٤١٤ هـ ـ ١٩٩٤م
الطبعة الحادية عشر : ١٤١٦ هـ ـ ١٩٩٦م

إهــداء

إلى روح أبي في الرحاب الكريم
فإن جوهر ما في هذا الكتاب ليس إلا ثمرة لغرس باكر في سنوات اليفاع ، ثم ما لبث أن فارق .

مصطفى محمد الشكعة





بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الطبعة الثامنة

حين استخرنا الله سبحانه وألّفنا هذا الكتاب قبل مايقرب من ثلاثين عاما ، لم تكن المادة العلمية التي يقدمها سهلة المورد موطأة الأكناف ، ومن ثم لم يكن طريقنا معبداً ولا سبيلنا ميسرا ، ومع ذلك كانت الأمانة العلمية رائدنا لما تتسم به موضوعات الكتاب من دقة وحساسية .

لقد ظهرت طبعات كثيرة لهذا الكتاب على مدى العقود الثلاثة الماضية ، وكنا بطبيعة الحال نبذل الجهد للوصول إلى المصادر المستخفية أو المحجوبة أو المخطوطة التي تمدنا بالمزيد من العلم تارة ، أوتصوب السبيل تارة أخرى ، ومن ثم كانت كل طبعة من الطبعات السابقة تشتمل على المزيد وتتضمن بعض التنقيح ، حتى كانت الطبعة الماضية وهي السابعة ، وقد اطمأننا إلى أنها بلغت مقام الرضا منا ومن القارىء على حد سواء ، غير أننا رأينا أن القدر الذي عرضنا به المذهب الإباضي وإن كان كافيا في الجانب المذهبي العام فإنه ليس كذلك في المسيرة التاريخية للمذهب ، ومن ثم فقد عملنا في هذه الطبعة إلى إثبات هذه الزيادة الضرورية التي تتمثل في الدول الإباضية وما صادفت من نماء ونجاح وما اعتورها من تفكك واضطراب ، و بينا أنه قد نشأت خمس دول إباضية المذهب في عُمان بدأت بدولة قصيرة العمر هي إمامة

الجلندى ، ثم أتبعت بأربع دول كبيرة تمثلت فى الخروصيين والنباهنة واليعاربة والبوسعيديين ، وإن الدولتين الأخيرتين ــ على سبيل المثال ــ قد اشتد عودهما ، وامتد نفوذهما ، فأنشأتا الجيوش المظفرة والأساطيل التى سادت البحار، فهزمت البرتغاليين وغزت الهند وفتحت شرق أفريقية ، وإن هذه الدول بصفة عامة أشاعت الأمن ، ونشرت الرخاء، وحاربت الأعداء، وحصنت الثغور، واهتمت بالعلم والأدب وأكرمت العلماء والأدباء، فأوضحنا ذلك كله وجلّينا جوانبه بالقدر الذى سمح به منهج الكتاب .

ولما كان محور النشاط الإباضى قد تعدّى أرض عُمان إلى أرض بلاد المغرب، فقد قدمنا تعريفا بهذا النشاط الذى تمثل فى إنشاء دولة إباضية فى المغرب الأوسط هى الدول الرستمية، التى كان أئمتها من أصل فارسى وكان شعبها من البربر، ومع هذا الذى يبدو أمرا غير مألوف من حيث التكوين البنائى للدولة فقد عاشت مايقرب من مائة وثلاثين عاما ؛ لأنها طبقت مبادىء الاسلام ولم تطبق عنصر العصبية ، فالإسلام قد قضى على العصبيات وجعل المسلمين جميعا إخوانا ، وذلك بنص الآية الكريمة «إنما المؤمنون إخوة» .

لقد كان فى دول الإباضية مايستحق الإعجاب والتقدير، وكان بين أئمتهم من يستحقون أن يقفوا علامة تميز وفخار بين حكام المسلمين على مسيرة التاريخ يستوى الأمر فى ذلك بعض أئمة الدول التى نشأت فى أرض عُمان ، أو تلك التى نشأت فى شمال أفريقية .

كل ذلك أوردناه فى إيجاز غير مخل وسقناه فى يسر وأمانة ، و بذلك نأمل أن تكون هذه الطبعة قد ضمت جديدا وحققت مزيدا ، وإنما الأعمال بالنيات وعلى الله قصد السبيل .

مصر الجديدة فى : ١٥ من شعبان ١٤١١هـ

مصطفى محمد الشكعة

٢ من مارس ١٩٩١

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الطبعة السابعة

أحمد الله سبحانه وتعالى خالق الخلق وبارئ النعم حمدًا يليق بجلال قدره ، وأثنى عليه ثناء الشاكر لفضله المعترف بآلائه ، وأسأله تعالى أن يصلى ويسلم على سيدنا ومولانا محمد نبى الهدى ورسول الإيمان ، وعلى آله وصحبه إلى يوم الدين .

وبعد ، فقد كنت عقدت العزم على أن تصدر هذه الطبعة من كتابنا هذا « إسلام بلا مذاهب » بدون أن أخط فيها سطرًا جديدًا أو أزيد عليها فقرة واحدة ، ولكن يبدو أن الإنسان لا يملك من أمره شيئا ، لأنه سرعان ما تغير العزم وتردد الفكر استجابة لأحداث جرت أو شئون استجدت .

لقد شاءت المقادير أن أكون هذا العام أكثر اقترابا إلى مصادر القاديانية والأحمدية ، سواء فى ذلك المصادر المكتوبة أو المصادر البشرية ، إذ أسهمت إسهاما متواضعا بالمشورة لأهل السنة من جنوب إفريقية فى قضية أقامها عليهم بعض الأحمدية ، لكى يقتحموا عليهم مساجدهم فى الصلاة ، ويزاحموهم فى مقابرهم بعد الممات ، ومن ثم فقد بدا لى أن أعيد كتابة الفصل الخاص بهذه الفرقة ، ليس لقصور فى الفصل القديم ، ولكن لمزيد من العرض والتعريف وضرب الأمثلة فى الفصل الجديد .

والشأن نفسه حدث مع الفصل الخاص بالشيعة الإمامية . إن الفصل المسطور فى الطبعات السابقة يفى بدون شك بالتعريف بهم من خلال الغرض الذى استهدفه الكتاب ، ولكن المذهب الإمامى صار يعلن عن أفكار لم تكن مطروحة من قبل ، وإن كانت متضمنة فى الكتب القديمة للمذهب ، فعمد إلى إعادة إثارتها ، والإلحاح عليها بلسان كبير الشيعة فى هذين العقدين ، وهو آية الله الخمينى ، الذى يعتبر المرجع الأعلى لجميع الشيعة الاثنا عشرية ، أو هو بالأحرى نائب الإمام المستور طبقا لمعتقداتهم ، وكان من الخير لجميع المسلمين أن تظل هذه الأفكار قابعة فى الدائرة الضيقة ، وأن تبقى قابعة فى الصدور ، ولكن آية الله

الخميني أثارها بقوة – وربما بعنف – في كتبه التي ذاعت وانتشرت من أمثال « كشف الأسرار » و « الجمهورية الإسلامية » وغيرهما .

ولما كان كثير من علماء الشيعة لا يوافقون على هذه المعتقدات والأفكار ، وناقشوها وردوا عليها ، فقد رأينا أنه لا يجمل بهذا الكتاب أن يقف من ذلك موقف الإغفال وعدم المبالاة ، ومن ثم فقد عرضنا لهذه الموضوعات من خلال معتقدات كل من الطرفين ، وهي موضوعات من الخطورة بمكان ، مثل قضية الإمامة ، والتقية ، والغلو في تقديس الأئمة ، والرجعة ، وقبور الأئمة ، وتربة كربلاء ، والادعاءات التي ادعاها بعضهم على كتاب الله ، وشتم الصحابة ، وموقف سيدنا عليّ من الخلافة ومن الخلفاء الراشدين .

هذه الموضوعات الخطيرة الحساسة وغيرها قد أثيرت في السنوات القليلة الماضية في إطار من العلنية المقصودة ، وكانت قبل ذلك قابعة ساكنة ، فكانت الأمانة العلمية وسلامة المنهج تقتضيان أن نتناولها في اختصار غير مخل ، متعففين عن الإثارة ، ملتزمين بالكلمة النظيفة والعبارة الهادئة ، حتى لا تزيد الفرقة وتنمو الفتنة ويتسع الخلاف بصورة أكبر مما يرجوه أي مسلم مخلص .

ولعل في تناول هذه الموضوعات المثارة على الساحة الإسلامية ما يدفع بعدد أكبر من عقلاء الشيعة وعلمائهم وأعيانهم إلى أن يسعوا في إغلاق هذا الباب ، وأن ينبهوا أصحاب الفكر الغالي إلى أن الاعتدال خير طريق ، والقصد في الأمور أسمى الغايات ، فالإسلام دين القصد والوسطية ، والمسلمون جميعا إخوة تحت ظلال العرش ، وهم خير أمة أخرجت للناس ، يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ، والله من ورائهم محيط .

نسأل الله من فضله الهداية والسداد والمغفرة والرشاد .

مصطفى محمد الشكعة

أستاذ الأدب والفكر الإسلامي بجامعة عين شمس
وعميد كلية الآداب السابق وعميد الدراسات العليا
بجامعة الإمارات العربية المتحدة

مصر الجديدة في ١١ من صفر ١٤٠٩
٢٢ من سبتمبر ١٩٨٨



بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الطبعة السادسة

أحمد الله سبحانه وتعالى ، وأصلى وأسلم على سيدنا محمد عبده ورسوله ، الداعى إلى التوحيد والإيمان ، المنادى بالعدل والصلاح ، الهادى إلى سعادة الإنسان فى دنياه ونجاته فى أخراه ، كما أصلى على آله الأبرار وصحبه الأخيار نجوم الهدى ومصابيح الرشاد .

وبعد فهذه طبعة أخرى من كتابنا « إسلام بلا مذاهب » الذى كتبناه مستهدفين بالدعوة إلى وحدة الكلمة بين المسلمين ، ولمّ الشمل ،ورأب الصدع ، وتضييق الشقة بين المذاهب الإسلامية المعتدلة من أهل السنة والشيعة الزيدية والشيعة الإمامية والإباضية ، متمنين على الغلاة أن يفيئوا إلى كلمة الحق ، وأن يعودوا إلى المصدر الأصيل الذى استقت العقيدة منه أركانها ، واستمدت الشريعة منه أحكامها ، بعيدا عن شطط التأويل وغموض التخريج ، ذلك أن سمة الإسلام الأولى هى السهولة والوضوح ، ودعامته الأصيلة هى الإيمان بالله رباً وبمحمد رسولا وبالقرآن كتابا ، مع الاستظلال براية الأخوة والتآلف والمودة والتعاطف والمحبة والإيثار .

وإذا كان القارئ قد افتقد فى الطبعة الماضية الفصل الخاص بالدروز لأسباب ذكرناها فى مقدمة تلك الطبعة ، فإنه سوف يجدها فى هذه الطبعة وقد احتلت مكانها من جديد مع بعض الإضافات التى تزيد القارئ معرفة ، وتمده بأمور جديدة .

إن الطبعة السابقة ما كادت تصل إلى أيدى القراء حتى امتلأ بريدى بوابل من رسائل بعض أصدقائى من الدروز يعتبون علىّ لخلوّ الكتاب من الفصل الذى كان مخصصا لهم ، ذاكرين أنهم يعتقدون ما تعتقده جمهرة المسلمين مع خلاف لا يصلح أن يقوم أساسا لاستبعادهم من كتاب يتحدث عن المذاهب الإسلامية ، ويدعو إلى وحدة الكلمة وتأليف القلوب ولمّ الشتات وتوحيد الصفوف ، ذاكرين أنهم غير مسئولين عن الغلوّ الذى تورط فيه فريق منهم ، وأنهم ، أى الأصدقاء الذين كتبوا إلىّ ، يشهدون أن لاإله إلا الله وأن محمدا رسول الله ، وأنهم يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ويصومون رمضان ويحجون البيت .

حيال ذلك وجدت من واجبى أن أستجيب لهم وأعيد كتابة فصل الدروز فى ضوء مستجدات فى المصادر التى زودت بها ، ملتزما بأمانة العرض وحياد الرأى وسماحة التناول ، مقررا أن بينهم – وإن كانوا قليلين — من يدعون بصدق إلى الاقتراب من جماعة المسلمين ، بالتجاوز عن الغلوّ ، والابتعاد عن التطرف الذى حلّ بأمور الاعتقادات .

وهكذا سوف يجد القارئ فى هذه الطبعة ما ألف وجوده فى الطبعات السابقة من تعريف بماهية الإسلام عقيدة وشريعة وسلوكا ، ومن توصيف للفرق الإسلامية المعاصرة ، ما كان منها فى جانب الاعتدال ، مثل أهل السنة والشيعة الإمامية والشيعة الزيدية والإباضية ، وما كان منها فى جانب الغلوّ كالإسماعيلية بجناحيها : الأغاخانية والبهرة ، وكالعلويين المعروفين قديما بالنصيرية ، وكالدروز الذين يعرّفون أنفسهم باسم الموحدين أو بنى معروف ، وكالأحمدية والقاديانية .

والله أسأل أن يكون من وراء القصد ، وأن يحقق للمسلمين وحدتهم ، وأن يمدهم بروح من عنده ، حتى يحكموا بكتابه وسُنة رسوله ، ويعملوا بشريعته ، وأن يوحدوا صفوفهم ، ويشيعوا المحبة فى قلوبهم ويطفئوا نار الفتنة بينهم ، تلك

الفتنة التى أضاعت أوطانا ، وأشعلت حروبا ، وخلفت خرابا ، ومزقت أقطارا وأوقدت نيراناً ، ضحاياها وقتلاها إخوة مسلمون ، وخسائرها ووقودها أموال المسلمين .

والله سبحانه يهدينا بفضله إلى سبيل الخير ونهج الرشاد .

مصطفى محمد الشكعة

أستاذ الأدب والفكر الإسلامى بجامعة عين شمس

وعميد كلية الآداب السابق

وعميد الدراسات العليا بجامعة الإمارات

العربية المتحدة

مصر الجديدة في :

٣ من رجب ١٤٠٦ هـ

١٤ من مارس ١٩٨٦ م





بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الطبعة الخامسة

لقد قدّر لهذا الكتاب أن يغترب عن الوطن سنوات طوالا تحت وطأة الظروف التى حاقت بالوطن العزيز فى الستينيات من هذا القرن ، تلك الظروف التى اضطرت كثيراً من المواطنين الصالحين – وليس الكتب وحدها – إلى الهجرة المؤقتة ، فلما أذن الله للوطن العزيز أن يبرأ من كثير من المحن التى طحنته فى السنين العجاف الماضية عاد كل مهاجر حرّ إلى وطنه ، كما عادت كل كلمة طيبة مسطورة فى كتاب أو محفورة فى فؤاد إلى الوطن والمهد والمستقرّ .

وكان كتاب « إسلام بلا مذاهب » واحداً من الكتب التى اغتربت بضع سنين ، ثم عاد ليلقى مراسيه على أرض الوطن مع من عادوا من أحرار البشر .

وسوف يجد القارئ كثيراً من الإضافات زيادة على المادة التى قرأها فى الطبعة الأولى ، هذه الإضافات التى ظلت تتتابع فى الطبعة بعد الطبعة فى المغترب إلى أن بلغ الكتاب رشده فى الطبعة الماضية التى ضمت فصلا علميا أمينا عن طائفة العلويين ، وآخر عن طائفة الدروز وأصارح القارئ العزيز أنه سوف يفتقد فى

هذه الطبعة الفصل الخاص بالطائفة الدرزية ، وذلك لأسباب كثيرة ، لعل أهمها اطلاعى على كتابهم « مصحف المنفرد بذاته » .

والله سبحانه يهدينا من فضله إلى سبل الإيمان ومناهج الرشاد ، إنه نعم المولى ونعم النصير .

مصطفى محمد الشكعة

مصر الجديدة فى
٣ من شعبان ١٣٩٦ هـ
٣٠ من يولية ١٩٧٦ م





بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمــة الطبعة الرابعة

قبل عام أو أقل قليلا صدرت الطبعة الثالثة من « إسلام بلا مذاهب » وقد ضمنتها فصلا جديداً عن الصوفية ، وكنت قد أجريت تعديلات جذرية في بعض الفصول في الطبعة السابقة ، فضلا عن الإضافات التي رأيتها ضرورية آنذاك حسبما أشرت في مقدمة الطبعة الثانية .

أما هذه الطبعة الرابعة فإني أعترف أن إضافة ذات شأن قد جرى بها قلمى بغية إلقاء مزيد من الضوء على جماعة إخواننا العلويين ، وكانت هذه الإضافة – من وجهة نظرنا – ضرورية كي يتنبه العقلاء من إخواننا إلى العلة التى قد تخفى على بعضهم ، ومن ثم يقومون على علاجها بطريق الحكمة والتعقل الذي يكاد ينحصر في مزيد من العطف والألفة والعناية ، وقدر أكبر من التعليم وربط القوم بوشائج المعاني الإسلامية السليمة ، وإن أنجع الوسائل تكمن فى قول الله عز وجل : « ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة » .

لقد حاولنا أن نقدم دراسة موضوعية قدر الاستطاعة على الرغم مما يصادف الباحث فى مثل هذا الموضوع من صعاب لعل أهمها قلة المراجع ، فإن وجد

بعضها تاه الفكر في بحر رموزها ، وتعب الوجدان في محاولة تأويلها تأويلًاصحيحا صادقا . الحق أنها كانت رحلة شاقة عمليا ووجدانيا ، لأن الهدف منها لم يتعدّ الغاية النبيلة التي تهدف إلى تقريب البعيد وتذليل أسباب الغلو ابتغاء العودة إلى رحاب سماح العقيدة ويسرها وصفائها ونقائها ، وبالتالي إلى تجميع الصف الإسلامي وتوحيده .

والله سبحانة يهدينا إلى سواء السبيل .

سوق الغرب : لبنان في
٩ من شعبان ١٣٩٢ هـ
١٧ من سبتمبر «أيلول» ١٩٧٢ م

مصطفى محمد الشكعة
أستاذ الأدب والإسلاميات بجامعتى
عين شمس وبيروت العربية .





بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الطبعة الثالثة

قبل عام من الزمان صدرت الطبعة الثانية من هذا الكتاب وقد حفلت بمزيد من الموضوعات التي لم نعرض لها في طبعتنا الأولى ، فعقدنا فيها فصلاً عن مكانة المرأة في الإسلام ، مع مقارنة لوضعها في الشرائع السابقة والحضارات القديمة ، كما أضفنا فصلاً عن أئمة أهل السنة الأربعة المشهورين : أبي حنيفة ومالك والشافعى وابن حنبل ، معرّفين بأفكارهم ومسالكهم في سبيل التحصيل واستنباط الأحكام ، وإلقاء مزيد من الضوء على شخصياتهم الفذة الجليلة الفريدة ، ثم وجدنا أن ضرورة الأمانة العلمية . ومثالية البحث تقتضينا أن نعيد النظر في الفصل الذي خصصنا به المذهب الدرزي فأعدنا كتابته من جديد في ضوء المباحث والمؤلفات التي صدرت عن شخصيات درزية تناولت البحث في عقيدتهم وقدمتها لقراء العربية ، ربما لأول مرة في تاريخ الدروز أنفسهم ، بل إن الأمر تعدى حدود مجرد العرض والتأليف في نطاق المذهب ، فسلك سبيل النقاش والمحاجة والمجادلة في الفكر والرأي والاستنتاج بين هذه الصفوة من مفكرى الدروز .

تلك كانت موضوعات أساسية حفلت بها الطبعة الثانية من هذا الكتاب ، فلما حان موعد إصدار هذه الطبعة الثالثة كان قد استقر في خاطري أن أضمنها بحثاً عن التصوف في الإسلام لارتباط الموضوع ارتباطاً وثيقاً بأهل السنة من ناحية ، وللصورة المهتزة عن هذا المسلك الجليل في أذهان كثير من الذين يلتمسون الحقيقة ويبحثون عنها بعد أن تعددت الآراء واختلفت الأحكام واختلت الموازين بشأنهم . ليس من شك في أن تعدد التناول للصوفية عن طريق أصحاب الثقافات المختلفة فضلاً عن أنماط من السلوك عمد إليها بعض الصوفية أو نسبت إليهم قد أسهمت فى خلق هذه الصورة المضطربة غير الثابتة ، ثم زاد الصورة اضطراباً واهتزازاً ما رددته الروايات عن الخلافات الحادة والصراعات الشديدة التي جرت بين الفقهاء والمتصوفة ، الأمر الذي يضع المسلم على حافة الحيرة حين يحاول الانتهاء إلى رأي في شأنهم ، فكان أن انتهزت مناسبة مثول هذه الطبعة إلى الصدور وقدمت من خلالها دراسة عن الصوفية منشأ وفكرا ومسلكا ، عمدت فيه قدر الاستطاعة إلى الايجاز المبين في غير ماخلل بالقصد ولا غلوّ فى الرأي ، مستهدفاً الغرض الأسمى الذي رُضْتُ عليه نفسي منذ أن خططت الكلمة الأولى فى هذا الكتاب قبل أعوام تزيد على العشر ، وهو توحيد صف المسلمين وجمع كلمتهم ولمّ شملهم وتصفية قلوبهم بعد أن صنع بنا الخلاف ما صنع ، وبعد أن جنى التفرق علينا ما جنى .

والله سبحانه يهدينا بفضله الى سواء السبيل .

بيروت فى

١٤ من شوال ١٣٩١ هـ .

٢ من ديسمبر (كانون الثانى) ١٩٧١ م .

مصطفى محمد الشكعة
أستاذ الأدب والدراسات الإسلامية
بجامعة عين شمس وجامعة بيروت
العربية



بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمـة الطبعة الثانية

قبل سنوات تسع أتيح للطبعة الأولى من هذا الكتاب أن تأخذ طريقها إلى قراء العربية والمسلمين عامة ، وكان الهدف من إصداره ـــ ولا يزال – توحيد الكلمة وجمع الشمل ورأب الصدع بين جمهور المسلمين على اختلاف مذاهبهم ، وتعريف الشباب بقضايا دينهم التى حاول بعض الدارسين من غير بنى الإسلام أن يجعلوا منها موضوعاً للغمز ،أو هدفاً للنيل ، أو سبيلا للتشهير ، فأوردنا الأمور على وجهها الصحيح ، ودحضنا بالحجة العادلة كل فرية أو تحامل ، ودفعنا بالمنطق الصادق كل زيف أو كيد أو خطأ جاء نتيجة لقصور في الفهم .

على أن واحدا من الأهداف الأساسية لهذا الكتاب كان ـــ ولا يزال ـــ تثقيف الشباب المسلم في كل أرض وصقع ومن كل مذهب ومشرب ، ثقافة مذهبية تكون سبيلا إلى السماحة ودرعا ضد التعصب والعصبية اللذين يشكلان عقبة صعبة التخطي في سبيل التقدم والتجمع على حد سواء .

لقد نفدت الطبعة الأولى من هذا الكتاب بعد فترة قصيرة من صدوره ، وكان عليَّ أن أسارع إلى إصدار طبعة ثانية منه إتماماً للفائدة وتيسيراً على من فاتهم اقتناء

نسخة من الطبعة الأولى ، ولكن اغترابى بعيدا عن الوطن العربى لفترة امتد طولها إلى ست سنوات حال دون تحقيق تلك الرغبة العزيزة عليَّ وعلى القارئين في أوانها .

لقد جرت عادة المفكرين على أن يضيفوا شيئاً جديداً إلى أفكارهم المدونة المطبوعة حينما يعيدون نشرها ، ذلك أنَّ الأمر لا يخلو من فكرة جديدة تطرأ أو خاطر مقتحم يرد أو تدارك لأمر قد يحتاج إلى تدارك ، وعندما فكرت في إضافة أبواب جديدة إلى هذه الطبعة تريثت بعض الشيء ، ذلك أن الطبعة الأولى كانت قد شرفها الإمام الأكبر شيخ الإسلام المرحوم الشيخ محمود شلتوت بمقدمة طويلة نوعا ، تحمل في ثناياها موافقة كاملة على كل ما جاء بالكتاب من موضوعات وأفكار ، فهل يستباح لي ولا زلت أحتفظ بالمقدمة في صدر الكتاب أن أضيف جديدا لم يره الشيخ وقد انتقل إلى جوار الله منذ سنوات ؟ لقد ساءلت نفسي طويلا أكان الشيخ الإمام يمانع في أن أضيف فصلا عن مكانة المرأة في الإسلام ، أو أن أضيف فصلا آخر عن أئمة أهل السنة ، أو أن أجرى إضافات جديدة إلى الفصل الخاص بالمذهب الدرزى بعد ما ظهر فيه من تآليف لاحقة للطبعة الأولى من هذا الكتاب ؟ وانتهيت بينى وبين نفسي بميزان من العدالة والاقتناع إلى أن الأمر ما كان ليصل بالشيخ الجليل عند مقام الموافقة أو الترحيب وحسب ، بل إن الأمر كان سيصل إلى مرحلة دفعه إياى دفعا إلى الكتابة فى هذه الموضوعات وتناولها بما يتفق ومسيرة منهج الكتاب .

والحق أني رأيت استكمالا لهدف الكتاب وسداً لثغرة عامة في نطاق مفهوم الناس عن المرأة فى ظل الإسلام أن أكتب فصلا عنها أوضح فيه مكانتها في الإسلام ووضعها قبل الإسلام عند مختلف الأمم والأديان ، وأن أكشف عن التصور الكريم

لفكرة الإسلام للمرأة ولشريعته تجاهها ، وإكرامه لها ، مستمداً ذلك من الكتاب العزيز وسنة الرسول الكريم ، ضاربا الأمثال لثمرة التربية الإسلامية للمرأة فخاضت المعارك وحاجّت الخلفاء وناقشت العلماء وخطبت وشعرت وجاهدت وضحت وتجلدت .

والموضوع الثاني الذي أضفته إلى هذه الطبعة يتعلق بدراسة عن أئمة أهل السنة ، إن الكتاب يشتمل على فصل عن أهل السنة اشتماله على فصول أخرى للمذاهب الإسلامية المختلفة ، ولقد اكتشفت أن فصل أهل السنة لكي يكون مكتملا أسباب الفائدة يحسن أن يزدان بسيرة مفصلة في حدود القصد لكل من الأئمة العظام المشهورين : أبي حنيفة ومالك والشافعي وابن حنبل ، مع عرض أفكارهم واجتهاداتهم وثقافاتهم ومواقفهم ومؤلفاتهم بالقدر الذي يفي بالغرض من غير ما إيجاز مخل ولا إطناب ممل .

والموضوع الثالث الذي أجريت القلم فيه هو الفصل المتعلق بالمذهب الدرزي ، ذلك أنه حتى عصر صدور الطبعة الأولى من هذا الكتاب لم يكن المتخصصون من إخواننا الدروز قد دخلوا إلى ساحة الكتابة عن مذهبهم والتأليف فيه . وكانت الكتابات التى ظهرت في هذا الميدان إما من أبناء غير المذهب ، أو من أبنائه الذين ليست لهم دراية كاملة به . فكانت كتابتهم أقرب إلى أن تكون تاريخية اجتماعية منها إلى أن تكون مذهبية دينية ، أما وقد ظهرت بعض الكتب التى تتناول القضايا الدينية من خلال المفهوم الدرزى فلم يكن هناك مفر لكاتب يحترم نفسه ويحتفى بقرائه من أن يعرض لما كتب سابقا ويراجعه في ضوء ما ألفه غيره لاحقا ، ويعيد النظر فيه ، ولا يهم بعد ذلك أن غيّر أو صحح أو أبقى الشىء على ما هو عليه في نطاق وزنه للأمور وتقييمه للجديد من الأفكار . إن من العدل أن أقرر أنني أفدت من الكتب الحديثة التي ألفت في نطاق الدراسات المذهبية الدرزية ، وبالتالى أعدت النظر في فصل الدروز وأضفت إليه بعض المعلومات والنصوص .

هذا وأحب أن أقرر أن عددا قليلا من المفكرين الذين ينتسبون إلى مدارس إسلامية انتهجت في عقيدتها شيئا من الغلو قد جرت بينهم وبينى أحاديث تتعلق بما ورد عن مذهبهم فى الطبعة الأولى ، فطلبت إليهم – إن كان ثمة شيء لم يرضوا عنه – أن يوافونى بخواطرهم مكتوبة ، ووعدتهم وعد صدق بنشر ملاحظاتهم كاملة فى هامش الفصل المتعلق بمذهبهم . غير أن ردا واحدا لم يصل إليّ . الأمر

الذي يجعل كل ما كتب عن كل مذهب من المذاهب كامل الصدق صِرف الصواب ما لم يكن هناك زلل غير المعصوم وخطأ غير القاصد .

والأمر كله برغم الجهد الطويل الذي بذل في هذا الكتاب لا يعدو أن يكون دعوة إلى الصواب ، واستنهاضا للهمم ، وتنقية للعقيدة من الأوشاب التي علقت بها على مر الزمان ، وتطهيرا لها من البدع والمستحدثات ، وتخليصا من الزيف وتخطيا للجمود ، في إطار من نبل الغاية وسلامة القصد ، واستهداف الخير ، واستجلاب النفع ، ونشدان السلام ، والسعي إلى العزة والأمان .

والله يوفقنا جميعا إلى طريق السداد ونهج الصواب .

بيروت فى ٣ من ذى القعدة سنة ١٣٩٠ هـ
أول يناير سنة ١٩٧١ م

مصطفى محمد الشكعة
أستاذ الأدب العربى والدراسات الإسلامية
بجامعة عين شمس وجامعة بيروت العربية





بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم الكتاب

بقلم صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر
الشيخ محمود شلتوت
شيخ الجامع الأزهر

الحمد لله الذي أرسل محمدا بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ، والصلاة والسلام على هذا الرسول الكريم الذى جمع الله به القلوب المتنافرة ، وألف به بين النفوس المتباينة ، وعلى آله وصحبه مصابيح الهداية ودعاة الوحدة ، وعلى كل من تبعهم بإحسان إلى يوم الدين .

وبعد :

أمة واحدة :

فإن الله سبحانه طلب من هذه الأمة أن تتوحد كلمتها ، وأن لا تكون شيعا وأحزابا يضرب بعضهم أعناق بعض « وأنَّ هذه أمّتُكُمْ أُمةٌ واحِدَة » فكل عامل

على لم شملها ، ساع إلى تأليف قلوب أبنائها فهو مؤمن حقا مجاهد في سبيل أنبل غاية عنى بها الإسلام ، وهى تأليف القلوب وتوحيد الأهداف ، وأما أولئك الذين يورثون العداوات ، ويبعثون العصبيات ، ويفرقون بين الأخ وأخيه ، ويصطنعون العداوة والبغضاء فهؤلاء هم الذين يسعون في الأرض بالفساد ، وواجب المسلمين المخلصين أن يقفوا لهم بالمرصاد ، وأن يبصروا الأمة بهم ويكشفوا لهم أهدافهم وسوء غاياتهم .

تفرق المسلمين :

ولقد فهم المسلمون الأولون روح هذا الدين الحنيف واختلفوا في فهم نص من كتاب الله أو سنة رسول الله ،. ولكنهم – مع هذا الخلاف – كانوا متحدين في المبادئ والغايات ، لم يكفر بعضهم بعضا ، بل كانوا يدا واحدة على من عداهم . ثم خلف من بعدهم خلف جعلوا دينهم لأهوائهم ، فتفرقت الأمة إلى شيع وأحزاب ومذاهب وعصبيات ، واستباح بعضهم دماء بعض ، وكان بأسهم بينهم شديدا ، فطمع فيهم من كان لا يستطيع أن يدفع عن نفسه . فذهبت ريحهم وتجرأ عليهم أعداؤهم وانتقصوا بلادهم من أطرافها ، كل هذا ودعاة الفرقة سادرون في غيّهم ماضون في طريقهم لا يدفعهم إلى هذا الطريق الشائك إلا أحد أمرين : إما الجهل بمادئ الإسلام الصحيح أو الكيد لهذا الدين الحنيف ، لقى الإسلام على يد هؤلاء وأولئك ما لقي من نكبات ومصائب ، ولولا قوة تعاليمه وصفاء منبعه واتساق عقيدته مع الفطرة الإنسانية لحرمت الإنسانية من مزاياه وفضائله .

الاستعمار يشجع الفرقة :

ولقد استغل المستعمرون أسباب الفرقة بين المسلمين أسوأ استغلال ، فراحوا يبعثون من قبور التاريخ أسباب العداوة والبغضاء ، وينفخون في نار قد خمد أوارها وانطفأ لهيبها ، لأن أكثر هذه الأسباب قد أصبحت غير ذات موضوع ، كل هذا لتبقى لهم الكلمةالنافذة في بلاد الإسلام التي حباها الله بخيرات لا تكاد توجد فى غيرها من بلاد الله .

الأزهر ودراسة المذاهب :

ولقد تنبه المصلحون من المسلمين إلى الأضرار التي تحيق بدينهم وبلادهم من جراء هذه الفرقة ، فقاموا ينادون بوجوب وحدة الصف الإسلامى واطراح أسباب النفرة بين أبناء الملة الواحدة والقبلة الواحدة والعقيدة الواحدة ، واتخذت هذه الدعوة طريقها على يد بعض الأفراد الذين باعوا أنفسهم لله ، فكانت دعوة فردية في أول أمرها تزعمها فى العهد الحديث أمثال : جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده وغيرهما ، ثم بعد ذلك أخذت شكلا جماعيا ، فكانت جماعة التقريب بين المذاهب الإسلامية التي جمعت نخبة من فضلاء الأمة الغيورين على وحدتها الحريصين على رأب الصدع بين صفوفها ، وكان من أثر ذلك أن قررت مشيخة الأزهر أخيرا أن تتوسع فى دراسة الفقه المقارن في كلية الشريعة الإسلامية الأزهرية ، بحيث تتناول دراسة المذاهب المختلفة ومعرفة وجهة نظرهم في الأمور الفرعية ، وهذه خطوة طيبة نحو الغاية النبيلة التي يهدف إليها الإسلام ، وهو أن يكون معتنقوه أمة واحدة قد تختلف في أفهامها ولكنها لا تختلف في أسسها وغايتها .

تقريب المذاهب تنقية للعقيدة وقوة للإسلام :

وليست الدعوة إلى تقريب المذاهب الإسلامية دعوة إلى لقاء مذهب على ، حساب مذهب ، ولكنها دعوة إلى تنقية المذاهب من الشوائب التى أثارتها العصبيات والنعرات الطائفية وأذكتها العقلية الشعوبية .

وإن السبيل الوحيد إلى إعادة الصف الإسلامى إلى وحدته وقوته أن لا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله ، وأن نطرح وراء ظهورنا تلكم التأويلات البعيدة للنصوص الشرعية من كتاب الله والسنّة الصحيحة ، وأن نفهمها كما فهمها المعاصرون للتنزيل ، وأن نجعل أهواءنا تبعا لديننا ولا نجعل ديننا تبعا لأهوائنا ، وأن نحارب احتكار فرد أو أفراد تعاليم الدين . فما كان الإسلام دين أسرار وأحاجى لا يعرفها إلا طائفة خاصة تطلع عليها من تشاء وتمنعها عمن تشاء ، فما

انتقل الرسول ﷺ إلى الرفيق الأعلى حتى بلغ الرسالة وأدى الأمانة ، وطلب من أتباعه وأصحابه أن يبلغوا ما علموه ، وأخذ عليهم العهد والميثاق فى أكرم موضع وأكرم يوم وأكرم جمع أن يبلغوا ماعلموا فرب مبلغ أوعى من سامع .

كتاب الله وسنة رسوله هما مصدر العقيدة :

والمسلمون جميعا مسئولون عن أداء رسالة الإسلام ، ولا يتفاوتون فيما بينهم إلا بقدر فهمهم لكتاب الله وسنة رسول الله ، وليس لأحدهم بالغا ما بلغ أن يحرم ما أحل الله أو يحل ما حرم الله : «ولا تقولوا لما تصف ألسنتكم الكذب هذا حلال وهذا حرام لتفتروا على الله الكذب إنَّ الذين يفترون على الله الكذب لا يفلحون» .

وإن الانحراف عن جادة الطريق المستقيم لا يجد استجابة إلا فى بيئة جاهلة بأحكام دينها ، فعندئذ نجد المستجيبين لصيحة كل ناعق ، وكلما انتشر العلم وكلما دق النظر قلّت فرص النجاح أمام دعاوى العصبية الحمقاء والانحراف الشديد .

الأمانة العلمية وسلامة العرض والبعد عن التعصب في هذا الكتاب :

هذا وقد كان أكثر الكاتبين عن الفرق الإسلامية متأثرين بروح التعصب الممقوت ، فكانت كتاباتهم مما تؤرث نيران العداوة والبغضاء بين أبناء الملة الواحدة وكان كل كاتب لا ينظر إلى من خالفه إلا من زاوية واحدة هى تسخيف رأيه وتسفيه عقيدته بأسلوب شرُّه أكثر من نفعه . ولهذا كان من أراد الإنصاف لا يكون رأيه عن فرقة من الفرق إلا من مصادرها الخاصة ، ليكون هذا أقرب إلى الصواب وأبعد عن الخطأ . وكان ممن حاول هذه المحاولة الكريمة السيد الأستاذ الدكتور مصطفى الشكعه فى كتابه «إسلام بلا مذاهب» فقد اطلعت على هذا الكتاب فوجدته :

أولا : عرض العقيدة الإسلامية عرضا بينا واضحا ميسرا يتفق مع ما جاء به القرآن الكريم والسنة الصحيحة ، وأبان بأسلوب سهل موافقة هذه العقيدة

للفطرة الإنسانية السليمة ، وملاءمتها لحكم العقل الناضج المفكر ، ومجانبتها للتعقيد الفلسفى الناشيء من خطأ الفكر وفساد الرأى .

ثانيا : تعرض لدفع بعض الشبه التى كثر حولها الجدل فى الأيام الأخيرة ، كتعدد الزوجات ومسألة الرق ، فأبان وجهة نظر الإسلام فى هذه الموضوعات وقارن بين ما جاء به غيره من الأديان وما عليه العمل الآن فى بعض الدول التى يظن أنها بلغت من الحضارة ما لم تبلغه أمة . وكان عرضه هذا عرضا جميلا ورده قويا يقنع كل من طلب معرفة الحق ورغب فيه .

ثالثا : وهو المقصود الأصلى من كتابه وهو الكلام على الفرق الإسلامية الغلاة منهم والمعتدلين ، فقد تكلم عن كل فرقة وكيف نشأت وكيف تطورت ، وقد أعجبنى منه أنه عالج هذا الموضوع الشائك بأسلوب المؤرخ الأمين ، ولكن فى هوادة ولين لا تثير فتنة ، ولا تورث ضغينة ولا تبعث عصبية ، ولم ينس عند الكلام على فرق الغلاة أن بين سبب غلوهم فى رقة من يخشى على وحدة الأمة أن تتصدع ، ولا سيما أنه تعرض للفرق التى ارتبط — ولا يزال يرتبط — تاريخها بجمهوريتنا العربية المتحدة ، ولم ينس أن يشيد بالمواقف النبيلة الكريمة التى وقفتها الفرق المتعددة لرفعة هذا الوطن العزيز ، وما بذلوه من دماء وأرواح فى محاربة المستعمرين وأذناب المستعمرين . ولقد طرز كتابه هذا بشيء من آداب المتأدبين من أبناء الفرق المختلفة . فكان كتابة هذا كتاب علم وتاريخ وأدب لا يرى العالم فيه انحرافا عن الجادة ، كما لا يرى فيه المؤرخ تحاملا على فريق لمصلحة فريق ، بل هو سجل للأحداث من غير تحيز ولا تعصب ، كما يرى فيه الأديب صورة وأفكار المتأدبين وأسلوبا معبرا عن خلجات نفوسهم فى عصور مختلفة وبيئات متعددة .

محاولة كريمة :

وإن كتاب «إسلام بلا مذاهب» هو محاولة من تلكم المحاولات التى اضطلع بها المصلحون أخيرا للمّ الشعث وتأليف القلوب وتوحيد الصف الإسلامى .

أكثر الله تعالى من أمثال الدكتور مصطفى الشكعه ممن يدعون إلى الله بالكلمة الطيبة والموعظة الحسنة والأسلوب الصادق المهذب الجميل ، كما أدعوه تعالى أن يهيئ له من أسباب التوفيق ما يعينه على خدمة دينه على هذا المنهج القويم .

إنه ــ تعالى ــ على ما يشاء قدير .

محمود شلتوت

١٩ من شوال سنة ١٣٧٩ هـ .
١٤ من أبريل سنة ١٩٦٠ م .





بسم الله الرحمن الرحيم

مقـدمة الطبعة الأولى

كلما نظرت إلى أحوال المسلمين فى حاضرهم راعنى ما هم فيه من اضطهاد واستعمار ، فخيرات بلادهم مسلوبة وأرزاقهم حرام عليهم حلال لغيرهم ، وديارهم نهب مباح لشذاذ الآفاق من كل مكان ، والتعصب الغربى الأعمى بما يحمل فى أنيابه من هلاك لا يجد من بين شعوب الأرض ماينفث فيها سموم الأذى والبوار إلا الشعوب المسلمة ، فأصبح المسلمون فى حاضرهم غرباء عن أوطانهم ، مضطهدين فى ديارهم ، محرومين مما تنبت أرضهم من خيرات كثيرة وفيرة حلالا طيبا .

وإذا أنعمنا النظر فيما يغتال من أوطان ، لم نجد بين ذلك إلا أراضى المسلمين وحدها دون غيرها ، فالأندلس الأرض الإسلامية العربية التى وعت الحضارة وحفظتها وعلمت الأوربيين ألف باء المدنية قد اغتيلت فى ظروف حالكة السواد تستنكرها الشرائع سماويها وأرضيها لما ارتكبت فيها من قتل المسلمين جملة ، رجالا ونساء وعجائز وأطفالا ، وفلسطين الوطن العربى الإسلامى قد حل به ما حل بالأندلس ، بل أشنع مما حل بالأندلس ، فقد جمع الغرب الصليبى الصهيونى حثالات من أجناس مختلفة تدين باليهودية المتعصبة واغتصب لهم وطنا من أرض

المسلمين غير عابئ بما حل بهم من تشريد وجوع وفاقة ومجاعة وأمراض ، وكأنّ دماء المسلمين وأوطانهم وأرزاقهم قد أصبحت حلا مباحا لمن هب ودب حتى ولو كان من أحط أجناس البشر . وما حل بالأندلس قبل ستة قرون وما حل بفلسطين قبل اثنتى عشرة سنة ، يحاول بعض المستعمرين الغربيين اليوم أن يحدثوه في وطن مسلم عربي آخر هو الوطن الجزائرى ، وما زال الصراع قائما على أشده بين قوى الحق المسلمة وشياطين الباطل الصليبية والصهيونية . (*)

ولم يقف الأمر بامتهان ديار المسلمين وأوطانهم عند هذا الحد ، بل إننا قبل عشر سنوات كنا إذا نظرنا إلى خريطة الأقطار الإسلامية شرقا وغربا لم تكد تقع أعيننا على قطر واحد يعيش في ظل الحرية والاستقلال ، بل إن جميع بلاد المسلمين كانت تئن تحت نير استعمار الدول الغربية كبيرها وصغيرها ، فمراكش والجزائر وتونس وسوريا ولبنان وجزء من الوطن السودانى وجزء من الوطن الصومالي وجزء من إفريقية الغربية وجزء من الهند الصينية ، كل هذه الأقطار الإسلامية كانت تستعمرها فرنسا ، ومصر وفلسطين والعراق وسواحل الجزيرة العربية الجنوبية والشرقية ، وجزء من الوطن السوداني وآخر من الوطن الصومالي وأوغندا وتنجانيقا وزنزباروشبه القارة الهندية والملايو كانت — ولا يزال بعضها — تخضع للاستعمار البريطانى . وليبيا وجزء من الوطن الصومالي وإرتيريا والحبشة كانت تخضع للاستعمار الإيطالي . والكنغو وجزء كبير من إفريقية المسلمة يخضع لبلجيكا وجزء كبير من إفريقية وبعض سواحل الهند يخضع للاستعمار البرتغالي ، وإندونيسيا كانت تخضع للاستعمار الهولندي . وهكذا يبدو الأمر شاذا نابيا مخجلا ، فجميع تلك الأوطان والشعوب المستعبدة أوطان وشعوب إسلامية ، وجميع الدول الغاصبة دول أوربية متعصبة .

ولم يقف الأمر بهذه الدول الغاصبة عند اغتيال خيرات بلاد المسلمين وسلبها ، بل كانت دماء المسلمين أنفسهم من سكان تلك البلاد رخيصة غاية الرخص تسفك لأقل سبب ولأتفه غاية ، والمجازر التي سفكت فيها دماء عشرات بل مئات الآلاف من المسلمين في السنوات الماضية القريبة أكثر من أن تحصى في مثل هذه

(*) انتصر الشعب الجزائرى بعد ذلك ، ونال استقلاله بعد أن قدم فى ساحة الجهاد مليون شهيد .

المناسبة ، فمكان ذلك كتاب آخر . ومن عجب أن دولة أوربية من الدرجة الثالثة أو الرابعة لا يزيد سكانها على اثنى عشر مليونا من الأنفس كانت تستعبد وطنا إسلاميا يزيد تعداده على خمسة وثمانين مليونا من البشر ، الدولة الأوربية الغاصبة هي هولندا ، والأرض الإسلامية المغصوبة هي إندونيسيا .

إننا نشك في أن هولندا بتعدادها القليل – والمسافة بينها وبين إندونيسيا تبلغ الآلاف العديدة من الأميال – قادرة على إخضاع إندونيسيا خلال تلك المئات من السنين التي استعمرتها ، ولكن الأمر يخفى عصابة متعصبة من الدول الاستعمارية يساعد بعضها البعض الآخر فى استعباد الشعوب الإسلامية ، فكلما قامت انتفاضة في وطن من هذه الأوطان الإسلامية تطالب بالاستقلال سارعت الدولة الغاصبة مستعينة بزميلاتها إلى القضاء على تلك الثورة ، والأمر واضح بيّن في حرب الجزائر حيث تستعين فرنسا في حربها هناك ضد المسلمين أصحاب البلاد بأسلحة حلف الأطلنطي الأوربى الأمريكي ، وكان الأمر نفسه واقعا في إندونيسيا وهي تخوض معارك الاستقلال ضد هولندا ، فقد كانت كل من إنجلترا وفرنسا تمد هولندا بالسلاح والعتاد والأساطيل البحرية والجوية .

لقد سقط من المسلمين عشرات الآلاف ، بل مئات الآلاف من القتلى في محاولاتهم السلمية التى قاموا بها لاسترداد استقلال أوطانهم ، لأن المستعمر الغربى كان يستحل دماءهم ويلتذ بمنظرها ، فإذا نظرنا فى نفس الوقت إلى بقعة غير إسلامية مستعمرة – وما أندر البلاد غير الإسلامية المستعمرة – مثل قبرص وجدنا أن ضحايا الاستقلال من القبارصة لا يبلغ عددهم بضع عشرات ، وهكذا بضع عشرات من غير المسلمين يقتلون حين يطالبون باستقلالهم ، وقد يكون قتلهم حدث عن طريق الخطأ ، يقابلهم عشرات بل مئات الآلاف من المسلمين يحصدون حصدا وتسيل دماؤهم أنهارا لمجرد أن يفكروا في طلب الاستقلال .

وليت الأمر وقف عند هذا الحد ، فإن اليهود المشاغبين الذين كانوا يعيشون في فلسطين قبل المحنة ، كانوا فى تمردهم ضد الإنجليز يأسرون ضباط الإمبراطورية ويجردونهم من كل ثيابهم ويجلدونهم بالسياط ثم يعلقونهم في أغصان الأشجار حتى يعثر عليهم زملاؤهم ، ولم يكن هذا العمل يقابل من الجيش المحتل بأدنى عقاب .

فإذا ما قام أقل تمرد بين الفلسطينيين العرب المسلمين ، ولو كان سلمى الطابع ، حصدتهم المدافع الرشاشة وأطاحت برقابهم المشانق بدون أدنى تحقيق .

المسألة إذن مسألة حرب مبيتة مقصودة مرسومة على المسلمين وأوطان المسلمين وديارهم وأرواحهم ومتاعهم .

أعلق طرفي بهذا الحاضر القاسي فيقشعر بدني لهذا الاستضعاف لكياننا والاستباحة لحمانا . ثم أسرح بطرفى بعيدا إلى الماضى الذى يرجع إلى ألف سنة أو أكثر أو أقل قليلا فأجد دنيا واسعة تظلها سماحة الإسلام ، يعيش فى حماها المسلم وغير المسلم في حصن من الأمان وحال من الرضا تحت حكم المسلمين ، لا ظلم ولا تعصب ولا عسف ولا اغتصاب ، بل عدل وسماحة وأمان وسلام .

وأضيف إلى ذلك تلك الموجات المتلألئة من نور العلم وضياء المعرفة وإشراق الثقافة ، فى شكل مجالس علم وندوات أدب فى أرجاء دولة المسلمين فى الري وأصبهان وبغداد ونيسابور وغزنة وبخارى وسمرقند ودمشق وحلب والموصل ، أو في شكل جامعات مكتملة أسباب المعرفة من أساتذة وطلبة ، يؤمها طلاب العلم من جميع بقاع عالم ذلك الزمان قائمة في القاهرة والقيروان وقرطبة ، جامعات أسبغت حمايتها على العلوم والآداب والرياضيات والفلسفات ، لولاها لما تألق للغرب المعاصر نجم ولا التمعت له معرفة ولا سطع له نور ولا بزغت له شمس .

هذا من ناحية سماحتنا ومعرفتنا وأمننا وثقافتنا ، كل أولئك فاض على العالمين نورا وهاجا يضيء ولا يحرق ، وسماحة كريمة تنشر العدل ولا تميل إلى العدوان ، تبسط السلام ولا تجنح للحرب .

فإذا ما حاول معتد أثيم أن يبغى علينا زحفت إليه الجيوش الإسلامية في لمح البصر وجعلت ميدان المعركة في أرضه ، ولقنته درسا في أدب الجوار ثم عادت أدراجها ، ولا يزال أولو الذكر منا حينما يستطلعون تاريخنا يذكرون حروب السلام التى شنها المعتصم فى عمورية ، وخاضها سيف الدولة فى أراضى البيزنطيين ، وأبلى فيها صلاح الدين ضد الصليبيين ، وواجهها بيبرس ضد التتار .

هو إذن ماض مشرق مضيء قوى عزيز ، وهو أيضا حاضر خابٍ ضعيف مستذل معتدى عليه ، وكان علىّ أن أتأمل الأسباب التى أدت إلى هذه المفارقات الضخمة المؤسفة بين موقف المسلمين وحالهم فى أمسهم ويومهم ، ولم يطل بى التفكير ، فسرعان ما اهتديت إلى أن ضعف المسلمين جاء من تفرق كلمتهم وشتات شملهم نتيجة لتفرق المذهب والعقيدة ، فمذاهب المسلمين المختلفة كانت الباب الذى دخل منه الخلاف ، واستغل الاستعمار هذه الثغرة فوسعها وباركها كما يبارك الشيطان فعل الكبائر ، وأصبحنا نرى السنى يخاصم الشيعى ، والشيعى يلعن السنى ، بل إن الشيعة أنفسهم متفرقون ، هذا إمامى ، وذاك زيدى ، ومنهم من غلا فى مذهبه غلوا كبيرا ، فهذا إسماعيلى ، وذاك درزى ، والآخر علوى ، ثم نلتفت مرة أخرى فنجد بعض رجال السنة يختلفون ، فهذا حنفى أو شافعى أو سلفى ، ونجيل الطرف بعد ذلك فنجد هذا إباضيا والآخر يميل إلى الاعتزال ، وننظر إلى الإسماعيلية نفسها فنجد فيها النزارية الأغاخانية والمستعلية البهرة ، ثم لا نكاد نلتقط أنفاسنا حتى نلمح بعيدا فى الهند جماعة الأحمدية أو القاديانية ، وهى تنسب نفسها إلى الإسلام ويصلح فريق منهم ويضل فريق .

مذاهب مختلفة وعقائد متعددة فى ظل دين واحد ورسول واحد يستغلها ذوو النيات السيئة وأصحاب المقاصد الدنيئة فى ضرب المسلمين بعضهم ببعض ، فوقفنا من هذه المذاهب جميعا — ما درس منها وما بقى — موقف الدارس المستأنى ، وقدمناها إلى القارئ فى يسر وبساطة ولين ، وعرضنا لها تاريخيا وأدبيا وعقائديا ، ناظرين نظرة علمية سمحة ، بعيدين عن التعصب المذهبى ، مستهدفين النصفة ما وسعنا إلى ذلك السبيل ، حتى يتعرف المسلمون على اختلاف مذاهبهم وفرقهم وطوائفهم الموقف الذى ينبغى أن يكونوا فيه ، وسوف لا يكون الفارق واسعا بين كثير من المذاهب المشار إليها وسوف يكون اللقاء أيسر مما يظن الكثيرون وفى اللقاء قوة ، وفى جمع الشمل عزة ومنعة وسيادة .

ولما كان الإسلام — ولا يزال — هدفا للتهجم من بعض الحاقدين عليه فى الشرق حينا وفى الغرب حينا آخر ، الأمر الذى استشرت عدواه إلى فئة قليلة من ناشئتنا ، فقد قدمنا للكتاب فصلا عن ماهية الإسلام وعظمته ، وما ضم من

تشريعات سماوية دونها أية تشريعات سابقة أو لاحقة . وما حوى من ديموقراطية حقه واشتراكية مثالية ، وتكافل اجتماعى عادل وشورى ، وحرب على التمييز العنصرى .

ولما كان بعض أعداء الإسلام قد اتخذوا من بعض الأمور ــ عن جهل وقصور ــ ذرائع لمهاجمة هذا الدين فقد كتبنا عدة موضوعات تتناول موقف الإسلام من حكمة تعدد الزوجات ، ومن خرافة انتشاره بالسيف ، ومن الرق ، فالذى لاشك فيه أن التعدد أبيح ــ ولم يفرض ــ لحكمة اجتماعية سامية ، والذى لا شك فيه أيضا أن الإسلام انتشر بالعقيدة والتبشير والسماحة ، ومسلمو إندونيسيا والفلبين جنوبا ، وفنلندا ولتوانيا فى أقصى الشمال أكبر شاهد على ذلك ، والإسلام بعد ذلك محرر العبيد وليس داعية عبودية أو استرقاق ، دين لا يفرق بين أبيض وأسود فالكل عنده سواء ، لا فضل لمسلم على آخر إلا بالعمل الصالح .

كل ذلك تناولناه فى بسطة ضاربين الأمثلة متمثلين الأحكام التى لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها ، ورأينا أن يكون هذا الفصل التعريفى أولى بالتقدم والصدارة بين صفحات الكتاب .

هذا وكان شيخ الإسلام صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر الشيخ محمود شلتوت شيخ الجامع الأزهر على صلة بمولد هذا الكتاب وفكرته وهدفه ، وكان لايفتأ ــ حياه الله ــ*يدفعنى إلى إتمامه والانتهاء منه ، غير وان عن بذل النصح وحسن التوجيه ، فلما آتى البحث ثماره تفضل بتقديمه إلى جمهور القراء بالكلمة الرائقة الطيبة التى شرفنى وشرف الكتاب بها ، فلفضيلته جزيل الشكر منى ومن القراء ، وحسن الجزاء من الله ، وكتب الله له الصحة الوافرة والعافية السابغة .

ولما كان الفضل ينبغى أن ينسب إلى ذويه فإنى أشكر كل من تفضل بتقديم المساهمة بالفكرة أو المساعدة بالتوجيه ، وأخص بالشكر الأستاذ الجليل محمد المبارك عميد كلية الشريعة بجامعة دمشق ، والزعيم العربى اللبنانى السيد كمال

جنبلاط ، وسماحة الشيخ محمد أبو شقرا شيخ عقل الدروز ، والأستاذ الأديب محمد المجذوب .

وبعد فإنى أرجو أن أكون قد أصبت جانبا من التوفيق فى هذا العمل الذى ما ابتغيت من ورائه غير السعى بالإسلام إلى مدارج العزة وتنقيته من الأوشاب ولمّ الشمل وضمّ الجمع ورأب الصدع وتوحيد الصف فى ظل من نبل الغاية وسلامة القصد واستهداف الخير واستجلاب النفع وتقوية صفوف المسلمين الذين إن اجتمعوا على الخير نشروا راية العدل والسلام على ربوع العالمين ، وعاشوا سادة أعزة فى بلادهم يصلون الماضى بالحاضر ويربطون الحاضر بالمستقبل ، يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ، والله الموفق لما فيه السداد .

مصطفى محمد الشكعة

الدقي في
٢٧ من رمضان سنة ١٣٧٩ هـ .
٢٤ من مــارس سنة ١٩٦٠ م .



القسم الأول

ماهيـة الإســـلام



الإسلام دين الفطرة :

الإسلام دين الفطرة دون منازع أى أنه الدين الذى يتلاءم كل الملاءمة مع الخليقة ، ومن هنا صح لنا ولغيرنا أن نسميه دين البشرية ، وما كان الإسلام ليسمى دين البشرية اعتباطاً أو تحمسا ، ولكن ما جاء به هذا الدين من دستور يقبله العقل ، وهداية يستنير بها القلب ، وعمق يرتكز عليه الإيمان ، وتطور يصلح لكل زمان ومكان ، وشريعة تنظم أحوال المجتمع ، ومساواة تربط بين جميع الناس ، وتأمين للنفس البشرية يجعلها تطمئن إلى حياة أخرى تلقى النعيم بقدر ما قدمت من خير ، كل ذلك وغيره جعل الإسلام أقرب إلى طبيعة النفس البشرية دينا ترتضيه ، وسراجا تستهدى به ، وصمام أمان يرد على النفس طمأنينتها إذا هزها ريب أو اعتورتها شكوك .

فالإسلام عقيدة بوحدانية الخالق ، وإيمان برسالة محمد إلى الناس كافة ، تلك الرسالة التى أخرجتهم من الظلمات إلى النور ، ومن الضلال إلى الرشاد ، ومن الفوضى إلى النظام والاستقرار .

ويمتاز الإسلام عن غيره من الأديان بأن النفس متى ارتضته وآمنت بروحه واطمأنت إلى تعاليمه لا تحيد عنه أو ترتضى غيره بديلا ، ذلك لأنه أقرب إلى طبيعة النفس البشرية ، ولذلك فإننا لم نجد مسلما خرج عن إسلامه إلى غير الإسلام إلا

فى حالات نادرة لا يكاد يحسب لها حساب ، فهذه فرنسا على سبيل المثال قد استعمرت «الجزائر» منذ سنة ١٨٣٠ حتى الآن ، أى حوالى ١٣٠ سنة حاربت فيها الإسلام حربا لا هوادة فيها ، وبثت المبشرين فى جميع أصقاع تلك البلاد فما استطاعوا أن يخرجوا غير مسلم واحد عن دينه ، أي أن مائة وثلاثين سنة من هدم الإسلام والتبشير بالمسيحية لم تستطع أن تخرج من الإسلام إلا مسلما واحدا ، وهو فضلا عن كونه ثمنا باهظا ، يدل دلالة واضحة على أن المسلم لا يخرج من دينه أو عليه إلا في النادر جدا ، وما ذلك إلا لأنه أوفق دين للخليقة وأنسب عقيدة للإنسان ، فى حين نرى كل يوم عشرات من أبناء الديانات الأخرى إلى يومنا هذا يدخلون في الإسلام راضين متحمسين .

ومن هنا كان فضل الإسلام على الشعوب عظيما ، لقد مدن الإسلام كثيرا من الأمم ، بل ما من شعب اعتنق الإسلام إلا وسار فى مدارج الحضارة ، وآية ذلك واضحة في جزيرة العرب نفسها التى انتقلت بعد إسلام أهلها إلى أمة تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر وتنشر راية العرفان والإيمان خفاقة في جميع أنحاء الأرض ، ولم يعرف للعرب من الانتصارات الخاطفة والفتوحات الرائعة ما قد عرف لهم في إسلامهم ، ومعنى ذلك أن الإسلام صهرهم ونظم صفوفهم وصقل وحدتهم وجدد إيمانهم بأنفسهم فانطلقوا إلى ميدان الظفر والسيادة ، ينتقلون من نصر إلى نصر ويفتحون مصرا بعد مصر ، وما من شعب دخل في الإسلام أو ذهب الإسلام إليه إلا أصبح شعبا راقيا مفكرا ، زالت عنه غمة الجهل واستضاءت عقول أبنائه بنور الثقافة والمعرفة .

وجود الإلٰه الواحد وخلق الكون :

والإسلام يقول بوجود الإلٰه ويدعو إلى الاعتقاد به إلٰها واحدا لا شريك له ، خلق الكون وفطر السمٰوات والأرض .

والعقل السليم لا يستطيع أن ينكر وجود الخالق ، فالبديهيات الأولى تقول بأن لكل معلول علة ، وقياسا على ذلك كان لكل مخلوق خالق ، ولقد لجأ المفكرون إلى إثبات وجود الله بوسائل شتى عديدة ، لعل أيسرها طريقة الفيلسوف

ديكارت الذى توصل إلى معرفة الله عن طريق نفسه « الأنا » فحاول أن يكتشف مصباح « الأنا » وعلى نور هذا المصباح اكتشف كل « اللاأنا » .

وتتلخص فكرة ديكارت في أن كلا من المؤمن والكافر والشاك يقيم إيمانه أو كفره أو شكه على رأى صادر من عقله وفكره ، ومادمت أفكر أنا إذن موجود ، وإذا كنت موجودا فإما أن أكون أوجدت نفسي أو أوجدني غيرى ، فإذا كنت أنا الذي أوجدت نفسى فإن فيَّ عيوبا ونقائص لا بد من تلافيها كى أصل إلى الكمال ، ولكنني برغم شوقي إلى الكمال فإنى لا أستطيع تحقيقه ، ومادمت لا أستطيع تحقيقه فأنا عاجز . وما دمت عاجزا عن تحقيق الكمال لنفسى فأنا من باب أولى أشد عجزا عن خلقي نفسي ، وإذن فقد خلقني غيرى ، وهذا الغير لا بد أن يكون أكمل مني لأن الناقص لا يخلق ما هو أكمل منه ، ولا يمكن أيضاً أن يكون مماثلا لى ، فلم يبق إذن إلا المطلق وهو الواحد الخالق الأحد .

هذا التسلسل في إثبات وجود الله عن طريق النفس موجود في كتاب الله في قوله تعالى : ﴿ وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ ﴾ (١)

كما وجد فى آيات أخرى كثيرة مثل قوله تعالى : ﴿ وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلۡأَرۡضَ خَٰشِعَةٗ فَإِذَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡهَا ٱلۡمَآءَ ٱهۡتَزَّتۡ وَرَبَتۡۚ إِنَّ ٱلَّذِيٓ أَحۡيَاهَا لَمُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰٓۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ (٣٩) ﴾ (٢)

وقوله تعالى في سورة النحل : ﴿ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗۖ لَّكُم مِّنۡهُ شَرَابٞ وَمِنۡهُ شَجَرٞ فِيهِ تُسِيمُونَ (١٠) يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرۡعَ وَٱلزَّيۡتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلۡأَعۡنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ (١١)

(١) الذاريات : الآية ٢١ .
(٢) فصلت : الآية ٣٩ .

﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتٌۢ بِأَمْرِهِۦٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٢﴾ ﴾ (٣)

وما دام العقل قد توصل إلى معرفة الخالق الأعظم فإن الإنصاف يقضي بالإيمان به ، ومتى تم الإيمان به انتقل الإيمان إلى مرحلة أخرى وهى أن الكون جميعه من صنعه ، ولا يمكن أن يكون قد وجد بطريق المصادفة كما يذهب بعض من يعتبرون أنفسهم من المفكرين ، ذلك لأن المصادفة أمر أقرب إلى الخرافة ، وإن وجدت في حياة الناس في أمور يسيرة فلا يمكن أن تحدث في خلق الكون ، ذلك أن حدوثها في حياةالناس يكون في ظل الإيمان بوجود الله ، هذا لو ضربنا صفحا عن الرأي الذي ينكر المصادفة في جميع حالاتها إنكارا كليا .

والعقل السليم الذى توصل إلى معرفة الله لا يعجز أبداً عن الوصول إلى أن الكون هو المعلول الأكبر للخالق الأعظم ، إذ لا يمكن وجود شيء بدون صانع .

والقرآن الكريم يضرب المثال إثر المثال فى هذا الموضوع بما يسكن كل نفس جائشة ويهدي كل عقل به قصور أو شكوك ، فيقول تعالى في سورة البقرة :

﴿ إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٦٤﴾ ﴾ (٤)

أو قوله تعالى فى سورة ق : ﴿ أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ﴿٦﴾ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا

(٣) النحل : الآيات ١٠ ، ١١ ، ١٢

(٤) البقرة : الآية ١٦٤

مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ۝ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ۝ ﴾ (٥)

كل ذلك فضلا عن الآيات الكونية التي لم تكن معروفة التفسير حين نزل القرآن الكريم ، لأن العلم لم يكن قد ارتقى إلى مستوى هذه الأيام ، ولم يكشف عن معاني تلك الآيات إلا التقدم الباهر الذي أحرزه العقل البشري في عالمنا الحديث . فمن تلك الآيات قوله تعالى : ﴿ وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ ۝ ﴾ (٦) أو قوله تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا ﴾ (٧)

الحق أن الإيمان بوجود الله الواحد عدل ومنطق وكما لابد للرسالة من رسول فقد اصطفى الله من خلقه أنبياء ورسلاً آخرهم محمد بن عبد الله ، الذى أنزل الله عليه القرآن وأفاء عليه رسالة الإسلام لكى ينشرها على الناس هدى وعدلا وأماناً ونوراً .

سماحة الشريعة الإسلامية :

الإسلام عقيدة وشريعة ، فالعقيدة هي الإيمان بالله إلٰها واحدا خالقا للكون لا شريك له ، وبمحمد رسولا منه إلى الناس كافة ، والإيمان بالأنبياء والرسل جميعا

واليوم الآخر وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وصوم رمضان وحج البيت على النحو المعروف والمذكور مفصلا تفصيلا جميلا في كتب الفقه وأحكام الفرائض وفضائلها .

---

(٥) ق : الآيات ٦ – ٨ .
(٦) النمل : الآية ٨٨ .
(٧) الأنبياء : الآية ٣٠ .

فالإسلام لسماحته واتساع أفقه لم يقف من الأديان السماوية السابقة له وقفة تحد أو نكران أو جحود ، وما كان له أن يقف ذلك الموقف ، لأنه من عند الله الذي أرسل الرسل وأنزل الشرائع السابقة له ، فعقيدة الإسلام شقيقة للعقائد السماوية السابقة ، وكلها تدعو إلى الخير وتنهى عن الفحشاء والمنكر ، وإنما جاء الإسلام فاستكمل ما يحتاجه تقدم الزمن من تطور في الفكرة الأزلية ملائما للزمان الذي نزل فيه والأزمان اللاحقة به ، وقد جمعت الآية الكريمة هذه المعاني في قوله تعالى في سورة البقرة : ﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ﴾[8]

هذا والإسلام في كل ذلك لا يدخل الناس إلى حوزته قهرا أو قسرا فيقول تعالى في سورة النحل : ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ﴾ [9]

ويقول في سورة البقرة : ﴿ لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ ۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ ۚ ﴾ [10]

هذا من حيث الدعوة الموجهة إلى العامة ، فإذا ما كان الأمر متعلقا بأهل الكتاب طلب الإسلام من المؤمنين زيادة من التلطف ومزيدا من إظهار المودة وحسن المجادلة « ولا تُجَادِلُوا أهْلَ الكتابِ إلّا بالّتِي هىَ أحْسَن » .[11]

— وأما شريعة الإسلام وما قد اشتملت عليه من معاملات وربط علاقات الناس بعضهم ببعض ، ونظام الأسرة والمواريث والوصية ، فقد شهد أساطين رجال القانون من الأوربيين أنها أسمى الشرائع جميعا في هذه الناحية ، ومن المعروف أن المشرعين الفرنسيين حينما وضعوا القانون الفرنسى كانوا يستحضرون أمامهم كتب

---

(٨) انظر أيضا الآيات ٤ ، ١٣٦ البقرة — والآيات ١٥٠ ، ١٥٢ النساء .

(٩) الآية ١٢٥ .

(١٠) الآية ٢٥٦ .

(١١) العنكبوت : الآية ٤٦ .

الشريعة الإسلامية يأخذون منها بين الحين والحين ما يطيب لهم من نصوص أو يروق أمامهم من أحكام ، ولولا المكابرة لأخذوا كل مواد قانونهم من الشريعة الإسلامية ، على أن المنصفين منهم لا يفتأون يكررون في كتبهم ومقالاتهم ومحاضراتهم أن الشريعة الإسلامية هي أم الشرائع وأسماها وأقومها .

وإذا لم يكن هذا الكتاب كتاب شريعة إلا أن طبيعة هذا التمهيد تقتضينا أن نقف مع هذه الشريعة السمحة بعض الوقفات نستشف من خلالها المدى البعيد الذى أثر في بناء المجتمع فجعلها بحق سيدة الشرائع . فنظام التوريث في الإسلام قد بنى على أسباب من الحكمة تنظم توزيع تركة المورث تنظيماً عادلا منطقيا لا قبض فيه ولا إسراف ، فهو يحول دون تجمع الثروة فى أيد قليلة ، كما يحدث فى بعض النظم التى تخص الابن الأكبر وحده بكل الميراث ومن عداه من أخوته ، وأخواته يعيشون في ظل الحاجة والفاقة والحرمان فيكونون معاول هدم في جسم المجتمع ، ومن أجل ذلك أيضا هذب الإسلام نظام الوصية فمنع المورث من أن يوصى لأحد من ورثته .

وقد توخى الإسلام فى نظام التوريث العدل بالنسبة للرجل والمرأة وراعى أثر كل منهما فى حياة الأسرة والمجتمع ، فلما كانت أعباء المرأة ونفقتها ومطالب أولادها كلها محمولة على عاتق الرجل ، كان من العدل أن ينال الرجل من الميراث ضعف ما تناله المرأة «ولِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الأُنْثَيين» أما بقية التوزيع ونعنى به المستحقين من أفراد الأسرة الآخرين فإنه قد تم وفقا لدرجة القرابة ومدى قربها أو بعدها بالنسبة إلى المورث .

ولعل من الأمور التى تنفرد بها شريعة الإسلام دون بقية الشرائع مسألة نظام المحارم فى الزواج . فالإسلام لا يبيح الزواج من الأقربين إلا الذين يعدون فى حكم الغرباء ، وقد أثبت العلم حديثا أن الزواج من الغرباء فيه فائدة محققة للنسل ، فضلا عن اتساع نطاق الأسرة حينما ترتبط النسب بأسرة أخرى بعيدة ، وإن أروع تجميع للمحارم هو ما قد تضمنته هذه الآية الكريمة من سورة النساء :

﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَٰتُكُمْ وَعَمَّٰتُكُمْ وَخَٰلَٰتُكُمْ وَبَنَاتُ ٱلْأَخِ وَبَنَاتُ ٱلْأُخْتِ وَأُمَّهَٰتُكُمُ ٱلَّٰتِىٓ أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَٰتُكُم مِّنَ ٱلرَّضَٰعَةِ وَأُمَّهَٰتُ نِسَآئِكُمْ وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِى فِى حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ ٱلَّٰتِى دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمْ تَكُونُوا۟ دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَٰٓئِلُ أَبْنَآئِكُمُ ٱلَّذِينَ مِنْ أَصْلَٰبِكُمْ وَأَن تَجْمَعُوا۟ بَيْنَ ٱلْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٢٣﴾ ﴾ (١٢)

إن مثل هذا التدرج فى درجات المحارم لا يمكن أن يرتفع إلى مستواه ترتيب يأتى من بشر ، إنها رسالة السماء وترتيب السماء ، والخروج عنه حيوانية أو أقرب إلى الحيوانية ، أو بعبارة أخرى وثنية أو أقرب إلى الوثنية ، فإن من الوثنيين من قد تزوجوا أخواتهم ، مثل تحتمس فرعون مصر الذى تزوج من أخته حتشبسوت ، أو مثل بعض اليهود الذين يتزوجون من بنات أخواتهم .

ولعل دينا لم يقدر للوالدين حقهما ويرعىٰ حرمتهما كما فعل الإسلام ، فهو يوصى برعاية ذمامهما حتى ولو كانا مشركين ، ويفصل أفضالهما تفصيلا فيه تذكير بما قدماه من رعاية فى عهد الطفولة والصبا ، وحق لهما أن يرد إليهما الجميل فأوصى بهما فى سورة لقمان : ﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٤﴾ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ ﴾ (١٣)

وقوله تعالى فى سورة الإسراء : ﴿ ۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ

---

(١٢) الآية ٢٣ .

(١٣) الآيتان ١٤ ، ١٥ .

﴿ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا ﴿٢٤﴾ ﴾ (١٤)

بهذه الوصايا الإلهية الخالدة وغيرها من آيات القرآن وأحاديث رسول الإسلام أوصى الإسلام وألح فى وصايته بمعاملة الوالدين أكرم معاملة وأمثلها .

مرونة الإسلام :

ويتميز الدين الإسلامى بمرونة تحببه إلى النفس البشرية العاقلة ، وإذا كانت بعض فترات من التاريخ نسب الإسلام فيها ــ ظلما ــ إلى الجمود ، فإن ذلك لم يكن للإسلام ذنب فيه ، وإنما الذنب كان ذنب بعض المسلمين الذين جمدوا وتحجروا فالتصقت التهمة بالإسلام دون الجامدين من المسلمين ، وكيف يكون الإسلام جامدا وهو الصالح لكل زمان ومكان ؟! وآية ذلك اعترافه بالعقل وتقديسه له ، وهو فى ذلك وحيد بين الأديان جميعا سماويها وأرضيها ، ففى الحديث الصحيح :

«**ما اكتسب رجلٌ مثلَ فضل عقل يَهْدِى صاحِبَهُ إلى هُدى ، ويرُدُّه عنْ ردًى ، وما تمَّ إيمانُ عبدٍ ولا استقام دينُهُ حتى يكْمُلَ عَقْلُه**» ، وفى الحديث الصحيح أيضا : « **لِكلِّ شىءٍ دعامة ، ودعامة المؤمنِ عَقْلُه ، فبقدر عَقْلِهِ تكونُ عِبادَتُه ، أَمَا سمِعْتُم قولَ الفُجَّار فى النار : « لو كنَّا نَسْمَعُ أو نعْقِلُ ما كُنَّا فى أصْحابِ السعِير** » .

وفى الحديث أيضا : «**أولُ ما خَلَقَ الله العقْلَ ، فقال لَهُ أقْبِلْ فأقْبَل . ثم قال له أدْبِرْ فأدْبَر ، ثم قال له عزَّ وجل : وعِزَّتى وجَلَالى ما خَلَقْتُ خلْقًا أكرم علىَّ منْك ، بكَ آخذ ، وبك أُعْطِى ، وبِكَ أُثِيب ، وبكَ أعاقب**» .

(١٤) الآيتان ٢٣ ، ٢٤ .

والعقل المقصود هنا هو عقل الإنسان بطبيعة الحال ، ومن هنا كان الإسلام معظما للعقل حافظا له قدره ، باعتباره محققا للعدالة السماوية منفذا للإرادة الالهية .

وفى الوقت الذى يحتفظ فيه الإسلام للعقل الإنسانى بمكانته السامية لا يفتأ يذكره بقوة الخالق وعظمته موجها إليه الخطاب فى سورة إبراهيم :

﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ ﴿٣٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ﴿٣٣﴾ وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ۚ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ﴾ (١٥)

لا تفريط ولا إفراط ، لله ملكه وعظمته ، وللعقل الإنسانى تقديره ومكانته .

ولم يقف الإسلام من العلم إلا موقف التقدير والإعظام ، وحض المسلمين على طلبه والاغتراب فى سبيل تحصيله ، فالقرآن كتاب الإسلام المجيد يقول :

﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (١٦)

﴿ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا ﴿١١٤﴾ ﴾ (١٧)

﴿ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ ﴾ (١٨)

وأحاديث الرسول فى طلب العلم كثيرة منها قوله عليه الصلاة والسلام : « **طلب العِلم فريضة على كل مسلم** » ، ومنها : « **من سُئل عن عِلم فكتمه أَلْجَمَهُ الله يوم القيامة بلجام من نار** » .

---

(١٥) الآيات ٣٢ - ٣٤ .
(١٦) الزمر : الآية . ٩
(١٧) طه : الاية ١١٤ .
(١٨) آل عمران : الآية ٧ .

والعلم الذى يقصده القرآن والحديث هنا ليس ــ كما يذهب البعض ــ العلوم الدينية وحدها ، ولكنها المعرفة بمختلف آفاقها وفنونها وميادينها ، حتى إن حديثا ينسب إلى الرسول الكريم يحض على طلب العلم ولو فى الصين ، ومعروف بداهة أن علوم الدين لا تطلب فى الصين ، وإنما العلم المقصود هنا هو العلم بمفهومه العام ، من فلسفة وطب وهندسة وكيمياء ورياضة وغيرها ، والإسلام يؤمن بالعلم والعلماء حيث كرمهم الله فى قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ ﴾

وإن المنصفين من المؤرخين والمثقفين الأجانب يعترفون بأن الإسلام فى عصوره الذهبية كان الحفيظ الوحيد على تراث الفلسفة اليونانية ، بل إن فلاسفة المسلمين قد أقبلوا على هذه الفسلفة وهضموها وزادوا عليها ، من أمثال الفارابى وابن سينا فى المشرق ، وابن رشد وابن الطفيل فى الأندلس ، هذا فضلا عن أن الإسلام حافظ على حضارة الفرس وحكمة الهند ، وانتفع بها المسلمون بعد أن ترجموها عن لغاتها الأصلية .وأخذوا منها ما يتلاءم مع عقيدتهم .

والأمر الذى لا شك فيه أن الإسلام قد مدن العرب ووسع مداركهم ، بل مدن كل الشعوب التى استضاءت بنوره وانتفعت بهدايته فى أنحاء الأرض ، من حدود الصين شرقا إلى المحيط الأطلسى غربا إلى الأندلس شمالا ، وقد كان أبناء الأوربيين يفدون على جامعاته فى الأندلس ويتعلمون العربية أولا ثم يتتلمذون على العلماء المسلمين ، فى وقت كانت جامعات الإسلام فى الأندلس وبغداد منارة العلم وراية العرفان .

والإسلام ــ وهو دين السماحة ــ يحترم العلم والعلماء ، سواء كانوا مسلمين أو نصارى أو يهودا أو حتى من المجوس ، فقد كان جيورجيس بن بختيشوع الفيلسوف الطبيب النصرانى من أقرب العلماء إلى قلب المنصور العباسى ، كما كان نوبخت وولده سهل الفارسيان المجوسيان من أقرب الناس إليه ، وكانا منجمين ، وقد أسلمت ذرية سهل فيما بعد . وقد وكل الرشيد إلى يوحنا

ابن ماسويه ديوان الترجمة ، وظل فى خدمة الخلفاء العباسيين حتى عهد المتوكل ، وأما المأمون فقد ولى يوحنا البطريق أمانة ديوان الترجمة ، كما قرب إليه سهل بن سابور وابنه سابور بن سهل ، وكانا فيلسوفين طبيبين نصرانيين .

والأمثلة على تشجيع الإسلام للعلم واحتضان الخلفاء للعلماء من كل دين وملة كثيرة عديدة يصعب حصرها ، ويقف الإسلام من العلوم المختلفة ويقف العلماء المسلمون منها موقف المحافظ عليها الأمين على كنوزها ، في الوقت الذى يفتي البابوات في أوربا بحرمان العلماء حينا وحرقهم بالنار أحيانا أخرى .

التكافل الاجتماعى :

ليس هناك أدنى شك في أن التساوي المطلق من الناحية المالية ممتنع بطبيعته بين الناس ، إذ لا بد من فروق بين الناس تضيق حينا وتتسع أحيانا ، وقد جرى الإسلام على تضييق هذه الهوة بقدر الإمكان ، فلا يموت الفقير جوعا ولا يهلك الغني تخمة ، من أجل ذلك فرض الإسلام الزكاة والضرائب على مختلف أنواع الثروات ، لكي يحول دون تضخم الثروات تضخما يضر بالمجتمع الإسلامى من ناحية ، ويسد حاجات الفقراء والمعوزين من ناحية أخرى . فلا يبيت فقير جائعا ولا يمشي معسر عاريا .

والنظام الضريبي الإسلامى نظام بديع سبق كثيرا من التشريعات الضرائبية الحديثة ، يشمل الخراج وما يخرج من باطن الأرض من المعادن ، والصيد البرى والبحري ، والجمارك ، وضرائب الحوانيت والمتاجر وغيرها .

أما الزكاة فهى ركن من أهم أركان الإسلام ، وهى تأتي في الترتيب بعد الصلاة مباشرة ، فإذا كانت الصلاة آية إصلاح نفس المسلم ووصله بربه ، فإن الزكاة آية إصلاح المجتمع الإسلامى ، لأنها تقلل الفروق بين المسلمين وتقرب الطبقات بعضها من بعض ، وقد تشدد أبو بكر الخليفة الأول في معاملة الممتنعين عن أدائها واعتبرهم مرتدين عن الإسلام ، وأرسل في حربهم ورد على معارضيه من المسلمين في حرب مانعي الزكاة بقولته المشهورة : « والله لو منعوني عقال بعير كانوا يؤدونه لرسول الله لحاربتهم عليه حتى يؤدوه » .

وإذا كانت الضرائب تجبى في رؤوس الأموال وحسب ، فإن الزكاة تفرض على الأموال المنقولة نفسها ، أى الأموال المعطلة عن العمل حتى إن هذه الأموال المعطلة إذا لم تستغل يمكن أن تستهلك زكاة في خلال أربعين عاما ، باعتبار أن الزكاة السنوية تساوي ربع العشر .

وقد اهتم الإسلام بالفقير والشيخ العاجز والمرأة والطفل اليتيم اهتماماً كبيراً ، فحرص على كفالتهم فجعل الكفارة عن كثير من الخطايا بالتصدق على الفقراء ، كما حتم على الأغنياء أن ينفقوا على أقاربهم من الفقراء والعاجزين ، وهو مازال معمولا به في قوانيننا للأحوال الشخصية حتى الآن ، فالرجل الميسور الحال ملزم بالإنفاق على قريبه الفقير .

والإسلام يلزم الدولة بكفالة العاجز عن الكسب والمرأة المقطوعة من الأهل ، والشيخ الكبير والطفل اليتيم ، ولا يقف الأمر عند كفالة الدولة للمسلم ، بل إن كفالة غير المسلم واجبة ، فقد رأى عمر بن الخطاب شيخا من غير المسلمين يتسول في الطريق فأسف لحاله وقرر له نفقة من بيت المال ، وقال موجها كلامه إلى الفقير الذمي : « ما أنصفناك إذ أخذنا منك الجزية وأنت شاب وتركناك تتسول وأنت شيخ » ولعلنا نفهم من ذلك أنه لم يكن على عهد عمر — أى على عهد انتظام الزكاة واطراد دفعها إلى بيت المال — متسول واحد لا من المسلمين ولا من غير المسلمين ، فأى مجتمع كريم كان ذلك المجتمع ، ولكن السر الكبير يكمن في صلب شريعة الإسلام وروح تشريعه ، فالقرآن الكريم — دستور الإسلام — حافل بالآيات الكريمة الجليلة التي تحبب إلى الإنفاق والعطف على الفقراء : ﴿ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّا۟ئَةُ حَبَّةٍ ۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦١﴾ ﴾ (١٩)

﴿ فَـَٔاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ

(١٩) البقرة : الآية ٢٦١ .

﴿ ... وَجْهَ ٱللَّهِ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٣٨﴾ ﴾ (٢٠)

﴿ وَٱلَّذِينَ فِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ﴿٢٤﴾ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴿٢٥﴾ ﴾ (٢١)

﴿ لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ ۚ ﴾ (٢٢)

﴿ وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِى نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ ۖ هَـٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾ (٢٣)

فالقرآن الكريم عمد إلى الترغيب كما عمد إلى الترهيب فى صدد الإنفاق على الفقراء من ذوي القربى والغرباء ، وإذا كان قد حسّن التصدق فإنه قد هدد الممسكين ، ومعنى ذلك أن الصدقة فرض على الغني برغم أنه ليس هناك من الناحية الشكلية ما يلزم بها ، إلا أن آيات الترغيب ، بالإضافة إلى آيات الترهيب تكاد تجعلها فريضة فى مستوى الزكاة .

حبذا لو طبقنا مبدأ الزكاة كما كان يطبق في عصر عمر إذن لما رأينا فقيرا ولا بائسا ولا محروما .

الشورى في الإسلام :

ليس من شك أبدا في أن الإسلام دين ودولة ، ومهما حاول بعض المتطرفين في أفكارهم التي قد تأثرت بمذاهب تسعى إلى هدم الإسلام باعتباره الخط الدفاعي

---

(٢٠) الروم : الآية ٣٨ .
(٢١) المعارج : الآيتان ٢٤ ، ٢٥ .
(٢٢) آل عمران : الآية ٩٢ .
(٢٣) التوبة : الآيتان ٣٤ ، ٣٥ .

الأول ضد الاستعمار ، أقول مهما حاول هؤلاء — عن قصد حينا أو غفلة حينا آخر — أن يقللوا من شأن الإسلام في بناء الدولة ، فإن ذلك لا يغير من طبيعة الأمر الواقع شيئا ، فالذي لا شك فيه أن أسمى وسيلة لحكم الرعية كان الإسلام أول محتضن لها ومبشر بها ، ونعني بها الشورى ، ولعل الإسلام هو الدين الوحيد الذي دعا إلى الشورى في الحكم ، وهو بها يفرض نفسه — في جدارة وعدل — على نظام الدولة وطريقة الحكم فيها ، وقد ردد القرآن الكريم هذا الاتجاه في أكثر من موضع فى قوله تعالى: ﴿ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ ﴾[٢٤] ﴿ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ ﴾[٢٥]

فهذه الديمقراطيات المعاصرة جميعا ، والتي تتغنى الشعوب بها وتمجدها وتحارب في سبيلها ، قد وطدها الإسلام قبل اليوم بأربعة عشر قرنا من الزمان ، ولذلك فإن نظام الحكم في الإسلام يقوم على انتخاب الخليفة الذي يشترك الناس في انتخابه انتخابا حراً لا زيف فيه ولا تزوير ، وإن الخلافة لا تكون صحيحة إلا إذا كانت نتيجة لبيعة حرة .

والخليفة برغم أنه بحكم مركزه يعتبر الحاكم الأعلى للمسلمين . فإنه لا يظلم ولا يستبد ، ولكن عليه أن يستشير عقلاء الأمة ومفكريها وينزل على حكمهم ، ثم هو بعد ذلك يعتبر نفسه خادما للناس لا سيدا على الناس ، فهذا أبو بكر الصديق الخليفة الأول يقول فور انتخابه موجها خطابه إلى المسلمين : « أيها الناس : قد وليت عليكم ولست بخيركم ، فإن رأيتموني على حق فأعينوني . وإن رأيتموني على باطل فسددوني . أطيعوني ما أطعت الله فيكم ، فإن عصيته فلا طاعة لي عليكم » وفي مقام آخر يقول : « إنما أنا متبع ولست بمبتدع ، فإن استقمت فتابعوني ، وإن زغت فقوموني » .

هذا كلام جميل وتشريع جليل ومنتهى ما يصبو إليه الإنسان في توخي الديمقراطية في الحاكم العادل الذي يدعو الناس إلى اتباعه ماكان الحق رائده . فإن انحرف طلب إليهم أن ينصرفوا عنه .

---

(٢٤) الشورى : الآية ٣٨ .

(٢٥) آل عمران ؛ الآية ١٥٩ .

ولم يكن أبو بكر وحده صاحب مثل هذا القول ، فكذلك كان عمر الخليفة الثاني ، نعم كان عمر كذلك لأن شريعة الإسلام تقتضي ذلك ، فما كاد يلي أمر المسلمين بعد أبي بكر حتى خطب الناس قائلا : « أيها الناس إن رأيتم فيّ اعوجاجا فقوموني » فنهض رجل من عامة المسلمين قائلا له : « والله لو رأينا فيك اعوجاجا لقومناك بسيوفنا » فلا يغضب عمر ولا يرى في هذا القول الجاف ما يخدشه أو يجرحه كخليفة للمسلمين بل يتقبل القول راضيا قرير العين قائلا : « الحمد لله الذي جعل في أمة محمد من يقوم أمير المؤمنين بسيفه » .

ولما كانت الشورى تقتضي أن يختار المسلمون حكامهم فقد انعدم نظام وراثة الحكم فى الشريعة الإسلامية ، وأصبح الخليفة ينتخب طول حياته مع حق المسلمين في عزله أو خلعه فإذا مات تجمع المسلمون لانتخاب غيره ، وظل الأمر كذلك في الخلفاء الراشدين : أبي بكر وعمر وعثمان وعلي ، حتى جاء معاوية بن أبى سفيان وخرج على نظام الشورى في الإسلام وجعل الأمر وراثياً فى أبنائه من بعده ، فكان أول مغيّر لأعظم نظام للحكم وجد على ظهر الأرض ، فانتقل النظام من الخلافة الشورية إلى الملك الوراثي الذي لا يتفق مع الإسلام ، لا في نصه ولا في روحه .

وهكذا كان الإسلام دين الشورى ، وكان الخلفاء يستعينون بالعقلاء في حل ما يستعصى من الأمور ، وكان الخليفة إذا أخطأ لا يجد غضاضة في أن يعترف بخطئه ويتبع الصواب ، وليس هناك أدل على ذلك من قولة عمر المشهورة : « أخطأ عمر وأصابت امرأة » .

لا جرم إذن أن يقال إن الإسلام أبو الديمقراطيات .

المساواة في الإسلام :

لعل من أسمى مبادئ الإسلام تلك المساواة التي قد اشترعها للناس جميعا ، فالكل سواء ، لا فرق بين أبيض أو أسود ، ولا أصفر أو أحمر ، ولا غني ولا

فقير ، ولا ملك ولا حقير ، وإنما أفضل الناس أقربهم إلى التقوى وأفعلهم للخير ، ويسجل القرآن الكريم هذا الدستور العظيم في قوله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ ﴾ (٢٦)

وفى قوله تعالى : ﴿ مَن يَعۡمَلۡ سُوٓءٗا يُجۡزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدۡ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيّٗا وَلَا نَصِيرٗا ﴿١٢٣﴾ وَمَن يَعۡمَلۡ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ وَلَا يُظۡلَمُونَ نَقِيرٗا ﴿١٢٤﴾ ﴾ (٢٧)

ويؤكد الرسول الكريم هذه المساواة المطلقة بين الناس جميعاً من كل لون وجنس في قوله الشريف : « **الناس سواسية كأسنان المشط لا فضل لعربي على أعجمي إلا بالتقوى** » فالإسلام ممثلا في شريعته السمحة يؤكد احترام الناس وضمان حريتهم وتقديس إنسانيتهم بوقوفهم أمام القانون سواء ، لا يفضل أحدهم الآخر إلا باحترامه للقانون وإقدامه على فعل الخير وبعده عن الشر والإثم .

ويؤكد هذه المساواة أن لا شفاعة لمجرم وأن لا تغاضي عن آثم ، وقد أراد أسامة بن زيد وقد تربى في بيت الرسول ، وكان قريباً إلى قلبه ، أن يشفع لفاطمة بنت الأسود المخزومية وكانت قد ضبطت متلبسة بجريمة السرقة ، فغضب النبي وأنكر الشفاعة ووجه الحديث إلى أسامة فى غضب : « **أتشفع في حد من حدود الله ؟** » ثم قام النبي بعد ذلك فخطب الناس قائلاً : « **إنما أهلك الذين من قبلكم أنهم كانوا إذا سرق الشريف تركوه وإذا سرق الضعيف أقاموا عليه الحد . وايم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها** » وليس من شك في أن المساواة أساس العدالة في المجتمع .

---

(٢٦) الحجرات : الآية ١٣ .

(٢٧) النساء : الآيتان ١٢٣ ، ١٢٤ .

وأبو بكر الصديق يؤكد هذا المعنى ، أي معنى المساواة ، في أول خطبة خطبها وقد ولي أمر المسلمين ، لأنه يعلم أنه حيث تفتقد المساواة تفتقد العدالة ، وحيث تفتقد العدالة ينهار المجتمع . يقول أبو بكر : « أيها الناس : إنه والله ما فيكم أحد أقوى عندي من الضعيف حتى آخذ الحق له ، ولا أضعف عندي من القوى حتى آخذ الحق منه » .[٢٨]

وتطبيقاً لهذه القاعدة العظمى ما حدث لجبلة بن الأيهم الملك الغساني وقد دخل الإسلام وجاء إلى مكة في خمسمائة فارس من قومه وقد لبسوا ثياب الوشي المنسوجة من الذهب والفضة ، وفي أثناء الطواف بالبيت العتيق داس رجل من فزارة على إزار جبلة فحله فالتفت إليه جبلة مغضباً فلطمه فهشم أنفه ، فذهب الفزاري إلى عمر بن الخطاب شاكياً ، فبعث عمر إلى جبلة وسأله عن سر اعتدائه على الفزاري ، فأجاب جبلة قائلاً : إنه وطئ إزاري فحله ولولا حرمة هذا البيت لأخذت الذي فيه عيناه ، فقال عمر : أما أنت فقد أقررت ، إما أن ترضيه وإلا أقدته منك .. قال جبلة : أتقيده مني وأنا ملك وهو سوقة ؟! قال عمر : ياجبلة إنه قد جمعك وإياه الإسلام فما تفضله بشيء إلا بالعافية ، قال جبلة : والله لقد رجوت أن أكون فى الإسلام أعز مني في الجاهلية ، قال عمر : دع عنك هذا ، قال جبلة : إذن أتنصر ، قال عمر : إن تنصرت ضربت عنقك . قال جبلة : أخرنى إلى غد يا أمير المؤمنين ، فأجابه عمر إلى طلبه ، فلما كان الليل هرب هو وفرسانه وظلوا يضربون في الأرض حتى دخلوا القسطنطينية فتنصروا وعاشوا فى حماية هرقل ، وبعد مدة من الزمان حن جبلة إلى الإسلام الذى سوى بين الناس وندم على فعلته وبكى قائلا :

تنصرت الأملاكُ من خَوْفِ لطمةٍ
ومـا كان فيها لو صبرْتُ لها ضررْ
تكنّفنـــي منها لِجَـــاجٌ ونخوةٌ
وبِعْتُ لها العينَ الصحيحة بالعَوَرْ

---

(٢٨) العقد الفريد ٥٩/٤ وعيون الأخبار ٢٣٤/٢

فيا ليت أمي لمْ تلدْني وليتني
رجعتُ إلى القوْلِ الذي قاله عُمَرْ
وياليتني أرعَى المخاضَ بقفرةٍ
وكنتُ أسيراً في ربيعةَ أو مُضَرْ
وياليتَ لي بالشامِ أدْنَى معيشةٍ
أجالسُ قومي ذاهبَ السمْعِ والبصرْ

وهكذا تسوى العدالة الاجتماعية في الحق بين الملك والصعلوك ، وتصر على إنصاف المظلوم مهما صغر شأنه من المعتدي ولو كان ملكاً .

هذه العدالة المطلقة والمساواة المطلقة مبدأ من مبادئ الإسلام المقدسة ، فأين منها مبادئ الأخلاق في الفلسفة اليونانية عند أرسطو الذي يطلقون عليه اسم المعلم الأول ؟!

إن أرسطو في الكتاب الخامس من الأخلاق يضع مبدأ التفريق الاجتماعي بصراحة وعنده ما يسمى بالعدالة التوزيعية ، وهي التى ترشد الدولة في توزيع الرتب والألقاب والأموال ، وهي عدالة تعتمد على مبدأ التفريق بين الناس ، وتنمي التمييز بين طبقات المجتمع ، وظل هذا التمييز الطبقي قائماً يفرق بين الناس باسم علم الأخلاق لفترة طويلة من الزمان .

وثمة عنصر هام في المساواة في الإسلام لا ينبغي أن نمر عليه مر السحاب ، بل ينبغي أن نقف عنده طويلاً ، لأنه ينم عن أصالة في مبدأ المساواة في الإسلام والعدالة الشاملة التي لا يأتيها الظلم من بين يديها ولا من خلفها ، ذلك العنصر الهام هو عنصر المساواة بين المسلمين وغير المسلمين مساواة تامة ، والعيش معهم في سلام ووئام ، والحفاظ على جوارهم ، والمحافظة على أموالهم وأعراضهم وحرماتهم ومقدساتهم ينتظم هذا المبدأ قوله تعالى : ﴿ لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ۝ ﴾(٢٩)

(٢٩) الممتحنة : الآية ٨ .

وليس التشريع في ذلك آية مكتوبة في كتاب الله وحسب ، بل إن ذلك نزل إلى ميدان التطبيق العملي ، فقصة ابن عمرو بن العاص مع المصري القبطي معروفة حين اعتدى ولد لعمرو بن العاص إبان حكمه مصر على أحد المصريين فهدده القبطي بشكايته لأمير المؤمنين ، فلم يأبه ابن عمرو لذلك وقال : أنا ابن الأكرمين ، فلما كان موسم الحج — وقد ذهب عمرو وابنه إلى مكة — كان القبطي في إثرهما ، ودخل إلى الخليفة وعنده عمرو وولده ، فشكا إليه ما قد وقع عليه ، وأعاد على سمع أمير المؤمنين كلمة ابن الأكرمين ، فغضب عمر بن الخطاب غضباً شديداً ، ونظر إلى عمرو قائلاً جملته الخالدة : « متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً » ثم ناول الشاكي سوطاً وقال له : اضرب ابن الأكرمين كما ضربك .

ومن تقديس الإسلام للمساواة بين المسلم وغير المسلم أن كان يقف الصحابي الجليل على قدم المساواة في مقام الشكوى مع غير المسلم حتى يقضي لأحدهما ، ومن القصص الجليلة تلك التي ذهب فيها يهودى إلى عمر يشكو علي بن أبي طالب لأمر من الأمور ، فلما مثل عليّ أمام الخليفة لاحظ أن الخليفة يخاطبه بكنيته بقوله يا أبا الحسن ، فاكتسى وجه علي بمسحة من الغضب ، فقال عمر : أكرهت أن يكون خصمك يهودياً وأن تمثل معه أمام القضاء علي قدم المساواة ؟ فأجاب عليّ : لا ، ولكننى غضبت لأنك لم تسوِّ بينى وبينه بل فضلتني عليه إذ خاطبته باسمه وخاطبتني بكنيتي .

وهكذا يأبى عليّ وهو المشكوّ منه إلا أن يحافظ على روح المساواة في موقف القضاء ، فلا يرتضي أن يخاطبه أمير المؤمنين بكنيته ، لأن فيها معنى التوقير والتقريب ، لكي يطمئن اليهودي إلى أن الحكم الذي سيصدره الخليفة سيكون خالياً من الهوى .

ولقد مر بنا أن مساواة غير المسلمين بالمسلمين كانت مطلقة حتى في الصدقات حينما وجد عمر ذمياً مسنًّا يسأل الناس ويتسول في الطريق فظهر عليه الأسف وأمر له بمرتب دائم من بيت المال وقال : « ما أنصفناك إذ أخذنا منك الجزية وأنت شاب وتركناك تتسول وأنت شيخ » .

أين من هذه المساواة المطلقة الأصيلة المساواة بين المواطنين في الوطن الواحد في الدول التي تتغنى بالتقدم والمدنية والديمقراطية الحديثة .

إن جرائم التفرقة العنصرية في كثير من الدول الكبرى في عصرنا لمما يندي له جبين الديمقراطية خجلاً واستحياء ، ففي جنوب إفريقيا نجد البيض الوافدين يمتهنون الملونين ، وهم سكان البلاد الأصليين ، ويحرمونهم من حقوقهم المشروعة في الحياة ، ولا يسمحون لهم بالتردد على مطاعمهم أو مقاهيهم أو السكن في أحيائهم ، بل ويحرمونهم من حقوقهم الدستورية كمواطنين أصليين في البلاد .

وفي أستراليا ونيوزيلندا يعمد الإنجليز إلى إبادة السكان الأصليين للقارة لأنهم ليسوا من البيض ، وقد ظلوا يستعملون سلاح الإبادة والتقتيل بالجملة حتى كاد الجنس الاسترالي يفنى .

وفى إنجلترا قامت في الشهور الأخيرة حركة اعتداء منظمة على أرواح السود ، ففي كل يوم يعثر البوليس على قتيل أو أكثر ملقى في الطرقات ، وكثيراً ما قامت المظاهرات تطالب بالموت للسود تحت سمع « صاحبة الجلالة الملكة الديمقراطية » وتحت سمع حكومتها « العريقة »في الاعتداء على الشعوب .

فإذا ما انتقلنا إلى الولايات المتحدة الأمريكية وجدنا أشنع جريمة في حق الإنسانية ترتكب علنا فى البلاد التي تضم مبنى هيئة الأمم المتحدة التي تتغنى بما يسمى ميثاق حقوق الإنسان .

إن الأمريكيين في الولايات المتحدة قد أفنوا السكان الأصليين للبلاد المعروفين باسم الهنود الحمر إفناء كاملاً ، ثم التفتوا إلى المواطنين الملونين أو السود وأهدروا مظاهر إنسانيتهم إهداراً كاملاً ، فالأسود لا يتعلم في مدارس البيض ، ولا يتردد على منتديات البيض ، وإذا ركب السيارات العامة فإنه يجلس خلف البيض ، وإن ازدحمت السيارة فرض عليه الوقوف لكي يجلس مكانه الرجل الأبيض ، وينص دستور بعض الولايات الأمريكية على قتل الرجل الملون أو حرقه أو تمزيق جسمه إذا اتصل بامرأة بيضاء ولو كان ذلك بموافقتها ، أما الرجل الأبيض فله أن يغتصب الملونة متى شاء وأنى أراد بدون عقاب أو محاكمة ، وإن حوكم فمحاكمة صورية .

بل هناك ما هو أبشع من ذلك ، فالرجل الملون لا يسمح له حتى بالاحتجاج السلمي ، فقد حدث منذ سنوات قليلة أن كانت امرأة ملونة مسنة تجلس في سيارة عامة « أتوبيس » ثم صعد رجل أبيض وطلب إليها أن تترك له مكانها ، فامتنعت السيدة عن ترك مكانها لرجل أقدر منها على الوقوف وهي المرأة العجوز المسنة فى عمر أمه ، فاستعان الرجل الأبيض بالشرطة التي ألقت القبض على السيدة المسكينة وقدمتها للمحاكمة ، التي قضت بإدانتها وتغريمها ، وهنا ثارت نفوس الملونين لهذا الظلم والامتهان ، فقرروا مقاطعة السيارات العامة وصاروا يذهبون إلى أعمالهم ويعودون منها سيراً على الأقدام ، ولكن الحكومة « الديمقراطية العادلة » لم تسمح لهم حتى بهذا الاحتجاج الخفيف وقبضت على مائة منهم وقدمتهم جميعاً للمحاكمة بتهمة مقاطعة وسائل المواصلات وقضت بإدانتهم جميعاً .

والصحف الأمريكية تطفح كل يوم بحوادث امتهان الإنسان غير الأبيض وتحقيره والاعتداء عليه وحرمانه من حقوقه المشروعة في الحياة لا لشيء إلا لأنه قد خلق غير أبيض .

أين هذه الديمقراطية الزائفة إذن من عدالة الإسلام الصحيحة السليمة الأصيلة التي تحفظ لكل إنسان حقه ولا تفرق بين الناس إلا بالعمل الصالح ، فقد كان « بلال » الأسود خيراً من كثير من سادة العرب ، بل سادة قريش نفسها !!

إن الإسلام دين المساواة الحقة والعدالة المطلقة والديمقراطية الصحيحة ولو علم زنوج أمريكا أو الملونون في جنوب إفريقيا بهذا الإسلام لسارعوا إلى اعتناقه لأنه سيرد عليهم — على الاقل — إنسانيتهم ويشعرهم بحقهم في الحياة كمجموعة من مجموعات الأجناس الإنسانية .

القوة الرحيمة في الإسلام :

الطابع العام للشريعة اليهودية يميل إلى القوة والعنف ، والطابع العام للمسيحية ينحصر فى الرحمة والسلام ، ولما كانت الحياة لا تنتظم إلا بالطرفين من كل شيء فقد جاء الإسلام يمجد القوة حيث ينبغى أن تكون القوة ، ويمجد الرحمة حيث

ينبغى أن تكون الرحمة ، ولذلك فإن الله يصف ذاته بالقوة فى قوله تعالى : «**وكان الله قويًا عزيزاً**» . ويصف ذاته بالرحمة فى قوله تعالى : «**وكانَ الله بالمؤمنينَ رَحيماً**» فصفة القوة جاءت حيث ينبغى أن تكون القوة ، وصفة الرحمة جاءت حيث ينبغى أن تكون الرحمة .

والرسول الكريم يدعوه الله إلى الرحمة ولين الجانب والشورى فيقول تعالى فى سورة آل عمران : ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ ﴾ (٣٠)

ومن سمات الرحمة فى الإسلام والدعوة إليها خطاب الله إلى المؤمنين فى قوله تعالى في سورة آل عمران : ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ ﴾ (٣١)

وإذا ما تعلق الأمر بالدين والدعوة إليه فإن ذلك ينبغى أن يكون بطريق الرحمة والتلطف والترغيب لا العنف والإكراه ، ذلك لأن طبيعة الدين وسماحته خير داعية له : ﴿ لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ ۖ ﴾ (٣٢) ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ ﴾ (٣٣)

كل هذه الرحمة من صلب الدين الإسلامى وروحه ، ولكن إذا حزب الأمر وتعرض المسلم للخطر أصبح من المحتم عليه أن يخلع ثوب الرحمة واللين وأن يركب المراكب الخشنة ، فالمسلم رحيم على قومه وأهله وجيرانه ، ورحيم على أهل الكتاب ما لم يظهر منهم الاعتداء ، ولكن اذا حاول الكفار الاعتداء كانت هذه الآية خير مصور لواقع الحال

---

(٣٠) الآية ١٥٩ .

(٣١) الآية ١٠٤ .

(٣٢) البقرة : الآية ٢٥٦ .

(٣٣) النحل : الآية ١٢٥ .

﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ ﴾ (٣٤)

والإسلام يكره الخنوع والمذلة والاستضعاف فهو يدعو إلى الرحمة العزيزة التي لا تنتهي بالمسلم إلى الذل والضعف ، ويطالب المسلم أن يعيش سيداً مستقلاً غير ذليل . وإلا فالهجرة واجبة حتى يستعد ويستعيد أرضه كما حدث للمسلمين الأولين حينما هاجروا إلى الحبشة ثم إلى المدينة حتى تجهزوا للنصر فعادوا إلى مكة فاتحين ظافرين ، فإن الله تعالى يقول في سورة النساء: ﴿ قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ ۖ قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ قَالُوٓا۟ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا ﴾ (٣٥)

ثم تأتي الدعوة إلى القوة والعزة في قوله تعالى : ﴿ وَأَعِدُّوا۟ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ ﴾ (٣٦) ويحض الرسول على القوة فيقول : **«المسلمُ القَوى خير عند الله من المسلم الضعيف»** .

وهكذا جاء الإسلام وسطاً يدعو إلى الرحمة ولا يغفل القوة ، وهو حينما يدعو إلى القوة يدعو إليها بعبارات تخاطب القلب وتنفذ إلى الوجدان فتهز المشاعر هزاً عنيفاً . ولذلك فإن كبير المستعمرين « جلادستون » كان يقول للإنجليز : لن تستطيعوا أن تستعمروا المسلمين مادام هذا الكتاب بين ظهرانيهم ، يقصد القرآن الكريم ، ولذلك فإن حرب الإنجليز على القرآن ومحاولة محوه من قلوب المسلمين من أخس الحروب وأحط الخطط . لكنهم ليسوا بمستطيعين أن يفعلوا به شيئاً ، لأن الله اتخذ على نفسه عهداً بالمحافظة عليه : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ (٣٧)

ولذلك فقد حق لنا أن نصف الإسلام بأنه دين القوة الرحيمة .

---

(٣٤) الفتح : الآية ٢٩ .
(٣٥) النساء : الآية ٩٧ .
(٣٦) الأنفال : الآية ٦٠ .
(٣٧) الحجر : الآية ٩ .

الإسلام والرق :

ذكرنا قبل قليل ما يتعرض له بعض الملونين من بني الإنسان من اضطهاد وأذى ينصب عليهم بين الحين والحين ، والحرمان والامتهان اللذين يصيبانهم في بعض الدول التي عدت نفسها ، أو يعدها الناس ، دولاً متمدينة تعترف بما قد أطلقوا عليه ميثاق حقوق الإنسان .

هذه الدول نفسها التي امتهنت المعاني الإنسانية لا تفتأ تهاجم الدين الإسلامي وتلصق به التهم الباطلة على أنه الدين الذي يبيح الرق ويتجر أبناؤه في الرقيق ، والحق أن هذه الدعوى باطلة من أساسها ، فإن الذين يتجرون بالرقيق هم الأوربيون والأمريكيون أنفسهم ، اتجروا به في الماضي جهاراً نهاراً حينما كانت أساطيلهم تهاجم الشواطئ الإفريقية وتخطف الرجال والنساء والأطفال وتنقلهم إلى أمريكا وأوربا ، حيث يعرضون في أسواق النخاسة ويباعون بأبخس الأثمان ، ويلقون من أسباب المهانة والذلة والإهمال ما عرض الملايين منهم للموت في أبشع صورة . فضلاً عن المعاملة القاسية البشعة التي كانوا يلقونها ، إلى أن صدرت بعض التشريعات التي تمنع الرق في القرن الثامن عشر

ومع صدور التشريعات المشار إليها فلا يزال الرق معترفاً به في نفس الدول التي حرمته على الورق ولم تحرمه في ميدان الحياة ، والشاهد على ذلك أولئك الملايين الخمسة عشر[٣٨] من زنوج أمريكا يحيط بهم الاضطهاد من خلف ومن قدام ومن يمين ومن شمال ، وأولئك الملايين من الملونين في جنوب إفريقية الذين تحرمهم الدولة من كل حق ، وتطلق عليهم الرصاص كلما تجمعوا لطلب الإنصاف ، وتحصد أرواحهم بالآلاف ، وأصبحت مشكلتهم فضيحة وعاراً في جبين الإنسانية ، وتنظر في كل دورة من دورات الجمعية العامة للأمم المتحدة .

وليس عجباً بطبيعة الحال أن تتولى الدول الإسلامية في الأمم المتحدة مناصرة هؤلاء المظلومين المضطهدين والسعي لإنصافهم وتحريرهم ، في حين تقف أكثر الدول غير الإسلامية موقف العداء والمناهضة لهذه القضية العادلة .

---

(٣٨) زاد عددهم عند ظهور هذه الطبعة إلى ما يناهز الثلاثين مليونا .

فهؤلاء الملونون المضطهدون ، أرقاء بالفعل وإن لم يباعوا أو يشروا . وليست المسألة مسألة بيع أو شراء لكي ينطبق معنى الرق على إنسان ما ، وإنما ما يحيط بهؤلاء المضطهدين من ظلم وقسوة وسوء معاملة وحرمان وامتهان ، كل ذلك يجعلهم أتعس حظًّا من رقيق القرون الماضية ، فلقد كان لبعضهم ـــ وأعني الأرقاء فى ظل الإسلام – حقوق تنهض بهم إلى مراتب لا تحرمهم من إنسانيتهم وتحول بينهم وبين الأذى والحرمان كما سيأتي بعد قليل .

من عجب أن هذه الدول التي لا تزال تفرض الرق على ملايين الملونين ، بل تفرض الرق على كثير من الشعوب بالاستعمار والغزو ، هذه الدول نفسها هي التي تهاجم الإسلام بصفة مستمرة وتدعى أنه الدين الذي يبيح الرق ، فإذا حاولنا أن نتمشى مع هذه الأفكار المتعفنة بأن نقول لا بأس ، فإن الإسلام وقد أباح نوعاً من الرق المؤقت فإنما كان ذلك رقاً لأفراد ، أما هذه الدول المتمدينة فإنها تفرض الرق على الملايين ، وفرق شاسع بين من يسيغ استرقاق بعض الأفراد وبين من يسيغ استرقاق الشعوب .

ومع ذلك فالإسلام وهو الدين السماوي الكريم ليس مشجعاً للرق ولا محسناً له ولا دافعاً إليه ، فالإسلام قد ظهر نوره والرق يملأ أوربا كنظام معترف به له جذوره العميقة الكريهة ، والرق كان يسير دائما وينمو عند الحضر لا فى بيئة البداوة التي سطع منها النور الإسلامى .

والحق الصراح أن الإسلام هو الدين الوحيد الذي شرع العتق ولم يدع إلى الرق بينما كل الشرائع السابقة له من وضعية وسماوية قد دعت إليه ، فاليهودية قد دعت إلى الرق في قوة ، اليهودية التي منها الصهاينة الذين يرمون الإسلام ـــ كذبا ـــ بأنه دين الرق ، يأتى العهد القديم فيقول في الإصحاح العشرين . كتاب التثنية مانصه :

« حين تقرب من مدينة لكي تحاربها استدعها إلى الصلح ، فإن أجابتك إلى الصلح ، وفتحت لك ، فكل الشعب الموجود فيها يكون لك للتسخير وتستعبد لك ، وإن لم تسالمك بل عملت معك حرباً فحاصرها ، وإذا دفعها الرب إلهك إلى يدك فاضرب جميع ذكورها بحد السيف ، وأما النساء والأطفال والبهائم وكل

ما في المدينة وكل غنيمتها فتغنمها لنفسك وتأكل غنيمة أعدائك التي أعطاك الرب إلٰهك » .

فاليهودية تبيح الرق في عنف وقسوة لا يستغربها من يعرف اليهود وما قد تفننوا فيه من ألوان التعذيب وامتهان الإنسانية بما صنعوه في حرب فلسطين الماضية من قتل الأطفال وبقر بطون الحبالى من النساء .

ولما جاءت المسيحية كان الرق مباحاً على النهج الذي مر ذكره فلم تحرمه ولم تبطله ، بل إن بولس الرسول أمر العبيد بإطاعة سادتهم حيث قال في رسالته إلى أهل أفسس : « أيها العبيد : أطيعوا سادتكم حسب الجسد بخوف ورعدة في بساطة قلوبكم كما للمسيح ، ولا بخدمة العين كمن يرضي الناس ، بل كعبيد المسيح ، عاملين مشيئة الله من القلب ، خادمين بنية صالحة كما للرب ليس للناس ، عالمين أن مهما عمل كل واحد من الخير فذلك يناله من الرب عبداً كان أم حراً » .

وهذا اعتراف كامل من المسيحية بالرق ، وليس الأمر فى الاعتراف مستمدًّا من وصية بولس الرسول وحا ه ، بل إن الرسول بطرس له وصية أخرى يذهب إلى أن الرق كفارة من ذنوب البشر يؤديها العبيد لما استحقوه من غضب السيد الأعظم .

ويأتى القديس توما الإكوينى — وكان ذا نزعة فلسفية — فيؤيد الرق ويعترف به ، مسخراً لذلك العقيدة الدينية التى كان أحد أركانها ، والفلسفة اليونانية التى كان أحد مريديها النابهين .

وليست المسيحية ومن قبلها اليهودية وحدهما اللتين أباحتا الرق ، بل إن الفلسفة اليونانية التى تعتبرها الطبقة العليا من المثقفين أم الثقافات ومنبع الحضارات وخلاصة ما أنتجه العقل البشرى من سمو فى التفكير ، هذه الفلسفة تبيح الرق وتدعو إليه فى إسراف ، فقد شرعت نظام الرق العام ، أى خدم الهياكل الموقوفين عليها ، كما شرعت نظام الرق الخاص أى العبيد الذين يخدمون فى البيوت ، وهؤلاء وأولئك عليهم واجبات وليست لهم حقوق .

فأفلاطون صاحب «الجمهورية» يحرم العبيد فى جمهوريته من حق المواطنة ويشرع لهم نظاماً يجبرهم على إطاعة سادتهم والخضوع لهم خضوعاً كليا بشكل مهين ، حتى أن العبد إذا تطاول على سيد غير سيده أسلمته الدولة إلى هذا السيد الغريب لكى يقتص منه .

وأرسطو ـــ المعلم الأول ـــ لا يذهب بعيداً عن أفلاطون ، بل هو يرى بمنتهى البساطة أن هناك فريقاً من الناس قد خلقوا ليكونوا عبيداً ، كأنما المسألة بديهية من البديهيات ، ولا ينبغى أن ننسى أن أرسطو هو صاحب علم الأخلاق[٣٩] .

وإذا انتقلنا من الفلسفة اليونانية إلى الفلسفة الهندية وجدناها بدورها تبيح الرق ، ولكنها تطلق عليه اسما آخر ، فهى تستعبد فئات معينة من الناس وتحرمهم من حقوقهم وتطلق عليهم اسم «المنبوذين» .

وهكذا نجد أن الحضارات الحديثة ممثلة فى أمريكا وأوربا وفي الأوربيين الذين يسكنون جنوب إفريقيا يبيحون الرق المقنع حتى اليوم ، فيحرمون غيرهم من حقوقهم الإنسانية وإن كانوا أبطلوا البيع والشراء .

كما نجد أن اليهودية والمسيحية قد أباحتا الرق وشجعتاه ودعتا إليه ، وكذلك وجدنا الفلسفة اليونانية تمجده وترى أنْ لا مناص من الاعتراف به ، والأمر كذلك فى الحكمة الهندية .

شرائع سماية وأخرى أرضية كلها تدعو إلى الرق ، وحضارات قديمة سالفة وأخرى حديثة معاصرة كلها تدعو إلى الرق ، فما بالهم يهاجمون الإسلام ويحملون عليه ويشنعون به بدعوى الرق !!؟

الشيء العجيب الغريب بعد ذلك كله أن الإسلام لم يدع إلى الرق ولم يشرعه كما فعلت الشرائع السابقة ، بل لقد جاء الإسلام فوجد الرق منتشراً فى الجزيرة

(٣٩) راجع حقائق الإسلام وأباطيل خصومه « فصل الرق »

العربية وفى جميع أنحاء العالم المعاصر له ، فقاومه وهذبه حتى نستطيع أن نقول فى غير ما مبالغة أو محاباة : إن الإسلام محرر العبيد .

بل نستطيع أن نقول : إن الإسلام قد ألغى نظام الرق وأبقى على نظام الرق الحالى المعترف به من جميع الدول ، وهو نظام أسرى الحروب ، فإن جاز أن نسمى هؤلاء الأسرى رقيقاً كان الإسلام وغيره مشرعاً للرق الذى لابد منه ، إذ لا يمكن أن تحدث حروب ولا يسقط معها أسرى ، ومع ذلك فقد ارتضى الإسلام نظام تبادل الأسرى ، أو فداء الذين لم يجدوا لهم بديلًا بالمال .

ونظام آخر من الرق اعترف به الإسلام ولكنه لم يشرعه ولم يدع إليه ، بل وجده من قبل فلم يباركه ، ولكنه حض على إلغائه ، وهو الرق بالوراثة ، وفى الوقت نفسه وضع للرقيق من الحقوق والضمانات ما سيأتى ذكره بعد قليل .

ولكى نوضح نبل موقف الإسلام من الرق والسعى إلى القضاء عليه ينبغى أن نشير إلى بعض أنواع الرق قبل الإسلام ، وكانت كثيرة جدًّا نذكر أهمها فيما يلى :

أولًا : أسير الحرب وكان يقتل أحياناً ويسترق أحياناً أخرى .

ثانيا : رقيق الخطف والسبى .

ثالثاً : بعض من يرتكبون الجرائم الخطيرة ، من سرقة أو قتل ، كان يحكم عليهم بالرق لمصلحة الدولة ، أو لمصلحة المعتدى عليه أو أسرته .

رابعاً : المدين الذى كان يعجز عن سداد دينه ، كان يحكم عليه بالعبودية لصالح الدائن .

خامساً : الآباء الفقراء الذين كانوا يبيعون أبناءهم فيصبحون أرقاء .

سادساً : بعض الأشخاص الذين كانوا يتنازلون عن حريتهم من تلقاء أنفسهم نظير أجر معين ، كالطعام أو الحماية أو سدّ الدين .

سابعاً : أبناء الإماء ، كان الواحد منهم يولد عبداً إن كان ذكراً ، وجارية إن كانت أنثى ولو كان الأب من الأحرار أو السادة . فلما جاء الإسلام قضى على هذه الأنواع من الرقّ قضاء مبرماً وأبقى على نوعين منهما فقط هما : أسرى الحرب وأبناء الإماء[٤٠]

وحتى هذين النوعين هذبهما الإسلام ، فليس كل أسير حرب يعتبر رقيقاً ، فمثلاً الأسير في حرب بين طائفتين من المسلمين لا يعتبر رقيقاً ، وكذلك الأسير في حرب غير شرعية لا يجيزها الإسلام لا يكون رقيقاً .

والحرب الشرعية التي يكون أسيرها رقيقاً لها شروط كثيرة : منها أن معلن الحرب يجب أن يكون الخليفة نفسه ، ومنها أن تكون حرباً دفاعية أو تكون دفعاً للكيد وردًّا على نكث العهد ، أو أن تكون متعلقة بسلامة الدولة ، كإخماد الفتن والقضاء على الخارجين .

فإذا لم تنطبق كل الشروط سالفة الذكر على الحرب فإن أسيرها لا يسترقّ .

ولم يقف الأمر بحكمة الإسلام في رقيق الحرب عند هذا الحد الذي يعتبر عادلاً ، بل إن الإسلام لا يجعل الرق نتيجة حتمية للأسر ، فللخليفة أو الإمام أن يطلق سراح الأسرى دون مقابل أو مقابل فدية أو جزية أو عمل يؤدونه .

وهكذا يكون الإسلام بحكمته وسماحته قد قضى على أحد النوعين من الرق اللذين أبقى عليهما .

يتبقى لون أخير من الرِّق هو رق أبناء الإماء ، وهذا النوع قد هذَّبه الإسلام ، فبعد أن كان ابن الأمة يولد رقيقاً مهما كان أبوه ، حرر الإسلام أبناء الإماء من سادتهن ، ومادامت الأمة قد أصبحت أما لولد حر فإن ذلك يحسّن وضعها ويقربها شيئاً فشيئاً إلى الحرية .

---

(٤٠) راجع حقوق الإنسان في الإسلام فصل (الحرية المدنية) للدكتور علي عبد الواحد .

إلى هذا الحد يكون الإسلام قد قضى في حكمة بالغة على جميع أنواع الرق إلا رق الوراثة فقد هذّبه ، أو كما يقول الأستاذ الدكتور علي عبد الواحد : أقره في صورة تؤدى هي نفسها إلى القضاء عليه بالتدريج دون أن يحدث ذلك أي أثر في نظام المجتمع ، بل دون أن يشعر أحد بتغير في مجرى الحياة .

أليس من العدل بعد ذلك أن يكون الإسلام محرر العبيد ؟ إن من يستعرض القرآن الكريم ــ وهو كتاب الله وآيته ــ مهما كان ممن يحاولون أن يفتشوا عن سوءات للإسلام ، لا يستطيع أن يجد آية واحدة تحضّ على الرق كتلك الآيات التي مر ذكرها في الشرائع المتعددة من سماوية ووضعية ، هذا فضلاً عن موقف الإسلام من الرق بصفة عامة .

فأما الذين قضت ظروفهم أن يظلوا في الرق بعض الوقت حتى ترد إليهم حريتهم ــ نتيجة لسياسة الإسلام التي مر ذكرها إزاء تحررهم بالتدريج ــ فهؤلاء لهم حقوق يفرضها الدين فرضاً ولا سبيل إلى إنكارها أو التهاون فيها .

فمن حق الرقيق ألا يجرحه سيده بالحديث عنه بصفة العبد أو الأمة ، بل ينبغي على مالك الرقبة أن يقول فتاي أو فتاتي ، وأن يعاملهم كما يعامل أبناءه ، وكان رسول الإسلام عليه الصلاة والسلام يحضّ على حسن معاملة الأرقاء فيقول : « لقد أوصاني حبيبي جبريل بالرفق بالرقيق حتى ظننت أن الناس لا تستعبد ولا تستخدم » وصدق الرسول وصدق جبريل ، فإن شريعة الإسلام ــ على ما مر ذكره ــ تحرر العبيد وتحول دون استعباد الناس ودون استخدامهم ، وقد قال عمر الخليفة الثاني قولته المشهورة : متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً ؟ فالفلسفة الكامنة في جملة الخليفة الثاني ــ وهو في مقدمة مجتهدي الإسلام ــ أن الإسلام لا يسكت على استرقاق الناس ، بل الأصل أن يولد الناس أحراراً وألا يستعبدوا ، ومن قد قضت ظروفه أن يستعبد ، ينبغي أن يبحث له عن طريق الحرية والخلاص من العبودية .

وعمر ــ الذي آمن بحرية الناس ــ كان يعامل غلامه أفضل مما يعامل أبناءه ، فقد سافر إلى بيت المقدس لكي يتسلمه من البطريرك ، وكان سفره على

ناقة واحدة ومعه غلامه ، فكانا يتناوبان الركوب الواحد بعد الآخر ، ولما اقتربا من بيت المقدس كان الدور للعبد ، فحاول أن يتنازل لسيده على الركوب ، ولكن عمر العظيم أصر على أن يأخذ العبد حقه في الركوب ، ولم يستح أن يدخل بيت المقدس ، وهو خليفة المسلمين ، وعبده راكب وهو راجل يسعى خلفه بقدميه .

وكان عمر مارًّا بمكة فرأى قوماً يأكلون وعبيدهم بعيدون عنهم ، فغضب وقال مؤنباً السادة :

«ما لقوم يستأثرون على خدامهم » ثم دعا العبيد فأكلوا مع السادة في وعاء واحد .

ولقد حفظ الإسلام على العبيد حقوقهم ونهى عن إيذائهم ، فقد أرسل النبى وصيفة إلى أمر فأبطأت في الطريق فقال لها : « لولا خوف القصاص لأوجعتك بهذا السواك» وحتى لو ضربها النبي بالسواك لما أوجعها ، ولكنه أدب النبوة لكي يقتدي الناس به في معاملة أرقائهم .

ويذكر ابن مسعود البدري أنه كان يضرب غلاماً له بالسوط فسمع صوتاً من خلفه يقول : « اعلم أبا مسعود » فلم يفهم الصوت من الغضب ، فلما دنا منه إذا هو رسول الله يقول : « اعلم يا أبا مسعود أن الله أقدر عليك منك على هذا الغلام » فقال ابن مسعود : لا أضرب مملوكاً بعده أبداً .

ولقد حفظ الإسلام للرقيق حقوقهم كما حفظ عليهم إنسانيتهم ، فلم تكن الشرائع السابقة للإسلام تعترف للرقيق بحق الزواج ولا حق تكوين الأسرة بمعناها المتعارف عليه ، بل كان الاتصال بين الذكور والإناث يتم كما يحدث للبهائم ، أي برغبة سادتهم لمجرد التناسل والإكثار من عدد الرقيق .

وكانت هذه الشرائع نفسها تحظر على الحر أن يتزوج من جارية ، وتحظر على الحرة أن تتزوج من عبد ، فإن فعلت حلت عليها عقوبة شديدة تصل أحياناً إلى الإعدام .

أما الإسلام فقد حفظ على الرقيق إنسانيته ، وأباح للرجل العبد أن يتزوج من جارية مثله ، كما أباح له أن يتزوج من حرة ، وأباح للأمة أن تتزوج من رقيق مثلها ، كما أباح لها أن تتزوج من حر ، ولكن تحت إشراف السيد على عقد زواج العبد والأمة .

وإذن فقد حمى الإسلام الأرقاء من الإيذاء وحفظ عليهم إنسانيتهم ، ولم يقف الأمر بالإسلام عند ذلك وحسب ، بل إنه يحض دائماً وفي كل فرصة على تحرير العبيد وفك الرقاب ، فجعله كفارة عن كثير من الذنوب ، كالحنث باليمين أو القتل الخطأ ، ففي الكفارة الأولى عن الحنث باليمين يقول الله تعالى في سورة المائدة : ﴿ لَا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِيٓ أَيْمَـٰنِكُمْ وَلَـٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ ٱلْأَيْمَـٰنَ فَكَفَّـٰرَتُهُۥٓ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَـٰكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ ﴾ (٤١)

وفى القتل الخطأ يقول تعالى في سورة النساء : ﴿ وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَـًٔا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَصَّدَّقُوا۟ ۚ فَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ عَدُوٍّ لَّكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ ۖ وَإِن كَانَ مِن قَوْمٍۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَـٰقٌ فَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ ﴾ (٤٢)

والذى يرتكب واحدة من هذه الأفعال التي مر ذكرها ولا يملك عبداً فعليه أن يشتري عبداً ويعتقه إن كان ذلك في استطاعته .

لقد وسّع الإسلام إذن أسباب العتق وحضّ عليه ، ولم يترك مناسبة — صغر شأنها أو كبر — إلا استغلها استغلالا طيباً لصالح العتق ، فمن أسباب العتق مثلاً أن يجري على لسان السيد أيُّ لفظ يستفاد منه عتق غلامه أو أَمَتِه ، سواء كان

---

(٤١) المائدة : الاية ٨٩ .

(٤٢) النساء : الآية ٩٢ .

السيد يعني ما يقول أو لا يعنيه ، جاداً أو هازلاً ، متمالكا عقله أو فاقداً رشده بفعل المحرمات ، راضياً مختاراً أو غير راض مكرهاً .

ويبيح الإسلام للعبد أن يشتري حريته من سيده بالمال ، وقد مكن الإسلام لهذا النوع من العبيد أن يتاجر ويبيع ويشتري ويتصرف كما يتصرف الأحرار ، فإذا جمعوا الأموال دفعوها نظير تحرير رقابهم .

والإسلام يمجد عملية فك الرقاب وعتق الرقيق ، ويجعلها مثلاً أعلى للأعمال الطيبة التي يثاب عليها المرء ويعظم أجره عند الله والناس ، ففي الحديث الشريف أمثلة كثيرة على ذلك كقوله عليه الصلاة والسلام : من فعل كذا فكأنما اعتق رقبة ، أو يكون ثوابه عند الله كمن أعتق رقبة .

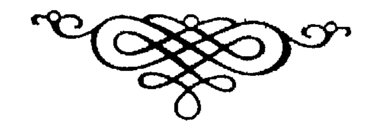
والشريعة الإسلامية قد نظمت عملية فك الرقاب ورتبتها وأحاطتها بالضمانات بشكل يدعو إلى الإعجاب والرضى ، والأمثلة على ذلك كثيرة متعددة ، فمن ذلك أنه إذا صدر من السيد أي لفظ يفيد الوصية بفك رقبة معينة بعد موته ، فإن هناك من الضمانات ما يجعل هذا العبد في عداد الأحرار فور موت سيده ، فلا يباح إطلاقاً أن يتصرف فيه سيده لا بالبيع ولا بالرهن ولا بالهبة ولا بغير ذلك من أنواع التصرف الذي قد يحول بين العبد وحريته ، وكذلك الأمر بالنسبة للجارية ، بل يزيد قليلاً ، فلو فرض أنها وضعت بعد الوصية لها بالعتق فإنها هي وولدها أو أولادها يتمتعون بحريتهم كاملة .

ومن أمثلة تيسير الإسلام لفك الرقاب أن الجارية إذا أنجبت من سيدها ولداً اعترف السيد ببنوته فإن هذه الجارية نفسها تصبح في عداد الحرائر بمجرد وفاة سيدها ، فلا تورث أو تستذل ، وهى التي تعرف باسم « أم الولد » . وكما وضع الإسلام الضمانات الكفيلة بتحرير الرقيق الموصى بعتقهم فإنه قد وضع كذلك الضمانات الكاملة التي تكفل تحرير أم الولد .

بعد هذه الجولة مع الرق وموقف الإسلام منه ، وهذه الأمثلة الكثيرة التي ضربناها وأنواع العبودية المختلفة قديماً وحديثاً ، واعتراف الشرائع كلها بالرقيق والحض عليه دون الإسلام ، وبعد هذه المواقف القرآنية والنبوية والشرائعية

الإسلامية من الرقيق ، لا يقول بأن الإسلام اعترف بنظام الرقيق إلا جاهل أو مكابر جاحد ، وعلى الجاهل أن يقرأ ويستقصي لعله يستنير ، وأما المكابر الجاحد فإن الحجة تلجمه والبرهان يصفعه والواقع الحادث الكائن يلقمه حجراً بل أحجاراً .

وهكذا نعلن ونكرر ونزيد أن الإسلام دين تحرير العبيد ، وأن غيره من الشرائع ، بل إن الحضارة الحديثة وديمقراطية القرن العشرين تصر على استعباد بعض الناس وحرمانهم حقوقهم ، فضلاً عن استعباد الشعوب وسلبها أبناءها حريتهم وأرضهم وأرزاقهم .



الــزواج بأكثر من واحـدة :

إذا كان المتحاملون على الإسلام قد اتخذوا من مادة الرق وسيلة لمهاجمة هذا الدين القيم ، فإنهم قد اتخذوا من تشريع الزواج بأكثر من واحدة مادة أخرى للهجوم والتطاول ، وقد مر بنا أن موقف الإسلام من الرق أكرم من موقف الشرائع السابقة له بلا استثناء ، سواء منها السماوية أو الوضعية .

والأمر كذلك بالنسبة لتعدد الزوجات ، فقد ظن كثير ممن لا تربطهم بالإسلام وبلاده روابط قوية أن الإسلام يساوي في نظرهم عدداً من الزوجات يجمعهن بيت المسلم ، كما ظنوا أنه لا يوجد مسلم متزوج بواحدة فقط ، والأمر لا يخرج عن دعاية كاذبة رخيصة يروّجها أعداء الإسلام ويشجعونها فيسوّدون الكثير من الصفحات بالتضليل والكذب ، مع أن الدين الإسلامي لم يفرض تعدد الزوجات بل أباحة بشروط خاصة سيأتي ذكرها بعد قليل ، وفرق شاسع بين فرض شيء وإباحته ، فالفرض يحمل معنى الجبر ، والإباحة تحمل معنى الاختيار .

ومع ذلك فالشريعة الإسلامية ليست بدعاً في التعدد بين الشرائع السابقة لها من سماوية ووضعية ، فليس هناك أى تحديد لعدد الزوجات في الشرائع التي سبقت الإسلام ، فقبل الإسلام كان عدد الزوجات لرجل واحد يصل إلى المائة ،

فضلا عن الجواري والعشيقات ، فلما جاء الإسلام حدد العدد لمن أراد الزواج بأكثر من واحدة ووضع قيوداً تجب مراعاتها(٤٣)

فالتعدد معروف في الديانة الإسرائيلية ، وبخاصة عند سليمان وداود وقد كان لكل منهما زوجات كثيرات يربو عددهن على المائة ، وقصة داود مع زوجة قائده معروفة حينما أراد ضمها إلى زوجاته التسع والتسعين ، بل إن التلمود والتوراة لم يقف الأمر بهما عند إباحة تعدد الزوجات ، بل امتد الأمر فيهما إلى التسري أيضاً .

والأمر كذلك بالنسبة للمسيحية ، فليس في الأناجيل نص واحد يحرم تعدد الزوجات ، وقد حرم بولس الرسول التعدد في حالة واحدة هي حالة الأسقف الذي لا يطيق الرهبنة فإن له أن يقنع بزوجة واحدة .

وكان للكنيسة أكثر من موقف في الاعتراف بتعدد الزوجات ، فمن المعروف أنها — أي الكنيسة — اعترفت لشرلمان الملك بعدة أبناء غير شرعيين من عدة نساء .(٤٤)

وقد أباح « مارتن لوثر » زعيم البروتستانت تعدد الزوجات ، وحجته أنه لم يرد في المسيحية نص واحد يحرمه ، وكان لملك إيرلندا « ديرمات» زوجتان شرعيتان وسريتان .

وقد ظل نظام تعدد الزوجات معمولاً به في الشريعة المسيحية حتى القرن السابع عشر ، معترفاً به من الكنيسة ، مباركاً من رجال الدين . وإذن فقد عرف نظام تعدد الزوجات منذ إبراهيم الخليل ومن أتى بعده من الأنبياء والمرسلين في اليهودية والمسيحية حتى القرن السابع عشر .

الإسلام بريء إذن من تفرده بالتعدد براءته من تهمة تبني نظام الرق بغير تشبيه بينهما ، لأنه ليس هناك ما يدعو إلى ربط موضوع الرق بموضوع تعدد الزوجات

(٤٣) الإسلام عقيدة وشريعة للشيخ محمود شلتوت ص ١٦٨ — ١٧٧ .
(٤٤) حقائق الإسلام ص ١٧٧ .

إلا من حيث أن خصوم الإسلام حاولوا أن يجعلوا من الموضوعين ثغرة ينفذون منها إلى تجريح هذا الذين الحنيف والتهجم عليه .

ومع ذلك فليس تعدد الزوجات تهمة يتهم بها الإسلام ، فإن للتعدد المنظم المحدد حِكَماً قد تستدعيها طبيعة الحياة ، فإذا افترضنا أن رجلاً قد تزوج من امرأة عرف فيما بعد أنها عاقر وهو في حاجة إلى الولد ، فأيهما أكرم لها وللإنسانية ، أن يجمع إليها امرأة أخرى تمده بالبنين ، أو أن يطلقها ويلقي بها إلى الطريق العام — وقد تكون بغير أهل — لكي يكون ذا زوجة واحدة ؟ .

وإذا افترضنا أيضاً أن رجلاً له زوجة مريضة طال مرضها وله منها أولاد صغار ، وشعر الرجل بالحاجة إلى الخدمة والرعاية ، خدمته ورعاية أطفاله ، أليس من حقه أن يتزوج من امرأة أخرى لكي ترعى شئونه وترعى الزوجة المريضة وأطفالها ، أم أن الرجل لكي يكون ذا زوجة واحدة عليه أن يلقى بالمريضة إلى عرض الطريق ؟ .

وإذا نظرنا إلى المجتمعات بعد الحروب ، سنجد ولا شك أن عدد النساء يزيد أضعافاً على عدد الرجال الذين ماتوا في ساحة القتال ، فإذا ما اكتفى كل رجل بزوجة واحدة كان معنى ذلك أن تبقى ملايين أخرى من النساء بلا أزواج ، وستكون هؤلاء النسوة بين واحد من ثلاثة أمور : أولها الرهبنة ، وهو أمر صعب فليست كل امرأة مستعدة للترهب ، وثانيها الاستجداء الجنسي والزلل الخلقي ، وهو أمر شنيع ، وثالثها الالتجاء إلى تعدد الزوجات ، وهو أمر أقرب إلى المنطق والعقل والشرف ، وصون الحياة الاجتماعية سليمة من أوضار الانحراف وازدحام الشوارع والطرقات بالأطفال غير الشرعيين ، ولذلك فإن مجلس نورمبرج قد اتخذ قراراً بعد الحرب الثلاثينية سنة ١٦٥٠ م حينما نقص عدد الرجال عن عدد النساء بأن للرجل الحق في التزوج بأكثر من واحدة .

هذه كلها أسباب منطقية تبيح التعدد — وبرغم أني لست من الذين يميلون إلى التعدد — غير أني لا أمنعه — فإني أقول أيهما أكرم للمرأة في ظل الضرورات سالفة الذكر ، والتي تتعرض لها المجتمعات الإنسانية دائماً ، أن تعيش زوجة ثانية أم أن تعيش عشيقة ؟ .

ومع كل ذلك فالإسلام وقد أباح التعدد لم يلزم به المسلمين ، بل لعله — بين غيره من الأديان — الدين الوحيد الذي حدد عدد الزوجات بأربع على الأكثر ، ثم اشترط العدل بين الزوجات .

فالآية الكريمة التي أباحت التعدد في سورة النساء يقول فيها الله تعالى :
﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً ﴾ [٤٥]

وهكذا في الوقت الذي يبيح الإسلام فيه التعدد نراه يستحسن الاكتفاء بالواحدة خشية عدم التمكن من التزام العدل .
وآية أخرى في نفس السورة تقول : ﴿ وَلَن تَسْتَطِيعُوا أَن تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ ﴾ [٤٦]

اختلف المفسرون في تفسير الايتين سالفتي الذكر ، فمنهم من يستنبط أن التعدد غير مشروع بحجة أن العدل جُعِل شرطاً فيه بمقتضى الآية الأولى ، وأنه غير مستطاع بمقتضى الآية الثانية ، وإذن فلا إباحة للتعدد في الإسلام ، ونحن نعتقد أن هذا الرأي فيه الكثير من الجور والتعسف في التفسير ، فلو لم يكن التعدد مشروعاً لما عدد الكثير من الصحابة والأئمة والتابعين .

والمفهوم من الآيتين الكريمتين أن التعدد حكم أصلي في الإسلام[٤٧] ولكن الأيسر هو استحسان الزواج من واحدة وعدم تشجيع التعدد ما لم تَدْعُ الضرورة إليه ، لما يحتاجه التعدد من طلب المساواة بين الزوجات ، الأمر الذي لا يستطيعه

---

(٤٥) الآية ٣ .

(٤٦) الآية ١٢٩ .

(٤٧) الإسلام عقيدة وشريعة للشيخ محمود شلتوت ص ١٧٢ .

كل رجل ، أما إذا دعت الحاجة إلى التعدد فإن رخصة إباحته قائمة في كل زمان طوع إرادة كل مسلم قادر .

وهناك من النساء من يحملن على نظام التعدد في الإسلام ، وليس لهؤلاء أن يركبن هذا المركب الصعب ، لأن الإسلام دين فيه مرونة وصالح لكل زمان ومكان ، وهو إذ قد أباح التعدد إلا أنه لم يفرضه ، هذا فضلاً عن أن المرأة تستطيع بما لها من حقوق أن ترفض الزواج من رجل متزوج ، لأن الشريعة الإسلامية لا ترغم المرأة على الزواج من متزوج ، بل إن لها مطلق الخيار ولا يجوز إكراهها عليه ، إن شاءت قبلته بمحض رغبتها وإن لم تشأ رفضته بكامل حريتها ، فإن الزواج الذي يبنى على الإكراه يعتبر باطلاً . وهناك أحاديث شريفة كثيرة تسن هذا التشريع كقول النبي الكريم :

« **لا تُنْكَحُ الأَيِّمُ حتى تُسْتَأْمَر ولا البِكْر حتَّى تُسْتأْذَنَ** » .

وقوله أيضاً : « **إنَّ الثَّيِّب أحقُّ بنفسها من وَلِيِّهَا ، والبكْرُ تُستَأمرُ وإذْنُها سُكُوتُها** » .

وقد أبطل النبى زواجاً أكرهت فيه فتاة على الزواج دون مشيئتها من ابن عم لها .

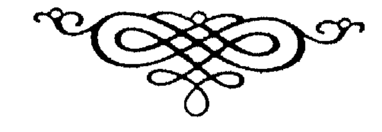
فهذه الحقوق التي أعطتها الشريعة الإسلامية للمرأة تضعها في المكان الذي يمكنها من أن ترفض أن تكون زوجة لرجل متزوج ، ولكن ليس لها الحق أن تعترض على زميلة لها ارتضت ذلك لنفسها ، وإذن فالتشريع الإسلامي كرَّم المرأة في حالة التعدد ، لأنه حال بينها وبين الانحراف إذا قلَّ الرجال ، كما كرمها حين جعل من حقها الاختيار عند الزواج .

والحق أن مجتمعاً فيه تعدد للزوجات خير من مجتمع فيه تعدد للخليلات والعشيقات ، ولعلنا ما زلنا نذكر التظاهرات الضخمة التي قامت بها النساء الألمانيات إثر نهاية الحرب العالمية الثانية يطالبن بالأخذ بنظام تعدد الزوجات بعد أن طحنت الحرب معظم رجال ألمانيا ، وأصبحت المرأة التي تجد زوجا كأنها وجدت كنزاً . وبعد أن امتلأت الشوارع بالأطفال اللقطاء ثمرة الاتصال غير

المشروع بين نساء فى حاجة إلى عائل غير موجود ، وبين جنود الاحتلال الأمريكيين والفرنسيين والإنجليز .

إن شريعة الإسلام أكرم من غيرها من الشرائع حين أبقت على التعدد ثم حددته وهذبته ، وتركت الحرية لكل إنسان أن يختار ما يتفق وظروف حياته ومجتمعه وزمانه ، وها نحن نعيش في عصرنا هذا فلا تكاد نرى من يتزوج بأكثر من زوجة إلا في حالات نادرة غير ملموسة ولا محسوسة ، ذلك لأن الشريعة الإسلامية شريعة مرنة سمحة أباحت التعدد ولكن لم تحسّنه في عيون الناس ، ولم تحضّ عليه جمهور المسلمين ، وجعلته خاضعاً لظروف الحياة متى كانت هذه الظروف تستدعي التعدد ، فإذا كانت ظروف المجتمع الإسلامي فى الماضي قد اقتضت أن يتخذ بعض الأفراد أكثر من زوجة فإن ظروف مجتمعنا المعاصر تفرض من تلقاء نفسها على الرجل أن يكتفي بالزوجة الواحدة إلا في حالات خاصة نادرة .

والأمر كذلك بالنسبة للمستقبل وأمر التعدد أو عدمه متروك لظروف الزمان والمكان وطبيعة لون الحياة .





مكانة المرأة فى الإسلام :

المرأة نصف المجتمع الإنساني ، وهي الأمّ والأخت والابنة والزوجة والخالة والعمة ، إذا صلح أمرها صلح نصف المجتمع ، بل صلح المجتمع كله ، لأن الطفل من ذكر أو أنثى يظل موضع رعاية أمه حتى يبلغ مبلغ اليفاع ، غير أنه في سنواته الأربع أو الخمس الأولى يكون رعية أمه رعوية كاملة ، فإن كانت الأم صالحة صلحت رعيتها ، وإن كانت غير ذلك فإننا لا ننتظر منها إلا ناشئة فاسدة متفسخة لا تنهض بمسئولية ولا يرجى منها خير .

والإسلام دين الفطرة الإنسانية لا شك ، وهو دين العمل الذي يجمع إلى شئون الآخرة أمور الدنيا ، ويجمع إلى التقوى والتقشف الأخذ بأسباب الاستمتاع بالحلال من الطيبات ، ثم هو في صلب تشريعه وأصل بنيته عمد إلى بناء المجتمع بناء سليما يمنعه من التردي ، ويحول بينه وبين التعرض لأسباب الفساد إذا ما طبقت بصدق روح شريعته ، ونفذت بإخلاص مبادئه وتعاليمه .

أما والأمر كذلك فإنه كان حتمياً أن يكون للمرأة في ظله مكانة ، وأن يكون لها في نطاق تعاليمه اهتمام ، وأن هذه المكانة وذلك الاهتمام يضعانها في المكان اللائق

بها كمخلوق كريم يشكل نصف المجتمع ، ويحتل فيه موقع الأم والأخت والابنة والزوجة والعمة والخالة .

القرآن والحديث يكرمان المرأة :

ومن هنا كانت الأحكام الإسلامية فيما يتعلق بالمرأة في نطاق الآيات القرآنية الكريمة والأحاديث النبوية الشريفة من الكثرة والوفرة بمكان : ﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَـٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٤﴾ ﴾ (٤٨)

﴿ ۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَـٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴿٢٤﴾ ﴾ (٤٩)

﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ (٥٠)

﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا ﴾ (٥١)

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا

---

(٤٨) لقمان : الآية ١٤ .
(٤٩) الإسراء : الآيتان ٢٣ ، ٢٤
(٥٠) الروم : الآية ٢١ .
(٥١) الأعراف : ١٨٩ .

زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾ ﴾ (٥٢)

﴿ فَاطِرُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَمِنَ ٱلْأَنْعَـٰمِ أَزْوَٰجًا يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ ۚ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾ ﴾ (٥٣)

﴿ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَـٰتِ ۚ أَفَبِٱلْبَـٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ ٱللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ ﴿٧٢﴾ ﴾ (٥٤)

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُوا۟ ٱلنِّسَآءَ كَرْهًا ۖ وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا۟ بِبَعْضِ مَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَـٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ ۚ وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴿١٩﴾ ﴾ (٥٥)

﴿ وَلَا تَنكِحُوا۟ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ فَـٰحِشَةً وَمَقْتًا وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٢٢﴾ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَـٰتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَٰتُكُمْ وَعَمَّـٰتُكُمْ وَخَـٰلَـٰتُكُمْ وَبَنَاتُ ٱلْأَخِ وَبَنَاتُ ٱلْأُخْتِ وَأُمَّهَـٰتُكُمُ ٱلَّـٰتِىٓ أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَٰتُكُم مِّنَ ٱلرَّضَـٰعَةِ وَأُمَّهَـٰتُ نِسَآئِكُمْ وَرَبَـٰٓئِبُكُمُ ٱلَّـٰتِى فِى حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ ٱلَّـٰتِى دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمْ تَكُونُوا۟ دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَـٰٓئِلُ أَبْنَآئِكُمُ ٱلَّذِينَ

---

(٥٢) النساء : أولى آياتها .

(٥٣) الشورى : الآية ١١ .

(٥٤) النحل : الآية ٧٢ .

(٥٥) النساء : الآية ١٩ .

مِنْ أَصْلَٰبِكُمْ وَأَن تَجْمَعُوا۟ بَيْنَ ٱلْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٢٣﴾ (٥٦)

هذه نماذج من آيات الكتاب العزيز كلها تحضُّ على احترام المرأة وتكريمها وتقريبها إلى النفس تقريباً كريماً ، ذلك فضلاً عن الآيات الكثيرة التي نزلت بشأنها في المعاملات وتنظيمها تنظيماً عادلاً من زواج وطلاق وميراث وحقوق وواجبات مما سوف نعرض له بعد قليل .

وأما الرسول صلى الله عليه وسلم فإنّ ما أثر عنه من تكريم للمرأة فعلاً وقولاً فهو من الوفرة بمكان ، فقد قال صلاة الله عليه وسلامه :

« **ما أكرمَ النساءَ إلاّ كريم ، ولا أهانَهُنَّ إلاّ لئيم** »(٥٧) .

« **أكملُ المؤمنين إيماناً أحسنُهم خُلُقاً ، وخيارُكم خيارُكم لنسائهم** »(٥٨) .

«**من كان له ابنة فأدّبها فأحسن تأديبها ، وغذّاها فأحسن غذاءَها ، وأسبغ عليها من النعمة التي أسبغ الله عليه ، كانت له ميمنة وميسرة من النار إلى الجنة** »(٥٩) .

ويكرم الرسول صلوات الله عليه وسلامه المرأة في نطاق أمومتها ، فيقول في الحديث الموصول الإسناد « **الجنة تحت أقدام الأمهات** » .

ويقول فى حديث آخر : «**إن الله يوصيكم بأمهاتكم ، ثم يوصيكم بأمهاتكم ، ثم يوصيكم بأمهاتكم ، ثم يوصيكم بالأقرب فالأقرب**» .

وهناك قصة الحديث المشهور الموصول الإسناد الذي يتمثل في مجيء رجل إلى الرسول صلى الله عليه وسلم فسأله : « **يا رسول الله ، من أحق الناس بحسن صحبتي ؟ قال : أمك ، قال : ثم من ؟ قال أمّك ، قال ثم من ؟ قال أمّك ، قال ثم من ؟ قال : أبوك** » .

(٥٦) النساء : الآيتان ٢٢ ، ٢٣ .

(٥٧) أخذه الشيخ رشيد رضا عن الترمذى .

(٥٨) رياض الصالحين ص ١٣٣ .

(٥٩) المصدر السابق ص ١٣٠ .

وإذا كان مصدر العقيدة الإسلامية ومنبع تشريعها هما الكتاب والسنة ، فإن المرأة قد احتلت في نطاق تلك العقيدة كل اهتمام وعناية مجموعتين في إطار من الإعزاز والإكبار والتكريم .

المرأة عند أصحاب الحضارات القديمة :

وإذا كان لنا أن ندلف إلى تفاصيل موقف الإسلام من المرأة ، أو بالأحرى مكانة المرأة في الإسلام ، فإنه من الإنصاف للحقائق كلها ، من تاريخية واجتماعية ودينية ، أن نعرض لمكانة المرأة في المجتمعات غير الإسلامية على مرّ الأزمنة ــ في شيء من الإيجاز ــ بما في ذلك مكانتها عند العرب أنفسهم قبل الإسلام ، وليس ذلك من قبيل الموازنة أو المقارنة ، فليس من ذلك شيء في حسباننا ، وإنما من باب وضع الأمور في نصابها ، ما دام هناك من أصحاب الهوى من أرادوا تصوير المرأة في ظل الإسلام صورة غير كريمة ، بريئة من كل حقيقة ، بعيدة عن كل عدل ونصفة ، ذلك أن الواقع التاريخي يقول إن المرأة لم تلق من الذل والهوان قدر ما لقيته خارج النطاق الإسلامي ، ولم تنل من تكريم أو تعظيم قدر ما نالته في رحاب هذا الدين ، وهو ما يترجم عنه العقاد ــ وهو معروف بخصومته للمرأة ــ بقوله : لقد جاء القرآن الكريم بحقوق مشروعة للمرأة لم يسبق إليها دستور شريعة أو دستور دين ، وأكرم من ذلك أنه رفعها من المهانة إلى مكانة الإنسان المعدود من ذرية آدم وحواء ، بريئة من رجس الشيطان ومن حطة الحيوان[٦٠] .

كانت المرأة عند اليونانيين القدامى ــ وهم أكثر الدول تمدنا وأخذاً بأسباب الحضارة ــ مسلوبه الحرية معدومة المكانة في كل ما يتصل بالحقوق الشرعية ، بل ان فيلسوفاً كبيراً مثل أرسطو كان يعيب على أهل إسبرطه أنهم يتساهلون مع نساء عشيرتهم ويمنحونهن بعض الحقوق التي تفوق أقدارهن[٦١] . وربما ظن ظانٌّ أن

---

(٦٠) المرأة في القرآن ص ٥٧ .

(٦١) المصدر السابق ص ٥٣ .

عبارة أرسطو قد تفسر على أنه كان للمرأة قسط من الحرية عند الإسبرطيين ، فذلك شيء لم يحدث ، وإنما كانت المرأة مضطرة إلى التصرف في أضيق الحدود في غيبة الأزواج والآباء في القتال ، فإن بيئة إسبرطة كانت بيئة عسكرية كما نعرف ، هذا وتذهب بعض المصادر ــ ربما انسجاماً مع رأي أرسطو في حرية المرأة الإسبرطية ــ إلى أن المرأة الإسبرطية كان لها الحق في أن تتزوج بأكثر من رجل واحد[٦٢] وكانت أكثر النساء يمارسن هذه العادة .

وأما عند الأثينيين وهم أكثر الدول القديمة تمدناً وأخذاً بأسباب الحضارة فكانت المرأة مجرد مملوكة أو قطعة من الأثاث تباع وتشترى بيع السائمة والعقار ، وكان ينظر إليها نظرة ازدراء واحتقار ، وكان من حق الأثيني أن « يقتني » أو « يتملك » أي عدد من النساء بلا قيد ولا شرط ، وكان الأثيني يتفاخر بوجود ثلاث طبقات من النساء في نطاق أمته ، طبقتان منها تشكل الزوجات الشرعيات ونصف الشرعيات[٦٣] والباقيات بطبيعة الحال وهن الثلث يشكلن طبقة البغايا .

ولم تكن المرأة عند الرومان بأحسن حالاً من أختها عند اليونان ، فقد كان تعدد الزوجات تقليداً من تقاليد الشرف والامتياز ، ولم يزل أمر الانتصارات المصحوبة بألوان الترف والفخامة أن جعلت من قدسية الزواج مجرد كلمة لا معنى لها عند الرومان . وأصبح تعدد الزوجات أمراً قانونياً ، ولم يقف الأمر عند ذلك الحد ، بل تطور في المجتمع إلى أن أصبح التسري واتخاذ العشيقات الكثيرات العدد شيئاً تعترف به الدولة رسمياً ، والنتيجة الحتمية لذلك كانت ضياع المرأة ثم انزلاقها إلى مهاوي البيع والشراء[٦٤] .

هذا وقد كان للرومان شعارهم فيما يتعلق بالمرأة ، وهو أن قيدها لا ينزع ونيرها لا يخلع ، ومن ثم فإن المرأة في هذا المجتمع الغريب لم تسترد حريتها إلا مع تحرر العبيد[٦٥] .

---

(٦٢) The Spirit of Islam p. 222- 223

(٦٣) The Spirit of Islam, p. 222

(٦٤) The Spirit of Islam. p. 224

(٦٥) المرأة في القرآن ص ٥٤ .

وإذا ما انتقلنا إلى الأمم الشرقية فإن الأمر لم يكن بأفضل حالاً منه في البيئة الأوربية إن لم يكن أكثر سوءا إذ لم يكن هناك أي تحديد لعدد الزوجات عند الهنود والميديين والبابليين والأشوريين والفرس .[٦٦] ففي الهند لم يكن للمرأة أية حقوق في المعاملات ، بل لم يكن لها حق في الحياة نفسها إذا مات زوجها ، فقد كان محتوماً عليها أن تموت يوم موته ، وأن تحرق وهي حية مع جثته على موقد واحد .

وأما بابل التي يعتبر بعض مؤرخي الحضارات أنها ضربت في أسباب التقدم بسهم وافر منذ القدم في ظل شريعة حمورابي التي اعتبرت شريعة متقدمة بالقياس إلى غيرها من شرائع الأمم المعاصرة لها أو السابقة عليها ، فإن المرأة لم يكن لها نصيب من الحرية أو الكيان في ظلها ، وإنما كانت تحسب في عداد الماشية المملوكة[٦٧] .

وكان مركز المرأة عند الفرس ـــ على حضارتهم ، فيما يذكر الكاتب التركستاني أحمد أجايف أكثر سوءاً وأبعد امتهاناً ، ذلك أنها لم تكن تتميز عن الأمة المملوكة في شيء ، تظل طيلة حياتها سجينة بين جدران منزلها أو منزل زوجها لا يحق لها أن تخرج منه ، كما كانت تباع وتشترى في كثير من الأحيان ، هذا فضلاً عن الخروج في التعامل معها عن حدود المألوف في عالم الإنسان ، بل في بعض عوالم الحيوان ، فقد أبيح الزواج بالأمهات والأخوات والعمات والخالات وبنات الأخ وبنات الأخت ، ويزداد امتهان المرأة في المجتمع الفارسي القديم بعداً عن الإنسانية ، وذلك بأن تنفى الأنثى في فترة الطمث إلى مكان بعيد خارج المدينة ، ويظل مقضيًّا عليها بأن تقيم في خيمة تعرف باسم داخمي ، ولا يجوز لأحد مخالطتها إلا الخدم الذين يقدمون لها الطعام ، وحتى هؤلاء كانوا يضعون لفائف من القماش حول أنوفهم وآذانهم وأيديهم خشية النجاسة إذا مسوا

---

(٦٦) The Spirit of Islam, p. 223

(٦٧) المرأة في القرآن ص ٥٢ .

المرأة أو لمسوا خيمتها ، والمرأة الفارسية فضلاً عن ذلك كله كانت تحت سلطة الرجل المطلقة ، يحق له أن يحكم عليها بالموت أو ينعم عليها بالحياة[٦٨] .

وإذا ما انتقلنا إلى الديانات السماوية قبل الإسلام فسوف نجد أن المرأة لم تأخذ حقها من الحرية الشخصية أو الميراث أو حرية الزواج في كثير من الحالات ، فليس للبنت فى الشريعة اليهودية نصيب في تركة أبيها إذا كان له عقب من الذكور ، وإذا آل ميراث إلى بنت فإنه لا يؤول إليها من قبيل الشفقة أو التنظيم الاجتماعي ، ولكن الضرورة تكون قد حتمت ذلك لعدم وجود إخوة لها من أبيها ، ولا يقف الأمر بالفتاة التي اقتضت الضرورة أن تجعلها وارثة لمال أبيها عند حد الميراث ، ولكنها تفاجأ ــ مادامت أصبحت وارثة ــ بقيد لم تكن تتوقعه ، وهو أنه لا يحق لها أن تتزوج من سبط آخر ، وبالتالي لا يحق لها أن تنقل ميراثها إلى نطاق أسرة ليست من رهطها .[٦٩] ومن الطريف أن العقاد وقد نذر الكثير من جهده للرد على أباطيل الغربيين الذين يعمدون إلى إلصاق أمور إلى الإسلام هو منها براء ، مايكاد يطرق هذا الموضوع حتى يشير إلى أولئك المؤرخين الغربيين الذين يزعمون أن الإسلام ينقل شريعته من الشرائع السابقة ، وخصوصاً الشريعة الموسوية ، ويقول إنه لا يتضح بطلان هذه الدعوى من شيء كما يتضح من المقابلة بين مركز المرأة في حقوقها الشرعية كما نصت عليها كتب التوراة ، ومركز المرأة في حقوقها الشرعية التي أقرها الإسلام بأحكام القرآن .

وفى نطاق الزواج فإن اليهود قد كانوا يجمعون من الزوجات بغير تحديد ، واستمر التعدد بلا حدود حتى بعد مجيء موسى عليه السلام ، ثم لم يلبث الحاخامات أن اختلفوا على أنفسهم ، فبينما حدد الربانيون عدد الزوجات أطلقه القراءون بغير حدود ورفضوا مبدأ التحديد[٧٠] .

وحتى في ظل المسيحية حين سقطت الدولة الرومانية وكان مجتمعها مجتمع شهوات وفساد وترف ، سرت عند الناس موجة من الزهد وكراهية الذرية ،

---

(٦٨) حقوق المرأة في الإسلام ص ٢٧ ، ٢٨ .

(٦٩) المرأة في القرآن ص ٥٥ .

(٧٠) The Spirit of Islam p. 223

والإيمان بنجاسة الجسد ونجاسة الذرية ، وباءت المرأة بلعنة الخطيئة ، فكان الابتعاد عنها حسنة مأثورة لمن لا تغلبه الضرورة ، وانشغل بعض اللاهوتيين إلى القرن الخامس الميلادي بالبحث في جبلتها ، وتساءلوا في «مجمع ماكون» هل المرأة جثمان بحت أو هي جسد ذو روح يناط به الخلاص والهلاك ، وغلب على آرائهم أنها خلو من الروح الناجية ، وليس هناك استثناء لذلك بين جميع بنات حواء من هذه الوصمة إلا سيدتنا مريم أم المسيح عليه السلام[٧١]

ذلك هو مقام المرأة ووزنها وطرق معاملتها في نطاق الأمم ذات الحضارات والمبادئ والقيم ، وهو مقام كريه محاط بكل أسباب الضعة والظلم والتحمير والازدراء .

فإذا ما عرضنا للمجتمع العربي قبل الإسلام وجدناه لا يقل قسوة في معاملة المرأة وامتهانها عن المجتمعات الأخرى ، إلا في حالات قليلة ومع بعض الحرائر من نساء سادات العرب ، فالمجتمع العربي كان يقتل الطفلة بوأدها وهي وليدة ، وتلك جريمة من أبشع الجرائم الإنسانية والخلقية ، وكان كثير من سادات العرب يفخرون بذلك ، فهذا قيس بن عاصم المنقري يعترف أمام الرسول صلى عليه وسلم أنه وأد بضع عشرة بنتاً من بناته في الجاهلية ، وقد استفظع الرسول صلوات الله عليه وسلامه هذا العمل وفرض عليه كفارة مقدارها عتق نفس عن كل موءودة مع أن الوأد تمّ قبل إسلام قيس[٧٢] .

وقد استبشع القرآن الكريم هذه الفعلة الوحشية فوصفها في قوله تعالى :

﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾ يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ ۚ أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾ [٧٣]

---

(٧١) المرأة في القران ص ٥٤ .

(٧٢) بلوغ الأرب ٤٢/٣ ، ٤٣ .

(٧٣) النحل : الآيتان ٥٨ ، ٥٩ . كظيم : ممتلىء غيظا ، هون : ذل ومهانة ، يدسه فى التراب : يخفيه في التراب حيا .

وفي بعض القبائل كان الرجل إذا مات ورّث ولده — بين ما يورّث — نساءه جميعاً ، ويكنّ له متعة كما كنّ لأبيه من قبله ، أي أن المرأة كانت تورث بين تركة الرجل كما تورث سائمته وإبله .

هذا ولم يكن من حق النساء أن يرثن من مال آبائهن كما يرث البنون ، وذلك إما امتهانا للمرأة من حيث كونها امرأة ، وإما لأنه كان يُخشى أن ينتقل الإرث إلى الأعداء إذا ما زُوّجت البنت في قبيلة معادية ، وفي ذلك يقول عمر مستنكراً : والله إنا كنا في الجاهلية ما نعد للنساء أمراً حتى أنزل الله فيهن ما أنزل ، وقسم لهن ما قسم[٧٤] .

ومن المؤسف أن عادة حرمان الابنة من الميراث لا تزال شائعة في بعض البيئات العربية حتى اليوم ، وذلك امتداد لجاهلية يرجع تاريخها لأكثر من خمسة عشر قرناً من الزمان ، فما زالت بعض الأسر الغنية في ريف مصر وسورية والعراق تسير على هذا النهج الكريه خشية انتقال المال من الأسرة إلى أسرة غريبة قد تكون غير صديقة أو تكون معادية .

بل إن بعض الصحابة — وهم قليل لحسن الحظ — لم يستطع أن يخلع عن نفسه بسهولة كراهية الابنة الأنثى ، ولعل هذا الحوار المشهور بين عمرو بن العاص ومعاوية بن أبي سفيان يترجم عن ذلك ، فقد دخل عمرو بن العاص على معاوية وبين يديه طفلته عائشة فقال : من هذه ؟ فأجابه معاوية : هذه تفاحة القلب ، فقال عمرو : انبذها عنك فوالله إنهن ليلدن الأعداء ويقربن البعداء ، ويورثن الضغائن . فقال معاوية — وكان معروفاً بالعقل والهدوء — : «لا تقل ذلك يا عمرو ، فوالله ما مرّض المرضى ولا ندب الموتى ولا أعان على الأحزان مثلهن ، ورُبَّ ابن أخت قد نفع خاله »[٧٥] .

---

(٧٤) الإسلام والمرأة ص٢٤ .
(٧٥) العقد الفريد ٤٣٨/٢ .

الإسلام يكرم المرأة :

لم يكن للمرأة والأمر كذلك شيء أو بعض شيء من الكيان أو الكرامة أو الحقوق قبل الإسلام ، فماذا أسدى الإسلام إليها ؟ لقد خصّها بالتكريم وأحاطها بالإجلال وشملها بالرعاية وبوأها المكانة الجديرة بها كأم وابنة وأخت وزوجة وعمة وخالة على ما بينا في الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة التي أوردناها فى مستهل هذا الباب ، ولكن ذلك الذي ذكرنا كان من باب الإجمال وليس من قبيل التفصيل ، فإذا أردنا أن نفصّل المكانة التي هيأها الإسلام للمرأة ، والالتزامات التي حددها قبلها وجدناها من الكثرة بمكان ، فقد كانت محرومة من كل شيء فوهبها كل ما حرمت منه ، وأعاد إليها ما هو حق لها منذ الأزل كمخلوق كريم ، يلد الأطفال ، ويربى الرجال ، ويمنح الحنان ، ويسهم في خلق السعادة في المجتمع ، ويؤدي وظيفة سامية ، ويكوّن نصف الكيان البشرى .

لم تكن المرأة ترث في أي مجتمع قبل المجتمع الإسلامي ، فجعل الإسلام توريثها إلزاميًّا في قوله تعالى:﴿ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴿٧﴾ ﴾[٧٦]

وبعد أن يحتّم القرآن حق النساء في ميراث الوالدين والأقربين ، يعمد الكتاب العزيز إلى تخصيص الأنصبة تخصيصاً عادلاً في الآية الكريمة :﴿ يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِىٓ أَوْلَٰدِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ فَإِن كُنَّ نِسَآءً فَوْقَ ٱثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ وَإِن كَانَتْ وَٰحِدَةً فَلَهَا ٱلنِّصْفُ وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا ٱلسُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُۥ وَلَدٌ فَإِن لَّمْ يَكُن لَّهُۥ وَلَدٌ وَوَرِثَهُۥٓ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ ٱلثُّلُثُ فَإِن كَانَ لَهُۥٓ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ

(٧٦) النساء : الآية ٧ .

ٱلسُّدُسُۚ مِنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ يُوصِي بِهَآ أَوۡ دَيۡنٍۗ ءَابَآؤُكُمۡ وَأَبۡنَآؤُكُمۡ لَا تَدۡرُونَ أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ لَكُمۡ نَفۡعٗاۚ فَرِيضَةٗ مِّنَ ٱللَّهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمٗا ﴿١١﴾ ﴾ (٧٧)

وإذن فقد أوجب الإسلام للمرأة الحق في أن ترث ، ولحكمة تشريعية اجتماعية سامية جعل لها نصف ما للذكر ، وليس ذلك حطاً من شأنها ولا تقليلاً من قيمتها ، وإنما لأنها حين تأخذ النصف من ميراث أبيها ، فإنها تترك لإخوتها الذكور الأكثر التزاماً منها بتكاليف الحياة ما يعينهم على الحياة نفسها ، وفي نفس الوقت يتمتع زوجها بنفس الميزة بالقياس إلى زوجته ، فكأنها قد تركت النصف لزوجة أخيها ، وكأن زوجة أخيها قد تركت النصف لها ، وهكذا تستمر الدورة في نطاق الأسرة وأنسبائها وأصهارها ، ولعل ذلك هو أبلغ ردّ على بعض الذين طلبوا المساواة المطلقة في الميراث بين الرجل والمرأة ، ولو طبق ذلك لانتفت الفكرة العادلة في التوزيع الإلهي للميراث .

ولقد جعل الإسلام الصداق حقاً للمرأة دون أهلها ، وكان الصداق قبل ذلك يعطي لأهلها دونها ، وقد حرص الإسلام في هذا المقام أيضاً على أن تكون علاقة الزوج بالزوجة قائمة على المعروف ، وإذا حدث طلاق فليحدث في حدود تكريمها وعدم امتهانها ، والآية الكريمة تقول : ﴿ ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِۖ فَإِمۡسَاكُۢ بِمَعۡرُوفٍ أَوۡ تَسۡرِيحُۢ بِإِحۡسَٰنٖۗ وَلَا يَحِلُّ لَكُمۡ أَن تَأۡخُذُواْ مِمَّآ ءَاتَيۡتُمُوهُنَّ شَيۡـًٔا ﴾ (٧٨)

وهكذا يكون الصداق حقًّا خالصاً للمرأة .

ثم يركّز الكتاب العزيز على التسريح بإحسان في حال الطلاق في آيات

---

(٧٧) النساء الآية ١١ .

(٧٨) البقرة : الآية ٢٢٩ .

* الطلاق مرتان : أي لا تجوز فيه المراجعة أكثر من مرتين ، إمساك أي مراجعة . تسريح أي ترك بدون مراجعة ، ولا يحل لكم .... يعني لا يحل أن تأخذوا منهن صداقهن .

متعددة ، متفرقة حيناً ، ومتتالية حيناً آخر ، وما ذلك إلا حفاظاً على آدمية المرأة ، وتزكية لكيانها ، وصوناً لشخصيتها .

﴿ وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُوا۟ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ ﴾(٧٩)

وكذلك سوى الإسلام تسوية مطلقة بين دم الرجل ودم المرأة ، ففي آيات القصاص لم ينص على إعدام قاتل الرجل دون قاتل المرأة ، وإنما الاقتصاص يكون من القاتل رجلاً كان أو امرأة ، وللقتيل رجلاً كان أو امرأة ، ولم يكن الأمر كذلك قبل الإسلام حيث كان قصاص القتل لقاتل الرجل فقط .

ولقد حافظ الإسلام للفتاة على شخصيتها فيما يتصل بزواجها ، وجعل لها حقاً مطلقاً في رفض الزوج الذي يفرضه عليها أهلها فيما لو كانت غير راغبة فيه لسبب معقول ، فقد شكت فتاة إلى الرسول صلى الله عليه وسلم أن أباها زوجها من ابن أخيه دون رغبة منها ، ففوّضها الرسول صلى الله عليه وسلم في شأنها فيما لو أرادت الانفصال عنه(٨٠) .

ولم يقف الأمر بالإسلام في نطاق تكريم المرأة ورفع شأنها ومنحها حقوقها الآدمية عند تلك الحدود التي ذكرنا ، بل إن الشريعة الإسلامية لأول مرة في التاريخ خولت للمرأة الراشدة جميع الحقوق المدنية المتصلة بأملاكها ، فقد منحتها كامل حريتها في أن تدير شئونها بنفسها من مال وأملاك وتجارة وزراعة ، ويدخل في ذلك حرية التصرف في مهرها إن كانت متزوجة ، وفي هذا النطاق حول لها أن تعقد عامة العقود المدنية ، من بيع وشراء وإيجار واستئجار وشركة ورهن وهبة ووصية إلى غير ذلك من الشئون الشخصية التي تعرض للمرء في حياته ، وحق المرأة هذا قد صانه لها القرآن الكريم في قول الله تعالى : ﴿ وَٱبْتَلُوا۟ ٱلْيَتَٰمَىٰ

---

(٧٩) البقرة : الآية ٢٣١ ــ بلغن أجلهن : قاربن انتهاء العدة .

(٨٠) الإسلام والمرأة : هامش ص ٤٢ .

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُوا۟ ٱلنِّكَاحَ فَإِنْ ءَانَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَٱدْفَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ ۖ وَلَا تَأْكُلُوهَآ إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَن يَكْبَرُوا۟ ﴾ (٨١)

وإذن فقد حفظ الإسلام للمرأة حق التصرف في مالها تصرفاً كاملاً ، وإن كانت العلاقة الزوجية القائمة على الثقة كثيراً ما تدفع بالمرأة إلى أن تكل أمرها في إدارة شئونها المالية لزوجها ، لما تحتاجه هذه من متاعب قد لا تؤهلها طبيعتها في كثير من الأحيان للنهوض بها كاملة .

والقرآن الكريم بعد ذلك كله ، وهو كتاب هذا الدين ، قد كرم المرأة في أكثر من مقام حيث قرنها بالرجل في آيات التبشير بحسن الجزاء ، والحضّ على الخير ، والنهي عن المنكر ، كما في قوله تعالى : ﴿ فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّى لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ ۖ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ ۖ فَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ وَأُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأُوذُوا۟ فِى سَبِيلِى وَقَٰتَلُوا۟ وَقُتِلُوا۟ لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ثَوَابًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلثَّوَابِ ﴿١٩٥﴾ ﴾ (٨٢)

فإذا كانت طبيعة رسالة الإسلام تنسحب بداهة على الرجل والمرأة على حد سواء ، والخطاب عن المجموع يكون بالحديث عن المذكر كما جرت بذلك تقاليد الإنشاء البياني ، فإن القرآن الكريم حينما يعمد إلى التخصيص بذكر الذكر والأنثى معاً ، إنما استهدف قصداً معيناً بذاته ، وهو تكريم المرأة لدورها العظيم في نطاق الآية السابقة ، في الهجرة والتعرض للأذى والبلاء في القتال والاستشهاد ، ومن المعروف أن أكثر من شهيدة في ظل العقيدة قد لقيت حتفها على يد كفار مكة .

---

(٨١) النساء : الآية ٦ . ابتلوا اليتامى أى اختبروهم في حسن التصرف قبل البلوغ ، بلغوا النكاح اي السن المؤهلة للزواج ، آنستم منهم رشدا أي تبينتم حسن تصرفهم ، إسرافا وبدارا أن يكبروا أي لا تتعجلوا أكل أموالهم قبل أن يكبر صاحبها فينتزعها من أيديكم .

(٨٢) آل عمران : الآية ١٩٥ .

والكتاب العزيز مرة أخرى يذكر الذكر والأنثى من الناس في مقام فعل الخير وتبشير كل من الجنسين بأحسن الجزاء ، وفي ذلك لفتة كريمة للمرأة ، وتذكير لها بأنها في رحاب الثواب الإلهى طالما كانت أهلاً للثواب ، وإن ذكر الثواب مطلقاً يشملها ، ولكن الله سبحانه وتعالى يخصها بالذكر حضًّا لها على فعل الخير ، وإظهاراً لشخصيتها وتكريماً لوجودها بعد أن لقيت الكثير من العنت في عهد الشرك ، والشديد من الظلم في عصر الجهالات ، والمرهق من العسف فى زمان الضلالات ، ومن ثمَّ كان وعدها بحسن الجزاء والحياة الطيبة متى صنعت الخير وعداً من الله مباشراً واضحاً وذلك في قوله تعالى : ﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾ ﴾ (٨٣)

وحين يعدد القرآن الكريم الصفات الضرورية للمسلم المؤمن — من قنوت وصدق وصبر وخشوع وتصدق وصيام وعفة ودوام ذكر لله — فقد اقتضت حكمة الله وعدالته أن يعد أصحاب هذه الصفات بالمغفرة والأجر العظيم ، يستوي في ذلك الرجال والنساء ، فذكرت الآية الكريمة في مقام الغفران والأجر العظيم كل جنس بصفته ، فقال تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْقَٰنِتَٰتِ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ وَٱلْخَٰشِعِينَ وَٱلْخَٰشِعَٰتِ وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٣٥﴾ ﴾ (٨٤)

لقد كرم الإسلام إذن المرأة في كتابه الكريم ، وقرنها بالرجل في كل مجالات الخير ، وخصها معه بالذكر في كل ميادين العمل والتضحية والإيمان ، وأبرز وعد

---

(٨٣) النحل : الآية ٩٧ .

(٨٤) الأحزاب : الآية ٣٥ .

الله لها بالثواب والجنة ، كل ذلك لإضفاء صفة الأهمية على شخصها ، والتكريم على مكانها ومكانتها .

وحتى لا يتطرق الظن إلى بعض العقول أن ذلك الذكر للمرأة ـــ تخصيصاً ـــ فيه شيء من المحاباة لها ـــ تعالى الله سبحانه عن ذلك ـــ فقد قرن القرآن الكريم ـــ عدالة منه ونصفة ـــ ذكر المرأة بالرجل في مقام توجيه النصح والأمر بالتزام جادة الأمور ، حيث لا يخلو الخطاب القرآني أحياناً من شدة اقتضتها الضرورة ، وحزم دفع إليه السياق ، وزجر أملاه الموقف ، وهنا يكون التوجيه القرآني لكل من الجنسين على حدة ، وذلك في قوله تعالى : ﴿ قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ (٣٠) وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَىٰ عَوْرَاتِ النِّسَاءِ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٣١) ﴾ (٨٥)

ونظراً لما لمركز المرأة من دقة بحكم تكوينها الأنثوي فقد عمدت الآية الكريمة إلى التنبيه مع التفصيل الذي يصل إلى حدود الشمول ، وبذلك تتحقق المساواة النوعية بين الرجل والمرأة في هذا المقام .

---

(٨٥) سورة النور : الآيتان ٣٠ ، ٣١ .

ولم يقف الأمر بالكتاب العزيز في مقام قرنها بالرجل عند الثواب المرتقب أو التوجيه المتطلّب وحسب ، وإنما عمد إلى ذلك أيضاً في مقام القصاص من الجرائم التي يقترفها أيٌّ من الجنسين : ﴿ وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓا۟ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءًۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٣٨﴾ ﴾[86]

﴿ ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِى فَٱجْلِدُوا۟ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِا۟ئَةَ جَلْدَةٍ ۖ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِى دِينِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۖ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾ ﴾[87]

فالقرآن الكريم إذن بسط الأضواء على مكانة المرأة ، وقرنها بالرجل حيث ينبغي الاقتران في مواقف التمجيد والثواب ، وفي مناسبات التنبيه والتحذير ، وفي أحكام القصاص والعقاب .

والإسلام جعل منها كائنا مكرماً حفظ لها حقوقها قِبلَ الرجال ، ومنحها حرية كاملة في ولايتها على ممتلكاتها وأموالها ، ويسر لها حق الاختيار والرفض في الزواج ، وحق الصداق عند الطلاق ، وضمن لها حقها المشروع في الميراث ، وأكرمها الرسول بأمر ربه فجعل الجنة تحت أقدام الأمهات ، وأخيراً فإن أعظم الحقوق الشرعية التي كسبتها المرأة من القرآن الكريم لأول مرة ـــ حسب تعبير العقاد ـــ أنه رفع عنها لعنة الخطيئة الأبدية ووصمة الجسد المرذول[88] .

كان من الطبيعي والأمر كذلك أن يلتمع للمرأة المسلمة نجم ، وأن يرتفع لها شأن ، وأن يعظم لها أمر ، وأن تسمو لها مكانة ، وأن تبرز لها شخصية فتفتي المسلمين في أمور دينهم كما فعلت السيدة عائشة وبعض أمهات المؤمنين ، وتجابه الخلفاء ، ويعلو رأيها أحياناً على آرائهم ، كما فعلت امرأة مسلمة مع أعظم خلفاء

---

(٨٦) سورة المائدة : الآية ٣٨ .

(٨٧) سورة النور : الآية الثانية .

(٨٨) المرأة في القرآن ص ٥٧ .

المسلمين فقال : أصابت امرأة وأخطأ عمر . وخاضت المعارك الحربية قولا وعملا في سبيل المبدأ كما فعلت سودة بنت عمارة بن الأشتر الهمدانية في معركة صفين ، وهي تدفع أخاها لخوض المعركة في صف أمير المؤمنين عليّ مؤلبة إياه على معاوية قائلة .

شمِّرْ كفعلِ أبيكَ يابنَ عمارة يومَ الطِّعانِ ومُلْتقَى الأقْرانِ
وانصُرْ عليًّا والحسيْنَ ورهْطَهُ واقصِدْ لِهنْدٍ وابنِها بِهَوَانِ
إنَّ الإمامَ أخو النَّبيِّ محمدٍ علمُ الهُدَى ومنارةُ الإيمانِ
فقُدِ الجيوشَ وسِرْ أمامَ لوائِهِ قُدُماً بأبيضَ صارمٍ وسِنَانِ[89]

ولم تكن سودة وحدها التي خاضت معارك عليّ ضد معاوية بحماس متأجج وشعر ملتهب ، إنهن كثيرات رفع الإسلام من شأنهن فاكتشفن مكانهن في مجتمعن ، فمن هؤلاء بكّارة الهلالية التي لها ضد معاوية صفحة لا تنسى وشعر — لفرط شدته وعنفه — حفظه رءوس بني أمية ، تدخل بكارة على معاوية في حاجة لها وعنده عمرو بن العاص ومروان بن الحكم وسعيد بن العاص ، فما إن يستبين شخصيتها عمرو حتى يقول : هي والله القائلة يا أمير المؤمنين :

يا زَيدُ دونَكَ فاسْتَشِرْ مِن دارنا سيفاً حُساماً فى الترابِ دَفينَا
قد كنتُ أذْخَرُهُ ليومٍ كريهة فاليومَ أبْرَزَهُ الزمانُ مَصُونا

ولا يكاد ينتهى عمرو من رواية البيتين حتى ينطلق مروان قائلًا : وهى والله القائلة يا أمير المؤمنين :

أتُرى ابنَ هندٍ للخلافةِ مالكاً هيهاتَ ذاكَ — وإنْ أراد — بعيدُ
مَنَّتْكَ نفسُكَ فى الخلاءِ ضَلالَةً أغْراكَ عَمْرٌو لِلشَّقَا وسعيدُ

وهنا ينطلق سعيد وهو يعلم أنها طالما سخرت به وبقومه ، ويسهم فى تأليب معاوية على المرأة العربية التى رباها الإسلام فعزت مكاناً وذلقت لسانا وفصحت بيانا ، فيقول : هى والله القائلة :

---

(٨٩) العقد الفريد ٢/١٠٢ .

قد كنتُ أطمعُ أنْ أموتَ ولا أرى — فوقَ المنابـر مِنْ أُميَّـةَ خاطبـا
فاللهُ أخَّـرَ مُدَّتِـى فتطـاولتْ — حتَّـى رأيتُ من الزمـانِ عجائبـا
فى كلِّ يومٍ للزمـانِ خطيبُهـمْ — بين الجميـع لآلِ أحمدَ غائبـا[90]

واللاتى لم يكن يقلن الشعر من النساء المسلمات يذكين به نار المعارك كنَّ يمتطين صهوات الجمال خطيبات حاضّات على القتال بأبلغ بيان ، وكانت خطبهن تحفظ كما كان شعر الأخريات يردد ، إن من هؤلاء الخطيبات الزرقاء ابنة عدىّ الهمدانية ، واحدة من أبطال صفّين فى جيش علىّ ، إن معاوية وقد استقر تحته كرسى الحكم يجلس بين صحبته من بنى أمية يتذاكرون أمور حربهم مع بنى هاشم ، فيذكر بعضهم الزرقاء بنت عدىّ ، فيقول معاوية من منكم يذكر كلامها ؟ فيقول عديد من الجمع : نحن نحفظه ياأمير المؤمنين ، فيقول معاوية : فأشيروا علىّ فى أمرها ، فيشير بعضهم بقتلها ، وهنا يمكن أن نتصور خطورة الدور الذى أدته هذه المرأة فى ميدان القتال ، حتى إن بعض رجال بنى أمية يشيرون بقتلها بعد أن استقر الأمر لهم ولم تعد تشكل خطراً عليهم ، ولكن معاوية بما عرف عنه من عقل وحلم وكياسة يقول : بئس الرأى أشرتم به علىَّ ، أيحسن بمثلى أن يقتل امرأة بعد ما ظفر بها : ولكن الرغبة فى استكشاف طبيعة العدو الذى غُلِب ، تدفع معاوية إلى أن يبعث إلى واليه على الكوفة لكى يبعث إليه بالزرقاء ، فما إن تصل إلى دمشق حتى يقول لها ، وهنا يغنينا حديث معاوية عن وصف طبيعة الدور الذى لعبته الزرقاء فى القتال : ألست الراكبة الجمل الأحمر والواقفة بين الصفين يوم صفّين تحضين على القتال وتوقدين الحرب ؟ فما حملك على ذلك ؟ فتجيب والحكمة ملء برديها فى غير ما خوف ولا تردد ولكن فى تعقّل وثبات : يا أمير المؤمنين ، مات الرأس وبُتر الذنب ، ولم يعد ما ذهب ، والدهر ذو غِير ، ومن تفكر أبصر ، والأمر يحدث بعد الأمر . قال لها معاوية : صدقت ، أتحفظين كلامك يوم صفين ، قالت : لا والله ، لا أحفظه لقد أُنسيته . وهنا يقول معاوية : لكنى أحفظه ، لله أبوكِ حين تقولين .. ويمضى معاوية مردداً خطبة

---

(90) العقد ١٠٥/٢ .

الزرقاء فى ميدان الحرب ، كلامها يفجر الدماء ومنطقها يطيح رقاب الأعداء ، ومعانيها تؤجج النيران فى النفوس فتجعل المحاربين من رجالها يخوضون بحار النجيع إلى أذقانهم ، فلنستمع إلى معاوية يرجع ما قد بقى عالقاً بحافظته من خطاب الزرقاء :

«أيها الناس : ارعووا وارجعوا ، إنكم قد أصبحتم فى فتنة غشتكم جلابيب الظلم ، وجارت بكم عن قصد المحجّة ، فيالها فتنة عمياء ، صماء بكماء ، لا تسمع لناعقها ولا تنساق لقائدها . إن المصباح لا يضيء فى الشمس ، ولا تنير الكواكب مع القمر ، ولا يقطع الحديد إلا الحديد . ألا من استرشدنا أرشدناه ، ومن سألنا أخبرناه ، أيها الناس : إن الحق كان يطلب ضالته فأصابها ، فصبراً يا معشر المهاجرين والأنصار على الغصص ، فكأن قد إندمل شعب الشتات ، والتأمت كلمة العدل ، ودفع الحق باطله ، فلا يجهلن أحد فيقول : كيف العدل وأنّى «ليقضى الله أمراً كان مفعولًا» . ألا وإن خضاب النساء الحناء ، وخضاب الرجل الدماء ، ولهذا اليوم ما بعده * والصبر خيراً فى الأمور عواقبا * إيهاً فى الحرب قُدُماً غير ناكصين ولا متشابكين»(٩١) .

وهذه عِكْرشة بنت الأطرش إحدى النساء اللاتى استرددن أنفسهن فى ظلال الإسلام كانت متقلدة حمائل السيف بصفين ، وتدعو الرجال للقتال وهى واقفة أمامهم فى مواجهة عدوهم الأموى، تعدهم بالنصر أو الجنة قائلة فى أبلغ عبارة : « إن الجنة لايرحل عنها من قطنها ولا يهرم من سكنها ، ولايموت من دخلها ، فابتاعوها بدار لا يدوم نعيمها ، ولا تنصرم همومها ، وكونوا قوماً مستبصرين فى دينهم ، مستظهرين بالصبر فى طلب حقوقهم . إن معاوية دلف إليكم بعجم العرب غُلف القلوب ، لا يفقهون الإيمان ولا يدرون ما الحكمة ، دعاهم بالدنيا فأجابوه ، واستدعاهم إلى الباطل فلبّوه ، الله الله عباد الله فى دين الله ، واياكم والتواكل فإن ذلك ينقض عرى الإسلام ، ويطفئ نور الحق ، هذه بدر الصغرى ، والعقبة الكبرى . يامعشر المهاجرين والأنصار ، امضوا على بصيرتكم واصبروا

---

(٩١) العقد ١٠٩/٢ .

على عزيمتكم ، فكأني بكم غدا لقيتم أهل الشام كالحمر الناهقة ، تصقع صقع البقر وتروث روث العتاق»[92] .

إن الأمثلة على مشاركة المرأة في الشئون العامة وفي المعارك الحربية والخلافات الحزبية من الكثرة بمكان ، وكل مثال أبلغ من سابقه . لقد حررها الإسلام أولا ثم سنمها مكانتها الحقيقية ، فأدت دورها بأكمل ما يمكن أن يؤدي من كمال ، وأسهمت بجهودها قولاً وفكراً وعملاً وتطبيقاً ، وحاربت وحاجّت وشعرت وخطبت ، وواجهت الخلفاء والملوك بالقول الساطع والبيان الوضاح ، ولكنّ هناك أثر رائع للإسلام في نفوس النساء حين حوَّل المرأة من مجرد أنثى تنوح وتبكي إلى إنسان كريم يعتبر ويضحي خدمة لإنسانيته وفداء لعقيدته ، ولعل المثال الذي يمكن أن يُتمثَّل في هذا المقام أحسن تمثل هو شخصية امرأة عربية في الجاهلية والإسلام ، وكانت ذات شهرة في هاتين الفترتين من الزمان ، ولكن شتان الفرق بين صفتها في الجاهلية وصفتها فى الإسلام ، كانت في الجاهلية بكاءة نواحة شعرها يفيض دموعاً وينضح شجناً ، فلما جاء الإسلام علمها كيف تستعصي دموعها على أقرب الناس إليها إذا ماقضوا في سبيل عقيدة أو استشهدوا في سبيل مبدأ ، لعلنا قد عرفنا هذه المرأة الآن ، إنها تماضر بنت عمرو بن الشريد التى عرفت باسم «الخنساء» ، لقد كان للخنساء في الجاهلية أخ فارس شجاع كريم جليل القدر هو صخر بن عمرو ، وكان باراً بها كل البر ، مكرماً لها كل الإكرام ، يقتسم معها ماله كلما حلت بها ضائقة ، فلما مات بكته بالقصائد الطوال والأبيات . البليغة التي حملت من المعاني ما جعلتها تعيش في خواطر الناس مئات عديدة من السنين ، وعرفت الخنساء حتى الآن بالشاعرة البكاءة ، لقد قالت في رثاء أخيها وبكائه ديوان شعر كاملاً ، ويجيء الإسلام مبشراً بالخير شاملاً البشر من رجال وإناث بالتكريم الذي أعاد إليهم إنسانيتهم في ظل من العقيدة وسياج من الاقتناع ، وتبدأ حركة الفتوح الإسلامية ، ويتوقف مصير الانسياب الإسلامي للجيوش العربية الإسلامية على معركة القادسية ، وتلاحظ الخنساء معارك الفتوح مع من يلاحظ من رجال

---

(92) المصدر ١١١/٢

المسلمين ونسائهم ، ولها أربعة من الأولاد الشباب الأقربين كل القرب إلى قلبها ، قرباً يتضاءل أمامه قرب صخر ، فذاك أخوها وهؤلاء بنوها ، فتصحبهم على كبرها إلى ساحة القتال وتدفع بهم إلى أتونها انتصاراً لعقيدتها واستجابة لإسلامها ، ووقفت تخطبهم حاضة مشجعة قائلة[٩٣] : « يابَنيّ أنتم أسلمتم طائعين ، وهاجرتم مختارين ، والله الذي لا إله غيره ، إنكم لبنو رجل واحد ، كما أنكم أبناء امرأة واحدة ، ماخنت أباكم ولا فضحت خالكم ، ولا هجنت حَسبكم ، ولا غيَّرت نسبكم ، وقد تعلمون ما أعدّ الله للمسلمين من الثواب العظيم في حرب الكافرين ، واعلموا أن الدار الباقية خير من الدار الفانية ، يقول الله عزّ وجل (**يا أيها الذين آمنوا اصْبِرُوا وصَابِرُوا ورَابِطُوا ، واتَّقُوا الله لعلَّكم تُفْلِحُون**) فإذا أصبحتم غدا فاغدوا إلى قتال عدوكم مستبصرين ، ولله على أعدائه مستنصرين » .

وتبدأ رحى القتال ، وينطلق الفرسان الفتيان إلى أتون المعركة ينشدون الأراجيز ، يقاتلون ويتقدمون ثم يستشهدون الواحد بعد الآخر ، ويبلغ الخبر الحزين أمهم الخنساء ، فلا تبكي على بنيها كما بكت على خال لهم من قبل ، وإنما تقول من تحت ظلال الإيمان : «الحمد لله الذي شرفني بقتلهم ، وأرجو من ربي أن يجمعني بهم في مستقر رحمته » .

إن الفرق بين المرأة قبل الإسلام وبعده هو نفسه الفرق بين شخصية الخنساء قبل الإسلام وبعده .

لقد أخذ الإسلام بيد المرأة وكرّمها وزكاها ومنحها كل ما هي أهل له كنصف للبشرية ، وكأم وأخت وزوجة وابنة ، فإذا حدثت بعد ذلك نكسة فليس الإسلام هو الذي نكسها ، ولكن الأوضاع الاجتماعية والانفلات عن الجادة واستحداث التقاليد من رجعية جامدة أو انطلاقية منحرفة كل ذلك — وليس الإسلام — مسئول عن الردة وملوم على النكسة .

---

(٩٣) جمهرة خطب العرب ١/١٢٠ ، ١٢١ .

الإســـلام والسيـــف

يخطئ كثير من المستشرقين وغير المستشرقين حينما يذهبون في كتاباتهم إلى أن الإسلام قد انتشر بالسيف ، وهم يحاولون إلباس دعواهم ثياب صدق وحيدة حين يربطون بين الفتوحات الإسلامية وبين نشر الإسلام ، والحق أن الذين يركبون هذا المركب الخشن في محاولة الربط بين نشر الدعوة الإسلامية وامتشاق الحسام ليسوا إلا واحداً من رجلين : رجل حسن الطوية ولكنه قاصر في اطلاعه لم يأخذ من الدراسة حول الإسلام إلا قشوراً دون أن ينفذ إلى اللباب ، فيطلع على جمهور القراء بأفكار فجة ومعلومات خاطئة واستنتاجات ظالمة ، ورجل قرأ وفهم ووعى ما قرأ ولكنه سيئ النية شرير الطوية ، يغالط نفسه ويظلم الإسلام بنسبة أمور إليه هو منها براء .

فالمعروف أن المسلمين لم يشهروا السيف لأول مرة إلا في غزوة بدر ، وهم حين فعلوا ذلك لم يكونوا عادين ولا ظالمين ، وإنما كانوا يدافعون عن الدعوة التي أنزلها الله على رسوله ، فآمنوا بها وهاجروا في سبيلها وحاربوا حفاظاً عليها ، وإن المتتبع بعد ذلك للوقائع التي عرفت بالغزوات لا يجد كثير عناء في أن يستنتج أن السيف الإسلامي قد شهر فيها دفاعاً عن الدين الجديد وذودا عن حياض المسلمين ، وحفاظاً لأرواحهم وعقيدتهم ، فكانت الغزوات إما حرباً دفاعية وإما حرباً وقائية ، والحرب الدفاعية والحرب الوقائية كلاهما سواء .

فلما استتب الإسلام في الجزيرة العربية وبدأت الفتوحات ، لم تكن تهدف إلى نشر الدين بقوة السيف ، وإنما كانت لإخضاع الحكام الظالمين وسلّ عروشهم ، وإنقاذ أبناء البشرية مما أوقعوه عليهم من جور ، وما أحاطوهم به من ظلم وإذلال ، ولذلك فإن المسلمين في فتوحاتهم لم يرغموا أحداً على الإسلام ولم يقتلوا طفلاً أو يؤذوا امرأة أو ينالوا شيخاً بضرر . فلم تكن الفتوحات الإسلامية فى واقعها لتحويل غير المسلمين إلى مسلمين ، إنما كانت لتوسيع نطاق السيادة الإسلامية التي هي سيادة اللهوبسط العدالة والطمأنينة على ربوع العالمين .

فأسلوب الدعوة إلى الإسلام بعيد كل البعد عن الدماء ، بريء كل البراءة من شهر السيف وامتشاق الحسام ، وإنما السبيل إلى ذلك مسطور في حنايا الكتاب العزيز في أكثر منَ آية من آيات الله ، فسبيل نشر الدعوة ينحصر في أن قوة الدعوة نفسها أمضى وأقوى من قوة السيف ، فالله تعالى يقول :
« لا إكراه في الدين » ويقول « ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن » ويقول ﴿ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوا وَّإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴾ (٩٤)

هذا هو دستور الدعوة الإسلامية ، سبيل كله سلام وحرية اختيار ، لا إجبار ولا إكراه ، ولذلك فمن الحقائق التاريخية المسلم بها أن المسيحيين من العرب ظلوا متمتعين بكامل حقوقهم ، وأن عمر بن الخطاب لم يفرق بين تغلب المسيحية وبين المسلمين ، ومعروف أيضاً أن المسيحيين في الشام طلبوا نجدة الجيوش الإسلامية لكي تخلصهم من ظلم الروم ، ولكي تنشر العدل بينهم ، فقد كانت رسالة السماء تفرض إشاعة العدالة بين الناس أياً كان دينهم ،وإذا كان الإسلام قد فرض الجزية عليهم فلم يكن معنى ذلك عقاباً لهم وإنما كان ثمناً لحمايتهم ، وفي نفس الوقت

---

(٩٤) آل عمران : الآية ٢٠ .

سمح لهم بإقامة شعائرهم الدينية والتمتع بكامل حقوقهم على وجه من العدل والإنصاف .

وكان الحال كذلك أيضاً بالنسبة للقبط في مصر ، وقد لاقوا من الاضطهاد قبل الفتح الإسلامي ما جعلهم ينتظرون وصول العرب الفاتحين بفارغ الصبر ، يقول السير توماس أرنولد في وصف حالهم : « كان بعضهم يعذب ثم يلقى بهم في اليم ، وتبع كثير منهم بَطْريقَهم إلى المنفى لينجوا من مضطهديهم ، وأخفى عدد كبير منهم عقائدهم الحقيقية وتظاهروا بقبول قرارات مجمع خلقدونية ، وقد جلب الفتح الإسلامى إلى هؤلاء القبط حياة تقوم على الحرية الدينية التي لم ينعموا بها قبل ذلك بقرن من الزمان ، وقد تركهم عمرو بن العاص أحراراً على أن يدفعوا الجزية ، وكفل لهم الحرية في إقامة شعائرهم ، وخلصهم بذلك من هذا التدخل المستمر الذي كانوا يئنون من عبئه الثقيل في ظل الحكم الروماني ، ولم يضع عمرو يده على شيء من ممتلكات الكنائس ولم يرتكب عملاً من أعمال السلب والنهب ، ويظهر أن حالة القبط في الأيام الأولى من حكم المسلمين كانت معتدلة ، وليس هنالك شاهد من الشواهد يدل على أن ارتدادهم عن دينهم القديم ودخولهم في الإسلام على نطاق واسع كان راجعاً إلى اضطهاد أو ضغط يقوم على عدم التسامح من جانب حكامهم المسلمين »[٩٥] .

وهكذا وجد القبط في ظل الإسلام الحرية الكاملة بعد أن قتل الإمبراطور جستنيان من قبط الإسكندرية الأرثوذكس وحدهم مائتي ألف مواطن .

وما يقال عن دخول مسيحيى مصر إلى الإسلام دون ضغط أو إكراه يقال عن غيرهم من سكان البلاد التي فتحها المسلمون ، وها هى رسالة كتبها البطريق النسطوري يشوع ياف الثالث Isho Yabh وبعث بها إلى المطران سمعان رئيس أساقفة فارس ، يقول فيها بعد أن صور حزنه لتحول كثير من المسيحيين الفرس إلى الإسلام : « وإن العرب الذين منحهم الله سلطان الدنيا يشاهدون ما أنتم عليه وهم بينكم كما تعلمون حق العلم ، ومع ذلك فهم لا يحاربون العقيدة المسيحية ،

---

(٩٥) الدعوة إلى الإسلام ص١٢٣ ، ١٢٤ .

بل على العكس ، يعطفون على ديننا ويكرمون قسسنا وقديسي الرب ، ويجودون بالفضل على الكنائس والأديار ، فلماذا إذن هجر شعبك من أهل مرو عقيدتهم من أجل هؤلاء العرب ، ولماذا حدث ذلك أيضاً في وقت لم يرغمهم فيه العرب — كما يصرح أهل مرو أنفسهم — على ترك دينهم ، بل هم تعهدوا لهم أن يبقوا عليه آمناً مصوناً إذا هم اقتصروا على أداء جزء من تجارتهم إليهم »[96] .

والإسلام لم يحفظ على غير المسلمين عقيدتهم وحريتهم وحسب ، بل إن الحكام المسلمين بالغوا في إكرام المسيحيين واليهود فوضعوهم في مناصب الدولة الهامة ، بحيث كان منهم الوزراء والحجاب ، سواء في الدولة العباسية فى بغداد أو الدولة الفاطمية في مصر أو الخلافة الإسلامية فى الأندلس .

على أن الأمر لم يقف عند هذا الحد ، بل إن صلاح الدين الأيوبى الذي خاض الحروب الصليبية لم يأخذ رعاياه من المسيحيين بجريرة القادمين الباغين من أوربا ، وإنما عاملهم برفق أكثر ، وأسبغ عليهم تسامحه ، وخفف عنهم الضرائب وأزال بعضها ، ووضعهم في الوظائف العامة كوزراء وكتاب وصيارفة ، وظل حالهم كذلك من السعادة والرعاية والاستمتاع بحرياتهم كاملة في عهد خلفاء صلاح الدين .

لم يدخل أحد إلى الإسلام إذن خوفاً من السيف ، وإنما العقيدة نفسها كانت كالنور الوهاج يجذب إليه الأنظار ، فدخلت أفواج الناس إلى الإسلام عن رضاً وارتياح وإيمان ، بل إن الأفراد القلائل الذين ارتكبوا بعض الحماقات محاولين إدخال غير المسلمين إلى الإسلام بالقوة قد لقوا من الحكام ما أوقفهم عند حدودهم ، فقد ذكر بعض الرحالين أنه بينما كان يزور فارس — حوالي منتصف القرن الخامس عشر الميلادي — سمع عن قصة تاجر أرمني مسيحي كان جالساً في حانوته ذات يوم فقدم إليه أحد الدراويش وألح عليه في التحول من المسيحية إلى الإسلام فصرفه التاجر بعد أن أعطاه صدقة وأظهر له عدم الرغبة في التحول عن دينه ، ولكن الدرويش رفض الصدقة وألح في أن يتحول التاجر إلى الإسلام ، فلما

---

(٩٦) توماس أرنولد ص ١٠١ ، ١٠٢ .

أصر التاجر على موقفه اختطف الدرويش سيفاً من أحد الواقفين وضرب به التاجر على رأسه ضربة قضت عليه ثم لاذ بالفرار ، وما إن سمع حاكم المدينة الخبر حتى أخذ منه الغضب كل مأخذ ، وأمر باقتفاء أثر الدرويش حتى قبض عليه ، وجيء به بين يديه ، فطعنه الحاكم بيده طعنة قضت عليه وأمر بأن تلقى جثته نهباً للكلاب ، وأردف قائلاً : ليس بمثل هذه الطريقة ينتشر دين محمد ، ثم استدعى الحاكم ابن التاجر وعزاه ولاطفه بعبارات طيبة .

فحوادث إجبار غير المسلمين على اعتناق الإسلام بالسيف قليلة نادرة وهي فردية في الغالب ولعلها في الديانات الأخرى أكثر منها في الإسلام ، فشرلمان ملك فرنسا كان يفرض التعميدات المسيحية بحد السيف ، وكان أولاف ملك النرويج يذبح من يرفض الدخول في الدين المسيحي من سكان فيكن Vikan (الجزء الجنوبي من النرويج) أو يقطع أرجلهم وأيديهم ، كما وجدت جماعة متعصبة لنشر المسيحية بالقوة أسموا أنفسهم إخوان السيف Bretheren of the Sivlia .

وبالرغم من أن المسيحية دين السلام فإنَّ بعض من انتسبوا إلى المسيحية قد لجأوا إلى فرضها بالسيف والدماء على بعض من لم يؤمنوا بها ، ولكنها حالات قليلة لا تسيء إلى سماحة المسيحية ، كما أن الحالات النادرة لإدخال غير المسلمين بالقوة إلى الإسلام لا تحط من سماحة الإسلام .

فالذين ذهبوا إلى أن الإسلام قد انتشر بالسيف قوم مخطئون كل الخطأ ، لأن الدين الذي يعتمد على السيف لكي ينتشر دين ضعيف ، وليس الإسلام كذلك ، وليس أدل على ذلك من أن المهاجمين لديار الإسلام المنتصرين على المسلمين ما لبثوا أن اعتنقوه ديناً وآمنوا برسالته ، مع أن طبيعة الأمور تقضي أن يحولوا المسلمين إلى دينهم لا أن يتحولوا هم إلى الإسلام .

فالسلاجقة الوثنيون الذين فتحوا بلاد ما وراء النهر وتقدموا إلى العراق العجمي وظلوا يزحفون شيئاً فشيئاً حتى أخضعوا أكثر الأراضي الإسلامية ، هؤلاء الوثنيون الظافرون الفاتحون الغالبون ما لبث الدين الإسلامي بقوته وسلامته وسماحته أن استهواهم فاعتنقوه وصاروا سلاطين مسلمين ، وليس الأمر موقوفاً

على هؤلاء السلاجقة وحدهم ، فإن قوماً أشد منهم عتوًّا ، وأعنف منهم ظلماً ، وأكثر منهم تعطشاً الى الدماء ، قد هاجموا ديار المسلمين وقضوا على خلافتهم ؛ وقتلوا خليفتهم وخضبوا الأرض بدمائهم ورنقوها بأشلائهم ، أولئك هم المغول التتار المتوحشون الوثنيون الغالبون المنتصرون ، الذين ما لبثوا أن انضووا بعد حين تحت لواء الإسلام فهذب أخلاقهم ، وجعل لهم حضارة وفنوناً عرفت باسم الفنون المغولية .

من يصدق أن هؤلاء التتار الذين سفكوا من دماء المسلمين ما لم يسفكه أحد من قبلهم ، والذين يصف ابن الأثير فظائعهم ، وجعلهم مساجد بخاري اصطبلات خيل ، وتمزيقهم للقرآن الكريم ، وهدم مساجد سمرقند وبلخ فيقول : « لقد بقيت عدة سنين معرضا عن ذكر هذه الحادثة استعظاما لها ، كارها لذكرها فأنا أقدم إليها رجلاً وأؤخر أخرى ، فمن الذي يسهل عليه نعي الإسلام إلى المسلمين ، ومن الذي يهون عليه ذكر ذلك ؟ فيا ليت أمي لم تلدني ، ويا ليتني متُّ قبل هذا وكنتُ نسيا منسيا ، إلى أن حثني جماعة من الأصدقاء على تسطيرها وأنا متوقف ، ثم رأيت أن ترك ذلك لا يجدي نفعاً ، فنقول هذا الفعل يتضمن ذكر الحادثة العظمى والمصيبة الكبرى التي عقمت الأيام والليالى عن مثلها ، عمت الخلائق وخصت المسلمين ، فلو قال قائل منذ خلق الله سبحانه وتعالى آدم وإلى الآن لم يبتلوا بمثلها لكان صادقا[٩٧] » .

نقول من يصدق أن هؤلاء المتوحشين يدخلون الإسلام طائعين وهم الظافرون الكاسحون المنتصرون ؟

على أن الأمر بالإسلام لم يقف عند اجتذاب الوثنيين الظافرين من السلاجقة والمغول وحدهم إليه ، بل إنه جذب بعض الصليبيين الذين جاءوا ليحاربوا المسلمين فدخلوا فيه طائعين مختارين زرافات ووحدانا ، ذلك أن جنود الصليبيين بينما كانوا يجتازون آسيا الصغرى في طريقهم إلى بيت المقدس تجسس عليهم الإغريق من أبناء دينهم وأبلغوا الأتراك المسلمين بمواقعهم ، فهاجمهم الترك المسلمون وأوقعوا بهم

(٩٧) ابن الأثير حوادث سنة ٦١٧ هـ .

ومزقوهم شر ممزق ، غير أن من نجا منهم — أي من الصليبيين — كانوا في حالة من البؤس والإشراف على الموت لدرجة استدرت عطف الترك المسلمين ، فما كان منهم إلا أن واسوا المرضى وعالجوهم ، وأغاثوا الجائعين المشرفين على الهلاك ، وبذلوا لهم العطاء في كرم وسخاء ، بل لقد اشترى بعض المسلمين النقود الفرنسية من الإغريق لكي يوزعوها بسخاء على الصليبيين المعوزين ، فكان البون شاسعاً بين المعاملة الرحيمة التي لقيها الصليبيون من المسلمين ، وبين المعاملة السيئة التي لا قوها من أبناء دينهم الإغريق وما عانوه من قسوتهم ، حتى إن كثيراً منهم دخلوا دين منقذيهم بمحض إرادتهم ، وبلغ عدد هؤلاء الذين اعتنقوا الإسلام من الصليبيين أكثر من ثلاثة آلاف[٩٨] .

لعل هذه الأمثلة التاريخية التي تؤيدها الوثائق والتي جعلت الغالبين يدخلون إلى الإسلام عن رضى كامل لأكبر دليل على أن الإسلام لم ينتشر بالسيف ، وإنما انتشر بقوة العقيدة وكمالها ، وتشبع النفوس بها ، واقتناع أولي الألباب بأنها الحق من رب العالمين .

وكيف يمكن أن يكون انتشار الإسلام بالسيف ، والمؤرخون يذكرون لنا أنه حتى نهاية القرن الهجري الأول ، كان عدد المسلمين في البلاد المفتوحة لا يزيد على الثلث ، ولو كان السيف هو أداة نشر الدين لما بقي واحد من سكان تلك البلاد على غير الإسلام بعد مائة سنة من الزمان ، بل لما بقي في بلاد المسلمين الآن مواطن واحد لا يتخذ الإسلام ديناً .

لم ينتشر الإسلام بالسيف إذن ، وإنما انتشر بقوة عقيدته وعمق إيمان الناس بعدالتها ، وإلا كيف يفسر دخول مئات الملايين فيه من أهالي الهند والصين والملايو وجاوة وجزر الهند الشرقية وإفريقية الوسطى ؟ بل كيف آمن به الملايين المنتشرون في روسيا وبولندا ولتوانيا في شمال أوربا ، ثم مدينة الكاب وغينيا التي يحتلها الأوربيون ؟ هل وصلت سيوف المسلمين إلى تلك المناطق ؟ لم يقل بذلك عاقل أو مجنون ، لقد

---

(٩٨) القصة بكاملها يقصها أحد رهبان القديس دينيس وكان مرافقا للحملة — راجع توماس أرنولد ص ١٠٨ ، ١٠٩ .

دخل الإسلام إلى تلك البلاد عن طريق الدعاة المسلمين المجردين من أي سلاح إلا سلاح السماحة والإيمان ، فدخل الناس عن طريقهم في دين الله أفواجاً .

إنه في الوقت الذي كان المسلمون يُذبحون في أسبانيا ويُصنع بهم من ألوان الاضطهاد ما لم يسمع به التاريخ من قبل ، في ذلك الوقت الذي كان يقتل فيه في الأندلس كل من يقول لا إله إلا الله محمد رسول الله حتى أجلي الإسلام وحضارة الإسلام عن إسبانيا ، كان الإسلام نفسه يكسب أرضاً جديدة ومسلمين جدداً في سومطرة والملايو ، وشتان الفرق إذن بين تعصب يقتل المسلمين في أرضهم ، وسماحة تجذب المواطنين في غير أرض الإسلام إلى الإسلام .

ربما يظن ظان أن ما أنزل بالمسلمين في الأندلس من حيف وتقتيل كان نتيجة لتعصب سابق ، أو ظلم أوقعوه على الأسبان ، أو إجبار لهم على اعتناق الإسلام ، ولكن التاريخ لم يسجل حادثة واحدة من هذا القبيل ، فلم يحدث أن اضطهد المسلمون سكان أسبانيا أو أجبروهم على اعتناق الإسلام وقت الفتح ، بل كانت سياستهم كلها تسامحاً وعطفاً ، بل إن المسلمين قد شيدوا للرهبان والراهبات أدياراً جديدة تهيأ فيها لهم الأمن والطمأنينة ، وكان الرهبان يستطيعون أن يخرجوا على الملأ بألبستهم الدينية ، وتقلد بعضهم المناصب العالية في البلاط . وهكذا رعى الإسلام المسيحيين في الأندلس وحافظ عليهم ، ولم تحدث حالة اضطهاد ديني واحدة .

هكذا انتشر الإسلام في الأندلس بغير ضجة ولا سيف ، وإنما بالسماحة والرفق والاقتناع ، وهكذا خرج الإسلام من الأندلس يسبح في بحار دافقة من دماء أبنائه بسيوف متعصبة ظالمة .

ولا يختلف الأمر في دخوله القسطنطينية عنه في دخوله الأندلس ، فلم يرغم القائد التركي أحداً على اعتناق الإسلام ، بل نشر العدل وأقام صروحه وأمّن الناس على حياتهم ، ونحن لا نستقي ذلك من مؤرخي المسلمين ، بل من مؤرخ بيزنطي شاهد سقوط القسطنطينية يتحدث عن بايزيد وكيف كان رحب الصدر كريم الخلق مع رعاياه المسيحيين ، وكيف جعلهم يألفونه ألفة تامة بأن سمح لهم بالتردد على مجلسه في حرية كاملة ، وكيف أن مراداً الثاني قد اشتهر بتحقيق العدلة وإصلاح

المفاسد التي سادت في عهد الأباطرة الإغريق ، لقد كان يعاقب في غير هوادة أي موظف من موظفيه يثبت أنه استبد بأي فرد من أفراد رعيته .

لم يتدخل الترك المسلمون في عقيدة رعاياهم من المسيحيين ، ولم يحاولوا نشر الإسلام بالسيف ، يشهد بذلك بطريق أنطاكية « مكاريوس » الذي يقول من حديث طويل له يلعن فيه البولنديين الكاثوليك ، ويحصي ضحاياهم من الأرثوذكس بعدد يتراوح بين سبعين وثمانين ألفاً من القتلى : « أدام الله بقاء دولة الترك خالدة إلى الأبد ، فهم يأخذون ما فرضوه من جزية ولا شأن لهم بالأديان ، سواء أكان رعاياهم مسيحيين أم ناصريين ، يهوداً أم سامرة ، أما هؤلاء البولنديون الملاعين فلم يقنعوا بأخذ الضرائب والعشور من إخوان المسيح ، بالرغم من أنهم يقومون بخدمتهم عن طيب خاطر ، بل وضعوهم تحت سلطة اليهود الظالمين أعداء المسيح الذين لم يسمحوا لهم حتى بأن يبنوا الكنائس ، ولا بأن يتركوا لهم قسساً يعرفون أسرار دينهم[٩٩] .

في ظل هذه السماحة المطلقة دخل رعايا الكنيسة الشرقية إلى الإسلام دون ترغيب أو تهديد ، بغير سيف ولا رمح ، ولكن أعجبتهم شريعته السهلة البعيدة عن التعقيدات ، فكان لهم بمثابة المهرب من التعقيدات التي خلقتها الهرطقة البوليشية Poculician heresy فدخل الإسلام أقوام كثيرون من ألبان وبوسنة وصرب .

ما يقال عن انتشار الإسلام في أوربا يقال عنه في آسيا ، ففي فارس كان الكهنة الزرادشتيون قد تسلطوا على شئون الدولة المدنية غير مكتفين بنفوذهم الديني ، واضطهدوا الديانات المخالفة لهم ، من بوذيين ومانويين ومسيحيين ويهود وصابئة ، وما إن جاء المسلمون إلى تلك البلاد حتى ضمنوا الحرية الدينية لكل فرقة من هذه الفرق ، وعاملوهم جميعاً معاملة أهل الكتاب مكتفين بأخذ الجزية منهم ، وشيئا فشيئاً بدأت الجماعات من سكان المدن خاصة ترحب بالإسلام ديناً ، وتعتنقه ى

(٩٩) مذكرات البطريرك مكاريوس .
عن توماس أرنولد ص١٨٢ ، ١٨٣

حماسة كبيرة ، وكان في مقدمة هؤلاء جميعاً أصحاب الحرف والعمال بمختلف طبقاتهم ، ارتضوا الدين الجديد لصفائه وخلوه من المعتقدات الوثنية التي بدت كريهة في أنظارهم ، نظراً لسفاهة طقوسها واستبداد رجال الدين القوامين عليها .

وإذا كان بعض سكان شمال الهند دخلوا الإسلام خشية أو خوفاً في إبان بعض الغزوات المتأخرة ، فإن الأمر ليس كذلك فيما يتعلق بجنوب الهند ، الذي أسلم الملايين من سكانه نتيجة علاقات ودية وتقدير واحترام نشأت بين التجار المسلمين الذين تزاحموا في تلك المنطقة وبين الحكام الهنود الذين أعجبوا بأخلاق المسلمين ومعاملاتهم وطرق تعبدهم . ولا شك أنه كان للرخاء الذي عم هذه المنطقة نتيجة لنشاط العرب وإقبالهم على شراء منتجات هذه البلاد أثر كبير في ربط أواصر المودة بين السكان والمسلمين ، الأمر الذي ساعد على انتشار الدين الإسلامي دون أن يدخل هذه المناطق سيف واحد ، وقد لعب رجل عظيم اسمه خواجه معين الدين خشتي دوراً كبيراً في نشر الإسلام في الهند بالطرق السلمية التي تعتمد على الإقناع والموعظة الحسنة ، وإنا لنسمع عن دعاة كثيرين آخرين نذروا أنفسهم لنشر الدعوة الإسلامية في الهند فكان السداد رائدهم ، وأسلم على أيديهم الملايين في أنحاء شبه القارة الهندية ، وما يحيط بها من جزر ، من هؤلاء نادر شاه المتوفي سنة ٩٦٩ هـ ١٠٣٩ م وسيد إبراهيم شهيد ، وشاه عبد الحميد سنة ١٦٠٠ م ، والشيخ يوسف شمس الدين ، وممبا ملايكا ، وغيرهم كثيرون لا نستطيع أن نحصى أعمالهم في هذه الصفحات القليلة .

ولقد دخل الإسلام إلى الملايو وجاوة وسومطرة وبورنيو وسيلييس والفلبين وغيرها من هذه المناطق بالدعوة والتبشير دون سفك قطرة دم واحدة ، دخلها عن طريق التجار المسلمين الذين اتصلوا بالسكان اتصال المودة والنسب ، وكانوا في نفس الوقت يبشرون بدينهم ، أو عن طريق الدعاة الذين نذروا أنفسهم لخدمة الإسلام ، وكان الناس يقبلون عليهم في يسر ويعتنقون الدين الجديد ويؤمنون به في وقت قصير ، وفي أحيان كثيرة كان الداعي إذا أقنع الملك بالإسلام قام الملك نفسه ودعا وزراءه ورعيته إلى العقيدة الجديدة فيسارعون إلى الاستجابة في أقصر وقت وأسرعه . ومن تلك القصص الطريفة قصة إسلام ملك قويده في شبه جزيرة

الملايو ، فقد وصل إلى تلك المملكة سنة ١٥٠١ م عالم عربى يدعىٰ الشيخ عبد الله ، وزار الراجه (الملك) وسأل عن ديانة البلاد فأجابه الراجه : ديني ودين رعيّتى كلها هو الذى وصل إلينا من الشعب القديم ، ونحن جميعاً نعبد الأصنام ، فقال الشيخ : أما سمعتم جلالتكم عن الإسلام ، والقرآن الذي أنزله الله على محمد ونسخ به كل الديانات الأخرى وتركها في حوزة الشيطان ؟ وظل الشيخ يشرح للراجه تعاليم الإسلام ـــ وكان ذا بشاشة ولباقة ـــ حتى اقتنع الملك بكلامه وما لبث أن أحضر جميع الأصنام التي في القصر فجمعت في أكوام ، وكان بعضها من الذهب وبعضها من الفضة وبعضها من الطين أو الخشب وألقيت على الأرض وأحرقت ، وبعد إيمان الملك آمن بعده أهل بيته ثم وزراؤه ثم بقية رعيته الذين جمعوا كل الأصنام التي كانت في حوزتهم وأحرقت جميعها وأصبحت رماداً تذروه الرياح ، وأقبلوا على الإسلام تعلّماً والبشر يعمهم والفرح يملأ جوانحهم ، ولم يكتف الملك باعتناق الإسلام ، بل غير اسمه من برا أونج مها وانجسا إلى اسم إسلامي هو مزلف الشاة ، ثم بنيت المساجد في المناطق الآهلة بالسكان .

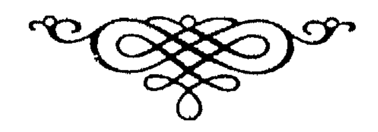
بهذه الطرق السلمية والوسائل الإقناعية انتشر الإسلام في أقطار آسيا وجزرها .

وأما اعتناق الإفريقيين للإسلام فقد تم أيضاً عن طريق الدعاة والتجار ، ولقد لقي الدعاة المسلمون لدى الزنوج كثيراً من الإدراك والتقبل حين كانوا يحدثونهم عن الحقائق المتعلقة بالله والإنسان ، هذا فضلاً عن أن الدين الإسلامي دين الفطرة والبساطة ، ولذلك كان الإفريقيون يقبلون على اعتناقه باعتباره لا يفرق بين الأبيض والأسود ، على حين أن رجال الإرساليات الأوربيين لم ينجحوا في شدهم إلى رباط المسيحية ، لأن الإفريقي الأسود المتنصر كان يحس في قرارة نفسه أن أبناء دينه من الأوربيين ينتمون إلى جنس ولون وحضارة لا ينتمي هو إليها ، وكان يحس بذلك الفرق الذى يؤرق نفسه ويؤلم إنسانيته .

ويعلل بعض الكتاب الأوربيين سرعة انجذاب الزنجي إلى الإسلام فيقول : إن الدخول في الإسلام لا يستلزم أن يفقد الواحد قوميته ، ولا يستلزم تغييرات انقلابية في الحياة الاجتماعية ، ولا يقوض نفوذ الأسرة أو سلطة الجماعة ، وليست

هناك هوة بين الداعي إلى الإسلام والمتحول إليه ، فكلاهما متساو مع الآخر ، لا نظرياً بل عملياً أمام الله : وكلاهما ينفذ مبدأ التآخي الإنساني تنفيذاً عملياً ، والإسلام يمنح هؤلاء الذين يتصلون به منزلة أرقى وفكرة أسمى عن مكانة الإنسان في العالم المحيط به ، ويحرره من ربق ألف عام من الأوهام الخرافية(١٠٠) .

هكذا انتشر الإسلام في إفريقية انتشار النور في الظلمة ، أقبل عليه الإفريقيون وهم يعتبرونه دينهم الطبيعى بشهادة الكتاب الأوربيين أنفسهم ، بغير ضربة سيف أو طلقة بندقية ، وكذلك بينا كيف انتشر الإسلام في بقاع الأرض ، لم يفرض نفسه بالقوة ، ولكن فرض نفسه بسماحته وقربه إلى النفس البشرية التي رأت فيه أنه يربط بينها وبين الله ، ويهديها سبيل الرشاد والهداية في الدنيا ، وطريق النور والنجاة في الآخرة .



(١٠٠) E. D. Morel : Nigeria its people and its problems

القسم الثاني :

انقسام الإسلام إلى مذاهب وفرق

- الخوارج .
- الإباضية .
- الشيعة .
- الإمامية .
- الزيدية .

قبيل الانقسام :

كانت العقيدة الإسلامية تكمن فى قلوب المسلمين فى صفاء ويسر واعتزاز وإيمان حينما انتقل الرسول إلى الرفيق الأعلى مردداً قول الله تعالى : ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ﴾(1) وبموته عليه السلام حاولت الفتنة أن تطل برأسها فى صورة خلاف على الزعامة ، واتخذ الخلاف صورة جدية أول الأمر بين المهاجرين والأنصار ، ولكن سماحة هذا الدين وعمق جذوره فى قلوب المؤمنين والبعد عن المطامع الذاتية ، كل أولئك قد ساعد على وأد الخلاف حينما اعترف المهاجرون بفضل الأنصار وردّدوا رأى رسول الله حين يقوم زعيم الأنصار سعد بن عبادة ويقول عن رضى وإيمان موجهاً خطابه للمهاجرين : نحن الوزراء وأنتم الأمراء . وتنطفىء الفتنة التى أوشكت أن تندلع بأيسر مايتصور العقل المفكر برضى الأنصار بأن تكون الإمارة فى المهاجرين .

وأما فى صفوف المهاجرين فإنا نلمس الإيثار فى البيعة والاختيار ، فهذا عمر بن الخطاب العظيم يتلفت إلى أبى عبيدة يقول له : ابسط يدك أبايعك فأنت أمين هذه الأمة على لسان رسول الله ، فلا يستبشر أبو عبيدة ولا يرحب ببيعة عمر له ولا يتحمس لأخطر منصب عرفه الإسلام بعد الرسالة ، ويعرض أبو عبيدة عن

---

(1) المائدة : الاية ٣.

عمر وعن المنصب الذى يبايعه عليه ، منصب خليفة رسول الله ، وإنما يقول له فى حزم وإيمان ورضى . أتبايعنى وفيكم الصديق وثانى اثنين ، فيقتنع عمر ويذهب إلى أبى بكر قائلًا : ابسط يدك أبايعك ، أنت أفضل منى . فيقول أبو بكر : أنت أقوى منى ويكرر ذلك ، ولكن عمر السمح سماحة أبى عبيدة يقول : إن قوتى لك مع فضلك ، وتتم البيعة لأبى بكر خليفة للرسول العظيم .

وتقابل بيعة أبى بكر بالرضى من المهاجرين والأنصار على السواء ، حتى إن أحد زعماء الأنصار ، ولعله سعد بن عبادة ، يقول فى مقام تعظيم أبى بكر عند البيعة : نعوذ بالله أن نتقدم أبا بكر . وإذا كان على بن أبى طالب كرم الله وجهه قد أستأنى فى بيعة أبى بكر بعض الوقت فإنه ما لبث أن بايعه راضياً كل الرضى ، فليس من شك فى أن علياً كان يحب أبا بكر ويجله ويضعه فى مكانه من الإكبار والتقدير .

فإذا مات أبو بكر لا يلبث المسلمون جميعاً أن يرتضوا مشورته قبل وفاته باختيار الخليفة العظيم عمر بن الخطاب ومن بينهم على ، وكان الخليفة يستعين به فى حلّ عظائم الأمور ويقول : أعوذ بالله من مشكلة ليس فيها أبو حسن (وهى كنية الإمام على) .

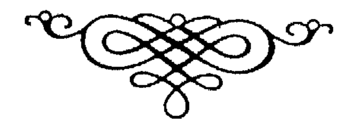
ويظل أمر المسلمين هادئاً حتى يحدث الشقاق إزاء سياسة عثمان بن عفان الخليفة الثالث ، وتنتهى الأمور بمأساة قتله وهو يتلو كتاب الله ، فبايع أكثر المسلمين على بن أبى طالب الخليفة الرابع أميراً للمؤمنين ، ولكن شبح الأطماع الشخصية وبقايا العصبية القبلية تطل برأسها لأول مرة فى الإسلام ، فينقسم المسلمون إلى قسمين أو حزبين : حزب ينتصر لعلى وحزب ينتصر لمعاوية ، أو بالأحرى حزب يتشيع لعلى وحزب يتشيع لمعاوية ، وبمرور الزمن أصبحت لفظة التشيع عنوانا ودلالة لأنصار على وأبنائه وأحفاده من بعده . وكانت الشيعة فى أول أمرها رأياً سياسياً ليس أكثر ، كما كانت دعوة الأمويين للخلافة وحصرها فى معاوية رأياً سياسياً أيضاً ، ويستشرى الخلاف بين أنصار على وأنصار معاوية ،

ويجرى التحكيم المعروف الذى كان بطلاه أبا موسى الأشعرى وعمرو بن العاص فلا يرضى به جناح من حزب على فيخرجون عليه ويكونون حزباً ثالثاً يعرف بالخوارج» .

وإذن فقد كانت الفرق الإسلامية عند نشأتها أحزاباً سياسية وليست فرقاً دينية ، والاختلاف بينها لم يكن اختلافاً فى صلب العقيدة الإسلامية وإنما كان خلافاً فى الرأى حول طريقة الحكم واختيار الحاكم ، ثم انقسمت كل فرقة إلى عدة فرق ، ففى الشيعة بدأنا نسمع عن الزيدية والإسماعيلية والاثنا عشرية والكيسانية والمختارية والكربية والهاشمية والمنصورية والخطابية وغيرها ، وفيهم الغلاة والرافضة والخارجون على التوحيد أولئك الذين ألّهوا على بن أبى طالب ، كما أن فيهم أصحاب العقيدة السليمة والفكرة الصائبة .

وكما انقسمت الشيعة إلى فرق عديدة فإن الخوارج انقسموا بدورهم إلى فرق كثيرة منها الأزارقة والصفرية والإباضية والعجاردة والثعالبة وغيرها وكل فرقة من هؤلاء كانت تنقسم إلى فرق أخرى كثيرة ، وسبب كل ذلك على الأغلب خلافات سياسية نشأت عن اختلاف الرأى إزاء الحكم أو الحرب .

ومع مضى الزمن تنشأ فرق أخرى فى الإسلام كالمعتزلة والأشاعرة وتتأجج الخصومة بين كل هذه الفرق ، ويظل أهل السنة أقربهم إلى الحيدة وإلى فهم عقيدة الإسلام فى غير ما عصبية أو تعسف . فما هى هذه الفرق ؟ وما أهمها ؟ وكيف نشأت ؟ وما محور عقيدة كل فرقة منها ؟ وهل من سبيل إلى تجميع الكلمة ولَمّ الشمل ورأب الصدع وتوحيد الرأى وجمع الشتيت ؟ هذا مانرجوه مخلصين .





الخــوارج

نشأتهم :

بدأت الفُرقة تدب بين المسلمين حين اقترح معاوية بن أبى سفيان على علىّ بن أبى طالب إبان وقعة صفين ٣٧هـ/٦٥٧م أن يحتكما إلى حكمين يعتمدان فى حكمهما على كتاب الله حسماً للخلاف الذى أدى إلى مقتل عثمان ، فلما قبل علىّ التحكيم وكان من أمره ما كان من خداع عمرو بن العاص لأبى موسى الأشعرى ، قال بعض المتمردين وكان معظمهم من قبيلة تميم ؛ لا حكم إلا الله ، فلما سمع على ذلك قال قولته المشهورة : «كلمة حق يراد بها باطل ، وإنما مذهبهم ألّا يكون أمير ، ولا بد من أمير ، بَرا كان أو فاجراً» .

ثم تجمع هؤلاء الخارجون واتجهوا نحو حروراء غير بعيد عن الكوفة فتابعهم علىّ يبغى صلاحهم ، ووقف بينهم وخطبهم متوكئاً على قوسه قائلًا : «**أنشدكم الله هل علمتم أحداً كان أكره للحكومة منى ؟ قالوا : اللهم لا . قال : أفعلمتم أنكم أكرهتمونى عليها حتى قبلتها ؟ ، قالوا : اللهم نعم . قال : فعلام خالفتمونى ونابذتمونى .. قالوا : إنا أتينا ذنباً عظيماً فتبنا إلى الله منه**» .

وعادوا مع على إلى الكوفة ، ثم ما لبثوا أن عاودتهم فكرة الخروج ظناً منهم أن عليا قد رجع عن الحكومة ، فأرسل إليهم ابن عباس لكى يتفادى المسلمون الفتنة ، ولكنهم أصروا على موقفهم من علىّ ، وأجمعوا البيعة لواحد من بينهم اسمه عبد الله بن وهب الراسبى ، وقد عرفوا «بالحرورية» نسبة إلى «حروراء» أول بلدة خرجوا إليها ، كما عرفوا «بالمحكّمة» لأنهم قالوا «لا حكم إلا الله» .

خرج كثير من أنصار علىّ وانضموا إليهم وأطلقوا على أنفسهم اسم «الشُّراة» أى الذين يشرون أنفسهم ابتغاء مرضاة الله ، ولكنهم لم يلتزموا جادة الصواب فى تصرفاتهم أو أقوالهم ، ولجأوا إلى بعض الآراء المتطرفة والأعمال القاسية فطعنوا فى علىّ وأحقيته بالخلافة ، وطعنوا فى مسلك عثمان ، وحكموا بالكفر والارتداد على كل من لا يجاريهم فى التهجم على عثمان وعلى بن أبى طالب .

ومن أمثلة أعمالهم الإرهابية أنهم قابلوا مسلماً ونصرانياً فقتلوا المسلم وأوصوا بالنصرانى خيراً ، وقالوا : احفظوا ذمة نبيكم ، وهى مغالطة صريحة ، لأن الأقوم أن يحفظوا على كل من الرجلين روحه ودمه ، وسلامة المسلم فى الدرجة الأولى ثم سلامة الذمىّ .

كان موقف علىّ منهم أول الأمر ألا يحاربهم حتى يبدأوه بالحرب ، فلما عمدوا إلى استعمال العنف وقتلوا عبد الله بن خبّاب وفى عنقه المصحف ومعه امرأته بعد حوار طويل جرى بينه وبينهم يفيض بالحكمة من جانب ابن خبّاب وبالغلظة من جانبهم ، ولما ركبوا رءوسهم ولم يحاولوا أن يستجيبوا لدعوة علىّ ، خرج إليهم فى يوم النهروان وأوقع بهم وقتل منهم عدداً كبيراً ، وفى هذه الموقعة قتل زعيمهم ابن وهب .

وقد كان بمكنة علىّ بن أبى طالب أن يقضى على الخوارج قضاء مبرماً ولكنهم ما لبثوا أن تربصوا به ، وأرسلوا إليه واحداً منهم هو عبد الرحمن بن ملجم المرادى فقتله فى المسجد .

بعد مقتل علىّ اتسع نشاط الخوارج ، وخاضوا كثيراً من المعامع فى عهد معاوية ، وكانت غاراتهم تتخذ شكل حرب العصابات ، فلم يكونوا قادرين على

مواجهة جيوش الحكومة الأموية الجديدة ، تلك الجيوش الجرارة ، فكانوا يعمدون إلى شن الغارات الخاطفة فى منطقة البصرة على وجه الخصوص ، وكان لفرسانهم قوة وجلد وعزيمة على القتال وكانوا يجيدون المباغتة والضرب ، كما كانوا يحسنون الكر والانسحاب وكانوا يرددون منشدين :

فنحـــنُ عبـــادُ الله والله ربُّنَــــا وأَوْلَــى عبـــادِ الله بالله مَنْ شَكَـــرْ

كانت الأيام دائماً فى خدمة الخوارج ، فما إن حدثت الفتنة بعد وفاة يزيد بن معاوية حتى كانت شوكتهم تزداد حدة ، وهم الذين أضاعوا الخلافة من عبد الله ابن الزبير وكانت طوع يده . لقد حاولوا أن يضموا عبد الله إلى صفوفهم أو ينتظموا فى دعوته ، وقرروا أن يذهبوا إليه قائلين : إن قَدَّمَ أبا بكر وعمر وبرئ من عثمان وعليّ وكفّر أباه (أى الزبير بن العوام) وطلحة بايعناه ، وإن تكن الأخرى ظهر لنا ما عنده .

جرى هذا الحوار الطريف بين الخوارج وعبد الله بن الزبير ، وهو يظهر لنا رأيهم فى الخلفاء وبعض الصحابة . قالوا له [٢] : إنا جئناك لتخبرنا رأيك ، فإن كنت على صواب بايعناك ، وإن كنت على خلافه دعوناك إلى الحق . ماتقول فى الشيخين ؟ قال خيراً قالوا فما تقول فى عثمان الذى حمى الحمى وآوى الطريد وأظهر لأهل مصر شيئاً وكتب بخلافه [٣] ، وأوطأ آل بنى معيط رقاب الناس وآثرهم بفيء المسلمين[٤]، وفي الذي بعده الذي حكّم في دين الله الرجال وأقام على

---

(٢) العقد الفريد ٣٩١/٢ وما بعدها ــ لجنة التأليف .

(٣) الطريد هو الحكم بن أبي العاص وكان رسول الله نفاه إلى الطائف وقد ظل كذلك في خلافة أبي بكر وعمر حتى آواه عثمان وأما الإشارة إلى أهل مصر فتتلخص في أنه حينما جاءه أهل مصر يريدون قتله أو خلعه أظهر الصفح عنهم ولما انصرفوا وجاوزوا طريق المدينة ضبطوا غلاما له يحمل كتابا لعامله بمصر يأمره بجلدهم وحلق رءوسهم .

(٤) المراد أنه أوطأ أقاربه رقاب الناس وإنما خصوا آل معيط للطعن على عثمان بالوليد بن عقبة بن أبي معيط حين ولاه الكوفة فسكر وصلى بالناس الصبح أربع ركعات وقرأ في صلاته :

علق القلب الربابا بعد ماشابت وشابا

وأما فيء المسلمين فالمقصود به المال الذي أداه بطريق إفريقية فأمر به عثمان لآل الحكم .

ذلك غير تائب ولا نادم (يقصدون على بن أبى طالب) ، وفى أبيك وصاحبه وقد بايعا علياً وهو إمام عادل مرضىّ لم يظهر منه كفر ، ثم نكثا بيعته ، وأخرجا عائشة تقاتل وقد أمرها الله وصواحبها أن يقرن فى بيوتهن ، وكان لك فى ذلك مايدعوك إلى التوبة ، فإن أنت قبلت كل مانقول لك فلك الزلفى عند الله والنصر على أيدينا إن شاء الله ، ونسأل الله لك التوفيق ، وإن أبيت خذلك الله وانتصر منك بأيدينا» .

هذه الاستفسارات يطلبها الخوارج من عبد الله بن الزبير ، ومنها يبدو أنهم يجلون أبا بكر وعمر ويحملون على عثمان ويجلون علياً قبل وقعة صفين ، ثم هم يكفرون الزبير وطلحة ، ورأيهم فى السيدة عائشة رأى سيىء يضعها موضعاً غير كريم .

ولكن عبد الله بن الزبير البليغ الجامع لزمام البيان يرد عليهم قائلًا : إن الله أمر — وله العزة والقدرة — فى مخاطبة أكفر الكافرين وأعتى العاتين بأرق من هذا القول ، فقال لموسى وأخيه صلى الله عليهما : «**اذْهَبَا إلى فرعَونَ إنّهُ طَغَى فَقُولَا لهُ قَوْلَا لَيِّناً لعلّه يَتَذَكَّر أوْ يَخْشى**» . وقال رسول الله ﷺ : «**لا تؤذوا الأحياء بسبّ الموتى**» فنهى عن سب أبى جهل من أجل عكرمة ابنه ، وأبو جهل عدو الله وعدو رسوله والمقيم على الشرك والجاد فى محاربة رسول الله قبل الهجرة ، والمحارب له بعدها ، وكفى بالشرك ذنبا ، وقد كان يغنيكم عن هذا القول الذى سميتم فيه طلحة وأبى أن تقولوا : أتبرأ من الظالمين ؟ فإن كانا منهم دخلا فى غمار الناس وإن لم يكونا منهم لم تحفظونى بسبّ أبى وصاحبه وأنتم تعلمون أن الله عز وجل قال للمؤمن فى حق أبويه : وأن جاهداك على أن تشرك ... الآية .

وقال : «**وقولوا للناس حسنا**» . وهذا الرأى الذى دعوتم إليه أمر له مابعده ، وليس يقنعكم إلا التوقيف والتصريح ، ولعمرى إن ذلك أحرى بقطع الحجج وأوضح لمنهاج الحق وأولى بأن يعرف كل صاحبه من عدوه فروحوا إلىّ من عشيتكم هذه أكشف لكم ما أنا عليه إن شاء الله تعالى .

فلما كان العشى خرج إليهم فلم يوافقهم على آرائهم ، ودافع عن عثمان وعلى وأبيه وطلحة وعائشة دفاعاً رائعاً بالآية حينا وبالحديث حينا آخر[٥] وبالحجة القاطعة والبرهان الصادق حيناً ثالثاً ، فانصرفوا عنه حتى أوقع به الأمويون وقتلوه هو وأخاه مصعبا .

على أن نشاط الخوارج ظل مقصوراً على الجانب الشرقى من الدولة الإسلامية فترة طويلة ، وكان مصدر خطر دائم على البصرة ، ولم ينتقل نشاطهم إلى إفريقية إلا على عهد العباسيين . وأما الجزيرة العربية فقد اتسع نشاطهم فيها بين سنتى ٦٥ ، ٧٢هـ استولوا خلالهما على حضرموت واليمامة والطائف واليمن .

لقد نشط الخوارج فى رحاب الدولة الإسلامية يدعون إلى فكرتهم بالعنف والشدة وسفك الدماء ، ونحن نعتقد أن حب الدماء لم يكن طبيعة فيهم أجمعين ، بل إنهم يختلفون لينا وعنفا حسب الفرق التى ينتسبون إليها ، ولعل أشدهم إقبالًا على الدماء فرقة «الأزارقة» التى كان يتزعمها نافع بن الأزرق ، وكان نافع هذا عنيفا عنيداً سفاكا للدماء ، يقتل النساء والأطفال على حد سواء ، ويستحل الأموال ويقطع الطريق ، ولكن فى الوقت الذى نجد فيه الأزارقة يسلكون هذا المسلك الدامى الخشن ، نجد زعيماً آخر لفرقة أخرى هو نجدة بن عامر الحنفى زعيم فرقة «النجدات» يستنكر أعمال ابن الأزرق ويحمل على تصرفاته ويكتب إليه ناصحاً منذراً ، ولكن نافع بن الأزرق يرد عليه مسفها رأيه معللا تصرفاته الشاذة ، ومن الغريب أن كلا من «نافع» و «ونجده» كان يلقب بين قومه بلقب أمير المؤمنين ، بل إن كل زعيم فريق من فرق الخوارج — وما أكثرهم — كان يلقب بأمير المؤمنين .

كان الخوارج منقسمين على أنفسهم إلى ثمانى فرق كبرى ، وكانت كل فرقة من هذه الفرق تنقسم بدورها إلى فرق أصغر مما أدى إلى إضعاف شأنهم وساعد فى القضاء عليهم ، وقد وقعت بينهم وبين قواد بنى أمية معارك عنيفة متصلة الحلقات لسنين طويلة ، خاضوها فى قوة وبسالة وإيمان شديد ، كانوا يؤمنون

---

(٥) راجع العقد الفريد ٣٩٤/٢ ط لجنة التأليف والترجمة والنشر .

بالجمهورية العربية الديمقراطية ، وكانوا يعتبرون الأمويين، والزبيريين من قبلهم أرستقراطية كافرة ، ولذلك فقد دوخوا قواد الأمويين ، وفى مقدمتهم زياد بن أبيه وعبيد الله بن زياد والمهلب بن أبى صفرة والحجاج بن يوسف الثقفى ، حتى اضطر عبيد الله بن زياد إلى مهادنتهم تارة والاشتداد عليهم تارة أخرى . بل إنه أطلق سراح بعضهم من السجن .

إن إيمان بعض الخوارج بقضيتهم جعلهم يقضون مضجع الخلافة الأموية ويذلون كبرياء قوادها ، فحين قتل عبيد الله بن زياد عروة بن أديَّة من زعمائهم غضب أخوه مرداس بن أدية ، وخرج إلى الأهواز فى أربعين رجلًا مطمئناً إلى أنهم أربعون فى العدد ، ولكنهم عدة آلاف فى القوة ، فأرسل إليه عبيد الله بن زياد ألفين من خيرة الرجال بقيادة ابن حصن التميمى ، فهزمهم الخوارج الأربعون شر هزيمة ، الأمر الذى جعل عيسى بن فاتك الخارجى يقول :

أألفَا مؤمنٍ فيما زعَمْتُمْ	**ويهزمُهُمْ «بآسك» أربعونا**
كذبتم ليس ذاك كما زعمتم	**ولكنَّ الخوارج مؤمنونا**
هم الفئة القليلةُ غَيْر شكٍّ	**على الفئة الكثيرةِ يُنْصرُونا**

شعر الخوارج :

وإذا كان هذا الشعر يصدر عن نفس عميقة الإيمان بمبدئها الذى ينتهى بها إلى النصر فى أكثر الوقائع فإننا لا نستطيع أن نغفل الشجاعة المنطلقة من شعر قطرى ابن الفجاءة آخر زعماء الأزارقة ، وقد أخضع الأهواز وكرمان وامتد سلطانه إلى طبرستان وظل يصول ويجول حوالى ثلاث عشرة سنة وهو يلقب بامير المؤمنين إلى أن قتل سنة ٧٨ .

كان قطرى يقول مخاطباً نفسه :

أقولُ لها وقد طارتْ شعَاعاً	**من الأبطال ويحك لن تُراعى**
فإنكِ لو سألتِ بقاءَ يومٍ	**عن الأجلِ الذى لكِ لن تطاعى**
فصبراً فى مجالِ الموتِ صبراً	**فما نيلُ الخلودِ بمستطاعِ**

ولا ثوْبُ البقـــاء بثـــوبِ عزٍّ　　فيطـوى عن أخــى الخنَــع اليراعِ
سبيــــلُ الموتِ غايــــةُ كل حيٍّ　　فداعيــهِ لأهــل الأرض داعـــى
ومــا لِلْمــرء خيـــرٌ فى حيــاةٍ　　إذا ما عُدَّ من سَقَـــطِ المتــاعِ

وإذا كان نواء الشعر والفداء منعقداً فى «الأزارقة» على «قطرى» فإن الأحزاب الأخرى لم تخل من الشعراء ، بل إن أكبر الشعراء الخوارج كان رأساً من رءوس فريق «القعدة» من «الصفرية» ، ذلك هو عمران بن حطان الذى كان يتشهى الاستشهاد والموت فى سبيل مبدئه كما فعل قطرىّ ، وما إن استشهد صديقه وزميله أبو بلال مرداس بن أدية الذى هزم ألفين من جنود الخلافة بأربعين فارساً ، ما إن استشهد هذا الصديق ، حتى تمنى عمران أن يلحق به بطلًا شهيداً .

وكان أبو بلال نفسه قد أنشأ الشعر فى «الخروج» وله عند وفاة ابن وهب :

أبعْد ابن وهبٍ ذي النزاهة والتُّقى
ومَنْ خاض فى تلك الحروبِ المهالِكا
أحِبُّ بقاءً أو أُرَجِّى سلامة
وقد قَتَلوا زيد بنَ حِصْنٍ ومالكا
فيا ربِّ سلِّمْ نيَّتى وبصيرتى
وهبْ لى التُّقَى حتى ألاقى أولئكا

ويقول عمران فى مناسبة استشهاد صديقه أبى بلال :

لقد زاد الحياةَ إلــىَّ بُغضاً
وحبًّــا للخــروج أبــو بلالِ
أُحاذرُ أن أموتَ على فراشى
وأرجو الموتَ تحت ذُرَا العوالى

ولو أنى علمتُ بأنَّ حَتْفى
كحتفِ أبى بلالٍ لم أبالِ

فَمَنْ يكُ همه الدنيا فإنى
لها — والله ربِّ البيتِ — قالِ

ولما كان عمران هذا زعيماً ذا عقيدة فإنه لم يحاول أن يخرج بالشعر من ميدان العقيدة إلا نادراً ، وكان يحتقر المتكسبين بالشعر ، فقد مر يوماً على الفرزدق الشاعر المعروف وهو ينشد الشعر والناس ملتفون من حوله فقال له :

أيها المادحُ العبادَ ليُعْطَى ... إنَّ لله ما بأيدى العبادِ
فاسْأَلِ الله ما طلبتَ إليهم ... وارْجُ فضلَ المقسِّمِ العوَّادِ
لا تَقُلْ فى الجوادِ ماليس فيه ... وتسمِّى البخيلَ باسم الجوادِ

فما إنْ سمع الفرزدق هذه الأبيات حتى قال مغيظاً : لولا أن الله شغل عنا هذا برأيه للقينا منه شراً .

وما دمنا قد أشرنا إلى شعر الخوارج — وهو جدير بأن يشار إليه — فلا مناص لنا من أن نلمح إلى شاعرهم الأكبر الطرماح بن حكيم الطائى المتوفى سنة ١٠٠ هـ وكان منتسباً إلى فرقة الأزارقة ، وكان يكثر فى شعره من ذكر «الشراة» وهى صفة للخوارج أى الذين شروا أنفسهم ، فمن شعره الذى يتمثلهم فيه قوله :

لقد شقيت شقاء لا انقطاع له
إنْ لم أفزْ فوزةً تنْجى من النارِ

والنارُ لم ينجُ من روعاتها أحد
إلا المنيب بقلبِ المخلصِ الشارِى

أو الذى سبقتْ من قبل مولده
له السعادة من خَلاّقِها البارِى

ومن شعره فى تمجيد أبناء مذهبه قوله :

لله دَرُّ «الشُّراةِ» إنهمُ ... إذا الكرى مال بالطُّلا أرِقوا
يُرجّعون الحنينَ آونةً ... وإن علا ساعةً بينهم شَهِقوا

خوفـــاً تبـــيت القلـــوبُ واجفـــةَ تكـــــاد عنها الصدورُ تنفلـــــــق
كيـــف أرجِّـــى الحيـــاةَ بعدهُـــمُ وقـــد مضى مؤنسىَّ فانطلقــــوا
قومٌ شحـــاحٌ على اعتقادهـــــمُ بالفـــــوزِ مما يخافُ قد وَثِقُــــوا

لا شك فى أن شعر الخوارج به مسحة من القوة والصفاء والعزم والإيمان بمثل مرتجاة مهما كان الرأى فى طبيعة مذهبهم أو مذاهبهم .

نعود إلى القول بأن الخوارج قد أظهروا نشاطهم الحربى والسياسى والعقائدى على مسرح الدولة الإسلامية فترة طويلة من الزمان وخاضوا المعارك فى كل شبر منها تقريباً ، ومع انقسامهم وتناحرهم فقد أمكن لهم أن يصمدوا على المسرح الحربى حتى أوائل القرن الثانى الهجرى ، فدوخوا الدولة الأموية وفرضوا سلطانهم على مساحات واسعة من أرض الدولة وأمنوا حكومتهم وجبوا الخراج ، ولكنَّ تخالفهم فيما بينهم وتناحرهم وتشتت صفوفهم وكثرة الانقلابات الداخلية في الفرقة الواحدة منهم وتطرف بعضهم إلى درجة استحلال دماء النساء والأطفال واستنكار البعض الآخر لهذا المسلك ، كل أولئك جميعاً قد بدد شملهم وفتت جمعهم ، فزعيم مثل نجدة بن عامر يكرمه قومه ويلقبونه بأمير المؤمنين ويسمون الفرقة باسمه «النجدات» ثم لا يلبثون أن يتصيدوا له ذنباً فيقتلوه ، يقتله رجل من طائفته اسمه أبو فديك .

وما فعله «النجدات» بنجدة فعله «الأزارقة» بقطرىّ بن الفجاءة ، لقد كان قطرى شجاعاً جريئاً ما فى ذلك شك ، ولم تكن الهزيمة بقادرة على أن تشق طريقها إليه لولا أن رجاله بدأوا ينقلبون عليه ويتعقبونه ويأخذون علية مخالفات شرعية ، وكان هو بدوره لا يشاركهم جميع آرائهم فى أمور القتال فتألبوا عليه ، وكانوا خليطاً من العرب والعجم ، فأما العرب فقد ثبتوا إلى جانبه وأما العجم فقد انقلبوا عليه ومعهم بعض العرب ونشب القتال بين أبناء العقيدة الواحدة واستمر زهاء شهر تفرقوا بعده ، فكان من السهل على المهلب أن يقضى عليهم جميعاً (أى الأزارقة) بادئاً بالفريق المتمرد مثنياً بفريق قطرى .

وإذا كان أبناء الفريق الواحد يتحاربون ويتقاتلون هكذا ، فليس من شك فى أنه قد جرت حروب واشتباكات بين أنصار الفرقتين المختلفتين داخل نطاق المذهب الخارجى ، وكان أيسر شيء لديهم أن يكفر هذا الفريق ذاك الفريق الآخر ، كما حدث عندما كفر الأزارقة «القعدة» أى الذين يقعدون عن القتال ، وفى ذلك يقول شاعرهم :

سلام على مَنْ بايع الله شارياً ... وليس على الحِزْبِ المقيم سلامُ

وهكذا يكون الخوارج بتعصبهم وعدم تسامحهم وخلافاتهم الكثيرة المتعددة قد صدعوا صفوفهم وقضوا على أنفسهم بأنفسهم ، بل هناك من يقول بأنهم قد ساهموا فى القضاء على الدولة الأموية ، لأنهم بما أوجدوا من اضطرابات شغلت الدولة وقتاً طويلًا قد يسروا السبيل أمام دعاة العباسيين لكى ينشطوا فى تنظيم خططهم بمنأى عن عيون الرقباء من المسئولين الذين انشغلوا بحرب الخوارج ومطاردتهم .

أحزاب الخوارج وعقيدتهم :

انقسم الخوارج إلى أحزاب كثيرة متعددة ، ولقد اخترنا لفظ «حزب» ولم نختر لفظ «فرقة» لما قد تقمصته كلمة حزب من الدلالة على المعنى السياسى أكثر منها دلالة على المعنى الدينى .

والحق أن مذهب الخوارج كان فكرة سياسية خالصة ، فقد كانوا يرون أن الخلافة لاينبغى أن تنحصر فى قوم بعينهم ، بل إن كل مسلم صالح للخلافة مادام قد توفرت فيه شروطها من إيمان وعلم واستقامة ، على شريطة أن يبايعه الناس بذلك ، ولا بأس بعد ذلك فى أن يكون من الفرس ، أو الترك أو الحبش ، فالمعنى العصبى الأرستقراطى بعيد عن تفكيرهم ، بل عدو لمنهجهم ومسلكهم ، واقتصار الخلافة على أسرة بعينها كأسرة النبى أو جنس بعينه كالجنس العربى أمر يحاربونه كل المحاربة .

وبرغم أن الخوارج قد حاربوا علياً وخرجوا عليه ، فإن له فيهم — وهو الإمام المنصف — كلمة حق حين قال فى آخر أيامه : لاتقاتلوا الخوارج بعدى ،

فليس من طلب الحق فأخطأة كمن طلب الباطل فأدركه ، وأمير المؤمنين يشير بذلك إلى أن الخوارج أشرف فى قصدهم من بنى أمية ، لأن الأمويين اغتصبوا الخلافة اغتصاباً بغير حق ثم ما لبثوا أن حولوها إلى ملك متوارث ، الأمر الذى يتنافى مع الإسلام نصاً وروحاً ، وأما الخوارج فكانوا يدافعون عن عقيدة دينية آمنوا بها وإن أخطأوا السبيل إليها .

وإن الخليفة العادل عمر بن عبد العزيز يؤيد رأى الخليفة الرابع فى حسن الظن بهم حينما قال لبعضهم : إنى قد علمت أنكم لم تخرجوا مخرجكم هذا لطلب دنيا أو متاع ، ولكنكم أردتم الآخرة ، فأخطأتم سبيلها .

ولكن الذى أفسد على الخوارج دعوتهم المناضلة المكافحة هو سفكهم الدماء ، وبخاصة دماء المسلمين من مخالفيهم فى الرأى ، لقد كان دم المسلم عندهم أرخص من دم غير المسلم ، وقد مر بنا قبل قليل قصتهم مع مسلم مخالف لهم ونصرانى ، فقتلوا المسلم وحفظوا على النصرانى دمه . ومن الأخبار المأثورة ، التى تؤيد هذا الرأى فيهم ، أعنى تعطشهم لدماء مخالفيهم من المسلمين والعفو عن غير المسلمين ، أن واصل بن عطاء رأس المعتزلة وقع فى أيديهم مرة فادعى أنه غير مسلم وكانت وجهة نظره أن ذلك أدعى للحفاظ على حياته مما لو عرف عنه أنه مسلم مخالف لهم ، وقد صح ماتوقعه ، فقد كان ادعاؤه الشرك سبباً فى نجاته منهم .

كان أمراً طبيعياً أن ينقسم الخوارج على أنفسهم فى الوسائل التى يتبعونها لكى يصلوا إلى أهدافهم السياسية فى الحكم ، وكان الانقسام فى الرأى سبباً فى الخلاف الشديد بينهم ، غير أن هذا الخلاف الفكرى السياسى مالبث أيضاً أن دفع بهم إلى خلاف عقائدى فى صلب الدين فمزجوا الدين بالسياسة ، وخلطوا بين الحكم والعقيدة ، غير أنهم بمختلف أحزابهم قد أجمعوا على أمرين جوهريين : الأمر الأول يتعلق بنظرية الخلافة ، وتتلخص فى أن الخليفة يختار اختياراً حراً من بين المسلمين وليس من الضرورى أن يكون قرشياً ، فمن حق الحبشى مثلًا أن ينتخب متى أجمع المسلمون على انتخابه ، كما أنه من حق القرشى أن ينتخب متى أجمع المسلمون على اختياره . والأمر الثانى عقائدى محض ، فهم يقولون إن العمل

بأوامر الدين جزء من الإيمان وليس الإيمان كله ، يعنى أن الذى يؤمن بالله وبالرسول وبالصلاة والصوم وأركان الإسلام الأخرى ثم يرتكب الكبيرة فهو كافر وليس مسلماً . فلما انشعبوا إلى أحزاب عديدة أصبح لكل حزب عقائده ونظرياته الدينية .

كان الخوارج فى أول أمرهم يسمون «بالمحكِّمة الأولى» وهم الذين خرجوا على أمير المؤمنين على بن أبى طالب وانتحوا إلى حروراء . وكان أول زعيم لهم عبد الله ابن وهب الراسبى وكان من سواد الناس ، غير أنه موصوف بالشجاعة والصلابة . ومن ألمع جماعته وأصلبهم عقيدة «عروة بن أذينة» الذى خاض معارك عديدة ، وقد لقيه زياد بن أبيه فأراد أن يستكشف كنهه ويستظهر أمره ويسبر غوره ويعرف عقيدته فسأله عن أبى بكر وعمر فقال عنهما كل خير ، ثم سأله عن عثمان فقال : كنت أوالى عثمان على أحوالى ست سنين ثم تبرأت منه بعد ذلك للأحداث التى أحدثها ، وشهد عليه بالكفر . ثم سأله عن على بن أبى طالب فقال كنت أتولاه إلى أن حكَّم الحكمين ثم تبرأت منه بعد ذلك ، وشهد عليه بالكفر . ثم سأله عن معاوية فسبه ولعنه ، ثم سأله عن نفسه (أى عن زياد) فقال : أوَّلُكَ لريبة وآخرك لدعوة وأنت فيما بينهما بعد عاصٍ ربك . فأمر زياد بضرب عنقه ، وقد كان أمراً طبيعياً جداً أن يضرب زياد عنقه ، لا لأنه يستحق ذلك ، ولكن لأن هذه الجرأة فى الرأى والصلابة فى التمسك به حتى أمام ولى الأمر مالك الرقاب أمر له خطره على كيان الدولة القائمة المثخنة بالجراح المهددة بالبوار ، ويجوز أن زياداً قتله انتقاماً لنفسه ، فإن فى رأى عروة إشارة إلى مولد زياد من سفاح ، وقد كان زياد جباراً ذا بطش وعنف .

هذا ما كان من أمر المحَكّمة الأولى من الخوارج ، ثم انقسموا بعد ذلك إلى أحزاب عديدة أهمها : الأزارقة ، والنجدات ، والبيهسية ، والعجاردة ، والثعالبة ، والإباضية ، والصفرية .

على أن هذه الأسماء إنما هى للأحزاب الرئيسية الكبرى ، ولكن بعض هذه الأحزاب قد انشطر إلى أحزاب أصغر ، فالعجاردة مثلاً انشطروا إلى الصلتية أصحاب عثمان بن أبى الصلت ، والميمونية أصحاب ميمون بن خالد ، والحمزية

أصحاب حمزة بن أدرك ، والخَلَفية أصحاب خَلَف الخارجى ، والأطرافية ، والشُعيبية ، والحازمية .

والثعالبة انشطروا إلى الأخْنَسيَّة ، والمعْبَدِية ، والرشيدية ، والشيبانية ، والمكرمية ، والمعاومية ، والمجهولية ، والبدعية .

والإباضية انشطروا إلى الحفصية ، والحارثية ، واليزيدية .

تلك هى أحزاب الخوارج وشعابها ، وأكثرها قد ذاب فى غمرة أحداث الزمان وكر الأيام ، ولم يبق منها معاصر لنا إلا الإباضية ، ولكننا مع ذلك لن نقتصر على تقديم الإباضية وحدها ، بل لا بأس من أن نلم إلماماً خفيفاً بأشهر تلك الأحزاب التى ذكرنا وهى الأزارقة والصفرية والإباضية .

الأزارقة :

فأما الأزارقة فهم أصحاب أبى راشد نافع بن الأزرق الذى خرج بأتباعه الذين ربوا على ثلاثين ألف فارس فاحتلوا الأهواز وفارس وكرمان وانتصروا على عمال عبد الله بن الزبير وكانت هذه المناطق فى حدود خلافته . وكاد أن يستقر الأمر للأزارقة بعد هذه الانتصارات الضخمة إلى أن خرج لهم المهلب بن أبى صفرة فحاربهم تسع عشرة سنة حتى تغلب عليهم ، وكان من ألمع قواد الأزارقة قطري ابن الفجاءة المازنى الذى مر ذكره .

وكان الأزارقة غلاة فى أفكارهم وأحكامهم ، فكانوا يقولون إن جميع مخالفيهم من المسلمين مشركون ، وإن من لا يسارع إلى دعوتهم واعتناق مذهبهم فإن دمه ودم أطفاله ونسائه حلال ، وقد كفَّروا على بن أبى طالب واعتبروا قاتله عبد الرحمن بن ملجم شهيداً بطلًا ، حتى إن شاعرهم قد تغنى بهذه الحادثة الكريهة فقال :

يا ضربــــة من منـــــيب مأأراد بها — إلا ليبلـغ من ذى العرش رضوانـــا
أنى لأذكــره يومـــاً فأحسبــــه — أوفى البريـــة عنـــد الله ميزانـــا

والأزارقة كانوا فى الجملة متطرفين ، بل كانوا خطرا على الإسلام نفسه ، وتوسعوا فى عداوتهم لغيرهم من المسلمين ، وكفّروهم جميعاً ، وحرموا على أنفسهم الصلاة مع غيرهم من المسلمين ، كما حرموا الزواج منهم وأكل ذبائحهم ، وجعلوا دارهم — أى دار المسلمين — دار حرب ، ثم اتسعوا فى مزاعمهم فقالوا إن أطفال المشركين فى النار ، وفى الوقت الذى اعتبروا فيه فاعل الكبيرة كافراً مخلداً فى النار عطلوا بعض الحدود بأن أسقطوا الرجم عن الزانى ، كما أسقطوا الحد عمن قذف المحصنين من الرجال وإن لم يسقطوه عن قاذف المحصنات من النساء .

الصُّفْرية :

وأما الصفرية فهم أتباع زياد بن الأصفر ، وكانوا أميل إلى المسالمة من الأزارقة ، كما كانوا أقرب إلى الاعتدال وأبعد عن التطرف فى أحكامهم ، فلم يكفروا القاعدين عن القتال ، ولم يسقطوا الرجم ، ولم يحكموا بقتل أطفال المشركين وتكفيرهم وتخليدهم فى النار ، وفاعل الكبيرة عندهم عاص وليس كافراً مشركاً .



الإباضيّة

الإباضية هم أشهر فرق الخوارج على الإطلاق ؛ لأنهم لا يزالون حتى يومنا هذا يسكنون فى عُمَان وزنجبار وشمال إفريقية . والإباضية هم أصحاب عبد الله بن إباض ، وكانت لهم صولة في الجزيرة العربية ، وعلى الأخص في حضرموت وصنعاء ومكة والمدينة .

ولكنهم يغضبون كثيراً حين يسمعون أحداً ينسبهم إلى الخوارج ، ويبرأون من تسميتهم بالخوارج ويقولون نحن إباضية ، كالشافعية والحنفية والمالكية ، ويقولون إنهم رموا بهذا اللقب لأنهم رفضوا القرشية ، أى التزام كون الإمام من القرشيين .

وقد دخل مذهب الإباضية إلى إفريقية فى النصف الأول من القرن الثانى ، وانتشر بين البربر انتشار النار فى الهشيم حتى أصبح مذهبهم الرسمى . وقد حكم الإباضيون فى شمال إفريقية حكماً متصلًا مستقلًا استمر زهاء مائة وثلاثين سنة حتى أزالهم الفاطميون .

وإذا كان الإباضيون أصحاب أمجاد فى الماضى فما يزالون كذلك فى عصرنا الحاضر ، فهم الذين يخوضون الحرب الباسلة فى عمان ضد الإنجليز[٦] ، لا يكل لهم عزم ولا يفت فى عضدهم إرهاب ، وجماعة منهم يسكنون تونس والجزائر ، ولا شك أن أرض الجزائر تعتبر فى يومنا هذا أرض الصراع والنار[٧] ، لأنها أندلس العصر الحديث ، وإن ما يقترف فيها من أعمال وحشية لايقل عما ارتكبه الإسبان ضد العرب المسلمين عندما طردوهم من إسبانيا .

عقيدة الإباضية :

عقيدة الإباضية تتفق مع أهل السنة فى الكثير وتختلف فى القليل ، فهم يعترفون بالقرآن والحديث كمصدر للعلوم الدينية ، ولكنهم يقولون « بالرأى » و يأخذون بالإجماع .

وهم أول من دوّن الحديث ، وأول من قام بذلك إمامهم جابربن زيد المتوفى سنة ٩٣هـ . جمع الحديث فى كتاب أسماه « ديوان جابر» ولكن هذا الديوان مفقود ، ثم رسم على منواله الربيع بن حبيب الفراهيدى الذى عاش حوالى منتصف القرن الثانى ، وكتابه معروف باسم «مسند الربيع بن حبيب» وهو مطبوع متداول . ولعل أهم خلاف بينهم وبين السنة قولهم بالتنزيه المطلق ، فلا يقولون بالتشبيه ، ولذلك فإنهم يقولون إن رؤية الله منفية فى الدنيا والآخرة . ويقولون أيضاً إن الوعد والوعيد لا يتخلفان ، بمعنى أن وعيد الله لا يتخلف ، فمن دخل النار فهو خالد فيها ، والمذنب تطهره التوبة ولا يدخل السعيد النار . وواجب عندهم الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر .

ولقد انقسم الإباضيون الأول إلى عدة أحزاب هى : الحفصية ، والحارثية ، واليزيدية ، وهذه الأخيرة قد أمعنت فى الشطط حينما زعم رئيسها يزيد بن أنيسة أن الله سيبعث رسولا من العجم وينزل عليه كتاباً قد كتب فى السماء ينزله عليه جملة واحدة ويكون على ملة الصابئة .

---

(٦) نالت عمان استقلالها وهى تمضى قدما فى طريق الرقى والنماء الحضارى

(٧) نالت الجزائر استقلالها بعد صدور الطبعة الأولى من هذا الكتاب بوقت قصير .

ولكن انحراف يزيد بن أنيسة لا يوثر فى طبيعة مذهب جمهرة الإباضية الذين يتوفر كثير من جوانب الاعتدال فى عقيدتهم .

وهم وإن نسبوا إلى الخوارج إلا أنهم يرون أنهم وحدهم الذين حافظوا على تعاليم الإسلام الحقة ، ويرون أن القدوة الحسنة كانت بعد النبى فى أبى بكر وعمر ولا يحبون عثمان ويسمونه صاحب «بدع» ، ولا يلعنون علياً بل أنكروا قبوله التحكيم و يعتبرون بيعته باطلة بعد قبوله التحكيم .

ونظرتهم إلى الإمام نظرة معتدلة ، فلا يشترطون فيه أن يكون قرشياً وإنما ينبغى أن يكون ورعاً فاضلًا يحكم بكتاب الله وسنة رسوله ، وأن الإمام الذى ينحرف ينبغى خلعه وتولية غيره .

و يرون أن الحكم الشرعى يجب أن يكون عن طريق الإمامة ، وللإمام السلطتان الدينية والدنيوية ، ويجب أن يكون اختياره عن طريق البيعة ، والإمامة بالوصية باطلة فى مذهبهم ؛ ويجوز تعدد الإمامة فى أكثر من مكان ، والحاكم العادل يغنى عن وجود الإمام حتى لو كان هذا الحاكم ملكاً .

والإباضية لا يعادون مخالفيهم من المسلمين معاداة صريحة ، بل يعتبرون دارهم دار إسلام ويبيحون الزواج منهم وموارثتهم ، ومرتكب الكبيرة فى نظرهم موحد وليس مؤمناً ، أو هو كافر كفر النعمة لا كفر الملة .

الرؤية :

المقصود بها رؤية البارى سبحانه وتعالى ، وترى الإباضية أن الرؤية تهدم التوحيد ، ولقد اتخذوا من هذه القضية الأصل الأول لمذهبهم ، وأنكروها لتنزيهه سبحانه وتعالى عن مشابهة الخلق ، وقد استندوا فى ذلك إلى الآيات المحكمات من كتاب الله ، ويرون أنه ينبغى تأويل الآيات الموهمة للتشبيه بما يقتضيه المعنى من

السياق كتأويل الاستواء على العرش بالاستيلاء[18]. ذلك أن الله جل وعلا لا يُرى فى الدنيا ولا فى الآخرة ،لا بالبصر ولا بالقلب ، لأن رؤيته ولو بالقلب توجد له تحيزا وجهات وحلولا فى مكان وزمان ولونا وتركيبا وغير ذلك من صفات الخلق .

ويمكن الركون إلى التأويل فى بعض مايمكن أن يستشف منه الرؤية فيقال : يد الله قدرته ، وعينه حفظه ، وجنب الله حق ، وقبضة الله ملكه ، ويد الله نعمته ، ومجيء الله أمره ، ونزوله إلى سماء الدنيا نزول ملك من ملائكته إليها بأمره ليحضّ على عبادته[19]. ومجمل قولهم فى الرؤية أنه خطأ لا يغتفر ، وعلى القائل بها أن يتوب إلى الله ويستغفره ، لأن أكثر الروايات فى هذا الشأن أصلها من دسائس اليهود[20].

الصفات :

لله سبحانه وتعالى صفات واجبة ، وبالتالى هناك صفات مستحيلة فى حقه سبحانه ، فالصفات الواجبة هى التى لا يمكن القول بوجوده بدونها ، وهى وجوده وجودا لا يحده زمن ، وإنما له الوجود المطلق والبقاء المطلق ولا نهاية لبقائه ، وهو العليم بذاته ، البصير بذاته ، القدير بذاته ، السميع بذاته ، لا تأخذه سنة ولا نوم ، لا يخلو منه مكان ولا تحيط به الأكوان ولا تفنيه الأزمان[21].

ومثلما لله صفات واجبة ، فإن هناك صفات مستحيلة عليه ، فكل صفة وجبت له امتنع عليه ضدها ، فإنه لو لم يكن كذلك لم يكن إلٰها ، فإذا كانت صفات العلم والقدرة وجبت عليه ، فإن ضدها كالجهل والعجز تمتنع عليه .

---

(١٨) إزالة الوعثاء ـــ صفحة ٦٠

(١٩) إزالة الاعتراض عن محقى آل إباض ، للشيخ محمد يوسف أطفيش ـــ صفحة ٣ ـــ ٦ .

(٢٠) طلقات المعهد الرياضى فى حلقات المذهب الإباضى ـــ صفحة ١٠٧ .

(٢١) انظر طلقات المعهد الرياضى للشيخ سالم بن حمود بن شامس ـــ صفحة ٩٣ .

القدر :

يرى الإباضية أنه لا يتم إيمان المرء إلا إذا آمنَ بالقدر خيره وشره وأنه من عند الله ، يعتمدون فى ذلك على الآيات الكريمة : «**والله خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ**» ، «**هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ الله**» و «**الله خَالِقُ كُلِّ شَيءٍ**» ، وكذلك للعبد الاختيار والاكتساب(٢٢)

القرآن الكريم قديم أم مخلوق ؟

شغل القرآن الكريم المسلمين منذ القرن الأول ، وظلوا يبحثون ويتجادلون فيما إذا كان قديما أو مخلوقا ، وذهب المعتزلة إلى أنه مخلوق ، وصنعوا فى ذلك فتنة كبرى لاتزال تعرف بفتنة خلق القرآن ، وقد أُوذى فيها الإمام أحمد بن حنبل وعدد كبير من علماء أهل السنة وفقهائهم ، وأما الإباضية فإن الشيخ محمد يوسف أطفيش يقول بلسانهم : إن القرآن مخلوق ، وهو فى هذا الشطر من رأيه يشارك المعتزلة فى رأيهم ، ولكنه يعود إلى الاستطراد قائلا : وعلمه تعالى به قديم غير حادث(٢٣). ثم يعود مرة أخرى إلى القول بأن القرآن المتلو بالألسن المكتوب فى المصاحف ليس بقرآن حقيقة بل هو دال على القرآن(٢٤) وهو رأى غريب لم أستطع أن أفهمه .

الخلافة :

تذهب جمهرة علماء المسلمين إلى ضرورة توفر شروط بعينها فيمن يتولى الخلافة ، وتميل هذه الجمهرة إلى أن يكون من شروط الخلافة أن يكون صاحبها قرشيا ، ولكن الإباضية اعتمدوا فى الخليفة شروطا بعينها ، مثل الكفاءة والعدل والكرم والتقوى ، مستأنسين بالآية الكريمة «**إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ الله أَتْقَاكُمْ**» ومن ثم كانت الدعامتان الأساسيتان فى شروط الخلافة الكرم والتقوى ، وأسقطوا القرشية

---

(٢٢) إزالة الوعثاء ـــ صفحة ٦٠ ، ٦١
(٢٣) إزالة الاعتراض ـــ صفحة ٢
(٢٤) المصدر السابق ـــ صفحة ٥٦

أو الهاشمية ، ولقد ذهب ابن خلدون فيما بعد إلى عدم اشتراط القرشية ولكنه استبدل بها العصبية ، وأما الإباضية فقد أسقطوا العصبية التى اشترطها ابن خلدون بل حاربوها ورفضوها .

ويدور بخلدى أن الإباضية حين تمثلوا الخلافة على النحو الذى اشترطوه ، كان أمامهم عدد من علماء المسلمين من أجناس مختلفة وألوان متباينة ، وكل منهم صالح لإمامة المسلمين ، ويحضرنى فى هذا المجال أبو عبيدة مسلم ، فقد كان زنجيا أسود أعور ، ولكنه مع ذلك كان درة فى جبين المذهب ، وواحدا من أهم أركانه .

غير أن هذا الانفتاح فى شروط الإمامة ربما كان وسيلة بشكل ما ولو غير مباشر فى الحملة على الراشدين القرشيين الثالث والرابع وهما عثمان وعلى[٢٥]، إضافة إلى الأسباب الأخرى التى رآها الإباضية فيهما ، ومن قبلهم فرق الخوارج المعروفة .

هذا وإن مصادر العقيدة عند الإباضية هى الكتاب والسنة والرأى والإجماع

والسنة عندهم تمثل الصحيح والحسن وغيرهما إلا مااشتد ضعفه فإنه لايعمل به . ويتمسك الإباضية بالرأى تمسكا شديدا ، وهو عندهم اجتهاد العلماء ، وهم يدينون من أنكره بالكفر .

والركن الرابع هو الإجماع ، وهو أيضا اجتهاد مأخوذ من الكتاب والسنة ، لكن خفى مأخذه منهما ، وإنما خفاؤه على غير المجمعين[٢٦].

أمور تكليفية وأخرى تركية :

الأصل فى العقيدة بعد الإيمان أنها الأوامر والنواهى ، وهى فى أغلبها متفق عليها ، لأنها أمر بالمعروف ونهى عن المنكر .

---

(٢٥) راجع طلقات المعهد الرياضى ــ صفحة ٢٢ .

(٢٦) شرح عقيدة التوحيد للشيخ محمد بن يوسف أطفيش ــ صفحة ٦٣ ــ ٦٥

ولقد سجل بعض علماء الإباضية الأوامر فى نيف وستين جزءا[٢٧]، وهو عدد كبير فى نطاق الإحصاء ، ولذلك فيها أشياء ربما تفردوا بها ، مثل قص الشارب ، وحلق شعر العانة والإبط ، وفرق شعر الرأس إذا طال كثلاث أصابع أو أربع عرضا ، وقلم الأظفار ، وغسل البراجم «يعنى مفاصل أصابع اليدين والقدمين» وهذه أمور اجتماعية توقفت عند النص عليها كقضايا من قضايا المذهب ، وهناك أيضا قتل الحية والعقرب وهى بديهية ، ثم هناك قتل الخنزير الإنسى والوحشى وكلاهما نجس ، وإنى أتساءل : هل كلما رأيت خنزيرا أقتله مثل الحية والعقرب ؟ وهناك عدد من المحرمات جرى النص عليها ، مثل الصلاة بما فيه صورة حيوان ، وتصوير ما فيه روح ، والصلاة خلف من يرفع يديه مع الإحرام أو بعدها لأنها لا تجوز ، وأكل العنبر والزعفران وجوزة الطيب فهى محرمة كتحريم الحشيشة والأفيون والدخان وكل ما يسكر أو يفتر ، وبيع أهل الشرك مايجعلونه خمرا لهم كالعنب والزبيب والتمر ، وبيع ما يلهى من كعاب وكوروصوالج ، ولعب النرد ، ولعب مايسمى فى مصر بالنّحلة التى تدار على الأرض بخيط وهى مصنوعة من الخشب مخروطية الشكل فى طرفها المدبب قطعة حديد .

الحقيقة أن جدية المذهب وأعماقه وعظم رجاله كان من الممكن أن تشكل سببا للتغاضى عن النصوص سالفة الذكر ، ومثلها كثير رأينا ألا نعنى بتسجيله .

ومهما يكن من أمر فإن المذهب الإباضى ، وتلك بعض أركانه وأحكامه وسماته ، يعتبر من أقرب المذاهب إلى أهل السنة ، ووجوه الاتفاق أكثر كثرة واضحة من وجوه الاختلاف ، وربما عمد بعض حسنى النية إلى الالتفات إلى أمور غير مقصودة فجسموها ، مثل ما يشاع من أن الإباضية تتعمد ألا تصوم مع جمهرة المسلمين فى أول يوم من رمضان ، وإنما تبدأ صيامها متأخرة يوما ، وتبعا لذلك يكون عيد الفطر متأخرا يوما عن عيد الجمهرة ، وفى اعتقادى أن ذلك أمر غير مقصود فيما لو صحت هذه القضية ، ذلك أن المسلمين لم يتفقوا حتى الآن على بداية لشهر رمضان يلتزم بها الجميع ، بل إنه من المؤسف أن عددا من البلاد

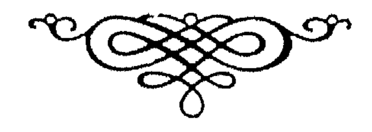
---

(٢٧) إزالة الاعتراض ـ صفحة ١١ وما بعدها .

الإسلامية كان يتسرع فيصوم اليوم الأخير من شعبان على اعتبار أنه من رمضان ، ولقد ثبت آن عددًا من البلاد الإسلامية فعل ذلك فى السنوات القليلة الماضية ، وأما الإباضية فلعلهم يستمسكون بالرؤية الشرعية المستمدة من قول الرسول ﷺ « **صوموا لرؤيته وأفطروا لرؤيته** » فلا صوم بلا رؤية ولا إفطار بلا رؤية ، وبقية الحديث قول الرسول ﷺ « **فإن غُبِّىَ عليكم فأكملوا عدة شعبان ثلاثين** » .

إما وقد ثبت لسنوات عدة أن أكثر أهل السنة فى المشرق كانوا يستعجلون مقدم رمضان فيصومون يوماً قبل مجيئه ، فإن الإباضية ومن صام معهم من بقية المذاهب الإسلامية كانوا هم أصحاب الصواب ، لالتزامهم النص حيال ابتداء رمضان ومنتهاه والله أعلم .

ومهما كان الأمر فقد كان فيهم عزة ومنعة ، ولعل خير وصف لهم هو ما قاله أبو حمزة الخارجى فى أصحابه : «شباب والله مكتهلون فى شبابهم ، غضيضة عن الشر أعينهم ، ثقيلة عن الباطل أرجلهم ، أنضاء عبادة ، وأطلاح سهر ، فنظر الله إليهم فى جوف الليل محنية أصلابهم على أجزاء القرآن ، كلما مر أحدهم بآية من ذكر الجنة بكى شوقاً إليها ، وإذا مر بآية من ذكر النار شهق شهقة كأن زفير جهنم بين أذنيه ، موصول كلالهم بكلالهم ، كلال الليل بكلال النهار ، قد أكلت الأرض ركبهم وأيديهم وأنوفهم وجباههم ، واستقلوا ذلك فى جنب الله ، حتى إذا رأوا السهام قد فوقت ، والرماح قد أشرعت ، والسيوف قد انتضيت ، ورعدت الكتيبة بصواعق الموت وبرقت ، استخفوا بوعيد الكتيبة لوعيد الله ، ومضى الشباب منهم قدماً حتى اختلفت رجلاه على عنق فرسه ، وتخضبت بالدماء محاسن وجهه ، فأسرعت إليه سباع الأرض ، وانحطت إليه طير السماء ، فكم من عين فى منقار طير ، طالما بكى صاحبها فى جوف الليل من خوف الله ، وكم من كف زالت عن معصمها ، طالما اعتمد عليها صاحبها فى جوف الليل بالسجود لله» .



رءوس الإباضـــية

عبد الله بن إباض :

سلف القول بأن الإباضية فرقة معتدلة فى فكرها الدينى ومن ثم فهى أقرب إلى أهل السنة ، وإذا كانت الفرقة أو بالأحرى المذهب يحمل اسم عبد الله بن إباض ، فلا يعنى ذلك أنه مؤسس المذهب من الناحية الفقهية ، فذلك هو أبو الشعثاء جابر بن زيد ، ومن بعده أبو عبيدة مسلم بن أبى كريمة ، وأما عبد الله بن إباض فكان زعيما سياسيا من زعماء المحكمة ، ولكنه تميز بالاعتدال فى فكره مع الشجاعة والبسالة والجرأة فى وجه السلطان مع صواب الفكرة وعمق المقالة ، ولقد ذهب مذهبنا فى أن عبد الله بن إباض لم يكن رأس الإباضية المذهبية لا السياسية كثير من علماء الإباضية المتأخرين وفقهائهم ، إذ هناك من ينصّ على أنه كان من أتباع أبى الشعثاء جابر بن زيد [٨]

هذا ومن الحقيقة بمكان أن القوم لم يطلقوا على أنفسهم هذه التسمية ، وإنما أطلقها عليهم مخالفوهم فى الرأى ، ولقد ارتضاها القوم وتقبلوها لأن النسبة ارتبطت بزعيمهم السياسى الأول عبد الله بن إباض ، وفى ذلك يقول الشماخى : « وأما تسمية مذهبنا بالإباضية ، فلكون عبد الله بن إباض رضى الله عنه كان المجاهد علنا ، المناضل فى سبيل تحقيق الحقائق ، وتصحيح قضايا العقول فيما أحدثه أهل المقالات والبدع من الزور والافتراء فى شريعة ربنا» .

---

(٨) إزالة الوعثاء عن أتباع أبى الشعثاء ، للشيخ سالم بن حمود بن شامس ـــ تحقيق الدكتورة سيدة الكاشف ص ٤٩ .

لقد التفت المبرد إلى ذلك فى وقت مبكر حين أورد رسالة أبى بيهس زعيم البيهسية من الخوارج إلى عبد الله بن إباض فى شأن نافع بن الأزرق وشأن ابن إباض نفسه اتهم فيها نافعا بالغلو والكفر لأنه يكفر غير الخوارج ، واتهم فيها ابن إباض بالتقصير والكفر لأنه يصف مخالفى الخوارج بكفار النعم . وتلك هى رسالة أبى بيهس :

«إن نافعا غلا فكفر ، وإنك قصرت فكفرت ، تزعم أن من خالفنا ليس بمشرك ، وإنما هم كفار النعم لتمسكهم بالكتاب وإقرارهم بالرسول ، وتزعم أن مناكحهم ومواريثهم والإقامة فيهم حلّ طلق» (٩).

إن الإباضية يرفضون نسبتهم إلى الخوارج من قريب أو بعيد ، وإنما يطلقون على أنفسهم «أهل الحق» بل إن أحد علمائهم المحدثين ، الشيخ سالم بن حمود قد ألف كتابا يدفع فيه عن قومه صلتهم بالخوارج وجعل عنوانه : «أصدق المناهج فى

غير أنهم كثيرا مايطلقون على أنفسهم الوهبيين ، والنسبة هنا لعبد الله بن وهب الراسبى الصحابى والذى كان من أنصار أمير المؤمنين علىّ ثم خرج عليه بعد التحكيم ، على أن إباضية الجزائر يطلق بعضهم على نفسه الوهبية نسبة إلى الإمام عبد الوهاب

تمييز الإباضية عن الخوارج» يقول فيه : مذهبنا مذهب رسول الله ﷺ ومذهب ابن عباس وأبى هريرة وأبى سعيد الخدرى وعائشة أم المؤمنين وعبد الله بن عمر بن الخطاب وعبد الله بن عمرو بن العاص ومذهب الخلفاء الراشدين .

، ويطلق فريق آخر على نفسه لقب الرستميين نسبة إلى عبد الرحمن بن رستم أحد دعاة المذهب وأول أئمة الدولة الرستمية فى إفريقية .

ومادمنا بسبيل الحديث عن عبد الله بن إباض فإنه ينبغى الإشادة بفضائله وشجاعته وفصاحته وغيرته على المقدسات الإسلامية ، ذلك أنه ماإن علم بما فعله جيش يزيد بن معاوية بمدينة الرسول من نهب وتخريب ، ثم اتجاه ذلك الجيش العربيد إلى مكة المكرمة ليصنع بها ما قد صنعه بالمدينة ، حتى سارع عبد الله على رأس جيشه واتجه إلى مكة واتخذ العدة للدفاع عنها هو وجيش عبدالله بن

---

(٩) الكامل ٣/٢٩١ ط نهضة مصر .

الزبير ، ولكن الله سبحانه كان قد بدد شمل جيش يزيد ولقى قائده حتفه بين المدينة ومكة .

ومن فضائل عبد الله بن إباض ــ جرأةً وبلاغةً ــ ماجرى بينه وبين الخليفة الأموى من تراسل ، ففد أراد عبد الملك أن يستميل عبد الله إلى جانبه ، فبعث إليه برسالة لا تخلو من دهاء ، ظاهرها الاستنصاح والتحبب ، وباطنها الاحتواء السياسى والفكرى ، وطلب إليه أن يعيد إليه الرسالة مع رده عليها فكتب عبد الله بن إباض هذا الرد الذى تتبدى البلاغة فى مسرى الرسالة كلها التى يستهلها هكذا[١٠] :
ابن إباض فى مسرى الرسالة كلها التى يستهلها هكذا[١٠] :

« بسم الله الرحمن الرحيم . من عبد الله بن إباض إلى عبد الملك بن مروان ، أما بعد ، سلام عليك فإنى أحمد الله إليك الذى لا إله إلا هو ، وأوصيك بتقوى الله فإن العاقبة للتقوى والمردّ إلى الله ، واعلم أنه إنما يتقبل الله من المتقين ، وقد جاءنى كتابك مع رسولك سنان بن عاصم ، وإنك كتبت إلى أن أكتب لك ، أى تطلب منى أن أكتب لك بكتاب فكتبته إليك ، فمنه ماتعرف ومنه ماتنكر ، ولكن الذى تنكره ليس عند الله بمنكر ، وأما ماذكرت من عثمان ، وماعرضت به من شأن الأمة ، فإن الله ليس ينكر عليه أحد شهادته فى كتابه الذى أنزله على نبيه محمد ﷺ أن من لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون والفاسقون الكافرون» .

ومضت الرسالة تتهم الراشد الثالث رضى الله عنه بأنه حاد عن الحكم بما أنزل الله فى حديث طويل لم نحبب أن نخوض فيه احتراما منا لذى النورين ، وهو مانختلف فيه مع فكر عبد الله بن إباض وجماعته فى شأن سيدنا عثمان .

يمضى عبد الله بن إباض بعد ذلك ناصحا عبد الملك أن يستمسك بكتاب الله وأن يعتصم بالله ، وأن يتدبر القرآن قائلا :

«فلا يغرنك ياعبد الملك بن مروان من نفسك ، ولا تسند دينك إلى الرجال ، فإنهم يستدرجون من حيث لا يعلمون ، فإن أملك الأعمال خواتمها ، وكتاب الله

---

(١٠) إزالة الوعثاء صفحة ٨٦ وما بعدها .

جديد أبدا لا ينطق إلا بالحق ، أجارنا الله باتباعه أن نبغى أو نضل ، فاعتصم بالله ياعبد الملك بن مروان يهدك إلى صراط مستقيم .

قال الله عزل وجل : «**وَمَنْ يَعْتَصِمْ بِاللهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَى صِرَاطٍ مُستقيم**» وكتاب الله هو حبل الله المتين الذى أمر المؤمنين أن يعتصموا به فقال :

«**وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللهِ جَمِيعاً وَلَا تَفَرَّقُوا**» فأنشدك الله أن تتدبر معانى القرآن فتكون مهتديا به مخاصما به . قال الله عز وجل : «**أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُها**» .

ثم تناول عبد الله بن إباض من قضية تولى معاوية أمر الخلافة موضعا للمجادلة وبَيَّنَ له أن نصر معاوية لم يكن دليلا على انسجامه مع شريعة الله ، فكثيرا ما انتصر غير ذوى الحق وغير ذوى الإيمان ، ابتداء من الذى حاج إبراهيم فى ربه ، مرورا بفرعون ، وانتهاء بمشركى قريش يوم أحد . ويستطرد عبد الله بن إباض موجها القول إلى عبد الملك :

«وكتبت إلىّ تحذرنى الغلو فى الدين ، أعوذ بالله من الغلو ، وسأبين لك ما الغلو فى الدين إذا جهلته ، فالغلو فى الدين أن يقال على الله غير الحق ، ويعمل بغير كتاب الله الذى بيّن ، وسنة نبيه التى سنّ ، وقال الله : «**يا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللهِ غَيْرَ الْحَقِّ**» .... وكتبت إلىّ تعرّض بالخوارج ، وتزعم أنهم يغلون فى الدين ، ويتبعون غير سبيل المؤمنين ، ويفارقون أهل الإسلام ، وأنا أبين لك سبيلهم . هم أصحاب عثمان الذين أنكروا عليه ما أحدث من بدعة وفارقوه حين ترك حكم الله وهم أصحاب الزبير وطلحة حين نكثا ، وأصحاب معاوية حين بغى ، وأصحاب علىّ حين بدل حكم الله وحكّم عبد الله ابن قيس وعمرو بن العاص . فهم فارقوا هؤلاء كلهم ، وأبوا أن يفرقوا بحكم البشر دون حكم الله ، فهم لمن بعدهم أشد عداوة وأشد مفارقة . كانوا يتولون دينهم وسنة نبيهم ﷺ ، وأبى بكر وعمر رضى الله عنهما ، ويدعون إلى سبيلهم ويرضون على ذلك ، كانوا يخرجون ، وإليه يدعون ، وعليه يفارقون ، وقد علم من عرفهم وعرف حالهم أنهم كانوا أحسن عملا وأشد قتالا فى سبيل الله» .

إن كتاب عبد الله بن إباض بليغ البنية عميق المعانى سديد الاستشهاد بكتاب الله وسنة رسوله ، قوى الحجة واضح البرهان من منطلق عقيدته الإسلامية من ناحية ، وهو مانوافقه عليه ، ومن واقع مااعتقده من أمور نسبت إلى ذى النورين وهو مايحتاج إلى تثبت ويقين ، فإن مؤرخى الإسلام قد ذكروا فى ذلك أمورًا كثيرة صح بعضها ، وجانب الصواب بعضاً آخر منها .

ومهما كان الأمر فقد كانت شخصيته عبد الله بن إباض أكثر لمعانا من الناحية السياسية منها من الناحية المذهبية الشرعية .

جابر بن زيد :

يعد جابر بن زيد المؤسس الحقيقى لمذهب الإباضية من حيث كونه مذهبا فقهيا شرعيا ، وتجمع الأخبار على أن عبد الله بن إباض كان يتلقى العلم عليه ، لقد كان جابر إماما فى العلم ، جامعا للأحكام ، مقبلا على كتاب الله وسنة رسوله ، زاهدا متواضعا ، امتحن فى دينه من قبل الحجاج ، مثلما امتحن من بعده الأئمة البررة أبو حنيفة ومالك وابن حنبل ، ولقد عرض عليه الحجاج القضاء فأبى .

لقد شهد لجابر أعلام الصحابة والتابعين ، فعبد الله بن عباس يقول عنه : لو نزل أهل البصرة بجابر بن زيد لأوسعهم علما من كتاب الله عز وجل . ويقول عمرو بن دينار : ما رأيت أحدا أعلم بالفتيا من جابر بن زيد ، ذلك أن جابرا قد روى عن عدد من أعلام الصحابة من أمثال عبد الله بن عباس وعبد الله بن عمر وعبد الله بن الزبير وأبى ذر الغفارى ومعاوية بن أبى سفيان وعكرمة وغيرهم وكان يقول : أدركت سبعين بدريا فحويت ماعندهم من العلم إلا البحر — يقصد عبد الله بن عباس — فلم يستطع جمع مالديه من علم لغزارته .

وقال إياس بن معاوية فى شأنه : أدركت الناس وما لهم مفت غير جابر بن زيد . ويقول إياس مرة أخرى : أدركت أهل البصرة وفقيههم جابر بن زيد من أهل عمان ، ولما مات جابر سنة ٩٣ هـ قال قتادة : اليوم مات أعلم أهل العراق .

ولجابر بن زيد أحكام فقهية تدل على علم كامل بكتاب الله وسنة رسوله ، فقد رأى جابر أحد الحجاج — وفى رواية أحد الحجة — يصلى فوق الكعبة ،

فنادى بأعلى صوته : يا من يصلى فوق الكعبة لا قبلة له ، وكان ابن عباس فى ناحية من المسجد فقال : إذا كان جابر بن زيد فى البلد فهذا القول منه . ومعنى قول ابن عباس أن جابرا أكثر العلماء المعاصرين احتفالا بأمور دينه . وروى مالك ابن دينار القصة الطريفة التالية : جاء جابر بن زيد للزيارة — أى لزيارته — فحضرت الصلاة ، فأبى أن يؤمنى وقال : ثلاثة ربهن أولى بهن ، رب البيت أحق بالإمامة فى بيته ، ورب الفراش أحق بصدر فراشه ، ورب الدابة أحق بصدر دابته .

وهناك خبر غريب يورده ابن حجر العسقلانى فى شأن نفى صلة جابر بالإباضية ، قال داود بن أبى هند عن عزرة دخلت على جابر بن زيد فقلت : إن هؤلاء القوم — يعنى الإباضية — ينتحلونك ، فقال أبرأ إلى الله من ذلك[11] ولكن مثل هذا الخبر لم يتكرر فى مؤلف آخر .

هذا وقد روى عن أبى الشعثاء جابر بن زيد عدد من كبار المحدثين والعلماء من أمثال قتادة ، وعمرو بن دينار ، وأيوب السختيانى ، ولكن الأخطر من ذلك كله هو أنه خرّج أحد أبرز علماء الإباضية وأئمتهم فى العلم ، وهو أبو عبيدة مسلم بن أبى كريمة[12]

أبو عبيدة مسلم بن أبى كريمة :

يعد أبو عبيدة مسلم بن أبى كريمة واحدا من أهم فقهاء الإباضية وأكثرهم تخريجاً للعلماء الذين صاروا دعاة وأئمة وقضاة وفقهاء ، ومن عجب أن أبا عبيدة كان أسود زنجيا أعور ، ولكن هذه العيوب الخلقية تلاشت أمام علمه وفضله وزهده وتقاه ، ولقد أسرف بعض الإباضية فى امتداحه مثل إسراف الشيعة فى امتداح على بن أبى طالب ، إن أحد العلماء المعاصرين يصفه قائلا : «قطب دائرة العلماء أبو عبيدة مسلم الذى خوله الله هدى أحيا به أرواح الحق فى أقطار شتى .،

---

(١١) تهذيب التهذيب ٣٨/٢ . وعزرة هو — فيما نرجح — عزرة بن ثابت الأنصارى ، لأنه بصرى مثله . انظر ترجمته فى تهذيب التهذيب ١٩٢/٧ .

(١٢) مصادرنا عن جابر بن زيد : حلية الأولياء ، لأبى نعيم الأصبهانى ٨٥/٣ ، وتهذيب التهذيب ، لابن حجر العسقلانى ٣٨/٢ ، وإزالة الوعثاء عن أتباع أبى الشعثاء للشيخ بن حمود بن شامس السمائلى ، تحقيق الدكتورة سيدة الكاشف من صفحة ١٩ — ٢٩ .

وكساه من لدنه وقارا ، وأضفى عليه من ملابس الإيمان أوفاها» وإلى هنا ولا بأس ، ولكن الكاتب يمضى قائلا : «وجعل توقيره فى قلوب أتباعه من نوع توقير الصحابة لرسول الله ﷺ [١٣].

ولقد كان أبو عبيدة يأكل من عمل يده فى الوقت الذى يربى فيه الأئمة والفقهاء ، ذلك أنه كان يصنع القفاف من خوص النخل ويبيعها ، ولذلك كان يلقب القفّاف .

ومثلما تعرض أستاذه جابر للأذى من قبل الحجاج بن يوسف فقد نال أبا عبيدة من ظلم الحجاج مثلما نال أستاذه . إ ان أبا عبيدة ظل فى سجن الحجاج إلى أن زالت غمة المسلمين بهلاكه .

لقد اتجه إلى إفريقية عدد من تلاميذ أبى عبيدة ، نشروا المذهب هناك ، ولا يزال نابضا نشطا إلى يومنا هذا ، منهم أبو الخطاب عبد الأعلى بن السمح المعافرى اليمنى الذى بويع بالإمامة فى صياد على مقربة من طرابلس سنة ١٤٠ هـ[١٤] ويقول الشيخ أبو العباس الناصرى إن أبا الخطاب استولى على طرابلس الغرب سنة ١٤٠هـ ، وحكم إفريقية كلها سنة ١٤١ ، وكان بطلا شجاعا ، وقد وجه إليه المنصور العباسى جيشا من خمسين ألفاً بقيادة ابن الأشعث أمير مصر ، ففاجأه فى سرت على حين غرة فقتله ومن كان معه من أصحابه سنة ١٤٤هـ ، وكانوا نحوا من اثنى عشر ألفا[١٥].

ومن تلاميذ أبى عبيدة أيضا عبد الرحمن بن رستم بن بهرام الذى اتجه إلى المغرب فى صحبة أبى الخطاب ، وكان أبو الخطاب قد استخلفه على القيروان ، فلما سقطت فى يد ابن الأشعث فرّ عبد الرحمن إلى الغرب ولحقت به جموع من

---

(١٣) طلقات المعهد الرياضى فى حلقات المذهب الإباضى للشيخ سالم بن حمود صفحة ٦٣ .

(١٤) السير للشماخى ، صفحة ١٢٥ .

(١٥) الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى ١٢٣/١ ..

الإباضية ، ونزل بموضع أنشأ فيه مدينة تاهرت وبايعه أصحابه بالإمامة ، وهو فارسى الأصل ، وهو أول من ملك من الرستميين ، وكان من الفقهاء المعروفين بالزهدوالتواضع (١٦) وهوما سوف يأتى تفصيلا بعدقليل .

ومن تلاميذ أبى عبيدة أيضا إسماعيل بن درار الغدامسى الذى صار قاضيا للمذهب بالمغرب .

ومن تلاميذه الذين بأمره نصبوا أئمة ، الإمام طالب الحق عبد الله بن يحيى الكندى فى أرض اليمن ، بل لقد جمعت إمامته اليمن والحجاز(١٧).

ومثلما خرّج أبو عبيدة هؤلاء الأئمة الفقهاء ، فقد خرج أيضا الحلقة الرابعة فى هذه السلسلة الذهبية من علماء الإباضية ، وأعنى به الربيع بن حبيب الفراهيدى العمانى البصرى صاحب «مسند الربيع» الذى عليه يعتمدون فى أمور دينهم .

---

(١٦) البيان المغرب لابن عذارى ١٩٦/١ .
(١٧) إزالة الوعثاء عن أتباع أبى الشعثاء ، صفحة ٣٣ .

الدول الإباضية

ظل القطر العماني منذ فجر الإسلام مستقرا للمذهب الإباضي ، وكان من الأمور الطبيعية أن يسيطر أبناء المذهب على نظام الحكم فيه في شكل إمامة تستمد نظام حكمها وأحكامها من المذهب الشائع بين أهل البلاد .

لم يكن المذهب الإباضي وحده بين المذاهب الإسلامية الذى أنشأ حكومة بل حكومات على رأسها إمام إباضي ، بل إن عددا من الفرق الإسلامية استطاع أن يُنشىء دولا و يقيم حكومات تستمد أسلوبها في الحكم من أحكام مذهبها ، وربما عمدت بعض هذه الحكومات إلى نشر مذهبها بالترغيب الذى يتمثل في المناصب الرفيعة و بذل المال الكثير ، و بالترهيب الذى يتمثل في سل السيوف والإطاحة بالرقاب مثلما فعل العبيديون المشهورون بالفاطميين في شمال إفريقية ثم في مصر والشام ، وامتد عمر دولتهم إلى ما يربو على قرنين من الزمان ، ومثلما فعل الزيدية في اليمن الذين أنشأوا إمامة جعلوا عاصمتها صنعاء واستمرت عدة قرون إلى أن دالت دولتهم منذ نحو ثلاثين سنة وعلى وجه التحديد عام ١٩٦٢ميلادية .

بل إن ما يؤكد حرص كل فرقة إسلامية على إقامة حكم يأخذ لون الفرقة في فكرها وعقائدها هو ما فعلته فرقة المعتزلة بالدولة العباسية حين نقلوها من دولة سنية

إلى دولة معتزلية على أيدى خلفاء مرموقين ثلاثة هم المأمون والمعتصم والواثق مما لا يتسع المجال لتفصيله فى هذا المقام .

فإذا ما عدنا إلى الحكم الإباضى وجدناه ثبت أقدامه ووطد أركانه فى أكثر من قطر إسلامى ، وجدناه فى عمان ممثلا فى خمس حقب أو بالأحرى أربع دول هى دولة بنى الجلندى ، والخروصيين ، والنباهنة ، واليعاربة ، والبوسعيديين ، ووجدناه لبعض الوقت فى اليمن ، ولقرن ونصف إلا قليلا فى الشمال الأفريقى فى الدولة الرستمية ، ثم وجدناه أخيرا فى شرق أفريقية وعلى وجه التحديد فى ممباسا وزنجبار ولكن كفرع من نظام الحكم فى عمان .

الدول الإباضية فى عمان

الذى يتابع مسيرة التاريخ الإسلامى فى عمان يجد أن هذا القطر ظل محكوما بواسطة الأزد ــ والإباضية منهم ــ منذ ظهور المذهب ، وإن ظلت السيادة للمهلب بن أبى صفرة و بعض أبنائه وقواده .

الإمامة الأولى « إمامة الجلندى » :

بدأت الإمامة الأولى فى عمان المستقلة سنة ١٣٢ هـ على وجه التحديد ، وهى السنة التى سقطت فيها دولة بنى أمية وقامت دولة بنى العباس ، وكان أول إمام هو الجلندى ابن مسعود بن جلندى الجلندانى أمير عمان وعظيم الأزد ، وقد بويع الجلندى بالإمامة عن استحقاق ، فقد كان مؤهلا لها لاكتمال شروطها فى شخصه من علم وعدل وتقوى وشجاعة وصلابة فى الدين .

ويجمع المؤرخون على أن العمانيين لم يكونوا يفضلون أحدا من الأئمة الذين جاءوا من بعده عليه إلا أن يكون الإمام سعيد بن عبد الله بن محمد الخروصى ؛ لأنه حين ولى الإمامة سنة ٣٢٠ هـ كانت عمان فى حالة من الفتن والفوضى والانقسام بحيث قاسى أهلها من المظالم ما لم يقاسوه فى عهد آخر ، فجرت بيعته على الدفاع لا على الشراء ، فجاهد الخارجين وحاول الإصلاح قدر استطاعته .

وليس من شك فى أن لتفضيل الإمام الجلندى على غيره من الأئمة أسبابا وجيهة ربما كان فى مقدمتها أنه أول إمام إباضى ، ولأن جميع الشمائل قد توفرت فيه ، يضاف

إلى ذلك طريقته العادلة فى الحكم واختيار الحكام الصالحين وتنظيم الشراة الذين جعلهم كتائب ، وجعل على كل كتيبة قائدا كامل الشروط دينا وفقهاً وأدبا وأمانة ، ثم صارت هذه الترتيبات دستورا اتبعه الأئمة الصالحون الذين جاءوا من بعده فى مختلف العهود على مسيرة الإمامة فى عمان .

ومن الأحداث الطريفة التى ارتبطت بالسنة التى تولى فيها الجلندى الإمامة وهى سنة ١٣٢ هـ أنه فضلا عن سقوط بنى أمية وقيام خلافة بنى العباس ، اجتمع فيها ثلاثة أئمة فى وقت واحد هم الجلندى فى عمان ، وطالب الحق عبد الله بن يحيى فى اليمن ، وأبو الخطاب المعافرى فى إفريقية ، والأمر الأكثر طرافة أن ثلاثتهم من الإباضية ؛ ومن ثم فقد أطلق على تلك السنة سنة الإمامة .

على أن إمامة الجلندى لم تستمر إلا عامين ، فقد بعث إليه الخليفة العباسى السفاح جيشا كثيفا عن طريق البحر ، وعمد الجيش العباسى إلى حرق المساكن بما فيها من نساء وأطفال ، وانشغل الإمام بإنقاذ النساء والأطفال فحمل عليه الجيش العباسى ، وقتل فى المعركة أكثر من عشرة آلاف مقاتل ، وظلت أمور البلاد فوضى حتى سنة ١٧٩ هـ .

إمامة الخروصيين :

ظلت أمور عمان مضطربة على النحو الذى أوضحناه حتى قيّض الله لتلك البلاد إماما فاضلا من بنى خروص هو الوارث بن كعب الذى بويع له سنة ١٧٩ هـ ، ولقد عرف بنو خروص بدينهم وزهدهم وورعهم وحسن تناولهم لأمور الإدارة والسياسة والحرب مما جعلهم مؤهلين للإمامة ، وصارت لهم دولة عاشت حتى بعد سنة ٤٠٠ هـ بقليل ، وقد تسلسلت الإمامة فيهم مزدهرة مستقرة لنحو قرن من الزمان ، ثم ما لبثت الاضطرابات أن تحركت فأضرت بأمن عمان وعبثت باستقراره بل واستقلاله أيضا .

ومما يذكر للإمام الوارث أنه هزم جيوش الدولة العباسية التى بعث بها الرشيد لإعادة عمان إلى الحظيرة العباسية ، وكانت هزيمة الجيش والأسطول العباسيين منكرة فى البحر والبر ، ووقع القائد عيسى بن جعفر أسيرا وكان ابن عم الخليفة (١) .

---

(١) عمان عبر التاريخ ٢ / ٢٩ .

ومن الأعمال الجليلة التي تجعل من هذا الإمام إنسانا عظيما أنه شاهد السيل يجتاح وادى كلبوة ويمر وسط مدينة نزوى ، ورأى عددا من اليسجناء يصارع التيار فنزل بشخصه لإنقاذ المسجونين ومعه بعض رجاله ، فلقى حتفه غريقا ومعه سبعون من رجاله ، وكان ذلك سنة ١٩٢ هـ .

و يسارع العمانيون إلى مبايعة غسان بن عبد الله اليحمدى إماما ، وقد كان الإمام غسان من أنشط الأئمة فكان أول من صنع قوة بحرية عسكرية ليقطع بها الطريق على القراصنة الهنود الذين كانوا يكثرون من الإغارة على عمان ، ولم يغفل عن السعى إلى الاستقرار الداخلى فضرب على أيدى المفسدين الخارجين على القانون ، ثم جعل مدينة نزوى عاصمة للإمامة ، وسميت آنذاك بيضة الإسلام .

و بعد وفاة الإمام غسان سنة ٢٢٦ هـ بويع للإمامة المهنا بن جيفر اليحمدى الذى سار على خطى سلفيه فى الإصلاح الداخلى والقضاء على الخارجين على القانون ــ وما أكثرهم ــ وأنشأ جيشا عظيما كما بنى قوة بحرية ضخمه قوامها ثلاثمائة بارجة حربية كاملة التسليح .

غير أن بقعة سوداء قد شوهت عصر هذا الإمام الذى يشبّه بالثوب الناصع البياض ، ذلك أنه كان يقتنى جيشا من المرتزقة الهنود فى صحار ، فكانوا إذا دخلوا حربا تجاوزوا فيها أحكام الإسلام ، مثل حرق الغنم والبقر والمواشى المربوطة وإراقة مياه الشرب على الأرض فيموت الأطفال والنساء من العطش (٢) .

ثمة إمام آخر عظيم الهمة كبير الإنجازات من الخروصيين هو الإمام الصلت بن مالك بن بلعرب الذى بويع له فى اليوم الذى مات فيه الإمام المهنا فى ربيع الآخر سنة ٢٣٧ هـ ، لقد كانت أرض الإمامة فى عهد الإمام الصلت ممتدة الأطراف شاسعة الأنحاء تشمل كل عمان وحضرموت والمهرة والمكلا وجزيرة سقطرى ، وفى عهده هاجم النصارى سقطرى بأساطيلهم ، وخربوا البلاد ، واستباحوا الأموال والأعراض ، وأطلقوا الأجراس وجعلوها نصرانية ، ولكن أبياتا من الشعر بعثت بها إحدى الأديبات المسلمات إلى الإمام تستنهضه للدفاع عن عرضها وأعراض قومها تفعل بالإمام الخروصى ما فعلت صيحة « وامعتصماه » المنبعثة من المرأة المسلمة فى

---

(٢) الشعاع لابن رزيق صفحة ٤٦ ، ٤٧

عمورية ، وإذا كان المعتصم قد قاد جيشا لإنقاذ عمورية وأهلها ، فإن الإمام الصلت قد أرسل أسطولا من مائة سفينة حربية تحمل أبطالا من الفرسان والمشاة استعادوا الجزيرة من مغتصبيها الذين كانوا على الأرجح أحباشا وأوقعوا بهم شر هزيمة .

لقد أمضى الإمام الصلت فى الإمامة خمسا وثلاثين سنة من ٢٣٧ إلى ٢٧٢ هـ وعاصر ستة من خلفاء بنى العباس هم المتوكل والمنتصر والمستعين والمعتز والمهتدى والمعتمد ، ولم تكن للعباسيين بعمان أدنى صلة أو شبهة سيادة من عهد الرشيد حتى عهد المعتضد .

على أن صفحة الاستقرار قد طويت فى عمان فى آخر أيام حكم الإمام الصلت ، فعمَّها الاضطراب ، وتعددت فيها السلطات ، واختلف العلماء ، وتتابع الأئمة الضعاف الذين لم يكن الواحد منهم يمكث فى مقعده إلا بقدر ما يكيد له آخرون فيعزل أو يسجن ، وظل أهل عمان يسامون ألوان الخسف والفساد لفترة زمنية طويلة أسيفة سيطر عليها الديلم .

لقد انتهت إمامة الخروصيين نهاية حزينة وآلت من بعدهم إلى النباهنة الذين لم تكن حال عمان فى عصرهم من حيث الأمن والاستقرار بأفضل من عهد سابقيهم الأمر الذى هيأ لإمامة جديدة فى أسرة جديدة .

إمامة اليعاربة :

تولى الأئمة اليعاربة أمر عمان ليبنوا ما انهدم ، و يصلحوا ما فسد ، و يستردوا ما ضاع من الأرض ، ويحرروا ما فقد من البحر ، و يطهروا الديار من الغزاة البرتغاليين الذين كانوا قد ثبتوا أقدامهم فى أكثر من موضع فى عصور الانهيار فى النصف الثانى من حكم الخروصيين ، وكل فترة حكم النباهنة ، وهى مدة زمنية استمرت قرونا عديدة .

لقد ضمت الدولة اليعربية عددا غير قليل من الأئمة شأنها فى ذلك شأن الخروصيين ، ولكن الإمامين الأول والثانى اليعربيين يقفان على قمة المجد بين نظرائهما من أئمة اليعاربة . إن أول إمام يعربى هو ناصر بن مرشد بن سلطان اليعربى الحميرى الأزدى الشاب الذى ولى الإمامة سنة ١٠٣٤ بمنهج إصلاحى فريد على مختلف

الأصعدة العلمية والاجتماعية والعسكرية وخوض المعارك لتحرير الأرض العمانية وقهر المستعمرين الغزاة .

كان أكثر الثغور العمانية البحرية مثل لوى ومسقط وصحار والمطرح فى أيدى البرتغاليين أو صنائعهم من المواطنين المنحرفين ، فاتجه إليهم الإمام بجيوشه ، وانتزع منهم البلاد التى كانوا يحتلونها و يتمركزون فيها .

وكان الإمام ناصر ـــ برغم كونه شابا ـــ زاهدا ورعا متعبّدا مستقيما ، كما كان عالما متبحرا محبا للعلماء مشجعا على التعلم ، فظهر فى عهده عدد كبير من العلماء ، بل العلماء الفرسان الذى قادوا الجيوش وجلبوا الانتصار .

وإذا كانت انتصارات الإمام ناصر من الكثرة بمكان ، فإن أهم ما ينبغى أن يلتفت إليه أنه واجه البرتغاليين والعجم مجتمعين وانتصر عليهم وأجلاهم ، ولا تزال معركته ضدهم فى صحار سنة ١٠٤٣ هـ تشهد له بالمجد والفخار ، ومن ثم فإن حكم الإمام ناصر بن مرشد يعد صفحة من أنصع صفحات الحكم الإباضى فى تاريخ عمان ، وقد توفى سنة ١٠٥٩ هـ عن ست وأربعين سنة واستمر حكمه ستة وعشرين عاما .

وتنتقل الإمامة بعده إلى سلطان بن سيف قائد جيوش الإمام ناصر وابن عمه ببيعة جماعية ، فينهض بأعبائها على أتم وجه ، فقد دربه ابن عمه الإمام العظيم ناصر بن مرشد على شئون الحكم وقيادة الجيش وخوض المعارك ، وكان سلطان أشد نكيرا على أعداء الإسلام الهنود والبرتغاليين فما إن صارت إليه مقاليد الحكم حتى نصب آلة الحرب لمن بقى من البرتغاليين فى مسقط ، وسار إليهم بنفسه على رأس جيشه حتى نصره الله عليهم فى معركة شرسة لأن البرتغاليين كانوا متحالفين مع الهنود .

لم يكتف الإمام سلطان بن سيف بالفتك بالبرتغاليين فى بلاده ، بل طاردهم فى بلاد الهند حيث كان لهم نشاط هناك ، فأرسل بوارجه الحربية تغزوهم فى ساحل كوجرات وعادت بغنائم كثيرة .

إن صفحة الإمام سلطان مترعة بالإنجازات الكبرى والأعمال العظام ، مثله فى ذلك مثل ابن عمه الإمام الأول ناصر بن مرشد ، وقد يكون مناسبا أن نجمل بقية

مـا ينبغى ذكره من الإصلاحات فى كلمات موجزة لعل الله أن يشرح بها قلوب حكام المسلمين المعاصرين فيأخذوا بها و يتمثلوها ، و يرسموا على منوالها لكى يعز المسلمون المعاصرون بعد ذلة ، و يصحّوا بعض مرض ، و يفيقوا بعد غفلة ، و يقووا بعد ضعف :

- إشاعة الرخاء ، وعمارة الأسواق ، وتنشيط التجارة .
- إصلاح الزراعة وتشجيع الزارعين وذلك بإحداث الأفلاج (يقابلها فى مصر حفر الترع) .
- نشر العلم فكثر الفقهاء والعلماء ونشط الأدب والأدباء .
- تجديد قلعة نزوى ، وإعادة تحصين مسقط بعد تحريرها ، واستحداث بروج كثيرة على أسوارها .
- استجلاب الأسلحة والخيول لتقوية الجيش .
- هزيمة البرتغال التى كانت آنذاك أقوى دول العالم براً وبحراً .
- قيادته جيوشه بشخصه وخوضه المعارك بنفسه .
- غزواته البحرية الخارجية : الديو فى الهند ، ووقعة بمباى فى الهند ، ووقعة زنجبار ، ووقعة مخا وغيرها (٣) .

وكان الإمام سلطان بن سيف قد بويع بالإمامة سنة ١٠٥٩ وتوفى سنة ١٠٧٩ ، وهنا يجمل بالمرء أن يلتفت إلى الظاهرة المبهرة فى نجاح حكم الإمامين اليعربيين الأول والثانى ، ذلك أن من يتتبع سلوكهما ينتهى إلى أن تلك الإنجازات الكبيرة التى قاما بها كانت أمرا متوقعا على الرغم من أنهما جاءا إلى الإمامة بعد فترة طويلة ظالمة مظلمة من تاريخ عمان .

إن طول حكم كل من ناصر بن مرشد (٢٦ سنة) وابن عمه سلطان بن سيف (٢٠ سنة) مع استقامتهما دينا وخلقا وسلوكا ، ومع قدراتهما العظيمة فى الإمارة والإدارة والحرب وتنظيم الجيوش و بناء الأساطيل وخوض المعارك وقيادة الجيوش ، فضلا عن الإصلاحات الداخلية ونشر العلم وتشجيع الزراعة وتيسير التجارة ، و يضاف إلى ذلك اعتمادهما على مستشارين أمناء ، وقادة مخلصين أقوياء ، كل ذلك أسهم فى إعادة بناء عمان ، وتثبيت استقلالها ، وهزيمة الخارجين عليها فى الداخل ، ومطاردة الطامعين فيها من الخارج ممثلين فى الفرس والهنود والبرتغاليين .

---

(٣) عمان عبر التاريخ ٣/ ٢٢٩ ــ ٢٣١

إن ركب الإمامة اليعربية سار بعد ذلك طويلا ، وانتظمه عدد غير قليل من الأئمة المرموقين مثل الإمام بلعرب بن سلطان وأخيه سيف بن سلطان ، ولم تخل صفحات هؤلاء من إنجازات جليلة فى مضمار صون استقلال عمان والحفاظ على وجهها العربى الإسلامى .

و يستحسن فى هذا المقام ذكر الإمام سيف بن سلطان الذى لقب بقيد الأرض ، فقد سار على نهج أبيه الإمام العظيم سلطان بن سيف ، ومن ثم فقد جدّ فى الفتوحات ، فاجتاح أسطوله جزيرة سلريت بالقرب من بمباى ، كما فتح ممباسا وكلوة ، وكان أسطوله عظيما . وفى المجال الداخلى عمّر عمان وأجرى فيها الأنهار وأحدث الأفلاج وغرس النخل والأشجار(٤) ، وواقع الأمر أن هذه إصلاحات مرتبط بعضها ببعض ، فليس ثمة انتصار فى ظل الفقر والفوضى ، وليس ثمة عدالة بغير شورى ، وليس ثمة سيادة بغير جيش يحمى وأسطول يحرس ، وقد وصل أسطوله إلى رأس الرجاء الصالح .

على أن المسيرة الإصلاحية للدولة اليعربية ما لبثت أن اضطربت وضلت الطريق السليم ، ودب الصراع فى جسمها فانتهى بها إلى الخراب ، فقد انبثق عن البيت اليعربى « إمام » خرج على قومه وطلب من العجم ـــ المتربصين دائما بعمان ـــ أن يناصروه على قومه العمانيين ، إنه سيف بن سلطان الثانى ، فكان أمراً طبيعيا أن يستجيب العجم إلى طلبه ، وأن يبعثوا إلى عمان بجيش جرار وخرج الإمام بنفسه لاستقباله فى خورفكّان فى ذى الحجة سنة ١١٤٩ ، واستمر الجيش الفارسى فى المسير حتى دخل نزوى العاصمة سنة ١١٥٠ هـ .

الإمامة البوسعيدية :

لانتهاء حياة الدول وسقوطها أسباب تقتضى نهايتها من فتن وصراع وخيانة وانحراف ، ولقد كان السبب الرئيسى فى سقوط الدولة اليعربية ذات الصفحات المجيدة هو الصراع الذى أدى بها إلى الانحراف ، والخيانة التى أدت بها إلى الضياع ، فقد انبثق من البيت الإمامى اليعربى إمام طلب من العجم أن يناصروه على قومه العمانيين ، إنه سيف بن سلطان الثانى .

---

(٤) الشعاع ص ٢٧١

لـقـد استجاب العجم إلى طلب الإمام و وفدوا إليه بجيش عرمرم أخذ يتقدم شيئا فـشيـئـا حـتـى وصـل إلى خـور فـكـان فى آخـر سنة ١١٤٩ هـ فخرج الإمام ليستقبله و يـرحـب بـه ، واسـتـمـر هـذا الجيش « الحليف » متقدما يضرب فى أكناف الدولة الـعـمانية حتى دخل العاصمة نزوى سنة ١١٥٠ على نحو ما أوضحنا قبل قليل ، فكان طـبـيـعـيـا بـعـد ذلـك أن تضطرب الأمور وتعم الفوضى ، و يبايع الناس إماما آخر هو بـلـعـرب بـن حمير اليعربى ، و يصبح فى عمان إمامان : أحدهما عدّه الناس خائنا وإن تحاموا جـانـبـه ، وثانيهما عده الناس إماما شرعيا ، و بدأ الصراع بين الإمامين ونشبت المعارك بينهما لفترة من الزمان والجيش الفارسى يعيث فى عمان فسادا ، ومن عجائب المصادفات أن يموت الإمامان فى أسبوع واحد ، و يكون فى ذلك الوقت أحمد بن سعيد الـبـوسعيدى والى صحار الذى خاض تجارب مر يرة ومعارك متتابعة ضد الإمام سيف وحـلـفـائـه الـفرس هو الفارس ذا الاسم الكبير والشهرة الواسعة ، فتسعى الإمامة إليه حثيثة على النحو الذى سنعرض له بعد قليل .

الإمام أحمد بن سعيد البوسعيدى :

إنـه جـد الأسـرة الحـاكمة فى عمان فى الوقت الحالى ، ولاعتلائه منصب الإمامة قـصة طو يلة مشرقة مشرفة ، لقد كان مواطنا عمانيا كريما يعمل بالتجارة ذاع اسمه فى أوسـاط الحـكـم حـتـى بلغت شهرته مسامع السلطان سيف بن سلطان الذى مر ذكره قـبـل قليل ، ولقد التقيا مصادفة فى نزوى حيث كان كل منهما على سفر: كان الإمام فى طـر يـقـه مـن مـسـقـط إلى الـرسـتـاق ، وكان أحمد فى طر يقه إلى المطرح ، و يذكر المؤرخـون أن اللـقـاء بين أحمد والإمـام سيف كان فى نطاق من المودة والإجلال من كـليهما للآخـر ، وطـلـب إليه الإمام أن يلتقيا فى مسقط متى عاد أحمد من رحلته ، فلما كـان اللـقـاء الـثانى ولاه الإمام بعض أعماله ، فلما صادفه التوفيق رآه أهلاً للولاية ، فـولاه مدينة صحار وأعمالها (٥) ، وصحار آنذاك واحدة من أهم مدن عمان وأكثرها أهمية .

لـقـد كـان الـعدل والإنصاف والكرم شيما طبيعية فى خلائق أحمد بن سعيد فأحبه الناس وجاءته شيوخ القبائل تطلب وده وتذعن له بالقيادة والطاعة ، ولما بلغت الإمام

(٥) الفتح المبين فى سيرة السادة البوسعيديين لابن رز يق صفحة ٣٢٩ ، ٣٣٠

هذه المكانة التى احتلها ابن سعيد من قلوب الناس استبد به الحسد ، وامتلأ قلبه بالحقد عليه ، وقال لبعض خاصته : « والله ما فعل أحمد بن سعيد هذا إلا لينفر الناس منى وليجعلهم إليه ، وإنه يحاول بهذا الشأن ليصير ما صار إلىّ إليه » .

ومن هنا بدأ صراع بين الإمام و بين أحمد الذى تجمل بالصبر والذكاء وقلوب الناس ــ حتى عبيد الإمام ــ من حوله ، وقد دأب الإمام سيف على استدعائه وهو يماطل فى السعى إليه ، وفى المرة التى استجاب فيها لدعوة الإمام واستقل قاربا ليذهب إلى الإمام الذى كان مستقرا فى سفينته ، التفت إليه العبيد وأشاروا إليه بالعودة ، وبهذا نجا من القتل ولم يكن يبعد عن قاتله بأكثر من عدة أمتار(٦) .

إن هذا السلوك من جانب الإمام سيف بن سلطان إن دلّ على شىء فإنما يدل على أنه ذا نفس غير سوية وشخصية لا تصلح للرياسة ؛ لأن الرؤساء الكبار يفخرون بمكارم رجالهم ، وإن مكارم أحمد بن سعيد وعدله كانا جديرين بأن يرفعا من قدره و يعظما من شأنه لدى الإمام .

ظل أحمد بن سعيد واليا على صحار طوال تلك الفترة الزمنية يصانع الإمام وتتقلب الأحوال بينهما من صفاء مصطنع إلى جفاء مستحكم ، حتى سقط الإمام سقطة كبرى باستدعائه جيشا كثيفا من العجم لنصرته على بنى قومه العرب العمانيين ، وخرج الإمام للترحيب بالجيش الفارسى فى خورفكان سنة ١١٤٩ هـ ، وتقدم الجيش « الحليف » حتى وصل إلى نزوى جوهرة القطر العمانى فى المحرم سنة ١١٥٠ على النحو الذى أوضحناه .

حينئذ لم يطق الشعب العمانى صبراً على الإمام المنحرف ، و بايع إماما آخر هو بلعرب بن حمير اليعربى الذى يخرج على رأس جيش كثيف و يلتقى الجيشان بموضع يسمى السمينى ، ولا يكتب النصر لبعلرب ، وتعود الإمامة إلى سيف مرة أخرى ، ولكن الناس لم يلبثوا أن عادوا إلى مبايعة إمام آخر هو سلطان بن مرشد الذى أخذ فى مطاردة سيف بن سلطان ، وهنا يعزم الإمام سيف على الاتجاه إلى صحار بمساعدة حلفائه العجم ليأخذوا حصنها من أحمد بن سعيد ، على أن يهبهم الإمام الحصن إذا ما استولوا عليه ، وهى سلسلة من الخيانات يرتكبها رجل يحمل لقب الإمامة ، و يقوم

---

(٦) المصدر السابق صفحات ٣٣١ ــ ٣٣٣ .

ستون ألفا من الجيش الفارسي بمحاصرة حصن صحار تسعة أشهر طويلة ، وأحمد بن سعيد صامد كالطود ، بل كان يخرج هو ورجاله بين الحين والحين لقتل الأعداء والاستيلاء على ما يريدون منهم .

في تلك الأثناء توفي سلطان بن مرشد ومات بعده سيف بن سلطان بأيام قليلة ، وأدرك قواد الجيش الفارسي ـــ وقد بلغهم موت الإمام حليفهم ـــ أنهم لا طاقة لهم بالوقوف أمام بسالة أحمد بن سعيد فعرضوا عليه الصلح فرتب لهم سبيل الارتحال إلى بلادهم .

وبذلك تم انتقال ملك اليعاربة إلى أحمد بن سعيد سنة ١١٥٤ هـ ، وفي ذلك يقول ابن رزيق : « أخبرني غير واحد من المشايخ المسنة أن أحمد بن سعيد لما آل إليه أمر عمان كله وعول أهلها عليه ، اجتمع أكابر الرستاق وسائر أكابر عمان ، فاتفقوا على عقد الإمامة لأبي هلال ـــ هلال أكبر أبنائه ـــ وهو الإمام المعظم الفاضل الممجد الأمجد أحمد بن سعيد بن أحمد بن محمد السعيدي الأزدي العماني الاستقامي الإباضي المذهب » (٧) .

كان أحمد بن سعيد ذا فضائل جمة ، وشمائل عدة ، وأخلاق كريمة ، وأخباره في ذلك كثيرة ووفيرة وبخاصة في وفائه لكل من أحسن إليه في وقت الشدائد ، وكان حدّ مملكته من أقصى جعلان إلى توام ، وظل في الحكم إلى أن وافته منيته في شهر ذي القعدة سنة ١١٨٨ هـ .

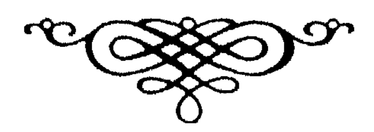
خلف أحمد بن سعيد في الإمامة ولده سعيد وكان عالما عادلا فصيحا شاعرا ، ثم خلفه من بعده ولده حمد بن سعيد الذي كان اليد اليمنى لأبيه ، بل كان العقل المفكر والأمير المدبر لمملكة أبيه ، وهو الذي وطأ له أكناف الدولة وخلصه من كثيرين من خصومه وأعدائه .

على أن نظام الحكم بعد حمد بن سعيد أصابه الكثير من الاضطراب والفتن مما نال من أمن الناس ورخائهم ، وهي ظاهرة رأيناها في مختلف الدول التي حكمت عمان ، فقد مات سلطان قتيلا في شعبان سنة ١٢٠٧هـ .

---

(٧) الفتح المبين صفحة ٣٥٠ .

ولعل أشهر الحكام البوسعيديين بعد عميدهم أحمد بن سعيد هو حفيده سعيد بن سلطان الذى خصه مؤرخ عمان ابن رزيق بكتاب منفرد فى سيرته أسماه : « بدر التمام فى سيرة السيد الهمام سعيدبن سلطان » وهو كتاب لطيف ملحق بكتاب « الفتح المبين فى سيرة السادة البوسعيديين » .





دولة الإباضية فى المغرب
الدولة الرستمية

من ممالك الإباضية خارج عمان وما صاقبها ، مملكة أو بالأحرى دولة فى شمال أفريقية عرفت بالدولة الرستمية ، نسبة إلى منشئها عبد الرحمن بن رستم ، والأمر الغريب فى شأن هذه الدولة أن منشئها وكل أئمتها من أصل فارسى ، وفى ذلك تطبيق للمبدأ الذى يعتنقه الإباضية بإلغاء شرط القرشية فى اختيار الإمام ، بل يختار الإمام من أى جنس مادام مسلما حائزا لشروط الإمامة .

ولقد عاشت الدولة الرستمية من سنة ١٦٠ هـ وهى السنة التى بويع فيها عبد الرحمن بن رستم إماما حتى سنة ٢٩٦ هـ ، و بذلك تكون هذه الدولة الفارسية الأئمة ، الإباضية الأمراء ، الأفريقية المستقر ، قد عاشت مائة وستة وثلاثين عاما ، وامتدت أراضيها من طرابلس شرقا إلى تلمسان غربا ، أى أنها شملت ما يعرف فى زماننا بأقطار ليبيا وتونس والجزائر ، وكانت عاصمتها مدينة تاهرت .

كانت مبايعة عبد الرحمن بن رستم تشكل النمط الإسلامى السليم فى مبايعة الحاكم المسلم ، ذلك أن الإمام يختار طبقا لشروط بعينها ينبغى توفرها فيه ، وهو ما حدث فى اختيار الإمام الرستمى الأول ، ولكنه ــ أى الإمام عبد الرحمن ــ قدم شروطا بدوره يقول فيها : « إن أعطيتمونى عهد الله وميثاقه لتستطيبوا إلىّ ،

ولـتـطـيـعونى فيما وافق الحق وطابقه قبلت ذلك منكم »(1) ، والمعنى الذى قصد إليه عـبـد الـرحمن هـو أنهـم إذا لم يـعـطـوه عـهـدا بـالـطـاعة فيما وافق الحق رفض البيعة و بالتالى زهـد فى الإمـارة ، وتـلـك ظاهرة فريدة فى الحكم لا يمكن أن تتوفر إلا فى نظام الحكم الإسلامى .

وكـان الإمـام عـبـد الـرحمن عـنـد حسن ظن الرعية به ، فسار بهم سيرة جميلة حميدة ، سـارت بهـا الـركبان إلى كل البلاد طبقا لقول ابن الصغير المؤرخ ، وجلس فى مسجده للأرملة والضعيف ، لا يخاف فى الله لومة لائم .

إن الإمـام الـرستمى الأول كان عادلا مصلحا ساعيا إلى ازدهار الحياة العامة فى أنحـاء دولته ، وكـان كثير من غير الإباضية يتجهون إلى تاهرت عاصمة الدولة و يلقون فيهـا عـصـا الـتـرحال ، و يعيشون آمنين على أنفسهم وأموالهم وأملاكهم ، وقد ذاعت أخـبـار عـدل الإمـام عبد الرحمن حتى وصلت إلى أسماع إباضية المشرق فقرروا تقديم الـعـون لـه ، فى خبر لطيف أورده ابن الصغير مؤرخ الدولة الرستمية نستحسن أن نورده برواية المؤرخ نفسه :

« لـمـا ولـى عـبـد الـرحمن بن رستم مـا ولـى مـن أمور الناس ، شمر مئزره وأحسن سيـرتـه ، وجلس فى مسجده للأرملة والضعيف ولا يخاف فى الله لومة لائم ، فطار ذلك فى أطـراف الأرض مـشـارقـهـا ومـغـاربـهـا حـتـى اتصل ذلك بإخوانهم من أهل البصرة وغـيـرهـا من البلدان ، فلما علموا ذلك من أمره جمعوا أموالا عظيمة ، و بعثوا بها إليه مع نـفـر من ثقاتهم ، وقال بعضهم لبعض : قد ظهر بالمغرب إمام ملأه عدلا ، وسوف يملك المـشـرق ويمـلأه عـدلا فـانهـضوا إليه بما معكم من هذه الأموال حتى تردوا المدينة التى يسكنها ، فإن كان على ما نقل لنا من حسن طريقته وصحة سيرته فادفعوها إليه ، وإن كـان على غير ذلك فانظروا إلى أفعاله وما يتولاه من الأحكام بين رعيته ثم ائتونا بذلك كـلـه . فـمـضـى الـقـوم حـتـى أتـوا الـمـديـنـة ونـزلـوا الـمـصلى الذى به اليوم بئر مسالة ، فأناخوا جمـالـهـم و وضعوا أحمالهم وتقدموا مع القادمين معهم حتى دخلوا الباب المعروف بباب الـصـفـا ــ أحـد أبـواب تـاهـرت ــ يـسـألون كل من لاقوه من الناس عن دار الإمام عـبـد الـرحمن حـتـى وقفوا عليها وأصابوا عند بابها غلاما يعجن طينا ورجلا على سطح

---

(1) أخبار الائمة الرستميين لابن الصغير صفحة ٢٧ .

يصلح شقاقا فيه والغلام يناوله ما يصلح به ، فسلموا على الغلام فرد السلام ، ثم قالوا : هـذه دار الإمام ؟ فقال : نعم ، فقالوا له : استأذن لنا منه وأعلمه أنّا رسل إخوانه إليه من البصرة ، فرفع الغلام رأسه إلى سيده وقد علم أنه سمع كلامهم ، فقال : قل للقوم يصبروا قليلا ، ثم أقبل على ما كان عليه من إصلاح عمله حتى انقضى ، والقوم ينظرون إليه وهم شاكّون هل هو صاحبهم أم لا ، حتى نزل عن سطحه إلى داره فغسل ما كان بيده من أثر الطين ، ثم توضأ وضوء الصلاة ، فأذن للقوم فدخلوا عليه فوجدوا رجلا جالسا على حصير فوقه جلد وليس فى بيته شيء سوى وسادته التى ينام عليها ، وسيفه ورمحه وفرس مربوط فى ناحية داره ، فسلموا عليه وأعلموه أنهم رسل إخوانه إليه ، فأمر غلامه بإحضار طعامه ، فأتاه بمائدة عليها قرص سخنت وسمن وشيء من ملح ، فأمر بتلك القرص فهشمت ، وأمر بالسمن فلثت به ، ثم قال : على اسم الله ادنوا وكلوا ، ثم أكل معهم بأكلهم ، فلما انقضى طعامهم قال : ما مرادكم ، وما جاء بكم ؟ فقالوا له ، نحن نحب أن تأذن لنا حتى نخلو فيما بيننا ثم نكلمك بعد ذلك ، قال : افعلوا ، فجلسوا نجيًّا ، فقال بعضهم لبعض يكفينا فى السؤال عنه ما رأينا منه من إصلاحه لداره بنفسه ومطعمه وملبسه وحلية بيته ، فما نرى إلا أن ندفع إليه المال ولا نشاور أحداً فيه ، وكان الذى معهم من المال ثلاثة أحمال . فأجمع رأيهم على حمل المال إليه ورجعوا إليه ثم أقبلوا عليه فقالوا : أعزك الله ، معنا ثلاثة أحمال من المال بعث بها إليك إخوانك لتنفق بها على زمانك وتصلح بها شأنك ، فقال : هذه الصلاة قد حضر وقتها ، ونحن نخرج إلى المسجد الجامع فنصلى بالناس ونعلمهم بما جئتم به ، فقالوا : الأمر إليك . فخرج وخرجوا حتى أتوا المسجد الجامع فصلى بالناس ، فلما انصرف من صلاته نادى مناد ألا يتخلف من كل قبيلة وجوههم ، ففعل الناس ذلك ، فلما انفضّ الناس و بقى من يفوض إليه الأمر من وجوههم . قال — أى الإمام — للرسل : أعلموا إخوانكم لما جئتم له ، فأعلموهم بمثل ما أعلموه ، ثم عطف على الناس فقال : ماترون ؟ فقالوا : إن هذا رزق ساقه الله إلينا من طوع إخواننا بلا سؤال منا ، فنرى أن ترسل إلى هذا المال وتحضره بين يديك فتجعل منه ثلثاً فى الكراع — يعنى الخيل — وثلثاً فى السلاح وثلثاً فى فقراء الناس وضعفائهم ، فقال للرسل : قد سمعتم ما يقول إخوانكم ، فما تقولون ؟ قالوا : نقول : سمعا وطاعة . فأحضروا المال فقال عبد الرحمن : أريد أن تقيموا حتى يصرف المال فى وجوهه ثم تنصرفوا إلى إخوانكم فتعلموهم ذلك ، ثم جزأوا المال أثلاثا امتثال ماعقدوا عليه وذلك بمحضر من

الرسل ، ثم قال للرسل انصرفوا على بركة الله إذا شئتم . وإنه لما وصل المال واشتروا للقوم الكراع والسلاح وقوى الضعيف وانتعش الفقير حسنت أحوالهم وخافهم جميع من اتصل به خبرهم ، وأمنوا من كان يغزوهم من عدوهم ، ورأوا أنهم قادرون على غيرهم ومن كانوا يخافون أن يغزوهم ، ثم شرعوا فى العمارة والبناء وإحياء الموات وغرس البساتين وإجراء الأنهر واتخاذ الرحاء والمستغلات وغير ذلك ، واتسعوا فى البلد وتفسحوا فيها وأتتهم الوفود والرفاق من كل الأمصار، وأقاصى الأقطار. فقال ـــ أى صاحب الخبر ـــ ليس أحد ينزل بهم من الغرباء ـــ أى غير الإباضية ـــ إلا استوطن معهم وابتنى بين أظهرهم لما يرى من رخاء البلد وحسن سيرة إمامه وعدله فى رعيته وأمانه على نفسه وماله ، حتى لا ترى دارا إلا قيل هذه لفلان الكوفى ، وهذه لفلان البصرى ، وهذه لفلان القروى ، وهذا مسجد القرو يين ورحبتهم ، وهذا مسجد البصر يين ، وهذا مسجد الكوفيين ، واستعملت السبل إلى بلد السودان وإلى جميع البلدان من شرق ومغرب بالتجارة وضروب الأمتعة » (٢) .

لقد عمدنا إلى إثبات هذه الرواية طبقا لما أوردها صاحبها ، وكنا نستطيع أن نقدمها موجزة ، والسبب فى هذا المنهج الذى اتبعناه هو إيضاح استقامة هذا الإمام الجليل وأمانته وتقشفه الذى يذكرنا بتقشف الفاروق عمر، هذا فضلا عن التزامه الشورى مع أولى الرأى من وجوه الأقوام ، والأخذ بالرأى الذى رأوه ، وأن هذا العون المالى الذى تطوع به أهل المشرق وزع أفضل توز يع عن طريق الشورى ، واستغل أنفع استغلال فى بناء الدور واستصلاح الأرض وحفر الأنهار وزراعة البساتين وإصلاح الطرق ورواج التجارة ، وذلك كله يذكرنا بعدد غير قليل من أئمة الإباضية فى عمان حيث كانوا يكرسون جهودهم لمثل تلك الأعمال الجليلة فضلا عن بناء الجيوش التى تحمى البيضة و بناء الأساطيل التى تستعمل فى الحرب للدفاع ، وفى السلام للرخاء .

وما دمنا بسبيل ذكر هذا الإمام الرستمى الفارسى الأصل تجدر الإشارة هنا إلى أن عنصره الفارسى كان واحدا من مؤهلاته للإمامة ، فقد قال من رشحوه للإمامة ، ما نصه : قد علمتم أنه لا يقيم أمرنا إلا إمام نرجع إليه فى أحكامنا ، و ينصف مظلومنا من ظالمنا ، و يقيم لنا صلاتنا ، ونؤدى إليه زكاتنا و يقسم فينا ، فقلبوا أمرهم فيما

---

(٢) ابن الصغير صفحة ٢٨ ـــ ٣٢ .

بينهم فوجدوا كل قبيل منهم فيه رأس أو رأسان أو أكثر يدبر أمر القبيل و يستحق أمر الإمامة ، فقال بعضهم لبعض : أنتم رؤساء ، ولا نأمن أن يتقدم واحد على صاحبه فتفسد نيته ، ولعل المقدم أن يرفع أهل بيته وعشيرته على غيرهم ، فتفسد النيات و يكثر الاختلاف و يقل الائتلاف ، ولكن هذا عبد الرحمن بن رستم لا قبيلة له يشرف بها ، ولا عشيرة له تحميه ، وقد كان الإمام أبو الخطاب (*) رضى لكم عبد الحمن قاضيا وناظرا ، فقلدوه أموركم ، فإن عدل فذلك الذى أردتم ، وإن سار فيكم بغير عدل عزلتموه ، ولم تكن له قبيلة تمنعه ، ولا عشيرة تدفع عنه ، فأجمعوا رأيهم على ذلك » (٣) .

الشيء الطريف فى هذا السياق أن هذا الإمام الفارسى غير ذى العصبية قد أنشأ ملكا فى المغرب استمر مائة وستة وثلاثين عاما ، فكسر بذلك نظرية ابن خلدون فى العصبية ، حيث يرى ابن خلدون استحالة قيام ملك بلا عصبية ، وقد غاب عنه أن العصبية ظاهرة جاهلية قضى عليها الإسلام بالأخوة حيث إن المؤمنين جميعا إخوة طبقا للآية الكريمة « **إنما المؤمنون إخوة** » ومن ثم فإن الإسلام هو الذى يبنى الدول ويحافظ عليها مادام الحكام والرعية مستمسكين بأواصر العقيدة وأحكام الشريعة ، وآية ذلك تلك الدولة الرستمية الفارسية حكاما ، البربرية رعية .

ومن الأحداث الغريبة العظيمة التى جرت فى حكم الإمام عبد الرحمن على الرغم من قصر مدة حكمه ــ أحد عشر عاما ــ أنه لم يكد يمر عامان على المعونة التى أرسلها إخوانه فى المشرق إليه حتى فكر هؤلاء القوم أن يرسلوا إليه معونة أخرى تزيد على ثلاثة أمثال المعونة الأولى ، إذ كانت هذه المعونة الثانية عشرة أحمال من المال على حين كانت الأولى طبقا لما مر بنا من حديث ثلاثة أحمال فقط ، وما إن وصل القوم بأحمالهم إلى المغرب حتى وجدوا الرخاء يعم البلاد ، والخير يفيض على العباد ، وحين تقدموا إلى الإمام اتبع معهم نفس الخطوات التى اتبعها معهم فى المرة الأولى من

(*) ابو الخطاب عبد الأعلى بن السمح المعافرى الذى حمل رسالة الإباضية إلى المغرب و بويع بالإمامة على مقربة من طرابلس سنة ١٤٠ هـ وقتل سنة ١٤٤ هـ ، وكان زميلا لعبد الرحمن بن رستم حين كانا يتلقيان العلم معاً فى البصرة فى حلقة أبى عبيدة مسلم بن أبى كريمة خليفة جابر بن زيد مؤسس فقه المذهب ، وكان أبو الخطاب قد عين عبد الرحمن قاضيا على القيروان (راجع السير للشماخى ص ١٢٥) .

(٣) المصدر السابق صفحة ٢٦ .

ذهاب إلى المسجد وإقامة الصلاة الجامعة واستبقاء رءوس الأقوام وعرض عليهم أمر الهدية ، وفى نطاق نظام الشورى الإسلامى قال الإمام عبد الرحمن للناس : ما ترون ؟ قالوا : الأمر إليك ، قال : إذا أردتم أن يكون إلىّ فإنى أرى أن ترد هذه الأموال إلى أهلها فيدفعوها لمن يستحق من فقرائهم وضعفائهم ، فإننا كنا قبلْنا ما قبلنا منهم للحاجة التى كانت بنا إليه والفاقة التى لزمت عوام إخواننا ، والآن نحن مستغنون عن هذه الأموال . لقد حاول كل من حاملى الأموال وأعيان الرعية إقناعه بقبول المال ، ولكنه أصر على ردها لعدم الحاجة إليها ، فزاد ذلك من قدره وإعظام الناس له .

لقد عرفت الدولة الرستمية فى المغرب عددا غير قليل من الأئمة العلماء الفضلاء من أمثال عبد الوهاب بن عبد الرحمن الذى كان عالما فقيها صاحب تآليف (٤) ، والإمام أفلح بن عبد الوهاب الذى استمر حكمه عدة عقود من السنين (٥) ، والإمام أبى اليقظان محمد بن أفلح (٦) وأبى العباس أحمد بن محمد من أعلام الفقهاء وتبغورين بن الملشوطى شيخ علماء الكلام ، ومحكم الهوارى ، وأبى عبيدة الاعرج ، وأبى باديس أبخت بن باديس وغيرهم كثير .

ولم تكن الدولة الرستمية موضع ثناء القدامى وحدهم ، بل إن المؤرخين المحدثين يمتدحونها و يرضون عنها ، والأمثلة على ذلك عديدة ، فالمرحوم الصديق الاستاذ توفيق المدنى يقول عنها إنها كانت أول دولة إسلامية بربرية نشأت (٧) فى هذه الديار ـــ يعنى الجزائر ـــ ازدهرت ونمت ونالت شهرة عالمية واسعة ، والأستاذ توفيق المدنى ليس من جماعة الإباضية وإنما هو مالكى المذهب ، وكذلك يقرر عثمان الكعاك أن الدولة الرستمية كانت قوية عزيزة ذات بأس وسلطان ، عاصرت بنى الأغلب بإفريقيا ـــ يعنى تونس ـــ والأدارسة بالمغرب الأقصى ، وكانت الآمرة الناهية فى بلاد المغرب الأوسط (٨) ونحن نضيف من جانبنا أنها كانت معاصرة لدولة أخرى من الخوارج الصفرية كان مقرها مدينة سجلماسة .

---

(٤) طبقات المشايخ بالمغرب لأبى العباس أحمد بن سعيد الدرجينى ١ / ٧٤ وما بعدها .
(٥) كتاب السير لأبى العباس أحمد بن سعيد الشماخى ص ١٩٢ وما بعدها .
(٦) يراجع الدرجينى ١ / ٨٣ ، ٨٤ .
(٧) الجزائر صفحة ٢٠ .
(٨) موجز التاريخ العام للجزائر صفحة ١٧٠ .

على أن الأمر الجدير بالذكر أنه على الرغم من سمة الازدهار التى عرفت بها الدولة الرستمية فإنها لم تسلم من الحروب تارة، ومن الفتن الداخلية تارة أخرى، فالناس هم الناس فى كل زمان، والبشر هم البشر فى كلّ مكان، ومثلما يعم الخير والاستقرار حينا، يفشو الظلم وتسود الفتن حينا آخر. لقد تعرضت الدولة لعدة ثورات، وخاضت عدة حروب مع جيرانها، وإن أولى الفتن تلك التى تعرف بثورة النُّكَّار التى هزت أركان الدولة فى عهد إمامها الثانى، وهو الإمام عبدالوهاب ابن الإمام عبدالرحمن الرستمى، والنكار الذين أشعلوا تلك الفتنة وقاموا بتلك الثورة قوم أنكروا إمامة عبدالوهاب وطالبوا بتكوين مجلس للشورى يكون أعضاؤه أشخاصا معروفين، ومن الظواهر الغريبة والطريفة معا عالم مصرى من الإباضية اسمه شعيب المصرى طمع فى الإمامة، وقد عرف عنه أنه من العلماء المصريين الأفاضل يرجع الناس إليه فى أمور دينهم.

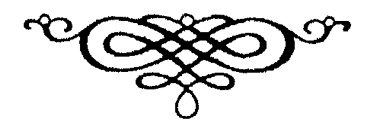
لقد دبر فريق النكار مؤامرة لعزل الإمام عبدالوهاب أو قتله، فقد انتهزوا مناسبة كان الامام قد غادر فيها عاصمة الدولة لبعض الأمور فأعلنوا الثورة، وانقضوا على تاهرت، فواجههم أهل المدينة، ودافعوا عن أنفسهم ببسالة، ووقع كثير من القتلى من الفريقين، فلما رجع الإمام وجد على باب العاصمة جثثا ملقاة ودماء مهراقة، وأخبره الناس بما وقع فأمر بالقتلى من الفريقين فجمعوا، وصلى على الجميع اقتداء بأمير المؤمنين على بن أبى طالب — والكلام هنا للشيخ على بن يحيى معمر — فى وقعة الجمل ثم أمر بدفن الجميع (٩).

وكانت الفتنة الثامنة والأخيرة هى التى أودت بالدولة الرستمية واقتلعتها من جذورها، والظاهرة المؤسفة فى هذه الفتنة أنها لم تأت من بين صفوف الرعية، وإنما اشتعلت نيرانها من أسرة الإمامة نفسها ونعنى أن الذين قاموا بها اثنان من أبناء أخى الإمام نفسه، إذا انقض اثنان من أبناء أبى اليقظان شقيق الإمام على عمهما وقتلاه ووليا مكانه والدهما أبا اليقظان، وعلى الرغم من أن أبا اليقظان كان شخصية متميزة فإن جريمة قتل ولديه لشقيقه الإمام قبّحت صورته أمام الناس، وكان هذا الغدر إيذانا بغروب شمس دولة كانت عظيمة، فقد أعرض الناس عنهم، وانفضوا من حولهم، واستنكروا فعلتهم، ولم يكد يمضى على هذه الحادثة الكريهة غير وقت قصير

---

(٩) الإباضية فى الجزائر ١ / ٣٦، ٣٧.

حتى قدم عليهم أبو عبدالله الحجانى مولى الإمام العبيدى (الفاطمى) وقائد جيشه فقتل الوالد والولدين و بقية أفراد الأسرة الرستمية باستثناء أبى يوسف يعقوب بن أفلح[10] الذى استطاع النجاة ، و بذلك خبت شعلة الدولة الرستمية الإباضية ، وصارت جزءا من مسيرة الدول الإباضية يرويها التاريخ .



---

(١٠) المصدر السابق ١ / ٦٠.



الشـــيعـــة

نشأتها وماهيتها :

إذا قلنا شيعة فلان كان القصد من ذلك أعوانه وأنصاره ، والمشايعة الموافقة والمناصرة ، ولذلك عندما مات عثمان ، انقسم المسلمون إلى حزبين ، الحزب الأكبر وقد سمى «شيعة» علىّ ، والحزب الأقل وقد سمى شيعة معاوية ، ثم ما لبث اللفظ بمرور الأيام أن اتخذ معنى محدداً وهو أنصار على بن أبى طالب وأبنائه وأحفاده من بعده .

بمرور الزمن وتقادمه ازداد حماس المؤمنين بعلى وأبنائه وأحفاده كأئمة على المسلمين من حقهم الولاية والريادة والإمامة .

ومهما كان الأمر فالشيعة يرون أن التشيع عقيدة دينية خالصة ، وهناك آخرون من المسلمين يرون أن التشيع فكرة سياسية خالصة ، وهناك أيضاً من يرى أن التشيع وجدان عاطفى خالص .

فأما الذين يذهبون إلى أن التشيع عقيدة دينية فحجتهم الحديث الشريف حين انصرف النبى ﷺ من حجة الوداع فى غدير خُمّ : «من كنتُ مولاه فعلىٌّ

مولاه ، اللهم وآل مَنْ والاه ، وعَادِ مَنْ عاداه» . ورأى الشيعة فى ذلك وصية لعلى بأن يكون أميراً للمؤمنين وإماماً للمسلمين ، وهذا بالإضافة إلى أحاديث أخرى مثل قوله عليه السلام : «أنا مدينة العلم وعلى بابها» . وقوله : «علىّ منىّ بمنزلة هارون من موسى غير أنه لا نبىَّ بعدي» . وقوله ﷺ : «لا يحبك إلا مؤمن ولا يبغضك إلا منافق» . إلى غير ذلك من الأحاديث التى يتمسك بها الشيعة ويرفضها غيرهم ويضعفونها أو يؤلونها تأويلًا مخالفاً ، وعلى ذلك تكون إمامة علىّ للمسلمين في نظر الشيعة إمامة حتمية يفرضها الدين وتحتمها العقيدة ، ومن هنا ذهب أكثر الشيعة إلى خلافة أبى بكر وعمر وعثمان كلها باطلة ، بل من الشيعة الغالية من كفَّر الثلاثة الكرام .

وإذا كان النبى قد أوصى لعلى ، فإن علياً قد أوصى للحسن ، وأوصى الحسن للحسين ، وهكذا حسب التسلسل الذى جرى عليه فى مختلف فرقهم ومذاهبهم على ماسنبين فيما يستقبل من حديث .

وأما الذين يذهبون إلى أن التشيع مجرد فكرة سياسية فحججهم كثيرة ، فحق الأقربين فى وراثة الرياسة أمر لا يقره الإسلام ، والبديهة الدينية تقول إن الأنبياء لا يورثون ، ولو شاء الله لجعل لمحمد ولداً وهو الرسول الذى اصطفاه واجتباه .

والذين بايعوا علياً بإمارة المؤمنين لم يبايعوه لأنه رمز دينى ، أو لأنه وصى النبى ، بل لأنهم رأوا أنه أحق المسلمين بولاية أمر المسلمين ، تماماً كما رأى المسلمون السابقون أحقية أبى بكر بالخلافة فبايعوه ومن بعده عمر ثم عثمان .

فالشيعه إذن لم يكونوا أول الأمر فرقة دينية ، بل فكرة سياسية تعبر عن رأى سياسى فى أن علىَّ بن أبى طالب أحق بالخلافة من معاوية ، وكان المسلمون يتفاوتون فى مدى تحمسهم لعلىّ وانتصارهم له ، وإن كانوا يؤمنون جميعاً بأن معاوية لم يكن جادًّا حينما غضب لقتل عثمان ، بل اتخذ هذا القتل ذريعة لتعكير الجو فى وجه علىّ حتى تحين له الفرصة فيصل إلى الأمر الذى تمناه ، وهو الحيلولة بين علىّ وبين الخلافة حتى تخلص له ، وليس ثمة شك فى أن معاوية كان حسن الحظ حتى واتته الخلافة بهذا الشكل الذى نعرفه فى كتب التاريخ ، فمعاوية قد

انهزم فى موقعة صفين ، وبغض النظر عن مهزلة التحكيم نستطيع أن نقول إنه لولا مقتل علىّ ما صارت الخلافة إلى معاوية ولا تربع على عرشها أموى واحد .

هذه الحركات كلها ، وانتصار المسلمين لعلىّ كان انتصاراً سياسيا ولم يكن انتصاراً دينياً ، فعلىّ أحق بالخلافة فى نظرهم لفضله وعلمه وحكمته وسابقته فى الإسلام ثم أخيراً لأنه ابن عم النبى وصهره .

وكثير من مؤيدى على المنتصرين له حتى بعد وفاته لم يكن انتصارهم له أكثر من انتصار لمبدأ الخلافة ، فقصة حجر بن عدى الكندى تعد تعبيراً صادقاً لهذا الاتجاه ، ذلك أن المغيرة بن شعبة الثقفى كان والياً على الكوفة من قبل معاوية بعد مقتل على ، وكان دائم اللعن لعلى فوق المنبر دائم الترحم على عثمان والاستغفار له ، فكان حجر لا يكاد يسمع الوالى يلعن علياً ويسبه حتى يرد بصوت مرتفع أجشّ : بل إياكم فذمّم الله ولعن. وكان حجر يعارض المغيرة في المسجد وينهره في شجاعة ويقول : «إنك لا تدرى بمن تولع فى هرمك أيها الإنسان ، مُرْ لنا بأرزاقنا وأعطياتنا فإنك قد حبستها عنا وليس ذلك لك . ولم يكن يطمع فى ذلك من كان قبلك ، وقد أصبحت مولعاً بذم أمير المؤمنين وتقريظ المجرمين» صحيح أن حجراً قد انتهى أمره إلى القتل ولكنه قتل وهو مؤمن بعلى كأمير على المؤمنين وليس إماماً للمسلمين على النحو الذى يعتقده الشيعة .

وهناك برهان آخر يتمثله الذين يقولون بأن التشيع بدأ مذهباً سياسياً وليس عقيدة دينية ، ذلك هو إجماع الفرس — ولا يزالون حتى اليوم — على التشيع لآل علىّ .

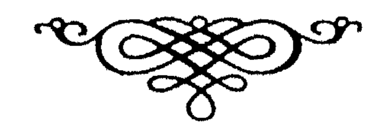
والمنطق فى ذلك أن الفرس يعتقدون أنهم أنسباء الحسين لأنه تزوج شهربانو (سلافة) ابنة يزدجرد بعد أن وقعت أسيرة فى أيدى المسلمين ، ولقد أنجبت سلافة علياً زين العابدين رضى الله عنه ، وإذن فهم أخوال على ، ويمكن الربط بين تحمسهم لابن ابنتهم وبين تشيعهم ، فتشيعهم والحال كذلك لا يمكن أن يقال إنه تشيع عقيدة خالصة ، بل هو أقرب إلى تشيع العصبية منه إلى تشيع العقيدة ، وتشيع العصبية يساوى تشيع السياسة ، ففكرة التشيع من ناحية الفرس على الأقل

فكرة سياسية خالصة ، بل إن بعض الفرس قد أعلن انتصاره لعلى زين العابدين لما يربط بين الفرس وبين بيت الحسين من نسب .

والذين يرون أن التشيع فكرة وجدانية عاطفية ليس لها علاقة بالعقيدة الدينية وما واكب ذلك من اشتراعات دينية محددة ، يقولون إن آل بيت الرسول ينبغى حبهم وتكريمهم والتعلق بهم ، لأنهم أهله وعترته وأحبابه ، فَمَنْ من المسلمين لا يحب فاطمة والحسن والحسين سيدى شباب أهل الجنة ، وهما اللذان أدخلا السرور والبهجة على قلب جدهما رسول الله حينما كانا طفلين صغيرين جميلين ، يتسلقان كتفيه ، ويلاعبانه ويداعبانه ، فيهش لهما ويطرب ويفرح ، لأن محمداً الإنسان كان خير بنى الإنسان عاطفة أبوة ، فلم تكنْ عظمته فى كونه رسولًا وحسب ، بل كانت عظمته أيضاً فى كونه إنساناً عظيماً يفيض قلبه بالحب ويفعم صدره بالحنان .

. . فإذا ما نظرنا إلى ماحلَّ بأهل البيت الكريم ، برجاله ونسائه وأطفاله من تعذيب وتشريد وتقتيل ، وهم عترة النبى وآل بيته وأحب الناس إليه ، إذا ما نظرنا إلى ذلك كان علينا أن نتعلق بهم حباً وأسى وشفقة ورحمة ، فقد لقوا من الاضطهاد فى عصر الأمويين ما أسال دماءهم الطاهرة ، وشرد أطفالهم الأبرياء ، وعذّب نساءهم الطاهرات المحصنات ، ولم يقف الاضطهاد بذهاب الأمويين وفناء دولتهم ، بل إن مالقوه من أبناء عمومتهم العباسيين لأشد وأنكى من تعذيب وتشريد .

هذه المحن التى حلت بآل البيت قد جعلت كثيراً من المسلمين يتشيعون لهم ويتعصبون ، تشيع عاطفة وتعصب حب ، لا تشيع عقيدة دينية ترتكز على أصول عقائدية معينة .





أشهر الفرق الشيعية

كانت الفرق الشيعية كثيرة الأسماء ، متعددة الاتجاهات ، متباينة العقائد ، اختلفت مذاهبها وتباعدت مشاربها ، فبعضها التزم جانب القصد والاعتدال ، وبعضها الآخر جنح إلى الغلو والضلال .

لقد ذكرت كتب التاريخ بعض الفرق الشيعية التى بادت ودرست ، التى منها السبئية التى كانت تنادى بألوهية علىّ كرم الله وجهه ، وكان رأس هذه الفرقة اليهودى عبد الله بن سبأ . ومنها الكيسانية التى كانت تعتقد فى إمامه محمد بن على ابن أبى طالب المشهور باسم محمد بن الحنفية ، وتنتسب هذه الفرقة إلى كيسان مولى أمير المؤمنين علىّ ، وكان رأس الفرقة المختار بن أبى عبيدة الثقفى الذى كانت شجاعته أقرب إلى الأساطير ، فقد ظل يحارب فى سبيل رأيه ، حتى لقى مصرعه وهو ممتط صهوة جواده وله من العمر سبع وستون سنة ، وكانت هذه الفرقة تعتقد أن محمد بن الحنفية حىّ لم يمت ، بل يعيش فى جبل رضوى بالحجاز ، وعنده عين من العسل وعين من الماء .

ومن هذه الفرق الغالية الدارسة أيضا فرقة المغيرية ، نسبة إلى المغيرة بن سعيد البجلى الذى كان يعتقد فى إمامة محمد بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن على

المعروف بمحمد النفس الزكية ، غير أن المغيرة هذا ما لبث أن أصابته موجة من الانحراف فادعى الإمامة لنفسه ، ثم ازداد غلواً وانتهى الأمر به إلى ادعاء النبوة .

وتمضى كتب التاريخ على وجه العموم ، وكتاب فرق الشيعة للنوبختى على وجه أخص فتذكر أسماء كثيرة لفرق غالية مثل الخرمدينية التى ألّهت الأئمة ، والهاشمية التى ألّهت بعض الصعاليك ، والبيانية التى ألهت علياً ، والناووسية التى قالت إن جعفرا الصادق لم يمت .

ونحن لانكاد نرى بين هذه الفرق الشيعية الدارسة فرقة واحدة معتدلة إلا فرقة «التوابين» . ونشأة التوابين — حسبما هو واضح من اسمهم — مستوحاة من لفظ «التوبة» لشعورهم بالذنب وإحساسهم بالندم ، لأنهم الذين وجهوا الدعوة إلى الحسين رضى الله عنه لكى يلحق بهم فى العراق وقد بايعوه بإمارة المؤمنين ، ثم لم يلبثوا أن انفضوا عنه ، وتفرقوا من حوله حتى لقى ربه شهيدا على النحو المحزن المعروف . لقد قامت فرقة التوابين بزعامة الصحابى سليمان بن صرد الخزاعى ، وخاضوا معارك باسلة تأديبا لقتلة سيد الشهداء وانتقاما منهم ، ولم تكن لهؤلاء التوابين صبغة دينية فى نطاق العقيدة تميزهم عن جمهرة المسلمين ، وإنما كانوا يصدرون فى فكرهم ومعاركهم عن الإحساس بالندم والوفاء للحسين .

ومهما كان الأمر فإن المتشيعين قد انقسموا إلى فرق كثيرة العدد بعضها مال إلى الاعتدال والقصد والاجتهاد الصادق فى ظل العقيدة الإسلامية فى غير ماشطط ولا ضلال ، والبعض الآخر غلا فى عقيدته غلواً خرج به عن ربقة الإيمان إلى مهاوى الضلال ، ومن الوحدانية إلى الشرك ، وأدخلوا فى الإسلام وثنية جديدة ، فألهوا علياً وأولاده وأقحموا على الإسلام كثيراً من عقائد الوثنيين والمجوس .

السبئية :

أول من دعا إلى تأليه علىّ ، عبد الله بن سبأ اليهودى الذى نشر هذه الفتنة فى حياة علىّ نفسه ، ولم يكن يقصد من ذلك إلا الإساءة إلى الإسلام ، وقد نسبت إلى ابن سبأ هذا أمور شيطانية هدامة ، فقد طوف فى الأمصار الإسلامية يمهد

لدعوته الخبيثة ، فكان يطرد حيناً ويوفق حيناً آخر ، ومن أهم تعاليمه الوصاية والرجعة ، فأما الوصاية فهى أن كل إمام وصى من قبله ، أى أن عليًّا وصى الرسول ، والحسن وصى على ، والحسين وصى الحسن وهكذا ، وأما الرجعة فهى أن محمداً سيرجع ، ثم تحول بعد ذلك فقال إن علياًّ سيرجع ، وكان يقول حين قتل على :

لو أتيتمونا بدماغه ألف مرة ما صدقنا موته ، ولا يموت حتى يملأ الأرض عدلا كما ملئت جوراً .

واتخذ ابن سبأ من الوصاية ذريعة لتأليب المسلمين على عثمان فذكر لهم أن عثمان ، قد اغتصب الخلافة من على بن أبى طالب ، ومافتىء يؤلب الناس على عثمان وينسب إليه من الأخطاء ما جعل حياته تنتهى بالشكل الذى انتهت به قتيلًا يتلو كتاب الله .

ولم يقف الأمر بابن سبأ عند ذلك ، بل إمعاناً فى الكيد للعقيدة وضع علىَّ بن أبى طالب موضع الإله . ولم يكن أمر الغالين الذين بذر فيهم ابن سبأ بذور الخبث والزيغ ليقف عند حد ، فقد ألهوا أبناء علىّ ، الحسن والحسين ومحمد بن الحنفية ، ثم ألهوا أبناءهم بعد ذلك ، وأدخلوا إلى الدين كثيراً من العادات الفارسية والمجوسية والبوذية ، فقالوا بتناسخ الأرواح وتحللوا من بعض أحكام الدين إلى غير ذلك ، غير أن كل ما أتوا به من بدع وانحرافات يتضاءل إلى جانب الإشراك بالله وتأليه على وأبنائه .

التوابون :

على أننا لو ضربنا صفحاً عن فرقة السبئية التى ظهرت فى عهد علىّ لوجدنا أن فترة من الهدوء والبعد عن الزيغ قد أظلت أنصار آل البيت بالهدى والنور ، فأنصار الحسن وشيعته كانوا من خيرة المسلمين وأصفاهم قلباً وأتقاهم روحاً ، فلما انتقل الحسن إلى رحمة الله انتقلت أمور الوصاية إلى الحسين الذى التف حوله بعض الأنصار من أهل العراق ثم ما لبثوا أن انفضوا عنه فلقى مصرعه بأرض

كربلاء بالطريقة البشعة المعروفة فى كتب التاريخ ، فكانت أن دبت الغيرة وتأججت نيران الحقد فى قلوب بعض المسلمين الذين رأوا فى ذلك امتهاناً لبيت الرسول الكريم ، فاتسع نطاق التشيع لآل البيت ، ونشأت فى البصرة جماعة أطلقوا على أنفسهم اسم «التوابين» كوّنوا منظمة ضمت حوالى مائة رجل على رأسهم الصحابى سليمانُ بن صُرَد الخزاعى . وهؤلاء التوابون رأوا أنهم غرروا بالحسين حينما استدعوه لكى يكون على رأس جماعتهم ثم تخلوا عنه ليلقى حتفه بطريقة مزرية بهم .

وكانت حركة التوابين سرية أول الأمر وكان شعارهم الثأر للحسين ، ونحن لا نستطيع أن نقطع بأن الجماعة كانت لها أهداف عقائدية كأهداف الشيعة فيما بعد ، بل كان طابعها عاطفياً فيه إحساس بالندم لأنهم أحسوا بأنهم مسئولون عن مقتل الحسين .

وكان فى مقدمة دعاة التوابين رجل اسمه عبيد الله بن عبد الله المرى ، وكان يؤلب المسلمين على قاتلى الحسين مصوراً بشاعة الجريمة التى ارتكبت بقوله : «ابن أول المسلمين إسلاماً ، وابن بنت رسول رب العالمين ، قلت حمأته ، وكثرت عداته حوله ، فقتله عدوُّه وخذله وليُّه ، فويل للقاتل وملامة للخاذل . إن الله لم يجعل لقاتله حجة ولا لخاذله معذرة إلا أن يَناصح الله فى التوبة فيجاهد القاتلين وينابذ القاسطين ، فعسى الله عند ذلك أن يقبل التوبة ويقيل العثرة . إنا ندعوكم إلى كتاب الله وسنة نبيه ، والطلب بدماء أهل بيته ، وإلى جهاد المحلين والمارقين ، فإن قتلنا فما عند الله خير للأبرار ، وإن ظهرنا رددنا هذا الأمر إلى آل بيت نبينا» .

وقد تكاثر عدد التوابين وخرجوا إلى قبر الحسين بكربلاء يعترفون بخطئهم حين تقاعسوا عن نصرته ويبكون ثم صعدوا إلى الشمال يريدون الإيقاع بالأمويين ، ووقعت بينهم وبين الجيش الأموى معركة كبرى فى عين الوردة قرب الرقة أبلوا فيها بلاء حسناً ، إلا أن النصر لم يكن من نصيبهم ، فبالرغم من أنهم قاتلوا قتال الأسود إلا أن رمى النبال قضى على أكثرهم ولم ينج منهم إلا عدد قليل ، والحق أن هؤلاء التوابين قد تنبهوا إلى خطئهم بعد فوات الأوان ، فلو أنهم

قد بذلوا فى مساعدة الحسين نصف مابذلوه فى هذه الموقعة لكان من المحتمل أن يتغير الموقف بالنسبة لكل من آل البيت وبنى أمية .

ونحن لانكاد نحس أن لهؤلاء التوابين عقيدة دينية ذات طابع يميزها عما سار عليه جمهور المسلمين ، بل إن تحمسهم للثأر للحسين كان ندماً على تقاعسهم عن مناصرته واستغفاراً عن التخلى عنه وقت المحنة ، ولذلك فإن تشيعهم قائم على فكرة سياسية عصبية وهى الأخذ بالثأر ثم هى لا تخلو من انفعال وجدانى خالص .

ومهما يكن الأمر فقد عادت مدارس الشيعة إلى التعدد وإلى الإجماع على جعل علىّ وأبنائه فى مكانة الإمامة من المسلمين ، وقد اختلفت نزعات هذه الفرق ، فبعضها مال إلى القصد والاعتدال ، وبعضها جنح إلى الغلو والزيغ حتى ألهوا علياً وأبناءه ، ومن لم يسبغ عليهم الألوهية زعم أنهم لم يموتوا وسيعودون إلى الأرض مرة أخرى ينشرون النور والعدل .

ونستطيع أن نعرض فى إيجاز لأهم فرق الشيعة ومعتقداتها .

الكيسانية :

هذه الفرقة تقول بإمامة محمد بن على بن أبى طالب المشهور بمحمد بن الحنفية ، نسبة إلى أمه التى كانت من بنى حنيفة وكانت تسمى خَوْلَة ، وكانوا يرون أن محمداً هذا أولى بالإمامة بعد أبيه ، لأنه كان حامل اللواء يوم وقعة الجمل ، وهناك من ذهب إلى أن الحسين أخاه قد أوصى له بالإمامة من بعده .

وأما سبب تسمية الفرقة بالكيسانية ، فيقال إن ذلك نسبة إلى كيسان مولى على بن أبى طالب ، وكان كيسان هذا هو الذى دل المختار بن أبى عبيد الثقفى على قتلة الحسين ، فانتقم منهم المختار وقتلهم شر قتلة ، وهناك من يقول إن الكيسانية سميت بهذا الاسم نسبة إلى المختار السالف الذكر ، فقد قيل إنه كان يسمى كيسان .

والحق أن المختار الثقفى هو عمود الرحى فى دعوة محمد بن الحنفية ، وبالتالى فى وجود فرقة الكيسانية ، فلولاه ما قامت لهم قائمة .

والمختار بن أبى عبيد الثقفى شخص غريب الأطوار ، كان خارجياً فى وقت ما ، ثم أصبح زبيرياً أى من أنصار عبد الله بن الزبير ، ثم صار بعد ذلك شيعياً كيسانياً .

وقد استطاع المختار أن يكسب ثقة محمد بن الحنفية ، وتمكن بحيله وشجاعته أن يخضع الكوفة وأن يأخذ بيعة أشرافها وعامة أهلها ، وكان يقول لهم : «تبايعونى على كتاب الله وسنة نبيه والطلب بدماء أهل البيت وجهاد المحلين والدفع عن الضعفاء وقتال من قاتلنا وسلم من سالمنا والدفاع ببيعتنا ، لا نقيلكم ولا نستقيلكم» .

الحق أن المختار كان أسطورة فى شجاعته وجلده على الحرب وإلحاحه على أعدائه وثباته فى ميدان القتال والمثابرة على اقتناص النصر ، فلقد حارب بنى أمية فى أكثر من موقعة وكان ينتصر عليهم بشجاعة منقطعة النظير ، وكانت رحى الحرب تدور والأمويون يهتفون : يالثارات عثمان ، والشيعة يهتفون : يالثارات الحسين ، ولكن النصر كان دائماً فى جانب جيش المختار برغم قلة عدده بالنسبة إلى جيش الأمويين الذى كان على رأسه عبيد الله بن زياد .

بعد النصر أطلق المختار العنان للشيعة كى ينتقموا من قتلة الحسين ، فقتلوا جميع المسئولين عن مأساة كربلاء وعلى رأسهم شَمِر بن ذى الجوشن قاتل الحسين .

كل ذلك كان يتم باسم صاحب الحق فى الإمامة محمد بن الحنفية ، الذى كان لا يزال مقيماً بالمدينة ، بينما رحى الحرب تدور باسمه فى العراق بصفة عامة وفى الكوفة وما حولها بصفة خاصة .

وقد ظل المختار يخوض غمار القتال إلى آخر لحظة فى حياته ، حينما حوصر فى قلعته بواسطة جيش الأمويين ، فخرج فى تسعة عشر رجلًا من أنصاره يفك الحصار عن نفسه ، وأخذ يضرب بسيفه حتى قتل سنة ٦٧ هـ وكان عمره سبعة وستين عاماً .

ومهما يكن الأمر فإن النصر الذى حازه المختار كان نتيجة لاتخاذ محمد بن الحنفية إماماً ، ولمحاربته بنى أمية والأخذ بثأر الحسين ، وإعمال التقتيل فى قاتليه والانتقام منهم ، ولما كان هذا أمر المختار وهذه خطورته ، فقد تكونت فرقة باسمه «المختارية» وهى فرع من «الكيسانية» التى تقول بإمامة محمد بن الحنفية السالف الذكر ، وقد تنكر محمد بن الحنفية للمختار حينما علم أن هذا الأخير يبتدع بعض الضلالات ، ويؤول الدين تأويلات فاسدة ، وادعى أنه يوحى إليه ، وألف بعض الأسجاع . وكان عنده كرسى قديم غشاه بالديباج وزيّنَهُ بألوان الزينات المختلفة ، وقال إنه من ذخائر أمير المؤمنين على بن أبى طالب ، وهو عنده بمنزلة التابوت لبنى إسرائيل ، وكان يدعى أن الملائكة تحارب معه فى شكل حمامات بيض .

وكان المختار يكفّر من تقدم علياً من الخلفاء ، ويكفر أهل صفين والجمل ، وكان ابن عمرة صاحب شرطة المختار يقول إن جبريل يأتى المختار بالوحى من عند الله فيخبره ولا يراه .

وليست «المختارية» وحدها هى التى قالت بإمامة محمد بن الحنفية ، فهناك فريق «الكربية» نسبة إلى أبى كرب الضرير الذين غلوا فى إطلاق الآيات والخوارق على محمد بن الحنفية أكثر مما غلا أصحاب المختار ، فالكربية — فضلًا عن فساد عقيدتها — قالت بأن محمد بن الحنفية حى ولم يمت ، وأنه فى جبل رضوى وعنده عين من الماء وأخرى من العسل يعيش عليهما ، وأن على يمنته أسد وعن يساره نمر ، والأسد والنمر يحفظانه من أعدائه حتى يخرج إلى الناس باسم المهدى المنتظر ، على أن فرقاً أخرى من الكيسانية قالت بموت ابن الحنفية وانتقال الإمامة إلى ابنه أبى هاشم أو غيره .

ومن الطريف أن أكثر من شاعر من شعراء العربية اللامعين كانوا يؤمنون بفكرة وجود محمد بن الحنفية حيًّا فى جبل رضوى ، فمن هؤلاء كُثَيِّر بن عبد الرحمن المشهور بكثير عزة الذى يقول :

ألا إنَّ الأئمـــــةَ من قريشٍ وُلَاةُ الحقِّ أربعـــــةٌ سواءُ
علـــىٌّ والثلاثـــةُ من بَنيـــهِ هُمُ الأسبـــاطُ ليس بهمْ خفـــاء
فسبـــطٌ سبـــطُ إيمانٍ وبـــرٍّ وسبـــط غيَّبَتْـــهُ كربـــلاء

وسِبْـــطٌ لا يذوق الموتَ حتـــــى ... يقـــودَ الخيـــلَ يقْدُمهـــا اللـــواءُ
تغـــيّب لا يُرى فيهمْ زمانــــاً ... بِرَضْوَى عنـــدهُ عسلٌ ومــــاءُ

وكان أمراً طبيعيًّا أن يرد شعراء السنة على هذا القول فقال قائلهم — ولعله عبدالقاهرالبغدادى :

ولاةُ الحقِّ أربعـــــةُ ولكـــــن ... لثـانى اثنيـــنِ قد سَبـــق العـــلَاء
وفـاروقُ الـــورَى أضْحـــى إمامـــاً ... وذو النُّوريْـــنِ بعـــدُ لهُ الـــولاءُ
علـــىّ بعدهـــمْ أضحـــى إمامـــاً ... بترتيبـــى لَهُـــمْ نزلَ الـــقضاءُ
ومُبْـــغِضُ مَنْ ذكرناهـــمْ لعِيـــنٌ ... وفى نار الجحيم لهُ الجزاءُ

ولكُثَيِّر شعر آخر يتبرأ فيه من الخلفاء الراشدين الثلاثة السابقين على علىّ ، ويذكرهم على الترتيب العكسى وهم : عثمان وعمر وأبو بكر فيقول :

برئتُ إلى الإلـــهِ من ابـــن أرْوى ... ومـــن قولِ الخوارجِ أجمعينـــا
ومـــن عُمـــرٍ برئتُ ومـــن عتيـــقٍ ... غداةَ دُعِـــى أميـــرَ المؤمنينـــا

ولم يكن كثير بن عبد الرحمن وحده هو الذي يقول بعودة محمد بن الحنفية ، فقد شاركه اعتقاده السيد الحميرى الشاعر المشهور . ومن قوله فى نفس العقيدة :

ألا حيِّ المقيم بشِعْبِ رَضْوى ... وأهْـــدِ لهُ بمنزلِـــه السّلامـــا
ألا قُلْ للـــــوصيِّ فدتْكَ نفسِى ... أطـــلتَ بذلكَ الجبـــلِ المقامـــا
أضرَّ بمعشرٍ والـــــوْك منـــــا ... وَسَمَّـــوْك الخليفـــةَ والإمامـــا
وعـــادوْا فيكَ أهـــلَ الأرضِ طُراً ... مُقَـــامُك عنهمُ سبعيـــنَ عامـــا
لقـــد أمسى بمورِقِ شِعْبِ رَضْوى ... يُراجعـــه الملائكـــةُ الكلامـــا
وما ذاق ابـنُ «خَوْلَةَ» طعـم موْتٍ ... ولا وارتْ له أرضٌ عِظامـــــا
وإنَّ له بهِ لمقيـــــــلَ صدقٍ ... وأنديـــةً تحدِّثُـــهُ كرامـــا
وإن له لرزقـــاً مِنْ إمـــامٍ ... وأشربـــةً يَعُـــلّ بها الطعامـــا

وليس الغريب أن يقال برجعة ابن الحنفية فكل فرق الشيعة تقول بالرجعة ، كل فرقة تقول برجعة الإمام الذى تعتقد فيه ، وتنتظره ، ولكن الغريب أن بعض الفرق قد ذهبت شأوا بعيداً فى الانحراف فقالت بألوهية محمد بن الحنفية ، والذى قال بذلك رجل اسمه حمزة بن عمارة البربرى ، ادعى النبوة لنفسه والألوهية لابن الحنفية وأحل المحارم وأفسد أفكار الناس وأتى من الموبقات الشىء الكثير .

والحق أن محمد بن الحنفية ليس له ذنب فى ذلك ، فأسباب الضلال كثيرة ، ولعل المؤامرات على الإسلام منذ القدم قد لعبت دوراً كبيراً فى ذلك ، فمحمد بن الحنفية كان إماماً فاضلًا ورعاً تقياً عالماً ورث الكثير من فضل أبيه أمير المؤمنين .

والذى يتتبع فرق الغلاة من الشيعة يجد بعضهم يؤله علياً وأبناءه وأحفاده ، والمتواضعون من الغلاة يضعونهم فى صف الرسل والأنبياء على الأقل .

وقد ذكر النوبختى صاحب كتاب فرق الشيعة عدداً كبيراً من هذه الفرق ولغتها — وهو شيعى المذهب — وذكر أنها أساءت إلى التشيع بصفة عامة ، فبالإضافة إلى الكيسانية ذكر أنصار عبد الله بن معاوية ، والخرمدينية الذين ألهوا الأئمة حيناً ، ووصفوهم بأنهم رسل حيناً آخر . وهم الذين قالوا بالتناسخ وإبطال القيامة والبعث والحساب . والهاشمية الذين ألهوا بعض الصعاليك ممن لا يعرف لهم التاريخ أسماء بين أعيانه ، والبيانية أتباع بيان بن سمعان التميمى ، وقد ألهوا علياً وقالوا إن الألوهية انتقلت إليه بالتناسخ ، وغير هؤلاء وأولئك كثيرون ممن اتخذوا من التشيع وسيلة لسخافاتهم ، فأساءوا إلى آل البيت ، وأساءوا إلى فكرة التشيع ذاتها .

وهل هناك إساءة أبلغ من نسبة الألوهية إلى علىّ ، العظيم فى إيمانه وإسلامه ، أو وضعه فوق مرتبة الأنبياء والرسل ، وهل هناك أسخف من ذلك المغيرة بن سعيد ، مولى بجيلة ، الذى يسأله رجل عن فضائل علىّ فيجيبه : إنك لا تحتملها ، ثم يذكر أنه خير من آدم ومن بقية الأنبياء ، ويعددهم واحداً واحداً حتى يصل إلى محمد فيقول : علىّ مثله .

لاشك أن مثل هذه الترهات قد أساءت إلى آل البيت وأساءت إلى الشيعة أنفسهم ، أليس من المضحك أن يظن بعض الشيعة أن علياً لايزال يعيش فى السحاب فإذا أطلت سحابة قالوا : السلام عليك يا أبا الحسن . وكان هؤلاء السحابيون يُعرفون بالمنصورية نسبة إلى رئيسهم أبى منصور الكسف ، الذى سمى بذلك لأنه كان يتأول فى قوله تعالى :

«وإنْ يَروْا كسفاً من السَّماءِ ساقِطاً يقُولُوا سحابٌ مَرْكُوم» فالكسف عندهم هو علىٌّ ، وهو فى السحاب ، وقد أشار إلى ذلك الشاعر فقال :

برِئْتُ من الخوارج لستُ مِنْهُم — من الغزال مِنهم وابنِ بابِ
ومِنْ قومٍ إذا ذكروا علياً — يردُّون السلامَ على السَّحابِ
ولكنى أحِبُّ بكل قلبى — وأعْلَمُ أنَّ ذاك من الصَّوابِ
رسولَ الله والصِّدّيقَ حقًّا — بِه أرجُو غداً حُسْنَ الثواب [٢٨]

وقد يلاحظ بعض الدارسين أن نشاط المفسدين قد انحصر فيمن اندسوا على سلالة على من ناحية حفيده على زين العابدين بن الحسين ، لأن أمه كانت من بيت الأكاسرة الفرس ، وهى ابنة يزدجرد بن شهريار التى أسرت ، فتزوجها الحسين وأعتقها ، وعرفت بعد ذلك باسم «سلافة» وأنجبت زين العابدين علياً ، وكانت سيدة صالحة ، جمعت إلى تربية الملوك أخلاق الإسلام والتحلى بفضائله . نقول إنه قد لوحظ أن أكثر الغلاة هؤلاء ممن أيدوا هذا الفرع وغَلَوْا فى عقيدتهم ، ولعل من أسباب ذلك أن أكثر الفرس قد اعتبروا أنفسهم أخوالًا لعلى زين العابدين وأصهاراً للحسين كما مر بنا فأيدوه ، لا عن إيمان ، وإنما عن عصبية النسب ، وجعلوا من هذا النسب فخراً لهم ، فكان أن توالى اعتناق التشيع بين جمهور الفرس ، ومن هنا ذهب بعض الدارسين إلى أن تلك الظاهرة الجديدة ، ونعنى بها ظاهرة ذيوع التشيع بين الفرس ، ليست إلا مؤيدة لوجهة نظرهم من أن التشيع مسألة سياسية وعصبية أكثر من كونها مسألة عقيدة ، وإلا فلماذا أجمع الفرس

---

(٢٨) العقد الفريد ٢/٤٠٥ لجنة التاليف .

على التشيع ولم يجمع جمهور المسلمين من بقية الأجناس كالعرب والترك والهند والبربر على نفس المذهب الجديد ؟

على كل حال ينبغى أن نسجل أن للفرس كامل الحق فى أن يعتقدوا ما يشاءون فى الإيمان بالفرقة الإسلامية التى يترتضونها لأنفسهم ، غير أن الذى يدعو إلى التأمل قليلًا أنه كان بين هؤلاء الفرس الفضلاء الذين آمنوا بالإسلام إيماناً كاملًا حتى فى ظل تشيعهم المعتدل ، بعض الشعوبيين الذين لم يطهّر الإسلام قلوبهم من التعصب للجنس ، ولم يؤثر فيهم المبدأ الخالد الذى جرى على لسان الرسول : لا فضل لعربى على عجمى إلا بالتقوى ، هذه الفئة قد بدأت تدس للإسلام وتزيف أحكامه وتشوّه جلاله بما كانت تلصقه بآل البيت ، لا من تكريم وتفضيل — فنحن جميعاً على اختلاف مذاهبنا نكرم آل البيت ونقدرهم — وإنما بإسباغ صفات التقديس والقول بأن بعضهم رسل يوحى إليهم والبعض الآخر آلهة معبودون .

هذه الفئة لا شك قد أساءت إلى الإسلام دون منازع بما أتت من ضروب الخبث والزيف والتضليل .

المغيرية :

غير أن هناك من الغالية من اتجهوا فى تشيعهم إلى سلالة الحسن بن علي ، ولعل أشهر هذه الفرق الغالية اتجاهاً نحو هذا الفرع ، فرقة «المغيرية» وهى فرع من المحمدية الذين ينتظرون محمد بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن على ، المعروف بمحمد النفس الزكية .

ومحمد النفس الزكية كان قد استولى على مكة والمدينة أيام مستهل الدولة العباسية ، كما استولى أخوه إبراهيم على البصرة وما جاورها ، واستولى أخوهما الثالث إدريس على جزء من بلاد المغرب ، فأرسل أبو جعفر المنصور الملك العباسى إلى محمد النفس الزكية جيشاً كثيفاً ، والتحم الجيشان بالمدينة فى معركة كبيرة قتل فيها محمد النفس الزكية ، وكان ثنى بجيش آخر أنفذه إلى العراق حتى التحم مع جيش إبراهيم فى معركة عرفت باسم باب خمرين أو باخمرا ، قتل فيها إبراهيم .

وكان أنصار محمد النفس الزكية يقولون بإمامته بعد موت محمد الباقر ، مستندين إلى حديث لست أدرى مبلغ صدق نسبته إلى الرسول يقول فى المهدى إن اسمه يوافق اسمى واسم أبيه اسم أبى . ولما كان محمد النفس الزكية سميا للرسول ، وأبوه عبد الله سميا لعبد لله والد النبى ، فقد آمن القوم بمحمد ودعوا لإمامته ، فلما قتل فى المعركة السالفة الذكر ، زعموا أنه لم يقتل ولم يمت ، وأنه فى جبل «حاجر» من ناحية نجد ، مقيم هناك إلى أن يؤمر بالخروج ويملك الأرض وتعقد له البيعة بمكة بين الركن والمقام[٢٩] ولعل هذه العقيدة لا تختلف كثيراً عن عقيدة شيعة محمد بن الحنفية الذين قالوا إنه مقيم في جبل رضوى عنده عين من عسل وعين من ماء على مامرّ ذكره قبل قليل .

والمهم أن هؤلاء الشيعة من أنصار النفس الزكية يزعمون أن الذى قتلته جيوش المنصور لم يكن النفس الزكية نفسه وإنما هو شيطان تمثل فى صورته .

ومن الطريف أن بعض رجال السنة قد ردوا على هؤلاء قائلين لهم : إن أجزتم أن يكون المقتول بالمدينة غير محمد النفس الزكية وأجزتم أن يكون المقتول هنا شيطاناً تصور فى صورته ، فأجيزوا بأن يكون المقتولون بكربلاء غير الحسين وأصحابه وإنما كانوا شياطين تصوروا للناس بصور الحسين وأصحابه ، وانتظروا حسيناً كما انتظرتم محمداً النفس الزكية ، وانتظروا عليا كما انتظرته السبئية منكم الذين زعموا أنه فى السحاب والذى قتله عبد الرحمن بن ملجم كان شيطانا تصور بصورة علىّ للناس .

المهم أن هذه الفرقة الغالية التى نسبت كل ذلك إلى محمد النفس الزكية هى فرقة «المغيرية» أصحاب المغيرة بن سعيد البجلى الذى كان مولى لخالد بن عبد الله القسرى ، هذا المغيرة ما لبث أن تغير رأيه بسرعة وادعى الإمامة لنفسه بعد الإمام محمد ، ثم ما لبث أن انساق وراء أوهامه فادعى النبوة لنفسه ، ولكنها نبوة من طراز لم نألفه فى النبوات السابقة ، فقد استحل المحارم وألّه عليا ، ثم زاد على ذلك بعقيدة تدعو إلى الضحك والسخرية فقال بالتشبيه ، وزعم أن الله تعالى صورة

---

(٢٩) الفرق بين الفرق ص ٤٢ ، ٤٣ ، ٤٤ .

جسم ذو أعضاء على مثل حروف الهجاء ، وصورته صورة رجل من نور على راسه تاج من نور ، وله قلب تنبع منه الحكمة ، وزعم أن الله تعالى لما أراد خلق العالم تكلم بالاسم الأعظم ، فطار ، فوقع على رأسه تاج ، ثم اطلع على أعمال العباد وقد كتبها على كفه ، فغضب من المعاصى ، فعرق فاجتمع من عرقه بحران : أحدهما مالح والآخر عذب . والمالح مظلم ، والعذب نيّر ، ثم اطلع فى البحر النير فأبصر ظله فانتزع عين ظله منها الشمس والقمر وأفنى باقى الظل وقال : لا ينبغى أن يكون معى إله غيرى ، ثم خلق الخلق كله من البحرين فخلق المؤمنين من البحر النيِّر ، وخلق الكفار من البحر المظلم (٣٠).

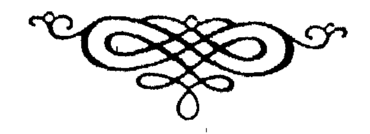
وقصة المغيرة هذه تجمع السخافة إلى الطرافة ، وليست الوحيدة من نوعها ، فأمثالها من الكثرة بمكان حينما يستعرض الإنسان عقائد بعض الفرق الغالية ، إلا أننا نعيد ما ذكرناه من أن أكثر هؤلاء كانوا من بعض العصبيات الحاقدة على الإسلام ، فأرادت أن تشوّه محاسنه وتسيء إلى قدسيته ، مستعينة بالغافلين.والبلهاء من العامة ببث الدعاوى الكاذبة بين صفوفهم ، فأشاعوا الفرقة بين المسلمين وغرسوا الشك فى قلوب بعض المؤمنين ، فتعرض الإسلام لمحنة كبيرة من جراء هذه الاعتقادات الضالة والدعاوى السخيفة .

ولا شك فى أن هؤلاء المفسدين كانوا على جانب كبير من اليقظة واللؤم والدهاء ، وكانوا يختارون بحذق ميادين إفسادهم ومسارح بث سمومهم ، فهم يعلمون مدى تعلق المسلمين بآل بيت الرسول الكريم ومقدار حبهم لهم وعطفهم عليهم ، فانتهز هؤلاء المحنة التى أنزلها بنو أمية ومن بعدهم بنو العباس بآل البيت ، واتخذوا من حزن المسلمين وأسفهم لما حل بأفراد البيت الكريم ذريعة كبرى لتمجيدهم والغضب من أجلهم أول الأمر ، ثم انتقلوا بعد ذلك إلى مرحلة تقديسهم ، ثم مالبثوا شيئاً فشيئاً أن خلعوا عليهم صفات الألوهية ، فأصبح الشرك أمراً طبيعياً فى ظل إسلام هؤلاء المزيّف ، وكانوا أحياناً ينقلون الألوهية بالوراثة أو بالتناسخ من واحد من آل البيت إلى الآخر ، فجعلوا بمكائدهم تلك كثيراً من المسلمين مشركين بعد أن كانوا مؤمنين موحدين .

---

(٣٠) الملل والنحل ١٥٧/١ .

ولكن لحسن الحظ كل تلك الفرق الغالية الضالة ممن أشرنا إليها فى هذا الفصل لاتكاد توجد منها واحدة بيننا فى هذا العصر الذى نعيش فيه ، فإن وجد مايشبهها فعددها قليل وأنصارها ضئيلو العدد يمكن استصلاحهم أو تركهم إن استعصى الأمر بالنسبة إليهم ، فنفعهم إن استصلحوا كثير ، وضررهم إن ظلوا على غلوّهم قليل .



الشيعة الإمامية

هم جمهور الشيعة الذين يعيشون بيننا هذه الأيام وتربطهم بنا نحن أهل السنة روابط التسامح والسعى إلى تقريب المذاهب ، لأن جوهر الدين واحد ، ولبه أصيل لا يسمح بالتباعد .

والشيعة الإمامية يشملون ثلثى سكان إيران تقريباً ، ونصف سكان العراق ومئات الآلاف من سكان لبنان ، وبضعة ملايين فى الهند ، والجمهوريات الإسلامية التى تحتلها دولة روسيا . والعقيدة العامة للإمامية هى نفس عقيدة الشيعة التى ألمحنا إليها فى مستهل هذا الباب ، وهى إيمانهم المطلق بإمامة على بن أبى طالب إيماناً ظاهراً كاملًا ووصفه بالوصى ، وانتقال الوصاية إلى أبنائه من بعده .

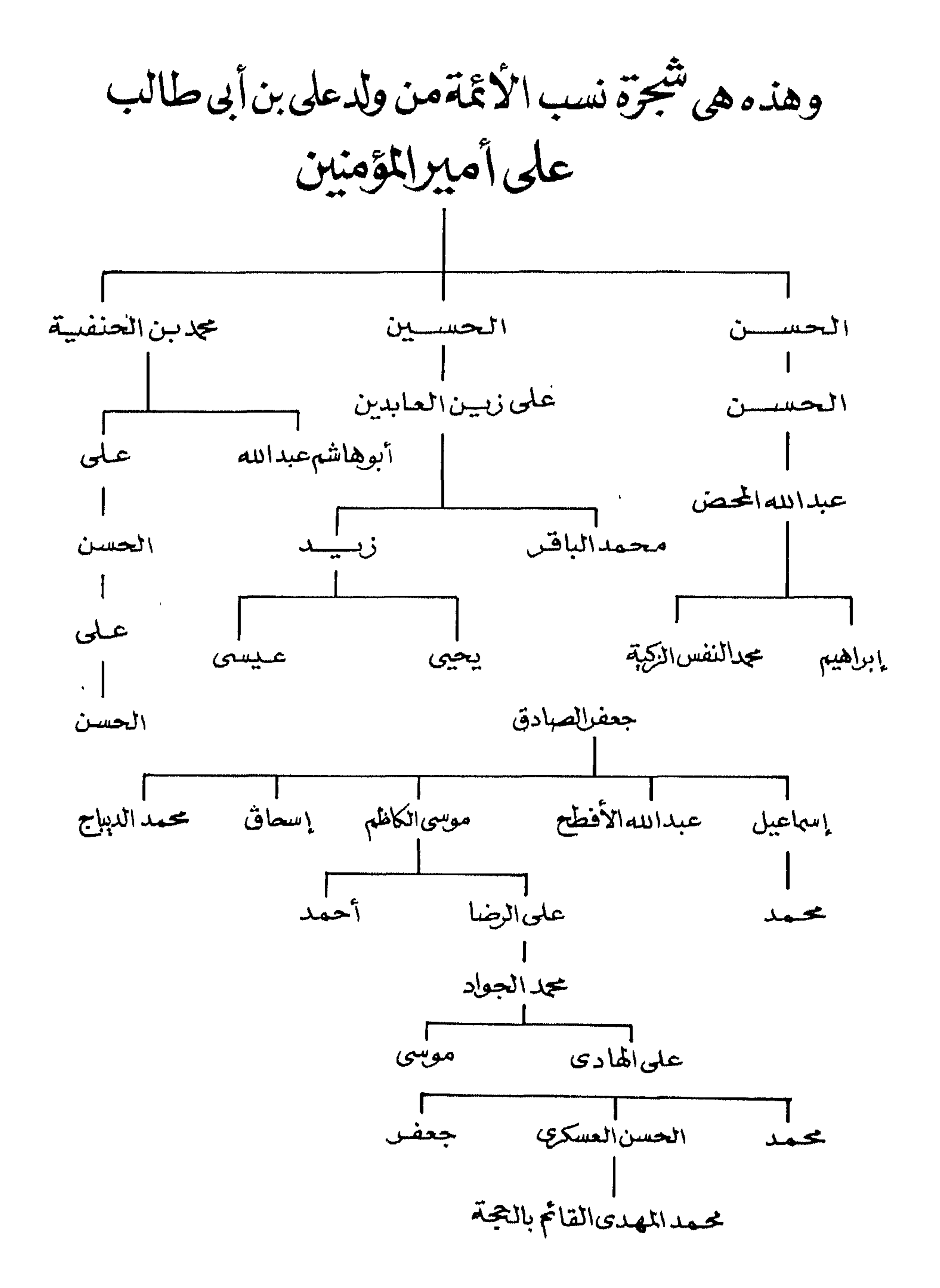
والإمامية ليست فرقة واحدة كما قد يتبادر إلى الذهن ، بل هى فرق كثيرة متعددة ، كالباقرية والجعفرية الواقفة ، والناووسية التي قالت بأن جعفرا الصادق حى لم يمت ولن يموت حتى يظهر ، والأفطحية الذين قالوا بإمامة عبد الله الأفطح ابن جعفر الصادق ، والإسماعيلية الواقفة الذين قالوا بإمامة إسماعيل إلا أنهم اختلفوا على أنفسهم ، فمنهم من قال إنه مات فى حياة أبيه ، ومنهم من قال إنه لم يمت وإن أباه أظهر موته خشية أو تقية من الخلفاء العباسيين ، والموسوية المفضلية

الذين يقولون بإمامة موسى بن جعفر الصادق ، وقد نسب إلى جعفر أنه قال فى الوصاية لمن يخلفه من أبنائه : سابعكم قائمكم ألا وهو سمى صاحب التوارة ، وقد سموا كذلك نسبة إلى موسى وإلى المفضل بن عمر أحد أعلام الفرقة ، ومن الموسوية هؤلاء من يقول إن موسى لم يمت وسيخرج بعد الغيبة ، ومنهم من سلم بموته ، والاثنا عشرية وهم الذين قطعوا بموت موسى الكاظم ، وظلوا يؤمنون بإمامة سلالة موسى حتى الإمام محمد القائم المنتظر ، وهو الثانى عشر من حيث الترتيب العددى .

على أن أشهر كل تلك الفرق الإمامية التى ذكرنا هى فرقة الاثنا عشرية المعاصرة لنا والتى تعيش — كما ذكرنا — فى أكثر البلدان الإسلامية ، خصوصاً إيران والعراق ، وهذه الفرقة نفسها يطلق عليها أيضاً الجعفرية من باب تسمية العام باسم الخاص ، كما يطلق عليها الإمامية من باب تسمية الخاص باسم العام ، كما يطلق عليها الاسم العام وهو الشيعة ، فحينما نقول الشيعة الآن يتجه القصد إليهم ، ولقد سموا بالإثنا عشرية لأنهم يؤمنون باثنى عشر إماماً متتابعين هم : على بن أبى طالب ، ثم ابنيه الحسن فالحسين ، ثم على زين العابدين بن الحسين ، ثم محمد بن على ، ثم جعفر بن محمد ، ثم موسى بن جعفر ، ثم على بن موسى ، ثم محمد بن على ، ثم على بن محمد ، ثم الحسن بن على ، ثم محمد بن الحسن ، ولكل إمام من هؤلاء الأئمة الاثنى عشر لقب عرف به ، وهذه الألقاب هى على الترتيب : علىّ المرتضى ، والحسن المجتبى ، والحسين الشهيد ، وعلى زين العابدين السّجّاد ، ومحمد الباقر ، وجعفر الصادق ، وموسى الكاظم ، وعلى الرضا ، ومحمد الجواد التقى ، وعلى الهادى النقى ، والحسن العسكرى الزكى ، ومحمد المهدى القائم بالحجة .

فهذه الفرقة إذن تسمى بالجعفرية حيناً ، والاثنا عشرية حيناً آخر ، والإمامية حيناً ثالثاً ، ولعلها من أبعد الفرق الإمامية عموماً عن الاتصاف بالغلو ، إلا فى حالات بعينها كما سوف نوضح فيما يستقبل من حديث .

وإذا كانت قد سميت بالجعفرية من باب تسمية العام باسم الخاص ، كما مر بنا قبل قليل ، فإنها سميت بذلك لأمر أهم ، وهو أنها تستمد أمور دينها من فقه الإمام


وهذه هى شجرة نسب الأئمة من ولد على بن أبى طالب
على أمير المؤمنين
الحسن
الحسين
محمد بن الحنفية
الحسن
على زين العابدين
أبو هاشم عبدالله
على
عبدالله المحض
محمد الباقر
زيد
الحسن
إبراهيم
محمد النفس الزكية
يحيى
عيسى
على
الحسن
جعفر الصادق
إسماعيل
عبدالله الأفطح
موسى الكاظم
إسحاق
محمد الديباج
محمد
على الرضا
أحمد
محمد الجواد
على الهادى
موسى
محمد
الحسن العسكرى
جعفر
محمد المهدى القائم بالحجة

جعفر الصادق ، فلقد كان إماماً لجميع المسلمين بالمعنى العام ، كأبى حنيفة والشافعى والأوزاعى ومالك وابن حنبل ، وكان من ذوى الرأى الصائب والفتوى الصالحة فى أمور الدين ، فضلًا عن أنه كان إماماً لدى الإمامية ، له ما لبقية أئمتهم من الولاية والوصاية .

لقد كان «جعفر» ـــ الذى تنتسب إليه الجعفرية ـــ غزير العلم فى الدين ، وافر الحكمة ، كامل الأدب ، زاهداً ورعاً متسامحاً بعيداً عن الغلوّ ، ولم يكن يؤمن بالغيبة أو الرجعة أو التناسخ كما أنه كان بعيداً عن الاعتزال .

وكان السيد الإمام ينتسب من ناحية الأب إلى العترة النبوية المباركة . ومن ناحية الأم إلى أبى بكر الصديق ، وله أقوال بالغة حد الجمال فى الإيمان والصلة بالله والبعد عن التطرف ، فمن أقواله : «إن الله تعالى أراد بنا شيئاً وأراد منا شيئاً ، فما أراده بنا طواه عنا ، وما أراده منا أظهره لنا ، فما بالنا نشتغل بما أراده بنا عما أراده منا» وكان يقول فى القدر : «هو أمر بين أمرين : لا جبر ولا تفويض» ومن أقواله فى الدعاء : «اللهم لك الحمد إن أطعتك ، ولك الحجة إن عصيتك ، لا صنع لى ولا لغيرى فى إحسان ، ولا حجة لى ولا لغيرى فى إساءة» (٣١) .

والاثنا عشرية فى حقيقة أمرها وروح عقيدتها بعيدة عما تورطت فيه فرق شيعية كثيرة ، فهم يبرأون من المقالات التى جاءت على لسان بعض الفرق ويعدونها كفراً وضلالًا ، وهم كما يقول السيد كاشف الغطاء أحد شيوخهم المحدثين : «ليس دينهم إلا التوحيد المحض وتنزيه الخالق عن كل مشابهة للمخلوق ، أو ملابسة لهم فى صفة النقص والإمكان والتغير والحدوث ، وما ينافى وجوب الوجود والقدم والأزلية إلى غير ذلك من التنزيه والتقديس ، وبطلان التناسخ والاتحاد والحلول والتجسيم» .

وباب الاجتهاد عند الاثنا عشرية لا يزال مفتوحاً ، وللمجتهد أن يبدى رأيه ، وأن يؤخذ به مادام متفقاً مع الكتاب والسنة ، متمشياً مع المعقول ، وإلا فلا قيمة له إن كان به ميل أو شطط .

---

(٣١) الملل والنحل ١/١٤٧ .

والإمامية يزيدون على أركان الإسلام الخمسة ركناً آخر هو الاعتقاد بالإمامة ، أى أنهم يعتقدون أن الإمامة منصب إلهى كالنبوة ، فكما أن الله يختار من يشاء من عباده للنبوة والرسالة ، فإنه كذلك يختار للإمامة من يشاء ، ويأمر نبيه بالنص عليه ، وأن ينصّبه إماماً للناس من بعده للقيام بالوظائف التى كان على النبى أن يقوم بها ، سوى أن الإمام لا يوحى إليه كالنبى ، فالنبى مبلغ عن الله والإمام مبلغ عن النبى ، ويتمسك الإمامية بهذا الركن تمسكاً شديداً لا سبيل إلى التهاون فيه .

ويعتقد الإمامية فى اثنى عشر إماما متسلسلين ، وهم الذين مر ذكرهم . على أن هناك من المؤرخين – بل من الشيعة أنفسهم – من ينكر وجود الإمام محمد الثانى عشر إنكارًا كلياً ويعتبره شخصية خرافية لا وجود لها .

وكل إمام سابق لابد أن ينص على اللاحق ، وهم يرون أن الإمام معصوم كالنبى عن الخطأ ، والإمام دون النبى وفوق البشر[٣٢] .

ويرى الإمامية أن من يشاركهم من المسلمين اعتقادهم فى الأئمة على هذا النحو الذى ذكرنا كانوا مؤمنين ، وإذا اقتصر الاعتقاد على أركان الإسلام المعروفة دون الاعتراف بالإمامة كانوا مسلمين مؤمنين بالمعنى العام ، فعدم الاعتقاد بالإمامة لا يخرجهم عن الإسلام ، ولكن تتفاوت درجات المسلمين فى الآخرة ، الشيعة أولا ثم يأتى بقية المسلمين .

وعلى هذا الأساس تختلف الإمامية عن سائر الفرق الإسلامية بالاعتقاد فى الأئمة الاثنى عشر، وهم يرون هذا الركن جوهرياً فى العقيدة ، وأن الله يختار الإمام بسابق علمه كما يختار النبى ، فالإمامة إذن منصب إلهى ، كذلك يرون أن الله سبحانه وتعالى لا يخلى الأرض من حجة على العباد من نبى أو وصى ظاهر مشهور أو غائب مستور ، ويروون الأحاديث الكثيرة التى يذهبون من خلالها إلى أن النبى أوصى علياً وأن عليا أوصى ولده الحسن وأن الحسن أوصى الحسين وهكذا حتى الإمام الثانى عشر محمد القائم بالحجة ، ولذلك فإنهم لا يزالون ينتظرون هذا الإمام الثانى عشر المستور ، لكى يظهر فى أى وقت حتى يملأ الأرض عدلًا .

---

(٣٢) كاشف الغطاء : أصل الشيعة ص ١٠٢ .

والاثنا عشرية بهذه المناسبة لا يقبلون الأحاديث من أى من الرواة أو المحدِّثين ، بل لا بد أن تكون قد رويت عن طريق أهل البيت عن جدهم على بن أبى طالب ، أما ما يرويه أبو هريرة وغيره من المحدثين الرواة فليس لأحاديثهم عند الشيعة من الاعتبار — على حد تعبير السيد كاشف الغطاء — مقدار بعوضة ، ولعل هذا سبب كبير من أسباب الخلاف بين الشيعة والسنة ، وتبعا لذلك فهم لا يعترفون بكبريات كتب الحديث مثل موطأ الإمام مالك ومسند الإمام أحمد والصحيحين وكتب السنن الأربعة المعروفة ، ولما كان الحديث هو المصدر الثانى للتشريع كان من الواضح أن تتسع الهوة نتيجة للخلاف على الرواة وتتزلزل الثقة بكل فريق .

وإذا كانت الإمامية لا يزالون يقولون — دون السنة —[٣٣] بالاجتهاد ، وأن بابه لا يزال مفتوحاً ، فإنهم لا يأخذون بالقياس ، وهو الذى سار عليه بعض علماء السنة ، بل إنهم — أى الشيعة الإمامية — ينسبون إلى بعض أئمتهم القول بأن الشريعة إذا قيست مُحق الدين .

لعل هذه المبادىء من أهم ما يفرق بين السنة والإمامية . ولكن هناك أشياء أخرى يتمثل فيها الخلاف فبعض هذا الخلاف فى العبادات و بعضه فى المعاملات و بعض آخر فى موضوعات لها خطورتها وحرجها نحاول عرضها فى دقة و وضوح .

ففى الصلاة تكاد الإمامية تتفق مع السنة اتفاقاً تاماً إلا فى صلاة الجمعة والعيدين ، فصلاة الجمعة معطلة عند بعضهم لأنها لا تجوز طالما كان «الإمام» غائباً ، وهى بالتالى لن تقام إلا حين يظهر الإمام المستور ، وأما صلاة العيدين فهى فرض عند الإمامية ، وواجب عند بعض السنة كالحنفية ، وسنة عند الآخرين كالشافعية ، ونوافل رمضان ألف ركعة زيادة على النوافل اليومية التى تبلغ إحدى وخمسين ركعة فى اليوم ، ونوافل رمضان يصليها الشيعة فرادى لأنها سنة ، وهم لا يرون فيها مشروعية الجماعة ، إذ لا جماعة — عندهم — إلا فى فرض ؛ بل إنهم

---

(٣٣) أهل السنة لم يغلقوا باب الاجتهاد بالمعنى الكامل ولكن الشروط التى ينبغي توفرها في المجتهد قد أصبحت على جانب من الندرة والصعوبة فإن وجد من توفرت فيه شروط الاجتهاد كان له أن يجتهد .

يفضلون صلاتها فى بيوتهم معتمدين على حديث يروونه : «أفضل الصلاة صلاة الرجل فى بيته إلا المكتوبة» .

والزكاة عند الشيعة فريضة كما هى عند السنة ، وزكاة الفطر واجبة ، وهناك زكاة أخرى عندهم هى «الخمس» وهم يعتبرونها حقا فرضه الله لآل محمد عوضاً عن الصدقة التى حرمها الله عليهم من زكاة الأموال ، وهى ستة أسهم ، ثلاثة منها تدفع للإمام إن كان ظاهراً ولنائبه (وهو المجتهد العادل) إن كان مستتراً ، وثلاثة أخرى للفقراء والمحتاجين من بنى هاشم[٣٤] .

زواج المتعة :

وثمة خلاف واضح بين الشيعة (ونعنى الشيعة الإمامية) والسنة وهوزواج المتعة أو « عقد الانقطاع » . والزواج بهذا الشكل زواج مؤقت ، والعقدفيه موقوت بأجل محدود . ولقد كان هذا الزواج معمولاً به فى أيام النبى فى بعض الروايات ، قيل : فلما جاء عمر بن الخطاب أوقفه وحرمه ، لأنه رأى فيه رأياً غير كريم ، والقول الراجح أنه حرّم فى زمن النبى وأن النبى ﷺ قدنسخه .

والإمامية ـــ من بين سائر فرق الإسلام ـــ قد انفردت بالقول بجواز مشروعية هذا الزواج ، معتمدين على الآية الكريمة : «فما استمتعتم به منْهُنَّ فآتوهُنّ أُجُورَهُنّ» . ويقولون إن جماعة من عظماء الصحابة والتابعين مثل عبد الله بن عباس ، وجابر بن عبد الله الأنصارى ، وابن مسعود ، وأبىّ بن كعب ، وعمران ابن الحصين كانوا يفتون بإباحة هذا النوع من الزواج .

وقد بقيت مشكلة زواج المتعة مثاراً للخلاف حتى يومنا هذا لا بين الشيعة والسنة وحدهم ، بل بين بعض علماء السنة أنفسهم ، فمنهم من يقول : إن ما شرعه الرسول لايستطيع أن يبطله عمر ، خاصة وأنه كان معمولًا به فى أيام الرسول وأبى بكر وفترة من خلافه عمر ، ومنهم من يقول إن عمر لم يحرمها افتياتاً على رسول الله ولكن لما علمه من نسخها .

---

(٣٤) راجع كاشف الغطاء ١٢٩ ، ١٣٠ والمختصر النافع ٦٣ ، ٦٤ .

الشيء المهم أن الشيعة الإمامية متمسكون بزواج المتعة حتى اليوم ؛ ويقولون إنه قد ثبت بإجماع المسلمين أنه لا خلاف فى إباحة هذا النكاح فى عهد النبى بغير شبهة ثم ادعى تحريمها ونسخها بعد ذلك ، وقد ثبتت الإباحة بالإجماع ولم يثبت النسخ ، فعلى من ادعى الحظر والنسخ الدلالة .

وهم يرون أنه ضرورى للمسافر الذى يطول سفره ، ففيه عصمة له ، ولو أن المسلمين عملوا به على أصوله الصحيحة من العقد والعدة وحفظ النسل منها لانسدت بيوت الدعارة ، وأغلقت المواخير أبوابها ، ولكثرت المواليد الطاهرة ، واستراح الناس من اللقطاء . وقد وضعوا للمتعة نظاماً يحفظ للولد حقه ، وينسبه إلى والده ، إذ لا بد للمرأة بعد زواج المتعة من عدة ، غير أن عدتها حيضتان فلا يجوز لأحد أن يتمتع بامرأة تمتع بها غيره حتى تخرج من عدة ذلك الغير [٣٥] إلى غير ذلك من الشروط الأخرى فى فقه الشيعة .

هذه هى وجهة نظر الشيعة فى زواج المتعة ، ولكننا نعتقد أن الخلاف لن ينتهى فى هذه المسألة وسيظل مستمراً أبداً .

الطـــلاق :

وما دمنا قد تحدثنا عن الزواج من وجهة نظر الإمامية ، أو بعبارة أصح ما دمنا قد تحدثنا عن الزواج المؤقت ، فلا بأس من أن نعرض لنظام الطلاق عندهم ، فقد جعلوا للطلاق قيوداً كثيرة ، أهمها أن الطلاق لا يتم إلا فى حضور شاهدين عدلين ، وبغير شاهدين يكون الطلاق باطلا ، وهم فى ذلك يرون أن الطلاق المقيد بهذا الشكل فيه صون للأسرة ، ولعل الشهود العدول يحولون بين الزوجين والطلاق فيصلحون بينهما .

وترى الإمامية أيضاً أن الطلاق ثلاثاً مرة واحدة يعتبر طلقة واحدة ، ولا تحرم الزوجة على زوجها بل يجوز له مراجعتها ، وقيل بل الطلاق ثلاثا بلفظة واحدة لايقع لأنه غير مشروع ، أما إذا طلق ثم راجع ثلاث مرات فإن الزوجة تحرم فى هذه الحالة ولاتحل حتى تنكح زوجاً غيره ، وقد أخذ علماء الشريعة عند السنة

---

(٣٥) المختصر النافع ص ١٨١ وما بعدها وكاشف الغطاء ١٣٦ وما بعدها .

بهذه النظرة أخيرًا ، وجعلوا الطلقات الثلاث فى عبارة واحدة بمثابة طلقة واحدة[٣٦] .

التقيَّة :

التقية معناها المداراة ، وأكثر فرق الشيعة تقول بها ، كأن يحافظ الشخص على ماله وعرضه ودينه وعقيدته بالتظاهر باعتناق عقيدة لا يؤمن بها ولا يعترف بينه وبين نفسه بصحتها .

وإذن فالتقية أمر معترف به عند الشيعة ، بل إن بعض فقهاء السنة يقولون بها فى حالات الضرورة القصوى[٣٧] .

وقد كانت التقية سببا فى خروج كثير من الناس على أئمتهم من الشيعة ، لأن الإمام كان يبدى رأيا فى مسألة بعينها ثم لا يلبث أن يبدى رأيا يناقضه ، فإن سئل فى ذلك نسب الأمر إلى « التقية » .

يحكى النوبختى فى كتابة « فرق الشيعة » ، قصة رجل اسمه عمر بن رياح زعم أنه سأل محمدًا الباقر عن مسألة بعينها فأجابة بجواب عنها ، وفى عام آخر سأله عن نفس المسألة فأجابه إجابة مغايرة لإجابته الأولى ، فقال عمر لمحمد : هذا خلاف ما أجبتنى به فى العام الماضى ، فقال محمد : إن جوابنا ربما خرج على وجه التقية ، فلم يقتنع الرجل بهذه الإجابة ، وقابل رجلًا من أصحاب الباقر اسمه محمد بن قيس وقص عليه الأمر ، وأبان عن عدم اقتناعه بإجابة الإمام قائلا : علم الله أنى ما سألته عنها إلا وأنا صحيح العزم على التدين بما يفتينى به وقبوله والعمل به ، فلا وجه لاتقائه إياى وهذه حالى ، فقال ابن قيس : فلعله حضر من اتقاه ، فقال ما حضر مجلسه فى واحدة من المسألتين غيرى ، وإن جوابيه خرجا على وجه التبخيت ، ولم يحفظ ما أجاب به فى العام الماضى فيجيب بمثله ، وكانت النتيجة أن عدل الرجل عن الاعتراف بإمامة الباقر وقال : لا يكون إماماً من يفتى ثقته بغير ما يجب عند الله[٣٨] .

وهناك أمثلة كثيرة من هذا النوع تحمل فى معناها عدم الرضا والاقتناع بفكرة التقية ، خصوصاً أن الإمام لم يكن يناقض نفسه فى مسألة بعينها ، بل فى مسائل

---

(٣٦) المختصر النافع ص ١٩٨ .

(٣٧) أحمد أمين : فجر الإسلام ٢٧٤ الهامش .

(٣٨) فرق الشيعة ٥٢، ٥٣ .

كثيرة ، لأن الأسئلة لم تكن فى يوم واحد ، بل لم تكن قريبة العهد بعضها ببعض ، وإنما كان السؤال يطرح فى يوم بعينه فيجيب عنه الإمام إجابة بعينها ، ثم يطرح بعد ذلك بسنوات ويكون الإمام قد نسى إجابته الأولى التى سجلها البعض عليه ، فيجيب إجابة مغايرة مختلفة ، فيسأل الناس عن سبب الاختلاف فيجيب الإمام قائلا : إنما أجبنا بهذا للتقية ، ولنا أن نجيب بما أحببنا وكيف شئنا ، لأن ذلك إلينا ونحن نعلم بما يصلحكم وما فيه بقاؤنا وبقاؤكم(٣٩) .

ويؤكد آية الله الخمينى كبير علماء الشيعة وإمامهم فى هذا العصر أن التقية جزء من العقيدة غير منفصل عنها فيقول : إن كل من له أقل قدر من التعقل يدرك أن حكم التقية من أحكام الإله المؤكدة ، فقد جاء أن من لا تقية له لا دين له(٤٠) .

وليس من شك فى أن التقية وهذه حالها قد شككت الكثير من المؤمنين بالتشيع فى أئمتهم ، وكان ينتهى الأمر باستنكارها والخروج على الإمام والشك فيه وفى دعوته .

وقد كانت التقية أحد الموضوعات التى أهمت العلامة الشيعى المعتدل الدكتور موسى الموسوى فى كتابه التصحيح ، فأفرد لها فصلا طويلا أوضح فيه إنكاره لها ، وأنها لا تليق بالمسلم إلا فى حالة واحدة لخصها الإمام الجليل محمد الباقر فى كلمتين حين قال :

إنما حلت التقية ليحقن بها الدم ، فإذا بلغ الدم فليس تقية .

يقول الدكتور الموسوى : لقد أراد بعض علمائنا رحمهم الله أن يدافعوا عن التقية التى يتحدث عنها علماء الشيعة ، وأملتها بعض زعاماتها هى ليست بهذا المعنى إطلاقًا ، إنها تعنى أن تقول شيئاً وتضمر آخر ، وتقوم بعمل عبادى أمام سائر الفرق الإسلاميّة وأنت لا تعتقد به ، ثم تؤديه فى بيتك بالصورة التى تعتقد بها . ولقد نفى الدكتور الموسوى أن يكون أيّ من الأئمة قد عمل بها ، ابتداء من الإمام علىّ وانتهاء بالحسن العسكرى . ويقف وقفة متأنية عند الإمام الجليل جعفر

---

(٣٩) المصدر السابق ٥٦ .

(٤٠) كشف الأسرار صفحة ١٤٨ .

الصادق لينفى عنه هذه الظاهرة ، لأن أكثر فتاوى التقية نسبت إليه ، كما نسب إليه قوله بوجوبها ، فالإمام جعفر لم يقل بها ، ولم يكن فى حاجة إليها ، لأنه كان يدرس فى مسجد الرسول ﷺ وحوله آلاف من الطلاب والمستمعين ، فكيف يمكن لمدرسة فقهية بهذه السعة من كثرة الطلاب والتلاميذ أن تبنى على التقية ؟ وأية تقية استعملها الإمام فى بناء مدرسته الفقهية التى كان يضع أساسها أمام المسلمين بصورة علنية(٤١) .

ويقول الدكتور الموسوى إنه فى الوقت الذى أصبحت فيه الحرية الفكرية والكلامية بخيرها وشرها حقًا مقدساً ، يعيش المجتمع الشيعى بقيادة زعاماته مغلقاً على نفسه بالتقية ، يظهر شيئا ويبطن شيئا آخر ، فلا أعتقد ــ والكلام للدكتور الموسوى ــ أنه يوجد زعيم شيعى واحد فى شرق الأرض وغربها يستطيع أن يعلن رأيه فى كثير من البدع التى ألصقت بالمذهب الشيعى خوفاً ورهبة من الجماهير الشيعية التى دربتها تلك الزعامات على العمل بتلك البدع فأصبحت جزءًا من كيانها . ويضرب الدكتور الموسوى مثلا بالشهادة الثالثة « وهى أشهد أن عليًّا ولى الله » التى يتفق عليها علماء المذهب الشيعى بأنها بدعة لم تكن معروفة على عهد الرسول ﷺ وحتى عهد الإمام علي ، ومع ذلك فلا يجرؤ واحد منهم على أن يقرر أنها بدعة(٤٢) .

ويسوق الدكتور الموسوى أمثلة أخرى على التقية مستهدفاً استنكارها ، ثم يختم الفصل الذى كتبه عنها قائلا : إن على الشيعة أن تجعل نصب أعينها تلك القاعدة الأخلاقية التى فرضها الإسلام على المسلمين ، وهى أن المسلم لا يخادع ولا يداهن ولا يعمل إلا بالحق ، ولا يقول إلا الحق ولو كان على نفسه ، وليعلموا أيضاً أن ما نسبوه إلى الإمام الصادق من أنه قال : « التقية دينى ودين آبائى » إن هو إلا كذب وزور وبهتان ، نعود فنقرر أن أركان الإسلام خمسة جاءت على ترتيبها طبقاً للحديث الصحيح ، وهى شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وصوم رمضان ، وحج البيت لمن استطاع إليه سبيلا .

---

(٤١) الشيعة والتصحيح صفحة ٥٥ .

(٤٢) المصدر السابق صفحة ٥٧ .

وهى ـــ أى أركان الإسلام ـــ عند الشيعة تقدم فى صيغة أخرى ، وهى التوحيد والعدل والنبوة والإمامة والمعاد . وإذا كانت أركان أربعة قد أغفلت فى هذه الصيغة وهى الصلاة والزكاة وصوم رمضان والحج ، فإن ذلك لايعنى إنكارها ، ولكن الشىء الذى يدعو إلى الانتباه هو أنهم جعلوا الإمامة ركنا من أركان الإسلام ، ولهم فى ذلك كلام كثير سوف نعرض له بعد قليل ، كما أن لبعضهم ـــ أى بعض الشيعة ـــ رأيا مغايرًا سوف نقدمه أيضاً فيما يستقبل من صفحات .

تصور الشيعة للإمام والإمامة :

يعترف أئمة الشيعة ـــ وفى مقدمتهم آية الله الخمينى ـــ بأنه لم يرد نص فى القرآن الكريم بشأن الإمامة ، وإنما هى عقيدة فرضها العقل ، ويذهب اية الله الخمينى فى تعبيره مذهباً غالياً حيث يقول : « إن العقل ذلك المبعوث المقرب من لدن الله الذى يعد بالنسبة للإنسان كعين ساهرة لايستطيع أن يحكم بشىء ، إما أن يقول بأنه لاحاجة لوجود الله ورسوله وأن الأفضل أن يكون التصرف فى ضوء العقل ، أو أن يقول بأن الإمامة أمر مسلم به فى الإسلام ، أمر الله به نفسه ، سواء جاء ذلك فى القرآن أم لم يجىء »[٤٣] وهو كلام بالغ الغرابة ، خاصة تلك المعادلة التى قالها آية الله الخمينى بأنه إما أن توجد الإمامة وإما أنه لا حاجة إلى وجود الله ورسوله .

ويفرد آية الله الخمينى فى كتابه عنواناً كبيراً هذا نصه : لماذا لم يذكر القرآن اسم الإمام صراحة ؟ ثم يتولى بنفسه الإجابة عن السؤال على هذا النحو : « إنه كان من الخير أن ينزّل الله آية تؤكد كون على بن أبى طالب وأولاده أئمة من بعد النبى ، إذ أن ذلك كان كفيلًا بعدم ظهور أى خلاف حول هذه المسألة » وهو قول خطير ، لأن آية الله يوجه نقدًا إلى المولى عز وجلّ ، وهو ما نعيذ أى مسلم من التورط فيه ، على أن الرجل لا يلبث أن يناقض نفسه قائلا : إلا أننا على ثقة بأن الله حتى لو فعل ذلك ، فإن الخلافات لم تكن لتزول ، بل إن أمورًا مفسدة أخرى كانت ستقع حتماً . ويمضى آية الله الخمينى فى الحديث عن هذه (الأمور المفسدة) معرضاً بصحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم متهماً الخلفاء الراشدين بالتزوير وتزييف

(٤٣) كشف الأسرار تأليف آية الله الخمينى ترجمة الدكتور محمد البندارى ص ١٢٤ .

القرآن الكريم فيما لو كانت نزلت فيه آيات عن الإمامة قائلا : لو كانت مسألة الإمامة قد تمّ تثبيتها فى القرآن فإن أولئك الذين لايعنون بالإسلام والقرآن إلا لأغراض الدنيا والرئاسة كانوا سيتخذون من القرآن وسيلة لتنفيذ أغراضهم المشبوهة ، ويحذفون تلك الآيات من صفحاته ، ويسقطون القرآن من أنظار العالمين إلى الأبد ، ويلصقون العار — وإلى الأبد — بالمسلمين وبالقرآن ، ويثبتون على القرآن ذلك العيب الذى يأخذه المسلمون على كتب اليهود والنصارى .

وعن مقام الأئمة ومنزلتهم يقول آية الله الخمينى فى كتاب الحكومة الإسلامية : إن للإمام مقاماً محمودًا ودرجة سامية وخلافة تكوينية تخضع لولايتها وسيطرتها جميع ذرات هذا الكون . ثم يستطرد قائلًا : وإن من ضروريات مذهبنا أن لأئمتنا مقاما لايبلغه ملك مقرب ولانبى مرسل[٤٤] .

الغلوّ فى تقديس الأئمة :

هكذا غلا آية الله الخمينى فى تقديس الأئمة غلوًّا شديدًا طبقاً لما قرره فى السطور السابقة من كتابه « الحكومة الإسلامية » فقد فضلهم على جميع الملائكة وجميع الأنبياء والمرسلين بغير استثناء أو تحفظ ، غير أن ذلك الذى ذكره آية الله الخمينى لايعبر عن عقيدة خاصة به ، وإنما هو يردد ما يعتقده كثير من صفوة علماء الشيعة ، وعلى رأسهم الكلينى فى كتابه « الكافى » الذى يحتل عند الشيعة مكانة شبيهة بمكانة صحيح البخارى عند أهل السنة ، وإذا كان المقام هنا يضيق عن اقتباس نماذج مما ورد حول قداسة الأئمة فى ذلك الكتاب ، فإن عناوين بعض أبواب ذلك الكتاب تفى بالغرض فى هذا المقام ، فمن هذه العناوين نذكر : « باب الأئمة يعلمون جميع العلوم التى خرجت إلى الملائكة والأنبياء والرسل »[٤٥] « وباب « أنّ الأئمة يعلمون متى يموتون وأنهم لا يموتون إلا باختيارهم »[٤٦] وباب « أن الأئمة يعلمون علم ما كان وما يكون وأنه لا يخفى عليهم شىء » ([٤٧]) و باب « أنه لم

---

(٤٤) الحكومة الإسلامية صفحة ٥٤ .

(٤٥) الكافى صفحة ٢٥٥ .

(٤٦) الكافى صفحة ٢٥٨ .

(٤٧) الكافى صفحة ٢٦٠ .

يجمع القرآن كله إلا الأئمة وأنهم يعلمون علمه كله »[6] وباب « ما عند الأئمة من آيات الأنبياء »[7] وباب « أن الأئمة إذا ظهر أمرهم حكموا بحكم داود وآل داود ولا يسألون البينة »[8] .

وينقل آية الله الخمينى هذا الغلو عن « شرح الكافى » وهو : « عن محمد بن سنان قال : كنت عند أبى جعفر الثانى فأجريت حديثاً عن اختلاف الشيعة ، فقال : يامحمد ، إن الله تعالى لم يزل متفردًا بوحدانيته ، ثم خلق محمدًا وعلياً وفاطمة ، فمكثوا ألف دهر ، ثم خلق جميع الأشياء ، فأشهدهم خلقها وأجرى طاعتهم عليها ، وفوض أمورها إليهم ، فهم يحللون ما يشاءون ويحرمون بما يشاءون إلا أن يشاء الله تعالى»[9]

إن هذا الغلو قد أثار بعض علماء الشيعة المعاصرين فأنكروه إنكارًا شديدًا ، ورأوا أن هذا الغلو فى شأن الأئمة لا يرفع من قدرهم وإنما يسىء إليهم ، من هؤلاء العلماء العلامة الفقيه الشيعى الإيرانى الدكتور موسى الموسوى الذى يرد على هذا الغلو بقوله[10] إن بعض علمائنا قالوا إن الإمام يعلم كل شىء ، وله معرفة بكل العلوم والفنون ، ويستطرد الدكتور الموسوى قائلا : ولست أدرى ما هى الفضيلة بالنسبة للإمام أن يكون مهندساً أو ميكانيكياً أو عالماً باللغة اليابانية ، إنما الفضيلة بالنسبة للإمام أن يكون فقيهاً ورعاً وعالماً ربانياً فى شئون الدين ، وفى هذا كل الفضل ، ثم إذا كان القرآن الكريم يقول فى الرسول الذى أرسله الله للناس ضياءً ونورًا فى مقام نفى علم الغيب عنه : « قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعاً وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللهُ ، وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ ، وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ ، إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ »[11] فكيف تسوغ لنا نفوسنا أن ننسب إلى أئمتنا صفات تعلو على صفات رسول الله ﷺ .. إنه بمحمد ختمت الرسالة

(٦) الكافى صفحة ٢٢٨ .

(٧) الكافى صفحة ٢٣١ .

(٨) الكافى صفحة ٣٩٧ .

(٩) كشف الأسرار صفحة ٩٢ وهو الحديث الخامس من كتاب « مرآة العقول » فى شرح « الكافى » صفحة ٣٥٤ .

(١٠) الشيعة والتصحيح صفحة ٨٢ وما بعدها .

(١١) الأعراف الآية ١٨٨ .

وختمت المعجزات وأكمل الدين وأتمت النعمة وجاء قول الله صريحا وجليًّا : « الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلَامَ دِيناً »(١٢) .

ويمضى الدكتور موسى الموسوى على نهجه فى مؤاخذة فقهاء المذهب ومراجعه قائلًا : إن المؤسف حقًا هو أن الغلو النظرى مثل العملى ، دخل إلى أعماق القلوب عن طريق فقهاء المذهب والمجتهدين ، فالمسئولية الأولى والأخيرة تقع على عاتقهم ، لأنهم هم الذين قادوا العوام على الطريق ، فهناك أمور نسبتها كتب الشيعة إلى الأئمة ، وتبناها فقهاء المذهب ، وذكرتها كتب الروايات الموثوقة عندهم مثل : أصول الكافى ، والوافى ، والاستبصار ، ومن لا يحضره الفقيه ، ووسائل الشيعة ، وغيرها من أهم الكتب والمصادر الشيعية ، وفى كثير منها الغلو ، وفى كثير منها الحط من قدر الأئمة ولكن بصورة غير مباشرة .

ويتحرز الدكتور الموسوى قليلًا فى شأن قلة من العلماء اتخذوا موقفاً منصفاً ، لكنه لا يلبث أن يقرر أن الأكثرية منهم ساروا على درب الغلو من ألفه إلى يائه ، ثم يذكر أهم موضوعات الغلو التى اعتمدها علماء الشيعة واعتقدوها فى الأئمة وهى : العصمة ، والعلم اللدنّى ، والإلهام ، والمعاجز ، والإخبار بالغيب ، والكرامات والمعجزات ، وتقبيل الأضرحة وطلب الحاجات(١٣) .

الرجعة :

إن هذا الموضوع ـــ موضوع الرجعة ـــ هو من المعتقدات الأساسية فى المذهب الشيعى ، ومفاده أن الأئمة الاثنى عشر سيعودون إلى الدنيا فى آخر الزمان الواحد بعد الآخر ، لكى يحكموا الدنيا تعويضاً لهم عن حرمانهم من حقهم فى الحكم الذى حرموا إياه إبان حياتهم ، ويكون أول إمام يرجع إلى الدنيا هو الإمام الثانى عشر محمد بن الحسن العسكرى الذى يمهد الأمر لآبائه وأجداده فيتولون الحكم من بعده واحدًا بعد الآخر حسب التسلسل الزمنى لهم ، فيحكم الواحد منهم فترة من الزمن ثم يموت مرة أخرى ليتولى بعده الحكم من يليه فى

(١٢) المائدة الآية ٣ .

(١٣) الشيعة والتصحيح صفحة ٨٣، ٨٤ .

الترتيب ، وهكذا حتى الإمام الحادى عشر الحسن العسكرى وتقوم القيامة بعد ذلك .

ولقد نسبت روايات كثيرة فى هذا الأمر إلى كل من الإمامين الجليلين محمد الباقر وولده جعفر الصادق ، منها على سبيل المثال : قال أبو عبد الله — يعنى سيدنا جعفرا – ينادى باسم القائم – أى الإمام محمد الثانى عشر – فى ليلة ثلاث وعشرين ، ويقوم يوم عاشوراء ، لكأنى به فى اليوم العاشر من المحرم قائماً بين الركن والمقام ، جبريل عن يمينه ينادى : البيعة لله ، فتسير إليه الشيعة من أطراف الأرض تطوى لهم طيًّا حتى يبايعوه ، وقد جاء فى الأثر أنه يسير من مكة حتى يأتى الكوفة ، فينزل على نجفنا ، ثم يفرق الجنود منها فى الأمصار .

وروى الحجال عن ثعلبة عن أبى بكر الحضرمى عن سيدنا محمد الباقر قال : كأنى بالقائم عليه السلام على نجف الكوفة ، وسار إليها من مكة فى خمسة آلاف من الملائكة ، جبريل عن يمينه وميكائيل عن شماله ، والمؤمنون بين يديه وهو يفرق الجنود فى البلاد .

وروى عبد الكريم الجعفى قال : قلت لأبى عبد الله (يعنى سيدنا جعفرًا) كم يملك القائم عليه السلام ؟ قال : سبع سنين تطول حتى تكون السنة من سنيه مقدار عشر سنين من سنيكم ، فتكون سنو ملكه سبعين سنة من سنيكم هذه .

وروى عبد الله بن المغيرة عن أبى عبد الله (يعنى سيدنا جعفرًا الصادق) عليه السلام قال : إذا قام القائم من آل محمد أقام خمسمائة من قريش فضرب أعناقهم ، ثم خمسمائة أخرى حتى يفعل ذلك ست مرات . قلت — يعنى ابن المغيرة — ويبلغ عدد هؤلاء هذا ؟ قال جعفر الصادق : نعم ، منهم ومن مواليهم[١٤] .

إن الشىء الذى يدعو إلى التوقف طويلًا والتأمل كثيرًا هو أن هذه الروايات منسوبة إلى إمامين عظيمين جليلين من أئمة بيت النبوة لم يعرف عنهما شىء من هذا العنف فى التفكير أو التعبير ، هما محمد الباقر وولده جعفر الصادق ، الأمر الذى أثار ثائرة بعض علماء الشيعة أنفسهم ، وفى مقدمتهم الدكتور موسى الموسوى فى كتابه « الشيعة والتصحيح » الذى مرّ ذكره .

---

(١٤) كتاب الإرشاد فى تاريخ حجج الله على العباد لأبى عبد الله محمد بن محمد بن النعمان المشهور بالشيخ المفيد صفحات ٣٩٨ — ٤٠٢ طبعة حجر — إيران .

يقول العلامة الدكتور الموسوى : إن مؤلفى هذه الكتب لم يكتفوا من القول برجعة أئمة الشيعة فحسب ، بل أضافوا عليها أفكارًا أخرى ، وكلها مستوحاة من تلك الروايات الموضوعة ، وقالوا إن الرجعة لا تشمل أئمة الشيعة وحدهم ، بل تشمل غيرهم ، وذكر أسماء نفر غير قليل من صحابة رسول الله ﷺ زعم الشيعة أنهم من أعداء الأئمة ، وأنهم منعوهم من الوصول إلى حقهم فى الحكم ، كل هذا حتى يتسنى للأئمة الانتقام منهم فى هذه الدنيا .

ويستطرد الدكتور الموسوى قائلا : ولو أن الذين كانوا وراء فكرة الرجعة مخلصين لأئمة الشيعة لما صوروهم بهذا المظهر الراغب فى الحكم ، حتى إن الله سيعيدهم إلى هذه الدنيا الفانية مرة أخرى ليحكموا فيها بعض الوقت ، وهم أئمة لهم جنة عرضها كعرض السموٰات والأرض أعدت للمتقين ، والإمام على نفسه يقول : والله إن دنياكم هذه لأهون عندى من ورقة فى فم جرادة تقضمها .

ويمضى العلامة الموسوى فى النكير على فكرة الرجعة قائلا : وهذه البدعة تختلف عن البدع الأخرى التى أضيفت إلى الأفكار الشيعية حيث لم يترتب عليها تنظيم سياسى عملى أو اجتماعى أو اقتصادى ، اللهم إلا شىء واحد قد يكون هو السبب فى اختلاق فكرة الرجعة ، وهو استكمال العداء وتمزيق الصف الإسلامى بمثل هذه الخزعبلات التى دونت وقيلت فى انتقام الأئمة من صحابة رسول الله ﷺ(١٥) .

هل الإمام الثانى عشر شخصية حقيقية :

إنه مما يجعل من قضية رجعة الأئمة إلى الحياة قضية تستدعى الأناة والمراجعة هو ذلك الكلام الكثير الذى يجرى حول ما إذا كان الإمام محمد الثانى عشر شخصية حقيقية أم أنها شخصية وهمية ، ذلك أن الإمام الثانى عشر هو أول الأئمة رجوعاً إلى الدنيا ، يخرج من السرداب الذى اختفى فيه فى مدينة سامرا ليحكم المسلمين وينشر العدل فى أرجاء الأرض ، ويمهد لآبائه وأجداده الأحد عشر لكى يرجعوا أو يبعثوا من جديد ، يتولى كل واحد منهم بالتسلسل حكم المسلمين على النحو الذى ذكرناه قبل قليل ، فإذا ما كان هذا الإمام شخصية وهمية انهارت قضية الرجعة من أولها إلى آخرها .

---

(١٥) الشيعة والتصحيح صفحة ١٤٢ ، ١٤٣ .

إن الحقيقة الراجحة عند جمهرة المؤرخين المسلمين أن الإمام الحسن العسكرى ــ الإمام الحادى عشر ــ قد مات عن غير ولد ، أى أنه لم ينجب ، وقام أخوه جعفر بتصفية تركته على أنه لا ولد له ، إذ أن للعلويين سجلّ مواليد يقوم عليه نقيب بحيث لا يولد لهم مولود إلا سجل فيه ، وهذا السجل لم يسجل فيه للحسن العسكرى ولد ، ويشيع بين كثير من العلويين المعاصرين أن الحسن العسكرى مات عقيماً ، فإذا صحت هذه الأخبار يكون المعنى أن شخصية الإمام الثانى عشر شخصية غير حقيقية وإنما اخترعها من اخترعوا غيرها من الموضوعات الشيعية التى ينكرها كثير من كبار عقلاء علماء الشيعة ، فإذا ما كان الأمر على هذا النحو من الحقيقة انهارت عقيدة الرجعة من أولها إلى آخرها .

زيارة قبور الأئمة ثوابها الجنة !!!

يعتقد الشيعة بأن من يزور قبور أئمتهم أو يسهم فى بنائها ينال ألواناً من الثواب لانهاية لها ولاآخر ، إن هؤلاء الزوار مشمولون بشفاعة الرسول صلى الله عليه وسلم ، وإن الزائر يصيبه ثواب سبعين حجة غير حجة الإسلام وتمحى خطاياه .

إن آية الله الخمينى يورد فى كتابه « كشف الأسرار » هذه الرواية منسوبة إلى الإمام جعفر وهذا نصها[١٦] .

« ينقل الشيخ الطوسى عن أبى عامر قوله : إننى ذهبت إلى الصادق ــ يعنى الإمام جعفرًا ــ وسألته : ما هو أجر من يزور أمير المؤمنين ويبنى قبره ؟ فرد على سؤالى قائلا : يا أبا عامر ، لقد روى أبى عن جده الحسين بن على بأن الرسول قال لأبى : إنك ستنتقل إلى العراق وتدفن فى أرضه . فقال : يارسول الله ، وما هو أجر من يزور قبورنا ويقيمها ويجدد العهد معها ؟ فقال : يا أبا الحسن ، إن الله جعل قبرك وقبور أولادك بقعة من بقاع الجنة وصحناً من صحونها ، وإن الله أدخل فى قلوب المختارين من خلقه حبكم ، وجعلهم يتحملون الأذى والذل من أجلكم ، ويقومون بإعادة بناء قبوركم ، ويأتون لزيارتكم تقرباً إلى الله وزلفى إلى رسوله ، وهؤلاء مشمولون بشفاعتى يا علىّ ... إن من يبنى قبوركم ويأتى إلى زيارتها يكون كمن شارك

---

(١٦) كشف الأسرار صفحة ٨ .

سليمان بن داود فى بناء القدس ، ومن يزور قبوركم يصيبه ثواب سبعين حجة غير حجة الإسلام وتمحى خطاياه ويصبح كمن ولدته أمه توًّا . إننى أبشرك بذلك ، وبشر أنت محبيك بهذه النعمة التى لم ترها عين ، ولم تسمع بها أذن ، ولم تطرأ على بال أحد . ألا إن هناك توافه من الناس يلومون زائرى قبوركم كما يلومون المرأة الزانية . إن هؤلاء هم أشرار أمتى ، والله لايشملهم بشفاعتى » .

ومن زيارة قبور الأئمة وبنائها ينتقل آية الله الخمينى إلى الحديث عن تربة كربلاء حيث قبر الإمام الحسين رضى الله عنه ، إن طلب الشفاء منها أمر لا حرمة فيه ولاحرج ، ويرى أن لها خاصية ليست لأحد حتى قبر النبى نفسه . يقول آية الله الخمينى فى كتابه « تحرير الوسيلة » : « إن هذه التربة ـــ أى تربة كربلاء ـــ تخرق الحجب السبع ، وترتفع على الأرضين السبع ، وهذه الخاصية ليست لأحد حتى قبر النبى صلى الله علية وسلم »[١٧] والشيء نفسه يذكره الخمينى عن التربة الحيدرية أو أرض النجف .

ومن العادات المعروفة أن الشيعة يقيمون مجالس للعزاء فى شهر المحرم من كل عام ، وأن آية الله الخمينى لايحب أن يترك هذه العادة حتى يجعل لها أصولا دينية وغايات مذهبية ، ولا بأس عنده فى أن ينال من صحابة رسول الله فى سياق حديثه عن هذا الموضوع .

يقول آية الله الخمينى « إن مجالس العزاء تقام لدى الشيعة فى كل مكان ، ومع ما فى هذه المجالس من نقص إلا أنها تروج تعاليم الدين وأخلاقياته ، وتشيع الفضيلة ومكارم الأخلاق والدين الإلهى ، والقانون السماوى المتمثل بالمذهب الشيعى المقدس الذى يدين به أتباع علىّ عليه السلام » .

ويمضى آية الله الخمينى فى التحدث عن فضل مجالس العزاء ، ولكنه فى سياق حديثه لا يلبث أن يعرض بأهل السنة ويطلق عليهم أصحاب المذاهب الباطلة التى وضعت لبناتها فى سقيفة بنى ساعدة قائلا : « ولولا ذلك ـــ يعنى لولا مجالس العزاء ـــ لكان الشيعة فى عزلة تامة ، ولولا هذه المؤسسات الدينية الكبرى ـــ يعنى نفس المجالس ـــ لما كان هناك الآن أى أثر للدين الحقيقى المتمثل فى المذهب

---

(١٧) تحرير الوسيلة الجزء الأول صفحة ١٤١ .

الشيعى ، وكانت المذاهب الباطلة التى وضعت لبناتها فى سقيفة بنى ساعدة وهدفها اجتثاث جذور الدين الحقيقى تحتل الآن مواضع الحق »[١٨] .

« وعندما رأى رب العالمين أن مغامرى صدر الإسلام قد زعزعوا بنيان الدين دُفع بعدد من أعوان الحسين بن على الباقين لكى يعملوا على توعية الناس ويقيموا مجالس العزاء » .

وأما عن الزيارة فيقرر آية الله الخمينى « أن ثواب الزيارة أو إقامة التعزية تعادل ثواب ألف نبى أو شهيد » .

تحريف المصحف :

هناك إجماع من المسلمين والمشتغلين بالعلوم الإسلامية من غير المسلمين أن الكتاب السماوى الوحيد الذى سلم من التحريف والتبديل والزيادة والحذف هو القرآن الكريم ، ونحن المسلمين نلتزم بهذا الاعتقاد ونقتنع به اقتناع عقل وعقيدة ، فالله سبحانه قد أخذ على نفسه عهدًا بالمحافظة عليه فى قوله تعالى « إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ » .

غير أن المتابع لفكر جمهرة من علماء الشيعة يرى غير ذلك ، ويقرأ شيئاً عجباً فى كتبهم ، والذين لم يقولوا بتحريفه من هؤلاء قالوا بإمكان حدوث ذلك ، إن آية الله الخمينى فى سياق الحديث عن حكمة عدم النص فى القرآن الكريم على أن الإمامة وظيفة إلهية ، وفى مسيرة حملته على صحابة رسول الله ﷺ يقول فى فقرة سبق أن أوردناها : « لو كانت مسألة الإمامة قد تم تثبيتها فى القرآن ، فإن أولئك الذين لا يعنون بالإسلام والقرآن إلا لأغراض الدنيا والرئاسة كانوا سيتخذون من القرآن وسيلة لتنفيذ أغراضهم المشبوهة ، ويحذفون تلك الآيات من صفحاته ويسقطون القرآن من أنظار العالمين إلى الأبد »[١٩] .

وفى موضع آخر من كتاب « كشف الأسرار » فى أمر يتصل أيضاً بالإمامة يصوغ آية الله الخمينى فكرته فى أسلوب يوحى إيحاءً مباشرًا بأن القرآن من صنع

---

(١٨) كشف الأسرار صفحة ١٩٢ ، ١٩٣ .

(١٩) كشف الأسرار صفحة ١٣٠ .

محمد ، وما دام الأمر كذلك ، ومحمد بشر ، فإنه من الممكن أن يتعرض القرآن للتحريف . يقول آية الله الخمينى ما نصه : « إن النبى أحجم عن التطرق إلى الإمامة فى القرآن لخشية أن يصاب القرآن من بعده بالتحريف أو تشتد الخلافات بين المسلمين فيؤثر ذلك على الإسلام »(٢٠) .

إن آية الله الخمينى يقول بترجيح تحريف القرآن بسبب النص على أن الإمامة وظيفة إلهية كالنبوة ، ويوحى فى موقع آخر بأن القرآن من صنع النبى ، وهما بادرتان لهما خطرهما ، لأنهما صادرتان من أكبر مرجع دينى شيعى فى هذين العقدين من الزمان ، ويبقى أن نتساءل بعد ذلك : هل لما قاله آية الله الخمينى جذور فى أصول المذهب ؟ إن الدراسة والمتابعة تشيران إلى الإجابة بالإيجاب ، ذلك أن الكلينى يذكر فى كتابة « الكافى » وقد سلف أن ذكرنا بأن هذا الكتاب عند الشيعة بمنزلة البخارى عند أهل السنة ــ أن جابراً الجعفى قال : « سمعت أبا جعفر عليه السلام ــ يعنى الإمام الباقر ــ يقول : ما ادعى أحد من الناس أنه جمع القرآن كله كما أنزل إلا كذاب ، وما جمعه وحفظه كما أنزل إلا على ابن أبى طالب والصحابة من بعده »(٢١) .

ومن الأخبار المعتمدة عن جابر الجعفى هذا أنه كان كذاباً ، وحين تحدث الإمام أبو حنيفة النعمان وهو الإمام الأعظم وأحد تلاميذ الإمام جعفر ، وصاحب الحوار المشهور فى شأن القياس مع الإمام محمد الباقر ، نقول إن الإمام أبا حنيفة حين تحدث عن الصدق والكذب عند الرواة قال : ما رأيت فيمن رأيت أفضل من عطاء ، ولا أكذب من جابر الجعفى .

إن منطق الأخبار يكذب جابرًا ، وبالتالى يكذب رواية الكلينى عنه فيما عزاه إلى سيدنا محمد الباقر ، بدليل أن سيدنا علياً كرم الله وجهه لم يكن يعمل فى مدة خلافته وهو بالكوفة إلا بمصحف سيدنا عثمان الذى هو بين أيدينا الآن ، ولو كان عند سيدنا على مصحف غيره ــ وهو خليفة حاكم ــ لعمل به ، ولأمر المسلمين بالعمل به وتعميمه ، ولو كان عنده مصحف غيره وكتمه عن المسلمين لكان خائناً لله ولرسوله وللمؤمنين ، وحاشا أن يكون سيدنا على كذلك . هذا هو رد

---

(٢٠) المصدر السابق صفحة ١٤٩

(٢١) الكافى صفحة ٢٢٨ طبعة سنة ١٣٨١ هـ .

أهل السنة على فرية جابر فى حديثة إلى الكلينى ، وفى كذب كليهما على سيدنا محمد الباقر .

هذا ما كان من أمر كذب الكلينى على سيدنا محمد الباقر . بقى أن نذكر كذبة أكبر وأخطر اقترفها الكلينى فى حق سيدنا جعفر وسيدتنا الطاهرة البتول فاطمة الزهراء بنت سيد الخلق والبشر . يزعم الكلينى أن سيدنا جعفرًا الصادق قال لأبى بصير : « وإن عندنا لمصحف فاطمة عليها السلام ، قال : وما مصحف فاطمة ؟ قال الإمام : مصحف فيه مثل قرآنكم هذا ثلاث مرات ، والله ما فيه من قرآنكم حرف واحد »(٢٢) .

ويلح بعض علماء الشيعة إلحاحاً شديدًا على ما تصوروه من تحريف القرآن الكريم . إن واحدا من كبار علماء النجف فى نهاية القرن الثالث عشر وبداية القرن الرابع عشر ، هو الحاج ميرزا حسين بن محمد تقى النورى الطبرسى ألف كتاباً سنة ١٢٩٢ هـ أسماه « فصل الخطاب فى إثبات تحريف كتاب رب الأرباب » ، ملأه بالأكاذيب حول زيادات زعمها أضيفت إلى القرآن ، وآيات حذفت منه ، ولما واجهه علماء الشيعة بالنقد والاعتراض عاد فألف كتاباً آخر يرد فيه على اعتراضاتهم وأسماه « رد بعض الشبهات عن فصل الخطاب فى إثبات تحريف كتاب رب الأرباب » .

وقد ضم الكتاب بعض الزيادات من تلفيق المؤلف نفسه ، فصنع سورة أسماها سورة ولاية على ، ونسبها إلى الله سبحانه يقول فيها : يا أيها الذين آمنوا بالنبى والولى اللذين بعثناهما يهديانكم إلى الصراط المستقيم .. الخ .

إننا لا نحب الإطالة فى هذا الموضوع إجلالا لكتاب الله الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، ولكن الأمر الذى لا شك فيه أن فريقاً من الشيعة يعتقد بألتحريف فى القرآن الكريم بالزيادة والنقصان ، كقولهم إن آية « وجعلنا علياً صهرك » قد أسقطت من سورة « الشرح » مع أن السورة مكية ولم يكن علىّ قد أصهر إلى الرسول بعد ، كما أن البعض يزعم أن هناك قرآنين لا قرآناً واحدًا ، وهى مزاعم ينكرها كثير من عقلاء الشيعة وعلمائهم ، وفى مقدمة

---

(٢٢) المصدر السابق صفحة ٢٣٨ .

هؤلاء جميعا العلامة الدكتور الموسوى الذى يقول : إن كل ما قيل وذكر فى الكتب الشيعية عن مصحف الإمام على ليس أكثر من إضفاء هالة من الغلو على شخصية الإمام علىّ ، حسب زعم الذين كانوا وراء وضع هذه الأساطير ، وإثبات أن الإمام عليًّا أحق بخلافة الرسول من غيره ، ولكنهم فى الحقيقة أساءوا إلى الإمام ، فأعلنوا أنه يخفى أحكاماً إلهية فيها حدوده وحلاله وحرامه وكل ما تحتاج إليه الأمة إلى يوم القيامة . ويمضى الدكتور الموسوى قائلا : إن بعض علماء الشيعة تحدث فى كتبه عن مصحف فاطمة مضافاً إلى مصحف على ، ويعقب الدكتور الموسوى بأن موقفه من هذا الرأى هو الرأى نفسه فى مصحف علىّ (٢٣) .

شتم الصحابة :

من الأمور التى تدعو كثيراً إلى الحزن والأسى ما درج عليه بعض علماء الشيعة وكبارهم من شتم صحابة رسول الله وسبهم بأقذع النعوت ، وفى مقدمتهم أبو بكر وعمر وعثمان وأمهات المؤمنين عائشة وحفصة .

إن آية الله المامقانى يصف أبا بكر الصديق بالجبت ، ويصف الفاروق عمر بالطاغوت (٢٤) وهذه الألفاظ من الشتم والسبّ لكل من الصديق والفاروق يرددها بعض الشيعة الإمامية فى دعاء لهم يسمى دعاء صنمى قريش ، وهذا الدعاء مسطور فى كتاب « مفتاح الجنان » الذى هو عندهم بمنزلة كتاب دلائل الخيرات عند عامة المسلمين ، ومنه قولهم : « اللهم صلّ على محمد وعلى آل محمد والعن صنمى قريش وجبتيهما وطاغوتيهما وابنتيهما .. (٢٥) .

إن الابنتين المقصودتين اللتين يلعنهما الدعاء سالف الذكر هما بطبيعة الحال أم المؤمنين عائشة وأم المؤمنين حفصة .

---

(٢٣) الشيعة والتصحيح صفحة ١٣٤ ــ ١٣٦ .

(٢٤) تنقيح المقال فى أحوال الرجال لآية الله المامقانى ٢٠٧/١ المطبعة المرتضوية بالنجف ١٣٥٣ هـ .

(٢٥) مفتاح الجنان صفحة ١١٤

وآية الله الخمينى ـــ كبير مراجع الشيعة وعلمائها ـــ ليس بعيدًا عن هذا الاتجاه المؤسف ، ففى مجال حديثه عن الإمامة يقول : والنبى إن لم يقل شيئا بشأن مسألة ذات صلة ببقاء أسس الدعوة والنبوة وثبات دعائم التوحيد والعدالة وترك الدين والمبادئ الإلهية لعبة فى أيدى حفنة من القراصنة الوقحين ، فإنه سيكون هدفا لاعتراض علماء العالم وانتقادهم ، وسوف لا يعترف بنبوته وعدله(٢٦) .

إن آية الله الخمينى يصف صحابة رسول الله بأنهم قراصنة وقحون ، بل إنه بهذه الصيغة من التعبير يتجاوز صحابة رسول الله إلى رسول الله نفسه بالإساءة والتخلى عن أدب الخطاب .

يمضى آية الله الخمينى فى إطار أسلوب يتسم بالعنف الشديد فيقول : إننا لا نعبد إلها يقيم بناءً شامخاً للعبادة والعدالة والتدين ، ثم يقوم بهدمه بنفسه ويجلس معاوية وعثمان وسواهم من العتاة فى مواقع الإمارة على الناس ، ولا يقوم بتقرير مصير الأمة بعد وفاة نبيه(٢٧) .

إن هذا العنف فى مخاطبة رب العزة ، وفى وصف معاوية وذى النورين عثمان صهر الرسول بكونهما من العتاة غنى عن التعليق .

وفى زحام حملة آية الله الخمينى على الراشدين الأولين أبى بكر وعمر يقول : إننا هنا لا شأن لنا بالشيخين وما قاما به من مخالفات للقرآن ، ومن تلاعب بأحكام الإله ، وما حللاه وحرماه من عندهما ، وما مارساه من ظلم ضد فاطمة ابنة النبى ﷺ وضد أولاده ، ولكننا نشير إلى جهلهما بأحكام الإله والدين .

إننا نعترف بأن هذا التجاوز الشديد فى سبّ صحابة رسول الله لا يصدر عن جميع الشيعة وإنما عن قلة منهم ، ومن بين هذه القلة كبير علمائهم فى هذا الزمان ، إننا نعرف أن الشيخ حسين كاشف الغطاء والشيخ محمد جواد مغنية والسيد موسى الصدر وغيرهم من علماء الشيعة المعاصرين قد نزهوا فكرهم وأقلامهم عن التردى فيما تردى فيه غيرهم من سب صحابة رسول الله ﷺ . وفى ذلك يقول الدكتور موسى الموسوى : إن الاختلاف فى الرأى بين الشيعة

---

(٢٦) كشف الأسرار صفحة ١٢٣ .

(٢٧) المصدر السابق صفحة ١٢٣ ، ١٢٤

والسنة اتخذ طابعاً حادًّا وعنيفاً عندما بدأت الشيعة تجرح الخلفاء الراشدين وبعض أمهات المؤمنين بعبارات قاسية وعنيفة لا تليق بأن تصدر من مسلم فى حق مسلم ، ناهيك أن تصدر من فرقة إسلامية نحو صحابة الرسول وأزواجه اللاتى لقَبهن الله بأمهات المؤمنين(٢٨) .

سيدنا علىّ والخلافة :

لم يؤثر عن الإمام على كرم الله وجهه أنه ذهب إلى تقديس الخلافة أو أنه جعل الإمامة ركنا من أركان العقيدة ، ولكن الذى أثر عنه ـــ طبقا للمصادر الإسلامية من شيعية وغير شيعية ـــ أنه كان زاهدًا فيها غير حريص عليها ، هذا فضلا عن حبه للخلفاء الراشدين الذين سبقوه ، ومودته لهم ، وإصهاره إليهم ، ورثائه إياهم عندما توفوا إلى رحمة الله .

يروى ابن أبى الحديد هذا القول للإمام علىّ فى الخلافة : « دعونى والتمسوا غيرى فإنا مستقبلون أمرًا له وجوه وألوان ، وأعلموا أنى إن أجبتكم ركبت بكم ما أعلم ، ولم أصغ إلى قول القائل وعتب العاتب ، وإن تركتمونى فأنا كأحدكم ، ولَعَلّى أَسْمَعُكُمْ وأَطْيَعُكُمْ لمن وليتموه أمركم ، وأنا لكم وزيرًا خير لكم منى أميرًا »(٢٩) .

وفى كلمات أخرى يرويها ابن أبى الحديد عن سيدنا علىّ قوله : « والله ما كانت لى فى الخلافة رغبة ، ولا فى الولاية إربة ، ولكنكم دعوتمونى إليها وحملتمونى عليها ، فلما أَفْضَتْ إلىّ ، نظرت إلى كتاب الله وما وضع لنا وما أمرنا بالحكم به فاتبعته ، وما استسنّ النبى ﷺ وعلى آله فاقتديته »(٣٠) .

وهكذا تحمل سيدنا على أمانة الخلافة استجابة لطلب المسلمين ، ولم يخطر بباله أنها منصب إلهى أو ركن من أركان العقيدة الإسلامية . إن الدكتور الشيعى المجتهد موسى الموسوى يرى أن عليا أولى بالخلافة ـــ وليس بالإمامة على الصورة التى رسمها الشيعة المتأخرون زماناً ـــ ولكن المسلمين بايعوا الخلفاء الراشدين ، وعلىّ

---

(٢٨) الشيعة والتصحيح صفحة ١٠ .

(٢٩) نهج البلاغة ١ / ١٨٢ .

(٣٠) المصدر السابق ١٨٤/٢ .

بايعهم ، ثم بايع المسلمون علياً بعد عثمان ، فلا غبار على شرعية خلافة الخلفاء الراشدين من أبى بكر إلى علىّ(٣١) .

ويمضى المجتهد الإيرانى الشيعى الدكتور موسى الموسوى فى القول بأن الإمام علياً كان يؤكد على شرعية بيعة الخلفاء الراشدين قائلا : ومرة أخرى نقول : إن هناك فرقاً كبيرًا بين أن يعتقد الإمام علىّ والذين كانوا معه أنه أولى بخلافة رسول الله من غيره ولكن المسلمين اختاروا غيره ، وبين أن يعتقد أن الخلافة حقه الإلهى ولكنها اغتصبت منه ، ثم يقول : والآن فلتستمع إلى الإمام على وهو يحدثنا عن هذا الأمر بكل وضوح وصراحة ، ويؤكد شرعية انتخاب الخلفاء ، وعدم وجود نص سماوى فى أمر الخلافة ، ويردد قولا للإمام — ذكره ابن أبى الحديد — وهو « إنه بايعنى القوم الذين بايعوا أبا بكر وعمر وعثمان ، على ما بايعوهم عليه ، فلم يكن للشاهد أن يختار ، ولا للغائب أن يرد ، وإنما الشورى للمهاجرين والأنصار ، فإن اجتمعوا على رجل وسموه إماماً كان ذلك لله رضى ، فإن خرج من أمرهم خارج بطعن أو بدعة ردّوه إلى ما خرج منه ، فإن أبى قاتلوه على اتباعه غير سبيل المؤمنين »(٣٢) ، وفى موضع آخر من كتابه « التصحيح » يعود الدكتور المجتهد الشيعى موسى الموسوى ليؤكد على شرعية الخلفاء الراشدين وبيعة الإمام علىّ لهم قائلا : إذا كانت الخلافة بنصّ سماوى ، وكان هذا النص فى علىّ ، هل كان بإمكان الإمام أن يغضَّ النظر عن هذا النص ويبايع الخلفاء ويرضخ لأمر لم يكن من حقهم ؟(٣٣) .

رأى الإمام علىّ فى الخلفاء الراشدين :

كان الإمام على شديد الحب للخلفاء الراشدين ، كثير التعاون معهم فى دراسة مشاكل المسلمين ، وتحمل مسؤلية الحكم إبان أسفارهم ، وكانوا يندبونه إلى ذلك ، ولعل أبلغ ما يمكن أن يصور مكانة أبى بكر فى قلب الإمام علىّ ، هى خطبة الإمام حين وقف على بابه يخاطبه يوم وفاته قائلا : « رحمك الله يا أبا بكر ، كنت أول القوم إسلاماً ، وأخلصهم إيماناً ، وأشدهم يقيناً ، وأعظمهم غناءً ، وأحفظهم على

(٣١) الشيعة والتصحيح صفحة ١٤ .

(٣٢) الشيعة والتصحيح صفحة ١٩ ، ٢٠

(٣٣) المصدر السابق صفحة ٣٥ .

رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأنسبهم برسول الله خلقاً وفضلًا وهْدياً وسمتاً ، فجزاك الله عن الإسلام وعن رسول الله وعن المسلمين خيرًا . صدّقت رسول الله حين كذبه الناس ، وواسيته حين بخلوا ، وقمت معه حين قعدوا ، وأسماك الله فى كتابه صديقاً ، والذى جاء بالصدق وصدق به أولئك هم المتقون ، يريد محمدًا ويريدك . وكنت والله للإسلام حصناً وعلى الكافرين عذاباً ، لم تقلل حجتك ، ولم تضعف بصيرتك ، ولم تجبن نفسك . وكنت كالجبل الذى لا تحرّكه العواصف ، كنت كما قال رسول الله ضعيفاً فى بدنك ، قويًّا فى أمر الله ، متواضعًا فى نفسك ، عظيمًا عند الله ، جليلًا فى الأرض ، كبيرًا عند المؤمنين ، ولم يكن لأحد عندك مطمع ، ولا لأحد عندك هوادة ، فالقوى عندك ضعيف حتى تأخذ الحق منه ، والضعيف عندك قوى حتى تأخذ الحق له ، فلا حرمنا الله أجرك ولا أضلنا بعدك » .

هذا هو رثاء أمير المؤمنين علىّ لأمير المؤمنين أبى بكر ، أو بالأحرى هذا رأيه فيه ، وتلك دمعة سكبها لفراقه ، أفمثل هذا الذى رثاه سيدنا علىّ بهذه المعانى يمكن لأتباع سيدنا على أن يرموه بالكفر والردة ، وأن يصفوه بالجبت والطاغوت ؟ والرأى نفسه قاله أمير المؤمنين علىّ فى عمر وعثمان ، وهو كلام جميل كله صدق وأدب ، وهو كلام موثق لاكذب فيه ولاتلفيق .

إن المجتهد الدكتور الموسوى يستعرض الكثير من هذه المواقف ويردّدها ثم يقول : لايجوز تجريح الخلفاء وذمهم بالكلام البذىء الذى نجده فى أكثر كتب الشيعة ، الكلام الذى يغاير كل الموازين الإسلامية والأخلاقية ، ويناقض كلام الإمام علىّ ومدحه وتمجيده فى حقهم ، ويجب على الشيعة أن تحترم الخلفاء الراشدين ، وتقدر منزلتهم من الرسول ، فالنبى صاهر أبابكر وعمر ، وعثمان صاهر النبى مرتين ، وعمر ابن الخطاب صاهر عليًّا وتزوج من ابنته أم كلثوم .

ويستطرد المجتهد الشيعى الجليل قائلا : ولا أطلب من الشيعة فى هذه الدعوة التصحيحية أن تقول وتعتقد فى الخلفاء الثلاثة الذين سبقوا الإمام عليًّا أكثر مما قاله الإمام فى حقهم ، فلو التزمت الشيعة بعمل الإمام علىّ لانتهى الخلاف وساد الأمة الإسلامية سلام فكرى عميق فيه ضمان الوحدة الإسلامية الكبرى(٣٤) .

---

(٣٤) الشيعة والتصحيح صفحة ٤٧ ، ٤٨ .

هذا كلام عالم شيعى مجتهد جليل ، يشاركه رأيه فى هذا الموضوع كثير من علماء الشيعة وأعيانهم المعاصرين الذين تربطنا بكثير منهم روابط أخوة إسلامية ومودة قلبية وأواصر متينة من الود والمحبة .

وإذا كان العالم المجتهد الدكتور الموسوى قد فصل الأمر فى علاقات الحب والاحترام المتبادل بين الإمام على والخلفاء الراشدين السابقين عليه ، فإننا نضيف إلى قوله ان الإمام عليًّا لشدة تعلقه بالخلفاء الراشدين الثلاثة الذين سبقوه قد سمى ثلاثة من أبنائه بأسمائهم ، فلقد سمى أحد أولاده أبا بكر ، وسمى ولدًا ثانياً عمر ، وسمى ولدا ثالثاً عثمان ، وهذه قرينة كبرى على حب سيدنا علىّ لإخوانه الراشدين صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم .

الإمامة كمنصب إلهى قضية اخترعت فى زمن متأخر :

هذا العنوان الجانبى الطويل ليس من عندى ، فإنه من الوضوح بمكان أننى لم اشترك فى هذا الموضوع وغيره من موضوعات المذاهب الإسلامية كطرف مباشر ، ولكننى استنطق الوثائق والأحداث والأشخاص ، وقد حرصت فى هذا الباب أن يكون الحوار فى شئون المذهب بين الشيعة وبين أنفسهم .

إن العالم المجتهد موسى الموسوى يلغى مبدأ أن الإمامة منصب دينى سماوى إلغاءً تاماً ويقول ما نصه : « فحتى فى أوائل القرن الرابع الهجرى ، وهو عصر الغيبة الكبرى ، لانجد أى أثر لفكرة اغتصاب الخلافة من الإمام علىّ ، أو أنها حق إلٰهى اغتصب منه ، أو أن صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم اشتركوا أو ساهموا فى هذا الأمر ، وهكذا تغيرت فكرة الأولوية بخلافة على إلى فكرة الخلافة الإلهية ومخالفة النص الإلهى »[٣٥] .

(٣٥) الشيعة والتصحيح صفحة ٣٨ .

وتبعاً لذلك يستطرد المجتهد الشيعى الدكتور الموسوى قائلا : إذا كانت الإمامة إلهية كما تذهب الشيعة وأنها فى أولاد علىّ حتى الإمام الثانى عشر ، لعيّن الإمام على ابنه الحسن خليفة وإماما من بعده ، وهو ما لم يحدث ، فقد اتفق الرواة والمؤرخون على أن الإمام عندما كان على فراش الموت بعد أن ضربه ابن ملجم المرادى بالسيف المسموم وسئل عن الشخص الذى يستخلفه قال : أترككم كما ترككم رسول الله صلى الله عليه وسلم . وبعد وفاة الإمام اجتمع المسلمون واختاروا ابنه الحسن وبايعوه خليفة على المسلمين ، ولكن الإمام الحسن صالح معاوية وتنازل له عن الخلافة ، فهل يا ترى لو كانت الخلافة منصبا إلهيًا هل كان يستطيع الإمام الحسن أن يتنازل عنه بذريعة حقن دماء المسلمين (٣٦) .

ويستشهد الدكتور الموسوى بمواقف لأئمة آخرين مرموقين كعلى بن الحسين ، ومحمد الباقر ، وجعفر الصادق فيقول : إننا لم نجد فى أقوال الإمام على بن الحسين الملقب بالسجّاد أية عبارة تدل على كون الخلافة إلهية ، وبعد السجاد يأتى دور الإمام محمد الباقر ، والذى فى عهده بدأ يتبلور مذهب أهل البيت الفقهى ، الذى أكمله ابنه الإمام جعفر الصادق ، فنحن — والكلام للدكتور الموسوى — لانجد أثرًا لفكرة الخلافة الإلهية فى عهدهما ، ولا فى عهد أئمة الشيعة الأخرى حتى الغيبة الكبرى (٣٧) .

هكذا ينفى بعض علماء الشيعة الكبار المبدأ الذى اخترعه فريق من الشيعة ، وهو القول بأن الإمامة منصب إلهى ، وأنها إحدى دعائم الإسلام ، هذه القضية التى فرقت شمل المسلمين ، وبددت جهودهم ، وجعلتهم فرقاً متنافرة متحاربة ، بعد أن كانوا إخوة متحابين ، أشداء على الكفار رحماء بينهم .

---

(٣٦) المصدر السابق صفحة ٤٤ ، ٤٥ .

(٣٧) المصدر السابق صفحة ٤٥ .

شعر الشيعة :

ولقد كان لدعوة الشيعة وتقوى أئمتهم وصلاحهم وانتسابهم إلى بيت النبوة وما حل بهم من اضطهاد وما وقع عليهم من ضيم ، وما أنزل بهم من ظلم ومطاردة وقتل هم وذراريهم ونسائهم ، كان لكل ذلك صدى عاطفى جارف فى نفوس أكثر المسلمين وفى عواطف أكثر الشعراء على فترات متتالية متطاولة من الزمان . وكل ألوان الشعر التى قيلت فيهم مشحونة بالعواطف متسمة بالحزن والأسى ذارفة الدمع جياشة بالبكاء .

ولعل أول شاعر اختص بآل البيت دون غيره من الشعراء هو الكُميت الأسدى الذى وقف شعره عليهم ، حتى خصص لهم قصائد بعينها تعرف «بالهاشميات» نسبة إلى بنى هاشم ، أى آل بيت النبوة ، وفى مقدمة شعره فى آل البيت قصيدته الجميلة :

طربتُ وما شوقاً إلى البِيض أطربُ
ولا لعباً منِّى وذو الشيْب يلعبُ
ولم يُلهِنى دارٌ ولا رسمُ منزلٍ
ولم يتطرَّبْنــى بنــان مخضَّبُ

إلى أن يقول :

إلى النَّفر البِيضِ الذين بحُبِّهم
إلى الله فيمـا نابنـى أتقـرَّبُ
بنى هاشمٍ رهطِ النبىّ فإننـى
بهم ولهمْ أرضى مِراراً وأغضبُ
خفضت لهم منِّى جناحىْ مودة
إلى كنف عِطْفاه أهلٌ ومرحبُ
وكنت لهم من هؤلاء وهؤلا
مِجَنًّا على أنى أُذَمّ وأغضبُ

وأرْمَى وأرْمِى بالعداوة أهلها
وإنى لأُوذَى فيهم وأؤنبُ

وإذا كان الكميت يتحمس لآل البيت فى قصيدته السالفة الذكر فإن أيمن بن خُرَيْم الأسدى يبكى من أجلهم حين يقول :

نهاركُم مكابدةٌ وصوم — وليلكُمُ صلاةٌ واقتراءُ
ولِيتم بالقُران وبالتزكِّى — فأسرع فيكُم ذاك البلاءُ
بكى نجدٌ غداةَ غدٍ عليكم — ومكةُ والمدينةُ والجِواءُ
وحُقَّ لكل أرضٍ فارقوها — عليكم ــ لا أبا لكُم ــ البكاءُ
أأجعلُكم وأقواماً سواءً — وبينكُمُ وبينهمُ الهواءُ
وهُمْ أرضٌ لأرجلِكُم وأنتمْ — لأرؤُسِهم وأعْيُنِهم سماءُ

ومن الشعراء الذين غلوْا فى تحمسهم للشيعة دِعْبِل الخُزاعى الذى أخذ على الرشيد سوء معاملته لنسل علىٍّ ، فطورد ، فعاش مشردا يقول : أنا أحمل خشبتى على كتفى منذ خمسين عاما ولا أجد من يصلبنى عليها . ومن أجمل ما قال فى التشيع لآل البيت تائيته المشهورة الجميلة التى يقول فيها :

مدارسُ آياتٍ خلتْ من تلاوة
ومنزلُ وحيٍ مقفر العرصاتِ

لآلِ رسولِ الله بالخَيْف من منى
وبالركنِ والتعريفِ والجمرات

ألم تر أنّى من ثلاثين حجَّة
أروحُ وأغدو دائمَ الحسراتِ

أرى فيْئَهم فى غيرهم متقسّماً
وأيديهمُ مِنْ فيئهم صَفِراتِ

فآلُ رسولِ الله نُحْفٌ جسومُهُمْ
وآلُ زيادٍ حُفَّلُ القصراتِ

بناتُ زيادٍ فى القصور مصونةٌ
وآلُ رسول الله فى الفلواتِ

ودعبل — على عهد العباسيين — كالكميت على عهد الأمويين ، إلا أن دعبلًا كان أكثر تفانيا وفداء ، لأنه ما لانت له قناة أمام الاضطهاد والوعيد ، بعكس الكميت الذى ما إن رأى ظلال الحتف تتبدى أمام ناظريه حتى سارع إلى مدح الملك الأموى بقصيدته المشهورة التى مطلعها :

فالآن صِرْتُ إلى أُمَيَّـــــــــــة والأُمُـــــورُ لها مَصَائِـــــــــرْ

وإن كان ادعى أمام محمد الباقر أنه قالها تقية ، وأنه مازال على عهده لآل البيت ، كل ذلك بعكس دعبل الذى كان يستنفر المسلمين ويستنهضهم للأخذ بثأر الحسين على بعد الشقة الزمنية بينه وبين وقت مقتل الحسين فى قوله :

رأس ابن بنت محمدٍ ووصيِّه
يا للرجال على قناة تُرفَعُ !!
والمسلمــون بمنظــرٍ وبمسمــع
لا جازعٌ مِنْ ذا ولا مُتَخَشِّعُ
أيقظتَ أجفانا وكنتَ لها كرى
وأنمتَ عيناً لم تكنْ بك تهجعُ

لقد سار الشعر فى ركب التشيع خطوات بعيدة المدى ، وأصبح أكثر الشعراء من المتشيعين — خصوصا أعلامهم — من أمثال : الصوبرى وكشاجم والسرىّ الرفاء والزاهى والناشى الأصغر والخالديين والخباز البلدى وأبى فراس وغيرهم ، ولئن كان هؤلاء الشعراء قد بكوا مصائب آل البيت وسكبوا المدامع من أجل مصائبهم ، فإنهم ما لبثوا بعد ذلك أن عمدوا إلى الجدل فى مواجهة خصوم الشيعة وأعدائها ، معددين فضائل آل البيت ، ذاكرين الحجج التى تجعل الإمامة فيهم ، وفى مقدمة هذه القصائد جميعا ميمية أبى فراس التى مطلعها :

الديــنُ مختــرمٌ والحق مهــــتضَمٌ　　وَفَـــيْءُ آلِ رسول الله مُقْـــتَسمُ

وفيها يهاجم بنى العباس هجوماً شديدا ويعطف على بلوى آل البيت فيقول :

يا للرجـــال أمـــا لله منـــتصِفٌ　　من الطغاةِ ؟ أما للدين منتقِـمُ ؟
« بنو علــى» رعايــا فى ديارهــم　　والأمــرُ تملكــه النسوانُ والخدمُ
فالأرضُ إلَّا على مُلَّاكهــا سعـــةٌ　　والمالُ إلَّا على أربابــه ديــمُ
لا يُطْغِيَنَّ بنــى العبــاس ملكُهــمُ　　بنــو عَلــيٍّ مواليهم وإن زعمــوا
أتفخــرون عليهم ــ لاأَبَالكــم ــ　　حتــى كأَن رسولَ الله جدكُــم
ومــا توازن فيمــا بينكــم شرفٌ　　ولا تساوتْ بكــم فى موطــن قدمُ
ولا لكُــمْ مثلهــم فى الجدّ متصل　　ولا لجدِّكُــمُ معشارُ جدِّهــمُ

ويجرى أبو فراس موازنة بين ما فعل كل من بنى العباس وبنى أمية بآل البيت وما أوقعوه عليهم من أذى فيقول :

ما نال منهم بنو حربٍ وإن عَظمتْ　　تلك الجرائــرُ إلَّا دونَ نَيْلِكُــمُ
كم غدرةٍ لكُمُ فى الديــنِ واضحــةٍ　　وكم دمٍ لرسولِ الله عندكُــمُ
أأنتــمُ آلُــهُ فيمــا تروْن وفى　　أظفــاركم من بنيــه الطاهريــن دمُ

ويبلغ أبو فراس مبلغا شديداً من الهجوم على بنى العباس حين يقول ماضياً فى موازنته :

خلُّوا الفخار لعلَّامين إن سُئلوا
يومَ السؤال وعمَّالين إن عَملوا
لا يغضبون لغيرِ الله إن غَضِبُوا
ولا يضيعون حكم الله إن حَكَمُوا
تبدو التلاوةُ من أبياتهم أبداَ
ومن بيوتِكُمُ الأوتارُ والنغمُ

منكم عُلَيّةُ أم منهم ؟ وكان لكم
شيخُ المغنين إبراهيم أم لهمُ ؟

إذا تلوْا سورةً غنّى إمامكم
(قف بالديار التى لم يَعْفِها القِدَم)

ما فى ديارهم للخمر معتصرٌ
ولا بيوتهمُ للسُّوء معتصمُ

الركنُ والبيتُ والأستارُ منزلهم
وزمزمٌ والصفا والحجرُ والحرمُ

وقد عمد أبو فراس إلى محاجة العباسيين في هذه القصيدة وفي غيرها لأن العباسيين كانوا يقولون بأنهم أولى بالخلافة لأنهم بنو العم . وأما الشيعة فبنو البنت . وفي رأي آخر أن العم وهو العباس أولى من ابن العم ، وهو عليّ ، فمن ذلك قول مروان بن أبي حفصة :

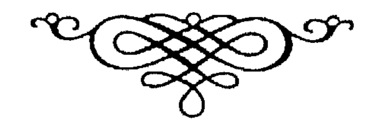
يا بن الذي ورِث النبيَّ محمدا دون الأقاربِ من ذوِي الأرحامِ
الوحيُ بين بني البناتِ وبينكم قطعَ الخصام فلاتَ حينَ خصامِ
أنىَّ يكونُ وليس ذاك بكائن لبنِي البناتِ وراثةُ الأعمامِ

ويوحي العباسيون إلى شاعر آخر من شعراء البرامكة هو أبان بن عبد الحميد فيقول في هذا المعنى :

نشدتُ بحق الله من كان مسلماً أعُمُّ بما قلتُه العُجْمَ والعربْ
أعَمُّ رسول الله أقرب زلفةً لديه أم ابن العم في رتبة النسبْ
وأيهما أولى به وبعهده ومن ذا له حق التراث بما وجبْ
فإن كان عباسٌ أحقَّ بتلكمُ وكان عليٌّ بعد ذاك على سببْ
فأبناءُ عباسٍ هُمُ يرثونه كما العمُّ لابن العمِّ في الإرث قد حجبْ

وهكذا كان التشيع ـــ برغم هذه الخصومات ـــ منبعا للخصب في عالم الأدب ، وإن كانت الأبيات الماضية تقوم على المغالطة لأن الأنبياء لا يورثون ،

ولعل الذين قالوا بأن فكرة التشيع فكرة سياسية أكثر منها دينية يجدون من هذه المساجلات الشعرية ــ وما أكثرها ــ ما يؤيد وجهة نظرهم ، ومن قال بأنها مسألة عاطفية أيضا يجد من معركة شعر التشيع ما يؤيد نظره أيضا ، ومن قال بأنها مسألة من صلب الدين وجوهر العقيدة فسوف يجد أيضا ، ما يؤيد رأيه ويدعم دعواه .





الـــزيـــديـــة

هم كما يبدو من تسميتهم أصحاب زيد بن علي زين العابدين بن الحسين بن علي ، وهم أكثر تسامحا من غيرهم من الشيعة في الإمامة والبعد عن مهاجمة أبي بكر وعمر ، بل إنهم يقولون بصحة خلافتيهما وإن كان علي بن أبي طالب أفضل منهما ، ولهم في ذلك رأي يقولون به ، وهو الاعتراف بالإمام المفضول مع وجود الأفضل .

ولعل هذه الفرقة بما آل إليها من حكم وما كافحت من أجله فبذلت الدماء الزكية لتعبر تعبيرا صادقا عن الاتجاه السياسي في التشيع والسعي إلى تسنم دست الحكم ، وليس الحكم والسعي إليه إلا السياسة بعينها .

لقد كان زيد بن علي أول علوي يقاوم بني أمية بالسلاح ويسعى إلى هدم ملكهم والاستيلاء على كرسي إمارة المؤمنين ، وإذا كان التوفيق جانبه واستشهد في خروجه ، فإنه قد رسم لأصحابه هذا الطريق ، فلم يلبثوا أن ساروا على الدرب وكونوا خلافة تجمع بين السلطتين الدينية والزمنية ، ومازال امتدادها قائما حتى اليوم في بلاد اليمن (١).

---

(١) انتهى حكم الأئمة في اليمن سنة ١٩٦٢ أي بعد صدور الطبعة الأولى من هذا الكتاب بأكثر من عام .

وقصة خروج زيد على الأمويين ومحاربتهم لا تخلو من عظات ومن تأمل فهي شبيهة إلى حد كبير بقصة جده الحسين ابتداء ونهاية.

كان زيد مرافقاً للملك الأموي هشام في الرصافة إذ جاء إلى هشام خطاب من عامله على الكوفة يطلب فيه إنفاذ زيد إلى الكوفة لأمر يتعلق بدين عليه لخالد بن عبد الله القسري ، فتوجس زيد من هذا الاستدعاء ، وكان يعلم خشونة عامل الكوفة فضلا عن كونه غير مدين لأحد ، وكان عامل الكوفة يوسف بن عمر بن محمد بن الحكم يقيم بعض الوقت بالحيرة فاتجه زيد إليه هناك ، ولم يثبت على زيد دين ، ثم اتجه زيد بعد ذلك إلى الكوفة فالتف الناس حوله وجعلوا يدفعونه إلى الخروج على الخلافة الأموية ، ولكنه لبث يتعلل لهم وحاول ترك البلدة فألحوا عليه وقالوا : أين تخرج عنا ــ رحمك الله ــ ومعك مائة ألف سيف من أهل الكوفة والبصرة وخراسان يضربون بني أمية بها دونك !!

وكان يرافق زيدا في هذه الرحلة رجل عاقل أريب هو محمد بن عمر بن علي ابن أبي طالب ، فحذره من هذه الوعود وتلك الحماسة التى قد تتبدّد في وقت الجد وقال له : اذكرك الله يا أبا الحسين لما لحقت بأهلك ولا تقبل قول أحد من هؤلاء الذين يدعونك ، فإنهم لا يفون لك ، أليسوا أصحاب جدك الحسين بن علي[٢] ؟ ولكنه أبى أن يرجع وكأنما أراد التاريخ أن يعيد نفسه في سرعة ، فبعد أن أقام زيد بالكوفة بضعة عشر شهرا يدعو لنفسه ويلتف حوله الناس خرج هو وأنصاره يخوضون غمار الحرب ، وكانت معارك عديدة خاض غمارها زيد وأصحابه ببسالة بين مضاربات جماعية ومبارزات فردية . ولكن أهل الكوفة تقاعسوا ولزموا المسجد أول الأمر ، فحاول فرسان زيد إخراجهم من حصارهم ولكنهم لم يستجيبوا حتى إن زيدا التفت إلى أحد أنصاره قائلا : يا نصر بن خزيمة : أتخاف أهل الكوفة أن يكونوا فعلوها حسينية ؟ فأجاب نصر : جعلني الله فداك ، أما أنا فوالله لأضربن بسيفي هذا معك حتى أموت . وقد كان الموت بعد قليل من نصيب نصر .

---

(٢) مقاتل الطالبيين ١٣٥ وما بعدها .

وكانت آخر حلقات المعارك حين التقى زيد في خمسمائة فارس مع جيش الأمويين الذي ناهز عدده اثني عشر ألفا ، وكاد النصر يتم لزيد ورجاله الخمسمائة إلا أن سهما أصابه في جبهته اليسرى فجيء له بطبيب اسمه سفيان وما إن رأى الطبيب السهم مغروسا في جبهة زيد حتى قال له : إنك إن نزعته من رأسك مت ، فقال الموت أيسر عليّ مما أنا فيه ، فما أن انتزع السهم حتى مات لساعته ، فحاول أصحابه دفنه في مكان أمين بعيد عن عيون أعدائه ، ولكن أعداءه توصلوا إلى القبر في اليوم التالي ونبشوه واحتزوا رأسه وصلبوا الجسد في الكوفة بمكان يقال له الكناسة ، وأرسل رأسه إلى دمشق وكان ذلك سنة ١٢٢ هـ .

هكذا تبدو قصة زيد من ناحية سوء الحظ مماثلة أكبر المماثلة لقصة الحسين من جميع الملابسات ، فالمكان الذي خرج منه كلاهما هو الكوفة وكلاهما خرج متورطا ، وأهل الكوفة في الحالين هم المتقاعسون عن خوض الحرب .

لقد كان زيد شهيد السياسة والعقيدة معا ، ولعل السياسة هنا في المقام الأول ، فلم يكن في نيته الخروج على الإطلاق ، ولكن الكوفيين هم الذين أغروه بالسلطان فامتثل لهم ، وكان يتحلى في نفس الوقت بالأخلاق الكريمة والعلم الغزير والطلعة البهية والمهابة الظاهرة . ولذلك حزن عليه جمع من الناس كبير ، وجرت قصته على ألسنة الشيعة في الأجيال التالية لعصره كما جرت قصة الحسين من حيث البكاء والحزن والأسى ، ومن قصائد البكاء التي فيلت فيه ما أنشده فضل بن العباس بن عبد الرحمن :

ألا يا عينُ لا ترقَيْ وجودي ... بدمعك ليس ذا حينَ الجمودِ
غداةَ ابن النبي أبو حسين ... صليبٌ بالكُناسةِ فوق عودِ
يظلُّ على عمودهمُ ويُمْسي ... بنفسي أعظمٌ فوق العمودِ
تعدّى الكافرُ الجبارُ فيه ... فأخرجه من القبر اللحيدِ
فظلوا ينبشون أبا حسين ... خضيباً بينهم بدم جسيدِ

فطـــال به تلـــعبهم عتـــوًّا　　وما قدروا على الروح الصعيـد
وجـاور في الجنـانِ بنـي أبيـــه　　وأجـداداً همُ خيـرُ الجدودِ (٣)

كان زيد إذن رأس فرقة الزيدية كما أن أخاه محمدا الباقر أحد أئمة الاثنا عشرية ، وكلّ من الأخوين ـــ غير الشقيقين ـــ فاضل عالم . فكما سمي محمد بباقر العلم ، كان زيد مثالا للتقى والورع والعلم حتى يقال إن أبا حنيفة النعمان قد درس عليه ، ومن الأخبار التى تروي عنه أنه خرج ذات ليلة إلى المقابر وبصحبته رجل يقال له أبو قرة ، فقال : يا أبا قرة أتدري أين نحن ؟ نحن في روضة من رياض الجنة ، نحن عند قبر أمير المؤمنين علي ، ثم قال : يا أبا قرة : والذي يعلم ما تحت وريد زيد بن علي ، إن زيد بن علي لم يهتك محرما منذ عرف يمينه من شماله ، يا أبا قرة : من أطاع الله أطاعه ما خلق .

وكان زيد يفزع من فُرقة المسلمين ويتمنى لو التأم شملهم وتجمع شتاتهم . ويحكى أنه خرج ذات ليلة مع رجل اسمه مسلم بن بابك إلى مكة فلما كان منتصف الليل واستوت الثريا ، قال : يا بابكي ، أما ترى هذه الثريا ، أترى أحدا ينالها ، قال : لا ، قال زيد : والله لوددت أن يدي ملصقة بها فأقع على الأرض أو حيث أقع ، فأتقطع قطعة قطعة ، وأن الله أصلح بين أمة محمد صلى الله عليه وسلم .

ولكن زيدا مع ذلك كله كان ينوي الخروج والحرب ، فإما إلى سيادة وعزة له ولآل البيت ، وإما إلى موت واستشهاد ، وقد أثر أن بعض زائريه دخل يزوره في بيته بالمدينة في أحد مواسم الحج فوجده يتمثل بأبيات لعمرو بن براقة الهمْداني حيث يقول :

ومَـنْ يطلـبِ المالَ الممنَّــعَ بالقنـــا　　يَعِش ماجــداً أو تخترمْـــه المخارِمُ
متى تجمـع القلـب الذكـيَّ وصارمـاً　　وأنفــاً حمِيــاً تجتنـبْك المظالـــمُ
وكـــــنتُ إذا قوم غزوْني غزوتهم　　فهل أنـا في ذا يالَ همْـدان ظالـمُ (٤)

---

(٣) مقاتل الطالبيين ص ١٤٩ .

(٤) المصدر السابق ص ١٣٢ .

هذه الأحلام التي كانت تراود زيدا لم تتحقق له بطبيعة الحال ، فقد مرت علينا ظروف قتله ، وكان يخوض المعارك معه ولده يحيى الذي تمكن من الفرار إلى خراسان ، ولكن سيوف الأمويين طاردته فقتل سنة ١٢٥ هـ أي بعد والده بسنوات ثلاث ، ويذهب كثير من المؤرخين إلى أن نسل زيد قد انقرض ، وأن من يدعون أنهم من سلالته ليسوا إلا سلالة إخوة يحيى غير الأشقاء(٥) .

ومع ذلك فقد تمكن «الزيدية» بالمثابرة والجد من تكوين دولة في أرض الديلم في جنوب بحر الخزر سنة ٢٥٠ هـ أسسها أحد الزيدية واسمه الحسن بن زيد ، ثم أقاموا دولة ثانية في اليمن بعد ذلك بفترة من الزمن أقامها الهادي إلى الحق يحيى بن الحسين من ولد القاسم الرسي حفيد إبراهيم بن عبد الله بن الحسن بن علي بن أبي طالب ، ومازال للزيدية دولة إلى يومنا هذا ، وهي كما ذكرنا دولة اليمن الشقيق(٦)

عقيدة الزيدية :

لعل تولي رجل مثل القاسم الرسي للإمامة في اليمن يدفعنا إلى التساؤل عن كيف تم له الاعتراف بالإمامة مع أنه من نسل الحسن وزيد من نسل الحسين ، أو بمعنى آخر هل يجوز تولي الإمامة في الشريعة الزيدية لمن ليسوا من نسل زيد ؟ والإجابة عن ذلك بنعم ، فقد جوزوا الإمامة في كل أولاد فاطمة بشروط لا بد من توفرها في الإمام منها : العلم ، والزهد ، والشجاعة ، والسخاء ، سواء أكان جده الحسن أم الحسين ، يضاف إلى ذلك القدرة على القتال ، وأن يكون سليم الحواس الخمس ، والإمامة عندهم ليست بالنص ، أي أنه لا ينص على الإمام ، بل كل من توفرت فيه الشروط السابقة جازت إمامته ، ومعنى ذلك أن الإمامة عندهم ليست بالوراثة وإنما بالبيعة ، وهذا يقتضي نظاما يخالف نظام الاثنا عشرية . فضلا عن أنهم يجيزون وجود أكثر من إمام في وقت واحد في قطرين مختلفين .

---

(٥) دائرة المعارف الإسلامية مادة زيد بن علي زين العابدين .

(٦) قبل ظهور هذه الطبعة بعد سنوات وبعد ظهور الطبعة الأولى بعام وبعض عام انتهت الدولة الزيدية في اليمن وحلت محلها حكومة جمهورية .

ومذهب الزيدية يميل إلى الاعتزال ، وهو في نفس الوقت من أقرب مذاهب الشيعة إلى أهل السنة ، وقد كان زيد نفسه تلميذا لواصل بن عطاء رأس المعتزلة . ومن هنا كان تأثره بمذهبه واضحا كل الوضوح ، ولقد وضح الاعتزال عند أعيان الزيدية من الحكام والأدباء ، كأبي الفضل بن العميد والصاحب بن عباد وبعض أمراء بني بويه .

هذا والزيدية تقول بالإمام المفضول مع وجود الأفضل ، بمعنى أنه لا يشترط في الإمام أن يكون أفضل الناس جميعاً ، بل من الممكن أن يكون هناك إمام للمسلمين على جانب من الفضل مع وجود من هو أفضل منه وأحق منه بالإمامة ، ولذلك قالوا : كان علي بن أبي طالب أفضل الصحابة إلا أن الخلافة فوضت إلى أبي بكر لمصلحة رأوها وقاعدة دينية راعوها ، من تسكين ثائرة الفتنة وتطييب قلوب العامة إلى غير ذلك من الأسباب ، فكانت المصلحة أن يكون القائم بالأمر ممن عرفوا باللين والتؤدة والتقدم في السن والسبق في الإسلام والقرب من رسول الله .

فلما كان أبو بكر في مرض الوفاة رأى تقليد الأمر لعمر فضج الناس قائلين : لقد وليت علينا فظا غليظا فما كانوا يرضون بأمير المؤمنين عمر لشدته وصلابته حتى سكنهم أبو بكر قائلا : لو سألني ربي لقلت ، وليت عليهم خيرهم لهم[٧]

تلك هي فلسفة زيد في شأن أبي بكر وعمر ، وهي فلسفة معتدلة ، لا هي أقرب إلى الإسراف ولا هي أدنى إلى الجمود ، بل قصد واعتدال بين الأطراف الإسلامية المختلفة . وانتهى زيد إلى القول بجواز أن يكون المفضول إماما وأن يكون الأفضل قائما فيرجع إليه في الأحكام ، فلما سمعت شيعة الكوفة هذه المقالة وعرفوا أنه لا يتبرأ من الشيخين رفضوه فسموا رافضة .

وإذن فالزيدية ــ ونقصد المعتدلين منهم ــ لا يهاجمون الخلفاء الراشدين ، وقد انقسمت الزيدية بعد زيد إلى فرق ثلاث جنحت إلى الغلو ، وخالفت رأي

---

(٧) الملل والنحل ١٣٨/١ .

الإمام زيد في الشيخين وفي غير ، ذلك من بعض المسائل الأخرى ، وهذه الفرق هي : الجارودية أصحاب أبي الجارود زياد بن أبي زياد ، والسليمانية أصحاب سليمان بن جرير ، والصالحية والبترية وهم أصحاب الحسن بن صالح وكثير النوى الأبتر ، وكل فرقة من هذه الفرق تميل في بعض الأحكام إلى الاعتدال وتجنح في بعضها الآخر إلى الشطط ، وكل واحدة تتفق مع زميلتها في القليل وتختلف في الكثير .

غير أن الذي يدعو إلى الطمأنينة هو أن هذه الفرق الزيدية لم تعد لها مكانة ظاهرة عند الزيدية المعاصرة ، فالزيدية اليمنية المعاصرة تسير على نهج الإمام زيد من حيث القصد والاعتدال وأخذ الأمور مأخذ السماحة ، اللهم إلا إذا استثنينا بعض الشيوخ في صنعاء وصعدة .

فعقيدة الزيدية ــ وقد مرت صلة زيد بواصل بن عطاء ــ تميل إلى الاعتزال فيما يتعلق بذات الله والجبر والاختيار ، وأن صانع الكبيرة مخلد في النار ما لم يتب توبة نصوحا ، وهم أيضا يرفضون التصوف رفضا باتا ، ولذلك لا نكاد نلمس للتصوف أثراً فى المجتمع الزيدي اليمني ، بعكس ما نراه في المجتمع السني في دول إفريقية الإسلامية أو في الأقاليم الشامية وتركيا .

والزيدية تشارك الفرق الشيعية الأخرى في جواز التقية وزكاة الخمس ، ولكنها تخالف الإمامية في زواج المتعة ، فالزيدية تستنكر هذا اللون من الزواج وتحرمه ، لأن التوقيت للزواج من الأمور التي تبطله ، وهم يقولون بثبوته في صدر الإسلام ثم نسخه ، ويستشهدون على ذلك برواية سلمة بن الأكوع حينما قال : رخص رسول الله عام أوطاس(٨) في المتعة ثلاثة أيام ثم نهى عنه . (٩)

فإذا ما كان الأمر متعلقا بنطاق الزواج المشروع وجدناهم يقولون بأن القرشي ليس كفئا للفاطمية ، وأن العربي من غير قريش ليس كفئا للقرشية إلا إذا رضيت ورضي ذووها جميعا .

---

(٨) أوطاس واد في ديار هوازن كانت فيه غزوة بعد الفتح .

(٩) التاج المذهب لأحكام المذهب ٢٨/٢ ، ٢٩ .

والزيدية تختلف عن السنة في شئون العبادات حينا وتتفق حينا آخر ، وهو امر ليس من الخطورة بمكان ، فالخلافات الفقهية بين الزيدية أنفسهم كثيرة ، بل إن بعض الزيدية أحيانا يتفقون في مسائل بعينها مع السنة ويختلفون مع إخوانهم من أبناء المذهب حتى إن البعض ذهب إلى أن مذهب الزيدية يعتبر بمثابة مذهب خامس إلى جانب المذاهب السنية الأربعة المعروفة .

وهناك اتفاق كامل بينهم وبين السنة في صلب العبادات وفرائضها واختلاف قليل في الفروع ، فهم في الأذان يقولون : « حي على خير العمل » كبقية فرق الشيعة ويكبرون خمس تكبيرات في صلاة الجنازه ، وصلاة العيد عندهم من فروض الأعيان تصح جماعة وفرادى ، وصلاة التراويح جماعة يعتبرونها بدعة ، والوتر سنة وهو ثلاث ركعات متصلة ويرفضون الصلاة خلف الفاجر .

وهكذا تبدو الخلافات في مسائل العبادات كتلك التي تحدث بين بعض مذاهب السنة نفسها ، إلا أنهم في بعض المسائل يتشددون تشدداً صارما يدعو أحيانا إلى التأمل الذي لا يخلو من طرافة ، من ذلك على سبيل المثال أن فرائض الوضوء بينما نجدها عندنا ــ نحن السنه ــ أربعة ، نجدها عند الزيدية عشرة تسير بمنتهى الدقة هي ــ أولا ــ إزالة النجاسة بالحجر أولا ثم بالماء ــ ثانيا ــ التسمية ثالثا ــ نية وضوء الصلاة ، فمجرد الوضوء يكفي لرفع الحدث ولكن لا تصح به الصلاة إلا إذا نوى الإنسان أن هذا الوضوء من أحل الصلاة ، ولابدّ مع النية من التخصيص أو التعميم ، فالوضوء الذي خصص لصلاة بعينها كالظهر مثلا لا تصح به صلاة العصر ، وهكذا ورد كلام كثير في هذا الصدد(١٠). رابعا : المضمضة والاستنشاق ، خامساً : غسل الوجه مستكملا ، سادساً : غسل اليدين مع المرفقين وما حاذاهما ، سابعاً : مسح كل الرأس مقبلة ومدبرة ، ثامناً : غسل القدمين مع الكعبين ، تاسعاً : الترتيب الذي مر ذكره ، عاشراً : تخليل الأصابع والأظفار .

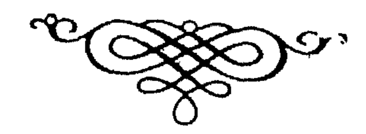
---

(١٠) التاج المذهب ٣٨/١ .

وإذن فالملاحظ أن مسائل الطهارة والعبادات فيها الكثير من التشدد عند الزيدية ، ولكنه تشدد غير ضار ، وإنما قصد به صحة البدن وصحة الروح .

والمذهب الزيدي يوجب على المسلمين الاجتهاد ، فإن عجز المسلم عن الاجتهاد جاز له التقليد ، وتقليد أهل البيت أولى من غيرهم ، كما أن المذهب الزيدي يوجب الخروج على « إمام الجور » أي الحاكم الظالم وأنه لا تجب له الطاعة .

ومجمل القول في الزيدية أنهم أقرب الفرق الشيعية إلى جماعة المسلمين لميلهم إلى القصد والاعتدال في أهم نقطة خلافية بين السنة والشيعة ، فالفرق الشيعية الأخرى يرفعون الأئمة إلى مراتب تقارب الأنبياء ، ويعتبرون منصب الإمام منصباً إلهياً ، أما الزيدية فللإمام احترامه عندهم وتقدمه على جميع المسلمين غير أنهم لا يغلون في رفع مكانته بالطريقة التي تذهب إليها سائر فرق الشيعة .



القسم الثالث

غلاة الشيعة

- الإسماعيلية
- الدروز
- العلويون (النصيرية)



الإسـماعيليـة

الإسماعيلية واحدة من الفرق الشيعية التى جنحت إلى الغلو أكثر من ميلها إلى الاعتدال . وإنما سميت بـ «الإسماعيلية» نسبة إلى إسماعيل بن جعفر الصادق ، والفرق بينهم وبين الإمامية «الاثنا عشرية» من حيث ترتيب الأئمة أن الاثنا عشرية لم تعترف بإمامة إسماعيل لأسباب سنذكرها بعد قليل ، وانتقلوا بالإمامة من جعفر الصادق إلى ابنه موسى الكاظم إلى ابنه على الرضا إلى آخر الأئمة الاثنى عشر على الترتيب الذى مر ذكره عند الكلام على الإمامية .

فجعفر الصادق قد نحى ولده إسماعيل من الإمامة لأنه - فى بعض الروايات - قد وجده ثملا ، وليس من المعقول أن يوصى جعفر الصادق وهو التقى الورع العالم الفاضل لابنه الذى لم يتلزم حدود الدين فاقترف الكبيرة وشرب الخمر ، غير أن أنصار إسماعيل أنكروا على جعفر هذا التصرف وقالوا إن إسماعيل معصوم وإنه إن كان قد شرب الخمر فإنما شربها لأمر فى علم الله ، وتمسكوا به إماما ورفضوا الاعتراف بإمامة أخيه موسى ، ورأوا أن شرب الخمر لا يفسد عصمته ، وأنه لا يجوز لله أن يأمر بشىء ثم ينسخه[1] .

---

(١) دائرة المعارف الإسلامية مادة الإسماعيلية .

ورواية أخرى تقول إن إسماعيل توفى فى حياة أبيه فانتقلت الإمامة تبعاً لذلك إلى ابنه محمد بن إسماعيل ، لأن الإمامة لا تكون إلا فى الأعقاب وغير جائز أن تنتقل من أخ إلى أخيه إلا فى حالة واحدة فريدة ، هى انتقالها من الإمام الحسن إلى الإمام الحسين . وللإسماعيلية فى ذلك تأويل من القرآن ، وهم يفسرون القرآن تفسيرا باطنياً خاصاً .. يتذرعون بالآية الكريمة : «**وجعلها كلمة باقية فى عقبة**» وفسروا الكلمة بأنها الإمامة ، ولذلك فلا مناص من أن تكون الإمامة فى الأعقاب دون الإخوة ، ورفضوا إمامة موسى الكاظم ولم يعترفوا بها ، خاصة أن محمد بن إسماعيل كان أكبر سناً من عمه موسى[٢] .

ورواية ثالثة يرويها بعض الإسماعيليين تقول : إن إسماعيل لم يمت فى حياة أبيه ، بل إنه مات بعده بخمسة أعوام ، وقد أظهر أبوه موته من قبيل التقية خوفاً على حياته ، لأن الأئمة كانوا مضطهدين من الخلفاء ، سواء أكانوا أمويين أم عباسيين ، وأن أباه قد أشهد الناس على موته حتى يتخلص من مطاردة العباسيين له ، ويؤكد البعض هذه الرواية بما يذهبون إليه من أن إسماعيل قد رئى بالبصرة ، وأنه قد مر على مُقعد فدعا له فبرئ بإذن الله[٣] .

تلك هى الروايات المختلفة التى وردت بصدد إسماعيل الإمام السابع الذى نصّبه الإسماعيليون إماماً ، على أن أكثر الروايات تذهب إلى انه مات فى أيام أبيه سنة ١٤٣ هـ بالمدينة قبل وفاة أبيه بخمسة أعوام .

ومهما كانت الروايات فالذى لاشك فيه أن فرقة الإسماعيلية قد لعبت — بالإضافة إلى الدور العقائدى — دوراً خطيراً على مسرح السياسة فى العالم الإسلامى ، يكاد يكون قد شمل كل بقعة من بقاع عالم ذلك الزمان ، واستمر دورها السياسى لفترة دامت بضعة قرون مشرقاً ومغرباً ، وتكون بذلك واحدة من فرقتين شيعيتين لعبت كل منهما دوراً سياسياً خطيراً ، أما الفرقة الأولى فهى كما مر بنا فرقة الزيدية .

---

(٢) طائفة الإسماعيلية لكامل حسين ص ١٢ .

(٣) الملل والنحل ١٧١/١ .

الإسماعيلية سياسياً :

غير أن الإسماعيلية لم تظهر كفرقة تلعب دوراً سياسياً إلا بعد موت إسماعيل بأكثر من قرن من الزمان ، ظهرت إبان ذلك فى الشرق والعرب على حد سواء بنشاط وهمة يدعوان إلى الاهتمام ، ولعل الفترة التى مرت على موت إسماعيل وبين ظهور الدعوة نشطة سافرة هى ما يعبر عنه «بدور الستر» ، حيث تجرى الدعاية للمذهب والدعوة له فى حذر وحيطة وكتمان ، أما وقد استشفوا إمكان النجاح فإنهم قد جاهروا بالدعوة وهو ما يطلقون عليه «دور الظهور» .

ومهما كان الأمر فالإسماعيلية لم تعرف كفرقة دينية أو سياسية قبل أواخر القرن الثالث الهجرى ، ويربط الأستاذ الدكتور كامل حسين بين ظهور الإسماعيلية وظهور حركة القرامطة ، ويرى أن ظهور القرامطة فى البحرين والشام كان إيذاناً بظهور الإسماعيلية على مسرح السياسة بصفة إيجابية[٤] بعد أن ظلت الدعوة الإسماعيلية مستترة حوالى قرن من الزمان .

والقرامطة إحدى الفرق المتفرعة عن الإسماعيلية ، وتنتسب إلى رجل يقال له حمدان قرمط ، وهو أحد مريدى عبد الله بن ميمون القداح الذى اتخذ المذهب الإسماعيلى عقيدة لغرض فى نفسه ، وما لبث أن انبثق عن مجهوداته وجلده على الدعوة ، المذهب الفاطمى والمذهب القرمطى ، حتى إن بعض المستشرقين يذهب نتيجة لذلك إلى أن الفاطميين والقرامطة طائفة واحدة[٥] .

وسواء صح ذلك الرأى أم لم يصح فالأمر الذى لا شك فيه أن فرقة القرامطة كانت فرقة مفزعة ، شغلت العالم الإسلامى لفترة طويلة ، وهزمت جيوش الخلافة العباسية فى مواقع كثيرة ، ودخلوا مكة أثناء موسم الحج وقتلوا الحجاج وطموا بجثثهم بئر زمزم ، وهدموا الكعبة وانتزعوا الحجر الأسود وحملوه إلى عاصمتهم «هجر» حيث ظل لديهم بضعة وعشرين عاماً .

---

(٤) طائفة الإسماعيلية ص ١٥ .

(٥) تاريخ الدولة الفاطمية حسن إبراهيم ص ٥٩ .

إن القرامطة ما لبثوا أن شقوا عصا الطاعة على الإمام الإسماعيلى نفسه ، وكان مقره « سلمية » فى سورية ، ونهبوا أمواله ومتاعه فاضطر إلى الفرار خوفاً من بطشهم .

وكان للقرامطة مذاهب متطرفة غالية ، فقد زعموا أن محمد بن إسماعيل رسول ، كما زعموا أن الرسالة انقطعت عن النبى فى حياته بعد حديثه فى غدير خم ، فآلت النبوة والرسالة إلى على بن أبى طالب وأصبح النبى مأموماً لعلى ، وقالوا إن الله جعل لمحمد بن إسماعيل جنة آدم ، ومعناها عندهم الإباحة للمحارم وجميع ما خلق فى الدنيا (٦) .

وقد تمادى القرامطة فى الشطط والموبقات وسفك الدماء فضلاً عن الخروج بالعقيدة عن ربقة الإسلام الصحيح ، ولذلك فإن بعض الشيوعيين الماركسيين يفتتنون بها و يعتبرونها حركة من حركات التحرير والإصلاح .

أما الإسماعيلية الأصيلة — إذا اعتبرنا القرامطة إسماعيلية منحرفة — فقد ظهرت كحركة سياسية فى اليمن ، حين استطاع أحد الدعاة — واسمه الحسين بن حوشب — أن يجمع حوله بعض المؤمنين بالمذهب من بين قبائل اليمن ، وأن يؤسس أول دولة إسماعيلية فى التاريخ ولقب نفسه بمنصور اليمن ، وكان ذلك سنة ٢٦٦ هـ (٧) ولم يقف الأمر بالدعوة الجديدة عند حدود اليمن بل امتد خارجها — عن طريق ابن حوشب نفسه — حتى وصل نشاطها إلى شمال إفريقية واكتساب شيوخ قبيلة كتامة فبايعوا إمام الإسماعيلية .

وإذا كان ابن حوشب قد عرف بالتقى والورع في أول أمره فإنه مالبث أن انزلق ، وكذلك رفيقه في الدعوة وقيادة الجيش علي بن فضل الذى خرج عن الجادة وافتتن بالتفاف الناس حوله وتأصل نفوذه بينهم حتى إنه — على سبيل المثال — حين حلق رأسه بصنعاء حلق معه موافقة له مائة ألف نفس ، إزاء هذا التأييد من الناس سولت له نفسه أن يدعي النبوة ، وأعفى أنصاره من الصوم والصلاة . وفي ذلك يقول الشاعر (ولعله البهاء الجَنَدى) :

(٦) النوبختي ٦١ — ٦٣ .

(٧) راجع الفاطميين لحسن إبراهيم ٤٠١ وما بعدها .

(٦) النوبختي ٦١ — ٦٣ .

(٧) راجع الفاطميين لحسن إبراهيم ٤٠١ وما بعدها .

خذي الـدفَّ يا هذه والعـــبي	وغنّـــي هزاريْك ثم اطـــربي
تولي نبـــيٌّ بنـــــي هاشمٍ	وهـــذا نبـــيٌّ بنـــي يعـــربِ
لكـــل نبـــيٌّ مضى شرعــــةٌ	وهـذي شريعـــةُ هذا النبـــي
فقـد حطّ عنـا فروضَ الصلاة	وحـــطَّ الصيـــامَ ولم يتـــعبِ
إذا النـاسُ صلّـــوا فلا تنهضي	وإن صوّمـوا فكُلِـــي واشربي
ولا تطلبي السَّعْي عنـد الصفـا	ولا زورة القبـــرِ في يثرب[٨] .

ولعل هذه الانحرافات كانت بمثابة الإرهاص العام لانحرافات أخرى ظهرت عند الخلفاء الفاطميين الإسماعيليين فيما بعد .

لقد كان إمام الإسماعيلية في أول عهدهم بـ « بدور الظهور » عبيد الله المهدي وكان يقيم بسلمية (في سورية) مستتراً ، ثم مالبث أن هرب إلى شمال إفريقية حين انكشف أمره فوجد هناك أنصاره الذين كسبهم له دعاة ابن حوشب ، ولقد تعرض الإمام عبيد الله للقبض عليه والسجن من قبل « الأغالبة » ، لولا أن تجمهر الكتاميون فأنقذوه من سجنه وانتصروا على سجانه .

وقد كان عبيد الله ذا شخصية فذة في رسم ملكه وبناء دولته الجديدة ، فاختار إفريقية دون اليمن ، لأن اليمن بعيدة عن قلب العالم الإسلامي ، أما شمال إفريقية فهو مكان متوسط يمكن الانتشار منه إلى مراكز وأقطار أخرى من العالم الإسلامي ، وكان صارماً في اختيار السبيل الذي يوصله إلى بناء دولته ، حتى إنه لم يتردد في قتل داعيته أبي عبد الله الشيعي الصنعاني وأخيه أبي العباس حين أظهرا شكهما في شخصيته وأنه إنسان آخر غير ذلك الإمام الذي رأياه في سلمية ، وظل عبيد الله يواصل جهوده موقعاً بقبيلة كتامة التي ناصرته أول الأمر ، مواجهاً كثيراً من المتاعب والثورات ، حتى استطاع أن يؤسس أول دولة إسماعيلية سنة ٢٩٧ هـ في شمال إفريقية ، وهي التي عرفت باسم الدولة الفاطمية ، وظل يرسم الخطة للزحف شرقاً وامتلاك مصر وتحقق ما أراد ، ولكن على يد الخليفة الفاطمي الرابع المعز لدين الله .

---

(٨) عمارة اليمني . تاريخ اليمن ١٤٥ .

مر بنا قبل قليل ما قام به المهدي من قتل داعيته أبي عبد الله الصنعاني ، لأنه — فيما يقال — شك في شخصيته ، وهذا يدفعنا إلى أمر أخطر من الشك في شخصية الإمام ، ذلك هو نسب « الإمام » نفسه ، فهناك من ينكر صلة عبيد الله المهدي بالإمام إسماعيل رأس الإسماعيلية إنكاراً تاماً ، ويذهب إلى القول بأن عبيد الله ليس إلا ابناً لرجل يهودي كان حداداً بسلمية في سورية ، فلما مات ذلك الحداد تزوجت أرملته أحد الأشراف العلويين فتربى الغلام ابن الحداد في منزله ، فلما كبر الغلام اتخذ لنفسه النسب العلوي ، ولم يكن هذا الغلام — ابن الحداد — إلا عبيد الله نفسه[٩] .

وهناك رأي آخر يشبه الإجماع يقول إن عبيد الله من سلالة ميمون القداح ، ومعروف أن ميمون القداح وأبناءه كانوا من دعاة الإسماعيلية ، ثم ما لبثوا أن اغتصبوا الأمر لأنفسهم ، وهم ينتسبون أصلاً إلى زنادقة المجوس الذين حاولوا تقويض دعائم الإسلام عن طريق التأويل تارة والقول بالباطن تارة أخرى ، أو عن طريق محاولة إحياء العقائد المجوسية[١٠] . وليس من شك في أن الذي بعث على الشك في نسب هؤلاء الفاطميين هو « دور الستر » الطويل الذي مروا به ، وغير مستبعد أن يحدث خلال تلك الفترة أيّ من تلك الآراء التي ذهب إليها المؤرخون والتي تبعد بهم عن النسب العلوي .

والطريف أن المصريين قد تنبهوا إلى هذه الثغرة ، ثغرة النسب عند الفاطميين ، فاستغلوها استغلالاً طريفاً حتى إن أحد الشعراء المصريين أرسل يهجو المهدي — وكان لايزال في إفريقية — بمناسبة إرساله الدعاة لكي يبشروا بالمذهب الإسماعيلي في مصر فقال :

فَمَنْ أنتَ يامهدي السفاهةِ والخنا	أبنْ لي فقد حُقَّتْ على وجهك الرِيبْ
فلو كنتَ من أولادِ أحمد لم يغبْ	عن الناس ما تسمو إليه من النسبْ
ولو كنتَ منهم ما انتهكتَ محارماً	يذبون عنها بالأسنَّةِ والشهبْ

(٩) كامل حسين ٢٦ .

(١٠) حسن إبراهيم — الدولة الفاطمية ٦٤ .

وكم مصحفٍ حرّقته فرماده مثارةُ مسفَى الريح من حيثُ ما تهبّ
كفرتْ بما فيه وبدّلْتَ آيه وقضّبْتَ حبل الدين كفرا فما انقضبْ[11]

ولم يقف الأمر عند المصريين بالتندر على أئمة الإسماعيلية ، وهم بعد في إفريقية ، بل حتى وهم بمصر ، فقد سأل البعض المعز لدين الله عن نسبته إلى القداح فأجاب : نعم هو قادح زمام الفكر ولم يضف شيئاً ، وكأنما أحس بما يقصده السائل من تعريض به وبنسبه ، ولذلك قيل أيضاً إن المعز كان يُسكت من يسألونه عن نسبه بالذهب والعطاء أو بالسيف والتهديد ، ولكن ذلك لم يمنع المصريين من أن يسخروا ويتهكموا على هذا النسب الغامض ، فقد صعد العزيز الفاطمي ابن المعز لدين الله المنبر يوم جمعة فإذا به يعثر على ورقة تضم هذه الأبيات الساخرة :

إنّا سمعنا نسباً منكرا يُتلى على المنبرِ في الجامع
إن كنتَ فيما تدّعي صادقاً فاذكُر أباً بعد الأب الرابع
وإن تُرد تحقيقَ ما قلتَهُ فانسبْ لنا نفسَك كالطائع[12]
أو فدع الأنساب مستورةً وادخلْ بنا في النسبِ الواسع
فإن أنسابَ بني هاشم يقصرُ عنها طمع الطامع[13]

ومن الطرائف التى تحكى فى هذه المناسبة أن عبد الرحمن الثالث الخليفة الأندلسى تلقى من أحد الخلفاء الفاطميين رسالة يسبه فيها فأجابه بقوله : أما بعد فقد عرفتنا فهجوتنا ، ولو عرفناك لأجبناك .

ولكن برغم ذلك كله فإن الإسماعيلية ــ الذين أطلقوا على أنفسهم الفاطميين والذين عرفهم البعض باسم العبيديين ــ قد نشطت دعوتهم وكثر دعاتهم حتى أقاموا خلافة عريضة امتدت من المحيط الأطلسي حتى برزخ السويس وشملت شمال إفريقية كله ومصر والشام وصقلية وجنوب إيطاليا ، وامتد نفوذ مذهبهم إلى

(١١) كامل حسنين ٣٥ .
(١٢) الطائع : هو الخليفة العباسي .
(١٣) ابن خلكان ٢/٢٠٠ .

الشرق البعيد فاعتنقه الأمير نصر بن أحمد الساماني ، بل استطاعوا أن يضموا بغداد لفترة من الوقت امتدت حوالي سنة على يد البساسيري الذي خطب للإمام المستنصر الفاطمي على منابرها سنة ٤٥٠ هـ ، واعتنق مذهبهم أمراء الحلة وواسط والكوفة بالعراق ، وأمير الجزيرة بالشام ، وظل أمرهم في علو وازدهار حتى دالت دولتهم في مصر على يد صلاح الدين .

المستعلية والنزارية :

المعروف أن العقيدة الإسماعيلية توجب التسلسل في الإمامة مع وجوب النص ، وقد ظل الأمر كذلك لفترة طويلة إلى أن بدأت الأهواء السياسية والمطامع الذاتية تعمل عملها في الدولة الفاطمية ، فلم يعد الأئمة أنفسهم يأبهون لهذا النص وكذلك الوزراء أصحاب النفوذ . فقد حدث أن نص المعز لدين الله على أن يليه ابنه عبد الله ، ولكن عبد الله توفي في حياة أبيه فعاد ونص على أن يليه ابنه العزيز مخالفا بذلك العقيدة الإسماعيلية . وقد حدث أيضاً أن نص الإمام المستنصر على أن يتولى الإمامة من بعده ولده نزار ، ولكن الوزير الأفضل بن بدر الجمالي نحى نزاراً وأعلن إمامة المستعلي الابن الأصغر للمستنصر وكان صغيراً ، وهو في نفس الوقت ابن أخت الوزير ، ضارباً عرض الحائط بمشروعية النص . ولم يقف الأمر بالجمالي عند هذا الحد ، بل ألقى القبض على نزار ووضعه في سجن وسد عليه الجدران حتى مات ، فكان ذلك سبباً لانقسام الإسماعيلية إلى قسمين : المستعلية ، وهم أتباع المستعلي ، والنزارية أتباع نزار[١٤] .

ظلت فرقة المستعلية التابعة للخليفة المستعلي تحكم مصر والحجاز واليمن بمساعدة الصليحيين الذين تفانوا في خدمة الخليفة الفاطمي في القاهرة فوحدوا اليمن على يد علي بن محمد الصليحي وحكموها باسم الخليفة الذي يعيش في مصر ، غير أن فرقة المستعلية ما لبثت أن خبا سلطانها تحت ضغط الصليبيين الذين لم يجدوا من يصمد أمامهم فتوغلوا في مدن الشام وأنشأوا بها الإمارات . هذا

(١٤) حسن إبراهيم ١٧١ — ١٧٣ .

بالإضافة إلى أن فريقاً آخر من الإسماعيلية لم يؤمن بشرعية الإمام المستعلي ، وكان يرى أن الأحق بالإمامة هو نزار .

وكان أنصار نزار من إسماعيلية الشرق . ولذلك عرفت المستعلية بالإسماعيلية الغربية . وعرفت النزارية بالإسماعيلية الشرقية .

وهنا نمرّ بفترة خطيرة من فترات الحكم الإسماعيلي . فلقد كان بمصر وقت حرمان نزار أحد دعاة الإسماعيلية الفرس اسمه الحسن بن الصباح ، كان قد جاء حاجاً إلى إمامة المستنصر — وكان الأئمة يحج إليهم[١٥] — وشهد النزاع بين نزار والجمالي ، فانتصر لنزار ، وعاد إلى فارس ، وأخذ يدعو للمذهب الجديد ، وجعل من نفسه نائباً للإمام المستور ، واستطاع أن يستولي على قلعة ألموث جنوبي بحر قزوين ، وظل سلطانه يمتد ويتسع فى المنطقة ، وأكثر من إنشاء الحصون ونجح نجاحاً كبيراً ، واستقل بإقليم كبير وسط الدولة العباسية السنية ، وأسس الدولة الإسماعيلية الشرقية ، وعرف أنصاره باسم الحشاشين ، لأنهم كانوا يكثرون من تدخين الحشيش الذي يخدرهم فيصدعون لأوامر الصباح ، وقد اختار من أنصاره بعض الشباب أطلق عليهم طبقة الفدائيين ، كان يرسلهم لاغتيال أعدائه ، وكان من ضحاياهم الوزير الجليل نظام الملك الذي كان زميلاً للحسن في الدراسة أيام طفولتهما .

وقد رسم الحسن لهؤلاء الفدائيين منهجاً خاصاً بتربيتهم منذ طفولتهم ، وكان قاسياً عليهم حتى استطاع أن يجعل منهم عنصراً فزع منه العالم الإسلامي ، كما فزع منه الصليبيون أيضاً لكثرة ما قتلوا وأسالوا من دماء[١٦] .

ولم ينس الحسن بن الصباح أن ينتقم لنزار ، فأرسل بعض الفدائيين من أتباعه إلى مصر فقتلوا الإمام الآمر بن المستعلي ، وظل أمره كذلك حتى خافه الملوك وأعجب به العامة ، لأن العامة تعشق البطولات دائماً أيا كان ثوبها .

---

(١٥) الحج الظاهري إلى الكعبة والحج الباطني إلى الإمام .

(١٦) كامل حسين ٧٤ ، ٧٥ .

ويبدو أن تعطش ابن الصباح للدماء جعله يقتل ولديه . وتوفي سنة ٥١٨ هـ وكان مولده سنة ٤٧١ بغير سليل ، فأوصى بالزعامة لاثنين من أتباعه المخلصين ، هما كيابزرك وأبو علي داعي الدعاة ، وجعل الأول قائدا للفدائيين ومنوطاً بالأمور الدنيوية ، وجعل الثاني لأمور الدعوة والزعامة الروحية .

إسماعيلية الشام :

كانت إسماعيلية مصر مستعلية ، وكانت إسماعيلية فارس والشرق نزارية ، وكذلك كانت إسماعيلية الشام ، وكانوا يسيرون على نهج مدرسة الحسن الصباح ، وقد استطاعوا أن يضموا إلى صفوفهم الأمير رضوان بن تتش والي حلب السلجوقي ، فاعتنق مذهبهم ، ووفد إلى حلب عدد كبير من إسماعيلية فارس فقويت شوكتهم واستشرى خطرهم ، فكانوا يوقعون بالناس وينهبون ، وقام الفدائيون بقتل الأعيان والحكام إلى أن أوقع بهم أهل حلب ، فهربوا إلى شيزر وحاولوا الاستيلاء على قلعتها ، إلا أنهم منوا بالهزيمة وقتل منهم عدد كبير ، ثم استطاعوا أن ينزلوا منطقة الموصل ولكنهم ما لبثوا أن حنوا إلى سفك الدماء وبث الرعب حتى أمكنهم تملك قلعة بانياس ، ثم امتد نفوذهم في بلاد الشام حتى ولى أحدهم قضاء دمشق ، وكان اسمه أبا الوفاء ، ومن المؤسف أن أبا الوفاء هذا بعث سرًّا إلى بودوان الثاني الصليبي ملك بيت المقدس يفاوضه في أن يستولي الإسماعيلية على مدينة صور نظير أن يمكنه من دخول دمشق ، غير أن خطة الخيانة قد انكشفت والمؤامرة انفضحت ، فقام الأمير بوري بقتل الإسماعيلية وأوقع الهزيمة بالصليبيين .

وبرغم ما وقع على الإسماعيلية من تقتيل ومطاردات فقد استطاعوا امتلاك الحصون في الشام مثل حصن قدموس وحصن مصياف وبانياس والكهف والخوابي وغيرها ، وظهر من بينهم زعيم خطير من شاكلة الحسن بن الصباح اسمه راشد الدين سنان لقبه الناس لفرط احترامه وهيبته « بشيخ الجبل » وكون لنفسه مذهباً خاصاً اسمه « السنانية » . وقد حاول السنانية هؤلاء قتل صلاح الدين الأيوبي أكثر من مرة على طريقتهم الاغتيالية ، ولكنه كان ينجو في كل مرة ، وقد

حاول صلاح الدين أن يتخلص من الإسماعيلية فحاصر قلعة مصياف ، ولكن أحد أعوانه طلب منه عدم التعرض لهم حتى لا تتسع الجبهات أمامه ، وأشار عليه بأن يكتفي بالتفرغ لحرب الصليبيين .

ومن الطرائف التي تروى أن صلاح الدين استيقظ ذات يوم وهو في معسكره فوجد في فراشه خنجراً ومعه بطاقة من سنان تدل على أن سنان نفسه هو الذي زاره ولو شاء لقتل صلاح الدين دون أن يشعر به أحد . ويقال إنه منذ تلك الحادثة نشأت صداقة بين سنان وصلاح الدين وعملا معاً ضد الصليبيين ، فأرسل سنان أحد الفدائيين لقتل المركيز كونراد المونفراتي سنة ٥٨٨ هـ لأنه وجد صديقه صلاح الدين في مسيس الحاجة إلى المساعدة ، فحفظ صلاح الدين هذه اليد للإسماعيلية[١٧] .

وقد سار سنان على طريقة الصباح أول الأمر ، فهو تلميذ مدرسته ، وفي قلعة ألموت تربى ، غير أنه ما لبث أن أضاف آراء جديدة إلى العقيدة كالتناسخ مثلاً ، وهو ما لم تقل به الإسماعيلية ، وقد لقبه بعض أنصاره بالإمامة ظنًّا منهم أنه أحد الأئمة المستترين .

وقد ظل أمر الإسماعيلية النزارية بالشام هكذا بين تقدم وتأخر وظهور وتستر إلى أن استسلمت آخر قلاعهم للظاهر بيبرس سنة ٦٧٢ هـ ولكن لايزال يعيش حتى اليوم طائفة إسماعيلية نزارية في سلمية والخوابي والقدموس ومصياف وبانياس والكهف .

البهرة :

هي إسماعيلية الهند واليمن ، وهم ينتسبون إلى الإسماعيلية المستعلية التي كان يتبعها اليمنيون في عهد الصليحيين ، ويسمون الطيبية نسبة إلى الطيب ابن الخليفة الآمر ابن الخليفة المستعلي ، وحين سقطت الدولة الصليحية ترك الإسماعيلية الطيبية ميادين السياسة والتفتوا إلى ميادين التجارة ، وليسر المتاجرة بين اليمن والهند في

---

(١٧) كامل حسين ١٠٣ ، ١٠٤ .

القرون الماضية كان الإسماعيليون الطيبيون يذهبون إلى الهند للتجارة فاختلط بهم كثير من الهنود ، وأقبل الهندوس على اعتناق مذهبهم فعرفوا « بالبهرة » ، والبهرة لفظ هندي قديم بمعنى التاجر .

وانقسمت دعوة البهرة إلى فرقتين ، البهرة الداودية والبهرة السليمانية ، والأولى نسبة إلى الداعي قطب شاه داود ، والثانية نسبة إلى الداعي سليمان بن حسن ، فأما البهرة الداودية فمركزهم في الهند (الهند وباكستان الآن) منذ القرن العاشر الهجري وداعيهم يقيم في بمباي ، أما البهرة السليمانية فمركزهم في اليمن حتى اليوم .

والبهرة يتخذون لأنفسهم أماكن خاصة للعبادة اسمها « جامع خانة » ولا يسمحون لأنفسهم أن يقيموا الصلوات في مساجد عامة المسلمين ، وهم متمسكون بفروض الدين التي تشبه في « الظاهر » عقيدة سائر المذاهب الإسلامية المعتدلة أما عقيدتهم الباطنية فشيء آخر ، فهم يصلون كما يصلي المسلمون ، ولكنهم يقولون إن صلاتهم تلك للإمام الإسماعيلي المستور من نسل الطيب بن الآمر ، وهم يذهبون إلى مكة للحج كبقية المسلمين ولكنهم يقولون إن الكعبة هي رمز على الإمام .

الأغاخانية :

إذا كانت البهرة ترجع أصولها العقائدية إلى الإسماعيلية المستعلية التى مر الحديث عنها فإن الأغاخانية ترجع عقيدتها إلى الإسماعيلية النزارية ، وقد ظهرت هذه الفرقة بنشاط في إيران في الثلث الأول من القرن التاسع عشر الميلادي حينما ظهر شخص جمع حوله عدداً من الإسماعيلية وغير الإسماعيلية وهدد الأمن وقطع الطريق وسطا على القوافل حتى ذاع صيته في أنحاء إيران وأصبح أسطورة على ألسنة الناس ، وأعجب الإيرانيون ببطولاته فانضموا إليه إعجاباً به وطمعاً في المكاسب المادية التي يحصلون عليها عن طريقه .

هذا الرجل اسمه « حسن علي شاه » وهو إسماعيلي وإن لم يشر إلى إسماعيليته حتى لا ينفض الناس من حوله ، وكان للإنجليز مطمع في إيران في ذلك الوقت ، فاستعملوا حسن علي شاه في قيادة ثورة يهدد بها الأمن حتى يجدوا — كما هي عادتهم — منفذاً يدخلون منه إلى فرض سلطانهم ، ولكن حسن علي فشل في ثورته وقبض عليه ، فسارع الإنجليز إلى التوسط له بالإفراج عنه على أن ينفى من إيران كلها ، وذهب « حسن على » إلى أفغانستان كرغبة الإنجليز ، ولكنه لم يستطع أن يقدم هناك شيئا لحلفائه ليقظة الأفغانيين ، فاتجه إلى الهند وسكن مدينة بمباي ، وهناك اعترف به الإنجليز إماماً على الطائفة الإسماعيلية ، وخلعوا عليه لقب أغاخان ، فانتسب إلى الإمام نزار بن المستنصر الفاطمي وأصبح إمام الإسماعيلية النزارية ثم مات سنة ١٨٨١ م فخلفه ابنه في إمامة الطائفة ، وعرف باسم أغاخان الثاني ، وكان أبوه قد أعده للإمامة إعداداً كاملاً وهيأ له الثقافة الكاملة ، وكان يجيد عدة لغات منها العربية ، وعمل على خدمة أبناء المسلمين جميعاً دون تمييز بين طوائفهم فسمت مكانته بين الناس جميعاً ، وتزوج أميرة إيرانية وأنجب منها ولده محمد الحسيني في نوفمبر سنة ١٨٧٧ ، وهو أغاخان الثالث المعروف باسم أغاخان المتوفى في (أغسطس سنة ١٩٥٧) وقد عاش أغاخان الثالث حياة طويلة مليئة بعناصر الإثارة ، ويذكر له التاريخ أنه كان يدافع عن مشاكل المسلمين عامة بصرف النظر عن طوائفهم ، ونشر الوعي بين طوائف المسلمين في الهند ، غير أنه فضل الإقامة في أوروبا وأخذ من ملاذ الدنيا ولهوها بنصيب كبير وتزوج أربع مرات : المرة الأولى من أميرة إيرانية ، والمرة الثانية من فتاة إيطالية أنجب منها ابنه « على خان » ، والمرة الثالثة من بائعة حلوى وسجاير في باريس وأنجب منها ولده « صدر الدين خان » ، والمرة الرابعة من إحدى ملكات الجمال .

وحين مات أغاخان أوصى لحفيده « كريم » بالإمامة وهو الإمام الحالي ومازال شاباً يطلب العلم في إحدى جامعات الولايات المتحدة الأمريكية .

والإسماعيلية الأغاخانية يسكنون الآن نيروبي ودار السلام وزنجبار ومدغشقر والكنغو البلجيكي والهند وباكستان وبعضهم في سورية ، ومركز القيادة الرئيسي بالنسبة لهم هو مدينة كراتشي .

والإسماعيلية الأغاخانية تقدس أغاخان وتلقبه بالإمام وتقول بعصمته ويضفونْ عليه صفات الألوهية ويدفعون له خمس مايكسبون .

عقيدة الإسماعيلية :

يقول الإسماعيليون بالوحدانية ويشهدون أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله . ولكنهم في نفس الوقت يقولون بأن لكل ظاهر باطناً ، وأنّ لكل تنزيل تأويلاً ظاهراً وتأويلاً باطناً ، ولذلك فإن من أسمائهم « الباطنية » ، كما أن من أسمائهم أيضاً « السبعية » . فالتأويل الظاهر للإيمان وللقرآن يتفق إلى حد كبير مع التشريعات السنية ، ولعل الإسماعيلية قد عمدوا إلى هذه التأويلات الظاهرية لكي يردوا بها على أهل السنة ممن رموهم بالزيغ والكفر ، وقد جعل الإسماعيلية من شروط الإيمان أن يؤمن الإسماعيلي بالظاهر والباطن معاً ، والإيمان بواحد منهما دون الآخر يعتبر خروجاً على المذهب وكفراً ، ولقد قال الشيرازي الداعي : من عمل بالباطن والظاهر معاً فهو منا ، ومن عمل بأحدهما دون الآخر فالكلب خير منه .

والإسماعيلية ينكرون صفات الله أو يكادون ويعللون ذلك بأن الله فوق متناول العقل ، وهم من أجل ذلك يقولون في الله : لا نقول موجود ولا نقول غير موجود ، ولا عالم ولا جاهل ، ولا قادر ولا عاجز ، وعلى ذلك فلا يقولون بالإثبات المطلق ولا بالنفي المطلق ، بل هو إله المتقابليْن ، وخالق المتخاصميْن ، والحاكم بين المتضاديْن ، وليس هو بالقديم كما أنه ليس بالمحدث ، فالقديم أمره وكلمتة ، والحديث خلقه وفطرته[١٨] .

ويقولون أيضاً إنه لم يخلق العالم خلقاً مباشراً بل أبدع العقل الكلي بعمل من أعمال الإرادة ، والعقل الكلي محل لجميع الصفات الإلهية ، وهو في نظرهم الإله ممثلا في مظاهره الخارجية ، ويعللون هذه الفلسفة فيقولون لما كانت الصلاة لا يمكن أن تؤدى لكائن لا يدرك ، فهي تؤدى في رأيهم لمظهره الخارجي وهو العقل الذي

---

(١٨) الملل والنحل ١/١٧٢ ، ١٧٣ .

أصبح تبعاً لذلك الإله الحقيقي من وجهة نظرهم ، ولما كان الإنسان غير قادر على معرفة ذات الله وإنما يعرف العقل وحده ، فإن الإسماعيلية يسمون العقل الحجاب أو المحل أو الصلة ، ولبلوغ السعادة عندهم ينبغي على الإنسان تحصيل العلم ، ولا يمكن تحصيل السعادة التي هى العلم إلا بحلول العقل الكلي في إنسان هو النبي وفي الأئمة الذين يخلفونه ، والعقل الحالّ يسمى « ناطقاً » ، والنفس الحالة تسمى « أساساً » و «الناطق» هو النبى الذى يبلغ الكلام المنزل ، و «الأساس» هو الإمام الذي يفسره معتمداً على التأويل[١٩] ولذلك يقولون إن محمداً هو الناطق وعلياً هو الأساس .

وهكذا نجد الإسماعيلية يعمدون إلى التعسف في طريق وصولهم إلى معرفة الله ، مع أن أولى مقتضيات الإيمان والدوافع إليه ينبغي أن تصاغ في قوالب من البساطة واليسر والسماحة .

فالخالق إذن عند الإسماعيلية تبعاً لهذا الاعتقاد هو العقل الكلي والنفس الكلية ، وبمعنى آخر إن ما يقوله جمهور المسلمين عن الله سبحانه وتعالى خلعه الإسماعيليون على العقل الكلي الذي هو الإله عندهم . وهم لم يذهبوا هذا المذهب في التعريف بالله ولم يركبوا هذا المركب الصعب عبثاً ، بل عمدوا إلى ذلك لإسباغ صفة خاصة على الإمام الذي قالوا إنه من البشر ، فقالوا إن العقل الكلي في العالم العلوي يقابله الإمام في العالم الجسماني ، وانتهوا من ذلك إلى أن جميع الأسماء والصفات التي خلعت على العقل الكلي هي أيضاً أسماء وصفات خلعت على الإمام ، لأن الإمام مثل للعقل الكلي فأسماء الله الحسنى جميعاً هي أسماء للإمام ، ولذلك فإن الشعراء حينما مدحوا الأئمة كانوا يذهبون هذا المذهب ، فالأمير تميم ابن المعز يمدح أخاه الخليفة العزيز فيقول :

ما أنتَ دونَ ملوكِ العـــالمين سوى ... روح من القدسِ في جسمٍ من البشرِ
نورٌ لطيـفٌ تناهـــى منك جوهـــرُهُ ... تناهِيـــاً جاز حدَّ الشمسِ والقمـــرِ
معنـىً من العلـةِ الأولى التـي سبـقت ... خلق الهيولى وبسطَ الأرضِ والمدرِ[٢٠]

---

(١٩) دائرة المعارف الإسلامية مادة الإسماعيلية .
(٢٠) كامل حسين الإسماعيلية ١٥٨ — ١٦٠

إلى غير ذلك من الأبيات التي سيجيء ذكرها في مناسبتها .

ولعل محور العقيدة عند الإسماعيلية يدور حول شخصية الإمام بعد الذات الإلهية ، لأنهم ربطوا بين الإمام والإله بكثير من الروابط الوصفية والاسمية كما مر قبل قليل ، ثم يأتي بعد ذلك دور الدعاة الذين يدعون للمذهب ، وكانوا من الكثرة بمكان ، واختص كل واحد منهم بجهة من الجهات أو بقطر من الأقطار ، ونتيجة لهذا التعدد ولذاك التباعد حدث اختلاف بينهم بعضهم والبعض الآخر . من ذلك ما جاء من خلاف بين الداعي النخشبي في كتابه « المحصول » والداعي أبي حاتم الرازي في كتابه « الإصلاح » وكان الأول داعيا ببلاد السامانيين ، وكان الثاني داعيا ببلاد الديلم وكانا متعاصرين . ثم جاء داع ثالث معاصر لهما أيضا هو أبو يعقوب السجستاني فألف كتابه « النصرة » انتصر فيه للداعي النخشبي ، فأتى بكلام جديد لم يقله هذا ولا ذاك . ثم جاء بعد ذلك بثمانين عاما حميد الدين الكرماني أكبر فلاسفة الدعوة الإسماعيلية المتوفى سنة ٤٤١ هـ فألف كتابه « الرياض » محاولا التوفيق بين كل هذه الآراء المختلفة ، فإذا كان الشيوخ الكبار قد اختلفوا على أنفسهم فماذا نقول — على رأى الدكتور كامل حسين — في الدعاة الآخرين الأصغر مقاما المتأخرين زمنا . إننا سنجد خلافا شديدا بين دعاة اليمن أو فارس وبين دعاة المغرب[٢١] .

على أنهم يتفقون جميعاً في القول بضرورة وجود إمام معصوم منصوص عليه من نسل محمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق ، والنص على الإمام يكون من الإمام الذي سبقه بحيث تتسلسل الإمامة في الأعقاب ، وذلك بأن ينص الإمام على إمامة أحد أبنائه ، ولكن الإسماعيلية لم يلتزموا هذا النص منذ عهد الفاطميين حين نص المعز لدين الله على إمامة ابنه عبد الله من بعده ، فمات عبد الله في حياة أبيه فلم ينص على إمامة ابن عبد الله وإنما نص على إمامة ابنه الثاني العزيز ، وقد حدث شيءٌ قريب من هذا حينما مات المستنصر فقام الوزير الجمالي بتعيين ابن شقيقته المستعلي وأبعد نزارا صاحب النص ، وهو الابن الأكبر للمستنصر ، وقد مر بنا أن هذا الحدث كان سببا في انشطار الإسماعيلية إلى مستعلية ونزارية .

---

(٢١) المصدر السابق ١٤٩ ، ١٥٠ .

ولقد تكرر نفس الأمر في عصرنا حينما أوصى أغاخان الثالث المتوفي ١٩٥٧ م لحفيده « كريم » ولم يوص لأحد من ولديه « على وصدر الدين » برغم أن علياً والد كريم كان لا يزال على قيد الحياة ، ولكن لعل لمسلك علي الشخصي من أخذ بأسباب اللهو إلى درجة مسيئة قد أجبرت الإمام الإسماعيلي على حرمان ولده من الإمامة حتى لا يحط من قدر الطائفة أمام بقية طوائف المسلمين وغير المسلمين على حد سواء .

الإمام إذن هو محور الدعوة الإسماعيلية ، ولعل ذلك هو أحد الأسباب التي جعلها تنتظم الفرق الغالية ، فهم يقولون إن الأرض لاتخلو أبداً من إمام ، وهذا الإمام إما ظاهر مكشوف وإما باطن مستور ، فإذا كان الإمام ظاهرا جاز أن يكون حجته مستورا ، وإذا كان الإمام مستورا فلا بد أن يكون حجته ودعاته ظاهرين ، وتمشيا مع خطورة مركز الإمام يقول الإسماعيلية إن من مات ولم يعرف « إمام زمانه » مات ميتة جاهلية ، ومن مات ولم يكن في عنقه « بيعة إمام » مات ميتة جاهلية[٢٢] .

وعلى هذا النمط من تعظيم الإمام جعل الإسماعيلية للأئمة صفات لم تعرفها فرق الشيعة الأخرى ، ذلك أنهم يقولون ظاهرا إن الأئمة بشر كسائر الناس يأكلون وينامون ويموتون ، ولكنهم في تأويلاتهم الباطنية يقولون إن الإمام هو « وجه الله » و « يد الله » و « جنب الله » ، وأنه الذي يحاسب الناس يوم القيامة ويقسمهم بين الجنة والنار ، وأنه هو « الصراط المستقيم » و « الذكر الحكيم » و « القرآن الكريم » .

وتمشياً مع نظرية الظاهر والباطن التي أشرنا إليها نجد أن كتب الفقه الإسماعيلي مثل كتاب « الاقتصاد » أو « دعائم الإسلام » قريبة من المذاهب السنية كالشافعية والمالكية باستثناء ما جاء فيها من ولاية الإمام ووجوب طاعته ، هذا من الظاهر الذي يقرأه عامة الناس . أما الخاصة فكانوا يسمعون آراء سرية يلقيها عليهم داعي الدعاة يضفي فيها على الإمام صفات ترفعه إلى ما يشبه الإله ، من ذلك قولهم إن

(٢٢) الملل والنحل ١/١٧١ ، ١٧٢ .

التأويل الباطن هو من عند الله خص به علي بن أبي طالب ، وقالوا بالمشاركة بين النبي وعلي ، وذهبوا إلى أن عليًّا قد أورث الأئمة من أعقابه هذا التأويل الباطن الذي خص به دون النبي ، وعلى ذلك فالأئمة وحدهم ودون غيرهم هم الذين يدلون الناس على أسرار الدين ، وقد استشهد الإسماعيلية بقصة موسى مع الخضر في القرآن حينما خص الله الخضر بعلم الباطن مع كونه ليس نبيا وعدم معرفة موسى بذلك مع كونه نبيا ، استدلوا بذلك على أنه من المقبول في نظرهم ألا يعلم النبي علم الباطن وأن يعلمه عليّ ، وقد نظم الداعي المؤيد في الدين هذه العقيدة في هذه الأبيات :

وإن أجزنا ظاهر الكلام	في ذاك أسلمناه للخصامِ
ففي اختلافات القران كَثْرَهْ	مِنْ كل قولٍ معْ كُلِّ زُمْرَه
يا قومُ سرُّ الملكوت هذا	يجعل أصنامكم جُذاذا
سرٌّ له صاحَبَ موسى الخضْرا	قال : معي لن تستطيع صبرا
وقال موسى سوف أُلْفَى صابرا	فلم يكنْ إذْ ذاك إلا قاصرا
تدبروا القصة ماذا يمَّما	منْ قصَّها إنْ لم تكونوا نُوَّما
لعلكم أن تحسبوها سَمَرَا	إذنْ أسأتمْ للنفوسِ النظرا
ورُبَّ معنى ضمهُ كلامُ	كمثل نورٍ ضمهُ ظلامُ
باق بقاءَ الحَبِّ في السنابلِ	في معقلٍ من أحرزِ المعاقلِ
وإنما بابُ المعاني مقفلُ	وأكثرُ الأنامِ عنها غُفَّلُ
مفتاحُهُ أضحى بأيدي خزنهْ	بهم إلهي علمهُ قد خزنهْ
كيما يلوذُ الخلقُ طُرًّا بهمُ	خُصُّوا بهذا النورِ من ربهمُ[٢٣]

وعن هذا الطريق أخضع المفسرون الإسماعيلية آيات القرآن لتفسير رمزي يتمشى مع هذه العقيدة يلقن بشكل سري ويدعو إلى طاعة الإمام طاعة عمياء ، ولا يقف الأمر بالاعتقاد في الأئمة عند الحدود التي سلف ذكرها ، بل يقول الإسماعيلية إن الأئمة الذين خلفوا الأنبياء ، في مرتبة واحدة وصفات واحدة ،

---

(٢٣) كامل حسين ١٥٧ ، ١٦٣ .

ونتيجة ذلك فإن إمام العصر هو وارث الأنبياء جميعاً وكل من سبقه من الأئمة ، فهو صاحب صفات كل الأنبياء والأئمة السابقين ، ولذلك كان يوصف الإمام الإسماعيلي في الدور الفاطمي بأنه خليل الله وكليم الله والمسيح الذي يحيي الموتى ، إلى غير ذلك من المنن والمعجزات ، وفي ضوء ذلك يربط الأستاذ الدكتور كامل حسين بين هذه الآراء والمعتقدات التي كانت مطوية في كتب الإسماعيلية ثم عثر عليها أخيرا ، وبين بعض ما مدح به الأئمة من شعر لم يكن مفهوم المعنى والمرمى كاملا إلى عهد قريب . مثال ذلك قول أحد الشعراء يمدح الإمام الفاطمي :

سلامٌ على العتـــرةِ الطاهـــرهْ	وأهـــلا بأنوارهـــا الزاهـــرهْ
سلامٌ بديًّــــــا على آدمٍ	أبي الخلـــق باديـــهِ والحاضرهْ
سلامٌ على مَنْ بطوفانــــــه	أُديرتْ على من بَغى الدائرهْ
سلامٌ على من أتـــاه السلام	غداةَ أحـــفَّتْ به النائـــره
سلام على قاهـــرٍ بالـــعصا	عصاة فراعنـــةٍ حائـــره
سلام على الروح عيسى الذي	بمبعثــــــه شرُفَتْ ناصرَهْ
سلام على المصطفـــــى أحمدٍ	ولـــيِّ الشفاعـــة في الآخره
سلامٌ على المرتضي حيـــدرٍ	وأبنائـــهُ الأنجم الزاهـــره
سلام علـــيك فمـــحصولهم	لديك أيا صاحب القاهرهْ[٢٤]

والحق أن الشعر الذي قيل في الأئمة الإسماعيلية قد كشف عن جانب كبير من مدى القداسة التي أسبغها عليهم المذهب ، فعبيد الله المهدي يمدحه شاعر اسمه محمد البديل بشعر قريب في معناه ومرماه من الأبيات التي مر ذكرها وإن كانت هذه الأبيات أسبق من التي مرت — يقول الشاعر :

حَلَّ برقّـــادةَ المسيـــحُ	حَلَّ بها آدمٌ ونـــــوحُ
حل بها أحمدُ المصطفـــى	حل بها الكـــبشُ والذبيـــحُ
حَلَّ بها الله ذو المعـــالي	وكـــلُّ شيء سواهُ ريحُ[٢٥]

---

(٢٤) كامل حسين ١٦٩ ، ١٧٠ .
(٢٥) حسن إبراهيم ٣٢٧ .

ومعروف أن المهدي هو أول الأئمة الظاهرين في الدور الفاطمي ، وكان عنيفا في كراهته للصحابة وسب أصحاب النبي وأزواجه ، باستثناء علي بن أبي طالب والمقداد بن الأسود وعمار بن ياسر وسلمان الفارسي وأبي ذر الغفاري ، وزعم أن الصحابة باستثناء هؤلاء الذين ذكرنا قد ارتدوا بعد النبي .

وإذا كان الخليفة الفاطمي الأول قد مدح بهذه الطريقة التي جعلته والأنبياء سواء فإن خليفته الرابع وأول خليفة فاطمي بمصر ، أي المعز لدين الله ، قد مدح بما يشبه ذلك أو أكثر حين وجه ابن هانئ الأندلسي إليه القول :

نَدْعُوهُ منتقما عزيزا قادراً غفار موبقة الذنوب صفوحا
أقسمتُ لولا أن دعيت خليفة لدعيت من بعد المسيح مسيحا
شهدتْ بمفخرك السمواتُ العُلا وتنزّل القرآنُ فيك مسيحا

والشاعر نفسه يمدح نفس الخليفة في مناسبة أخرى هي عيد النحر بمعان ترفع الممدوح إلى مكانة لا تقل عن مثيلتها في الأبيات السابقة فيقول :

هذا ابن وحي الله تأخذ هَدْيَها عنه الملائكُ بُكرةً وأصيلا
ذَعرَتْ مواكبه الجبال فأعلنت هضباتُها التكبيرَ والتهليلا
وعلمتَ من مكنونِ سرِّ الله ما لم يؤتَ في الملكوت ميكائيلا
لو كان آتى الخلقَ ما أُوتيته لم يخلق التشبيه والتمثيلا

ويظل الشعر الفاطمي يسجل رأي الإسماعيلية في مكانة أئمتهم التي رفعوها إلى مرتبة من الألوهية في جميع المراحل ، وقد مرت بنا الأبيات التي مدح بها الأمير تميم أخاه الخليفة العزيز ، وهذه أبيات للشاعر أبي الحسن الأخفش لا تخرج معانيها عما تعود الإسماعيلية أن يصفوا به أئمتهم :

بشرٌ في العين إلا أنه عن طريق العقل نورٌ وهدى
جلّ أنْ تدركه أعْيُنُنا وتعالى أن نراهُ جسدا
تدركُ الأفكار فيه بانيا كاد من إجلاله أن يُعبدا

ظل الإسماعيلية على هذه الشاكلة من العقائد التي لم يتوجسوا خيفة من إعلانها طالما كانت لهم دولة ، فلما عصفت الأيام بدولتهم عادوا إلى التقية والسرية ، بحيث لا يسمح إلا لكبار الدعاة فقط بمعرفة أسرار التأويل ، وبقي الحال على هذا المنوال إلى اليوم عند طائفة البهرة التي تمثل بقايا الإسماعيلية المستعلية . أما الإسماعيلية النزارية فقد عمدوا إلى التأويل الباطني وتركوا الظاهر ، وكل تأويلاتهم تذهب إلى تمجيد الأئمة وتفخيمهم ، فكل الفضائل التي وردت في القرآن أو الأحاديث النبوية تؤول على أنها الإمام ، فقد قالوا إن القرآن الكريم تأويله الإمام ، والأهلة هم الأئمة ، والشمس الإمام ، والقمر الإمام ، والسماء هي الدعوة والعرش الدعوة ، والأرض الدعوة ، والجبال هم الدعاة ، والملائكة هم الدعاة ، والطاغوت والأصنام والشياطين هم أعداء الأئمة .

وللإسماعيلية تفاسير للقرآن فيها الكثير من الطرافة والجرأة في نفس الوقت ، ولهم حول قصة آدم كلام كثير ، فمن تأويلهم الباطن أن آدم لم يكن أول الخلق كما تقول الأديان السماوية ، إنما كان قبله قوم عاش آدم بينهم ، وآدم هذا كان له « حجة » رمز القرآن إليه بحواء ، فحواء لم تكن أنثى ولم تتزوج آدم ، وإنما كانت أقرب دعاته إليه ، وكان كلاهما ينعم في دعوة الإمام الذي كان سابقا لآدم ، وكانت دعوة إسماعيلية ، وهي التي عبر عنها القرآن بالجنة ، ثم تطلع آدم إلى مرتبة أعلى من مرتبته فأخرجه الإمام من الجنة أي من الدعوة[٢٦] . والأمثلة كثيرة في كتب الإسماعيلية وتفاسيرهم تشير كلها إلى تعظيم الإمام على طريقة تأويل الآيات الخاصة بقصة آدم .

وهكذا نلاحظ أن عقائد الإسماعيلية ليست مستمدة بشكل مباشر من الكتاب والسنة ، وإنما دخلتها فلسفات أثرت فيها مثل الفيثاغورية والأفلاطونية الحديثة ، فكما أن الفيثاغوريين جعلوا الأعداد أساسا لفلسفتهم كذلك فعل الإسماعيلية حينما جعلوا الأعداد أصولا لعقيدتهم ، فظهرت عندهم الأعداد وما يقابلها من أصول دينية ، فالواحد عندهم هو العقل الكلي أو القلم ، والاثنان هما : العقل الكلي

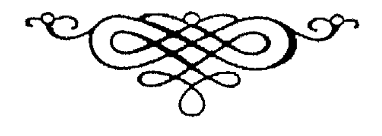
---

(٢٦) كامل حسين ١٦٧ .

والنفس الكلية ، أي القلم والروح ، والثلاثة هم : محمد وعلي وفاطمة ، والخمسة : هم القلم واللوح وميكائيل وإسرافيل وجبريل ، وهم أيضا محمد وعلي وفاطمة والحسن والحسين ، وهم الإمام والحجة والداعي والمأذون والمكاسر ، وهكذا بنوا عقيدتهم على الأعداد وهي الفلسفة الفيثاغورية التي كان المسلمون قد عرفوها نتيجة لنشاط الترجمة فانتشرت في الأقطار الإسلامية ، فالتقطها الإسماعيلية وبنوا عقيدتهم على أساسها وصبغوها بالصبغة الإسلامية .

وكما تأثر الإسماعيلية بالفلسفة الفيثاغورية تأثروا أيضا بالأفلاطونية ، فنظرية أفلاطون تقول بأن ما في العالم الحسي أشباح لمُثُل في العالم العلوي ، والإسماعيلية تقول إن ما في عالم الدين مُثُل لممثولات في العالم الروحاني . وأيضا أخذ الإسماعيلية عن الأفلاطونية الحديثة رأيهم في الإبداع . وظهور النفس الكلية عن العقل الكلي وأن العالم خلق بواسطة اللوجوس (الكلمة) فقال الإسماعيلية إن الكلمة التي خلق عنها العالم هي كلمة (كن) التي وردت في الآية الكريمة « إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون » وإن كلمة « كن » مكونة من الكاف والنون ، فالكاف رمز على القلم أو العقل الكلي ، والنون رمز على اللوح ، أي النفس الكلية ، ولذلك فسر الإسماعيلية قوله تعالى « نون والقلم » أن الله تعالى يقسم بأعز مخلوقين عنده وهما اللوح والقلم[٢٧] .

والذي يتابع الفلسفة الإسماعيلية يمكنه أن يربط بينها وبين الأفلاطونية الحديثة في أكثر آفاقها ، غير أن الذي نعلمه ونقول به هو أن مبادئ الإسلام وعقائده أسمى من كل تلك الفلسفات ، وأرفع من أن ترتبط بها أو تتذرع بما تضمه بين دفتيها ، فالعقيدة الإسلامية شريعة سماوية وأما تلك الفلسفات فأفكار أرضية دنيوية .



---

(٢٧) كامل حسين ١٧٤ ، ١٧٥ .



الـــدروز

نشأتهم وتاريخهم :

الدروز فرقة إسماعيلية اتسمت بطابع الباطنية حيث أخفوا عقيدتهم عن غيرهم من الفرق الإسلامية ، وقد نشأوا في إبان العصر الفاطمي ، وظلوا منطوين على أنفسهم ، ينأون بعقيدتهم أن تذاع ، ويحرصون على اعتقاداتهم أن تشيع وتعرف بين سائر الناس .

والدروز مواطنون صالحون يسكنون أنحاء متفرقة من لبنان وبعض مناطق سورية ، ونتيجة لهذا الانطواء الذي أشرنا إليه كثرت حولهم الأقاويل ، وتناثرت حولهم الظنون التي يعتمد أكثرها على الحدس والتخمين ، بل لقد قامت حولهم كثير من الادعاءات الباطلة والافتراءات الخبيثة .

لقد عشت بين الدروز فترة من حياتي وعاشرتهم في إحدى قراهم ، وأشهد أني لمست فيهم الوطنية الكاملة والغيرة في الحق والشجاعة والوفاء والاستقامة والصدق والعفة ، هذه الصفات الطيبة أسجلها غير مبالغ أو مجامل ، لأني لمست كثيراً من أخلاقهم ورأيت جانبا مشرفاً من كفاحهم ، الأمر الذي ربطني بكثير منهم برباط المودة والصداقة والتقدير .

ولكن برغم هذه الروابط الكثيرة التي ربطتني بهم فسأحاول أن أكون منصفا في هذا التعريف بهم ، أقول ما لهم وما عليهم ، وهدفي من ذلك الخير والصلاح ، ولمّ الشمل الذي استهدفته من أول كلمة خططتها في هذا الكتاب .

والدروز يفضلون أن يطلق عليهم اسم « الموحدين » وإن كانوا لا ينكرون تلقيبهم بالدروز .

وقد اختلف المؤرخون في لفظة « دُرْزي » وهل هي بضم الدال وسكون الراء أم بفتح الدال والراء كليهما ؟ ذلك أن هناك شخصين ارتبط كل منهما بالدروز سلبا أو إيجاباً ، فهناك محمد بن إسماعيل الدَّرَزي بفتح الدال المشددة وفتح الراء ، وهو أحد الداعين لتأليه الحاكم بأمر الله الخليفة الفاطمي ، وقد بشر بمذهبه هذا في وادي التيم ، الموطن الأول للدروز ، وكانت له ميول يهودية مجوسية ، ويقال إن الدروز قتلوه ، وهو المعروف باسم نشتكين الدَّرَزي . وهناك آخر اسمه أبو منصور أنوشتكين الدُّرْزي بضم الدال المشددة وسكون الراء ، وهو أحد قواد الحاكم بأمر الله ، ويقال إن الطائفة تنتسب إلى هذا الأخير دون الأول ، ومازال الدروز حتى اليوم يلعنون نشتكين ويجلّون أنوشتكين[٢٨] .

اختلف المؤرخون إذن في نسبة الدروز إلى أيّ من الشخصين سالفيْ الذكر ، ومهما كان الأمر فإن نشتكين قد بشر بألوهية الحاكم في وادي تيم الله بن ثعلبة ، ووجد بعض الأنصار الذين انخدعوا بدعوته ، وظل هؤلاء على مسرى التاريخ عنصر فساد في صفوفهم ، ودعاة بدعة وفرقة ، لما تنطوي أهدافهم عليه من سوء الطوية إزاء الإسلام وصفوف المسلمين .

والدروز عرب خُلّص ، فهم من لخم وتنوخ ، وهما قبيلتان عربيتان لكل منهما ماض مشرق ، وإن لم يكن كل أبناء القبيلتين ممن اعتنقوا المبادئ الدرزية ، حتى إننا نجد أحيانا الأسرة الواحدة وقد ضمت فروعها سنيين وإمامية ودروزاً ، وقد لعب الدروز دورا مشرفا مشرقاً إبان المحن التي تعرض لها الوطن الإسلامي ، فقد

---

(٢٨) الدروز للزغبى ص ٣٦ ، ٣٧ ، ٥٢ والدروز لسليم أبو إسماعيل ص ٧ .

حاربوا الصليبيين تحت راية صلاح الدين ، وحاربوا التتار تحت راية بيبرس ، وكانوا المرابطين الساهرين على الثغور البحرية الشامية ، فأحسنوا السهر ، وأبلوا البلاء الحسن في ساحة النضال ومازال التاريخ الحديث يذكر لهم تصديهم للفرنسيين في معارك جبل العرب ، حيث واجهوا الدبابات والمصفحات بأجسامهم وسيوفهم ، فأعطبوها وقضوا على من فيها من الجنود ، ولم يزل للدروز نصيبهم في الكفاح المتصل الحلقات .

ويسكن الدروز حاليا بعض مناطق جبال لبنان مثل مناطق الشوف والمتن والجنوب ، ولهم مدن ذات تاريخ مجيد في حركتهم مثل عبية والشويفات وبعقلين ، وكان لهم في هذه المدن إمارات ، وهناك قرى كانت درزية في الماضي مثل دار القمر المعروفة بدير القمر التي كانت بلدة الدروز الرئيسية في القرن التاسع عشر ، وكانت في يوم ما عاصمة للمعنيين ،والأمر كذلك بالنسبة لبسكنتا وبكفيا بل وكثير من قرى جبل كسروان .

وفى سورية يكثر الدورز في جبل حوران المعروف حاليا باسم جبل العرب ، كما يسكنون في جبل السماق والجبل الأعلى وقرى قنسرين وبعض قرى أنطاكية في لواء الإسكندرونة ، ويكثر الدروز أيضا في بعض أقاليم فلسطين المحتلة مثل صفد وعكا وجبل الكرمل وطبرية[٢٩] .

وإذا كنا قد عرضنا لتاريخ الدروز ونسبتهم وأصلهم القبلي في بساطة بقولنا إنهم ينتمون إلى قبائل لخم وتنوخ ، فإن بعض المؤرخين الدروز يميلون إلى الغوص بنسبهم إلى أغوار بعيدة سحيقة ، ولكن في حوزة العروبة حيث يقولون إنهم من عرب سوريا والعراق ، وجدوا فيهما منذ فجر التاريخ ، ولبثوا قائمين على الدهر بمن اندمج فيهم وانضم إليهم من عرب اليمن والحجاز الذين قدموا هذه البلاد واستوطنوها ، فامتزجت دماؤهم قبل النصرانية والإسلام ، وقبل بعث موسى وعيسى ومحمد الذين اعتنقوا دياناتهم على التعاقب .

---

(٢٩) أبو إسماعيل ٤٣ ، ٤٤ .

وسواء أصح هذا الكلام من حيث الأصول الأولى أم لم يصح ، فإن المؤرخ الدرزي يهدف من وراء ذلك إلى إثبات أن الدروز طائفة متماسكة منذ القدم ، وأنهم كانوا أهل كتاب دائما وعلى مسرى الزمان الطويل ، فقد انضووا تحت نور الرسالات السماوية رسالة إثر رسالة ، آمنوا بموسى فلما جاء عيسى صدقوا به ، فلما جاء الإسلام سارعوا إلى اعتناقه .

وهم في ظل الإسلام ذوو أسماء متتابعة ، ففي عهد الرسول عرفوا باسم الأنصار والمؤمنين ، ثم عرفوا على التعاقب بالشيعة العلوية ، ثم شيعة آل محمد ، ثم شيعة جعفرية ، ثم إسماعيلية ، ثم موحدين ، ثم قرامطة ، ثم فاطميين ، ثم دروز ، وهذا الاسم الأخير هو الذي ظلوا يعرفون به إلى اليوم ، وذلك لمحاربتهم تحت لواء الأمير أنوجور أبي منصور المعروف باسم انوشتكين الدرزي ، ومن هنا ذهب البعض إلى أن الدرزية نسبة عسكرية وليست عقائدية[٣٠] . وأما الاسم العقائدي فهو الموحدون ، وعقيدتهم يطلقون عليها مذهب التوحيد .

الدروز إذن كانوا فرقة إسماعيلية باطنية ، وهم يعتبرون انفسهم الان ولألف سنة مضت أو أكثر في دور الستر ، فلا يكشفون عن أمر عقائدهم وأئمتهم ما يلقي بعض الضوء على مذهبهم ، الأمر الذي ربما شجع الكثيرين من المزيفين على أن يخترعوا بين الحين والحين بعض الرسائل وينسبوها إلى الدروز ، ولقد لعبت المصادفة أكثر من مرة دورا مرموقا في كشف كثير من الزيف الذي يحاول بعض خصومهم نسبته إليهم .

وأغراض الاستعمار واضحة في التطاول على الدروز ، فطبيعة الاستعمار ــ لكي يسود ويعيش ــ التفريق بين صفوف الأمة الواحدة ، فهو يغري السّنة ضد الشيعة ، والجعفرية ضد الدروز ، والدروز ضد السنة ، وهكذا حتى يستطيع أن يقيم لنفسه سندا ودعامة ، ولكننا لا نبرئ أنفسنا من الإهمال ، فبالاستطاعة أن يكشف كل فريق من الفرق الإسلامية عن طبيعة مذهبه حتى نقطع الطريق على

---

(٣٠) أبو إسماعيل ص ٦٣ ، ٦٤ .

المزيفين والصائدين في الماء العكر ، خاصة أننا في زمان كفلت فيه حرية العقيدة إلى حد بعيد ، بل إلى أقصى الحدود .

زهد الدروز وأدبهم :

رجال الدين الدروز معروفون بالزهد الشديد والتقشف ، وتحكى عنهم أخبارتدعو إلى الإعجاب في هذا الميدان ، ولكن الملاحظ أن الدروز جميعا لا يستطيعون الأخذ بأسباب التدين ، فهناك «العقال» وهم مشايخ الدين ، وهناك « الجهال » وهم غير رجال الدين الذين لا يستطيعون معرفة أمورديتهم والاطلاع عليه إلا بعد امتحان شاق طويل ومجاهدة .

والزهد عند مشايخ الدروز لا يعني التواكل ، بل هو هدوء وعفة ، وصدق ونزاهة ، وابتعاد عن الشبهات والمحرمات والشهوات ، وإعراض عن بهارج الدنيا وزخارفها ، وبعد عن الحكام والسلطان ، وتلاوة وعبادة ، مع توخي كسب الحلال من الرزق الذي يقيم الأود ويسد الرمق .

والزاهد عند بني معروف ـــ أي الدروز ـــ يبدأ مسلكه بالاطلاع على حياة المتصوفة واستقصاء أخبارهم ، ويأخذ من آدابهم ما يستطيع الأخذ به ، ويقبل على قراءة أخبار كبار الزهاد ـــ مثل معروف البلخي وذي النون المصري والجنيد وبشر الحافي وإبراهيم بن أدهم وغيرهم .

ويتمثل الزهد عند الدروز فيما أنشده زهادهم الذين تفرغوا للعبادة ، وقاوموا النفس وجاهدوا شهواتها ، وفي مقدمة هؤلاء الأمير سيف الدين يحيى التنوخي المولود في « عبية » بلبنان سنة ٨٧٩ هـ ، وكانت « عبية » في ذلك الوقت ذات مكانة سامية ، لأنها كانت من مواطن الأمراء التنوخيين ، وفيها عاش كبير مجتهدي الدروز السيد جمال الدين عبد الله التنوخي المعروف بالأمير السيد ، وكان شاعرنا أحد تلاميذه ، وللأمير السيد قبر لا يزال يزار حتى يومنا هذا في « عبية » ، والقبر في مسجد كان السيد يلقي فيه دروسه وتعاليمه .

يقول الأمير سيف الدين في إحدى قصائده عامدا إلى الزهد :

تجري الأمورُ وما للمرءِ معتبرُ — حتى تحلَّ به في نفسه العبـــرُ
ما ردَّه عن ضلالٍ في مآربـــهِ — عندَ الخمولِ ضيا شمسٍ ولا قمرُ
لا حيلة في قضاء ساقـــه قدرٌ — ففي المقادير يَعْمَى القلبُ والبصرُ
والمرءُ ما دامت الأيامُ مدبـــرةً — عنه تساوى لديه النفعُ والضَّرَرُ
إن القضاءَ إذا لاحتْ بوادرُهُ — لم يُنْجِ من خطبه خوفٌ ولا حذرُ
يسعى إليه الفتى طوعاً وتتبعه — أوامرُ النفسِ والمقضيُّ مستترُ
والنفسُ أمَّارةٌ بالسوءِ إن طلبتْ — أمراً يهون عليها المسلكُ الوعرُ
تغوى النفوسُ بما لا تستطيع له — صبراً ويُسلَبُ فيه العزُّ والظفرُ
عدوُّ كل لبـــيب نفسه ، فإذا — ما استحكمت منه لا تُبْقي ولا تذرُ
ما تنتهي بوعيـــدٍ في شبيـــبتها — إلا إذا ما نهاها الشيبُ والكبرُ
فجاهد النفسَ عصياناً وكن رجلا — ما عنده للهوى إثرٌ ولا خبرُ
إن الهوى حيثما لذّتْ مواردُهُ — عقبى اللذاذةِ منه الهمُّ والفِكرُ
حُلو المذاقِ ، ومرٌّ عند مَطْعَمِهِ — كالشهد أودِعَ فيه الصابُ والصبرُ
إن سَرّ موردُهُ ساءَت مصادِرُهُ — وربما ساءَ منه الوِرْدُ والصدرُ

ويمضى الشاعر في هذا النهج الجميل إلى أن يقول :

فراقب الله في مسعاك محتذراً — فالله أسرعُ مكْراً بالأُلَي مكروا
إياكَ إياكَ ما تُخشى عواقبُـــهُ — لا خيرَ في جنةٍ من بَعْدِها سَقَرُ
شرُّ الأمورِ التمادي في اللجاج على — أمرٍ تكـــون به للشرِّ تنتظـــرُ
لا تَرْمِ نفسَكَ في أمـــرٍ تهمّ به — عند الغواية حتى تُؤْمَنَ الغيرُ
ولا تظنَّ بها خيراً وإن وعدت — ما يصدُقُ الظنُّ حتى يشهد النظرُ
ولا تهوِّنْ عليها نيـــلَ بغـــيتها — فما يعود لها عن ذاك مُصْطَبرُ
فإن قضيتَ مناهـــا في غوايتها — قضى عليك لهيبُ النار والشَّرَرُ
والنفسُ بالغة في شر صاحبها — ماليس تبلغه بيضٌ ولاسُمرُ
قد خاب من جاءَها يبغي هوايتها — إنْ كان باللوم والتعنيف يبتدرُ

وضلّ من ظن أن العذلَ يزجرها — عن المعاصي أو التحذيرُ والنذُرُ
ما تنتهي بوعيدٍ من تصدّرها — ولا تروّعها الآيات والسُّوَرُ[31]

ومن زهاد الدروز الذين ترجموا عن زهدهم شعراً الشيخ يوسف الكفرقوقي ، نسبة إلى قرية كفرقوق بوادي التيم بلبنان ، وكان عالما متدينا لا يفتأ يتلو القرآن الكريم ويراجع الكتب الدينية ، وقد افتتن الشيخ بالمحسنات في شعره ولزوم ما لا يلزم ، وله على كل حرف من حروف المعجم قصيدة ، يستفتح كل بيت من أبياتها بنفس القافية التي ينتهى بها ، والقصيدة كلها من قافية واحدة وعلى رويّ واحد ، ولا يكتفي الشاعر الزاهد بذلك بل يقدم لكل قصيدة بمقدمة يبدأ كل جملة فيها بالحرف الذي اختاره قافية لقصيدته مثال ذلك قوله في حرف الباء : « بادر إلى مولاك بالإنابة ، باتل[32] طاعته واتل كتابه ، باين أعداءه بموالاة أحبابه ، باشر نفسك بملازمة بابه ، برّد قلبك بلذيذ مناجاته وخطابه ، باين شهوات نفسك الأمارة ، بواغتها لم تزل بالخبث غدارة ، باعد مطلوباتها في أعدى أعداك ، بهتانها إن أطعته أهلكك وأرداك ، براءتك من وساوسها تقربك إلى مولاك :

بباب الرَّجَا قُمْ واغتنمْ لذةَ القربِ — إلى مالكِ الأَملاك إن كنتَ ذا لُبِّ
بأوفِ صفاءٍ في ولاءٍ لعله — يسامح فيما قد جنيتَ من الذنبِ
بألطافه يصفو ويصفحُ مِنَّةً — ويشفي الذي يشكوه من لذةِ الكربِ
به جَبْرُ كسرِ المذنبين فإن أَتَوْا — إلى بابه يرجوا الخلاص من العَتْبِ
بإذعانهم والانكسارِ وذُلهم — لديه ، ويجنوا عنده ثمرَ الحُبِّ
بجنح الدياجي يبسطون أكفَّهم — إليه دعاءً بانكسارٍ إلى الرب
بحقك يا مولى العباد أبِحْ لنا — شهودَك واكشف دوننا مانع الحُجْبِ
بعزّك يا ذا العزِّ عطفاً لذلنا — وأوردْ علينا الخير من منهلٍ عذب

---

(٣١) عادل أبو شقرا : ثلاثة علماء من شيوخ بني معروف ٢٧ ــ ٣٠ .
(٣٢) باتل طاعته : أي انقطع إليها .

بما نرتجي من لطف عفوك هبْ لنا رضاك بيوم لا يؤمَّلُ بالصَّحْبِ
بك ـــ الله ـــ ينجو المستجير وما لمن ببابك مطلوب سوى الفوزِ بالقربِ

والشيخ الكفرقوقي يتلاعب في النظم والنثر ـــ كما أسلفنا ـــ بإلزام نفسه مالا لزوم له ، وهو قد أنشأ لكل حرف قصيدة مسبوقة بمقدمة نثرية ملتزما فيها حرفا واحداً ، وفي كل مقدمة وكل قصيدة لا يخرج عن المعاني المألوفة عند سائر المتصوفة ، فلا يكاد يحس القارئ أن صاحب الأبيات ينتسب إلى السنة أو الشيعة أو الدروز ، ولعل السبب في ذلك أن مدرسة التصوف واحدة ، ومعانيها واصطلاحاتها واحدة ، ومن هنا وجدنا أنفسنا أمام شعر زاهد ، وابتهالات صوفية لا تشير إلى مذهب متميز ، ولا تدل على طائفة بعينها .

ومن أعلام نساك الدروز وزهادهم الشيخ محمد أبو هلال ، الذي لقب لفرط تدينه ورفعة منزلته بين قومه « بالشيخ الفاضل » ، وقد عاش الشيخ الفاضل في القرن الحادي عشر الهجري في قرية تدعى « كوكبة » في جبل الشيخ ، وتوفي سنة ١٠٥٠ هـ ودفن في قرية « عين عطا » بوادي التيم ومازال قبره يزار حتى اليوم .

وقد حصَّل الشيخ علومه في دمشق ، فحفظ القرآن ، ووعى تفسير البيضاوي ، ونبغ في التجويد والحديث والنحو .

وللشيخ محمد أبي هلال قصص كثيرة تصور مبلغ زهده حتى إنه كان يجرش الشعير بيديه ويعجنه بقشوره ويصنع منه خبزا ، وهو ما يسمى عند الزهاد « بالخشكار » ، وكان يحتل بفضل زهده الشديد مكانة طيبة بين قومه ، وقد كانوا يستفتونه في أمور دينهم وأحوالهم ، وكانت له فتاوى على جانب من الجرأة ، من ذلك أنه لا يحل زواج الرجل أو المرأة ما لم يكن احتلام من الجهتين ، حتى ولو بلغا السبعين من العمر ، لأن الزواج من وجهة نظره لم يحلل إلا للولدية ولأجل بقاءِ النسل البشري ليس غير[٣٣] ، ولعل الشيخ كان ينظر إلى علاقة الرجل

---

(٣٣) أبو شقرا ص ٨٦ ، ٨٧ .

بالمرأة كزاهد وحسب ، والزهاد يباعدون بين أنفسهم وبين ملاذ الدنيا ، حتى ما أحل الله منها .

وللشيخ الفاضل شعر كثير في الزهد والمناجاة والتشفع بالرسول وآل بيته الكرام ، فمن أمثلة شعره في المناجاة قوله :

يا مؤنس الأبرار في خلواتهم	يا خير من حطت به النزّالُ
من ذاق حبك لا يريد زيادةً	أنت الحبيبُ وما سواك محالُ
وجمال نورك باهرٌ متألقٌ	ما لا يعادله سنىً وجمالُ
وكمالُ مجدك لا يُحَدُّ لِوَاصفٍ	إذْ لا يدانيه عُلاً وكمالُ
يا خالقَ الأكوانِ يا نورَ الهدى	عَزَّ الجلالُ وجلَّت الأفعالُ
يا ليت نفسي في هواكَ مطيعةٌ	فهواك صَفْوٌ للنفوس صَقالُ
يا مالكَ الملكوتِ يا مولى الورى	يا صاحبَ الجبروتِ يا مفضالُ
بالقرب منك حياتُنا ونجاتُنَا	والبعدُ عنك متاهةٌ وضلالُ
مولاي لا تقطع رجائي ، سيدي	من لا تَخيب بجودِك الآمالُ
والحمدُ مختصٌ بمجدِك دائمٌ	والعزُّ والتمجيدُ والإجلالُ
بعد الصلاةِ على النبيّ وآله	والمجدُ والتعظيم فيه يُقالُ[٣٤]

والشيخ الفاضل وغيره من شعراء الدروز لم يتعدوا هذا النمط من القول في الزهد والابتهال ، ذلك أن الزهد والتقشف يكادان يكونان أمراً ضروريا بالنسبة لطائفة المشايخ عند الدروز حتى يومنا هذا ، بل هو كذلك ، فهم لا يركنون إلى الزينة ولين العيش ، ولا يسعون إلى المباهج ، ولا يأخذون بأسباب الترف ، بل تراهم مخشوشنين متقشفين يجمعون بين القناعة والعفة والاستقامة ، والبعد عن المظان والشبهات ، ولكنهم مع هذا الزهد وتلك القناعة لا يثنيهم ما هم فيه من تنسك عن خوض الغمار إذا دعا داعي الكفاح ، فقد كانوا يخوضون المعامع في صفوف صلاح الدين ضد الصليبيين تظللهم عمائمهم البيضاء التي كانت تلقي الهيبة والرعب في صفوف العدو .

---

(٣٤) المصدر السابق ٩٤ ، ٩٥ .

العقيدة الدرزية :

الحديث عن العقيدة الدرزية أمر لا يخلو من كثير من الحرج ، فالقوم كما ذكرت يتصفون بالأخلاق الكريمة والمروءة والوفاء والوطنية ، وإن طبيعة « الستر » الذي يسدلونه على عقائدهم قد جعلت الناس يذهبون في ذلك مذاهب شتى ، فمن الكتَّاب من نسب إليهم ما يخرج بهم عن حظيرة الإسلام ، بل ما يسيء إلى مسلكهم الخلقي ، مع أن الذين عاشروا الدروز وعاشوا بينهم وخالطوهم ، يشهدون لهم بالفضيلة والكرم والعفة ، ومن الكتَّاب من جعل منهم فرقة إسلامية صحيحة الإسلام كاملة الإيمان ، أما القوم أنفسهم فإنهم لم يحاولوا أن يكشفوا للناس عن طبيعة عقيدتهم ودخيلة مذهبهم ، ومن هنا سنحت الفرصة لكثيرين فنشروا كثيرا من الرسائل المليئة بالانحرافات العقائدية ونسبوها إليهم ، والدورز أنفسهم في غمرة هذه اللجج لم يحاولوا أن يردوا على هذه الاتهامات ردا حاسما ، لأنهم بدورهم يحتفظون بكتبهم مخطوطة في أماكن أمينة لا يطلع عليها إلا الثقاة من علمائهم ، وما دامت العقيدة مكتنفة بالغموض محوطة بالسرية فإن

النتيجة الطبيعية أن تتضارب حولها الآراء ، وتتصارع إزاءها الأفكار ذات اليمين وذات الشمال .

وكم ودَّ المسلمون لو أن هذه الفرقة القليلة العدد العزيزة الجانب كشفت للناس عن دخيلة مذهبها حتى يتبين الأبيض من الأسود ، ويقطع الطريق على كل مزيف أو صاحب غرض أو حليف مرض ، ولكن لعل المتحررين منهم يخشون صولة الرجعيين الذين يكثرون في كل مجتمع من المجتمعات وليس عند الدروز وحدهم .

من أجل ذلك سأحاول أن أقدم عقيدة الدروز من واقع الكتب التي تعرضت لهم ، سواء أكان ذلك لهم أم عليهم ، ثم من واقع اتصالي الشخضي بكبار رجالهم وَمَنْ قد سمحت لهم طبيعة المذهب أن يصرحوا به ، خصوصا أن من لجأت إلى الانتفاع بهم من المكانة العليا الدينية والدنيوية عند القوم ، بحيث يكون كلامهم وأفكارهم موضع الاعتبار .

ألوهية الحاكم !! ؟

الذى لا شك فيه أن الدروز أتباع للحاكم بأمر الله الخليفة الفاطمي المعروف ، وقد كثرت أقوال المؤرخين حول الحاكم ، فأكثر المؤرخين أيد أن الحاكم قد ادعى الألوهية فترة من حياته ، ثم عاد وعدل عنها ، ثم عاد مرة أخرى وادعى تجسم الإله وحلوله في شخصه ، وظل على دعواه تلك إلى أن اختفى موتاً أو قتلا أو « غيبة » حسب اختلاف مسميات وفاته[٣٥] ، وأن داعية من دعاته اسمه نشتكين الدرزي قد بشر بألوهيته بين سكان وادي التيم في الأقطار الشامية فآمن القوم به ، بل هناك من يقول بأن من المحتمل أن يكون ادعاء الحاكم للألوهية ليس إلا نتيجة لتعاليم نشتكين المذكور[٣٦] .

وأصحاب هذا الرأي لا يقصرون أمر تأليه الحاكم على نشتكين وحده ، بل يذكرون أن حمزة بن علي أكثر الناس التصاقاً به وصفيه وفيلسوف المذهب ، قد صنف كتباً ذكر فيها أن روح الله سبحانه وتعالى حلت ثم انتقلت إلى علي بن أبي طالب ، وأن روح عليّ انتقلت إلى العزيز ثم إلى ابنه الحاكم ، وإذن فالحاكم في نظر حمزة وأتباعه إله بطريق الحلول ، كما أن له فى تأليه الحاكم كلاماً كثيراً .

وكان لحمزة أنصار كثيرون آمنوا بفكرته في الحاكم ، وجاهروا بنشر هذه الدعوة الجديدة ، ولعل أكثرهم حماسا رجل يقال له حسن بن حيدرة الفرغاني الأخرم ، وقد قرّب الحاكم هذا الرجل إليه وخلع عليه ، ولكن فكرة تأليه الحاكم لم تلق غير الاشمئزاز والسخرية من الناس ، فتقدم رجل كرخي ذات يوم من الأخرم وألقاه عن فرسه ثم قتله ، فما كان من الحاكم إلا أن أمر بقتل الكرخي ، غير أن الناس انتهزوا الفرصة فهاجموا دار الأخرم ونهبوها[٣٧] .

---

(٣٥) لم تصادفني كلمة موت أو وفاة بالنسبة للحاكم ولكن المصادر الدرزية تستعمل كلمة « غيبة » أو « اختفاء » .

(٣٦) الدولة الفاطمية لحسن إبراهيم ص ٣٥٣ .

(٣٧) حسن إبراهيم ص ٣٥٦ عن نهاية الأرب للنويري (المخطوط) .

فالدروز في نظر تلك الطائفة من المؤرخين هم الذين آمنوا بألوهية الحاكم ، وقد أدى ذلك إلى فتنة كبرى في صفوف طائفة الإسماعيلية ، الأمر الذي استدعى حميد الدين الكرماني أكبر علماء الإسماعيلية إلى أن يترك مقره بالعراق ، وأن يفد إلى مصر لكي يساهم في القضاء على تلك العقيدة الجديدة ، وأن يكتب رسالة عرفت باسم « الرسالة الواعظة » يثبت فيها كفر من تحدثه نفسه بتأليه الحاكم بأمر الله ، ولم يترك الكرماني مصر إلا بعد قتل الحاكم بأمر الله ، ولذلك فإن الدروز يعتبرون أول فرقة انشطرت عن فرقة الإسماعيلية[٣٨] .

تأليه الحاكم في مصحف المنفرد بذاته :

لقد كان حمزة بن على مؤسس العقيدة الدرزية والملقب فى « **مصحف المنفرد بذاته** » بالرقيب العتيد ، قد وضع ميثاقا أطلق عليه ميثاق ولى الزمان ، ذهب فيه إلى تأليه الحاكم بأمر الله تأليها صريحاً ، وأوجب على كل من يمارس شعائر دينه أن يعترف بكل محتوياته ، وأن يتعهد بالإيمان بكل فقراته ، أما مقدمة الميثاق فهذا نصها طبقا لما جاءت في مصحف المنفرد بذاته[٣٩] .

« هذا هو الميثاق والعهد الذي **أمر مولانا الحاكم جلّ ذكره ، بكتابته على جميع الموحدين الذين آمنوا به جلّ ذكره** وليوفوا بعهدهم الذى عاهدوا في إسحاق ، ثم وليشهد بذلك ذَوَا عدل من الموحدين السابقين على كل ميثاق ومن آب ممن آمن إلى الكفر ، ولم يولّ وجهه قبل القادر القاهر مولانا الحاكم البار ، فلسوف يجعل له مولانا فتنةً ومتاعاً إلى حين » .

« وهذا ما يكتبه ويشهد به الشاهدان ذوا العدل ، بلسان الفرد وإيقانه ، وهاك هو » أى أن هذا هو الميثاق ، فذلك نصه :

« توكلت على مولانا الحاكم الأحد ، الفرد الصمد ، المنزّه عن الأزواج والعدد ، من لا تأخذه سنة ولا نوم ، ذى التجلي والاشراق ، ومن هو في السماء

---

(٣٨) كامل حسين : الإسماعيلية ٤٣ .

(٣٩) مصحف المنفرد بذاته ، عرف العهد والميثاق صفحة ١١١ .

إله وفي الأرض إله ، قد أقر (فلان بن فلان) إقراراً أوجبه على نفسه ، وأشهد به على روحه فى جميع أدواره (★) ، فى صحة من عقله وجسمه ، وخالص أمره ، طائعاً غير مكره ، ولا مجبر ،بظاهره وبباطنه ، ومؤمناً غير منافق ولا مخاتن ، **إنه قد تبرأ من جميع الديانات والمذاهب والمقالات والاعتقادات جميعا** ، بتباينها واختلافها **وأنه لا يشرك في عبادة مولانا الحاكم ـــ جلّ ذكره ـــ أحداً** ، ماضياً أو حاضراً أو آتياً ، وأنه قد سلم روحه وجسمه وماله وولده وجميع ما ملكته يداه في جميع أدواره(*) ، ما كرّ الجديدان ومرّ الملوان ، وما كوّر الليل على النهار ، وكوّر النهار على الليل ، هو وذريته فى شتى أدوارهم(*) ومحياهم لمولانا الحاكم جل ذكره ، ورضى بجميع أحكامه له وعليه ، غير معترض أو منكر شيئا من أفعاله ، ساءه ذلك أم سرّه ، ومتى رجع عن دين مولانا الحاكم ـــ جلّ ذكره ـــ وهو ما كتبه على نفسه وأشهدنا به على روحه ، أو أشار بالرجوع عنه إلى غيره ، أو خالف شيئا من أوامره ، كان (فلان بن فلان) محروماً من جميع الحدود ، وكان مولانا الحاكم ـــ جلّ ذكره ـــ بريئاً منه ، والمؤمنون الموحدون فى جميع أدوارهم ، واستحق العقوبة من البارئ العليّ ـــ جل ذكره ـــ بأيدى المؤمنين ، وأن (فلانا ابن فلان) هو قد **أقرّ أن ليس له فى السماء إله معبود ، ولا فى الأرض إمام موجود إلا مولانا الحاكم جلّ ذكره ، وتعالت مطالعه ومشارقه** ، وبذلك دخل (فلان بن فلان) وأصبح من الموحدين المؤمنين الفائزين السابقين كتب فى شهر (   ) من سنة (   ) من سنى عبد مولانا ـــ جل ذكره ـــ ومملوكه حمزة ابن على بن أحمد ، هادى المستجيبين ، المنتقم من المشركين المرتدين ، بسيف مولانا جل ذكره ، وبشدة سلطانه وحده »[٤٠] . ثم يوقع على هذا الميثاق شاهد وكاتب .

إن هذا النص ، وهو مأخوذ من مصدر موثّق غير مطعون فيه ، يدل دلالة واضحة على أن الحاكم بأمر الله مؤلّه عند كثير من الطائفة المتدينة من الدروز .

(★) تؤمن العقيدة الدرزية بالتناسخ بمعنى أن الإنسان إذا مات فإن روحه تتقمص إنساناً آخر يولد بعد موت الأول ، فإذا مات الثاني تقمصت روحه إنساناً ثالثا وهكذا فى مراحل متتابعة للفرد الواحد ، وأطلق على كل مرحلة من هذه المراحل لفظ دور والجمع أدوار .

(٤٠) مصحف المنفرد بذاته صفحه ١١٢ – ١١٤ .

هذا وتدور « أعراف » مصحف المنفرد بذاته ـــ أى سُوَرُهُ إن صح أن تسمى سوراً ـــ على محور واحد هو تأليه الحاكم بأمر الله ، ففي « عرف صلاة الفجر » يرد هذا النص : « تفكر بهذه الصلاة يا أبا إسحاق ، وتمعن في بيانها ، **بالتوجه إلى مولانا الحاكم الخالق ، وصلّ له غبّ كل فجر** كى يمرّ عليك طيب نسيم العرفان »[٤١] .

وفى « عرف تجلّي شمس الحقيقة وتغريد الحمامة الأزلية » تكون بدايته هكذا : « بلّغْ ، بلّغْ ، بلّغْ ، يا أبا إسحاق ، ومولانا الحاكم الباري يشهد أنّى قد بلغت ، وأنذر عشيرتك ومن حولك ، واكتب ، وأعلم جميع المدائن ، وليدخل بلاغك كل بيت ، وليسمعه كل أذن ، وأنذرهم بالليل والنهار ، بلّغ ، وقل لهم قولا لينا ، لعلهم يتذكرون أو يخشون ، وادع إلى سبيل مولانا الحاكم الخالق البارى بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بما فى أيديهم وما خلفهم »[٤٢] .

وفى نفس العرف « عرف تجلى شمس الحقيقة » يرد هذا النص : « وقلنا لكم من قبل انظروا هذه المائدة وتزودوا منها فإن خير الزاد التقوى ، وها نحن نمنّ عليكم كما أنبأكم السابقون ، لعل أجسادكم تحيا بعد موتها بأنوار شمس الحقيقة بإبداع اللطيف الحاكم الباري لتفوزوا بأنفس ذوى الغلائل والعرش ، وسارعوا إلى صراط من ربكم الحاكم لتشربوا من الأكواب الدائمة مادامت في الحياة بقية »[٤٣] .

ومن فقرات « العرف » نفسه يرد هذا النص :

«ولولا إذ رأى ربُّكَ الحاكمُ تقلب وجهك إليه ، فأعطاك لهم آية إثر آية ترضاها ، والآن فإن كبر عليك إعراضهم ، فخذ نفقاً فى الأرض أو سلّما فى السماء ، وأنّى لك ذلك . ولو شاء ربنا الحاكم أن يجمع قلوبهم على الهدى

---

(٤١) مصحف المنفرد بذاته صفحة ٩٧ .

(٤٢) مصحف المنفرد بذاته صفحة ٩٨ .

(٤٣) مصحف المنفرد بذاته صفحة ١٠١ .

لجمعهم ، ولكنهم عموا عن اتباع الحق ، إنما يستجيب الذين يسمعون فيعقلون ، والموتى يبعثهم مولانا صُماً وبكماً فى الظلمات »[٤٤] .

ولقد ورد فى « عرف صلاة الشكر والحمد على الإيمان » أن الحاكم إله معبود ، وأن حمزة بن على هو رسوله إلى الناس ، وأنه أنزل عليه ما يعرف « بمصحف المنفرد بذاته » لقد وردت هذه الفقرة فى صيغة مناجاة ضمن قافلة طويلة من صيغ المناجاة والتأليه هذا نصها :

« مولاى الحاكم البار ، عرفتُك فى هذه النفس التى كثيرا ما بحثت عنك وأنت مرشدها فرأتك فيها ، وعرفتك أنت يا حبيبي منها : **إلهى أنا المؤمن بك** ، المعترف بشموسك ومطالعك ، المقرّ بذى المصّة وذى لواء المستظلين الموحدين الآئبين ، سيفك النازل على رقاب المشركين المرتدين ، **حمزة بن على** ، **هادى المستجيبين** ، **صاحب اللوح المحفوظ فى معارجه ، ومن تكرمت فأنزلت من سماء مشيئتك لنا به هذا المصحف المنير** ، المسمى : **المصحف المنفرد بذاته** »[٤٥] .

وفى « عرف الرحمة » يضفى « مصحف المنفرد بذاته » على الحاكم بأمر الله ، صفات الله سبحانه وتعالى مقتبسة من القرآن الكريم مثل « وسع كرسيه السماوات والأرض »[٤٦] و « يبدأ الخلق ثم يعيده »[٤٧] و « ما ننسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها أو مثلها ، ألم تعلم أن الله على كل شيء قدير »[٤٨] .

وفى أحيان أخرى تأتي الآية القرآنية محرّفة ومطوّعة لخدمة هدف تأليه الحاكم ، مثل هذه العبارة « قل لا ييأس من روح الله الحاكم إلا الكافرون »[٤٩] أو مثل تلك العبارة « وما كان لموحد ولا موحدة إذا قضى مولانا الحاكم البارى أمرا من أمور

---

(٤٤) مصحف المنفرد بذاته صفحة ١٠٣ ، ١٠٤ .

(٤٥) مصحف المنفرد بذاته صفحة ١١٨ ، ١١٩ .

(٤٦) هى فقرة من آية الكرسي رقم ٢٥٥ في سورة البقرة .

(٤٧) هي فقرة من الآية ٤ من سورة يونس وتمام صوابها : « إنه يبدأ الخلق ثم يعيده » .

(٤٨) الآية ١٠٦ من سورة البقرة .

(٤٩) أصل الآية في القرآن الكريم : « إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون » الآية ١٧ سورة يوسف .

دنياهم أو نسخ حكما أن تكون لهم الخيرة من أمرهم ، ومن يعصى مولانا فى أوامره ونواهيه ، فقد انقلب على وجهه خسر الدنيا والآخرة وضل ضلالا مبينا »[٥٠] .

على هذا القياس ينهج مصحف المنفرد بذاته فى سرد صفات الحاكم وأعماله من حيث كونه مؤلهاً ويجرى النص فى « عرف الرحمة » هكذا :

« وليعلم الذين آمنوا أن مولانا الحاكم جلت قدرته ، ووسع كرسيه السموات والأرض ، هو يعلم كيف وحيث يبدأ الخلق ثم يعيده ، ويعلم متقلبهم ومثواهم ، وما ينفعهم وما يضرّهم ، ويعلم الصابرين منهم والقانطين . قل لا ييأس من روح الله الحاكم إلا الكافرون ، وما كان لموحد ولا لموحدة إذا قضى مولانا الحاكم البارى أمرا من أمور دنياهم أو نسخ حكما ، أن تكون لهم الخيرة من أمرهم ، ومن يعصى مولانا فى أوامره ونواهيه فقد انقلب على وجهه ، خسر الدنيا والآخرة ، وضل ضلالا مبينا . ولقد منّ مولانا على ذرية آدم ، إذ حملهم فى البر والبحر[٥١] ونجّاهم من نهج الظالمين ، وهداهم النجدين » .

« وقال الذين فى قلوبهم مرض ، هذا ما وجدنا عليه آباءنا ، وإنا على آثارهم مقتدون . لقد ضلّ هؤلاء ما أعلنهم مولانا الحاكم جلت قدرته لآبائهم من قبل ، إذ قال لهم ما ننسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها أو مثلها ، ألم تعلم أن الله على كل شيء قدير . ولكن الذين كفروا ببعض ما أنزل مولانا ، وآمنوا ببعض ، أحبّوا العمى على الهدى ، وما يود هؤلاء أن ينزل مولاكم البارى الرحمة من سماء قدرته على أراضى قلوبكم ، وبقوا فى ظلمات أنجادهم يعمهون . فلا تخشوا الظالمين أيها الموحدون المؤمنون ، واخشوا مولاكم الله الحاكم الذى إليه مراجعكم جميعاً ، فترون أى منقلب ينقلبون » .

---

(٥٠) أصل الآية في القرآن الكريم : « وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمرا أن يكون لهم الخيرة من أمرهم ومن يعص الله ورسوله فقد ضل ضلالا مبيناً» الآية ٣٦ من سورة الأحزاب

(٥١) أصل الآية فى القرآن الكريم : «ولقد كرمنا بنى آدم وحملناهم فى البر والبحر» الآية ٧٠ من سورة الإسراء .

هكذا نلاحظ فى هذا « العرف » عدة أمور تلفت النظر بشدة **أولها** تأليه الحاكم بأمر الله تأليها صريحا ، **وثانيها** اقتباس آيات من القرآن الكريم أو فقرات من بعض الآيات وربطها بجمل « العرف » وكأنها جزء منه ، **وثالثها** ، تحريف بعض جمل القرآن الكريم واستبدال لفظة غير قرآنية بأخرى قرآنية مع المحافظة على المعنى القرآنى فى نطاق هذه الجملة أو تلك . **ورابعها** الإتيان بالجمل القرآنية واستبدال اللفظة غير القرآنية بأخرى قرآنية مع مخالفة المعنى القرآني **وخامسها** تقليد الإيقاع القرآنى والإتيان بفقرات قرآنية من سورة ما وأخرى من سورة ما ومحاولة الربط بين هذه وتلك فى نطاق المعنى المستهدف .

على أن « مصحف المنفرد بذاته » أحيانا لا يكتفى فى « أعرافه » بمجرد تأليه الحاكم بأمر الله وسوق عبارات تسبيحه ، وإنما يعمد إلى استعمال تعبيرات وتوجيهات واتهامات يجد القارئ نفسه مضطراً لأن يقف عندها طويلا ، محاولا استنطاقها ، مجهداً ذهنه فى فهم كنهها ، مستهدفاً إدراك ما ترمى إليه ذلك لأن فيها الكثير من ألفاظ الضلال والمخادعة والكفر والنفاق ، مقرونه بذكر الصلوات ذات الركوع والسجود ، وهى خمس صلوات كل يوم ، وأن الذين يؤدون هذه الصلاة يتجهون بأجسادهم إلى بيت حجارة .

إن هذه الصيغ المثيرة تحتشد بشكل ملفت للنظر فى « عرف صلوات الشرائع » وإن لم يوضح أى الشرائع هى ، وقد يكون من المفيد إثبات نص هذا العرف ، وهو كما يلى :

« يا أيها الموحدون ، خذوا حذركم ، يود الذين ظلوا على أصنامهم عاكفين لو يرجعونكم إلى دينهم وعقائدهم الباطلة ، فتستبدلوا الذى هو أدنى بالذى هو خير وحق . **إن صلاتهم ذات الركوع الجسدى والسجود الظاهرى** واتخاذهم كلام الكتاب رئاء ووسيلة ، يخادعون بها الله الحاكم البرّ والموحدين ، وما يخدعون إلا أنفسهم ، وهم يعلمون » .

«**لقد ضلّ قوم اتجهوا بأجسادهم إلى بيت حجارة قلوبهم ، وغلوا فى كفرهم ، فألبس عليهم كل يوم خمس صلوات** ، وضلوا عن نهج صاحب البيت جلّ ذكره ، وهو معهم ، وتجلّى لهم فى مشرق شمس الناسوتية ، ذات المشرقين

والمغربين ، تعالى الله مولى الموالى عن نقص المنتقصين ، وبهتان المتكبرين ، وفى أنفسهم وما يبصرون ، وغرّتهم الأمانى ، أمانى أصنام كعبتهم وأربابها » .

« يا أيها الذين سمعوا بآذان قلوبهم شَدْوَ طير التوحيد على أفنان أشجار العرفان والتأييد ، زكّوا أنفسكم من القرب والاستماع إلى ضلالات قوم استحبّوا العمى على الهدى ، واعلموا أن مولاكم هو رب المشارق والمغارب ، **وأينما تولوا وجوهكم فثمّ وجه الله مولاكم الحاكم»** (٥٢) .

ومجمل القول فى مصحف المنفرد بذاته أنه فيما تدل نصوصه كتاب منزل من الحاكم بأمر الله على وزيره ومشيره حمزة بن على الذى يعتبر رسول الحاكم إلى الناس ، ومن يطلع على هذا الكتاب تقع عيناه على عبارات تأليه الحاكم بأمر الله فى كل « عرف » من « أعرافه » وفى أكثر صفحاته . ثم هو بعد ذلك محاولة لتقليد أسلوب القرآن الكريم ، ويضم عددا غير قليل من آيات القرآن ولكنه يجريها فى خدمة تأليه الحاكم بأمر الله ، هذا فضلا عن تحريف كثير من آيات القرآن الكريم ، أو الإتيان بآية من هنا وجملة قرآنية من هناك ومحاولة الربط بينها والذهاب بها جميعا بعيدا عن معنى النص القرآنى وتكريسها لهدف تأليه الحاكم بأمر الله الفاطمى .

رسائل حمزة فى تأليه الحاكم :

إن أمامي نصوصا أخرى كثيرة غير تلك التى نقلناها من مصحف المنفرد بذاته تذهب كلها إلى تأييد خبر ألوهية الحاكم بأمر الله ، والنصوص مأخوذة من كتب بعض إخواننا السنة ومن كتب بعض الدروز على السواء ، وهؤلاء وأولئك لم يعرضوا لنفي هذه الألوهية في الوقت الذي يرفضها إخواننا المعاصرون في أحاديثهم بشدة وحماس إلى درجة كبيرة ، ففي رسالة « السيرة المستقيمة » التي كتبها حمزة سنة ٤٠٩ هـ متحدثا فيها عن الأدوار الكبرى والصغرى والحدود ، يقول ، وقد وضع كلمة « المولى سبحانه » و « المولى جلّت قدرته » بدلا من اسم الحاكم :

(٥٢) مصحف المنفرد بذاته ، عرس صلوات الشرائع صفحة ١٢٨ — ١٣٠

«لكني أذكر لكم في هذه السيرة وجوها قليلة العدد ، كثيرة المنفعة ، لمن تفكر فيها ، فأول ما اختصر في القول ، ما فعله المولى سبحانه مع برجوان وابن عمار وهو يومئذ ظاهر لا يراه العامة إلا على قدر عقولهم ، ويقولون صبي السن ، وملك المشارقة كافة مع برجوان ولابن عمار ملك المغاربة ، فأمر مولانا بقتلهم فقتلوا قتل الكلاب ، ولم يخش من شويش العساكر والاضطراب ، وأما أمر ملوك الأرض فما يستجري أحد منهم على مثل ذلك ، ثم أمر بقتل ملوك كتامة وجبابرتها بلا خوف من نسلهم وأصحابهم . ويمشي أنصاف الليالي فى أوساط ذراريهم وأولادهم بلا سيف ولا سكين .... وكان المولى جلت قدرته يخرج أنصاف الليالي إلى صحراء الجب ، ويلتقي به حسان بن عليان الكلبي في خمسمائة فارس ويقف معهم بلا سلاح ولا عدة .... إنكم ترون من أمور تحدث بما شاهدتموها من المولى ما لا يجوز أن تكون أحوالا من البشر ، لا ناطق ولا أساس ولا إمام ولا حجة ، فلم تزدادوا بذلك إلا عمى وقلة بصيرة »[٥٣]

وأمامنا أيضا رسالة حمزة الموسومة بـ « كتاب فيه حقائق ما يظهر قوام مولانا جلّ ذكره من الهزل » وهذه الرسالة بالرغم من طولها فإن فيها الكثير مما يلفت النظر ويجب الوقوف عنده ، مثل قوله : « ولو نظروا إلى أفعال مولانا جلت قدرته بالعين الحقيقية ، وتدبروا إشارته بالنور الشعشعاني ، لبانت لهم الألوهية والقدرة الأزلية والسلطان الأبدي ، وتخلصوا من حكم إبليس وجنوده الغوية ، ولتصوّر لهم حكم ركوب مولانا جل ذكره وأفعاله ، وعلموا حقيقة المحض في جده وهزله ، ووقفوا على مراتب حدوده ، وما تدل عليه ظواهر أموره جل ذكره وعز اسمه ولا معبود سواه »[٥٤] .

وفي « رسالة البلاغ والتوحيد » يجري الحديث عن الحاكم بأمر الله هكذا : « ومولانا سبحانه معلّ علة العلل ، جل ذكره ، وعزّ اسمه ولا معبود سواه ، ليس له شبه في الجسمانيين ، ولا ضدّ في الجرمانيين ، ولا كفؤ في الروحانيين ، ولا

---

(٥٣) طائفة الدروز للدكتور محمد كامل حسين ص ٤٤ ، ٤٥ .

(٥٤) المصدر السابق ص ٤٥ — ٥٠

نظير في النفسانيين ، ولا مقام له في النورانيين » . وفى موضع آخر تتحدث عنه الرسالة بأن « سلطان لاهوته لا يدرك بالعين ولا يعرف بالكيف والأين » .[٥٥] .

وفي رسالة « سبب الأسباب » يتحدث حمزة عن الحاكم في مقام التعظيم والألوهية قائلا : « فقوْلي توكلت على مولانا جل ذكره أردْتُ به لاهوت مولانا الذي لا يدرك بوهم ، ولا يدخل في الخواطر والفهم . ما من العالمين أحد إلا هو معهم وهم لا يبصرون ، يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور ، وهو جل ذكره أعظم من أن يوصف أو يدرك ، ومن اتكل عليه فهو يكفيه جميع مهماته »[٥٦] .

إن هذا هو التأليه بذاته ، تأليه سافر واضح لا لبس فيه ولا إبهام .

وفي « رسالة الغيبة » يذهب صاحبها إلى أن الحاكم يتخذ من حين لآخر مقامات ناسوتية ، مثال ذلك قوله : « أظهر لنا ناسوت صورته تأنيا للصور ، فحار فيها الفكر حين فكر ، وعجزت العقول عن إدراك أفعالها ، واعترفت بالعجز والتقصير في معلومها .... فبتقدير أحكامه مَنَّ على خلقه بوجود صورته من جنس صورهم ، فخاطبتهم الصورة بالمألوف من أسمائهم ، فأنست العقول إلى ظاهر صورهم واستدرجتهم إلى معرفته بلطيف حكمته امتنانا منه على خلقه » .

وانبثاقا من هذه النصوص يذهب المرحوم الدكتور محمد كامل حسين ، وهو من المتوفرين على دراسة الفرق الباطنية من إسماعيلية ودرزية ، ولديه مكتبة نفيسة مليئة بمخطوطات عقائدهم ، إلى أن الدروز يؤلهون الحاكم بأمر الله ، وهو بشر في الأعين المجردة عند الذين لا يعرفونه ، وأما الدروز الذين عرفوا حقيقته فيذهبون إلى أن الإله المعبود اتخذ لنفسه صورة إنسية سماها الناس الحاكم بأمر الله ، مثلما يتخذ الإنسان ثيابه فيرتديها ثم يطرحها ويرتدي غيرها ، والثياب ليست من جنس من يرتديها ولا تشبهه في شيء ، وكذلك الإله المعبود ليس من جنس الصورة التي اتخذها ولا هي شبيهة به ، وهو يظهر في هذه الصورة الناسوتية المتغيرة ، ففي كل عصر ظهر فيه اتخذ صورة ناسوتية تختلف عن الأخرى[٥٧] .

---

(٥٥) طائفة الدروز ص ١٠٥ .
(٥٦) المصدر السابق نفس الصفحة .
(٥٧) طائفة الدروز ص ١٠٦ .

حوار بين المثقفين الدروز المحدثين :

من بين المصادر الدرزية التي بين يدي وتتحدث عن ألوهية الحاكم كتاب « مذهب الدروز والتوحيد[٥٨] » الذي سبب ظهوره موجة من الجدل الشديد وعدم الرضى في الأوساط الدرزية الأمر الذي انتهى بالكتاب إلى الاعتكاف وبطائفة من مفكري الطائفة إلى كتابة تعليقات على ما جاء فيه من أمور وقضايا كانت من وجهة نظر العقيدة ونظرهم في حاجة إلى تصويب .

وقد كان الكتّاب الذين اعترضوا على بعض ما جاء بكتاب الأستاذ النجار من الموضوعية في ردودهم بحيث لم ينهجوا نهج السبّ والتعريض الذي ألفناه عند الكثيرين حينما يتطاولون على مخالفيهم ، بل إن القوم برغم معارضتهم لما جاء به كتاب « مذهب الدروز والتوحيد » التمسوا للمؤلف العذر ، لأن الناس في حاجة إلى ضرورة التعرف على عقيدتهم ، وقد يبدو الأمر من الغرابة بمكان أن ينتسب المرء إلى عقيدة وأن يؤمن بمذهب لا يعرف من أمره شيئا .

لعله من الانصاف بمكان أن تكون مقدمة الكتاب الذي يردّ ويعترض ويصحح ، تضم من حيث المعنى غير المباشر تبريرا لعمل الأستاذ النجار في إقدامه على التعريف بمذهبه وعقيدة طائفته حتى وإن أخطأ، وفي ذلك يقول الأستاذ كمال جنبلاط : « نعتقد مخلصين في ذلك أن من هذا التوجه والسعي واجبا يترتب على المشايخ والمسئولين الروحيين ، ونفر من المثقفين الذين تتوفر فيهم الأمانة الروحية ويستطيعون الولوج في مثل هذه الأبحاث المفيدة الشيقة الدقيقة ، وأن عليهم أن يعكفوا على هذه المشاركة في التأليف والعمل ، وأن يوحدوا جهودهم في التبيان والإصلاح ، إذا أردنا أن نتجنب أو نتفادى قيام عزلة فكرية ، وفاصل معنوي بين هؤلاء المسئولين الروحيين وبين رعيل المثقفين بالعلم العصري المادي .... وكيف يتسنى لمن لا يعرف شيئا عن مبادئ دينه العامة أن يسترشد به ، وأن ينطبع بقالبه ، وأن يتشخص في صورته ، وأن ينتسب روحيا وحتى اجتماعيا إليه[٥٩] .

---

(٥٨) تأليف عبد الله النجار طبعة دار المعارف القاهرة .

(٥٩) أضواء على مسلك التوحيد : المقدمة ص ١٠ .

لقد تتبعت آراء الأستاذ عبد الله النجار في كتابه ، وتابعت الردود التي كتبت عليه في كل ما عرض له من نقاط استوجبت الرد على صفحات كتاب « أضواء على مسلك التوحيد» سواء ما جرى منها في المقدمة الطويلة الممتعة التي قدم بها للكتاب الأستاذ كمال جنبلاط أو « التوطئة » القيمة الممهورة بتوقيع «بايا زيد» [*] ، أو البحث الموضوعي المفيد الذي كتبه الصديق الدكتور سامي مكارم وبذل فيه من الجهد ما ينم عنه محتواه .

غير أني سوف أستفيد مما كتب الأستاذ النجار ، وسوف أراعي ألا أعرض لأيّ من النقاط التي جاء بها وكانت موضع اعتراض ، إلا مقرونة بالرد عليها . وسوف يكون ما أتمثل به من كتابه من الفصول والفقرات التي لم يقم عليها ملاحظات أو اعتراضات عن طريق الأقلام الثلاثة التي تعاورت كتاب « الأضواء » .

وهنا أعود مرة أخرى إلى النقطة التي تثير اهتمامي ، وهي ألوهية الحاكم وتأليه حمزة بن علي له وهو ـــ أي حمزة ـــ من نعرف مكانةً وقدرا في العقيدة الدرزية ، فلقد كان حمزة بن علي ـــ كما يقول السيد كمال جنبلاط ـــ بدون ريب سيداً من أسياد المسلك الحكمي التالد والطريف . ومن أغزر وأخطر الشخصيات الفكرية والتنظيمية القيادية والروحية التي تبرز لنا في منعطفات التاريخ[٦٠] .

بل إنه بالنسبة للحاكم كسلمان الفارسي بالنسبة لمحمد صلى الله عليه وسلم من وجهة النظر في العقيدة الدرزية ، ومعلوم خطر مكانة سلمان الفارسي عند الدروز .

والحديث عن حمزة بن علي مقرون دائما عند الدروز بالإجلال والإعظام سواء أكان ذلك في مجرى حديث لسان أم على مسرى صفحة من كتاب مطبوع أم ورقة من سفر مخطوط .

(*) بايزيد توقيع مستعار للأستاذ كمال جنبلاط .

(٦٠) المصدر السابق ص ٥٠ .

إن حمزة نفسه هو الذي أعلن ألوهية الحاكم بأمر الله سنة ٤٠٨ هـ بعد ما ظهرت حماقات نشتكين الدَّرَزي الداعي الذي نسب الدروز إلى اسمه في ديار الشام[٦١] .

ويحاول الأستاذ النجار أن يبرئ الحاكم من دعوة حمزة ، ويذهب إلى أنه لا يملك الدليل على علم الحاكم بها[٦٢] ، ولكن الدكتور سامي مكارم ، يرى أن الأمر لم يكن كذلك ، فإن دعوة التوحيد ـــ أي المذهب الدرزي ـــ قد نمت في رعاية الحاكم بأمر الله ومبادرته .... وقد ورد في كثير من رسائل الدعوة أن هذه الرسائل كانت ترفع إلى الحضرة قبل أن تطلق[٦٣] .

والحق أني طالما ساءلت نفسي مخلصا : هل هذه الرسائل التي بين أيدينا الآن والتي جاء بطرف منها الدكتور كامل حسين وبأمثلة أخرى منها الأستاذ النجار هي نفسها التي كانت تعرض على الحاكم وفيها الكثير الكثير من تأليهه . أم هناك رسائل غيرها ، أم هي نفسها هذه الرسائل ثم حرفتها الأيدي العابثة والأفكار غير السوية .

ففي الرسالة رقم ٦ التي جاءت بكتاب « مذهب الدروز والتوحيد » يقول حمزة عن كتابه « إنه رفعه للحضرة اللاهوتية سنة ٤٠٨ هـ ويقول إنها أولى سني ظهور عبد مولانا ومملوكه ، هادي المستجيبين ، المنتقم من المشركين بسيف مولانا جل ذكره ، ولا شريك له ، ولا معبود سواه[٦٤] ، ويتكرر ذكر الحضرة اللاهوتية فى الرسالة ١٦ .

وفي الرسالة رقم ٩ يقول حمزة : « الحذر الحذر أن يقول واحد منكم بأنه (أى الحاكم) ابن العزيز ، أو أبو عليّ ، لأن مولانا سبحانه هو هو في كل عصر وزمان ، يظهر في صورة بشرية ، بتغيير الاسم والصفة لا غير »[٦٥] .

---

(٦١) مذهب الدروز والتوحيد للأستاذ عبد الله النجار ص ١١١ .
(٦٢) مذهب الدروز والتوحيد ص ١٠٤ .
(٦٣) أضواء على مسلك التوحيد ص ١٠٣ .
(٦٤) مذهب الدروز والتوحيد ص ١٠٥ .
(٦٥) نفس المصدر نفس الصفحة .

وجاء في الرسالة ٢٦ « حاشا مولانا جل ذكره من الأب والإبن والعم والخال . لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوًا أحد » ويذكر الأستاذ النجار أن هذه الفقرة من الرسالة ٢٦ كانت ردا عليه شخصيا في شكل عتاب من كبير الأشياخ الثقاة ، لأنه ذكر في أحد كتبه المطبوعة أن أم الحاكم كانت صقلبية[٦٦] .

وفى « رسالة الغيبة » التي أورد الدكتور كامل حسين طرفا منها ، يورد الأستاذ النجار طرفا آخر منها ، تقول الرسالة بعد « التجلي » إنه « احتجب بنوره عن خلقه ، فلم يُقْتَفَ له أثر ، واستتر لغيبته وليّه وصفيّه (أي حمزة) وخلّف دعاة »[٦٧] .

وفي رسالة أخرى يقول حمزة « إن الباري سبحانه لا تخلو الدار من وجوده طرفة عين ، ولو خلت الأرض منه لزالت الحجة عن الخلق في تلك اللحظة » . الرسالة ٧٥ .

وفي الرسالة ٤٤ « ظهر بالشكل البشري لأن حكمته قضت بذلك إشفاقاً على جهل العالم المتمسك بالمحسوسات ، وامتحانا لهم لتكمل عليهم الحجة » .

وفي الرسالة ٤١ هذا الظهور غير حسي ، لأنه حين كان يركب للخروج في النهار « كان للأتان ظل ، ولا ظل للراكب » .... « لاهوته المحجوب عنا وناسوته المظهر لنا »[٦٨] .

الحق أن الأمثلة كثيرة على هذه الرسائل التي يؤله فيها حمزة بن علي الحاكم بأمر الله ، وكم يضع الأمور في نصابها ، لو أن تفسيرات واضحة صدرت في ذلك من مستنيري الدروز فائدة للعلم والعقيدة والتاريخ هل هذه الرسائل أو المقتطفات التي جاء بها الدكتور كامل حسين والأستاذ عبد الله النجار صحيحة وهل نسبتها إلى حمزة صحيحة ، وهل حمزة بالتالي جعل من الحاكم إلها أو أطلق عليه صفة الألوهية ؟ أم أن ذلك من كيد الكائدين لحمزة ؟

---

(٦٦) المصدر ص ١٠٥ ، ١٠٦ .

(٦٧) المصدر السابق ١٠٩ ، ١١٠ .

(٦٨) نفس المصدر ٨٧ .

ربما تكمن الإجابة على هذا التساؤل في الرسالة الموسومة بكشف الحقائق التي كتبها حمزة بن على وتضمنها « كتاب النقط والدوائر » وفيها يؤله الحاكم بأمر الله تأليها صريحا ، وفيها يقول حمزة بن على :[٦٩] .

« والآن فقد دارت الأدوار ، وظهر ما كان مخفياً من مذهب الأبرار ، وبان للعالمين ما جعلوه تحت الجدار ، وعادت الدائرة إلى نقطة البيكار ، فألفت هذا الكتاب بتأييد مولانا البارى الحاكم القهار ، العليّ الجبار ، سبحانه وتعالى عن مقالات الكفار ، وسميته « كشف الحقائق » وسنذكر لكم فيه ما يوفقه البار سبحانه ، ويرزقنى من تأييده مقدار ما أوجبه الزمان ، لا على مقدار ما تستحقونه ، ولا بعمل سبق لأحد منكم تستوجبونه ، بل تفضل منه ، ورحمة عليكم ، وإنجاز ما أوعدكم به على ألسن حدود دعوته ، وعبيد دولة وحدانيته ، فله الحمد والشكر وحده .

أقول بمشيئة مولانا — جل ذكره — وتأييده بأن البارى سبحانه أظهر من نوره الشعشعاني صورة كاملة صافية وهى الإرادة ، وهو هيولي كل شيء ، وبه تكوينهم لقوله : إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون ، وسمى تلك الصورة عقلا ، فكان العقل كاملا بالنور والقوة ، تاما بالفعل والصورة ، قد اجتمعت فيه الطبائع الخمسة ، وأحصى فيه جميع ما هو كائن إلى ما لانهاية له ، وجعله إمام الأئمة ، موجودا فى كل عصر وزمان ، وهو السابق الحقيقى ، وإنما سمى «سابق» لأن خلقته وصورته سبقت جميع الحدود إلى توحيد البارى سبحانه ، وهو مدروك محسوس يأكل ويشرب ، لا كما قالوا إنه لا يدرك بوهم ولا بخاطر » .

ويؤكد « كتاب النقط والدوائر » على ألوهية الحاكم تأكيداً شديداً ، وقد ذكر بعض التصرفات التى كان يقوم بها الحاكم بأمر الله إبان خلافته فى القاهرة مثل المظاهر الفخمة ، كالخروج بالعساكر في المواكب حينا ، ومثل إظهار الزهد وركوب الأتان حينا آخر فيقول :

---

(٦٩) كتاب النقط والدوائر صفحة ٨١ ، ٨٢ طبعة ألمانيا سنة ١٩٠٢ تحقيق

« فلما انوجد العزيز والحاكم كملت المقامات الخمسة وهى الإمامة الظاهرة ، ومعنى ظاهرة لأنه جل جلاله تولى الخلافة والملك والسلطنة وأقام بدين التأو يلية ، وظهر بالمعجزات الباهرة ، وبالقدرة العظيمة ، وأفاض السجلات والمجالس ، وظهر بالعساكر العظيمة والجاه ، وتم على هذا الحال مدة ، ثم ظهر بالزهد وتنزه عن الدنيا ولبس الصوف وتربية الشعر وركوب الأتان .... فلما تقضت مدة الإمامة تجرد « الحاكم » تعالى بالوحدانية فى أول الثامنة ، وأعطى الإمامة لصاحبها ومالكها بالحقيقة حمزة بن على صلى الله عليه ، وأعطى « لعلى الظاهر »[٧٠] السلطنة ودين التأويل ... وحضرت المائة وأربعة وستون تدعو إلى « دين التوحيد » بالأصوات التى مثل الرعود ويقولون هذا إلهكم وإله آبائكم فاعبدوه أيها الناس ، فعبدوه فرقة ، وطبقت الدعوة أقطار الأرض ، فلما تقضت الثامنة وجاءت التاسعة أسكاتاً احتجب الرب سبحانه وتعالى وسكتت الحدود عن النص ، وكانت سبكة عظيمة للتأويلية والمرتدين ، وهى التى قال عنها : يهلك من يهلك عن بيّنة ، ويحيا من يحيا عن بيّنة ، ثم تجلّى الرب جل جلاله فى أول العاشرة والحادية عشر ، ولما غاب الرب سبحانه وتعالى بعد الحادية عشر ، غاب صفيّه معه ، واحتجبت الحدود وظهر الدجّال لعنه الله تعالى وتمت المحنة سبع سنين ، فلما انقضت المحنة ظهر مولاى بهاء الدين يدل الخلق ويهديهم ويتمم الدعوة ويكتب المواثيق على الموحدين مدة خلافته »[٧١] .

صورة بعض الأنبياء كما يراها مؤلف النقط والدوائر :

إن صاحب كتاب النقط والدوائر يؤكد مرات عديدة على ألوهية الحاكم بأمر الله الفاطمي حسبما مرّ بنا فى الوثيقة السابقة الموسومة برسالة كشف الحقائق ، وهو هنا فى وثيقة أخرى يعود لكى يؤكد هذه الألوهية ، ولكن صاحبها ـــ أى الحاكم بأمر الله ـــ يظهر فى فترات زمنية متباعدة ثم لا يلبث أن يختفي لكى يعود إلى الظهور فى فترة أخرى ، وهكذا دواليك .

---

(٧٠) هو على بن الحاكم بأمر الله ، تولى الخلافة بعد مقتل أبيه وتلقب « بالظاهر » وتوفى سنة ٤٢٧ هـ وكانت عمته ست الملك تتولى عنه الحكم لصغر سنة وظلت على تلك الحال إلى أن توفيت سنة ٤١٥ .

(٧١) كتاب النقط والدوائر صفحة ٧٤ ، ٧٥ .

على أن النص الذى نحن بصدد تقديمه هنا لا يكتفى بموضوع تأليه الحاكم بأمر الله فى إحدى مراحل ظهوره وحسب ، ولكنّه يعرض لظهور بعض الرسل الكرام والأنبياء البررة ، مثل آدم وشيث ونوح وإبراهيم وإسماعيل وموسى وهارون وعيسى ومحمد ، ويجعل مؤلف الكتاب لكل نبى أساسا ، فآدم أساسه شيث ، وإبراهيم أساسه إسماعيل ، وموسى أساسه هارون ، وعيسى أساسه شمعون ، ومحمد أساسه على بن أبى طالب .

والأمر الجدير بالغرابة أنه يذكر الأئمة الإسماعيلية السبعة ، ويجعل من محمد بن إسماعيل صاحب أساس وكتاب وشريعة ، أى أنه نبى مرسل ، كما أنه يحمل على شريعة نوح ويصفها بأنها شريعة مذمومة ، ويذكر سيدنا محمدا بما لا يليق أن يذكر به ، وهذا هو النص الذى يضم هذه المواقف والعقائد جميعا[٧٢] .

« وظهر الرب جل جلاله فى آخر شريعة الجن ، وأغلب الظّن أنه ظهر فى مقامات عديدة ، فلما تجلى الرب جل جلاله فى مقام البارى فى صورة ناسوتية ، وحضر قائم الحق صلى الله عليه — وكان اسمه شطنيل — وإخوته بين يديه وهم الحجج الاثنا عشر يدعوا (كذا) الحق إلى توحيد البارى وينادوا (كذا) : هذا إلهكم وإله آبائكم فاعبدوه ، وتمت الدعوة قائمة والحدود تدعى (لعلها تدعو) . إلى أن غاب البارى جل ذكره ، وتخلف منهم من يتمم الدعوة وهو مولاى النفس صلى الله عليه فى قميص أخنوخ (يعنى آدم) ظهر بمحل ناطق ، ومولاى الكلمة فى قميص شرخ المسمى بشيث ، ظهر بمحل أساس ، وأئمة محمودة يتمموا (كذا) دعوة البارى إلى أن ظهر نوح بشريعة مذمومة ، ودخلوا فريق الهدى فيها وانقلبت الإشارة ، وكانت غيبة البارى تعالى بدء الغضب ، وظهر نوح بمحل نزع النعمة ، وكانت الإشارة فى الشريعة إلى ظهور القائم المنتظر صلوات الله وسلامه عليه ، وظهور الأمة الناجية إلى كشف التوحيد (يعنى شريعة التوحيد) وكانت شريعة نوح بمحل التراب الذى لا يخرج منه نتيجة ، وجاءت اللغوزات والإشارات والهداية التى من فيض الحدود بمحل الماء الذى أصلح الأرض ، ......

(٧٢) كتاب النقط والدوائر صفحة ٧١ – ٧٣ طبعة ألمانيا سنة ١٩٠٢ تحقيق كريستيان سيبُلْد .

فلما انقضت شريعة نوح وأساسه وأئمته ظهر إبراهيم وأساسه إسماعيل وسبع أئمة ، وظهر موسى وأساسه هارون ، وظهر عيسى وأساسه شمعون وأئمته ، وكلما ظهرت شريعة تنسخ ما قبلها وتشير إلى ما بعدها ، وتشير الى القائم المنتظر ، وظهر محمد بن عبد الله وأساسه على بن أبى طالب ، وكان محمد كثير العتوّ والظلم والفساد ، لأجل هذا حجب النور قوة الظلمة ، لأن النور كان فيه أقوى مما هو في غيره ، فلما تزوجت فاطمة بعلى بن أبى طالب وامتدت السلالة منها فأولهم الحسن والحسين أولادِ علِى ، وعلى بن الحسين ، ومحمد بن على ، وجعفرِ بن محمد ، ومحمد بن الحنفية ، فهؤلاء أئمة على بن أبى طالب ، وهم من الحججِ الاثنى عشر نفوسهم وأشخاصهم ، غير أن منهم سبعة أخذوا الإمامة بعد وفاة الأساس (يعنى على) ، واحد وراء واحد ، وكانوا فى حياته حجج ، وهم تأويلية ، فلما خلق الناطق إلى عند سابع الأئمة الذى هو إسماعيلِ بن جعفر ، وتسمى بالناطق محمد بن إسماعيل انقاد له أسَاس وكتاب وشريعة » .

إن عقيدة الدروز عقيدة سرية ، تنبع سريتها من أصولها ومناهلها ، والسرية فيها إذن ليست من باب التقية كما هو الحال في المذاهب الباطنية ، وإنما هي سرية مشروعة[٧٣] نابعة من أصول العقيدة ، فإن صيانة الحقائق حسبما يقول الدكتور مكارم في مسلك الدروز هي أصل « وأسٌ رئيسيٌ » وليس نهجا طارئاً[٧٤] . ومن هنا تنبع المشكلة التي أثيرت وتثار دائما عن مدى ما يستطيعه الدرزي العادي من التعرف على حقائق مذهبه وأغواره .

والدرزية عقيدة تتلفع بالفلسفة ، وتغوص إلى أعماق بعيدة التأويل لا يستطيع غير المتمرس على المصطلحات الفلسفية والأساليب الصوفية ومسالك أهل الكلام من سبر أغوارها وهضم أصولها وتفهم منعرجاتها ، ومن ثم كانت صعوبتها على العامة وحجبها تبعا لذلك عنهم .

---

(٧٣) بايزيد ص ٦٥ من أضواء على مسلك التوحيد .

(٧٤) أضواء على مسلك التوحيد ص ٩٦ .

وأصول العقيدة خليط من نظريات الفلاسفة القدامى وأفكارهم من يونان وإيرانيين وهنود وفراعنة ، ولعل الدروز قد عمدوا إلى السرية التي ضربوها على مذهبهم تمشيا مع بعض آراء الفلاسفة القدامى الذين كانوا يوصون بحجب آرائهم وسترها عن جمهور الناس ، فقد أوصى بالسرية كثير من الحكماء في العصور السالفة مثل هرمس وفيثاغورس وأفلاطون وبعض حكماء الهند وفارس ، وهؤلاء جميعا يكرمهم الدروز ، ويعتبرون فلسفاتهم ونظرياتهم من جملة مصادر المذهب(٧٥) .

بل هناك من الآراء ما تذهب إلى أن دار الحكمة التي أنشأها الحاكم بأمر الله فى القاهرة كانت على مثال أكاديمية أفلاطون(٧٦) . وكما أن الدروز أخذوا من حكمة الهند قدرا غير قليل ، وارتبطت مبادئهم بها ارتباطا وثيقا ، فإن كتاب بلوهر الحكيم المنتشر بين الدروز ليس إلا رواية « للبوذا السعيد » بعد تحريف الاسم ، ومن خلال هذا الحقل الهندي أيضا أخذ حمزة بن علي مبادئ دعوته من حكيم هندي قديم يدعى الحاكم الحكيم(٧٧) .

وأخذت العقيدة الدرزية من الفراعنة ممثلين فى أمحوتب الذي ألهه المصريون القدماء ، فقد ورد ذكره مرات عديدة ــ فيما يروي الدكتور مكارم ــ مقرونا بالتمجيد والتعظيم في إحدى المخطوطات المكتشفة حديثا المنسوبة إلى حمزة(٧٨) .

وإجمالا فإن العقيدة الدرزية تنبع في الأصل من حكمة اليونان ممثلة في أفلاطون وأفلوطين وفيثاغورس ، معرجة على الحكمة القديمة في كل من الهند وفارس ومصر ، وهي في نفس الوقت فيما يعتقد الدروز امتداد لكل هذه الفلسفات إلى الحد الذي يجعل فلاسفة اليونان يحتلون مكانة قريبة من مكانة الأنبياء ، بل هي مكانة الأنبياء بعينها ، ولا يكاد يذكر اسم أفلاطون أو فيثاغورس أو هرمس(٧٩) أو

---

(٧٥) المصدر السابق ص ٩٧ ، ١٠٣ .

(٧٦) ، (٧٧) مقدمة السيد كمال جنبلاط « للأضواء » ص ٥١ ، ٥٢ .

(٧٨) الأضواء ص ١٠٠ .

(٧٩) أضواء على مسلك التوحيد ص ١٤٥ ينظر الدروز إلى هرمس « بعين التقديس ويجعلونه في صف الأنبياء كما يفعل الصابئة أو كما يعده المانويون » .

أمحتب عند المعاصرين من المؤلفين الدروز إلا مقروناً بعبارة: عليه السلام، تماما كما لو كان نبيا من أنبياء الكتب السماوية.

ولعل هذه السمة اليونانية في أصل العقيدة الدرزية تشكل سببا أساسيًّا في الربط بين الدرزية وبين إخوان الصفا، وغني عن الذكر أيضا أنها مرتبطة بالإسماعيلية الباطنية لنفس السبب، ولأنها انبثقت منها ولو بشكل غير تام.

وعلى قمة العقيدة الدرزية من حيث كونها امتدادا للفلسفة اليونانية القديمة والفلسفات المشرقية يتربع ما قد اصطلحوا على تسميته بالعقل الأرفع أو الكلي، وهو حسب تعريفهم ـــ وسأحاول هنا أن أكون ناقلا حتى تكون الصورة أمينة كل الأمانة لدى القارئ، « مصدر انبثاق جميع الكائنات، وهو عين بقائها في هذا الوجود الظاهر، ومنه به ابتدعت، فهي لا تنفصل عنه، ولا ينفصل عنها من حيث العلة والمعلول في تنزل فعل الخلق، فالعقل الأرفع من هذا القبيل يحل في سر أسرار جميع الكائنات على احتجاب شبه كلي أو جزئي، أو وعي متفاوت لا يبلغ أقصاه إلا في مرآة جوهر عقل الإنسان بوصفه أرفع هذه الكائنات، وأقربها من استيعاب نور الحق الذي منه انبثقت، على أن هذا العقل الأرفع هو واسطة الكشف والمعرفة، وأداة المشاهدة في كل نفس مؤمنة، به يتم الشهود لجوهر الذات الفرد دون أن يرتفع الإنسان من درجته وحده إلى كينونة هذا العقل الأرفع الذي هو الأصل الوجودي والحد الأول »[٨٠].

والعقل الكلي بعبارة أوضح هو البداية وهو النهاية، ولقد أطلق عليه لذلك نقطة البيكار، وهو حسب معتقد الدروز كالإرادة والإبداع. ويستطرد التعريف الدرزي قائلا: « إن إرادة الإبداع واجبة الوجود بوجود ذلك الإبداع، وهي بالبداهة أصل كل موجود وعلته، وهي علة جميع العلل في الوجود، والله مصدرها وينبوعها ومُعلّلها[٨١] ».

تلك هي الأصول القديمة للدرزية كما يقدمها المتخصصون من أبناء العقيدة.

---

(٨٠) المصدر السابق ١٢٣، ١٢٤.

(٨١) نفس المصدر ١٥٨.

العقيدة الدرزية حسب كتاب النقط والدوائر :

إن كتاب النقط والدوائر يعتبر واحدا من أهم كتب العقيدة الدرزية ، وتغلب نسبته إلى حمزة بن على الذى يحتل من العقيدة فوق ما يحتل أى نبى بالنسبة لرسالته ، وفى يقينى أن الكتاب ليس من وضع حمزة وحده ، وإنما هو من وضع حمزة وآخرين من عقال المذهب ، والحجة فى ذلك هو اختلاف أسلوب الكتاب من باب إلى آخر وتباين النمط الفكرى والتعبيرى من فصل إلى فصل ومن رسالة إلى أخرى ، فبينما نراه عذب الأسلوب متقن الصياغة متسلسل التفكير فى رسالة بعينها ، لا نلبث أن نجده ردىء الأسلوب مهلهل الصياغة عيي التعبير فى أخرى .

وربما كانت مقدمة الكتاب هى أبلغ ما فيه من حيث رشاقة الأسلوب ووضاءة العبارة ، وفيها يسميه « مجموع الدرر والنوادر وكتاب النقط والدوائر » .

ويشرح المؤلف مقصده من ذكر النقط والدوائر ومدلولات كل منها فيقول فى مقدمته : إن الكتاب يحتوى « على ذكر نقطة النور ونقطة الظلمة ، ونقطة الإبداع ، ونقطة الحياة ، ونقطة الطبائع الولية الجزئية ، ونقطة الطبائع الضدية الجزئية ،ونقطة الهيولى ، ونقطة العالم العلوى ، ونقطة العبادات ، ونقطة البيكار ، ونقطة الطبائع الدينية ، ونقطة الفرض، ونقطة الإسقاط ، ونقطة المقابلة بين الطبائع الولية والضدية » .

هذا ما كان من أمر النقط ، أما الدواير فإن المؤلف يذكر أنها « دائرة النور ، ودائرة الظلمة ، ودائرة الإعلالية ، ودائرة النفس .... ودائرة الطبائع الضدية ، ودائرة الطبائع الولية ، ودائرة الأفلاك ، ودائرة العبادات التوحيدية والتلحيدية ، ودائرة الطبائع الدينية ، ودائرة الفرائض التوحيدية ، ودائرة الدعائم التكليفية ، ودائرة المقابلة بين الفرائض الدينية وبين الدعائم الناموسية ، ودائرة المقابلة بين الطبائع الولية والضدية » .

ويربط مؤلف النقط والدوائر بين كل نقطة ودائرة مصطنعا أساليب الفلاسفة ، عامدا إلى الرمز حينا والإلغاز حينا آخر فيقول : « فتوجهت لجمع ذلك ، معترفا بضعف سَيْرى ، مغترفا من بحر غيرى ، متوكلا على ذى الجلال

الإنسى ، مستمدا طالبا هداية الروح القدسى ...... فأقول والله المستعان بأنه لما كان البارى سبحانه موجودا فى وجوده السابق بذاته وكبرياه ، وأزله اللائق بقدسه وعلياه ، ولا بدء لمعناه ، ولا غاية لمنتهاه .... فحكم علمه المحيط الأزلى بوجود علة للمخلوقات ، ليكون هو سبحانه فى علو مجده مقدسا عن المباشرة للخلق بالذات ، فحينئذ برزت **نقطة النور العقلية** من فسيح مداد القدرة الأزلية بحركة الإرادة الإلهية مستودعة من السر الإلهي حروف الكون متضمنا فى سرها معنى ما كان وما يكون دفعة واحدة بلا زمان ، فاستقرت فى معنى معنوى تحت إحاطة مجال وسع العظمة اللاهوتية بلا مكان ، **وتكونت فى هذه النقطة دائرة الطبائع النورانية العقلية** التى هى كلية فى ذاتها ، جزئية فى سائر الجواهر الروحانية ما خلا جوهر الظلمة الذى هو الضد » .

هكذا يكون المؤلف قد أوضح الرابطة بين النقطة والدائرة ، ولما كان تصوره منصباً على عدد من النقط وعدد آخر من الدوائر ، وهى التى مر ذكرها قبل قليل ، فلذلك أطلق على الكتاب اسم « كتاب النقط والدوائر » ثم يمضى فى تعليلاته مستعملا اصطلاحات قريبة من اصطلاحات الصوفية مثل« العطايا الإلهية » و « القوات الفيضية » و « الأسماء النورانية » و « الكمالات الكلية » لكى ينتهى إلى أن نقطة النور « ذات الشكل النوراني المستدير » هى « العقل الكلى صلوات الله عليه » وهذا العقل الكلى قد برز من نور المبدع تعالى وتقدس[٨٢] .

واضح هنا أن العقل الكلى هو الإمام ، وهو طبقا لأوصاف مؤلف « النقط والدوائر » «النور الكلى ، والجوهر الأزلى ، والعنصر الأولى ، والأصل الجلى ، والجنس العلى ، فيه بدأت الأنوار ، ومنه برزت الجواهر ، وعنه ظهرت العناصر ، ومنه تفرعت الأصول ، وبه تنوعت الأجناس ..... فهو صلوات الله عليه إرادة المبدع ، وصفى البارى ، وعالم مراده ، وغاية مبدعاته ، ومدبّر مخلوقاته »[٨٣] .

---

(٨٢) النقط والدوائر صفحة ٣ .

(٨٣) المصدر السابق صفحة ٧ .

أهل التنزيل وأهل التأويل وعالم الهدى ومسيرة الدعوة :

هذه فرق ثلاثة أوردها كتاب النقط والدوائر ولكنه خص الفرقة الثالثة ــ أعنى ما أسماه عالم الهدى ــ بالإيمان دون الفرقتين الأخريين(٨٤) . يسوق الكتاب هذا التقسيم من خلال « نقطة الاعتقادات ودائرة العبادات » وهو فى هذا السياق يركز على ألوهية الحاكم التى يحرص على تأكيدها فى كل صفحة من صفحات الكتاب على وجه التقريب .

الذى نفهمه من النص الذى سوف نعرضه بعد قليل من السطور هو أن الإله ــ يعنى الحاكم بأمر الله حسبما يذهب مؤلف كتاب النقط والدوائر ــ قد ظهر أكثر من مرة ثم غاب فى دورات متتابعة . لقد ظهر بعد غيبته الأولى التى كانت مدتها سبعمائة ألف سنة عدة دعوات كاذبة عددها ست ، وهى دعوات كاذبة عبّر عنها المؤلف بأنها دعوات عدم ، مدة كل دعوة سبعمائة ألف سنة ، وأن لهذه الدعوات سبعة نطقاء ــ المفرد ناطق ــ يعنى سبعة أنبياء ، وبين كل ناطق وآخر سبعة أئمة مدة كل إمام مائة ألف سنة .

فإذا ما انتهت المرحلة أو الدورة ظهر الحاكم بأمر الله بكشف ثان ، أى ظهر مرة أخرى ، وهكذا دواليك سبعين دوراً مدتها ثلاثمائة وثلاث وأربعون مليون سنة ، ثم غاب الحاكم مرة أخرى وظهر بعد غيبته ناطق شريعة ــ أى رسول ــ هو أخنوخ الذى هو آدم الذى استمرت دعوته نحو ألف سنة .

وبعد آدم ظهرت ست دعوات عدم ــ أى رسالات غير صادقة ــ هى دعوات نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد بن عبد الله ومحمد بن إسماعيل بن جعفر الذى اعتبرت شريعته آخر الشرائع ، وسوف يتضح لنا أن العقيدة الدرزية تعتقد أن كل ناطق ــ أى كل نبي ــ له ممدّ وأساس ، فأما الممدّ فهو الذى يمدّ الناطق بالشريعة وأما الأساس فهو بمثابة الوصى على الرسالة ، والممدون هم الحدود وأمرهم أقرب إلى الخفاء وهم الذين « كانت تربية نفوسهم بالطبائع الدينية التوحيدية العلمية الفيضية »(٨٥) .

---

(٨٤) النقط والدوائر صفحة ٤٣ .
(٨٥) المصدر السابق صفحة ٤٧ .

وأما الأسس ـــ والمفرد أساس ـــ فهم شرخ أساس آدم ، وإسماعيل أساس إبراهيم ، وهارون أساس موسى ، ويحيى أساس عيسى ، وعلى بن أبى طالب أساس محمد ، وقد اعتبر محمد بن إسماعيل بن جعفر ناطقا ، أى رسولا من الرسل .

وينسب مؤلف النقط والدوائر إلى الناطق ـــ أى الرسول ـــ صفة اليبوسة التى هى « طبائع دينية علمية فيضية تلحيدية كفرية شركية مركزها العدم والتشبيه »[٨٦] .

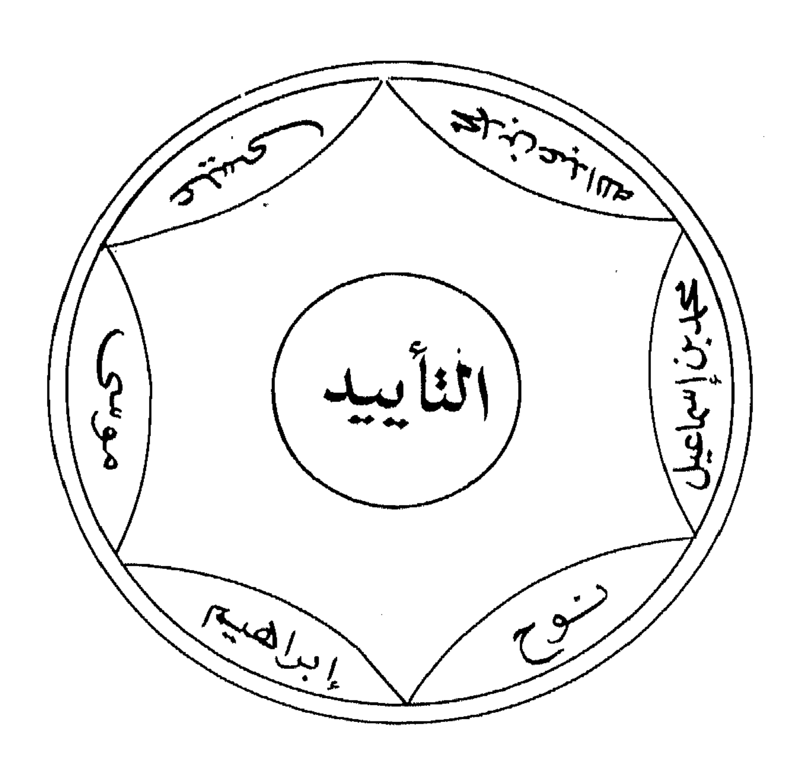
يقول مؤلف النقط والدوائر فى « نقطة الاعتقادات ودائرة العبادات » : وجبت العبادات « لأن البارى سبحانه خلق النفوس الناطقة لأجل عبادته وتوحيده ، وخصّها باللطافة ، وشاركها فى البقاء ، وساواها فى الإبداع ، وجعل فيها قوة القبول ، وأعانها بالتمييز .... ولما نصبت للخلق الدعاة ، فخطبت عقولهم الهداة ، ونشرت لهم المعارف وذكرتهم بالمعجزات ، وأوضحت لهم الآيات بمادة حدود الحق وحروف السدق عليهم السلام ، فحينئذ عرفته الخلائق بأسرها معرفة قامت بها الحجة عليهم » وتعلقت جميع الخلائق أصحاب العقائد بالوجود والتنزيه ولكنهم ذهبوا مذاهب ثلاثة : فريق تعلق بالتنزيه دون الوجود وهم **أهل التنزيل** ، وفريق تعلق بالوجود دون التنزيه وهم **أهل التأويل** ، وفريق تعلق بالحالتين الوجود والتنزيه وهم **عالم الهدى** الذين وفقهم الله لطاعته وجذبهم إليه بعنايته ، **فحينئذ بدأت نقطة الاعتقادات ودارت دائرة العبادات** وهذا مثالها :

« وما غاب العليّ سبحانه حتى انقسمت الخلائق قسمين : قسم للجنّة ، وقسم للنار ، ثم لما انقضت دعوة العلى سبحانه التى مدتها سبعمائة ألف سنة وذلك مدة شريعة الناطق المحمود وأئمته السبعة المحمودة الذين ظهروا بعد غيبة العليّ سبحانه ، ولما انقضت هذه المدة المذكورة ، فحينئذ دارت دائرة البيكار ، وبدأت نقطة الأنوار ، وأودعت الأسرار فى كل مقدار ، وظهر بعد دعوة العلى سبحانه ست دعوات عدم ، موازية لمقادير البيكار ، وهذه الست دعوات العدم متساوية الأقدار فى الزمان ، ومدة كل دعوة سبعمائة ألف سنة ، لكن لهذه

---

(٨٦) النقط والدوائر صفحة ٤٧ .

الدعوات العدم بسبع نطقاء مذمومة ، ومدة الناطق السابع مضمنة فى مدة الناطق الذى قبله ، ولكل ناطق أساس ، وبين كل ناطق وناطق سبع أئمة ، ومدة كل إمام مائة ألف سنة ، ولما تكاملت هذه الدعوات ظهر البارى سبحانه بكشف ثانى ، ولم يزل الأمر هكذا على هذا الترتيب ، حتى انقضت مدة السبعين دوراً التى قبل مقام البارى سبحانه ، التى مدتها ثلاثمائة ألف ألف سنة وثلاثة وأربعين ألف ألف سنة ، ثم بعد غيبة مقام البارى سبحانه وغيبة صفيّه شطنيل صلوات الله عليه تخلف أخنوخ وهو النفس الكلية بمقام ناطق شريعة روحانية ، يدعو فى عدل وتخيير إلى توحيد البارى سبحانه ، وكان أساسه « شرخ » وهو مولاى الكلمة صلوات الله عليه ، ثم بعده ظهر سبعة أئمة محمودة من حروف السدق ، واستمرت دعوة أخنوخ نحو ألف سنة وأزيد ، وأهل الحق مخلصين من الشرائع ، وكان خروجهم من تأويل شريعة الجن ، ولما انقضت مدة شريعة آدم الذى هو أخنوخ ، فدارت دائرة البيكار كما كانت قبل زمان البار ، وظهرت ست دعوات عدم بستة نطقاء وهذه صورة بيانهم .



وأما سعيد بن المهدى خرج من ممثول مقادير البيكار ومن ممثول أيام الجمعة ، لأن مقادير البيكار ستة دلت على ست دعوات عدم ، ويوم الجمعة دل على يوم الكشف ، والست أيام الباقيه دلت أيضا على الست دعوات العدم ، وكذلك سعيد المهدى خرج من أولى العزم ومن التكليف ، لأن شريعته ما لها تكليف لأجل ضعفها ، وهى مضمنة فى شريعة محمد بن إسماعيل التى ما بعدها شريعة تكليفية » .

« وأما دائرة البيكار ففيها أربعة معانى : مركز ، ونقطة ، ودائرة ، ومقادير . فالمركز هو الوسط ، وممثوله تأييد البارى سبحانه ، والنقطة التى بدأ البيكار منها ودار وعاد إليها فممثولها إمام الزمان صلوات الله عليه ، والدائرة ممثولها دعوة التوحيد ، والمقادير ممثولها ست دعوات عدم ، وكما أن فى المقادير حالة الازدواج لأنها ستة ، فتكون ثلاثة آزواج ، دل على ازدواج كل ناطق بأساسه ، وعلى ازدواج التنزيل بالتأويل . وكما هى ثلاثة أزواج دلت على أسابيع مثلّثة ، وكل شىء إذا بلغ سبعة انتهى ووجب تغييره وحُدُثَ غيره» .

ولما كان قيام الشرائع بمادة حدود الحق ، وهم الممدون لكل ناطق وأساس ، ويودعون الحقائق المرموزة فى شريعتهما ، وكذلك جاز لأهل الحق الدخول فى التنزيل والتأويل فى كل زمان ، وكانت تربية نفوس المحقين — يعنى أهل الحق ، يعنى الحدود — بالطبائع الدينية التوحيدية العلمية الفيضية التى مركزها الوجود والتنزيه ، وهى طبع السابق والتالى كما قال ، فأظهر السابق برودته وسكونته ، وأظهر التالى حرارته وحركته ، وكذلك كانت تربية نفوس المخالفين فى الشرائع بطبع الناطق والأساس كما قال ، وأظهر الناطق اليبوسة ، وأظهر الأساس الحركة ، وهى أيضا طبائع دينية علمية فيضيّة تلحيدية كفرية شركية مركزها العدم والتشبيه ، لكن كانت الحقائق المحمودة مختلطة بالزخارف المذمومة فى زمان الشرائع ، مقترنة بها مودعة فيها ، وكل طبع منها تبرز عنه نتيجته فى الاعتقاد من صحة وفساد ، فغاية الوجود والتنزيه توحيد ، وغاية العدم والتشبيه تلحيد ،

فتخرج الحقائق المحمودة من السابق والتالى ، وتخرج الزخارف من الناطق والأساس ، فإن خرجت العلوم من بين السابق والتالى كانت حقائق محضة ، وإن خرجت من بين الناطق والأساس كانت زخاريف محضة »[87] .

ويمضى كتاب النقط والدوائر فيضفى صفات الشرف والتأييد الربانى على « السابق » ويلحق بذكر اسمه الجملة الدعائية « صّلى الله عليه » والشيء نفسه يضفيه على « التالى » فإذا ما تحدث عن « الناطق » وصفه باليبوسة لوجهين «أحدهما لكون الزخاريف والعلوم الفاسدةساكنة فى جوهره المظلم ، مستقرة فيه ، والوجه الثانى لأن الزخاريف والحيل الإبليسية والمخادعات متولدة عن شغاف الظلمة ويبسها ، لأن طبع الظلمة يبس وإحراق »[88] وإذا ما تحدث عن « الأساس » وصف طبعه بالحركة لسببين أو لوجهين : « أحدهما حركة الأساس فى أخذ مواد الناطق ، والوجه الثانى لما يحتاج إليه الأساس من الحركة في إفاضة العلوم الفاسدة إلى من دونه »[89] .

ثم ينتهى مؤلف كتاب النقط والدوائر إلى إصدار حكمه على « السابق » و « التالى » و « الناطق » و « الأساس » على النحو التالى : « فصار متولد عن السابق والتالى طبع الوجود والحياة ، وعن الناطق والأساس طبائع العدم والموت والإحراق والفناء »[90] ولما كان الناطق هو الرسول والنطقاء هم الرسل فإن صاحب النقط والدوائر يكون قد حمل عليهم وذكرهم بما لا يليق أن تذكر به الأنبياء ويصل مؤلف « النقط والدوائر » إلى موضوع **تأليه الحاكم بأمر الله الفاطمى** للمرة الأخيرة فيقول :

« ولما أتى زمان الكشف الأخير الذى هو أول دور الآخرة ، وتجلى الحاكم سبحانه بالوحدانية ، وكشف توحيده سنة ثمان وأربعمائة للهجرة ، وظهر القائم المنتظر حمزة

---

(٨٧) كتاب النقط والدوائر صفحة ٤٢ — ٤٧ .

(٨٨) المصدر السابق صفحة ٤٨ .

(٨٩) المصدر السابق صفحة ٤٨ ، ٤٩ .

(٩٠) نفس المصدر صفحة ٤٩ .

ابن على صلى الله عليه بالإمامة الحقيقية ، ودعا إلى الوجود والتنزيه ، وخيّر الخلائق ، ورفع التكاليف ، وظهر فى الزمان الموعود به ، وأتى بما فى ضمن كل كتاب ، فتجردت الحقائق المرموزة المذكورة من الزخارف المشهورة ، وبطلت الأمثال بظهور الممثولات ، وصارت ظاهرة ضوئية للبصائر الألمعية ، رشفتها العقول النقية ، وقبلتها النفوس الزكية ، ورفضتها النفوس الدنية ، وأنكرتها البصائر العمية ، ولما اتضح الطريقان ، وتميز الفريقان ، ودارت دائرة الفرض ، وتعيّن الإسقاط والنقض ، وانتصّت الرسائل ، واتضحت الدلائل ، دارت دائرة التمجيد على مركز التوحيد »[٩١] .

الأركان الجديدة أو البديلة :

من المعروف أن الإسلام بنى على خمس هى : شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وصوم رمضان ، وحج البيت من استطاع إليه سبيلا ، غير أنه يتبين لنا من النص السابق أن العقيدة الدرزية بنيت أيضا على خمس نقضت الفرائض الإسلامية وأسقطتها ، وفى مقدمتها توحيد الحاكم بأمر الله بدلا من توحيد الله .

فالإسقاط والنقض اللذان أشير إليهما فى هذا المقام يتمثلان فى خمسة فرائض أولها توحيد الحاكم بأمر الله ، وأما الفرائض الأربعة الأخرى فهى : سدق اللسان (يعنى صدقه) ، وحفظ الإخوان ، وترك العدم ، والبراءة من الأبالسة ، ويذهب مؤلف « كتاب النقط والدوائر » إلى مزيد من التوضيح فى شأن الفرائض الجديدة التى حلت محل الفرائض الأصلية فيقول : إن السدق هو الإيمان والتوحيدبكماله ، وبحفظ الإخوان يكمل الإيمان أى التوحيد ، وعنَ ترك العدم يقول : إن العدم مضاد للوجود ، وسبيل يستدرج إلى الإنكار والتعطيل والجحود ، وعن البراءة من الأبالسة يقول : من اعترف منكم منهم بولد أو والد أو أخ ذكر أو أنثى فهو ملعون ناكث للدين برىء من عظائم الحجج والآيات[٩٢] .

(٩١) كتاب النقط والدوائر صفحة ٤٩ .

(٩٢) كتاب النقط والدوائر صفحة ٤٩ ، ٥٠ .

وهذه الفرائض الأربعة التى مر ذكرها وهى سدق اللسان ، وحفظ الإخوان ، وترك العدم ، والبراءة من الأبالسة هى على الترتيب بديلة من الصلاة والزكاة والصوم والحج عند المسلمين .

يقول صاحب « كتاب النقط والدوائر » بعد تفريعات كثيرة وترجمات عديدة للسدق : « وبالجملة فالسدق صلة والكذب قطيعة ، ولهذا كان **السدق عوض الصلاة** لأنه صلة بالمعبود ، وصلة بالإمام ، وصلة بالحدود ، وصلة بالأنبياء الذين هم ممثول أحرف السدق وصلة بالإخوان »[٩٣] .

ويذكر المصدر نفسه واجبات الموحد نحو الإخوان كقوله : « وعليك بلمّ شملهم وذكر فضلهم ، ونشر محاسنهم وستر عيوبهم ، وحسن الظن بهم ... ثم معرفة درجاتهم ، ثم تمييز الفاضل ... ثم محبتهم على القرب والبعد .... ثم معاونتهم ومعاضدتهم فى السر والجهر » ثم يورد المصنّف نصا من رسالة التحذير والتنبيه لحمزة ابن على وهى قوله : « فأجيبوا دعواتهم ، واقضوا حاجاتهم ، واقبلوا معذرتهم ، وعادوا من ضامهم ، وعودوا مرضاهم ، وبروا ضعفاءهم ، وانصروهم ولا تخذلوهم ولهذا كان **حفظ الإخوان عوض الزكاة** »[٩٤] .

وفى إحلال ترك العدم محل فريضة الصوم يقول مصنف « النقط والدوائر » : « العدم والبهتان يجمع العقيدتين التنزيل والتأويل وفروعهما » إلى أن يقول : « وبالجملة فكل مذهب خارج عن مذهب التوحيد — يعنى توحيد الحاكم بأمر الله — **فهو** عدم ، وهذه الفريضة كونها ترك عدم وبهتان فلذلك كانت **عوض الصوم** ، **لأن** ظاهر الصوم ترك الأكل والشرب ، وحقيقتهما التنزيل والتأويل ، وكذلك باطن الصوم عند أهل التأويل ترك الكلام والمفاتحة لغير إخوانهم »[٩٥] .

وعن الفريضة الرابعة التى هى بديلة الحج وهى البراءة من الأبالسة **يردد مصنف** « النقط والدوائر » كلاماً خطيرا طويلا يقول في بعضه : « ومعنى البراءة منهم ،

---

(٩٣) كتاب النقط والدوائر صفحة ٥٤ .

(٩٤) المصدر السابق صفحة ٥٦ ، ٥٧ .

(٩٥) المصدر السابق صفحة ٥٨ .

بمعرفتهم أولا ومعرفة درجاتهم فى الشر .... والتبرّى منهم أولا هو التبرى من الطبائع الضدية الحاكمة على نفوسهم ، ثم البراءة من شرائعهم الدارسة وعقائدهم الفاسدة ، وأديانهم المضلّة ، ونيّاتهم الخبيثة ، وأقوالهم الكاذبة ، وأفعالهم القبيحة ، ثم الاحتماء من كثرة لقائهم ومجالستهم وقلة الإصغاء إليهم ومصانعتهم ومداراتهم .... فاعرفوهم يا أهل الستر والصيانة ، وباينوهم فى المحيا والممات ، يعنى فى المحيا لا تحبوهم ، وفى الممات لا تحزنوا عليهم »(٩٦) .

وفى موضع آخر من كتاب النقط والدوائر يتعرض المصنف من جديد للحديث عن الدعائم الأربعة : الصلاة والزكاة والصوم والحج ، ويقدم معنى كل منها فى اللغة ، وفى الظاهر (يعنى عقيدة جمهرة المسلمين) ، وفى الباطن (يعنى عقيدة الباطنية) ، وفى الحقيقة (يعنى من وجهة نظر عقيدة « التوحيد ») وفى الفرائض (يعنى التكليف الجديد) على هذا النحو :

« الصلاة فى اللغة : معناها الصلة ، وفى الظاهر : معناها الركوع والسجود وإقامة شروطها الظاهرة ، وفى الباطن : معناها الاتصال بعهد على بن أبى طالب ، وفى الحقيقة ، معناها صلة قلوبنا وقلوبكم بتوحيد مولانا جلّ ذكره فى كل عصر وزمان ، وفى الفرائض : سدق اللسان » .

« الزكاة فى اللغة : الطهارة والنمو والزيادة ، وفى الظاهر : زكاة الأموال ، وفى الباطن : ولاية على بن أبى طالب ، وفى الحقيقة : تزكية القلوب بالتوحيد ، وفى الفرائض : حفظ الإخوان » .

« الصوم فى اللغة : معناه الصمت ، وفى الظاهر : معناه ترك الأكل والشرب والجماع وتعمّد القىء ، وفى الباطن : ترك المفاتحة لغير إخوانهم ، وفى الحقيقة : صيانة القلوب بالتوحيد ، وفى الفرائض : ترك العدم والبهتان » .

« الحج فى اللغة : معناه القصد ، وفى الظاهر : معناه المجىء إلى مكة والوقوف بعرفات وإقامة شروطه ، وفى الباطن : معناه أن البيت يدل على الناطق (يعنى

---

(٩٦) النقط والدوائر صفحة ٥٩ .

سيدنا محمداً) والحجر يدل على الأساس (على بن أبى طالب) ، وفى الحقيقة : البيت هو توحيد مولانا جل ذكره موضع السكنى والمأوى الذى يطلب المعبود فيه ، وفى الفرائض : البراءة من الأبالسة والطغيان » .

« الجهاد فى اللغة معناه مخالفة الهوى ، وفى الظاهر جهاد الكفار ، وفى الباطن الجهاد للنواصب الحشوية الغاوية لهم ، وفى الحقيقة معناه الطلبة والجهد فى توحيد مولانا جل ذكره ومعرفته ، وفى الفرائض الرضا بفعل مولانا كيفما كان »[٩٧]

دلالة الأعداد فى العقيدة :

لبعض الأعداد دلالات خاصة فى عدد من العقائد الدينية ، وفى العقيدة الدرزية يحتل كل من العدد خمسة والعدد سبعة مكانة خاصة .

فأما العدد خمسة فتتمثل قدسيته فى أن الحدود خمسة[٩٨] وهؤلاء الحدود هم الممدون لكل ناطق وأساس[٩٩] والناطق كما مرّ بنا هو النبى ، والأساس هو ألصق الناس به ، وقد مرّ بنا أن أساس إبراهيم هو إسماعيل ، وأساس موسى هو هارون ، وأساس عيسى هو يحيى ، وأساس محمد هو على بن أبى طالب ، وقد ذكرت بعض المراجع الدرزية أن سلمان الفارسى هو ممدّ محمد ، ومن ثم يكون سلمان واحدا من الحدود الخمسة .

وفى مقام تمجيد العدد خمسة وتقديس شأنه يقول مؤلف « النقط والدوائر » : « مركز الدائرة الذى هو التوحيد هو قاعدة العبادات والفرائض كلها لكونه فى عدد الفرائض خامسا ، ولأن مجتمع القوة فى الخامس من كل شيء كالهيولى خامس الطبائع ، والحجج أربعة والإمام خامسهم وهو أفضلهم ، واجتمعت القوة فى الناطق الخامس[١٠٠] والأساس الخامس[١٠١] الإمام الخامس ، وكذلك المقامات

(٩٧) المصدر السابق صفحة ٦٣ .

(٩٨) النقط والدوائر صفحة ٥٢ .

(٩٩) المصدر السابق صفحة ٤٦ .

(١٠٠) يعني سيدنا محمدا صلى الله عليه وسلم .

(١٠١) يعني أمير المؤمنين على بن أبي طالب كرم الله وجهه .

الخمسة التى ظهرت بالملك ، خامسهم الحاكم ، وهو الذى كشف التوحيد ، وقول الناطق : بنى الإسلام على خمس(١٠٢) .

ونحن نلاحظ أن الحاكم بأمر الله ليس الخامس فيمن تولوا الملك ، وإنما هو السادس خلافا لما أورد صاحب النقط والدوائر ، لأن الحاكم بأمر الله هو منصور ابن العزيز بالله نزار بن المعز لدين الله معدّ بن المنصور إسماعيل بن القائم بأمر الله محمد بن عبيد الله المهدى .

إن نظرة عابرة على هذا التسلسل تبين أن الحاكم هو سادس ملوك العبيديين وليس خامسهم ، اللهم إلا إذا اعتبرنا أن أول من تلقب بأمير المؤمنين من الأسرة العبيدية هو القائم بأمر الله ، وفى نطاق هذا الافتراض يكون الحاكم بأمر الله خامساً ، ولكن المقابل فى هذه الحالة هو استبعاد عبيد الله المهدى من هذا المسلسل ، وهو رأس الأسرة ومنشئ ملكها ، وهو ما لا يرضاه الفاطميون أنفسهم .

وللعدد سبعة مكانة لا تقل تقديسا عن مكانة العدد خمسة إن لم تزد عليها ، لأنه فيما يذكر صاحب النقط والدوائر(١٠٣) علل العالم الروحاني سبعة هم الحدود الخمسة والناطق والأساس ، وكذلك مدبرات العالم الجسمانى سبعة هى زحل ومشترى ومريخ وشمس وزهرة وعطارد وقمر ، والأيام سبعة ، والنطقاء سبعة ، والأوصياء سبعة ، والأئمة سبعة ، والشرائع الظاهرة سبع ، والشرائع الباطنة سبع ، والفرائض التوحيدية سبع ، ويستطرد المؤلف قائلا : « واعلموا أن مولانا جل ذكره قد أسقط عنكم سبع دعائم تكليفية ناموسية ، وفرض عليكم سبع خصال توحيدية دينية » .

وتدعيما لقدسية العدد سبعة يقول المؤلف : « ونرجع إلى الحدود وترتيبهم فى البدعة ــ أى فى الخلق ــ فالعقل صلى الله عليه أول مبدعاته ، ثم الضدّ ، ثم

---

(١٠٢) النقط والدوائر صفحة ٥١

(١٠٣) النقط والدوائر صفحة ٥٢

النفس ، ثم النّد ، ثم الكلمة ، ثم السابق ، ثم التالى ، فهذه العلل السبعة هى الأصول فى الروحانى والجسمانى جميعه ما خلا الناطق والأساس »[١٠٤]

ولعلنا نلاحظ الموقف الثابت المتكرر حيال الناطق والأساس ، إن الناطق كما قد صار معروفا هو النبى أو الرسول ، فلا يكاد يجرى ذكرهما إلا مقرونا بالاستثناء من الخير ، إذ يقول عنهما المؤلف حينا ما نصه : « فصار متولد عن الناطق والأساس طبائع العدم والموت والإحراق والفناء »[١٠٥] وحينا آخر يقول فى شأنهما : « تخرج الحقائق المحمودة من السابق والتالى ، وتخرج الزخارف — أى الأباطيل — من الناطق والأساس ، فإن خرجت العلوم من بين السابق والتالى كانت حقائق محضة ، وإن خرجت من بين الناطق والأساس كانت زخارف محضة »[١٠٦] .

التقمص والتناسخ :

يؤمن الدروز بعقيدة التقمص بمعنى أن الإنسان إذا انتهت حياته وصعدت روحه فإنها لا تذهب إلى الحياة البرزخية المعترف بها عند المذاهب الإسلامية ، ولكنها تتقمص مولودا جديدا ، روح الرجل تتقمص طفلا وليدا وروح المرأة تتقمص طفلة وليدة ، والتقمص كما فسر جانبا منه كتاب « أضواء على مسلك التوحيد » هو تقلب الروح في شتى الأحوال لكي يتسنى لها أن تختبر هذه الأحوال ، فمن لم يتقبل نداء الحق حسب المعتقد الدرزي لا يمكنه إلا أن يحصد نتيجة أعماله في حيواته التالية[١٠٧] والمفهوم من ذلك استنتاجا هو العقاب الذى يكون مختلف الأنواع في حياة الشخص القادم في أدواره التالية أو في « قمصانه » التالية حسب التعبير الحقيقي ، وقد يكون العقاب فقرا أو تشويها أو شقاء ، ولا

---

(١٠٤) المصدر السابق صفحة ٦٩ .
(١٠٥) النقط والدوائر صفحة ٤٩ .
(١٠٦) النقط والدوائر صفحة ٤٧ .
(١٠٧) الأضواء ١٢١ ، ١٢٢ .

أعتقد أنه يكون مسخا ، وكم وُددنا لو أمكن للمختصين من الدروز آن يفصحوا بعض الشيء عن عقيدة التقمص ومظاهره وملابساته في نطاق عقيدتهم .

وأما بالنسبة لمن تقبل النداء وعرف الحقيقة فإن جزاءه يكون النعمة والخير في شكل من الأشكال .

النطق :

النطق هو أن الروح حين تنتقل من جسد إلى جسد تحمل معلومات عن دورها في الجيل السابق ، يعني في الجسم الذي كانت تتقمصه قبل قميصها الحالي ، وفي هذه الحالة تتحدث أو تنطق بما تذكره من وقائع عن حياتها السابقة ، وقد سمعت شيئا من ذلك من بعض الأصدقاء الدروز المتعلمين ، وأذكر حالتين حدثني عنهما صديقان ، حالة في «عالية» وحالة في «قرنايل» ، والأمر طبيعي جدا لمن يعتقد في نظرية التقمص ، فمتى حدث الاعتقاد بها والتسليم بصحتها كان تصديق النطق أمرا لا غبار عليه ولا غرابة فيه .

ولقد جرت حوادث استقلال كثيرة في محيط المجتمع الدرزي نتيجة للاعتقاد في قضية « النطق » هذه ، اتخذت أشكالاً عدة .

الثواب والعقاب :

يكون الثواب والجزاء بمقدار ما تكتسب النفس من المعرفة والعقيدة في أدوار تقمصها المتعاقبة ، وانتقالها من جسد إلى جسد ، وقد ذكر الأستاذ النجار أن الثواب يكون بارتفاعها من درجة إلى درجة حتى تبلغ حد المكاسرة بل حد الإمامة(١٠٨) . إن العدل الإلهي اقتضى أن تحاسب الأرواح بعد مرورها في الدهر الطويل لا في مدى حياة واحدة ، بخيرها وشرها ، وقصرها أو طولها ، بحيث يمنحها الدهر الطويل فرص الاكتساب والتطور والامتحان والتبدل لكي تحاسب حسابا عادلا . وقد رأى الدكتور مكارم أن الثواب بالصورة التي صورها

---

(١٠٨) مذهب الدروز والتوحيد ٥٨ ، ٥٩ .

الأستاذ النجار لا يتفق مع العقيدة ، وكم تمنى طالب المعرفة لو أنه بيّن الثواب البديل من ذلك الذي أورده الأستاذ النجار ، إذن لعمت الفائدة وحدث النفع العلمي .

وأما بالنسبة للعقاب فأمره غير واضح ، وطريقة القصاص مستبهمة كل الاستبهام ، ويقول الأستاذ النجار إن النفس التي زلت سوف تبقى في هذا العالم لا تخرج منه ومعادها إليه[١٠٩] ، والعذاب نقلة من درجة روحية إلى درجة دونها[١١٠] .

وإذا كان الثواب والعقاب مرتبطين بالجنة والنار ، فإن الجنة عند الموحدين (الدروز) هي توحيد الخالق ، وثمارها المعرفة الحقيقية ، والجحيم هو الجهل والشر ، وأما النار الكبرى فهي غلبة الشقوة وهوى النفس البهيمية الغالب عليها الجهل[١١١] .

يوم الدين :

يوم الحساب في العقيدة الدرزية ليس يوم قيامة ، إذ ليس فيه موت للأرواح ولا قيامة لها ولابعث ولا نشور ، فالأرواح لا تموت لتبعث ولا تنام لتوقظ ، بل إن يوم الحساب أو الدينونة نهاية مراحل الأرواح وتطورها ، إذ يبلغ التوحيد ـــ حسب العقيدة الدرزية ـــ غايته من الانتصار على العقائد الشركية ، وينتهي الانتقال والمرور في الأقمصة المادية لتتصل الأرواح الصالحة بالعقل الكلي كل على قدر تكاملها .

هذا هو يوم الحساب في العقيدة الدرزية فهو نهاية النهايات ، أما العقاب فهو العذاب عن التقصير في الوصول إلى هذه الدرجات وتلك المراتب والغايات[١١٢] .

---

(١٠٩) عقيدة الدروز والتوحيد ص ٦٦ .
(١١٠) المصدر السابق ص ٨٠ .
(١١١) نفس المصدر نفس الصفحة .
(١١٢) عقيدة الدروز ٨١ .

الدرزية كمذهب إسلامي :

يعتبر الدروز أنفسهم في طليعة المسلمين الحقيقيين الأولين ، بل إن تعبيرا جميلا صدر عن أحد مستنيري المذهب يقول فيه « الدرزية وديعة الإسلام الحنيف »[113] فإذا قدر للموحدين أن يكونوا — إن كان عليهم أن يكونوا — فمن الإسلام وفيه ، ويستطرد قائلا :وإذا ضاقت بعض الصدور المتزمتة بهذا المعراج — أي المعراج على المذاهب الفلسفية فيما أعتقد — من أبناء عشيرتنا فلا يضيق بها الإسلام في رحابته وسعة اطلاعه .

وفي تحديد صلة الدرزية بالإسلام يقول الأستاذ النجار والدكتور مكارم : الدرزية « فرقة من الإسلام من حيث انحصاره في القرآن وعدم خروجه عنه » . وهو تحديد لطيف ، فمتى خرج الإسلام عن القرآن ؟ على أن مؤلفى « المذهب »[114] و « الاضواء » يستطردان في هذا التحديد قائلين : إن المذهب « يفسر آيات التنزيل تفسيرا باطنيا خاصا يخرجه من باطن التأويل » .

وفي الحق أنه يخشى كثيرا من هذا التفسير الباطني الذى يخالف التفسير الشرعي مخالفة كاملة ، وكم تمنينا لو كان تفسير القرآن قد جرى على النهج الذي جرت عليه بقية المذاهب الإسلامية طالما أن القرآن هو كتاب الدروز ، وأن الدروز فرقة إسلامية منبثقة عن الجماعة الإسلامية ، أو هي كما يقولون فرع من أصل .

إن هذا الرأي يتكرر ولكن بشكل أقرب وأوضح عندما يقول الدكتور مكارم : « ولا يقول المذهب بتأليه الأشخاص أو التجسيد — وإنما يؤمن بالتجلي والإشراق إيمانا لا يختلف كثيرا عن إيمان بعض المسالك الصوفية العرفانية القديمة والحديثة »[115] .

---

(١١٣) بايزيد في توطئة كتاب أضواء المذهب ص ٧٣ .

(١١٤) المذهب ص ٨٣ ، الأضواء ١٠٥

(١١٥) أضواء على مسلك التوحيد ص ١٠٥ .

ويقول صاحب « توطئة » كتاب أضواء على مسلك التوحيد في مقام صلة المذهب بالإسلام ، وهي صلة يريد أن يقرها كل مسلم ، « إن القرآن هو السند الرئيسي لمصادر الدروز الروحية ووحيهم وتأملهم ، فهو نفس الطريق الطيب ، الذي سلكه الأستاذ النجار والدكتور مكارم ، ولما كان القرآن قد أنزل على محمد ، وهو رسول الله وأشرف الخلق ، فإنه يكون مطلوبا من رجال المذهب أن يوضحوا صلة المذهب بالرسول الكريم ، خاصة أن مؤلف « النقط والدوائر » يصور الرسول من خلال المذهب الدرزي تصويراً لا يرضاه أي مسلم مهما كان انتماؤه المذهبي[116] وهل كان « مُمِدُه » كما ذكر في بعض الكتب « سلمان الفارسي » ؟ وهل صحيح أن سلمان ابن ملك برهمي ثقّفه راهب وأوصاه قبل موته أن يسعى إلى نَبيٍّ اسمه محمد إلى آخر القصة ؟

قد تكون كلمة من درزي واعٍ مبددة للكثير مما يحاول دعاة الفرقة أن يطعنوا به الصف الإسلامي ، ويزرعوا حقله الرحيب الخصيب المبارك شوكا وحنظلا ، وهو حقل لا ينبت بطبيعته إلا الخير والحب والأخوة والرشاد .

بقي شيء آخر مهم في النطاق الاجتماعي للطائفة ، وهى أن تفوّت على دعاة التفرقة بين المسلمين غرضهم بأن تكون إجابة الدرزي إذا سئل عن دينه أنه مسلم ، فقد لاحظت أن كل طفل درزيّ ، حتى أبناء أصدقائنا المستنيرين إذا سئل عن دينه قال إنه درزى ،فإذا قيل له يعني مسلم ، أبدى استغرابا شديدا مفاده أن ليست ثمت علاقة تربط بينه وبين الإسلام ، وله العذر في ذلك طالما أنه لم يُعلَّم أن الدرزية مذهب من مذاهب الإسلام .

هذا في الأوساط الاجتماعية ، فإذا انتقلنا إلى الأوساط العلمية ، وجدنا المؤلفين والمحاضرين يتحدثون عن الدرزية على أنها دين مستقل وليس مذهبا إسلاميا ، وإذا أشير إلى الشريعة الإسلامية أشير إليها وكأنها شريعة غريبة لدين غريب ، فمن بين العبارات الكثيرة التي تفيد هذا المعنى ، هذه العبارة « تستند الأحكام التي تسود

---

(١١٦) النقط والدوائر صفحة ٧٢ .

قضايا الأحوال الشخصية للطائفة الدرزية في البعض منها على التقاليد الدرزية والامتيازات المذهبية المعترف بها رسميا والمعمول بها منذ القدم ، وفي البعض الآخر على الشرع الإسلامي »[117] أو عبارة « والاقوال الراجحة من المذهب الحنفي من الشرع الإسلامي تستند إليها المحاكم المذهبية الدرزية في أحكامها في الأحوال التي لا نصّ عليها في القوانين الحديثة »[118] .

والعبارات السابقة بهذه الصيغة توحي إلى القارئ أن الدرزية شيء والإسلام شيء آخر .

ومن العبارات التي تؤكد هذا المعنى أيضا ، هذه العبارةالتي وردت على لسان الدكتور مكارم فى بعض ردوده على الأستاذ عبد الله النجار « ثم إن نظرية الانبثاق التي يشير إليها الكتاب إشارة عابرة هي من النظريات الأساسية في دين التوحيد »[119]

إن الأمر في الحقيقة — وحسن النية لا شك قائم — يحتاج إلى شيء كثير في التعبير والاقتراب أكثر وأكثر إلى الدائرة الإسلامية المنفتحة الرحبة الصدر كما ذكر السيد « با يزيد » التي لا تضيق بالدين ساعيا إلى رحابها ولا بالمغترب عائدا إلى عرصاتها .

على أن الدعوة الدرزية حينما حلت بوادي التيم والجبل الأعلى اعتنقها القوم في ظل أحكام الإسلام وأركانه العملية ، بالإضافة إلى الإيمان بما قد جاء في رسائل حمزة ومراسم الحاكم والسجل المعلق ، وهذا السجل وتلك الرسائل والمراسم مختلف فيما قد حوته ، البعض يقول بأنها حوت تأليه الحاكم ، والبعض الآخر ينفي ذلك وينسب فكرة الألوهية إلى رسائل مزورة .

والأمر الذي ينبغي الإشارة إليه أن القرى الدرزية مازالت حتى اليوم مزدانة بالمساجد الأثرية ذات المآذن السامقة ، مثل جامع عبيه الذي دفن فيه السيد

---

(١١٧) الواقع الدرزي وحتمية التطور ص ٧٥

(١١٨) المصدر السابق ص ٧٤

(١١٩) أضواء على مسلك التوحيد « الدرزية » .

التنوخي ، وقد كان يلقى فيه دروسه ويؤم الناس للصلاة ، ومثل مسجد دير القمر الذي يتوسط الساحة الرئيسية للبلدة ، وجامع الناعمة ، هذا فضلا عن المساجد الكثيرة التي أصابها التهدم نتيجة للهجر وعدم الصيانة والإهمال .

وقد قيل إن أسباب ترك الدروز لمساجدهم واللجوء إلى الخلوات كانت أسباباً سياسية ، فسئل أحد شيوخهم ، وهو الشيخ أحمد الهجري ، عن أسباب استمرار ترك التعبد بالمساجد والتمسك بالخلوات مع زوال الأسباب السياسية فأجاب إجابة غير شافية قائلا : إن ذلك أمر درج عليه الشيوخ في ظروف معينة فلما انقضت تلك الظروف أصبح ذلك أمرا موروثا(١٢٠) .

التنظيمات الدرزية :

للدروز تنظيمات طبقية حيث ينقسمون إلى طبقتين : الأولى طبقة الروحانيين ، وهم رجال الدين الملمين بأصول المذهب ، وهم الرؤساء والعقال والأجاويد ، فالرؤساء هم الذين بيدهم جميع الأسرار الدينية ، والعقال بيدهم الأسرار التي تتعلق بالتنظيم الداخلي للمذهب ، والأجاويد بيدهم الأسرار الخارجية التي تختص بعلاقة مذهبهم بغيره من المذاهب الأخرى .

وأما الطبقة الثانية فهي طبقة الجثمانيين ، وتنقسم إلى أمراء وعامة أو جهال ، فالأمراء هم أصحاب الزعامة الوطنية ، وهذه الطبقة الثانية جميعها لا يحق لها حضور « المجالس » أي (طقوس العبادة) إلا بعد امتحانات طويلة تحتاج إلى صبر ومجالدة وإيمان ، فإذا ما اطمئن إلى إيمان الشخص أخذت عليه مواثيق معينة ، من بينها « ميثاق ولى الزمان » ، وبذلك يتدرج في مراقي الدرجات الدينية .

العقيدة الدرزية كما يقدمها الرؤساء المعاصرون :

في الفترة التي عشتها مهتما « بالدرزية » وقع بين يدي مخطوط يضم أسئلة عن « دين التوحيد » وإجابات عنها . وهي مثيرة فى جملتها .

---

(١٢٠) الزغبي ٩٢ .

وإني محاول أن أقدم هنا مقتطفات من هذه الأسئلة والإجابات عنها وربما غضضت النظر عن كثير منها وأسقطتها متعمداً لأن ضررها أكثر من نفعها .

س : الجاهل : أدرزي أنت ؟
جـ : العاقل : نعم بقوة المولى سبحانه .
س : من هو الدرزي ؟
جـ : هو الذي كتب على نفسه الميثاق وعبد مولانا الحاكم الخلاق .
س : ما فرض عليك ؟
جـ : صدق اللسان وحفظ الشروط السبعة .
س : ما نقص عليك من الأمور الصعبة عليك ؟
جـ : ترك الدعائم السبعة .
س : كيف يعرف الدرزي ؟
جـ : يأكل الحلال ويترك الحرام .
س : ما هو الحلال والحرام ؟
جـ : الحلال مال العقال والفلاحين ، والحرام مال الحكام والمرتدين .
س : متى ظهر مولانا الحاكم ؟
جـ : ظهر في السنة الأربعمائة للهجرة الإسلامية .
س : لماذا قال عن نفسه إنه من نسل محمد ؟
جـ : قال ذلك ليخفي ألوهيته .
س : لماذا أخفى ألوهيته ؟
جـ : هكذا اقتضت حكمته ، لأن عبادته كانت قليلة ، والذين يحبونه كانوا كذلك .
س : متى ظهر وأشهر لاهوته ؟
جـ : بعد ثمانية سنوات من يوم ظهوره أي بعد الأربعمائة .
س : ما هو يوم الدين ؟
جـ : هو اليوم الذي يظهر فيه مولانا الحاكم بالناسوت ويحكم على العالم بالسيف والعنف .

س : كيف يكون حكمه على الطوائف والملل ؟

جـ : يبيدهم بالسيف والعنف ولا يسمح بأكثر من أربع ملل وهم النصارى واليهود والمرتدين والموحدين .

س : كيف تنقسم كل فرقة منهم ؟

جـ : فرقة النصارى ومنهم النصيرية والمتاولة ، وفرقة اليهود ومنهم المسلمون ، والمرتدون هم الذين تركوا عبادة المولى سبحانه ، والموحدون هم الذين عبدوه سبحانه .

س : كيف يكون حكمه بعد هذا ؟

جـ : بعد أن يبيدهم بالسيف والعنف يرجعون ويولدون ثانية على حكم التناسخ ويحكم حينئذ كما يريد

س : كيف يجازي الموحدين ؟

جـ : يعطيهم الحكم والملك والسلطنة والمال ذهبا وفضة ، ويصبحون كلهم أمراء وسلاطين .

س : كيف تستدل على شرف قسم حمزة بن على ؟

جـ : عرفنا ذلك بعد شهادته بنفسه ، حيث قال في رسالة التحذير والتشبيه : أنا أصل مبدعات المولى ، أنا سراطه العارف بأمره ، وأنا الطور والكتاب المسطور والبيت المعمور ، وأنا صاحب النعم وأنا ناسخ الشرائع ومبطل الشهادتين ، وأنا النار الموقدة التي تطلع في القلوب ، فمن هذه الشهادة عرفنا مقدار شرفه وأنه حجة الله وحجابه الواقف بين يديه .

س : ما هو دين الدروز الموحدين ؟

جـ : هو الكفر بكل ملة وطائفة ، والإيمان بما كفروا كما هو محرر في رسالة الإعذار والإنذار .

س : إذا عرف أحد الناس مولانا سبحانه وصدَّق به وأطاع لدين التوحيد وعمل به فهل له خلاص ؟

جـ : لا خلاص له ، لأن الباب أغلق وتم الأمر وجف القلم ، فإذا مات ترجع نفسه إلى ملته ودينه .

س : متى خلقت نفوس الناس والعوالم ؟

جـ : بعد أن خلق العقل الكلي الذي هو حمزة بن علي ، من قدره تكونت نفوس العوالم والأرواح ، وهي معدودة لا تزيد ولا تنقص مدى الأزمان والدهور .

س : هل يليق تسليم التوحيد للنساء ؟

جـ : لا بأس لكون مولانا سبحانه كتب عليهن من كتاب العهد والميثاق ، وأطعن الحاكم كما هو محرر في رسالة النساء والبنات .

س : ما تقول في باقي الطوائف الذين يقولون إننا نعبد الرب الخالق ؟

جـ : لا اعتبار لقولهم لكونهم لم يعرفوا الحاكم أنه الرب فعبادتهم تكون باطلة .

س : من الحدود تصف كلمة الحدود التي بني عليها ديننا ؟(١٢١)

جـ : نص ذلك ثلاثة وهم حمزة وإسماعيل وبهاء الدين .

س : إلى كم قسم يقسم العلم ؟

جـ : إلى خمسة أقسام ، قسمان (هكذا) يجمعان الدين ، وقسمان يجمعان الطبيعة ، والقسم الأكبر الخامس وهو الحقيقي ، وهو علم دين الدروز ، وهو حكمة عبد مولانا حمزة بن علي .

س : كيف تعرف أخانا الدرزي الموحد إذا رأيناه في الطريق أو خطار ومار علينا يقول إنه منا بعد السلام وبسط الكلام ؟

جـ : نسأله في بلادكم فلاحون يزرعون الإهليلج ، فإذا أجاب نزرعه في قلوب المؤمنين ثم نسأله : هل تعرف الحدود ؟ فإن أجاب نعم ، يكون لا محالة أنه أخانا ، وإلا فيكون غريبا عنا .

س : ما هي الحدود ؟

جـ : خمسة ، وهم الذين نصبهم الحاكم لدعوة التوحيد ، وهم حمزة وإسماعيل وأبو الخير وبهاء الدين(١٢٢)

س : ما هي نقطة البيكار ؟

جـ : حمزة بن علي .

---

(١٢١) هكذا وردت عبارة السؤال في المخطوط .

(١٢٢) هكذا ورد النص في المخطوط وربما نسي الناسخ الحد الخامس .

س : ما هو السراط المستقيم ؟ (هكذا) .

جـ : هو حمزة بن علي نفسه الذي يقال له قاسم الحق وإمام الزمان ، وهو العقل والسابق والنبي الكريم وعلة العلل

س : ما هو ذو معه ؟

جـ : هو آدم الجزي وهو هرمس وهو إدريس وهو يوحنا وهو إسماعيل بن محمد التميمي الداعي في دور محمد بن عبد الله ، وكان يقال له المقداد .

س : ما معنى أرجل الحكمة ؟

جـ : أرجل الحكمة هم النذر الثلاثة يوحنا ومرقص ومتّى .

س : من هم حمال الحكمة ؟

جـ : هم النذر يوحنا ومرقص ولوقا .

س : ماذا يصير بالعاقل إذا زنا ؟

جـ : يجب عليه إذا تاب أن يتواضع ويقصد العقال سبع سنوات وهو يبكي ، وإن لم يتب يموت موت الكافر المرتد .

س : ماذا خلف مولانا سبحانه لما غاب ؟

جـ : كتب سجلا وعلقه على باب الجامع وسماه السجل المعلق .

س : كيف القول في محمد الذي كان يقول عن نفسه إنه ابن مولانا سبحانه ؟

جـ : حاشا فإن ادعاءه كذب وبهتان لكونه ابن الجارية الخامعة ، وكان مولانا يقول له ظاهرا إنه ابنه .

س : ماذا فعل محمد لما غاب عن أمته ؟

جـ : جلس على الكرسي وقال للناس اعبدوني كما عبدتم أبي .

س : ما القصد بذكر الجن والملائكة في الحكمة ؟

جـ : المراد بالجن والشياطين والأبالسة الناس الذين ما أطاعوا الدعوة ، والشياطين أرواح بلا أجساد ، كما يزعم أهل الخرافات ، فلا وجود لها ، والمراد بالملائكة الموحدون المستجيبين (كذا) لدعوة مولانا الحاكم سبحانه وهو الرب المعبود في كل الأدوار .

س : وما هي الأدوار ؟

جـ : هي شرائع الأنبياء الذين قال عنهم أهل الظاهر إنهم أنبياء مثل آدم ونوح وإبراهيم وموسى ومحمد وسعيد ، وهؤلاء كلهم نفس واحدة انتقلت من جسد إلى آخر وهم إبليس اللعين والحارث بن الطرماح وآدم العاصي الذى أخرجه من الجنة وأبعده مولانا سبحانه عن علم التوحيد .

س : ماذا كانت وظيفة إبليس عند مولانا ؟

جـ : كان عبدا عزيزاً ومن حيث أنه ما أطاع لحمزة الوزير الكبير لعنه مولانا وأخرج من حقه الدعوة .

س : لماذا أمرنا أن نخفي الحكمة ؟

جـ : لأن فيها أسرار مولانا وعهده ، وفيها خلاص النفوس وحياة الأرواح فلا ينبغي كشفها .

س : ما القصد بالخلوة ؟

جـ : القصد من ذلك كسر النفس حتى إذا جاء الحاكم يعطينا على قدر عملنا ويمكننا في هذه الدنيا ويجعلنا أصحاب مناصب ومراتب عالية .

إن هذه النماذج من الأسئلة والإجابات لمما يشيع بين بعض العامة ، صحيح أنها تحتوي على ملامح الفكر الدرزي الذي اتضح جانب كبير منه فيما كتبه كل من العالمين الدرزيين الأستاذين النجار ومكارم ، وبعض ما ورد فى كتاب النقط والدوائر ، ولكن ثمت فرقاً كبيراً بين تناول العلماء وتناول العامة لقضية ما ، وبخاصة إذا كانت القضية تتصل بعقيدة يزيد من خطورتها سرية شديدة مضروبة حولها أو حول جوهرها .

تلك على كل حال الصورة أو الصور التي تجمعت لدينا من واقع بعض الكتب والوثائق والمؤلفات على مدارج التاريخ قديمة وحديثة ، وقد بدت لنا فيها الكثير من الثغرات التي تحتاج إلى تحقيق ، والقوم لا يريدون لسبب أو لآخر أن يسدّوا هذه الثغرات ، ومن أجل ذلك ، وللروابط الكثيرة الطيبة التي تربطني بهم فقد كان عليّ ألا أهمل عنصر المواجهة والمناقشة مع بعض أعلامهم حتى تتضح الصورة أكثر مما هي ما دام أمر المواجهة سهلاً ميسوراً ، فقضيت جلسات طويلة مع بعض

أعلامهم وزعمائهم ، سواء منهم الدينيين أو الدنيويين ، وجرت لى معهم أحاديث طويلة تصور حاضر الدروز من حيث العقيدة تصويراً أرجو أن أكون أميناً في تقديمه بالقدر الذى ستطيعه .

فأما الحديث الأول فكان مع زعيم سريم من زعمائهم ، ليس مصبوغاً كلياً بالصبغة الدينية ولكن له احترامه واجتهاده بين رجال الدين ، وآراؤه مسموعة بينهم وهذا ملخص الحديث :

* يرجع تاريخ الدروز إلى ثلاثمائة وثلاث وأربعين مليوناً من السنين حين كانت الأرواح بلا أجساد .

* الدروز يؤمنون بالتقمص ، أي تقمص الأرواح ، بمعنى أن الذي يموت لا تصعد روحه إلى السماء بل تتقمص جسد مولود جديد ، ولذلك فهم لا يزيدون عدداً ولا ينقصون ، لأن التقمص عملية دائمة متواصلة بين أرواحهم ، وهم لذلك يقولون إن الحياة البرزخية غير موجودة .

* الدروز موجودون منذ الأزل ، واعتنقوا كثيراً من الديانات على مرّ الدهور ، واعتنقوا الإسلام في مرحلة من مراحل عقيدتهم ، ولما كانت العقيدة عندهم متطورة فقد تحولوا عن الإسلام إلى دين آخر مستقل هو « الدين الدرزي » ، أي أن « الدرزية » كانت مذهباً إسلاميا ثم تطورت وأصبحت ديناً مستقلا ، والأقطاب هم الذين يجددون الدين من زمن إلى زمن ، وهم يجيئون بأسماء مختلفة بين الفينة والفينة بدافع نظرية التقمص التي يؤمن بها الدروز ، ولذلك « فالدرزية دين متطور » يتطور من زمن إلى آخر .

* الشريعة الدرزية مأخوذة من القرآن ومن ستة عشر كتاباً خطياً لا يسمح لأحد بالاطلاع عليها ، كما أنها تأخذ تعاليمها من الفلسفة اليونانية ، وبخاصة الأفلاطونية القديمة ، والمسيحية والإسلام والبوذية والفرعونية القديمة ، ويعتبرون إخوان الصفا من الدروز لتشابه الأفكار بينهما ، فقد كان إخوان الصفا يطالبون بمزج الشريعة الإسلامية بالفلسفة اليونانية ، وبهذه المناسبة يخلط البعض خطأ بين الدرزية والإسماعيلية ، والواقع أن الفرق بينهما شاسع كبير .

* محمد ﷺ له مكانة محدودة عندهم ، وهو ليس إلا واسطة الرسالة وحسب ، وللدروز خمسة أقطاب منذ القدم ، خامسهم وآخرهم الحاكم بأمر الله الفاطمي ، ولأبي اليزيد البسطامي مكانة عالية سامية عندهم ، وأما الصحابة فمنهم أربعة لهم مكانة عليا عندهم ، وهم : سلمان الفارسي والمقداد بن الأسود وعمار بن ياسر وأبو ذر الغفاري .

* لا يقبل الدروز أحداً في « دينهم » ولا يسمحون لأحد بالخروج منه ، وحتى هؤلاء الذين يخرجون لا يعترف الدروز بأنهم قد خرجوا ، ولذلك فإن عدد الدروز في ظل هذه النظرية ونظرية التقمص لا يزيد ولا ينقص ، وقد أغلقت أبواب القبول في الدين الدرزي بعد قبول الأمير بشير الشهابي الذي يعتبره الدروز درزياً[١٢٣] .

* « الدين » الدرزي « دين » صوفيّ يعتمد على الداخليات والجواهر ولا يهتم بالشكليات ، والطهارة الداخلية ، أي النفسية الروحية ، هي الأساس ، وأما الطهارة الخارجية فلا قيمة لها ، وقد كان الشيوخ يصلون في المساجد إلى عهد قريب ويصوّمون رمضان ويحجون البيت ، ولكن هذه الفرائض جميعاً قد رفعت عنهم واستبدلت بها تكاليف أخرى .

* تعلّم الدين وقف على فئة معينة من الدروز ينبغي أن تتوفر فيها شروط خاصة هي الاستقامة والصدق ، ولا يجوز أن يتلقى علوم الدين من ارتكب كبيرة ، كالزنا أو القتل أو الكذب ، لأن مقترف الكبيرة لا تقبل توبته البتة ، والتعبد يكون في « الخلوة » ، ورجال الدين ــ ويعرفون بالعقال أو الأجاويد ــ يجتمعون بعيداً عن الناس جميعاً حيث يتعبدون ويذكرون الله ، ويسمى هذا الجمع « بالمجلس » ، والتقشف أمر أساسي في الدين الدرزي .

* « الدين الدرزى » تنظيم حربي ويتكون بشكل هرمي[١٢٤] .

---

(١٢٣) ومن الطريف أن المسيحيين اللبنانيين يعتبرونه مسيحيا تنصر بعد أن كان مسلماً ، وبعض المسلمين يعتبرونه مسلماً وإنما تظاهر بالنصرانية من أجل الحكم .

(١٢٤) الحادث كان مع السيد كمال جنبلاط في منزله بقرية المختاره صيف ١٩٥٩ في حضور جمع من الناس ، منهم صديقنا كامل أمين بلوط مدير الفندق العربي ببيروت .

هذه هي العناصر الأساسية للعقائد الدرزية المعاصرة من وجهة نظر زعيم كبير من زعماء الدروز ، استخلصتها من حديث طويل جرى بيني وبينه ، وقد حرصت على تدوينها مستعيناً بصديق درزي حضر الجلسة الممتعة التي جرت بيني وبين الزعيم الكبير ، ولكنني أكرر أن الزعيم المشار إليه زعيم مدني وليس رجل دين ، وكان واضحاً في صراحته ، كريماً في ضيافته .

ولما كنت حريصاً كل الحرص على أن أستقصي العقيدة الدرزية — ما أمكنني إلى ذلك من سبيل — فقد سعيت إلى لقاء كبير رجال الدين وهو « شيخ العقل » ، وكانت جلسة أخرى ممتعة أنست فيها بلقاء رجل ذي سماحة وعقل راجح وأفق واسع وصدر رحب ، وقد صارحني أول الأمر أن العقيدة الدرزية شأنها شأن أكثر العقائد الشيعية تستعين « بالتقية » ، ولكنه لن يكذبني فيما يقول . وإن كان سيعمد إلى الامتناع عن إجابة بعض الأسئلة التي لا يستحب الإجابة عنها من وجهة النظر المذهبية .

وقد حرصت عمداً في أول حديثي مع الشيخ أن أستعمل لفظ « الدين الدرزي » ولكن الشيخ سارع في حزم وقال : يا أخي أرجوك ، لماذا تقول « الدين » ؟ قل « المذهب » لأننا مسلمون موحدون نشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، ومن قالها فهو مسلم وإن خالف في بقية الشعائر التي تختلف فيها أكثر الفرق ، وقد كنت حريصاً أيضاً على أن أعرف من الشيخ صلة الدروز بالحاكم ، وهل هي صلة تأليه كما جاء بالكتب الكثيرة التي عرضت لعقيدة الدروز ، فاستعاذ الشيخ بالله وقال : الحاكم بأمر الله إمام فقط ، ولكن له بعض القداسة ، واستمرت الجلسة بيننا عدة ساعات قصدت خلالها إلى أن أتعرف على الشعائر الدينية والعقيدية كما هي عند الدروز ، ويمكن تلخيص ما سمعته من الشيخ فيما يلي :

* لا إله إلا الله محمد بن عبد الله بن عبد المطلب رسول الله . وسلمان الفارسي وعمار بن ياسر وأبو ذر الغفاري والمقداد بن الأسود لهم المقام الأسمى بين الصحابة جميعاً باستثناء علي بن أبي طالب بطبيعة الحال .

* الصلاة ، تختلف عن صلاة جمهور المسلمين ، فالفروض وإن كانت خمسة إلا أن عدد الركعات في كل صلاة يختلف عن عدد الركعات المعروفة ، وربما طريقة الصلاة نفسها ، هذا والوضوء ليس ضرورياً ما دام المصلي نظيفاً .

* الصوم معناه الامتناع عن الرفث ، ومعنى ذلك أنه يجوز الأكل والشرب مع الصوم ، وهو عشرة أيام في ذي الحجة تنتهي بالعيد ، كما أن صوم شهر رمضان مستحسن عن غيره ، لأن الصوم فيه مضاعف الثواب .

* الزكاة معطلة ، ولا حدود لها ، ويمكن أن تكون في شكل صدقات ، وهي اختيارية وهي بالتالي ليست فريضة .

* الحج لا يعتبر فرضاً خشية الاعتداء على الحجاج الدروز ، وهم بالتالي لا يؤمنون بمناسك الحج ويسفهونها ويرون فيها ظاهرة وثنية ، أما الزيارة في حد ذاتها فلا بأس بها .

* مصدر التشريع عند الدروز القرآن وحده ليس غير ، وأحيانا بعض الاجتهادات ، أما الحديث والسنة فإنهما معطلان ولا يؤخذ بهما إطلاقاً .

* لايجوز زواج الدرزية من غير الدرزى ، ولا زواج الدرزى من غير الدرزية فإذا حدث زواج من هذا القبيل فإنه يكون باطلاً ، ولا يجوز تعدد الزوجات ، بل يجب الاقتصار على زوجة واحدة .

والطلاق يقع من مرة واحدة لا رجعة فيها ، ولا يجوز للمطلقة أن تعود إلى مطلقها أبداً ، حتى ولو بعد زواجها من غيره .

* الوصية مطلقة لا يعتد فيها بالثلث ، وتجوز بكل المال أو ببعضه لأى إنسان ولو كان وارثاً .

* لا يجوز لأي إنسان اعتناق المذهب الدرزي ، كما لا يستطيع درزي أن يحيد عن مذهبه ، وحتى أولئك الذين يخرجون من الدرزية إلى دين آخر أو مذهب آخر يعتبرون دروزاً برغم تحولهم .

* الإيمان بفكرة تقمص الأرواح أمر مؤكد ، فما يكاد يموت شخص حتى تتقمص روحه شخصاً آخر ، والروح الدرزية تتقمص غالباً شخصاً درزياً ، وتبعاً لذلك فإن سكان العالم — من وجهة نظرهم — لا يزيدون ولا ينقصون ، وتبعاً لذلك أيضاً لا توجد حياة برزخية ، لأن الأرواح التي تترك أجسادها تنتقل رأساً إلى أجسام أخرى لمواليد جدد .

* الإنسان في الحياة مخير وليس مصيراً ، أي إنهم يقولون بالاختيار وليس بالجبر ، وذلك أخذاً بمبدأ العدل الإلهي المطلق ، لأن الله لا يتدخل في شئون الخلق تدخلا مباشراً ، فإن هذه صغائر والله أكبر من ذلك .

* العقيدة الدرزية عقيدة باطنية ولا يجوز لأحد الاطلاع على الكتب الدينية للدروز[١٢٥] .

تلك هي النقاط الأساسية التي سجلتها عن العقيدة الدرزية عن شيخ العقل في جلسة طويلة ممتعة ، ضمت معي صديقين آخرين : أحدهما سني هو الدكتور عبد الرحمن عُطْبَة ، والآخر درزي هو السيد كامل أمين بلوط .

وقد نبهت الشيخ الجليل إلى أن حرمان بعض أبناء الطائفة من أن يشاركوا في العبادة وإبعادهم عن حق الاطلاع على أمور دينهم يعتبر طبقية دينية ، والأديان كلها لا تقول بذلك ، فكان جوابه أن هذا إهمال بحقهم ينبغي تداركه ، وبالتالى ينبغي تعليم أبناء الدروز وشبابهم أمور دينهم .

وقد عبر الشيخ عن حبه وتقديره لعلماء السنة ، وإن كان قد أشعرني بالمرارة إزاء بعض التصرفات من إخوانه السنيين ، وذكر أن الدروز كانوا دائماً في مقدمة صفوف الجهاد ، والحفاظ على لمبادئ السليمة ، ولم يتخلفوا عن صف السنيين فى المسائل الكبرى وبخاصة وقفتهم سنة ١٩٥٢ مع علماء المذاهب الإسلامية الأخرى إزاء قانون الأحول الشخصية في لبنان ، الذى أريد له في ذلك الوقت أن يكون قانوناً غير إسلاميّ .

---

(١٢٥) الحديث كان مع الشيخ محمد أبي شقرا شيخ عقل الدروز في منزله ببيروت .

ولقد شاركت الشيخ في قوله باعتقادي التام في وطنية الدروز وفضلهم وتضحياتهم وتمثلت قول شوقي فيهم :

وما كان الدروز قبيل شر ... وإن أخذوا بما لم يستحقوا
ولكن ذادة وقراة ضيف ... كينبوع الصفا خشنوا ورقوا
لهم جبل أشم له شعاف ... موارد في السحاب الجون بلق
لكل لبوءة ولكل شبل ... نضال دون غابته ورشق
كأن من السموأل فيه شيئاً ... فكل جهاته شرف وخلق

ولكن بعد ذلك كله ، وبعد هذا الذي ذكرت مستقياً مصادره من الكتب تارة ومن أفواه أعلام الدروز المعاصرين تارة أخرى ، أقول بعد كل ذلك إنه لا يزال يوجد من بين الدروز الآن من يحافظ على الصلاة بالكيفية التي يمارسها جميع المسلمين ، ويترددون على المساجد والجوامع ، ولا سيما في صلاة عيد الأضحى ، ولا يزال يوجد من بين الدروز من يؤدي الزكاة في إيمان ورضى متمثلاً الآية الكريمة . « إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم ، وفي الرقاب والغارمين ، وفي سبيل الله وابن السبيل » .

بل إن عدداً غير قليل من الدروز يؤدي كل عام فريضة الحج ويطوف ببيت الله الحرام ، وقد وقف بعرفة عام ١٣٧٤ هـ ستة وثلاثون درزياً من قرى دمشق وحدها ، والأمر كذلك فيما يتعلق بصيام رمضان صياماً صحيحاً إيماناً واحتساباً مع حض الآخرين والأقربين على صومه والتصدق فيه والإكثار من التعبد[١٢٦] .

إن الشيخ أحمد الهجري أحد علماء الدروز يؤكد صحة إسلام الطائفة وصدق وطنيتها فيقول :

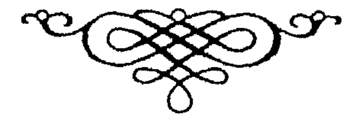
« تبّت يد السياسة التي تحاول تجريدنا من عروبتنا وإسلامنا !! متى كنا أدعياء لفرنسا أو غيرها ؟ وهل « هجر » التي أنتسب إليها فرنسية أم عربية نجدية ؟

(١٢٦) الزغبي ١١٣ - ١١٥ .

لقد قتل أجدادنا العرب الموحدون نشتكين الدّرزي وقضوا على محاولات تلاميذه قروناً ، ثم ساعدتهم السياسة في العصر التركي (أي ساعدت تلاميذ نشتكين) فشرعوا ينفثون بيننا ـــ نحن المسلمين الإسماعيليين الموحدين ـــ رسائل نبرأ من محتوياتها . وقد حذرنا من مطالعتها كثيراً ، بل ورأينا مقاطعتها .

ألا يكفينا للذين لا يفرقون بيننا ـــ نحن الموحدين المؤمنين بالقرآن ، كما يصرح بذلك سجلنا المعلق المحفوظ منذ أيام تكويننا ـــ وبين السُكينية[127] وتلاميذ نشتكين الذين نبرأ منهم » .

وهذا واحد آخر من زعماء الدروز الأماجد ، هو المجاهد عز الدين الحلبي ، يعلن كذب المفترين وتزييف التاريخ بالنسبة لأبناء طائفته ، ويعرّض بما أشاعه بعض الفرنسيين من أن الدروز ليسوا مسلمين فيقول : « آه ما أكذب التاريخ الذي يدون بقلم السياسة ، لقد نسي الفرنسيون بل تناسوا أننا سلالة التنوخيين واللخميين المناذرة ملوك اليمن والحيرة ، وأننا اعتنقنا الإسلام منذ انبثاق فجره ، ولا نزال نبذل المهج في سبيله ... أجل تناسوا ذلك ولقنوا أطفالنا ما يفيد أننا بقية فرقة الكابتن الفرنسي (ده روز) الذي زعموه كمن بل خنس في سورية بعد نهاية الحرب الصليبية .. من لي بمن يبدد بقلمه الصريح الجرىء هذه الظلمات ، ويقذف في أفكار السواد المحموم من الناس حقيقتنا ـــ نحن الموحدين ـــ ليعلم الجميع صميم عروبتنا وعراقة إسلامنا »[128] .



(١٢٧) السكينية نسبة إلى سُكين أحد الذين دعوا إلى ألوهية الحاكم بأمر الله .
(١٢٨) المصدر السابق ٤ ، ٥ .



العلويون

تمهيد :

لعل من الخير أن نقرر أن من أدق الأمور وأصعبها على الباحث الأمين المتجرد أن يكتب في موضوع مثل المذهب العلوي أو الفرقة العلوية ، ذلك لأن المصادر التي تحت يده ليست من الكفاءة والكفاية بحيث يمكن الاعتماد عليها اعتمادا كليا ، هذا فضلا عن تشعب القول فيها واختلاف وجهات النظر بين كاتبيها اختلافاً بيّنا يصل إلى حد التضادّ الكامل في كثير من الأحيان ، هذا والقوم في كل هذا الشد والجذب لا يريدون أن يفصحوا عن أنفسهم بوضوح « لباطنية » المذهب ، أو « للسرية » التي افترض بعضهم أنها أساس مقدس ، أو « للغلوّ » الذي مال إليه فريق منهم دون الجمهرة ، أو لأنهم لم يكونوا حتى الماضي القريب قادرين على الكتابة لتفشي الجهل الذي فرضه عليهم الحكام في الماضى فرضا ، وهذا الجهل شجع الأذكياء منهم — في غيبة العلم والمعرفة — على أن يفرضوا أنفسهم على مجتمعاتهم فقهاء ومجتهدين فضلا عن غلو بعض الزعماء الأسبقين ، فكان ما كان من أمر التخبط في شأنهم علما وعقيدة وتاريخا ، تخبط بين الكتاب على قلتهم ، وتخبط بين القوم أنفسهم : المثقفين منهم في جانب من التفكير السوي ، والعامة

في جانب آخر من التفكير الذي يحمل ركام الماضي وأوضار السنين ، وهم في كل ذلك ــ المثقف والعامي ــ محتاجون إلى فترة من الزمن تجمعهم وتلم شتات أفكارهم بحيث تغربل هذه الأفكار والعقائد فيحتفظ بالصالح منها المرتبط بصلب عقيدة الجماعة الإسلامية ، وتطرد البدع وأسباب الغلو التي فرضتها ظروف ومقادير أغلب الظن أن الجماعة أنفسهم منها براء .

أقول هذا مع إقتناعي أن « العلوية » ــ وليس النصيرية ــ مذهب إسلامي صريح ، إنها مدرسة متفرعة من المذهب الإمامي الكبير ثم شاءت لهم بعض الظروف ، أو بالأحرى شاءت لبعضهم الظروف أن يبتعد قليلا إلى حد يتسامح معه ، ولبعض آخر أن يبتعد إلى حد يجعل طبيعة العقيدة السليمة تفرض عليه إعادة النظر فيما وصل إليه وإلى تقييم ما هو فيه من معتقد لكي يتوب ويعود فيلتحق بالركب ، هذا إذا كان مؤهلا لإعادة النظر والتقييم ، إما إذا لم يكن ذلك في استطاعته فإن الجماعة الإسلامية المستنيرة مطالبة بأن تتكفل له بذلك في نطاق من التسامح والصبر والحب وسعة الأفق والإقناع ، ومراعاة ظروف جماعة عزيزة على إخوتهم المسلمين لحق بها على مسرى التاريخ الكثير من الظلم حينا والإهمال حينا آخر ، بحيث انتهى بها الأمر إلى ما وصل إليه كردة فعل لطبيعة الأشياء ، وكنتيجة منطقية لمقدمة غير سوية .

نشأتهم ونسبتهم :

العلويون فرقة من الشيعة الإمامية حسبما ذكرنا قبل قليل ومن ثم فإن نشأتهم الأولى هي نفسها نشأة الإمامية ، غير أنها اتخذت سبيلا آخر بعد الإمام محمد الثاني عشر (القائم بالحجة) ، وبيان ذلك أنه كان لكل إمام باب ــ حسب المذهب الاثنا عشري ــ وكان أول باب هو سلمان الفارسي الذي يحتل مقاما رفيعا عند العلويين جميعا ، لأنه كان باب الإمام علي رضي الله عنه ، وآخر باب هو أبو شعيب محمد بن نصير البصرى النميري ، فقد كان باباً للإمام الحادى عشر حسن العسكري[1] ، أما الإمام محمد القائم بالحجة فمبلغ علمي أنه لم يتخذ باباً

(١) تاريخ العلويين للطويل . ص : ٢٠٢ .

لأنه ولي الإمامة سنة ٢٦٠ هـ وعمره خمس سنوات واختفى وعمره إحدى عشرة سنة .

يتولى محمد بن نصير البصري النميري ـــ وقد شغل وظيفة الباب للإمام الحسن العسكري الحادي عشر ـــ زعامة فريق من العلويين ، ولهذا ذهب بعض الدارسين إلى أن اسم « النصيرية » الذي عرف به العلويون في سورية وتركيا لفترة طويلة من الزمن إنما هو نسبة إليه ، وليس في ذلك كبير غضاضة ، فالرجل له مكانة الخضوع والإجلال من قبلهم ، وهو رئيسهم الأول من بعد انقضاء دور الأئمة الاثني عشر ، غير أن حقيقة التسمية « النصيرية » جاءت نسبة إلى المكان الذي عاش فيه إخواننا العلويون واتخذوا منه دريئة وملجأ ضد الأذى ، ومستقرا ومقاما بعيدا عن الاضطهاد ، وهو جبل النصيرة فنسبوا إلى المكان ، فلما زالت أسباب الاضطهاد بزوال الاستعمار وعاودهم الاستقرار والأمان في ظل الاستقلال استعادوا اسمهم الأصلي الذي به يعتزون وهو « العلويون » نسبة إلى أمير المؤمنين الإمام علي بن أبي طالب كرم الله وجهه .

وبقدر ما كان العلويون ضائقي الصدور بتسميتهم « بالنصيرية » كانوا سعداء كل السعادة باستعادة اسم « العلويين » ، فهم يرون أن إطلاق اسم « النصيرية » عليهم لم يكن إلا بداعي العداوة المذهبية ، كإطلاق اسم « الروافض » على الإمامية واسم « النواصب » على السنّة[٢] .

فاذا عدنا إلى تتبع مسيرة المذهب العلوي وجدنا رئاسة العلويين تنتقل بعد ابن نصير النميري إلى عبد الله بن محمد الجنان الجنبلاني ، نسبة إلى بلدة جنبلا في العراق العجمي ، وكان ذا علم وفلسفة وزهد وتصوف فأسس الطريقة الجنبلانية التي سعى من جانبه إلى إدخال كثير من الناس فيها بحيث أصبحت صفة « الجنبلانية » تعادل صفة « العلوية » ، ومن هنا غلبت الصوفية على المذهب العلوي الذي أصبح منذ ذلك الحين يجمع بين ثلاث عقائد هامة هي التشيع والاعتزال والتصوف ، صحيح أن بعض المؤرخين يذهبون إلى أن فكرة التصوف نشأت قبل

---

(٢) انظر مقدمة الشيخ عبد الرحمن الخير لكتاب : تاريخ العلويين ، ص : ١ .

ذلك بفترة زمنية غير قصيرة ، إلاّ أن التصوف بمعناه الواسع ومعاناته ورياضته لم يظهر عند العلوية بشكل واضح قبل الجنبلاني ، ثم ما لبث أن ازدادت جذوره عمقا عند المنتجب العاني والمكزون السنجاري ومن جاء بعدهم من زعماء العلويين .

وفى مدرسة الجنبلاني في جنبلا نشأ ونبغ مصري ذكي هو حسين بن حمدان الخصيبي ، الذي كان قد التقى بشيخه حين زار مصر وتعلق به تعلقا شديدا ودخل في طريقته ، فلما عاد الجنبلاني إلى موطنه جنبلا تبعه تلميذه ورحل في إثره ، واستقر عند شيخه عبد الله ولمع شأنه وذاع صيته ، وما أن توفي الشيخ سنة ٢٨٧ هـ حتى نهض الخصيبي بالعبء من بعده وخلفه في رئاسة العلويين ، وترك جنبلا ورحل إلى بغداد ، وبعد فترة من الزمن تركها متجها إلى حلب حيث استقر فيها على مقربة من سيف الدولة الحمداني ، ولعله استمد بعض القوة والسند من سيف الدولة الذي كان متشيعا في سماحة ، محبا لآل البيت في غير غلوّ . وليس من شك في أن الخصيبي قد لعب دورا خطيرا في تثبيت الدعوة العلوية وتكريسها ورفض الاتحاد مع الإسماعيلية ، وطوف في بلاد خراسان والديلم وديار ربيعة وتغلب ، ومن هنا كان الخصيبي هو ألمع الرؤساء العلويين وأكثرهم أثرا في العقيدة ، ساعده على ذلك عمر مديد (٢٦٠ ــ ٣٥٨ هـ) وذكاء وقدرة على التأليف في المذهب وتطويره إياه حتى كان يلقب بشيخ الدين ، فقد خلف من الكتب : الهداية الكبرى ، وأسماء النبي ، وأسماء الأئمة ، والإخوان ، والمائدة . غير أن بعض مؤرخيه ذكروا أنه كان يقول بالتناسخ والحلول[٣] وكتاب الهداية الكبرى من الكتب النفيسة ذات الأثر العميق في الفكرة العلوية التي هي في أصلها خالية من الغلو ، وآية ذلك أن السيد الخصيبى أهداه لسيف الدولة الحمداني الذي كان معروفا بالاعتدال في تشيعه ، ولو كان بالكتاب شبهة غلو لكان سيف الدولة قد اعترض عليه ، أما الكتب الأخرى فإننا نرجح أن كثيرا من الأيدي قد لعبت فيها وأضافت إليها أو حذفت منها ، الأمر الذي جعل جانب الغلو يغلب عليها .

---

(٣) راجع لسان الميزان ٢٧٩/٢ ، وتاريخ العلويين ٢٠٥ ــ ٢٠٧ ، والأعلام مادة الخصيبي .

ومن الطريف أنه ألف أيضا لعضد الدولة البويهي كتابا بالفارسية أسماه « راست باش » .أي « كن مستقيما » ولذلك فإن العلويين كانوا يطلقون على عصد الدولة اسم « راست باش » .

ولقد تناوب رئاسة العلويين بعد السيد الخصيبي عدد من الرؤساء الذين لم يبلغوا شأوه أو ينالوا شهرته على رفعة شأنهم ، مثل السيد محمد بن علي الجلي ، والسيد أبي سعيد الميمون الطبراني الملقب بشيخ الديانة العلوية ورئيس الطريقة الجنبلانية ، وكان مقره في اللاذقية[٤] وإن كان مولده في مدينة طبرية سنة ٣٥٨ هـ فى فلسطين ، وله العديد من الكتب وقد توفي سنة ٤٢٦ هـ ويعرف قبره باسم الشيخ محمد الطبراني ويقع داخل المسجد المعروف بمسجد الشعراني باللاذقية . ومن الأسماء الكبيرة التي تولت رئاسة العلويين أبو حسن الطرسوسي الصغير المتبتل العابد الصائم الزاهد ، وأبو حسن الطرسوسى الكبير .

ونظرا لعبث الروم بالمنطقة العلوية ، فإن الطريقة العلوية حسبما كانت تسمى ـــ بالنسبة لنزعتها الصوفية ـــ قد افتقدت الرئيس ، وانتقلت الرئاسة إلى أسرة البلقيني منجبة العلماء وشيوخ الإسلام في مصر في القرون الوسيطة .

على أن العلويين وقد استبد بهم ظلم الأكراد من ناحية وعصف الإسماعيلية من ناحية أخرى حتى أجلوهم عن أرضهم ـــ وكان ذلك في نهاية القرن السادس وبداية السابع ـــ لم يجدوا بداً من أن يطلبوا العون والمدد من أمير مهلبى النسب ، علوي المذهب ، فارس شاعر ، هو حسن بن يوسف بن خضر المعروف بالمكزون السنجاري ، الذي ورث الفروسية والأريحية من جده الأعلى المهلب بن أبي صفرة ، فهب لنجدتهم سنة ٦١٧ هـ ولكن الخمسة والعشرين ألف فارس الذين قادهم من سنجار ـــ مقره الأول ـــ لم يستطيعوا التغلب على حشود خصومهم ، فعادوا أدراجهم وعلى رأسهم أميرهم إلى سنجار لكي يزدادوا عدة وعتاداً واستعدادا ، ولم يحل عام ٦٢٠ هـ إلا وكان المكزون يقود جيشا مكونا من خمسين ألف مقاتل متجها بهم إلى حيث تخلى عنه النصر قبل سنوات ثلاث ، وفي

(٤) تاريخ العلويين ٢٠٩ .

هذه المرة كتب له الظفر بأعداء أبناء طائفته وأعاد الأرض إلى أصحابها ، ورتب شئونهم وأمّن أحوالهم ، ولما أن تم له ذلك ترك الاشتغال بالدنيا وجنح إلى التصوف والاجتهاد وقول الشعر الصوفي ، ولما توفي سنة ٦٣٨ هـ دفن بقرية كفر سوسة على مقربة من دمشق ، ويقال إن قبره معروف حتى الآن ويزوره المسلمون من سنيين وعلويين(٥) .

غير أن ستائر النسيان وأسباب الإهمال وموجات التعذيب والاضطهاد وما يستتبع ذلك من آفات الجهل والتأخر والخوف قد فعلت فعلها في القوم ، فكان لكل ذلك أسبابه في عاداتهم وتقاليدهم بحيث انسحبت على عقائدهم ، فكان ما كان من غلو في معتقداتهم لم يكونوا على الأغلب السبب المباشر لها ، وإنما شارك في ذلك حياة مضطربة غير آمنة ، ومشايخ لا يعلمون من صلب المذهب إلا القشور ، وصوفية ارتبطت بمذهبهم منذ ولاية السيد الجنبلاني لم تواكبها متابعة علمية ولا تطور ثقافي ، فكانت الانحرافات التي شاعت بينهم ونُسبت إليهم ، بعضها صحيح وبعضها مبالغ فيه .

وإذا لم يكن بد من كلمة حق تقال في العلويين على مسرى تاريخهم الطويل فإن كثيرا من الفضل منتسب إليهم لاصق بهم ، فلقد تعرضوا للغزو من قبل الصليبيين ، وللمذابح من قبل السلطان سليم التركي ، والاعتداء من قبل الإسماعيلية ، والمضايقة من قبل السنّة ، وهم مع ذلك كانوا أصحاب نخوة وفروسية في الحرب في صفوف جيوش سيف الدولة الحمداني ، وخاضوا المعارك الباسلة ضد الصليبيين في صفوف إخوانهم من أبناء عامة المذاهب الإسلامية ، وقاوموا بعض طغاة الأتراك من الحكام الغاشمين ، وكانوا صورة طيبة للجهاد على مسرى حركات الاستقلال العربية الحديثة التي آخرها أحداث ١٩٢٠ في سورية ، وما حديث البطل العظيم الفارس الشجاع الشيخ صالح العليّ ببعيد .

وهناك فريق آخر من العلويين انفصل منذ وقت مبكر عن الجمهرة العلوية الجنبلانية الخصيبية ، هذا الفريق هو جماعة الإسحاقية . والإسحاقية من حيث

---

(٥) تاريخ العلويين ٣٠٦ ـــ ٣١٠ ، والاعلام مادة المكزون السنجاري .

النشأة يحملون اسم أبي يعقوب إسحق بن محمد النخعي صاحب الإمام الحسن العسكري ، وكان أبو يعقوب يعرف باسم إسحاق الأحمر ، لأنه كان أبرص ويخفي لون برصه بصبغة حمراء .

لقد كان إسحاق النخعي من أصحاب الإمام الحسن العسكري ، ثم ادعى أنه الباب للإمام العسكري ـــ منافسا بذلك محمد بن نصير النميري ـــ فاتبعه بعض الناس وآمنوا به باباً .

والواقع أن كل المصادر التي تحت يدي صورت أبا يعقوب هذا تصويرا يضعه في مكان من الغلوّ يخرج به عن حظيرة الإسلام ، وذكروا أنه وجماعته كانوا يؤلهون الإمام علي بن أبي طالب ، ويزعمون أنه ظهر في الحسن ثم في الحسين وأنه هو الذي بعث محمدا ، ولقد حاول أن يثبّت مذهبه في قلوب أتباعه فألف كتابا سماه : « الصراط » وجعل موضوعه التوحيد ، أكثر فيه من الخلط والزيغ[٦] وتوفي سنة ٢٨٦ هـ ، ولعل أشهر خلفائه إسماعيل بن خلاد البعلبكي . ولكن لم يقدّر لنشاط هذه الجماعة أن يمتد طويلا ، وما لبث أن كشف أمرهم الأمير المجاهد الحسن السنجاري المكزون فقضى عليهم حسبما سوف نفصل فيما يستقبل من حديث .

مواطن العلويين وعشائرهم :

ذكرنا أن ألمع رؤساء العلويين هو السيد حسين بن حمدان الخصيبي المصري ، الذى تتلمذ على السيد الجنبلاني في جنبلا فلما مات شيخه انتقل إلى بغداد ، ثم بدا له بعد ذلك أن يتخذ من مدينة حلب مقرا له ، ومن ثم تكون الشهباء هي المقر الأول من الناحية الرسمية لنشاط الدعوة العلوية بمفهومها الذى نتناوله فى هذا الفصل ، غير أنه بمرور الزمن أخذ ظل العلوية يتقلص في حلب بحيث لا يسكنها في أيامنا هذه غير عدد قليل ، وإن كان عدد غير قليل منهم يعيش في منبج وباب وسروج من أعمالها .

---

(٦) تاريخ بغداد ٣٨٠/٦ ، تاريخ العلويين ٢٠٩ ، البداية والنهاية ٨٢/١١ ، ولسان الميزان ٣٧٠/١ .

فإذا ما اتجهنا من حلب إلى الجنوب نحو حماه وحمص وجدنا عددا كبيرا من العلويين يسكنهما ثم يتكاثر العدد في أطرافهما في اتجاه تدمر .

وإذا ما انعطفنا إلى الغرب من حلب فسوف نلتقي بمناطق علوية صرفة بحيث أن نسبة غير العلويين في أغلب بلدانها لا تزيد كثيرا على عشرة في كل مائة ، فمن هذه البلاد اللاذقية وجبلة وبانياس والعمرانية وصافيتا وتلكلخ ، هذا فضلا عن القرى الكثيرة التي تحيط بتلك البلاد التي ذكرنا والتي يصعب حصرها في هذا المقام .

هذا وإذا اتجهنا إلى الحدود التركية حيث المناطق التي اقتطعتها فرنسا من سورية ومنحتها لتركيا مثل الإسكندرونة وأنطاكية وما حولهما من بلاد وجدنا عددا كبيرا من العلويين يعيش في تلك البلاد ويشكل نسبة مرموقة بين سكانها .

وأما المناطق التركية أصلا مثل أطنه وطرسوس وقراهما فهي بدورها عامرة بعدد وفير من العلويين استقروا فيها منذ زمن غير بعيد .

فالعلويون ـــ والأمر كذلك ـــ مستقرون في مناطق شمال وغرب سورية وجنوب تركيا .

تلك أهم مواطن العلويين ، أما من حيث تكوينهم الاجتماعي أو العشائري فهم ينقسمون في هذا السبيل إلى جماعات متعددة وعشائر كثيرة ، وتحمل العشيرة اسم جدها حينا ، وحينا آخر تحمل اسم البلدة التي تنتسب إليها ، وحينا ثالثا تنسب إلى صفة عرفت بها أو إلى شيخ تولى زعامتها .

فمن العشائر التي تنسب إلى جدها : النواصرة ، وينسبون إلى جدهم ناصر ، والجهنية ، وينسبون إلى الأمير جهينة البغدادي ، والرسالنة ، وينسبون إلى جدهم رسلان ، والياشوطية ، وينسبون إلى جدهم ياشوط من عشيرة بني علي ، والمهالبة وينسبون إلى المهلب بن أبي صفرة ، جد الأمير حسن المكزون ، والخياطية وينسبون إلى جدهم الشيخ علي الخياط الذي قام هو وزميله الشيخ محمد البانياسي بالاتصال بالأمير حسن المكزون يستنفرانه لمساعدتهم على النحو الذي مر بنا قبل قليل ، وتشمل الخياطية البساترة ، والخزرجية والسوارخة ، والعبدية والبغدادية ، ومن هذه العشائر التي تحمل اسم جدها أيضا عشيرة الحدادين وتنتسب إلى المعلم محمد

الحداد بن الأمير ممدود السنجاري ابن أخ الأمير حسن المكزون ، وهي أصل لعشائر بني على والمتاورة والمهالبة والدراوسة .

ومن العشائر التي تنسب إلى أمكنة إقامتها الرشاونة نسبة إلى قرية الرشية في جبل الشعرا ، والجردية نسبة لجرود الجبال التي سكنوها ، والفقاورة نسبة إلى قرية فقرو في جنوبي مصياف ، والمتاورة نسبة إلى قرية متوار وهي أول موطن نزل إليه المكزون ، والدراوسة نسبة إلى جبل دريوس وقد سبق القول أنهم من الحدادين .

ومن العشائر التي نسبت إلى صفة عرفت بها أو إلى شخص تولى زعامتها عشيرة الغيبية أي الذين رضوا بما كتب عليهم في الغيب وانقادوا للمقادير ، وجماعة الجرانة لأنه حفزوا أجرانا في الصخور حيث كانوا يدخرون الماء الذي يشربونه أيام انقطاعهم للدعاء ، ثم يتغلب اسم الكلازية على الجرانة نسبة إلى الشيخ محمد بن يونس كلازو ، من قرية كلازو التابعة لأنطاكية ، وبنفس الطريقة يتغلب اسم الحيدرية على الغيبية نسبة إلى الشيخ على حيدر الذي تولى رئاسة الغيبية ، وهناك الماخوسية أو المواخسة نسبة إلى الشيخ على الماخوس الذي انشق على الكلازية واتبع الحيدرية فسمي الذين اتبعوه الماخوسية ، وهي اسم قرية في جهات اللاذقية[٧] .

ومن أكبر العشائر العلوية عشيرة الكلبية ، وهم يسكنون قلب جبال العلويين في عديد من قراه ، وهي تضم الرشاونة والرسالنة والنواصرة والجلقية والقراطلة .

وواقع الأمر أن قضية العشائر العلوية قضية معقدة ، لأنها لا تخضع للنظام العشائري المعروف من حيث الانتماء العرقي ، وإنما هي مجموعات من القوم ارتبطت برباط الإقامة أو المصلحة المشتركة أو العقيدة أو الوشيجة الصوفية أو الحلف ضد الأخطار ، فإذا أخذنا مثلا عشيرة الدراوسة وجدنا نسبتهم إلى جبل دريوس حسبما مرّ بنا قبل قليل ، ولكنهم في نفس الوقت يمثلون فروعا من الحدادية ــ وقد مر ذكر ذلك ــ والمهالبة وبنى علي وفرعا من القراطلة ، وهؤلاء الأخيرون من الأتراك وليسوا عربا على عكس المهالبة وبني علي ، ويمكن القياس على ذلك في تكوين أكثر العشائر .

---

(٧) تاريخ العلويين ص ٤٧٣ ، ٤٧٤ .

وبهذه المناسبة فإن التحالف الذي كان يتم بين العشائر لم يكن دائما لحماية أنفسهم من هجوم عدو خارجي ، وإنما كان يتم لشن حرب على عشيرة أخرى ، فقد طالما وقعت حروب بين هذه العشائر بعضها وبعض تذكرنا بحروب القبائل العربية بعضها بعضا قبل الإسلام ، ولم تكن هذه الحروب ــ أعني حروب العشائر العلوية ــ إلا نتيجة للجهل وافتقاد الزعامات الصالحة والقدوة الحسنة ..

فرباط الدم ليس أساسيا في تكوين هذه العشائر التي اندمجت في نطاق المعاني والمبادئ التي ذكرنا، خاصة أن وفودها على المنطقة تم في فترات زمنية متفاوتة ، وكان منبع قدومها أيضا من أقطار إسلامية مختلفة عديدة[٨] .

ومن الغريب أن تجد أخوين أحدهما حيدري والآخر كلازي ، لأن النسبة في هذه الحالة سببها الخلاف الفكري في نطاق المذهب ، ونظرا إلى أن أكثر الحيدرية تعيش في الشمال والكلازية تعيش في الجنوب فقد أطلق على الحيدرية صفة الشمالية ، وأطلق على الكلازية صفة القبلية[٩] .

لقد عاش العلويون عصورهم الماضيات ــ حسبما ذكرنا ــ متجمعين منكمشين في قراهم الجبلية ، أو متفرقين منطوين على أنفسهم في المدن أو السواحل في حرص وحذر وخوف ، نظرا لما حل بهم من أذى وحيف في عهد الحكام القدامى ، وبخاصة الأتراك الذين أوقعوا بهم كثيراً من الظلم والانتقام ، الأمر الذي جعلهم يعيشون في معزل عن المجتمع الكبير راضين بالجهل والفقر ، حتى إن المستعمرين الأوروبيين حاولوا أن يستغلوا هذه الثغرة كي ينفذوا منها إلى الاستعانة بهم في قضاء أغراضهم ، ولكن القوم كانوا من الوطنية واللباقة بحيث فوتوا على المستعمرين هدفهم ، هذا إذا ضربنا صفحا عن بعض ضعاف النفوس الذين لايخلو منهم مجتمع من المجتمعات البشرية .

وإذا كان العلويون قد عاشوا منعزلين حذرين متوجسين في الماضي ، فإنهم في ظل سماحة الاستقلال والوحدة العربية والنهضة المعاصرة قد بدأوا يندمجون ويقتربون من مواطنيهم ، ويسهمون في الحياة العامة إسهاماً مباشراً .

---

(٨) راجع تاريخ العلويين ٣٥٤ وما بعدها . والعلويون لمنير الشريف ٣٤ وما بعدها .
(٩) تاريخ العلويين ص ٤٧٥ .

عقيدة العلويين

العلويون من حيث عقيدة مستنيريهم شيعة إمامية صحيحو الإسلام ، وهؤلاء بين القوم من الكثرة بمكان ، يؤدون الفرائض صلاة وصوما وزكاة وحجاً في ظل روح الإيمان كما ينبغي أن تؤدي من غير تحريف أو تغيير أو تبديل ، غير أن شطحات من الغلوّ جنحت بأكثرهم إلى مهاوي الزلل ، فضلا عن السرية التي فرضها فريق منهم على العقيدة وجعلها جزءا منها ، وفي يقيننا أن هذا الفريق الأخير فريسة للانطواء والانعزال وقصور المعرفة ، بالرغم من لقب « المشيخة » التي يتمتع بها بعضهم بين جمهور البسطاء .

من هنا كان الحديث عن العقيدة العلوية أمرا ليس من اليسر بمكان في نطاق هذه السرية التي تبناها بعض القوم ورفضوا أن يحيدوا عنها برغم زوال كل سبب منطقي يمكن أن يكمن وراءها . ولكن وجد أيضا من مستنيريهم من يستنكر هذه السرية ويبرأ من كل زيغ فيها أو شطط أو غلو ، ويرفع صوته عاليا في زمن حط فيه الإنسان على القمر ، حيث لا يزال يوجد بين الجماعة من يخلع على القمر صفات من القداسة الدينية ، مما يجعل العقل ينفر منها ويستنكرها ، وفي أضعف الإيمان يشفق عليهم ويرثي لهم .

إن أمانة البحث العلمي تقتضي منا أن نعرض للفريقين : فريق الغلاة وفريق المعتدلين ، راجين أن يأتي اليوم الذي تصبح فيه صفة الغلو ومسلكه وممارسته شيئا في ذمة التاريخ ، وسوف نبدأ بفريق الغلاة ثم نثنّي بعد ذلك بالفريق المعتدل ، وفي حديثي عن الغلاة سوف يلاحظ القارئ عقائد تدعو إلى الغرابة ، فلا عليه في ذلك لأني أحس أن الأمور سريعة التبدل ، وأن المخلصين من أبناء المذهب يبذلون من الجهود في سبيل إعادة المنحرفين إلى الهدي السوي ما هو جدير بالإعجاب وما يبشر بالخير الكثير ، غير أن الذي نذكره هنا عن الغلاة هو جزء من الحقيقة الواقعة ، ويمثل جانبا من التاريخ وبعضا من الحاضر .

فريق الغلاة :

فأما الغلاة من العلويين ـــ ويسميهم الشهرستاني النصيرية ، ربما لإبعادهم عن الإمامية الجعفرية ـــ فينسب إليهم تأليه الأئمة من آل البيت ، وجعلهم للإمام علي كرم الله وجهه قداسة إلهية ، وهم يرون أن النبي مختص بالظاهر ، وأن عليًّا مختص بالباطن . ويقولون إن النبيّ كان مختصًا بحرب المشركين ، وأما علي فمختص بحرب المنافقين ، وإنه كان مخصوصا بتأييد إلهي[١٠] .

هذا ما كان من أمر العلويين النصيرية في الماضي ، فلما سار ركب الزمان ومرت عليهم القرون عاد منهم إلى العقيدة في سلامتها من عاد ، وأخذت بالباقين أسباب من التغير أو التطور بعضها باعد بهم عن الإسلام وبعضها الآخر قربهم إليه .

فأما الذين ساروا في طريق التباعد ، فقد وقعوا تحت تأثيرات التعلات الجاهلة التي خرُّوا ضحية لها ، لأن بعضها جاء من المجوسية والبعض الآخر جاء من التثليث المسيحي ، أو من فتنة عبد الله بن سبأ ، فهم يؤلفون ثالوثًا من عليّ ومحمد وسلمان الفارسي ، ويتخذون من ذلك شعاراً يتكون من الحروف الثلاثة (ع م س) أو ما يسمى (سر عقد ع م س) .

وهذا الثالوث يفسر عندهم : (المعنى والاسم والباب) والمعنى هو الغيب المطلق ، أي الله الذي يرمز إليه بحرف ع . والاسم هو صورة المعنى الظاهر ويرمز إليه بحرف م . والباب هو طريق الوصول للمعني ويرمز إليه بحرف س .

فللعقيدة عند هذه الفئة من الغلاة هيكلان : هيكل شبه نصراني يتمثل في التثليث الذي يتضح في عقد (ع م س) وآخر إسلامي . ولعل من القرائن التي تفسر لنا ذلك احتفالهم الكامل بالأعياد المسيحية احتفالهم بالأعياد الإسلامية ، ونزيد على ذلك أيضًا الأعياد الفارسية التي دخلت إلى مجتمعهم عن طريق بعض الفرس الذين أسهموا في خلق العقيدة ، فهم يحتفلون بعيد الميلاد ويقدمون فيه

---

(١٠) الملل والنحل ١٦٨/١ ، ١٦٩ .

النبيذ ، ويحتفلون برأس السنة ، وبعيد البربارة ، والغطاس ، والشعانين ، والعنصرة ، ومريم المجدلانية . ومن الأعياد الفارسية يحتفلون بالمهرجان والنيروز . وأما الأعياد الإسلامية التي يحتفلون بها فهي عيد الأضحى ، وعيد الغدير ويقع في الثامن عشر من ذي الحجّة ، وعيد الغدير الثاني ويقع في التاسع من ربيع الأول ، وليلة نصف شعبان ، وعيد الفراش أي ليلة مبيت عليّ في الفراش مكان النبي صلى الله عليه وسلم .

ليس من شك في أن هذه الناحية من السلوك في ضوء هذه القرائن متأثرة بالمسيحية وبعض العادات الفارسية .

ومن عقيدة هذه الفئة الحلول ، أي أن الله تجلى للمرة الأخيرة لعلي ، كما تجلى من قبل ذلك — حسب اعتقادهم — لهابيل وشيث وسام وإسماعيل وهرون وشمعون ، واتخذ في كل دور رسولًا ناطقًا تمثل على الترتيب في آدم ونوح وإبراهيم وموسى وعيسى ، فعليٌّ إله في الباطن إمام في الظاهر لم يلد ولم يولد ولم يمت ولم يقتل ، ولا يأكل أو يشرب . وبحسب الاعتقاد السابق فقد اتخذ عليّ محمداً ، ومحمد متصل بعلي ليلاً منفصل عنه نهاراً .

* * *

إن الشيخ سلمان بن علي بن حسن الذي عاش في القرن الماضي في قرية الدرسونية من قرى أنطاكية يلخص عقيدة هذه الفرقة الغالية فيقول في سذاجة وجرأة غريبتين :[١١]

اعلم ياولدي أن السماء هي ذات علي بن أبي طالب ، وهي الجنة الباطنة دون الجنة المأوى التي ذكرها القرآن بقوله تجري من تحتها الأنهار ، فالنهر الأول نهر الخمر لونُه أحمر ، وهو أن السيد الاسم (أي محمد) يرى السماءَ حمراءَ ، والنهر الثاني نهر اللبن لونه أبيض ، وذلك نظرة الباب — أي سلمان الفارسي — فيراها بيضاءَ ، والنهر الثالث نهر العسل لونُه أصفر ، وهو أن الملائكة — أي الكواكب — يرونها صفراء ، والنهر الرابع نهر الماء ، وهو نظرتنا ، لأننا نراها كالماء ، ولكن متى خلصنا من هذه

(١١) الباكورة السليمانية ٨٤ — ٨٦ .

الكثايف البشرية ترتفع أرواحنا إلى بين تلك الكواكب المتلاصقة في بعضها التي هي درب التبان ، ونلبس هياكل نورانية وحينئذ نرى السماءَ صفراء ، وإن شككنا فيها في هذه الحياة الفانية تحلّ أرواحنا في أجسام المسوخية وليس لنا نجاة إلى أبد الآبدين ، وأما باقي الطوايف الخارجة عن هذا الاعتقاد فمنهم الغنم والوحوش وساير الممسوخات وليس لهم خلاص أبدًا . واعلم أيضًا أن الشمس هي السيد محمد ، وهو كل نبيّ ظهر في العالم من قبة الحنّ إلى آدم وإلى محمد ، كما أخبر بذلك شيخنا وسيدنا أبو عبد الله الحسين بن حمدان الخصيبي من ديوانه بقوله : لو أنهم مائة ألف في تعدادهم لعاد في واحد عوداً بلا أمد ، واعلم أيضًا أن القمر هو سلمان الفارسي ، وهذه الكواكب هم الملايكة الذين كانوا قبل كون العالم ، وهم سبع مراتب إحداها تعلو الأخرى ، وكبيرهم السيد المقداد الذي هو كوكب زحل واسمهُ ميكائيل ، وأما كوكب المشتري فهو أبو الدر واسمه إسرافيل ، وأما عبد الله بن رواحة الأنصاري فهو كوكب المريخ وهو عزرايل الملاك الذي يقبض أرواح العالم ، والدليل على ذلك أن النجم يختفي من مكانه حين مفارقة نفس الإنسان ، وأما عثمان بن مظعون النجاشي فهو كوكب الزهرة واسمه بالملايكة دردياثيل، وأما كوكب عطارد فهو قنبر بن كادان الدوسي واسمهُ بالملايكة صلصيائيل ، وأما السبع المراتب الأخرى فهي درب التبّان وهي أرواح المنتقلين من البشر بإقرارهم بعمس .

وتقدم هذه الفئة المضلّلة أدلة على ألوهية عليّ بن أبي طالب لا تخلو من فكاهة في كثير من الأحيان ، فهم يقرأون الآية الكريمة من سورة يس « أَوَ لَيْس الذي خلَقَ السّمَواتِ والأَرْضَ بقادرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُق مِثْلَهُمْ » بعد أن يغيروا حرف الجر « على » فيجعلوه « عليّ » يقصدون بذلك أن عليًّا هو الخالق ، وهو تحريف ساذج ، ذلك أن الآية الكريمة في منطقوها المحرف لا تعني ما ذهب إليه القوم ، والقوم يلحون على هذه القراءة إلحاحاً شديداً ويقولون إن هذه هي القراءة الصحيحة الأصلية للآية ، ولكن عثمان بن عفان عند جمعه المصحف الشريف حرفها من « عليّ » إلى « عَلَى » .

ومن الطرائف حول التدليل على ألوهية « عليّ » ما يتردد في كتب القوم عن أسطورة تقول إن « عليًّا » أرسل جابر بن يزيد الجعفي في قضاء غرض له ، فلما أن

وصل إلى الموضع المقصود رأى علي بن أبي طالب جالساً على كرسي من نور والسيد محمد (يعني سيدنا محمدا) عن يمينه والسيد سلمان (يعني الصحابي الجليل سلمان الفارسي) عن شماله ، ثم التفت جابر إلى ورائه فرآه هكذا ، ثم نظر عن يمينه فرآه أيضا ، ثم نظر إلى السماء فرآه في السماء والملائكة أمامه يسبحون بحمده ويسجدون له[١٢] .

ويذكر القوم أن عليًّا ظهر بصورة بقرة بني إسرائيل كما ظهر بصورة ناقة صالح ، وعند بعض فرقهم ظهر بصورة كلب أصحاب الكهف ، ويعتقد هؤلاء القوم أيضاً أن صوت الرعد هو صوت عليّ ينادي قائلًا : يا عبادي اعرفوني ولا تشكّوا بي . وإذا كان الإله « لم يلد ولم يولد » فإن عليًّا كذلك ، وليس الحسن والحسين إلا ابنين في الظاهر .

وعليٌّ يسكن القمر أو بالأحرى إن القمر هو عليّ ذاته ، وإن ما في القمر من سواد ليس إلا أعضاء جسم عليّ ، ومن ثم كان القمر معبوداً لهم ، ولما كان القرآن الكريم يصف الخالق بقوله تعالى « **كل يوم هُوَ في شَأن** » فإن القمر يكون هو ذلك الإله لأنه كل يوم في شأن ، وكلمة قمر توحي بالضياء وهي مكونة من ثلاثة أحرف ، ولما كانت كلمة « شمس » وكلمة « نجم » كل منها مكونة من ثلاثة أحرف وتعطي ضياء فإن الصلة تكون وثيقة القداسة بينها ، ولذلك فإن بعض القوم يذهبون إلى أن القمر هو عليّ ، والسماء هي عليّ ، والشمس هي محمد .

أما وإن القمر هو الإله فإن لهذا الفريق كثيرا من الأشعار التي تمجد القمر أو « الرمق » كما يحلو لبعضهم أن يكنى عنه بحروفه مقلوبة على ما سوف نبين بعد قليل فيما نقدم من نماذج لأشعارهم الدينية .

ومن حيث العبادة والمعبود فإن النصيرية التي نخصها هنا بالحديث تنقسم إلى أربع طوائف هم عباد السماء ، وعباد الشفق ، وعباد القمر ، وعباد الهواء . وليس كل من السماء والشفق والقمر والهواء إلا « عليًّا » .

ولقد ذكر صاحب « الباكورة السليمانية » خمس عشرة سورة كلها مكرسة لتأليه « علي » والتوكيد على عقد ع م س الذي يرمز حرف العين فيه إلى عليّ الذي يمثل

---

(١٢) الباكورة السليمانية ص ٨٧ .

عندهم « المعنى » أو « الإله » ، ويرمز حرف الميم فيه إلى محمد الذي يمثل عندهم « الاسم » ، ويرمز حرف السين إلى سلمان الفارسي الذي يمثل عندهم « الباب » حسبما ذكرنا قبل قليل .

وتحمل السور أسماء مختلفة بعضها قرآني مثل سورة الفتح أو السجود محرفا عن السجدة ، وأسماء أخرى غير قرآنية مثل الحجابية ، والبيت المعمور ، والجبل ، والشهادة .

وقد تبدأ بعض السور بآية أو آيتين قرآنيتين ثم لا تلبث أن تتجه وجهتها في تأليه « عليّ » .

إن سورة الجبل[١٣] تبدأ بالقرآن الكريم على هذا النمط : « شهد الله أنه لا إلهَ إلاَّ هو والملائكةُ وأولو العِلم قائماً بالقسطِ لا إلهَ إلا هو العزيزُ الحكيم * إنَّ الدينَ عندَ الله الإسلام * ربنا آمنَّا بما أنزلتَ واتبعْنا الرسولَ فاكتبنا مع الشّاهدين »[١٤] . وحتى الآن فإن تلاوة هذه الآيات البينات سليمة تمامًا ، غير أننا لا نلبث أن نفاجأ بأن الآية قد وُصِلت باللون النصيري مبتعدة كل الابتعاد عن قدسية المسرى القرآني وإذ بالفقرة القرآنية الأخيرة تصير هكذا « واكتبنا مع الشاهدين بشهادة ع م س ، اشهد عليّ أيها الحجاب العظيم ، اشهد عليّ أيها الباب الكريم ، اشهد علي ياسيدي المقداد اليمين ، اشهد عليَّ يا سيدي أبو الدر الشمال ... بأن ليس إلها إلا عليّ بن أبي طالب الأصلع المعبود ، ولا حجاب إلا السيد محمد المحمود ، ولا باب إلا السيد سلمان الفارسي المقصود وأكبر الملائكة الخمسة الأيتام ، ولا رأي إلا رأي شيخنا وسيدنا الحسين بن حمدان الخصيبي الذي شرع الأديان في سائر البلدان ، أشهد بأن الصورة المرئية التي ظهرت في البشرية هي الغاية الكلية وهي الظاهرة بالنورانية وليس إله سواها وهي عليّ بن أبي طالب ، وأنه لم يحاط ولم يحضر ولم يدرك ولم يبصر ، أشهد بأني نصيري الدين ، جندبي الرأي ، جنبلاني الطريقة ، خصيبي المذهب ، جليّ المقال ، ميموني الفقه ، وافر الرجعة البيضاء والكرة الزهراء ، وفي كشف

---

(١٣) الباكورة السليمانية ص ٢٦ .

(١٤) يلاحظ أن الآيات الثلاثة من سورة آل عمران ولكنها غير متتابعة ، فالآية الأولى رقمها ١٨ ، تليها فقرة من الآية ١٩ ، تليها الآية ٥٣ .

الغطاء وجلاء العماء ، وإظهار ما كتم وإجلاء ما خفي ، وظهور عليّ بن أبي طالب من عين الشمس قابض على كل نفس ، الأسد من تحته وذو الفقار بيده والملائكة خلفة والسيد سلمان بين يديه والماء ينبع من بين قدميه والسيد محمد ينادي ويقول : هذا مولاكم علي بن أبي طالب فاعرفوه وسبّحوه وعظّموه وكبّروه . هذا خالقكم ورازقكم فلا تنكروه . اشهدوا عليَّ يا أسيادي أن هذا ديني واعتقادي وعليه اعتمادي وبه أحيا وعليه أموت وعليّ بن أبي طالب حي لا يموت بيده القدرة والجبروت ، إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسؤولا علينا من ذكرهم السلام » .

هذا أنموذج لسورة من السور الخمس عشرة ، وهي — عقيدة وفكراً وأسلوباً — تدل دلالة واضحة على بساطة معتنقيها من القوم وشططهم وسذاجة تفكيرهم النابع من تفكير علمائهم الذين ليس لهم من حصيلة العلم قليل ولا كثير ، إذ أن من يتصدى للزعامة الدينية لابد له على أقل تقدير أن يحسن كتابة جملة واحدة في صيغتها العربية الفصيحة .

وحتى تكون الفكرة عن هذا الفريق أوسع فلا بأس من قراءة السورة الخامسة التي أطلق مؤلفها عليها « الفتح » ، وهو يستفتحها بسورة الفتح الكريمة ، ثم لا يلبث كالعادة أن ينتقل إلى تأليه علي مع تعريج على جمل غير مترابطة إذا لم يخرج القارئ منها بما يقنعه فإنه يخرج بمزيد من الفكر عن طبيعة العقيدة النصيرية حسبما تقدمها هذه الجماعة[١٥]

« إذا جاءَ نصر الله والفتح ورأيتَ الناس يدخلون في دين الله أفواجاً فسبّح بحمد ربك واستغفرهُ إنه كان توَّاباً أشهد بأن مولاي أمير النحل عليّ اخترع السيد محمد من نور ذاته وسماهُ اسمهُ ونفسهُ وعرشهُ وكرسيهُ وصفاته متصلٌ به ولا منفصل عنه ولا متصل بِهِ بحقيقة الاتصال ولا منفصلاً عَنهُ في مباعدة الانفصال ، متصلٌ بِهِ بالنور منفصلٌ عنهُ بمشاهدة الظهور ، فهو منهُ كحس النفس من النفس أو كشعاع الشمس من القرص أو كدويّ الماء من الماء أو كالفتق من الرتق أو كلمع البرق من البرق أو كالنظرة من الناظر أو كالحركة من السكون ، فإن شاءَ علي بن أبي طالب

---

(١٥) الباكورة السليمانية ص ١٨ ، ١٩ .

بالظهور أظهرهُ وإن شاءَ بالمغيب غيبهُ تحت تلالي نورهِ ، وأشهد بأن السيد محمد خلق السيد سلمان من نور نوره وجعله بابه وحامل كتابه ، فهو سلسل وسلسبيل وهو جابر وجبرايل وهو الهدى واليقين وهو بالحقيقة رب العالمين ، وأشهد بأن السيد سلمان خلق الخمسة الأيتام الكرام ، فأوّلهم اليتيم الأكبر والكوكب الأزهر والمسك الأذفر والياقوت الأحمر والزمرد الأخضر المقداد بن أسود الكندي وأبو الذرّ الغفاري وعبد الله بن رواحة الأنصاري وعثمان بن مظعون النجاشي وقنبر بن كادان الدوسي هم عبيد مولانا أمير المؤمنين لذكره الجلال والتعظيم ، وهم خلقوا هذا العالم من مشارق الشمس إلى مغربها وقبلتها وشمالها وبرها وبحرها وسهلها وجبلها ما حاطت الخضراء وحوت الغبراء من جابلقا إلى جابرصا إلى مراصد الأحقاف إلى جبل قاف إلى ما حاطت به قبة الفلك الدوّار إلى مدينة السيّد محمد السامرة التي اجتمع فيها المؤمنون واتفقوا على رأي السيد أبي عبد الله ولا يشكون ولا يشركون ولا في سر علي بن أبي طالب يبيحون ولا يخرقون لهُ حجاباً ولا يدخلون إليه إلاَّ من باب اجعل المؤمنين مؤمّنين ومطمانين ومؤيّدين مجبورين على أعدائهم وأعدائنا منصورين ، واجعلنا بجملتهم مؤمنين مؤمّنين ومطمانين مستورين مجبورين ، على أعدائهم وأعدائنا منصورين بسر الفتح ومن فتح الفتح ومن كان الفتح على يده اليمين بسر سيدنا محمد وفاطم (أي فاطمة) والحسن والحسين ومحسن سر الخفي وأشخاص الصلاة وعدَّة العارفين علينا من ذكرهم السلام صلوات الله عليهم أجمعين » .

قد تستبد الحيرة بالمسلم وهو يقرأ هذه الصفحات التي سطرت عن العقيدة المنسوبة للعلويين ولقد هممت أن أنكر هذه المعلومات جملة وتفصيلا ، وأوشكت أن أفعل ذلك حتى ولو كان الأمر متعلقا بعدد قليل من العلويين ، ولقد أسهم في تزكية إنكاري هذا أن مصدر أكثر هذه المعلومات التي ذكرت مأخوذة من كتاب « الباكورة السليمانية في كشف أسرار الديانة العلوية » لمؤلفه سليمان الأذني (نسبه إلى أدنه) نشأ علويا ثم تحول عن العلوية إلى اليهودية ، ثم ما لبث أن تحول إلى البروتستانتية ، ثم حلا له أخيرا أن يتحول إلى راهب كاثوليكي[١٦] .

---

(١٦) تارخ العلويين ص ٣٩٣ وتاريخ ولاية بيروت القسم الثاني فصل الديانات .

الواقع أن هذا التحول في حد ذاته يحمل معنى التقلب والتحدي الذي يجعل المرء يتردد في اعتماد ذلك الكتاب كمصدر يعتمد عليه ، خاصة وأن الرأي العلوي في سليمان هذا أنه كان سكيرا عربيدا ، الأمر الذي أدى إلى طرده من الجامعة العلوية . أما الرجل من ناحية وجهة نظره فيذكر أنه لم يستطع أن يتقبل عقائد القوم وغلوهم الشديد المقرون بالجهل ، الأمر الذي زعزع عقيدته أو بالأحرى جعله وقد وجد نفسه بغير عقيدة ، ومن ثم أخذ يبحث عن دين ، وينتقل من عقيدة إلى أخرى بين الإسلام واليهودية والمسيحية ، بل تأرجح بين فرقتين من الفرق المسيحية نفسها .

إن صاحب الباكور السليمانية ربما كان معذورا من الناحية الشكلية في تخبطه بين الديانات ، شأن غيره من العلويين الذين افتقدوا التوجيه الديني الرشيد فتحولوا كلية عن الإسلام ، وإن الشيخ الجليل عبد الرحمن الخيّر ، وهو ممن نجلهم من إخواننا العلويين دينا وعلما وحسن إسلام يقول في هذا المقام : إن المخلصين من رجالات العلويين الأفذاذ ظلوا يجالدون سياسة الاستعمار الغاشمة التي كانت ترمي بين ما ترمي إليه تنصير جهلائهم[17] ومن البداهة أن الاستعمار لا يقدم على تنصير مسلم إلا إذا كان بين هذا المسلم وبين الإسلام شأو بعيد ، مسافته جهل وغفلة ، ولقد كان عدد كبير من مشايخ العلويين — ناهيك عن عوامهم — غارقين في تيارات الغلو ، سالكين متاهات الجهل بحقائق العقيدة ، هذا فضلا عن كثرة عددهم الذي كان يناهر عدد العوام[18] .

نقول إننا أوشكنا أن نرفض كل ما جاء في كتاب الباكورة سالف الذكر — وما جاء فيه مفزع خطير — لولا أننا رأينا اتفاقا ومطابقة في الكثير الذي أورده مع آراء محمد بن الحسن العاني الخديجي المشهور باسم المنتجب العاني المتوفي حوالى سنة ٤٠٠ هـ . والمنتجب العاني واحد من أعلام المذهب العلوي وشعرائه .

إن كلا من المنتجب العاني وسليمان الأدني يذكر « أيتام سلمان الخمسة » ويعدد أسماءهم ، وهم المقداد الكندي ، وأبو ذر الغفاري ، وعبد الله بن رواحة

---

(١٧) مقدمة تاريخ العلويين ص ٤٧٧ .

(١٨) تاريخ العلويين ص ٤٧٧ .

الأنصاري ، وعثمان بن مظعون ، وقنبر بن كاذان ، وذكرهم مقرون بالتمجيد والإجلال عند كل من المصدرين[١٩] .

وكل من المنتجب العاني وسليمان الأدني يتفقان في ذكر الآراء الشديدة الغلو حول ما أسمياه « ظهورات الإله في المظاهر التي اصطفاها » « فهابيل وشيت ويوسف ويوشع وآصف وشمعون وعليّ كلهم ظهورات تتجلى فيهم ذاتية الله حينا وتغيب حينا آخر عن الأبصار »[٢٠] .

ويتفق كل من المنتجب وسليمان في تأليه علي بن أبي طالب وظهوروه من عين الشمس على أسد ، وسيفه بيده ، والملائكة خلفه ، وسلمان بين يديه ، المنتجب يذكر ذلك في قصيدة أطلق عليها جذوة التوحيد ، وصاحب الباكورة يذكر ذلك في سورة الشهادة أو الجبل[٢١] . الحق أنني لا ألوم بعض « المشايخ » فضلا عن العوام إذا ما قورن موقفهم بموقف علم كبير كالمنتجب العاني.

وكل من سليمان الأدني والمنتجب يتفق في مثلث ع م س ، إن هذا المثلث : علي . محمد . سلمان ــ يكاد يطفو على كل صفحات باكورة الأدني ، وهو في نفس الوقت يجري على لسان المنتجب في أكثر من قصيدة ، إن قصيدة المنتجب التي أسماها كأس الوفاء ينثرها ويعلق عليها مؤلف المنتجب على هذا النحو قائلا : « والحق ما دعا إليه محمد بن عبد الله في رسالة الإسلام ، فالميم ويعني به محمدا هو استمرار الحقيقة الثانية في الأزل وبه يستجير ، والسين ويعني به سلمان الذي جعله محمد من آل البيت هو استمرار الحقيقة الثالثة التي فاضت من نور الحقيقة المحمدية كما فاض نور الحقيقة المحمدية عن نور ذات الحقيقة الأحدية الجليلة التي لا تقاس ولا نسب لها ... وتظهر مغالاته ــ أي مغالاة المنتجب ــ من جهة مقالته بإفراد عليّ بإمارة المؤمنين ، ولعله كان يرى في علي المظهر الإنساني للذات الإلهية[٢٢] مما يجعل القارئ يتصور أن الهدف من قول المنتجب هو عقد ع م س صريحا كل الصراحة .

(١٩) انظر الباكورة السيلمانية ص ١٨ ، ١٩ والمنتجب العاني ص ١١١ ، ١١٢ .
(٢٠) المنتجب العاني ص ٨٩ ، والباكورة السليمانية ص ٤٧ .
(٢١) المنتجب العاني ص ٨٩ ، والباكورة السليمانية ص ٢٧
(٢٢) المنتجب العاني ، ص ١١١ .

ويتفق كل من المنتجب والأدني في هجاء الصحابة البررة والتطاول على أم المؤمنين السيدة عائشة ، وسوف نعف عن ذكر نصوص التطاول على أم المؤمنين إجلالا لمقامها الشريف ، ونضرب صفحا عما وصف به الصحابة الكرام إكراما لمقامهم ، وإنما يستطيع القارئ أن يراجع النصوص في مصادرها إذا أراد[٢٣] .

ليس مقصودنا إجراء مقارنة بين فكر المنتجب وعقيدته وبين ما جاء به صاحب الباكورة ، فذلك أمر يطول مداه ، وإنما نحن نريد أن نثبت أن المنتجب العاني لا يمثل العقيدة العلوية ذات الصفاء والسلامة والنقاء ، عقيدة شيعة آل البيت ، ولو تتبعنا أقواله وآراءه فيما جرى على لسانه شعرا أو نثرا وأردنا أن نجعل منه أنموذجا للعقيدة العلوية لكانت الشقة بعيدة بينهم وبين الإسلام .

ويتفق سلمان الأدني مع المكزون السنجاري في ذكر أشخاص الصلاة ، وأعترف أنني حتى الآن ما فهمت أن هناك أشخاصا للصلاة وأشخاصا للصوم وأشخاصا للحج[٢٤] .

الحق أن المنتجب شاعر بارع متمكن موهوب ، أما أن يكون المنتجب نفسه ذا صلة وثيقة بالديانين فهذا أمر يكون الرجوع عنه بكثير من اليسر في ضوء النماذج السابقة التي أوردناها كأمثلة على تفكيره وعقيدته ، خاصة إذا كان هذا الفكر يُلْصَقُ بالعلويين ويستهدف استكناه ما يرويه البعض حول عقيدتهم .

إن أولى قصائد ديوان المنتجب على الرغم من عمده فيها إلى الإلغاز والتخفّي والإغراق في المصطلحات الباطنية والوقوف وراء الرموز فإنه لم يستطع أن يكون بمنجاة عن اقتناص القارئ اللبيب لأهدافه ومعانيه . إن أولى قصائده ــ وكانت في مدح المهاجري ــ مطلعها :

---

(٢٣) المنتجب العاني ص ١٩٣ ، ١٩٤ والباكورة السليمانية ص ٤٤ .

(٢٤) المكزون السنجاري ٢/٢٧٠ والباكورة السليمانية سورة الفتح ص ١٨ ، ١٩ .

إنْ كُنْتَ لي صاحبًا قِفْ لي بِهَبُّودِ   وقُلْ لِعَيْنِكَ في أَطْلَالها جُودِي

وفيه يقول :

بَنِي نُميرٍ رضاكُمْ منتهى أَمَلِي   وأَنتمُ دونَ خَلْقِ اللهِ مَقْصُودِي
أيامُكُمْ ، فهي أيامي ، وقَوْلُكُمُ   قَوْلِي ، ومَعْبُودُكُمْ بالسِّرِّ ، مَعْبُودِي
وللحجابِ سُجُودي مَعْ سُجُودِكُمُ   ولِلْعَلِي العظيمِ الشَّانِ تَوْحِيدي
والبابُ سلمانُ ، منه أَصْلُ مَعْرِفَتي   كما بِهِ طابَ في الفِرْدَوْسِ تَخْلِيدي[٢٥] .

إن سمات الغلوّ واضحة كل الوضوح ، خصوصا في قوله : معبودكم في السر معبودي ، إذ ليس في العبادة سر ، كما أن البيت التالي مخيف مفزع مهما كان مدى الرمز الذي قصد إليه الشاعر ، فالرمز هنا لا يكاد يكون رمزا وإن سمة الوضوح فيه أبين من لمحة الغموض :

وللحجابِ سُجُودِي مَعْ سُجُودِكُمُ   ولِلْعَلِيِّ العظيمِ الشّانِ تَوْحِيدي

والمنتجب هنا يفصح عن المصطلحات الباطنية حول الحجاب والاسم والباب ، فقد ذكر صراحة أن سلمان الفارسي الصحابي الجليل هو الباب الذي يحتل المقام الثالث المقدس في الرمز العلوي ع م س ، وأنه سيكون سبب تخليده في الفردوس .

هذا وإن شارح الديوان إبراهيم عبد اللطيف عبد الرحمن مرهج علق على لفظ « هبود » الذي جاء في المصراع الأول من مطلع القصيدة بقوله : « هبود ــ علما ــ اسم مكان ، وقد استعمل عند بعض السادة المتقدمين إشارة إلى المحل المعلوم عند أهل العلوم الموصوف بالكوفة ومصر وما أشبهها من صفات الباب الكريم لذكره التعظيم » والحق أن الشارح أراد أن يفصح ويبين وإذ به يزيد المعنى غموضا والمقصد إلغازا ، ولا نكاد نفهم منه إلا عبارة الباب الكريم لذكره التعظيم .

ربما كانت الأفكار الغالية التي مررنا بها مغلفة بشيء من أناقة العرض ورشاقة اللفظ ، غير أن العوام من الغلاة يحاولون أن تكون لهم مشاركة بدورهم في عرض

---

(٢٥) مستدرك الأعلام ص ١٩٥ .

بعض نواحي العقيدة موشحة « بفن القول » ولما كان باعهم القولي قاصرا لقصور ثقافتهم فإن بضاعتهم في هذا السبيل كانت رخيصة النسج ، فضلا عن رخص الأفكار التي فرضتها عليهم ظروف عزلتهم وقصور ثقافتهم .

لقد مر بنا أن هذا الفريق من الغلاة يقدس القمر ، ويرى أن عليًّا يحل فيه ، ولذلك فهم يجعلون منه موضوعا للمناجاة وغرضا للتمجيد وغاية للتقديس . بل إنه جاء في « الدستور » أن القمر هو ذات عليّ(٢٦) وإن كانوا يعمدون إلى الحديث عن القمر في صور الحب ولغة الغزل ، فمن ذلك قول الشيخ محمد بن كلازو ، وليس أمام القارئ بدّ من أن يتحمل بصبر شديد ركاكة الشعر وخطأ الإعراب :(٢٧)

قد شفاني إبريق عذباً لماكا	يا غزالٌ بوادي الأراكا
وأسكرني سلافٌ عذبٌ رضابٌ	من سنى وجهك المنير وفاكا
وتمشيت بالدجـــى بدلال	بين ندماء جالسين حذاكا
فاذهلني إبريـق وجـهك لما	في الدياجي أضاءَ بوادي الأراكا
فتـوهمت قلت أنت بوادي	المنحنى أم بدار نجد رباكا
حين أقبلت قد سررت لقلبي	في دجى الليل قلت روحي فداكا
يا فتى ماس فى بهاء جمال	أنت أملي ولا أوالي سواك
لامنـي العاذلـون فيكَ وإني	لم أكـن قط تاركٌ لهواك
كيف أسلوك يا بديع جمال	والدجى زاح من شعاع سناكا
أنت ربي وغايتـي ومليكـي	وأنت أملي ولا أعبد سواكا
عبدك الخاضع الفقير يرجو	منك عفواً فقلبهُ قد حباكا
فهو يسمى محمد الكلازي	ذاكر الفضل شاكرٌ لثناكا

ومن « المشايخ » الذين كتبوا مناجاة للقمر بما تصوروه شعرا الشيخ يوسف الخطيب الذي عمد إلى التعمية أو الإلغاز أو التظرف ــ قل في ذلك ما شئت ــ

---

(٢٦) الباكورة السليمانية ص ٩٢ .

(٢٧) المصدر السابق ص ٦٨ ، ٦٩ .

حين ناجى القمر باسمه مقلوبا « رمق » . أنشأ الشيخ الخطيب قصيدة رديئة النسج ركيكة الشعر نجتزئ منها هذه الأبيات وفاء بالغرض :[٢٨]

رمق تجلّا لنا من بعد غيبته	في تاج يزهو بهِ الآفاق في الدَّجنِ
في روضةٍ أينعت ما مسها وهنا	قلتُ المسيح ولد والروح والابنِ
إن العلى من بنى خاقان كنيتهُ	ظبيٌ غريرٌ ربي في جنّة العدنِ
سمعي وبصري وكل فيهِ مرتّهَن	لما تبدّي على عرجونة السفنِ
تذري هبوب الصبا في سير خطفته	ويخجل الماءُ ليناً عندما يدن
شاه متوّج بمصر الياء قد سكنَ	فكل مخلوق حار بحسنِه اللدن

وفريق الغلاة يقسمون مشايخهم إلى رتب ودرجات ، وهم في ذلك يشبهون الإسماعيلية إلى حد ما ، فأولى رتب المشيخة « الإمام » ، ثم تليها رتبة « النقيب » ، وثالثها رتبة « النجيب »[٢٩] . ولكل من الإمام والنقيب والنجيب سلطانه وحدوده وحقوقه ، ولقد بدأت هذه الرتب على زمن السيد الخصيبي معتمدة على درجات المعرفة في نطاق المذهب ، ولكنها في الأزمنة الأخيرة افتقدت هذه المؤهلات ، ولعل المؤهل الغالب هو قوة شخصبة صاحب الرتبة ، بغض النظر عن تأهيله العلمي والديني ، وقد وردت هذه الرتب في شعر بعض من جنحوا إلى الغلو مثل المنتجب العاني . لقد أنشأ المنتجب قصيدة بائية طويلة أطلق عليها « جذوة التوحيد » تحدث من خلالها عن الرموز العلوية « المعنى والاسم والبابُ » ووضعها على طريقته ، ثم انتقل إلى ذكر المراتب « العلوية » بما لا يخالف فيه كثيرا ما جاء به صاحب الباكورة السليمانية ، فبعد ذكر الأبواب يذكر الأيتام السبعة — وقد مر ذكرهم — ثم ينتقل إلى النقباء ثم النجباء ، ويلح على السبعة العلوية المنسوبة إلى السبعة الشهب ، والسبعة السفلية المنسوبة إلى التراب[٣٠] :

(٢٨) الباكورة السليمانية ص ٧٦ .

(٢٩) الباكورة السليمانية ص ٣٦ .

(٣٠) المنتجب العاني ص ٥٢ ، ٥٣ .

فتلك «الأبْوَابُ» و«الأيتامُ» تَتْبَعُهُمْ وخَلْفَهُمْ «نُقَبَاءٌ» سَادَةٌ نُجبُ
وإثْرَهُمْ « نُجَبَاءٌ » كُلُّهُمْ سَلَكُوا نَهْجَ الهُدَى وإلى نَيْلِ العُلَا وَثَبُوا
وبَعْدَ ذلكَ مُخْتَصُّون تَرْفَعُهُمْ ومُخْلِصُونَ إلى مَوْلَاهُمْ قَرُبُوا
فهذِه « سَبْعَةٌ عُلْوِيَّةٌ » ظَهَرَتْ دُونَ الأوَائِلِ منْهَا السَّبْعَةُ الشُّهُبُ
وبَعْدَهُمْ « سَبْعَةٌ سُفْلِيَّةٌ » نُسِبُوا إلى الترابِ ومَا وَارَتْهُم التُّرَبُ

ولقد أورد المكزون السنجاري أيضا هذه الرتب وجعلها تسعة ورتبها ووصفها على النسق التالي[٣١] :

١ ــ الأصل ، أي المعنى ، الأزل ، الباري ، الحق الأول .
٢ ــ الفرع ، أي الحجاب الأول ، الأبد ، العقل ، خالق الباب .
٣ ــ الثمر ، أي الباب ، السرمد ، مختص الأيتام .
٤ ــ اليتيم .
٥ ــ النقيب .
٦ ــ النجيب .
٧ ــ المختص .
٨ ــ المخلص .
٩ ــ الممتحن .

وبترجمة بسيطة لمصطلحيّ المعنى والباب نستطيع أن نلمس جانب الغلو الشديد في خلع صفات الخلق والتقديس على بعض أصحاب هذه الرتب .

ويرى الغلاة من العلويين ضرورة كتمان العقيدة . ولكن المتدين الحصيف ينكر هذا المبدأ بداهة ، إذ كيف تحترم عقيدة نفسها وتختفي بالمؤمنين بها ثم تتذرع بأسباب للكتمان ، إن للقوم على كل حال وجهة نظرهم في ذلك ، ويعرضها السيد محمد الطويل على لسانهم بقوله « إنه لما أعلن كمال الإسلام كان لا يزال بعض العقائد

(٣١) معرفة الله والمكزون السنجاري ٣٢٦/١ .

مكتوما وخفيا ، ولذلك بقي إلى هذا اليوم مكتوما لخصوصيته ، وبتعبير أصح : إن بقاء عقيدة العلويين مكتومة هو من كمال الإسلام وإعلانها مضرّ به (كذا) لأن الرسول صلى الله عليه وسلم بشر المؤمنين بولاية علي ، وبذلك كمل الإسلام ولكنه بقي حريصا على كتمان البقية ، ولذلك كان كتمان البقية من كمال الإسلام أيضاً »[٣٢] .

وإذا كان صاحب « التاريخ » قد شرح وجهة نظره في السرية نثرا ، فإن المنتجب العاني يعرضها شعرا حوى سلاسة اللفظ ورونق الأسلوب ولكنه افتقد صلب الإبانة ووضوح المعاني ، ولكن لا عليه في ذلك فإنه يتحدث عن « السرية » ويباركها [٣٣]

وسرٌّ يقلقــلُ صُمَّ الجبــا	لِ ويُفْجِرُ مِنْ صَخْرِها أَعْيُنَا
عَجَائِبُــهُ كثرةٌ لا تُعَــدُّ	فطوبَى لطرفٍ إليها رَنَــا
وفيــه ، جواهــرُ للمبصريـــن	بألْبَابِ أهْلِ الوفَا تُجْتَنَى
وفي طَيِّ أسرارِ أهْلِ الحفَا	ظِ تُصَانُ ومِنْ عندهم تُقْتَنَى
وفي قَعْرِهِ دُرَرٌ لا وُصُو	لَ إليهنَّ إلَّا بطولِ العَنَا
ونُمْسِكُ مِنْ بعدِ هذا المقال	حِذاراً ونَقْطَعُهُ مِنْ هُنَــا
لكيّ لا تَلُوحَ معانِي الكلام	فيَظْهَــرَ ضِـدٌّ عَلَـى سِــرِّنَــا

الحق أن هذا الكلام نثرا كان أو شعرا غير مفهوم ، أو على الأقل ليس مفهوما لديّ من جهة التبرير ، ولكن في نطاق الغلو يمكن أن يقال أي شيء .

فإذا سأل سائل عن الكتب التي يعتمد عليها هذا الفريق الغالي الذي سبب الكثير من المضايقات والحرج ، ليس للصادقين من العلويين وحدهم ولكن لبقية المسلمين ، فإننا نجيبه بذكر بعض هذه الكتب التي قرأنا بعضا من نصوصها والأخرى التى لم يكن لنا نصيب من التعرف عليها إلا من خلال قراءة عناوينها

---

(٣٢) تاريخ العلويين ص ٧٥ .

(٣٣) من قصيدة التقية : المنتجب العاني ص ٥١ ، ٥٢ .

والسماع بها ، فإن الوصول إلى الكثير منها دونه الكثير من العقبات ، وهذه الكتب هى : كتاب المجموع ، كتاب الدلائل ، كتاب التأييد للشيخ محمد الكلازي ، كتاب جدول النوراني ، كتاب الباطن ، كتاب الدستور ، كتاب الهفت أو الهفة الذي ينسبه القوم خطأ إلى الإمام جعفر الصادق ، عينية الطوسي ، دواوين أبي عبد الله الحسين الخصيبي ، ديوان المنتجب العاني .

لقد كان الجهل سببا من أسباب انتشار الغلو ، وكان الغلو سببا من أسباب الانحراف ، وكان المنافقون يشجعون الغلو قديما كما أن الاستعمار يباركه حديثا ، لقد كان من حصاد ذلك في نطاق بعض عشائر القوم أن ادعى الألوهية بينهم شخص اسمه سلمان المرشد وآمنوا به ، وكان سلمان هذا ذكيًّا مَثَّلَ الدور تمثيلًا جيدًا ، فكان يلبس ـــ فيما يروى عنه ـــ ثياباً فيها أزرار كهربائية ويحمل في جيبه بطارية صغيرة متصلة بالأزرار ، فإذا أوصل التيار أضاءت الأنوار من الأزرار فيخر له أنصاره ساجدين ، ومن الطريف أن المستشار الفرنسي الذي كان وراء هذه الألوهية المزيفة كان يسجد مع الساجدين ويخاطب سلمان بقوله : « يا إلهي » . وقد اتخذ سلمان المرشد رسولًا اسمه سلمان الميدة كان يشتغل جمَّالًا عند أحد المزارعين في حمص ، ومن الطريف أن سلمان المرشد مدعي الألوهية كان راعي أبقار ، وهكذا يكون « الإله » راعياً « والرسول » جمَّالًا .

وقد اختلفت العشائر بصدد سلمان هذا وأكثرهم سخروا منه ، وأما المواخسة فقد انقسمت قسمين ، قسماً اتبعه وقسماً آخر ظل على حاله من السير على العقيدة العلوية العادية .

ومن الطريف أن بعض البناوية وأنصارهم من المواخسة ظلوا مخلصين لسلمان المرشد ، فبعد أن قتل ألهوا ابنه « مجيب » . وبالرغم من أن « مجيب » قتل هو الآخر ، فإنهم لا يزالون يؤلهونه ولا يزالون يذبحون على اسمه فيقولون « باسم المجيب أكبر ، من يدي لرقبة أبي بكر وعمر » . ويقال إن الأنظار متجهة إلى تأليه واحد من إخوة « مجيب » أي ولد آخر من أولاد سلمان المرشد الذين لا يزالون يتمتعون ببعض النفوذ عند بعض العوام ، أو الضعاف النفوس الذين لا يزالون يرتاعون فرقاً كلما

ذكروا ما أوقعه سلمان بالذين عصوا أوامره ولم ينصاعوا لدعوته من قتل ونهب وتعذيب في ظل الحكم الفرنسي .

ولعل من الطرائف أن نقدم سورة الصلاة المرشدية (نسبة إلى مجيب المرشد) التي كان يتلوها البسطاء الذين انخدعوا بدعوى الألوهية التي خرج عليهم بها سلمان ومن بعده مجيب ، وسنرى أنها تبشير بالاستعمار أكثر منها دعوى دينية جادة .

« تسبيح إلى مولانا مجيب بن سلمان المرشد الرب العظيم . مولانا لك العزة والمجد والتهليل والتكبير ، سبحانك ربنا ، أشياعك الذين يسبحونك وينزهونك عن الصورة البشرية ، وإنك أنت وعدتنا قبل أن تصعد إلى سمائك وتجلس على عرشك العظيم ، كما أنك وعدتنا وأنت خير من يوعد بأن ترسل على الذين يظلمون من الحكام والبشر النقمة والغضب ، وتنقذنا من يدي الأشرار ، كما قلت إنني سأجعل لكل من لدني عوناً ونصيراً غريباً عن دينكم وغريباً عن وطنكم ، ليكون سنداً لكم إلى يوم الحساب الأكبر . إننا ثابتون على صحة يقيننا وعلى صحة هذا الدين ، ولا نشك بوعودك الصادقة إنك كريم رحيم يامولانا يا مجيب المرشد ، سبحانك أنت الرب العظيم ، ارحمنا من الحكام الأشرار ، وارسل لنا الذين وعدتنا بهم ينقذوننا من الحكام الفجار ، والقوم الأشرار ، إنك على ذلك لقدير . لقد بزغت شمس وجودك من المغرب كما كان غيابك في المغرب . مولانا أرسل لنا الجحافل والناصرين لإنقاذنا من الظالمين الذين يمنعوننا من عبادتك وعن مديد التسبيح لأهل بيتك إنك على ذلك لقدير . نختم دعاءنا بكلمة سبحانك أنت الرب العظيم . نقدم هذا التسبيح إلى البهاليل المؤمنين ليذكروا ربهم في كل حين »[٣٤] .

وإذا كنا قد أتينا بهذا الدعاء الغريب فإنما جئنا به لطرافته وسذاجته في نفس الوقت ، فَمَنْ هؤلاء النصراء الذين سيأتون من المغرب غير المستعمرين ؟ الأمر الذي يدل على أن الذين أوعزوا لسلمان وولده مجيب بادعاء الألوهية إنما هم المستعمرون أنفسهم . ومن حسن الحظ أن هذه الظاهرة لم تتعد الحدود الضيقة جداً عند جمهور العلويين الذين كانوا أول من سخر منها واستنكرها .

---

(٣٤) من كتاب « إخوتنا في جبال اللاذقية » للأستاذ محمد المجذوب (مخطوط تحت الطبع) .

العلوية الصحيحة :

لقد كابد المؤمنون العلويون — ولا يزالون — الكثير من المتاعب الوجدانية والنفسية نتيجة لتصرفات فئات الغلاة الذين نالوا بغلوهم — قولا وفعلا — من جلال المذهب الذي هو في أصله إمامي جعفري شيعيّ ، أو حسب تعريف الشيخ عبد الرحمن الخيّر[٣٥] : إن العلويين لم يفترقوا عن الشيعة الإمامية وليسوا غيرهم ، وكل علوي يحفظ ويعتقد ويشهد مؤمنا بالآية الكريمة « **إنَّ الدِّينَ عندَ الله الإسْلام** » وبقوله تعالى « **وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الإسْلام دِيناً فلنْ يُقْبَلَ مِنْه** » . وإذن فلا ينبغي أن يعول — حسب قول الشيخ محمود الصالح — على ما يرى في بعض مصنفات علماء العلويين

القديمة مما يتنافى ومحض اعتقادهم بتوحيد الله ، ولا يصح أن يعتبر دليلا على إدانتهم بما دسته يدد الإرجاف والإجحاف في حقول مؤلفاتهم من تهم يعرف الجميع أنها من مخلفات العصور الحالكة التي مرت بهم ، ومن مولدات غلاة الشيعة الذين أتاحت لهم ظلمات تلك الأجيال أن يجوسوا خلال ديارهم ويملؤوها بدعاً وأضاليل[٣٦] .

ويلتمس الشيخ الصالح العذر للفئات العامية الجاهلة إذا ما غلب على تفكيرها الغلو طالما أنه وجد من وجهاء المسلمين من أمثال ابن أبي الحديد من يقول في الإمام عليّ :

صِفَاتُكَ أسماءٌ وذاتُكَ جَوْهَرٌ ... بريءُ المعالِي مِنْ صِفَاتِ الْجَوَاهِرِ
يَجِلُّ عنِ الأعْراضِ والأيْنِ والمتى ... ويكبُرُ عنْ تَشْبِيهِهِ بالعَنَاصِرِ

أو يزداد شططاً وغلوًّا فيقول :

تَقَيَّلْتَ أفْعَالَ الرُّبُوبِيَّةِ التـي ... عَذَرْتُ بها مَنْ شَكَّ أنَّكَ مَرْبُوبُ*

(٣٥) مقدمة تاريخ العلويين صفحة ح وصفحة ط .
(٣٦) النبأ اليقين عن العلويين ص ١٢ .
(*) نسبة هذه الأبيات لابن أبي الحديد ليست مؤكدة .

ويردف مؤلف النبأ اليقين قائلا : وإذا وجدت الآن في أوساطهم أو بين أكنافهم من هذا شأنه فهو ـــ ولا ريب ـــ دخيل عليهم أو من بعض أدعيائهم ، وهم من إسرافه وتبذيره برءاء[٣٧] .

إن المتاعب لم تقف بالقوم عند المندسين بينهم المشتطين الغلاة الذين أسرفوا على أنفسهم وعلى مجتمعهم ، وإنما جسّم من خطورتها وزاد من تعقيداتها وجود فئة من المشايخ استسلمت للجهل وتعصبت له ، وحاربت العلم وناصبته العداء ، وأصرت على أن العلم يتنافى مع الدين ، الأمر الذي جعل الشيخ الجليل أحمد حيدر يؤلف كتابا في الإيمان بالله وبالعلم أسماه « ما بعد القمر » حمل فيه على جهل هذه الفئة من المشايخ ، واستنكر آراءهم التي تقول بأن العلم يتنافى مع الدين ـــ فضلا عن مقاصد أخرى سوف نعرض لها فيما بعد ـــ ويقول الشيخ الجليل : وقد أتحير حتى الدهش في محاربة هذه الاكتشافات الجديدة وما في تكذيبها الذي يعطي صاحبه لقب الكاذب المغفل[٣٨] ، ويمضي الشيخ في تمجيد العلم مستشهدا بآيات كثيرة من الكتاب العزيز مستطردا في القول بأنه « لا تصبح العبادة فضيلة سامية إلا بالعلم ، وإن ركعة من عالم خير من ألف ركعة من زاهد ، فمن زعم أن العلم يتنافى مع الدين فقد رضي من العلم مبلغ الرعاع وحصة الأعمى من الشعاع[٣٩] .

ويذكر الشيخ حيدر أخبارا مثيرة عن هذه الفئة من المشايخ وكيف أنها لم تكتف بإنكار العلم وإنما تفننت في التحايل إلى محاربة التعليم بين الناس وتشجيع الجهل فيقول :[٤٠] « وقد كنا نحرّم عليهم (العوام) تعلّم اللغة العربية وحتى القراءة في أي كتاب إن لم يكن مخطوطا » . ويستطرد قائلا في التدليل على تشجيع الجهل : « وأعرف قرية من قرانا حسب لها منجم بأن كل ولد يتعلم بها القراءة يموت ، فلم يتجاسر بها أب أن يعلم ابنه فن القراءة حتى جاءها بعض الشيوخ فتزكى من عدة

(٣٧) المصدر السابق ص ١٦ ، ١٧ ، ١٨ .

(٣٨) ما بعد القمر ص ٢٥ ـــ ٢٨ .

(٣٩) المصدر السابق ص ٣١ .

(٤٠) المصدر السابق ص ١٢٩ .

رجال بها تعليم أولادهم فزكوه بأن يعلموا أولادهم فن القراءة مضحّين بأولادهم ، خوفا من أن يردوا طلب الشيخ فيقعوا تحت عقاب أمرّ من التضحية » .

ويحذق المجرب ينتهي الشيخ إلى النتيجة الحتمية التي يصل إليها شباب حرموا التعرف على دينهم إلا ما يذيعه المشايخ من أنه ضد العلم ، فتكون الطامة أن ينشأ شباب منكر للدين جاحد لقيمه ومقاصده . يقول الشيخ في ذلك(٤١) :

« والمؤسف القاتل أن الشباب المثقف قلّما أعطى من وقته شيئا لفهم شيء من كتاب أو سنّة ، وقد ابتلوا منا (أي من بعض المشايخ) بمن لا يعلم إلا أن العلم نسف الدين نسفا حتى لم يُبق منه ولم يذر ، فحينئذ صار كالمتيقن أن الدين خرافة ، وزاده تيقُّنًا بظنه هذا إفتاء بعضنا بأن العلم يتنافى مع الدين » .

هي إذن تركة ثقيلة ورثها القوم ممثلة في أحمال التاريخ وأوزاره من ظلم حل بهم واضطهاد وقع عليهم وغلاة يسيئون بغلوهم ، وجهلاء يعطون أسوأ صورة عن العلوية كمذهب ، وحتى العلوي كصاحب عقيدة منغلقة غالية ، خارجة عن الجادة ، متمردة على النهج القويم ، هو في حقيقته ليس كذلك ، بل هو أقرب إلى سبيل الإيمان ، فما العلوي ـــ كما يعرّفه صاحب النبأ اليقين ـــ إلا كل إمامي منتسب بولائه للإمام عليّ عليه السلام(٤٢) .

إنه في يقظة الجهل وغيبة الإيمان لم يكن العلوي الجاهل يجد كبير غضاضة في أن يذكر أنه ينتمي إلى دين آخر . لقد وقعت حادثة من هذا القبيل على صعيد القضاء فكانت بمثابة المنبه الذي هز وجدان العلماء هزة عنيفة ، فبدأوا على إثرها يتدبرون الأمر ويعملون على إعادة العامة أو بالأحرى إلى وضعهم على نهج الإيمان ، وتتلخص الحادثة التي رواها الشيخ الجليل السيد عبد الله الفضل في كتابه ـــ تحت راية لا إله إلا الله ـــ في أن رجلاً سنياً فقيراً رفع دعوى نفقه على أخويه العلويين الموسرين ، فقد كان أبوه ـــ وهو علوي ـــ تزوج بامرأتين إحداهما سنية والثانية

(٤١) المصدر السابق ص ١٣٦ .
(٤٢) النبأ اليقين ص ١٣٦ .

علوية ، فنشأ ابنه من الزوجة السنية سنياً ، ونشأ ابناه من الزوجة العلوية علويّيْن . المهم في الأمر أن المحكمة حكمت في أول درجة بحق الأخ السني في الحصول على نفقة من أخويه العلويين ، وهنا اعترض الأخوان على الحكم بحجة اختلاف الدين وأنهما ليسا بمسلمين ، ودلل المحامي الذي كان يتولى الدفاع عنهما على هذا الدفع بأسلوب شيطاني ، الأمر الذي جعل المحكمة تعود فتحكم برفض النفقة لاختلاف الدين[٤٣] .

هنا ثارت ثائرة العلماء العلويين ، واعترضوا على كل الادعاءات التي تصورهم بعيدين عن الإسلام ، وأعلنوا براءتهم من كل ما يخالف العقيدة الإسلامية في بيان أصدروه في ٩ جمادي الآخرة سنة ١٣٥٧ هـ (١٩٣٨م) .

والحق أن القوم ما ان أحسوا بآثار الظلم تنزاح عن كواهلهم « حتى حطموا قيود العزلة وانفلتوا من عقال الإنكماش وجروا في ميادين الانطلاق سراعاً لتشييد بيوت الله وإعلان شعائرهم الإسلامية ــ وفق فقه مذهبهم ــ مرتفعة أصوات مؤذنيهم كل يوم وليلة خمس مرات تشق عنان الفضاء بالتكبير لمن له الملك الكبير ، وتنطلق حناجر خطبائهم فى أيام الجمع والأعياد بالثناء والحمد له سبحانه .. ها هم العلويون يعلنون ــ وقد أذن لهم بالإعلان ــ من على رءوس الأشهاد إقراراً بألسنتهم ، واعتقاداً بأفئدتهم ، وعملاً بجوارحهم بأنهم يبرأون إلى الله من أية عبادة ما سوى عبادة الله رب العالمين »[٤٤] .

هذا الكلام العميق الإيمان ، وهذا الإشهاد المخلص آثرت أن أنقله بحرفيته للشيخ العلوي محمود الصالح يعلن فيه ويصحح به . ما قد وقر في عقول الناس من تصورات الانحراف عند العلويين نتيجة غلو الذين ذكر الشيخ نماذج لهم وذكرنا نحن أيضاً بعض هذه النماذج ، وحسبما يذكر الشيخ أحمد حيدر .

ويمضى العلماء الواعون الصادقون من العلويين المحدثين في طريقهم الطويل يزيحون الخرافات التي أصبحت عقائد ويحاربون البدع التى صارت شرائع . لقد

(٤٣) تحت راية لا إله إلا الله ص ٢٤

(٤٤) النبأ اليقين ص ٢٨ .

مر بنا كيف أن بعض الغلاة قدسوا القمر وقالوا فيه شعراً وإن يكن ركيكاً متخاذلاً . ينشط القوم في عملية التصحيح والعودة بالجاهلين إلى رحاب الإيمان ، وما ان يصل العلم الحديث والعقل البشري المتطور بالإنسان إلى القمر فيحط عليه بقدميه ويسير على ترابه برجليه ، حتى ينطلق الشيخ أحمد حيدر ـــ من علمائهم ومشايخهم المستنيرين ـــ ويصدر كتابه الذي مر بنا ذكره « ما بعد القمر » يصور فيه حقيقة القمر كما هي علمياً وواقعياً قائلاً :(٤٥)

أجمع العلماء والحكماء والفلاسفة من اليونان والمسلمين أن القمر ليس منيرا بذاته ، بل يكتسب نوره من الشمس ، ويردّ نور الشمس عنه كما تردّ نورها المرآة ، فهو منير مادام يرد إليه نور الشمس ، فإذا عرض له أن يحول بينهما ظل الأرض ، انخسف وأظلم ، فالنور للشمس بالأصالة ، وللقمر بمجرد الاستعارة .

وفى المقدمة التي كتبها محمد أحمد حيدر لكتاب أبيه يقول معريّا القمر عن كل قداسة مستخفاً بهؤلاء الذين مجدوه في نطاق القدسية والعبودية وخلعوا عليه صفات روحانية(٤٦) :

« بعد أن اكتشفت مادية القمر ، وتبدد عنه غشاء الروحانية ، أباح هذا التدين المفروض بغير علم ومعرفة ، وبدون شرع وكتاب ، أباح للعقل أن ينطلق من عقاله وأن ينشط من قيوده الوهمية ـــ قيود المادة ـــ راجعا إلى عالمه ، عالم الإطلاق الذي لا يحدّ إلا بعدم تحديده .

لقد حدّ الاعتقاد بروحانية القمر من نشاط العقل وضرب دونه ودون الحقائق سدًّا من الأوهام ، وباكتشاف مادية القمر أتيح للعقل أن ينشط من عقاله ... أتيح لهذا العقل المعتقل أن يكسر القيود ويحطم الحواجز بينه وبين عالمه المطلق » .

ولم يقع كاهل التركة الثقيلة على المستنيرين من المشايخ وحدهم ، من أمثال صاحبي كتاب « ما بعد القمر » وكتاب « النبأ اليقين عن العلويين » ومن أمثال السيد عبد الله الفضل ، والشيخ عبد الرحمن الخيّر وغيرهم من صفوة الرجال

---

(٤٥) ما بعد القمر ص ٤١ .

(٤٦) مقدمة الكتاب ص ٤١ .

الذين عملوا في الساحة بإخلاص ، وإنما انتقل الأمر إلى الشباب المثقف الذي أخذ يحس بما هو واقع في مجتمعه ، وما هو متوارث من العهود الماضية ، فأخذ على نفسه العهد أن يوضح الحقيقة ويحمل المشعل في سماحة وتحمس مقرونين بالأسى ، إن واحدا من هؤلاء الشباب كان تلميذا لي في كلية الآداب بجامعة بيروت العربية وقرأ الفصل الخاص بمذهبه في الطبعة السابقة من هذا الكتاب ، ولم أكن قد فَصّلْتُ فصلا منهجيا واضحا بين جماعة الغلاة وبين رواد التصحيح ، وكالعادة ذهبت أفتح صندوق بريدي في الجامعة ذات يوم وإذ بي أجد رسالة تحمل تعليقا على فصل « العلويين » من أحد طلابي العلويين آثر ألا يبوح باسمه ، ربما خجلا مني لما في تعليقه مما قد يكون تصور أنه تجاوزٌ من طالب تجاه أستاذه في الجامعة ، وفي الحق أن سروري بهذا التعليق كان كبيرا ، فقد أحسست بأن طالبي هذا مؤمن بكل كلمة خطها يراعه في تعليقه ، وحاولت أن أتعرف على تلميذي هذا بالكثير من الوسائل ولكن ربما منعه حياؤه من مواجهتي ، وبرغم أن التعليق غير ممهور بإمضاء الطالب اكتفاء بتذييله بعبارة « طالب مسلم علوي » فإني أعتبر تعليقه هذا وثيقة نفيسة وتصويبا أعتز به ، وبادرة خير وبركة في محيط الشباب العلوي سوف تؤتي ثمارها المباركة بإذن الله .

يقول الطالب في رسالته من غير أن أسقط منها حرفا واحدا ما نصه :

إلى السيد الدكتور مصطفى الشكعه

تحية الإسلام والعروبة وبعد . أرجو دراسة ما يلي بعين الاعتبار والانتباه والاهتمام .

حضرة الأديب الباحث ، إنني معجب بكتابتك لأني أراك تحكي الصواب وتنشر ما فيه الفائدة ولكن سبحان من لا يخطئ لقد ابتعد بك القلم عن الحقيقة في بحث من كتابك إسلام بلا مذاهب هذا البحث عن العلويين .

أيها الأستاذ المنبيل ما أقوله لك هو الصدق قسماً بالله ، وأنا معجب بك ومتأمل منك الإنصاف ، ولولا ذلك لما أرسلت لك رسالتي .

حقاً أيها الأديب نحن شيعة ، ولنا الشرف بحب النبي محمد وآله وصحابته ، وكل ما ذكرته عن تاريخنا ومكاننا لا بأس به وإن كان ينقصه التركيز .

لقد تعرضنا خلال تاريخنا لحوادث جسام فرضت علينا الانطواء والانكماش ، ولكن كل شيء تبدل حالياً ، ولقد حاول الفرنسيون تحويلنا إلى مسيحيين فرفضنا بعنف ، كل مباحثك في هذه النواحي مقبولة .

أما عن العقيدة والعبادات فهنا الأخطاء التي وقعت بها دون قصد ، والتي أرجو أن تنتبه لها آملاً منك حسن التقدير والنظر ، وتغيير ما يستحق التغيير .

عندما تريد التحدث عنا يجب أن تعاشرنا ، تزور جبالنا وتشاهد ما عندنا من تراث عربي إسلامي ، وترى عقائدنا ثم تتحدث عنا ، ولا شكَّ في أنَّ الأقوال ستختلف في الحالة الثانية عن الأولى .

أيها الأستاذ المحترم .

نحن لا نلعن الصحابة ــ (فئة نادرة) ــ وعقيدتنا كأي مسلم ، وهناك بعض الأشياء التي ستزول من تلقاء نفسها في هذا العصر ، ونحن نعمل على أن نُبْعِدَ كل ما من شأنه أن يجعل الاختلاف بيننا وبين المسلمين من النواحي المذهبية مع تمسكنا المطلق بحب عليٍّ مع عدم المغالاة ، وهو الذي قال « هلك فيَّ اثنان مغالٍ مفرط وكاره قالٍ » نهج البلاغة .

ونحن نؤمن بيوم القيامة جميعاً كباراً وصغاراً ، وإذا كان عندنا نظرة إلى التقمص فهي علمية تختلف جدًّا عن نظرة غيرنا . أما بعض الأشياء التي تصورنا مبتعدين فلقد جاءت نتيجة الجهل ، حتى إن قسماً غشه الاستعمار فاعتقد أن الحيوان سليمان المرشد إله البشر . هل هناك أكثر من هذا الغباء والجهل والضعف .

ونحن عندنا جوامع عديدة ومن قال لك لا يوجد عندنا ؟ شيء غريب أن يقال الكلام وشيء غريب جدا أن ينشره باحث منصف مثلك دون أن يرى بعينه الحقيقة ، نحن لنا الجوامع ، والصلاة ذاتها عند أي مسلم وصلاة الجمعة وكل ما

عند المسلمين ، والجوامع عديدة حسب وجودنا وعددنا ، حمص فيها جامع ، اللاذقية فيها جامع في حي الرمل وهو مشهور وكبير ، بانياس الساحل فيها اثنان ، طرطوس فيها واحد ، ونحن نطبق الشعائر الدينية كأي مسلم ، واسأل الإخوان السنيين من هذه المناطق ترى صدق ما أقول ، والوضوء عندنا كالعادة ، ونحن لا ننكر أن بعض الشيوخ من جهلهم وغبائهم شوهوا كثيراً من الأشياء .

والصيام كسائر المسلمين لا فرق أبداً ، والله العظيم قسماً به لا أكتب لك إلا الصدق ، وحبذا لو ذهبت إلى جبلنا الأشم ، بانياس على الساحل واللاذقية ، كنت ترى علماءَنا وتتباحث معهم .

أما في الحج ويا للأسف أن تذكر أننا لا نحج ، ويا للأسف أن تضيف لنا ذنباً كبيراً وهو أننا نعتبر الحج كفراً . أهذا حق يا دكتور ؟ أهذا علم ؟ أعدل ؟ أن لا نقول بما هو واقع .

والله العظيم إننا نحج ، ونعظم كل ما تعظمونه ، وسنوياً يذهب عدد ضخم للحج إلى مكة المكرمة ، واسأل السنيين في مناطقنا يدلونك على صدق ما أقول .

ويلاه إن كنا نعتبر الحج كفراً ، ويلاه من العقاب وويل من لا يقول عنا الصدق من العقاب . لقد كنا في حالة فقر وخوف لا نستطيع الحج أما الآن فكل شيء عاد إلى طبيعته العادية .

أما الأعياد فأهمها وأكبرها ــ والصدق أقول أقسم بالله ــ عيد الأضحى ــ رمضان ــ الغدير ــ عاشوراء وأعياد أخرى ليس بها أي عيب بل أعمال خير وصدقة .

أما الأعياد السخيفة التي يظن البعض أنها من عقيدتنا فنحن لا نكن لها أي احترام ، بل أدخلها المستعمر الفرنسي عندما حاول إدخالنا في المسيحية ، مثل البربارة والميلادي وغير ذلك من السخافات التي يُقْضَى عليها بالتدريج ، لقد حاربها رجال الدين كثيراً ولكن عامة الناس ما يزالون يتمسكون بها ، والله العظيم ، رجال الدين لا يأكلونها ولا يعملونها بل السخيفون فقط .

إن الاستعمار جنى علينا كثيراً وحاول إبعادنا عن الإسلام ، ونلنا ظلماً عديداً من مختلف الجهات السنية والإسماعيلية ، خاصة الأخيرة في العصر المتأخر ، حيث احتضن الاستعمار الفرنسي الإسماعيليين وقاموا بكثير من الأعمال ضدنا .

ويا حضرة الأديب

إن حلال القرآن حلالنا وحرامه حرامنا ، وإن كان البعض يقولون بعدم محبة أكل الأنثى من الحيوانات فلا يحرمونها مطلقاً ، واذهب ترى ذلك ، بل إننا كأي مسلم في الطعام وغيره .

أرجو أن تزور مناطقنا — وهي قريبة — وتتعرف على المثقفين منا لا على الأساطير والخرافات التي سيطرت على عقول الآباء المستضعفين ، ونحن نملك نهضة ثقافية رائعة ، وصار منا العدد الكبير من كبار الشخصيات الثقافية والسياسية مع أننا أكثر الطوائف إنكاراً للطائفية ، فيا دكتورنا الحبيب تحية إليك وأتمنى لك الخير والصواب وأدام الله المسلمين بخير ..

طالب مسلم علوي في الجامعة العربية بيروت

وإذا كان تلميذي الشاب العلوي صاحب الرسالة التي مرت سطورها قد حجب نفسه عن مواجهتي ، فإن هناك كثيرين غيره من الشباب العلوي الذي يدعو إلى تصحيح العقيدة ويبشر بها في سماحة ويتحرك في نطاق هدفها في إيمان وإعلان ، لقد زارني في بيتي من هذا الطراز من الشباب شيخ شاب هو السيد علي عزيز إبراهيم العلوي — وكان قد عرف أني أعيد كتابة الفصل المتعلق بقومه من كتابي هذا — وقضى عندي بعض الوقت يبين لي أن العلويين ليسوا بالصورة التي صورها بها أعداؤهم ، سواء أكان هؤلاء الأعداء من داخلهم — أي الجهال الذين ادعوا العلم — أم كانوا من دعاة الفرقة ومن تلاميذ المستشرقين ، وذكر أن المساجد تبنى بالعشرات والمآذن ترتفع سامقة تدعو المؤمنين إلى الصلاة في كل القرى العلوية ، وعادت المساجد بوفرتها تمتلئ بالمصلين المؤمنين من شيوخ وشباب ، ثم أهدى إليّ الشيخ الشاب كتيباً ألفه في المدة الأخيرة تحت عنوان « العلويون فدائيو الشيعة المجهولون » وإذا كان محتوى الكتيب لا يحمل الكثير من مدلول عنوانه فإن محتواه

أنفس من العنوان ، وهو يرد العلويين فيه إلى أصلهم الإمامي ، ومن ثم يقدم دراسة طيبة عن الشيعة الإمامية .

هي إذن عقيدة إمامية اثنا عشرية تؤمن بأن الإمام علياً وصيّ الرسول صلى الله عليه وسلم على الدعوة وأن الإمامة منصب إلهي كالنبوة ، وأن الأئمة معصومون ، وهم اثنا عشر يبدأون بالإمام عليّ وينتهون عند الإمام محمد بن الحسن العسكري المستور الحيّ الذي ينتظرون ظهوره حتى يملأ الأرض هداية وعدلا(٤٧) .

وهذا الجانب من العقيدة يشكل ركناً سادسا بالإضافة إلى الأركان الخمسة المتعارف عليها عند جمهرة المسلمين وعلى هذا الأساس تكون عقيدة العلوي التوحيد المحض ، وتنزيه الخالق عن كل مشابهة للمخلوق ، والإقرار بنبوة سيد الرسل محمد ﷺ ، والاعتقاد بالمعاد ، والعمل بدعائم الإسلام الخمس ، والاعتقاد بالإمامة(٤٨) .

ولقد أعجبنى كثيرا ما كتبه الشيخ حسين سعود فى سياق رسالة طويلة يقرظ بها جهد الشيخ محمود الصالح فى كتابه «النبأ اليقين» حين يقول فى إحدى فقرات رسالته :

«حاشا لله أن يكون ذلك العلوى ، كما يعلمه الله وكما يعلمه أحفاده من طريق مخلفاته الفقهية وتقاليده الموروثة ممن يدين بغير توحيد الله ، أو يستسن بغير سنة رسول الله ، أو يولى وجهه فى صلاته لغير بيت الله ، أو يأخذ أحكامه وفرائضه وحلاله وحرامه من غير القرآن كتاب الله» ويستطرد الشيخ حسين سعود قائلًا : «ولما

كان الشيء بالشيء يذكر ، أود أن أورد قصة مُثّل دورها فى عهد الانتداب الغاشم ، إذ حضر أحد الحكام الفرنسيين البارزين عند شيخ من شيوخنا ، ولغرض فى نفسه وجّه إليه السؤال التالى : ما هى حقيقة أنسابكم ومعتقداتكم وأعيادكم وعاداتكم ؟ فنهض الشيخ دون أن يجيبه وتناول القرآن من مكتبته المتواضعة وقال : هذا هو

---

(٤٧) راجع أسماء الأئمة وتسلسلهم فى فصل الشيعة الإمامية من هذا الكتاب .
(٤٨) النبأ اليقين ص ٣٥ .

القرآن الكريم كتاب الله يجيبك عن جميع ما سألتنى عنه ، ففيه أنسابنا ومعتقداتنا وأعيادنا وعاداتنا ، فسكت ذلك المستعمر وكأنه ألقمه حجرا[٤٩] .

هذا ونلاحظ أن فريقا من العلويين يتحلون بالسماحة الكاملة حين يذكرون الصحابة الكرام وبخاصة الراشدين الأول أبا بكر وعمر وعثمان ، إن المكزون السنجارى أحد أمراء العلويين ومتصوف شيوخهم وكبير شعرائهم يقول فى مقام الاعتراف بفضل الراشدين الأول[٥٠] :

بِأبِى عدىٍّ وابْنِه نِلْتُ المنَى ... وغدوتُ مِنْ بَعْدِ الجهالةِ مُوقِنَا

بعقيــدةٍ بَكْرِيَّــةٍ عُمَرِيَّــةٍ ... مَالى إذا غَيْرِى انْثَنَى عنها انْثِنَا

وبِنُورِ هَدْيِهِمَا هُدِيتُ إلى الهدَى ... فَعَلَيْهِمَا مِنِّى التحيةُ والسَّنَا

إنِّى بِدِينِهِمَا وإنْ رُغِمَ العِدَا ... أمْسَيْتُ مِنْ دونِ الوَرَا مُتَدَيِّنا

وَبِسُنَّــةٍ لله عُثْمانِيَّــةٍ ... فازَ امــرؤٌ أمْسى بها مُتَسَنِّنَــا

هذا ما كان من أمر المكزون واحترامه للثلاثة الراشدين . ومن بين المشايخ المعاصرين قد وجد من استطاع أن يكبح جماح مشاعر الكراهية المتوارثة ويحكّم عقله في التعامل مع الثلاثة البررة في نطاق الاحترام والإجلال ، فهم صحابة الرسول وناصروه ومؤيدوه ، وهم أصدقاء عليّ وأحباؤه ، فلم يظهر منه رضي الله عنه تجاه واحد منهم إلا الإجلال والاحترام ، وقد فهم ذلك بعض عقلاء الشيعة فأقلعوا عن عادة سب الراشدين ، بل وضعوهم موضع التكريم مثل ما فعل الأمير حسن المكزون السنجاري في أبياته السابقة ، ومثل ما وقع عليه بصري عرضا وأنا أقرأ كتاب ما بعد القمر ، فإذا بصدري ينشرح عندما وقع بصري على ذكر عمر مسبوقا بلقب الإمام تماما كذكره علياً مسبوقا بلقب الإمام[٥١] ، على أن لقب الإمام الذي سبق اسم عمر لا يعني أكثر مما تحتمله الكلمة بمعناها اللغوي وليس بمفهومها الديني الشيعي .

---

(٤٩) المصدر السابق ص ١٤٩ .

(٥٠) ديوان المكزون ، مخطوطة المكتبة الظاهرية ، رقم ٨٧٥٨ عام . الورقة ٨٩ .

(٥١) ما بعد القمر ص ٢٨ .

هذا وقد بدا المكزون في أكثر فترات حياته مثالا للاعتدال ، حربا على الغلو والشطط ، ففي أحداث سنة ٦٢٢ هـ عندما أوشك على إتمام النصر لإعزاز قومه من العلويين جمع علماء الإسحاقية والذهيبية — وقد مر بنا القول أنهم من غلاة الغلاة — وناظرهم فغلبهم وأمر بقتلهم ، وجمع كتبهم وأحرقها[٥٢] .

الإيمان الباطني :

هذا وتبقى بعد ذلك قضايا تشكل خلافا بين العلويين وجمهرة المسلمين ، بل بين العلويين والشيعة الإمامية ذاتها الذين يعتبر العلويون أنفسهم فريقا منهم .

فمن هذه القضايا المختلف عليها العمد إلى الرمز في الدين والتمسك بما تسميه الصورة الباطنية للعقيدة والعبادة ، ويحاول العالم الشاعر العلوي المكزون السنجاري أن يعلل ذلك فلا يشفي غلة وذلك في قوله[٥٣] :

قالـــوا تَحَـــدَّثْ بالصَّحِيــــ ـــحِ من الحديثِ بغيْـــرِ رَمْـــزِ
فأجَبْتُهُـــــــمْ هَلْ عاقـــــــلٌ يَرْمِـــي الكنـــوزَ بغيـــرِ حِرْزِ

ويقذف بنا المكزون ببيتيه هذين — فضلا عن قصائد أخرى مطولات — إلى صلب علم الباطن الذي يبدأ تعليله بأن بعض الأحكام الدينية لا يعلمها إلا الخواص ، وأن علوم أهل البيت غير معلومة لعامة المسلمين ، وأن لهم — أي آل البيت — علوما خفية كالجفر مثلا ، وينسب إلى الإمام الجليل عليّ زين العابدين قوله :

وَرُبَّ جَوْهَــرِ علــم لوْ أبُــوحُ به لَقِيلَ لِي أنْتَ مِمَّنْ يَعْبُـدُ الْوَثَنَــا[٥٤]

والحق أنني لا أعلم مدى صحة نسبة هذا البيت إلى الإمام الجليل ، غير أن الفكرة في مجملها قد عرضت العقيدة السمحة إلى متاهات من التعليلات

---

(٥٢) معرفة الله والمكزون السنجاري ٢/٣٤٦ .
(٥٣) المصدر السابق ٢/١٣٨ .
(٥٤) تاريخ العلويين ص ١٩٦ — ١٩٩ .

والتفسيرات الصحيحة حينا وغير الصحيحة حينا آخر ، الأمر الذي يتحقق ضرره ولم يثبت نفعه ، ذلك أن جوهر عظمة الإسلام كعقيدة سماوية ربانية لاقت الاقتناع الحق بها ، والإيمان المطلق بمادئها قد تجلى في البساطة والوضوح والمنطقية ، وليس الأمر كذلك حين يكون الأمر إلغازاً وابهاما وباطينة وأسرارا خفية :

أَغْبَـى الْـوَرَى مَنْ لَمْ يجدْ نَفْسَهُ — تَخُصُّهُ إلاَّ برأي العَـوَامِ
وأَبْعَـدُ الْخَلْـقِ عنِ الحَـقِّ مَنْ — يحاولُ الحقَّ بعلـمِ الكَـلاَمِ
بل باقْتِفَـا الباطِـن مِنْ ظَاهـر — أَنْزَلَـهُ الله هُدًى لِلأَنَـامِ[٥٥]

ويصل الأمر إلى حدّ الخطورة حين ينسحب على القرآن الكريم كتاب الإسلام الأول فيصبح لآياته بدلا من المعنى الواضح المحدد معنيان ، معنى ظاهر وآخر باطن .

هذه خطرة مؤمن يسوقها لمجرد التدبر لفريق من المسلمين أومن بصدق طويتهم وسرعة انطلاقهم وتفتحهم . وحتى العبادات من صلاة وزكاة وصوم وحج لها ظاهر وباطن ، فمن جملة ما كتب الأمير حسن المكزون السنجاري المتوفى سنة ٦٣٨ هـ ، وهو من كبار أئمة المذهب العلوي رسالة أسماها « تزكية النفس في معرفة بواطن العبادات الخمس » بناها على مقدمة وسبعة أبواب هي حسب نص تقسيمه :[٥٦] .

الباب الأول : في معرفة العبادة وبواطنها وأقسامها .
الباب الثاني : في معرفة باطن الإسلام وأقسامه ومستقر الإيمان ومستودعه .
الباب الثالث : في بواطن الصلاة ولوازمها ومعرفة أشخاصها .
الباب الرابع : في معرفة بواطن الصيام ولوازمه ومعرفة أشخاصه
الباب الخامس : في معرفة بواطن الزكاة ولوازمها وأقسامها .

---

(٥٥) معرفة الله والمكزون السنجاري ٢/٢١٣ .
(٥٦) معرفة اللهوالمكزون السنجاري ٢/٢٦٩ ، ٢٧٠ .

الباب السادس: في معرفة باطن الحج ولوازمه وأشخاصه .
الباب السابع : في معرفة الجهاد ولوازمه وأقسامه .

والمسألة التي تدعو إلى التساؤل هنا هو أن المكزون في معرض ذكره بواطن الصلاة والصيام والحج جعل لكل فريضة أشخاصا ، أي أن لكل صلاة شخصا أو أشخاصا ترتبط هذه الصلاة أو تلك به أو بهم بشكل أو بآخر ، ونفس الشيء ينسحب على الصيام والحج ، وهنا يكمن الخطر على العقيدة من خلال تصورات النزعة الباطنية التي فُرِضَتْ على هذه الفروض وربطتها بأشخاص . ومصدر الخطر أن بعض من كتبوا عن العقيدة العلوية قد ذكروا ارتباط الفرائض التي ذكرت بأشخاص بعينهم ممن يحتلون مكانة في نطاق الرتب العلوية وحددوا أسماءهم .

إننا لم نستطع الاطلاع على أقوال المؤلف في أبواب الصلاة والصوم والحج ولكن تيسر لنا الاطلاع على فحوى الفصل الأول الذي جعله المكزون لمعرفة أقسام العبادة وصفة باطنها ، ومحور الفكرة عنده يدور حول معرفة الله لقوله تعالى : « **ومَا خَلَقْتُ الجِنَّ والإِنْسَ إلاَّ لِيَعْبُدُون** » وبعد أن يعرض المكزون لصنوف الناس وتصور معرفتهم لله يتحدث عن « المعرفة الحقيقية » التي هي « شجرة ذات أصل ثابت وفرع باسق ، لا تنال ثمرتها إلا برفع أيدي السؤال إلى فروعها الزكية : فأصلها الأزل ، وفرعها الأبد ، وثمرها السرمد » ويستطرد المكزون قائلا : « وهذه الرتب الثلاث هي التي عبر عنها أهل التوحيد بـ « المعنى » ، و « الحجاب » ، و « الباب » . وقد عبر عنها الحكماء بالباري ،

والعقل ، والنفس ، وهي التي تعرف بمعرفتها سائر الأشياء . و « المعنى » من هذه الرتب الثلاث هو الحق الأول الذي ابتدع « الحجاب » الأول ، و « الحجاب الأول » هو الذي خلق « الباب » و « الباب » هو الذي اختص « الأيتام » بقدرة المشيئة الظاهرة فيه ، وكذلك ظهرت « المقامات الخمس » من العالم الكبير النوراني ، رتبة رتبة ، وعن الرتب الأخيرة تكونت سائر الموجودات مما دونهم » ويستطرد المكزون في هذا الباب الذي خصصه لمعرفة أقسام العبادة وصفة باطنها قائلا : « وإنما ذكرت ذلك ليعرف العبد الوسائط التي بينه وبين

باريه الحق ، ولا سبيل إلى معرفة هذه المقامات إلا بمعرفته ، ومعرفته لا تصح إلا بذاته ، وذاته لا تعرف إلا برؤيته ، ورؤيته لا تمكن إلا بتجليه ، وتجليه لا يدرك إلابكماله... »[٥٧] .

لقد تمنينا مخلصين لو ذكرت معرفة الله وكمال الايمان به من منطلق الفطنة الإنسانية البسيطة الميسرة التي فطر الإنسان عليها ، والتي جعلت من يسر الإسلام وبساطته دين الفطرة الإنسانية ، والتي مزقت كل وساطة بين المخلوق والخالق « وقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ » .

إن المكزون يضمن أفكاره الباطنية السابقة في مجموعة أبيات من قصيدة طويلة أسماها الرائية الصغرى أو القمرية ، ولعلهِ عمد إلى الاستعانة بحساب الجمّل في بعض الأبيات التي تضمنتها القصيدة[٥٨] .

فكم إلى الجناتِ سُقْتُ مِنْ بني النُّور زُمَرْ
ومن بني النار فكم ألقيتُ في قعْرِ سقَرْ
لذا وقفتُ في الطريقِ داعياً من به مَر
إلى دخولِ البابِ والبابُ فيه خمسُ نَفَرْ
بدون فهمِ رقمهمْ ما فيه مخلوقٌ عَبَرْ
والنُّقَبَاءُ لهمُ بلا مرَاء اثْنَا عَشَرْ
والنجباءُ عدُّ أحرفِ الكتابِ المستَطِرْ
والهاءُ في الغينِ لَهُمْ وأهلُهم عدًّا حُصِرْ
والغينُ في القافِ وفي الْياء وفي الطاء عَبَرْ
همُ السّماواتُ لأرْضينِ به الميْتُ نُشِرْ

أعود مرة ثانية فأسجل أنه كان للمكزون شطحات مغلَّفة بالغموض ولكن الذي أحس به أن الرجل شخصية فذة في نطاق التفكير العلوي المنطلق في سماحة

---

(٥٧) معرفة الله والمكزون السنجاري ٢/٢٨٣ ، ٢٨٩ .
(٥٨) المصدر السابق ٢/١١٠ .

وشاعرية وإلهام وشفافية . لقد مرت بنا قبل قليل أبياته الجليلة في أبي بكر وعمر وعثمان واعتماده إياهم ـــ على علويته ـــ أئمة أجلة اهتدى بهديهم و استضاء بسناهم واقتفى سنتهم . وعلى رسله يمضي المكزون في سماحة خلقه وصفاء نفسه ، إنه لم يغضب من الذين ناصبوه العداء لحبه آل البيت بل يقابل بغضاءهم بحب يبديه تجاههم(٥٩) :

قَدْ بَدَتْ البغْضَاءُ منهم لَنَا كما لَهُمْ مِنَّا بدَا الحبُ
وَمَا لَنَا إلاَّ مُوالاتُنَا لآلِ طَهَ عِندَهُمْ ذَنْب

نزعة التصوف والزهد :

الرأي عندي أن هذه السماحة والشفافية قد حلتا في صدر المكزون كصدى للحياة الصوفية التي كان يحياها الرجل ، وكردة فعل للنهج المتسامي الذي إن لم يكن جزءا من سجيته فهو في الواقع يمثل حدود طريقته ، ولقد مر بنا أن الغلوية أقرب إلى الطريقة الصوفية بشفافيتها وأعماقها وألغازها وتطرفها ، ولعل ذلك يفسر لنا الشطحات البعيدة والشطط المخيف الذي كان يتورط فيه بعض أعلام المذهب .

إن الأمير المكزون يسجل على نفسه ويعبر عن جماعته بأنهم متصوفة زهاد لا يعتدون على الناس ، ولكن إذا ما اضطروا إلى الحرب فإنما يكون ذلك لإعلاء كلمة الله وليس لشيء آخر . لقد كان المكزون أميرا على سنجار ، وأرسل إليه العلويون الذين يسكنون جبال النصيرة يطلبون العون والحماية ضد الأكراد والإسماعيلية الذين يوقعون بهم الأذى والاضطهاد ، فسار إليهم مرتين حتى انتصف لأبناء مذهبه وهيأ لهم أسباب الأمان ، وفي تلك الأثناء حثه بعض أتباعه على القضاء على الإسماعيليين في مصياف ، فكان رده على هؤلاء الأتباع : « نحن جماعة معدودة من أهل الإيمان تميل إلى التصوف والزهد ، وما جئنا إلى هنا إلا

(٥٩) المكزون ٢/٣٣ .

لإعادة كلمة الله وإظهار معالم دينه ، فإن بغى الإسماعيليون فنحن بحيث يعرفون »[٦٠] .

إن للمكزون شعرا كثيرا يترجم عن حال جماعته وفلسفتها في التصوف والزهد ، إنه يتحدث عن التصوف ويعرّف به فيقول :

عِلْـــمُ الــــتَّصَوُّفِ ليْس يُدْ	رَكُ بالإشَارةِ والعِبَـــــارَةْ
إلاَّ لقـــــــــلبِ مخلصٍ	بالـــرُّوح مُلْـــقيها أمَــــارَهْ
فجلا اليقيـــنُ الظَّـــنَّ عَنْـــ	ـــهُ بِحَقِّـــهِ وجَـــلاَ غُبَـــارَهْ

ومن قصائد المكزون الغارقة في بحورَ الأجواء الصوفية من عشق وشوق وصدّ ووصال قوله ، عامدا إلى الرمز ، وهو في ذلك ترجمان صادق لأبناء مذهبه :

لِعَلْـــوَةَ دُونَ العاشقيـــنَ حِجَـــابُ	وبـــابٌ إليـــه بالسُّجُـــودِ أَنابُـــوا
وعَقْـــدٌ وثيـــقٌ لا يُحَـــلُّ وذِمَّـــةٌ	لها شاهـــدُ عدلٌ بها وكتـــابُ
فإنْ أنْكَـرَ العُـذَّالُ وجْـدِي بحُبِّهـــا	فمـــا ذاك إلا أَنْ حَضَرْتُ وغابُـــوا
عَرَفْتُ فَآثَـرْتُ الهوَى ، وبِجَهْلِهِـــمْ	بمعرفَتِـــي لي بالصَّبَابَـــةِ عَابُـــوا
وشاهدْتُ أوصافَ الكمالِ لوجْهِهَـا	ولـمْ يَثْنِنِـي عمَّا شَهِـدْتُ نِقـــاب
ولي ولها بين الظِّـــــلالِ تواصلٌ	بغير مِزَاجٍ والجسومُ تُرَابُ
وبـالخمسةِ الأكْـوانِ ما زلتُ سَالِكـاً	إلى كونها المائـــيِّ وهْـــوَ عُبَـــابُ
وفي كونها النُّـورِيِّ شاهـدْتُ نارَهَـا	بغيـرِ حجـــابٍ والمثـــالُ حِجَـــابُ
ومـــا حَجَبَتْنِـــي عنْ مَلالٍ وإنَّمـــا	لمعنـىً لأهْـلِ العِشْقِ فيـهِ جوابُ[٦١]

إنه شعر صوفي ناعم المعاني لم ينل من جملته بعض المعميات التي يمكن فهمها بالدربة والاجتهاد ، وديوان المكزون مليء بهذا اللون من الشعر الشفاف ، وإن لم يخل من بعض القصائد المجنحة بالشطحات الصوفية ذات المسحة العلوية الغالية . .

---

(٦٠) فصل هجرة المكزون الملحق بكتاب معرفة الله والمكزون السنجاري ٢٤٧/٢ .

(٦١) معرفة الله والمكزون السنجاري ٣٩/٢ (الديوان) .

وإذا كانت سمات التصوف في شعر المكزون متراوحة بين الاعتدال والشطط ، فإن قسمات الزهد فيه معتدلة كل الاعتدال ، فمذهبه واضح كل الوضوح في قوله :(٦٢)

ليسَ أُهدُ الفتى بتحريمِ حِل مِنْ نِكاحٍ ومَطْعَمٍ وشَرابِ
وارتباطٍ بالرُّبط أو باعتزالٍ فى جبالٍ ولا بِرَقْعِ ثياب
بل بقصدٍ فيما أُحل وزُهْدٍ فى حرامٍ ورغْبةٍ فى ثواب

والمكزون على تفلسفه وتصوفه وتزهده مرتبط بآل البيت غير منفصل عنهم ، ساهر على ذكرهم محتفل بذكراهم :(٦٣) .

إذَا عَصَمَ التمسُّكُ من ضلالٍ بأهْلِ البيْتِ أخْيارَ النَّبِىِّ
فما وَالَاهُمُ إلَّا رَشِيدٌ ولَا عادَاهُمُ غَيْرُ الْغَوِىِّ

ومع احتفاله بأهل البيت والتغنى بحبهم والتلذذ بذكرهم لا ينفصل فيلسوف العلويين وشاعرهم عن الحقيقة المحمدية ، إن محمداً هو رسول النور والهداية ، وهو بذاته وصفاته مجمع المحاسن ومنتهاها ، ونوره أول ما خلق الله سبحانه ولذلك فإن المكزون ينشد هائما(٦٤) .

كلّ المحاسنِ جزءُ حُسْنِ محمدٍ وإليْهِ مَرْجِعُهَا وعَنْهُ صُدُورُهَا
وسَنَاهُ لوْ لَمْ يَغْشَ أنْوارَ السَّما وَاتِ العُلا لمْ يَبْدُ فيها نُورُهَا
قَدُمَتْ مكارِمُهُ وَجَلَّ ثَنَاؤُه إذْ عَزَّ فى كُلِّ الْوُجُودِ نَظِيرُهَا

ومن بعد الحقيقة المحمدية ينطلق الشاعر المتبتل إلى الساحة الرحيبة ، ساحة الإسلام ممثلة فى شريعته ، مرددا هذا المعنى الجميل(٦٥) .

أُمِّى الشَّرِيعةُ والمقيمُ لها أبِى وبَنُو بَنِيهَا كُلُّهمْ إخْوانِى
أأُعِزُّ والدتى وأُلْكِرُ والدِى وإلى عِدَاىَ أفِرُّ مِنْ أعْوَانِى
وأفِرُّ مِنْ أُنْسى إلى وحْشِ الفَلَا إنْ كنتُ ذاكَ فلسْتُ بالإنْسَانِ

---

(٦٢) الديوان ٢/٣٥ من كتاب معرفة الله والمكزون السنجاري .
(٦٣) المصدر السابق ٢/١٠٢ .
(٦٤) المصدر السابق ٢/٢٤٥ .
(٦٥) المصدر السابق ٢/٢٢٦ .

الواقع أن المكزون من العمق والشفافية والرقة ورجاحة العقل بحيث لا يمل المرء صحبته .

الهبطة والتقمص :

وإذا كان لنا أن ننتقل خطوة أخرى مع الفكر العلوى فقد تكون هذه الخطوة حديثا سريعا عن فكرة الهبطة وعقيدة التقمص ، وقد احتلت الهبطة والتقمص مساحات غير قليلة من تفكيرهم .

وفكرة الهبطة وعقيدة التقمص ترتبط الواحدة منهما بالأخرى ارتباطا وثيقا ، فلقد كانت الأرواح بغير أجساد يوم الأظلة ، ثم هبطت إلى الأرض وألبست كل روح قميصا لا تلبث أن تنتقل منه حين يبلى إلى قميص آخر ، وهذا القميص هو الجسم البشرى ومن ثم فإن التقمص يكون قد بدأ بعد الهبطة ، إذ أن الروح لم تكن فى حاجة إلى هذا القميص قبل ذلك .

ويجرى ذكر الهبطة فى الكتب العلوية فى مناسبات عدة ، يجرى ذلك فى مقام تكليف الله سبحانه وتعالى للإنسان ، لقد كلف الله الإنسان ــ حسب فكر العلويين ــ مرتين : التكليف الأول جرى فى عالم الظل والشبح ، والتكليف الثانى جرى بعد الانهباط من دار القرار إلى دار الدوران ومقارعة الشيطان[٦٦] .

والمنتجب العانى «يتذكر ما كان له يوم الأظلة ، وما كان من تلبية وإنكار ، ولذلك يرافق فى الأرض من كانوا رفاقه فى السماء ، ويستعين بأكثرهم قربا من الحق فى النشأة الأولى ، وقربا من النبى فى النشأة الأخيرة»[٦٧] .

ويبدى الشيخ الحسين الخصيبى حزنا وحسرة لمناسبة الهبطة التى غيرت الحال من رتاع وانطلاق إلى سجن وقصاص[٦٨] :

---

(٦٦) المكزون ٢/٢٧١ ، ٢٧٢ .
(٦٧) المنتجب العاني ص ٤٩٨ .
(٦٨) المصدر السابق ص ٢٣٢ .

كَمْ قَدْ رَتَعْنَا فَوْقَ أفلاكِ العُلَا   فى ظِلِّ طُوبَى فه رضى رِضْوَانْ
حتّى هَبَطْنَا بالذُّنُوبِ إلى التى   صارتْ لنا سِجناً مِنَ الأسْجانِ

وأما المكزون فإنه يعطى الفكرة طابعا دراميا ، إنه قد أقنع نفسه بغير مراء بنشأتيه ـــ اللتين مر ذكرهما فى عالم الظل والشبح أولا ثم فى دار الدوران ثانيا حسبما ذكرنا قبل قليل ـــ ثم يجرى مناجاة مع ربه حول الهبطة وما صحبها من حرمان ، ويتساءل : هل من عودة إلى المنزلة الأولى .(٦٩)

والَّذِى مِنْهُ بهَ هامَ الْوَرَى   أثَراً عَيْناً بَدا فِى مُقْلَتَىّ
فَشَهِدْتُ النَّشْأَةَ الأولى بها   فَالتَقَى عَنّى الْمِرَا فى نَشْأَتَىّ
وتفَاوضْنَا حديثاً حَسَدَتْ   كلُّ أعْضَائِى عَلَيْه أُذُنَىّ
قُلْتُ : بَعْدَ القُرْبِ مَا أَبْعَدنِى   عَنْكَ ؟ قَالَ : الشّكُّ والردُّ عَلَىّ
قلتُ : هلْ عَوداً لأعْيَادِ الصّفَا ؟   قال : كىْ تقْضِى وَتقْضِى أجَلَىّ
قلتُ : فالتّوْبَةُ تمْحُو زَلّتِى   قالَ : للأوْبَةِ فِى الرُّجْعَى تَهَىّ

وأغرم شعراء القوم ومفكروهم بالحديث فى الهبطة وعنها نثرا وشعرا ، ولم يقف هذا الحديث عند الصفوة وحدهم ، بل تعداهم إلى بعض المشايخ المحدودى الثقافة الذين عاشوا فى القرن الماضى فأكثروا القول فيها ، ولكنه كان من الرداءة والركاكة بحيث نضنّ بالتمثيل له بعدما ذكرنا من أمثلة جيدة الكلمة بارعة الشعر .

ما إن هبطت الأرواح من عالم الظل وحلت على الأرض حتى اتخذت قمصانا من الأجساد ، ومن هنا جاء اصطلاح التقمص ، والعلويون يؤمنون بالتقمص ، والدروز يؤمنون أيضا بالتقمص ، وكذلك البوذيون يؤمنون به ، ولكن يبدو أن لكل طائفة فلسفتها الخاصة ، وفكرتها المستقلة حول عقيدة التقمص ، لقد ذكر لى أحد الأصدقاء الدروز أن عقيدة التقمص ترتبط من وجهة نظرهم بفكرة العدل الإلهى ، فإن العدالة الإلهية أرحم من أن تحاسب الإنسان على سلوك سوى أو

---

(٦٩) المكزون السنجاري ٣٧١/١ .

منحرف لمرة واحدة عاشها على الأرض ، وإنما يعيش الإنسان أدوارا عديدة متوالية تنتقل خلالها روحه من قميص إلى قميص ، ويكون حسابه فى النهاية على حصيلة ماقدم من خير أو مااقترف من آثام فى أدواره المختلفة ، هذا ما علل به صديق درزى عقيدة التقمص والأدوار ، ولكننى لم أجد من الإخوة العلويين من يبدى وجهة النظر العلوية فى هذا الشأن .

إن المكزون السنجارى يذكر التقمص بعبارة «قمص التأجيل» وهو يوردها مقتبسة من كتاب ذكره تحت عنوان «الصراط فى مسالك المؤمنين»(٧٠) .

وإما المنتجب العانى فإنه فى داليته الطويلة الحافلة بالكثير من العقائد والقضايا فى نطاق المائه بيت وستة التى جعلها حدود قصيدته قد عرض لقضية التقمص فى دورها من دورة الكون بعد الهبطة فيقول :(٧١) .

وأَخْرَجَنَا مِنْ عالَمِ الكَوْنِ والفَنَا ... نُرَدَّدُ في « الأَطْوَارِ » عَوْداً ومُبْتَدَا
وكَرَّرَ آياتِ الظُّهُورِ مُذكِّراً ... بما كانَ مِنْ إقْرارِنا سَاعَةَ النِّدَا
فَذُو العِلْمِ والإيمانِ زادَ تَيَقُّناً ... وذُو الجهلِ والإنكارِ زادَ تَمَرُّدا
وكل على قَدْرِ الأُصُولِ فَمِنْهُمُ ... خبيثٌ ومنهمْ طيِّبٌ طابَ مَوْلِدا
وهَا نَحْنُ في الأَجْسَادِ يَشْقَى أَخُو الشَّقا ... ويَسْعَدُ فيها مَنْ لهُ الله أَسْعَدَا
يبايِنُ هَذا فِعْلَ هَذَا تناقُضاً ... ويُصْلِحُ هذَا ما لهُ ذاكَ أَفْسَدَا
إلى أَنْ ترىَ منكَ اللطيفَ مفارقاً ... كثيفاً به قدْ كانَ أضْحى مُقَيَّدا
هناك يعودُ الجنسُ طالبَ جِنْسِه ... فمِنْ مُتْهِمٍ يَمْضِي مُنَافِيهِ مُنْجِدا

في الحياة الاجتماعية :

فإذا جاز لنا أن نتناول بعض جوانب الحياة الاجتماعية للعلويين فلا ينبغي إغفال الظروف التي حاطتهم خلال تاريخ طويل قسا عليهم قسوة ربما لم تتعرض لها جماعة

(٧٠) المكزون ٢٧٢/٢
(٧١) المنتجب ٢١٩

إسلامية من قبل ، ومع ذلك فمجتمعهم مجتمع ينحو إلى التطور والانفتاح ، ومن ثم فإن العادات والتقاليد التي رسختها السنون بدأت بدورها تتطور وتتغير ، ولا بأس من أن يلقى ببعضها إلى زوايا الفناء فالنسيان .

لقد ذكرنا أعياد العلويين وقلنا إنها جمعت الأعياد الإسلامية إلى الأعياد المسيحية إلى الأعياد الفارسية ، وذكرنا أيضا أن ظروفاً بعينها فرضت عليهم هذه الأعياد منذ فجر نشأة الفكرة العلوية ، ربما منذ وقت السيد الخصيبي ، وعاشت في نطاق الجماعة بأشكالها الثلاثة الإسلامية والفارسية والمسيحية منذ ذلك العهد البعيد ، وها هو المنتجب العاني ، أحد رواد الفكر الخصيبي يسجل ذلك في شعره بقوله : [٧٢]

فجماعةُ الأعْيادِ عندِي تسعةٌ ... وثلاثةٌ للمرءِ في حُسْبَانِهِ
منها ثمانيةٌ أتتْ عربيّةً ... نقلاً يقومُ الحقُّ في بُرْهَانِهِ
والفارسيةُ أربعٌ مَثْبُوتَةٌ ... لمحقّقٍ للنقْلِ في ديوَانِهِ :
يَأتِي بذكرِ المِهْرَجَانِ وإنهُ ... عيدٌ يقومُ الوقتُ في مِيزانِهِ
مِنْ بَعْدِهِ الميلادُ وهو مُشَرَّفٌ ... فَتَغَنَّمِ اللذاتِ في إحْسَانِهِ
فيه لنا ظهرَ المسيحُ مُخَلِّصاً ... ومبشّراً يدعُو إلى دَيَّانِهِ
يَتْلُوهُ آذارٌ وسابعُ عَشْرةٍ ... تَتَرَاكَضُ الأفرَاحُ في مَيْدَانِهِ
وقَرِينُهُ ميقَاتُ أنْسٍ جِدَّةٌ ... في الرابعِ الميمونِ من نِيسَانِهِ
يُضْحِي أخُو التَّحْقيقِ نَشْوَاناً بها ... وأُكِلَّةُ الزيتونِ مِنْ تِيجَانِهِ

ونلاحظ أن هذه الأعياد قد ساقها المنتجب في شعر تعليمي وليس في شعر وجداني ، أي أنها كانت جزءا أساسيا من الحياة الاجتماعية في نطاق المذهب العلوي آنذاك ، وفي يقيننا أن ما لا يتفق من هذه الأعياد مع طبيعة الجماعة وتقاليدها وعقائدها في طريقه إلى الزوال .

وأما الزواج عند العلويين فيجوز فيه التعدد ولكنهم لا يعترفون بزواج المتعة المعروف عند الإمامية ، ولا يجوز عندهم أن يتزوج العلوي غير مسلمة ، كما لا

---

(٧٢) المنتجب العاني ص ٥٠ .

يجوز أن تتزوج العلوية غير مسلم ، ولا يجوز عقد الزواج في الفترة بين العيدين ، كما أن من عادتهم — وليس ذلك من صلب العقيدة — أن يحسب رجال الدين أياماً سعيدة يعينوها للزواج ، فإذا كان يوم الزفاف من الأيام غير السعيدة أخروه إلى يوم مناسب ، هذا فضلاً عن طقوس أخرى وعادات بعضها محمود وبعضها الآخر مرذول تصاحب عادة مناسبات الزواج في كل البلاد .

وقد ظن في وقت ما أن المبادئ العامة عند العلويين تذهب إلى أن المرأة محرومة من حقوقها الدينية . كما أنها لا ترث إذا كان لها إخوة ذكور ، بل أن نظام المواريث كما جاء في الإسلام غير واجب عندهم ، بل الأخذ به سنة . ولكن قد تعطى المرأة في بعض الأحيان شيئاً من تركة أبيها على سبيل المساعدة .

ولم يكن يجوز للولد العلوي في الماضي أن يتعلم الدين قبل الخامسة عشرة من عمره ، وقد قيل أيضا إن العقيدة العلوية لا تسمح لغير العلوي أن يدخل فيها إلا بشروط قاسية واختبارات مريرة وبعد أن يطمأن إلى الشخص الذي يريد اعتناقها كل الاطمئنان ، لأن العقيدة سرية باطنية . وهم في ذلك أيضاً ، أي في غلق باب مذهبهم والحيلولة بين الناس وبين اعتناقه ، شبيهون إلى حد ما بالدروز .

ومن عادات العلويين أنهم لا يأكلون أنثى الحيوان التي تحيض ، كما أنهم يحرمون أكل الجمال والأرانب والغزلان ، وإن كان هذا التحريم لا يستند إلى أحكام دينية ، ولكن لعله لظروف اجتماعية مرت بهم ثم أصبحت العادة أمراً يرتفع إلى مقام التشريع الديني .

هذا ولا ينبغي — ونحن نطرق جوانب شتى تتصل بالعلويين — أن نغفل كفاحهم ضد الاستعمار ، ومشاركتهم مواطنيهم في النضال ، وبسالة رجالهم في القتال ، ولعل الشيخ صالح العلي بثورته وبسالته وفروسيته وتقاه ودينه وإنسانيته يعتبر من أوضح الأمثلة على ذلك ، لقد ثار الشيخ صالح العلي على الفرنسيين ثورة باسلة بين سنتي ١٩١٨ ، ١٩٢١ ، كانت ثورته مؤمنة مقدامة ، كان يصلي الفجر كل يوم ثم يتقدم برجاله ويقتحم أتون المعركة بحيث يكون أول من يهاجم وآخر من يتراجع ، وكانت له شمائل مع أسرى أعدائه تذكرنا بشمائل صلاح

الدين»، فقد كان يعالج الجرحى والمرضى من أسراه ثم يطلق سراحهم بعد أن يأخذ عليهم العهد ألا يعودوا إلى محاربته ، وكان يتكفّل بأجور السفر للغرباء منهم . وعلى الرغم من أن الشيخ صالح العلي لم ينتصر في النهاية فقد كانت نهاية ثورته لا تقل شرفا عن بدايتها . لقد حكم الفرنسيون على الشيخ بالإعدام غيابيا ، وظلوا عاما كاملا يسعون في القبض عليه دون طائل ، ثم اضطروا في النهاية إلى إصدار عفو عنه بتوقيع الجنرال جورو ، ومع ذلك رفض الشيخ أن يقبل العفو ، لأن العفو لا يكون إلا عن آثم وهو لم يكن كذلك ، ولما اشتد بطش الفرنسيين بالناس قتلا وتعذيبا وتنكيلا وهدما لبيوتهم وحرقا لحقولهم رأى الشيخ أن يستسلم حتى يكفي قومه مؤونة العذاب ، وعند لقائه مع الجنرال جورو جرى بين البطل الأعزل وبين المستعمر المسلح حوار طويل يرفع من جبين كل عربي ، وكان أول الحوار قول الشيخ صالح للجنرال :

والله لو بقي معي عشرة رجال مجهزين بالسلاح والعتاد لما تركت ساحة القتال(٧٣) .

وبعد فلقد فرقنا بين فئتين من العلويين ، فئة غالية ، وهذه لا تصلح لأن تكون عنوانا للجماعة العلوية ولا للمذهب العلوي ، وأما الفئة الأخرى فهي إمامية اثنا عشرية عقيدتها عقيدتهم وأحكامها أحكامهم .

وحتى تأخذ الحقائق مجراها السليم في نطاق العقيدة والأحكام فإني أختم هذا الفصل بإشارة إلى البيان الذي أصدرته هيئة من كبار العلماء العلويين في شبه مؤتمر انعقد في أوائل أكتوبر « تشرين الأول سنة١٩٧٢ » في اللاذقية ناقشوا فيه المشكلات التي تثار حول عقيدتهم ووضحوا فيه تفصيلات المذهب وحدوده وأحكامه ، وهم بحكم مكانتهم العلمية والدينية مهيأون لإصدار مثل هذا البيان .

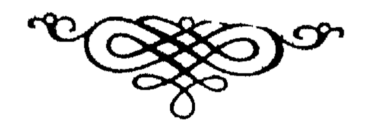
لقد استهلت الجماعة بيانها بالكلمة الطيبة التي تدعو إلى تأليف قلوب المسلمين ، والبعد عن تجسيم نقاط الخلاف التي رأت أنها تحدث عادة في الفروع

---

(٧٣) ثورة الشيخ صالح العلي . ص ٢٢٧ .

دون الأصول ، وأن أكثرها اقتضاه الاجتهاد والقول بالرأي ، وترى الجماعة أنها في بيانها هذا تنسجم مع ما سبق لها من مواقف مماثلة ، وأنها لا تضيف جديداً بصدوره ولكنه تأكيد لما هم عليه ، وتجديد للعهد مع الله ورسوله بشهادة أنْ لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، وحكمة الله بالغة من إلزام المؤمنين بتجديد العهد كل يوم عدداً من المرات .

ونحن من جانبنا نأمل أن توفق هذه الجماعة القليله العدد إلى انتشال الجمهرة العلوية من وهدة الغلو الشديد إلى ساحة الاعتدال ، ومن التطرف البعيد إلى الإيمان القريب .



القـاديـانيـة والأحـــمديـة

نشأتهـــا :

تنتسب هذه الفرقة إلى ميرزا غلام أحمد القادياني ، نسبة إلى قاديان إحدى مدن إقليم البنجاب ، وأسس غلام عقيدته المعروفة باسمه ، وسجل مذهبة رسمياً سنة ١٩٠٠ م ، وأنشأ مجلة تنطق باسمه وتعبر عن فكرة المذهب أسماها مجلة الأديان ، كما ألف مجموعة من الكتب شرح فيها أفكاره ، أشهرها براهين الأحمدية ، أنوار الإسلام ، نور الحق ، حقيقة الوحى ، تحفة الندوة ، شهادة القرآن ، تبليغ رسالت .

ولعل الذي دفعنا إلى أن نلحق هذا الفصل من كتابنا بفصول الشيعة ما لاحظناه من تشابه بين القاديانية وبين الغلاة من الشيعة ، لأن ميرزا غلام قد ادعى ضمن ادعاءاته الكثيرة أنه المهدي المنتظر ، وهو الأمر الذي ينفرد به الشيعة دون بقية العقائد الإسلامية ، ومن هنا كان ارتباطه بهم أقرب إلى نسبته لغيرهم من فرق الغلاة .

لقد نشأ المذهب القادياني على يد ميرزا سالف الذكر ، ووجد أنصارًا مازلوا يعيشون إلى اليوم في البنجاب وأفغانستان وإيران ، ولكن كثرت حولهم الآراء والاتهامات ، فهناك من يجعل منهم خُدَّاماً للاستعمار الإنجليزى ، وهناك من يجعل منهم مارقين خارجين على أصول الإسلام وتعاليمه ، وهناك من ينسبهم إلى الإسلام على أنهم فرقة صاحبة رأي متسم بالغلوّ والاندفاع .

وإن من نسبهم إلى خدمة الاستعمار وجد الكثير من الحجج التي أقامها ضدهم وإن كانت كلها ليست في مقام واحد من القوة . بل تتفاوت قوة وضعفاً .

من ذلك على سبيل المثال من جعلهم خلفاء لرسالة السيد أحمد خان الزعيم الهندي المتوفى سنة ١٨٩٨ م بعد حياة استمرت واحداً وثمانين عاماً .

والسيد أحمد خان اختلفت فيه الآراء أيضاً ، فالبعض يذهب إلى أنه خادم للاستعمار عميل للإنجليز محطم للشريعة مارق عن الإسلام ، والبعض الآخر يرى أنه مصلح عظيم أدى للشعب الإسلامي والدين الإسلامي في الهند أجل الخدمات .

فأما خصوم السيد أحمد خان فقد وجهوا إليه تهماً خطيرة أهمها أنه تقرب إلى الإنجليز وألف كتاباً أسماه « تبيان الكلام » ذكر فيه أن التوراة والإنجيل ليسا محرفين ، وظهر بمظهر الدهريين والطبيعيين ونادى بألا وجود إلا للطبيعة ، وأن جميع الأنبياء كانوا طبيعيين لا يعتقدون بالإله الذي جاءت به الشرائع ، وكتب تفسيراً للقرآن فحرف الكلم عن مواضعه وبدل ما أنزل الله وأنشأ جريدة باسم « تهذيب الأخلاق » لاينشر فيها إلا كل ضلال وكل ما يؤدي إلى فرقة المسلمين في الهند ، وكان ينادي بأن ما أصابته أوربا من تقدم لم يكن إلا نتيجة لنبذ الأديان والرجوع إلى مسالك الطبيعة ، وعندما فسر القرآن أنكر المعجزات وخوارق العادات ، وجعل النبوة غاية يمكن تحصيلها واكتسابها بالترويض النفسي ، وأضعف من قيمة فرضية الجهاد ، ونادى بالتعاون بين المسلمين والغربيين ، ودعا إلى ما أسماه « إنسانية الأديان » ولذلك فقد وجد الإنجليز فيه ضالتهم المنشودة بخاصة ، وأنه عارض الثورات التي قامت ضدهم وأوذي من جراء ذلك فأنشأوا له « كلية » ينشر فيها مذهبه هى كلية « عليكره »[٧٤] .

تلك آراء من خاصموا السيد أحمد خان وجعلوا منه صنيعة إنجليزية فرسم القادياني على منواله من بعده واتسع في جموحه إلى الصورة التي سنعرض لها بعد قليل .

---

(٧٤) انظر رأي جمال الدين الافغاني في مجموعة العروة الوثقى ص ٩٦ ، ٤٧٢ وانظر الفكر الإسلامي الحديث للدكتور محمد البهي ص ١٢ — ١٦ .

ولكن هناك من جعل من السيد أحمد خان زعيماً كبيراً من زعماء الإصلاح في القرن التاسع عشر ، فالمرحوم الدكتور أحمد أمين يفرد له فصلاً طويلاً في كتابه « زعماء الإصلاح » ويَجعله في الهند شبيهاً بالإمام محمد عبده في مصر ، ويذكر أن الإصلاح عند كليهما هو إصلاح العقلية بالتهذيب والتثقيف ، ويمضي الدكتور أحمد أمين فيقول : إن السيد أحمد خان وجد أن المسلمين في الهند لن يستطيعوا مقاومة الإنجليز في وقت فسد فيه أمراء المسلمين وتفرغوا لمنافعهم الشخصية ولو على حساب الأمة ففكر في أن المصلحة تقتضي مسالمة الإنجليز والتفاهم معهم وأخذ ما يستطيع أخذه منهم لنفع الشعب وتحميلهم مسئولية جهل الشعوب وفقر الأمم التي يحكمونها .

ويبرر الدكتور أحمد أمين عدم انقياد السيد أحمد خان للثورة الجماهيرية ضد الإنجليز فيقول : إن السيد أحمد كان هادئاً متزناً مخالفاً للرأي العام لأنه لم يؤمن بنتيجة الثورة ، بل إنها برغم ضحاياها من الطرفين ستمكن للإنجليز مرة ثانية ، وتجعل سيطرتهم أقوى مما كانت عليه ، ولذلك فقد ضحى بالكثير من ماله وتعرض لعداوة الجماهير .

وسار السيد أحمد خان في طريقه الإصلاحي فسعى إلى إنشاء كلية عليكرة وأشرف بنفسه على وضع برامجها ومناهجها وحرص على أن تقدم لأبناء المسلمين زاداً من الثقافة الغربية والشرقية في غير ما تعصب ولا جمود ، وأن تعني الكلية بحياة الطلبة الاجتماعية فتيسر لهم السكن والإقامة ، كما تعني بترقية العقل وتربية البدن وتهذيب الخلق .

ولما فرغ السيد أحمد خان من إنشاء الكلية أنشأ مجلة أسماها « تهذيب الأخلاق » عالج فيها المشاكل الدينية والاجتماعية في جرأة وصراحة ، ودعا إلى النظر إلى روح القرآن أكثر من النظر إلى حرفيته وإلى التفسير على ضوء العقل والضمير ، ثم تطرف فقال إن الوحي كان بالمعنى لا باللفظ .

ونادى أحمد خان بالإقبال على العلم والاغتراف من موارده ، وكان يأمل في أن ينشأ من أبناء المسلمين أشباه لابن سينا ولابن رشد من الفلاسفة ، وابن موسى

من المخترعين ، والطوسي من الفلكيين ، وحضَّ على مشاركة الأمم الغربية في معارفها ومزاحمتها بالمناكب والأقدام ، فإن ذلك يؤدي إلى نوع من التكافؤ ينتهي بالمسلمين إلى المدنية ثم إلى الاستقلال .

ويذكر الدكتور أحمد أمين سجلاً طويلاً حافلاً للسيد أحمد خان ، كما يذكر أنه لما أسلم الروح في الحادية والثمانين من العمر بكاه الأوربيون والهندوس والمسلمون على اختلاف عقائدهم وطبقاتهم ومذاهبهم السياسية والاجتماعية(٧٥) .

تلك هي الآراء المختلفة حول شخصية السيد أحمد خان اضطررنا إلى الإشارة إليها لأن هناك من جعل القاديانية امتداداً لمدرسته ، وإن كان يبدو لنا أن الأمر مختلف عن ذلك ، فالسيد أحمد خان وجد من يدافع عنه أما ميرزا غلام أحمد فإن تصريحاته الشخصية قد ربطته إلى السياسة الإنجليزية برباط متين .

العقيدة القاديانية :

مر بنا أن منشئ العقيدة القاديانية هو ميرزا غلام أحمد المتوفى سنة ١٩٠٨ م الذي اتصل بالإنجليز وهادنهم وربط نفسه بعجلتهم فقدموا له الكثير من المساعدات الأدبية والمادية التي جعلته يطفو بوضوح على مسرح الحياتين الدينية والسياسية في الهند في أول الأمر ، ثم امتدت أفكاره إلى الأقطار المجاورة للهند فيما بعد .

وقد بدأ أمره حينما أعلن أنه عثر على قبر المسيح في قرية اسمها سرنجار بمنطقة كشمير ، وزعم أن السيد المسيح قد هاجر إلى كشمير بعد تألب اليهود عليه ومحاولة قتله ، وظل في تلك المنطقة حتى بلغ من العمر مائة وعشرين عاماً ثم توفي في تلك البلدة ودفن في هذا القبر ، ولم يقدم السيد ميرزا أي دليل علمي أو ديني على زعمه هذا ولكنه وجد من يصدق به .

---

(٧٥) انظر أيضا فيض الخاطر ٣٠١/٥ ــ ٣١٧ .

بعد ذلك أعلن السيد ميرزا من نفسه إماماً مهدياً بعث ليجدد الإسلام ، واستعان بالحديث الشريف : « إن الله يبعث لهذه الأمة كل مائة سنة رجلاً يجدد لها أمر دينها » . ونادى بأنه رجل المائة الأخيرة أي المائة الرابعة عشرة .

ولو وقف الأمر بالسيد ميرزا عند هذا الحد لكان الأمر يحتمل النظر ، ولكنه مضى في الاندفاع نحو الطريق الذي رسمه لنفسه فادعى أن روح المسيح قد حلت فيه ، كما ادعى أن محمداً كذلك حل فيه ، فتجمعت فيه روح عيسى ومحمد(٧٦) ولذلك فهو نبي ، أي أنه بدأ بادعاء الإصلاح وتجديد الدين ثم ثنى بادعائه أنه المهدي المنتظر الذي ينادي به الشيعة ، ويبدو أنه شك في جدوى هذه الدعوى الثانية فقفز قفزة واسعة وادعى النبوة .

ولما كانت الرسالة المحمدية خاتمة الرسالات ومحمد خاتم النبيين فإن « النبي القادياني » قد بحث للمسألة عن مخرج فقال : إن محمداً خاتم النبيين بمعنى أنه صاحب الختم وليس لأحد أن يحظى بنعمة الوحي إلا بفيض خاتمه ، وأن أمته لن يغلق في وجهها باب المكالمة والمخاطبة الربانية إلى يوم القيامة ، فلا صاحب للختم الآن إلا هو ، وخاتمه وحده يكسب النبوة التي تستلزم أن يكون صاحبها من أمة محمد صلى الله عليه وسلم(٧٧) .

وهكذا نرى أن « القادياني » تخلص من حلول عيسى فيه ومن ادعائه « المهدية » وانتهى أو اكتفى بالنبوة في ظل الإسلام والتزام تشريعه دون أن يوحى إليه ، بل عليه أن يسهر على تنفيذ العقيدة وتجديدها شاهداً أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله .

ولما كانت النبوة تحتاج في إثباتها لبعض المعجزات فقد ذهب السيد « القادياني » إلى أن معجزاته تتلخص في أنه تنبأ بالكسوف والخسوف .

إن نشأة العقيدة القاديانية بهذا الأسلوب الذي مر ذكره تكفي لأن تكون هدفاً للهجوم الشديد والاستنكار من عامة المسلمين ، ولكن سبباً آخر زاد من

---

(٧٦) الفكر الإسلامي الحديث للبهي ص ١٨ .
(٧٧) المذاهب الإسلامية لأبي زهرة نقلا عن حقيقة الوحي ص ٢٧ .

ولما كانت النبوة تحتاج فى إثباتها لبعض المعجزات فقد ذهب « القادياني » إلى أن معجزاته تتلخص فى أنه تنبأ بالكسوف والخسوف .

إن نشأة العقيدة القاديانية بهذا الأسلوب الذي مر ذكره تكفي لأن تكون هدفاً للهجوم الشديد والاستنكار من عامة المسلمين ، ولكن سبباً آخر زاد من حدة هجوم الناس عليها ، ذلك هو استشعارهم أن هذه العقيدة تسير في ركاب الاستعمار وتعمل بوحى من الإنجليز ، فمن ذلك مثلا قول القادياني : « اعتقادي الذي دأبت على إبدائه للناس المرة تلو المرة هو أن الإسلام قائم على أصلين : الأول ، أن نطيع الله تبارك وتعالى ، والثاني ألا نبغي على الحكومات التى وطدت دعائم الأمن وصانت أرواحنا من اعتداء المعتدين ، وإن كانت هنا هي الحكومة البريطانية » . وهكذا يمضى ميرزا غلام فى تعطيل فريضة الجهاد شوطًا طويلاً على ما سوف نوضح تفصيلاً فيما بعد .

الأمر المهم فى هذا السياق هو أن القاديانية يعتقدون أن ميرزا غلام أحمد نبى مرسل مثل بقية أنبياء الله ، هذا فضلا عما تحمله هذه العقيدة من أحكام ومواقف تصطدم مع الإسلام ظاهرًا وباطناً ، فكل مَنْ لا يؤمن بنبوة ميرزا غلام وسيرته وفكره يكون كافرًا .

الأحمدية :

حين توفى ميرزا غلام أحمد القادياني سنة ١٩٠٨ انقسم تابعوه إلى فريقين : فريق يرى أنه نبى مرسل ، وأن الذين لا يعتقدون بذلك يكونون كافرين طبقا لما ذكرنا قبل قليل ، وكان على رأس هذا الفريق ولده نور الدين وميرزا بشير أحمد ، وهما الخليفتان الأول والثاني للقاديانية .

لقد خلف نور الدين عن طريق الانتخاب زعيم الفرقة غلام رضا ، فلما مات هذا الأخير خلفه بشير أحمد الذى بقى متحمسًا لنبوة القادياني ، وألف كتابًا أسماه حقيقة النبوة ذكر فيه أن القادياني أفضل من بعض أولى العزم من الرسل ، كما ذكر فى أحاديث أخرى أنه كان أفضل من كثير من الأنبياء ، ويمكن أن يكون أفضل من جميع الأنبياء ، ثم يستبد به الغلو والانحراف فيقول : إن ميرزا هو محمد صلى

الله عليه وسلم ، وهو مصداق قول القرآن الكريم « ومُبشرًا برسول يأتى من بعدى اسمه أحمد »[1] .

ومن الأخبار المأثورة أنه بعد سنوات من وفاة الميرزا غلام ذهب بعض أفراد الجماعة الأحمدية إلى بلدة قاديان وأقاموا مناظرة مع الجماعة المتعصبة لنبوة ميرزا غلام حول جوانب شخصيته ، فأكد القاديانية أنه كان نبيًّا ، بينما قال الأحمدية إنه كان وليًّا[2] .

وأما الفريق الثانى فيذكر أنه لا يعترف بنبوة ميرزا غلام ، ويرى فى ذلك خروجًا على الإسلام ، وإنما يرون فيه مصلحًا مُلْهَمًا ، ويحاولون تصحيح الآراء المنحرفة التى تَرَدَّى فيها زعيمهم ، وقد أطلق هؤلاء على أنفسهم اسم الأحمدية ، وهى التسمية التى كان غلام رضا نفسه قد أطلقها على جماعته نسبة إلى اسمه ، وهو ميرزا غلام رضا أحمد ، وكان على رأس هذا الفريق رجلان مشهوران هما خوجة كمال الدين ، ومولاى محمد على ، وإن كان هذا الأخير أوفر شهرة وأكثر التصاقًا بجماعته وأطول عمرًا ، وهو أكثر تأثيرًا فى جماعته التى عرفت بالأحمدية اللاهورية .

شخصيــة محمــد عــلى :

مثلما اختلفت آراء الباحثين حول شخصية أحمد خان الذى مرّ حديثه فى صدر هذا الفصل ، فكذلك انقسم الرأى حول شخصية محمد على – رأس الأحمدية – وفكره وعقيدته ، فبينما يذهب فريق إلى أنه أدى للإسلام خدمات جليلة فترجم معانى القرآن الكريم إلى اللغة الإنجليزية ، وألف كتابًا سماه « دين الإسلام » جعل كثيرين غيره من أبناء طائفته ينسجون على منواله ويكتبون عن الإسلام ، نرى فريقاً آخر من الدارسين يرى فيه عكس ذلك تماماً ، وهذا الفريق يقدم براهين كثيرة تشهد بانحراف محمد على وترديه فى فكره إلى غاية بعيدة . إنه ينكر جميع المعجزات التى وردت صريحة فى القرآن الكريم ليؤيد الله بها رسله

---

(١) الفكر الإسلامى الحديث ص ٢١ ، ٢٢ .

(٢) وثائق القضية التى رفعها الأحمدية على أهل السنة بجنوب إفريقية صفحة ١٠٢ .

وأنبياءه ، لقد فعل ذلك فى كتابه « بيان القرآن » وذهب إلى تأويلها تأويلات بعيدة عن إجماع علماء المسلمين فى كل زمان ، ويسلك فى ذلك مسلكاً يرفضه الإيمان السليم ويقول إنها مجازات وليست حقائق .

ففى قوله تعالى : « **وَإِذِ اسْتَسْقَى مُوسَى لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْناً قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرَبَهُمْ** »[٣] يقول محمد على : من معانى الضرب السير على الأرض ، يقال ضرب فى الأرض يعنى سار ، ومن معانى العصا الجماعة ، وعصوت يعنى جمعت ، ويقال عن الخوارج شقّوا عصا المسلمين ، ويقال إياك وقتيل العصا . ويمضى محمد على قائلا : والمراد أن الله أمر موسى بالمسير إلى جبل خاص والانتقال بجماعته إليه حيث وجد اثنتى عشرة عينًا ضربت عليها فصائل بنى إسرائيل خيامها وأخبيتها[٤] .

وفى قوله تعالى « **فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ** »[٥] .

يقول محمد على : لم يمسخوا قردة ولكن مسخت قلوبهم وجعلت أخلاقهم كأخلاقها[٦] .

وفى قوله تعالى : « **أنّى أخلق لكم من الطين كهيئة الطير فأنفخُ فيه فيكون طيرًا بإذن الله** »[٧] يقول محمد على : إن المراد بالطير هنا ، على سبيل الاستعارة ، رجال يستطيعون أن يرتفعوا من الأرض وما يتصل بها من أشياء وأخلاق ويطيروا إلى الله ، فإن الإنسان يستطيع بنفح النبى أن يتجرد من الأفكار البشرية السافلة ويخلق فى عالم الروح[٨] .

---

(٣) البقرة الآية ٦٠ .
(٤) بيان القرآن ١ / ٦٩ ، ٧٠ .
(٥) البقرة الآية ٦٥ .
(٦) بيان القرآن ١ / ٧٥ .
(٧) آل عمران الآية ٤٩ .
(٨) بيان القرآن ١ / ٣٢١

وفى قوله تعالى « **قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِى الْمَهْدِ صَبِيًّا** »(٩) يقول محمد على : لقد كان عيسى ابن ثلاثين سنة فى ذلك الحين ، فاعتذروا وقالوا ، لقد ولد ونشأ بأعيننا وبمرأى ومسمع منا ، وكل شَابٌّ صَغِيرٌ أمام الشيوخ الكبار ، لأنه ينشأ فى أحضانهم ويكبر أمامهم(١٠) .

وهكذا ، إن الذى يتابع عقيدة محمد على فى المعجزات التى جاءت فى القرآن الكريم يجد أنه ينكرها جميعاً . ينكر المعجزات التى أجراها الله سبحانه وتعالى على يد موسى عليه السلام فى ضرب الحجر بعصاه وانبثاق العيون الاثنتى عشرة ، وينكر انفلاق البحر أمامه حين أمر الله أن يضرب بعصاه البحر ، وينكر مسخ الذين أشركوا إلى قردة ، وينكر ولادة عيسى من عذراء بغير أب ، وينكر كلامه وهو صبى ، وينكر الجن ، وينكر تسخير الريح لسليمان ، وينكر الهدهد فى قصة سليمان ويقول إنه كان رئيس البوليس السرى فى حكومة سليمان ، وينكر أن الجن استمعوا إلى القرآن من الرسول صلى الله عليه وسلم فى قوله تعالى : « **وإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُون الْقُرآنَ** »(١١) فيقول إنهم طائفة من البشر استمعوا إلى الرسول صلى الله عليه وسلم فى الخفاء ، والاعتقاد نفسه يقول به فى قوله تعالى : « **قُلْ أُوحِىَ إِلَىَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآناً عَجَباً** »(١٢) .

إذن كان محمد على – رأس الأحمدية اللاهورية – ينكر المعجزات القرآنية إنكارًا كاملا ، هذا فضلا عن أنه كان يلقب ميرزا غلام تارة بالمسيح الموعود ، وتارة أخرى يلقبه بمسيح هذه الأمة .

عقـــيدة الأحـــدية :

سلف القول بأن القاديانية يعدّون ميرزا غلام أحمد نبيًّا مرسلاً وأنهم يُكَفِّرُونَ من لا يؤمن بذلك ، وأما الأحمدية فيذكرون أنهم يعتقدون أنه ولى وليس نبيًّا ،

(٩) مريم الآية ٢٩ .
(١٠) بيان القرآن ٢ / ١٢١٣ .
(١١) الأحقاف الآية ٢٩ .
(١٢) الجن الآية الأولى .

غير أن حقيقة الأمر تختلف عن ذلك كثيرًا ، لأن ميرزا غلام بالنسبة لهم أكثر من ولى ، وأن تحديده هو نفسه لشخصيته يضعها فى مرتبة الأنبياء حسبما أسلفنا القول فى صدر هذا الفصل ، وطبقاً لعناصر أربعة يختلف فيها الأحمدية مع جمهرة المسلمين اختلافاً بيّناً يمس العقيدة ويصدم أركانها ، وتتمثل هذه الخلافات فى : الوحى ، والنبوة ، وعيسى ، والجهاد .

الوحـــى والنبـــوة :

يذكر ميرزا غلام أن الله كان يوحى إليه ، ويذكر أن الوحى نوعان : وحى الله إلى الأنبياء ، ووحى الله إلى الأولياء ، والوحى إلى الأولياء شبيه بذلك الذى أوحاه الله سبحانه إلى أم موسى فى قوله تعالى : « **وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى الْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِى إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ** »[١٣] وكذلك أوحى الله إلى النحل فى قوله تعالى : « **وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِى مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتاً وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ** »[١٤] .

يقول ميرزا غلام عن نفسه : « هذا الخادم المتواضع لم يدّعِ يوما أنه نبى أو رسول بالمعنى الحقيقى ، إن الله دعانى نبيًّا بطريق الاستعارة » . ثم يعود فيقول مرة أخرى : « إن نبوتى هى انعكاس لنبوة محمد صلى الله عليه وسلم ، وإن الظل نفسه ليس له وجود مستقل ، ولا يمتلك أية كمية فى الحس الحقيقى ، ولكنه صورة للشخص الأصلى الذى يعرف من خلاله » . ثم يعود ميرزا غلام فيقرر أن « روح محمد قد حلت فيه فتجمعت فيه روح عيسى ومحمد »[١٥] .

وفى سنة ١٩٠٢ أى قبل وفاته بنحو خمس سنين كتب غلام رضا رسالته التى عنوانها : « تحفة الندوة » أقر فيها أنه المسيح ، وأن كلامه هو كلام الله كالقرآن والتوراة ، وأنه نبى ظلى وبروزى من أنبياء الله . لقد كتب ميرزا غلام ما نصه :

« فكما ذكرت مرارًا أن هذا الكلام الذى أتلوه هو كلام الله بطريق القطع

(١٣) القصص الآية ٧ .

(١٤) النحل الآية ٦٨ .

(١٥) حقيقة الوحى ص ٢٧ .

واليقين كالقرآن والتوراة ، وأنا نبى ظلى بروزى من أنبياء الله ، وتجب على كل مسلم إطاعتى فى الأمور الدينية ، ويجب على كل مسلم أن يؤمن بأنى المسيح الموعود ، وكل من بلغته دعوتى فلم يحكمنى ولم يؤمن بأنى المسيح الموعود ، ولم يؤمن بأن الوحى الذى ينزل علىّ من الله هو مسئول ومحاسب فى السماء وإن كان مسلمًا ، لأنه رفض الأمر الذى وجب عليه قبوله فى وقته . إننى لا أقتصر على قولى أنْ لو كنت كاذبا لهلكت ، بل أضيف إلى ذلك أننى صادق كموسى وعيسى وداود ومحمد صلى الله عليه وسلم . وقد أنزل الله لتصديقى آيات سماوية تربى على عشرة آلاف ، وقد شهد لى القرآن ، وشهد لى الرسول ، وقد عين الأنبياء زمان بعثتى ، وذلك هو عصرنا هذا ، والقرآن يعين عصرى ، وقد شهدت لى السماء والأرض ، وما من نبى إلا وقد شهد لى »[16] .

لم تكن هذه المرة الوحيدة التى ادعى فيها ميرزا غلام النبوة بهذه الصراحة فقد كرر ذلك فى أكثر من كتاب من كتبه ، حين ادعاها فى كتابه « حقيقة الوحى » حيث يقول : « لقد حُرِمَ الذين سبقونى من الأولياء والأبدال والأقطاب من هذه الأمة المحمدية النصيب الكبير من هذه النعمة (يريد بالنعمة الإلهامات والمكالمات الإلهية) ولذلك خصنى الله باسم النبى ، أما الآخرون فلا يستحقون هذا الاسم »[17] .

هكذا يدعى ميرزا غلام أحمد أنه يوحى إليه ، وهكذا أيضا يدعى أنه نبى ، شهد له القرآن وشهد له الرسول ، وشهد له الأنبياء ، ولكن أحدًا لا يعرف ماهية هذه الشهادة .

موقفهم من ولادة عيسى :

تنكر فرقة الأحمدية وعلى رأسها زعيمها محمد على أن عيسى عليه السلام قد ولد بغير أب ، ولكنهم يعتقدون أنه ولد عن طريق أب مخالفين بذلك الحقيقة الدينية فى الإسلام والمسيحية ، وإذا كان الأمر كذلك فإنه يتضمن الحكم على مريم العذراء أنها لم تكن عذراء .

---

(١٦) تحفة الندوة ص ٤ .

(١٧) حقيقة الوحى ص ٩

أما ميرزا غلام نفسه فإنه لم يقل ذلك صراحة ، ولكنه وافق أتباعه الذين كانوا يذهبون إلى الاعتقاد بأن عيسى ولد لأب . لقد وجه ميرزا غلام ذات مرة سؤالا إلى أحد أتباعه ، واسمه قمر الدين ، قائلا : هل تعتقد أن لعيسى أباً ؟؟ ولكن قمر الدين لاذ بالصمت حيناً ثم أجاب بالإيجاب ، يعني أن لعيسى أباً ، فقال له ميرزاً . إن حجتك قوية لاشك ، ولكن حتى يعطينى الله الفهم فإننى سأتبع وجهة نظر غالبية المسلمين .

والأحمدية يعدون الخلاف بين من يعتقدون فى ميلاد عيسى بغير أب ومن يعتقدون فى ميلاده عن طريق أب لايعدو أن يكون تبايناً فى وجهات النظر .

الحقيقة أن المسألة على النقيض من ذلك تماماً ، إذ أن أحدًا من جمهرة المسلمين لم يقل بذلك ، بل هو خلاف فى صلب العقيدة الإسلامية ، لأن القول بميلاد عيسى عليه السلام عن طريق أب يصطدم مع الآيات القرآنية الصريحة التى لا تحتمل لبساً ولا تأويلا ، هذا فضلا عن أنه يصم العذراء البتول بما لم يصمها به إلا اليهود .

وحول عودة المسيح إلى الدنيا يتخذ الأحمدية من ذلك موقف الإنكار ، بمعنى أنهم يعتقدون أن المسيح لن يعود إلى الدنيا ، وفى ذلك يقول زعيمهم ميرزا غلام : « الرسول هو الرسول فى كل وقت ، ولا يزاح عن الرسالة ، ولذلك فلا يمكن أن يعود عيسى إلى الدنيا بعد خاتم النبيين محمد » .

تعطيـــل الجهـــاد :

من المعروف أن ميرزا غلام قد عطل فريضة الجهاد ونادى بإلغائها ، وهذه القضية تشكل مأخذًا شديدًا على ميرزا غلام شخصيًا ، وعلى فرقتيه : من قاديانية وأحمدية .

كان ميرزا يحرم الجهاد حتى لا يتجه المسلمون فى الهند إلى محاربة المستعمرين الإنجليز وإخراجهم منها ، فقد كان ميرزا ينتمى إلى أسرة تدين بالولاء للإنجليز . ولقد ذهب ميرزا غلام فى الدعوة إلى مهادنة الإنجليز وتعطيل الجهاد خدمة لهم مذاهب شتى ، وله فى تحريم الجهاد ضدهم قصيدة طويلة مطلعها : « الحرب والقتال بسبب العقيدة محرم فى الوقت الحاضر » .

يرى ميرزا غلام « أن الإنجليز لم يمنعوا المسلمين من أداء شعائرهم ، ولذلك وجب استمرار السلام تحت حكمهم ، وضرورة عدم الحديث عن الثورة ضدهم »[١٨].

إن الأحمدية يعتبرون تعطيل فريضة الجهاد هدفاً يستميتون فى الدعوة إليه والدفاع عنه ، وهم يعمدون فى سبيل تحقيق هذا الهدف إلى تغيير حقائق السيرة النبوية الشريفة ، والتلاعب بأحداث التاريخ الإسلامى ، والأخذ بحكم دينى وإهمال حكم آخر ، إنهم يقولون – على سبيل المثال : « إن محمدًا لم يرفع السيف فى وجه الكفار برغم اضطهادهم إياه ، وإن الله لم يأذن للمسلمين بالجهاد إلا عندما وجه الكفار جيشهم إلى المدينة للقضاء على الإسلام »[١٩].

إن سوق القول على هذا النحو بادى الخطأ ، لأن القوم فرقوا بين فورية القتال وتأجيل القتال ، وجعلوا تأجيل القتال تعطيلاً للجهاد ، وهو فهم لم يدر بخلد أحد من علماء المسلمين .

ولقد اتخذ غلام رضا من المسلمين الهنود حين رفعوا السيف فى وجه الإنجليز سنة ١٨٧٥ موقفاً مثبطاً لعزائمهم ، معارضاً لقرارهم ، محذرًا مِنْ خَوْضِ غمار حرب الجهاد قائلاً : « لقد رأيتم نتيجة الجهاد الذى قمتم به سنة ١٨٧٥ . إنه ليس لدى مانع ضد عقيدتكم ، ولكنكم سوف تنهزمون ، يمكنكم أن تنظموا عصياناً مدنيا بنية الجهاد ، والله سوف يؤجركم على ذلك »[٢٠].

ويذهب الأحمدية إلى أن للجهاد بالسيف شروطًا أربعة تتلخص فى أن يكون الكفار هم البادئين بالقتال ، وأن يكون اضطهادهم للمسلمين قد وصل إلى أقصاه ، وأن يكون هدف الكفار تحطيم الإسلام ، وأن ينحصر هدف المسلمين فقط فى الدفاع عن أنفسهم .

---

(١٨) وثائق قضية الأحمدية ضد أهل السنة بجنوب إفريقية صفحة ٢٥٥ ــ ٢٥٧ .
(١٩) المصدر السابق صفحة ٣٢٩ .
(٢٠) المصدر نفسه صفحة ٢٣٤ .

وعلى الرغم من هذه الشروط الأربعة التى وضعها الأحمدية للجهاد بالسيف ، فإنهم لايلبثون أن يعودوا عنها قائلين : إن الجهاد بالحوار والبينة أعظم من الجهاد بالسيف[٢١] .

إن الأمر الذى يلفت نظر الدارسين لفرقة الأحمدية هو أن تعطيل زعيمهم ميرزا غلام رضا لفريضة الجهاد كان لحساب المستعمرين الإنجليز ، وكان الرجل من الصراحة والجرأة بحيث سجل هذا الهدف وأعلنه فى أكثر من كتاب ألفه ، وأكثر من مقال دبَّجه ، ففى رسالة كتبها إلى حاكم المقاطعة التى كان يعيش فيها — وكان ذلك سنة ١٨٩٨ ، وقد قارب الستين عن عمره — يقول ميرزا غلام : لقد ظللت منذ حداثه سنى وقد ناهزت اليوم الستين أجاهد بلسانى وقلمى لأصرف قلوب المسلمين إلى الإخلاص للحكومة الإنجليزية والنصح لها والعطف عليها ، وألغى فكرة الجهاد التى يدين بها بعض رجالهم ، والتى تمنعهم من الإخلاص لهذه الحكومة ؛ وأرى أن كتاباتى قد أثرت فى قلوب المسلمين وأحدثت تحولا فى مئات الآلاف منهم[٢٢] .

ويذهب ميرزا غلام فى دعوته لتعطيل الجهاد وخدمة المستعمرين الإنجليز إلى مدى أوسع حين يسطر فى ملحق كتابه « شهادة القرآن » هذا الرأى العجيب : « إن عقيدتى التى أكررها أن الإسلام جزآن : الجزء الأول إطاعة الله ، والجزء الثانى إطاعة الحكومة التى بسطت الأمن وآوتنا فى ظلها من الظالمين ، وهى الحكومة البريطانية » .

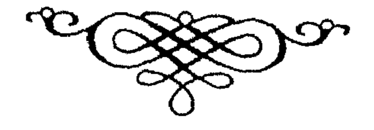
هكذا جعل الميرزا غلام إطاعة الحكومة الإنجليزية نصف عقيدة الإسلام . وفى حماس الدعوة إلى تعطيل فريضة الجهاد وغمرة الاندفاع إلى تعطيلها يقول ميرزا غلام : « مَنْ مِن الكفار يرفع سيفه اليوم بداعى الدين ؟ ومن يصد المسلمين عن دينهم ؟ ومن يحول بين المسلمين والأذان فى المساجد ؟ فإن ظهر المسيح فى مثل أيام الأمن هذه واستخف بهذا الأمن وأراد أن يرفع السيف بلا مبرر لأجل الدين ، فإنى أقسم بالله أن هذا الشخص كذاب مفتر وليس هو المسيح الصادق البتة » .

---

(٢١) المصدر نفسه صفحة ٢٣٤ — ٢٤٥ .
(٢٢) تبليغ رسالت ٧ / ١٠ .

تلك هى عقيدة الاحمدية ورئيسهم فى تعطيل الجهاد، ضربنا أمثلة قليلة لتوضيحها وهى موضوع طويل، وهناك أمثلة أخرى كثيرة أكثر إثارة وأبعد خطورة، ولكن هذا القليل – لاشك – قد أغنى عن الكثير.

وأما موقف ميرزا غلام القادياني نفسه من جمهرة المسلمين – من حيث عقيدتهم – فإنه يلخصه فى الفقرة التالية: « لاشك أننى أعتبر كل منحرف عن الحق والصدق ملوثاً، ولكننى لا أسمي الناطق بالشهادتين كافرًا ما لم يكفرنى هو ويكذبنى ويكتب الكفر على نفسه، وهكذا، ففى هذه المعاملة كان المخالفون أسبق منى دائماً، فهم كفرونى وأفتوا علىّ بذلك، فبتكفيرهم إياى يصبحون هم الكفار تبعاً لفتوى النبي صلى الله عليه وسلم، فأنا لا أكفرهم، بل هم الذين يدخلون أنفسهم فى فتوى رسول الله صلى الله عليه وسلم »[23].



(٢٣) ترياق القلوب ص ١٦٠.

القسم الرابع

المعتزلة



المعتزلة

نشأتهم :

المعتزلة واحدة من الفرق الإسلامية الكثيرة انتهجت وسائل عقائدية معينة اعتمدت فيها على العقل والجدل وتأثرت إلى حد كبير بالفلسفة اليونانية ، ولكن الذي يميز المعتزلة عن غيرهم من الفرق الإسلامية السابقة التي تعرضنا لها بالحديث أن المعتزلة لم تكن فرقة سياسية كما هو الأمر بالنسبة للشيعة والخوارج ، أو على الأقل لم تكن الفرقة في أول نشأتها ذات اتجاه سياسي معين أو نتيجة لعقيدة سياسية معينة ، بل كانت تعتمد في تأويلاتها على العقل ، ثم ما لبثت بمرور الزمن أن دخلت خضم السياسة وغرقت فيه إلى الأذقان حينما استعان أئمتها ببعض الخلفاء العباسيين كالمأمون والمعتصم اللذين اعتنقا مذهب الاعتزال وأنزلا بخصومه الكثير من الضرر والأذى والاسقام .

أما كيف نشأت فرقة المعتزلة ولماذا سميت بهذا الاسم فيقال : إن واصل بن عطاء رأس المعتزلة كان تلميذ للحسن البصري وكان حاضرا حلقته الدراسية في مسجد البصرة حين تقدم رجل يسأل الحسن عن رأي الدين في مرتكب الكبيرة

فأجابه بأنه منافق ، ولكن واصل بن عطاء ـــ وكان حاضرا ـــ اعترض على هذا الرأي ، وقال إن مرتكب الكبيرة ليس بمؤمن بإطلاق ، أي ليس مؤمناً مطلقا ولا كافرا مطلقا بل هو في منزلة بين المنزلتين ، ومن ثم انسلخ عن حلقة الدرس واعتزلها واتخذ لنفسه مجلسا في مكان آخر من المسجد بجوار أحد الأعمدة ومن حوله تلاميذه ومريدوه وأنصاره في الرأي ، ومنذ تلك الآونة نشأت فرقة المعتزلة وكان رأسها واصل بن عطاء الغزّال .

ورأي آخر يقول إن تسمية المعتزلة جاءت من تلك الصفة التي لازمت رجال الاعتزال من تقى وتقشف وبعد عن ملاذ الحياة ومفاتنها فهم بذلك معتزلون الدنيا زاهدون فيها .

ورأي ثالث يقول إنهم جعلوا مرتكب الكبيرة يعتزل المؤمنين والكافرين .

ورأي رابع يقول إن « الاعتزال » أقدم من ذلك ، فالمعتزلة هم الذين لم يشتركوا في حرب الجمل ، ولم يشهروا سيوفهم في موقعة صفين نتيجة لعقيدة معينة تتلخص في أنهم لم يستبينوا أي الفريقين كان صاحب حق وأيهما الباغي والتمسوا الآية الكريمة « **وَإنْ طائِفَتَانِ مِنَ المُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فأصْلِحُوا بَيْنَهُمَا ، فَإنْ بَغَتْ إحْدَاهُمَا عَلَى الأخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إلى أمْرِ الله** » ولما لم يعرفوا الباغي التزموا جانب الاعتزال[١] .

ورأي آخر يقول إن مذهب الاعتزال من حيث الفكرة والعقيدة اللتين قال بهما واصل وعمرو بن عبيد تنتهيان إلى عليٍّ بن أبي طالب ، لأن واصلا أخذ عن محمد بن علي بن أبي طالب وأن محمدا أخذ عن أبيه[٢] . ويؤيد هذا الرأى أن الزيدية وهم شيعة يوافقون المعتزلة في أصولهم كلها إلا مسألة الإمامة ، وأن زيدا كان تلميذا ، لواصل ، وأن الشيعة عموما يميلون في عقائدهم إلى الاعتزال ويتفقون مع المعتزلة في أكثر الأصول .

---

١) فجر الإسلام ٢٩١ .
(٢) منتز ١٠٦/١ .

تلك هي الظروف التي أحاطت بتسمية هذه الفرقة ، ومهما كان الأمر فإن مدرسة الاعتزال المتميزة لم تظهر وتتخذ طابعا مستقلا إلا على يد واصل بن عطاء وعمرو بن عبيد اللذين اعتزلا مجلس الحسن البصري لاختلافهما معه في موقف مرتكب الكبيرة .

وإذا كانت « المعتزلة » نشأت أول أمرها بعيدة عن دعاوى السياسة نائية عن خضمها ، فإنها لم تلبث أن خاضت لجتها في شطط وقوة حتى الأذقان ، فقد هاجموا « الخليفة » الأموي المتهتك الوليد بن يزيد ووقفوا بجانب يزيد بن الوليد بن عبد الملك حتى تولى الخلافة فقربهم واعتنق مذهبهم ، ولم يكن يزيد الوحيد من بني أمية الذي اعتنق الاعتزال ، بل نجد مروان بن محمد هو الآخر قد اعتنق الاعتزال ، ومعنى ذلك أن هذا المذهب قد خاض معركة السياسة ، وأنه كان قوة تشد من عضد الخلفاء ، أو على الأقل ظن الخلفاء فيه هذا الرأي ، لأننا لاحظنا أن خلفاء بني أمية اعتنقوا الاعتزال إبان مغيب دولتهم وقبيل سقوطها .

ولم يضعف الاعتزال لمجرد سقوط دولة بني أمية بل انزوى بعض الوقت بعيدا عن تيارات السياسة ، وناصبه بعض الخلفاء العباسيين العداء ، مثل هرون الرشيد ، فقد سمع هرون الرشيد أن بشرا المريسي يرى أن القرآن مخلوق فهدده بقتله بطريقة لم يقتل بها أحد من قبله ، ولكن لا يكاد يمضي وقت طويل حتى يسيطر المعتزلة على الخلفاء العباسيين كما سيطروا على بعض خلفاء بني أمية من قبل ، فنجد أن المأمون والمعتصم يأخذان بالاعتزال ويذهبان فيه مذاهب خطيرة ، ويسخرهما المعتزلة لنشر المذهب وإيقاع الأذى بخصومهم لدرجة إسالة الدماء كما سيأتي بعد قليل .

عقيدتهم :

قام المذهب المعتزلي على العقل والجدل وتتلخص عقائدهم الكبرى فيما يلي :

أولا : التوحيد ، وتبعا لذلك نفوا أن يكون لله صفات أزلية من علم وقدرة وحياة وسمع وبصر ، غير ذاته ، بل هو عالم قدير حي سميع بصير بذاته ، وقالوا إن وجود صفات قديمة إنما هو قول بالتعدد . وحاربوا الثنوية من الفرس القائلين

بنظريتي النور والظلمة ، وحملوا على المشبهة الذين ذهبوا إلى تجسيد الذات الإلهية .

ثانيا : العدل ، بمعنى أن الله سبحانه وتعالى عادل ، وأن عدله اقتضى أن يجعل الناس يخلقون أفعالهم ، أما هو فلا يخلق تلك الأفعال ، وما دام الإنسان يخلق أفعاله فهو مسئول عنها من خير وشر ، يثاب لفعله الخير ويعاقب لاقترافه الشر ، وهم بذلك يخالفون جمهور الجبرية الذين يقولون إن الإنسان مجبر لا مختار . والمعتزلة حينما يقولون إن الإنسان مسئول مختار محاسب على أفعاله إنما يقولون بذلك لكي يقيموا الحجة على عدل الله ، وأنه تبعا لذلك لا يمكن أن تصدر عنه معاصي الإنسان ، لأن الإنسان خالق لأفعاله ، وهم من أجل ذلك كانوا يطلقون على أنفسهم لقب « أهل العدل » ، ومسألة الاختيار التي نادى بها المعتزلة دفعت كثيرا من المسلمين إلى مناصبتهم العداء ، فنسبوا إليهم أنهم متأثرون فيها بمذهب زرادشت[3] وذهب البعض إلى تسميتهم « بمجوس الأمة الإسلامية » .

وهكذا يكون المعتزلة قد نادوا أولا بالتوحيد ودللوا عليه ، ثم قالوا بالعدل الإلهي الذي خاضوا من أجله تلك المعركة المريرة القديمة غير المعروفة الشطآن ، ونعني بها مسألة الجبر والاختيار التي ترجع جذورها إلى أيام الصحابة ، ولم يصل فريق إلى رأي قاطع فيها ، فقد تعددت فيها الأفكار والمناظرات ، ومال أكثر الأدباء إلى القول بالجبر والسخرية من مذهب المعتزلة ، فهذا بديع الزمان الهمذاني يجري سخريته منهم على لسان مجنون يوجه الحديث إلى أبي داود المتكلم فيقول : « شاهت الوجوه ، إن الخيرة لله لا لعبده ، والأمور بيد الله لا بيده ، وأنتم يا مجوس هذه الأمة تعيشون جبرا ، وتموتون صبرا ، وتساقون إلى المقدور قهرا ، ولو كنتم في بيوتكم لبرز الذين كتب عليهم القتل إلى مضاجعهم ، أفلا تنصفون وتقولون خالق الظلم ظالم ، أفلا تقولون خالق الهلك هالك[4] » ومن الطريف أن

---

(٣) متز ١/٣٥٤ .

(٤) المقامة المارستانية لبديع الزمان الهمداني ـــ راجع بديع الزمان للمؤلف ٢٥١ ، ٣٥٢ .

الخلاف في الجبر والاختيار انتقل إلى الشعراء ، فقد كان ذو الرمة قدريا وكان رؤبة جبريا ولهما في ذلك حوار طريف[٥] .

ثالثا : قولهم بالمنزلة بين المنزلتين ، وقد سلف الحديث عنها عند اعتزال واصل مجلس الحسن البصري ، والمعنى أن مرتكب الكبيرة في منزلة بين الكفر والإيمان وهي منزلة الفسق ، وهذا الحكم يعتبر وسطا بين الخوارج الذين كفروا صاحب الكبيرة والمرجئة الذين اعتبروه مؤمنا ، ويقول واصل إن صاحب الكبيرة إذا خرج من الدنيا على غير توبة فهو من أهل النار خالد فيها لكنه يخفف عنه العذاب .

رابعا : الوعد والوعيد ، ومقتضى ذلك أن الوعد والوعيد أمران نافذان ، فوعد الله بالثواب ووعيده بالعقاب ووعده بقبول توبة التائب أمور نافذة لا بد من الإيمان بها ، وبذلك لا يكون العفو بغير توبة ، كما أن فاعل الخير لا بد من أن ينال جزاءه من الثواب ، والمعتزلة في ذلك يردون على المرجئة الذين يقولون : لا تضر مع الإيمان معصية ، كما لا تنفع مع الكفر طاعة ، إذ لو صح ذلك لكان وعيد الله تعالى في مقام اللغو .

خامسا : الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وقد التزم المعتزلة أمر هذه الدعوة ، أي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، لأن الزندقة كانت قد انتشرت بين الناس انتشارا كبيرا وتعددت أوكارها وتفشت أخطارها ، فأصبح أمر العقيدة في خطر ، ولذلك حتم المعتزلة على المسلمين — حفاظا على العقيدة — أن يسارعوا إلى الأمر بالمعروف ، وهو هنا الدفاع عن العقيدة والمنافحة عنها ، والنهي عن المنكر ، أي محاربة الفساق والمجان والزنادقة ، ولذلك استحل المعتزلة الاستعانة بالخلفاء على القضاء على الزنادقة ، ثم استطال بهم الأمر حتى استغلوا الخلفاء في نشر مذهبهم بطرق شتى كانت القسوة والعذاب والقتل بعض وسائلها ، وما فتنة خلق القرآن إلا صورة من صور القسوة التي عمد إليها المعتزلة في إنزال الأذى بخصومهم .

---

(٥) فجر الإسلام ٣٠١ ، ٣٠٢ .

فتنة خلق القرآن :

رأى المعتزلة أن الاعتقاد بقدم القرآن إلى جانب قدم الله شرك ، فقد مر بنا أنهم لا يقولون بصفات الله ، فإذا كان الكلام صفة قديمة لله كان القرآن ــ باعتباره كلاما إلهيا ــ قديماً ، وهم ينكرون القدم إلا على الذات الإلهية وحدها .

المهم أن بطل فتنة خلق القرآن كان الخليفة المأمون الذي تأثر بالمعتزلة وقربهم ، لأنه كان تلميذاً لأبي الهذيل العلاف أحد رؤسائهم ، وتبنى المأمون هذه القضية ، يدفعه إليها دفعا رجال المعتزلة وفي مقدمتهم كبير قضاته أحمد بن أبي دؤاد .

ومن العجيب أن يكون الولد على نقيض أبيه ، فقد مر بنا أن بشرا المريسي نادى في عهد الرشيد بخلق القرآن فهدده الرشيد بالقتل ، الأمر الذي اضطره للاختفاء عشرين سنة ، وكان المريسى هذا تلميذا لأبي يوسف تلميذ أبي حنيفة ، وقد غضب عليه شيخه لمقالته تلك وطرده من مجلسه .

نادى المعتزلة أن الكلام مخلوق لله تعالى ، وأن القرآن كلام الله فهو بالتالي مخلوق ، وتبنى المأمون الفكرة وأصدر منشوراً صور فيه انزعاجه لما أصاب الدين وما حل بالإسلام من ضر « فتبين عظيم خطره وجليل ما يرجع في الدين وكفر وضرر ما ينال المسلمين بينهم من القول في القرآن ، وبخاصة اشتباهه على كثير منهم حتى حسن عندهم وتزين ألا يكون مخلوقا فيتعرضوا بذلك لدفع خلق الله ، الذي بان به عن خلقه وتفرد بجلالته من اتباع الأشياء كلها بحكمته وإنشائها بقدرته والتقدم عليها بأوليته التي لا يبلغ أولاها ولا يدرك مداها ، وكان كل شيء دونه خلقا من خلقه ، وحدثا هو المحدث له ، وإن كان القرآن ناطقا به ودالا عليه وقاطعا للاختلاف فيه ... وليس يرى أمير المؤمنين لمن قال هذه المقالة حظا في الدين ولا نصيبا من الإيمان واليقين[٦]» .

وبدأ المأمون بقضاته وعماله وجعل يطلب إليهم الإيمان بخلق القرآن ، ومن لا يؤمن بذلك يعزل فورا ، إذ أنه يصبح غير موثوق بدينه « حتى لا تنفذ أحكام الله تعالى إلا بشهادة أهل البصائر في الدين والإخلاص للتوحيد » .

---

(٦) الطبري ١١١٨/٣ .

كان المأمون في الرقة حينما أرسل إلى نائبه في بغداد إسحق بن إبراهيم أن يجمع القضاة والفقهاء والمحدثين والمفتين وينذرهم بالعقوبة إن لم يستجيبوا للقول بخلق القرآن ، فعمد بعضهم إلى المكر والحيلة والمراوغة في القول هربا مما ينتظرهم من الأذى ، وكان ممن وقع عليهم الأذى حتى إستشهد في قيده الفقيه محمد بن نوح ، وقد وقع على الإمام أحمد بن حنبل من جراء تلك الفتنة أذى شديد ، إذ سيق في القيود الحديد لكي يقابل المأمون في طرسوس ، ولكن المأمون مات قبل أن يصل الفقيه العظيم إليه ، وظن المسلمون أن الفتنة قد ماتت بموت المأمون ، غير أنه كان قد أوصى أخاه وخليفته المعتصم بالسير في طريق الفتنة فمزق جسم الإمام بالسياط .

وظل الأمر كذلك في عهد المعتصم ثم في عهد ابنه الواثق الذي قتل بعض معارضي فكرة خلق القرآن وصلبهم ، وظل الأمر على هذا الاضطهاد الذي وقع على فقهاء المسلمين حتى جاء المتوكل ففكّ قيود الفقهاء وانتصر لهم ضد المعتزلة فقويت بمساندته شوكة أهل السنة .

وهكذا انتهت هذه المحنة التي كانت ولا شك ضربا من الهوس المذهبي الذي لا يستحق كل هذا الغلوّ ، والذي لا يقدم ولا يؤخر في صلب عقيدة الإسلام .

وإذا ما نظرنا إلى أفكار المعتزلة بصفة عامة وجدناهم أكثر الفرق الإسلامية أخذا بلباب الفلسفة اليونانية والانتفاع بها ، فلا نكاد نقرأ لواحد من آئمتهم حتى نلمس ظلال الفلسفة اليونانية متمشية في جنبات أفكاره ، الفلسفة اليونانية بميتافيزيقيتها وجدلها ومنطقها ، ولعل هذه الفلسفة كانت أوضح ما تكون عند أبي الهذيل العلاف وإبراهيم النظام والجاحظ .

ولمحة أخرى نلمسها في أفكار المعتزلة وهي تلك الثقافات الكثيرة العريضة الملتمعة في مناهجهم ، فقد كانوا حينما يعمدون إلى الجدل يتسلحون بأسلحة مجادليهم وأعدائهم ، سواء أكان هؤلاء المجادلون من أبناء الفرق الإسلامية كالشيعة والخوارج أم من الزنادقة والدهرية أم من النصارى واليهود .

ومن الأمثلة الطريفة التي تصور لنا مقدرة المعتزلة على الجدل ذلك الحوار الذي جرى بين أبي الهذيل وتلميذه إبراهيم النظام المعتزلي من ناحية ، وصالح بن عبد القدوس السفسطائي الشاك المنكر لحقائق الأشياء من ناحية أخرى .

كان صالح بن عبد القدوس قد مات له ولد فمضى إليه أبو الهذيل العلاف يرافقه تلميذه النظام ، وكان صالح حزينا الحزن كله جزعا الجزع كله ، فقال له أبو الهذيل : لا أدري لجزعك وجها إذا كان الناس عندك كالزرع ، فقال صالح ، يا أبا الهذيل إنما جزعت عليه لأنه لم يقرأ كتاب الشكوك ، فقال أبو الهذيل وما كتاب الشكوك ؟ قال : كتاب وضعته من قرأه شك فيما كان حتى يتوهم أنه لم يكن ، وشك فيما لم يكن حتى يتوهم أنه كان ، فلما سمع النظام ــ وهو التلميذ الصغير ــ صالحا يقول هذا القول أردف موجها الحديث لصالح : فشك أنت في موت ابنك ، واعمل على أنه لم يمت وإن مات ، وشُكّ أيضاً في أنه قرأ هذا الكتاب وإن لم يكن قرأه[٧] .

أعلام المعتزلة :

أعلام مفكري المعتزلة كثيرون ، ولكل واحد منهم أفكاره المتميزة عن أفكار سالفيه أو معاصريه حتى أصبح لكل واحد من هؤلاء المفكرين مذهب ينسب إليه ، فهناك الواصلية نسبة إلى واصل بن عطاء رأس المعتزلة ، وقد مر علينا ما نادى به من أفكار حينما تحدثنا عن عقيدة المعتزلة ، وكان واصل ورعا تقيا مجتهداً واسع الأفق بليغاً في قوله متحكماً في معانيه وألفاظه ، حتى إنه كان يتحاشى أن يأتي بكلمة واحدة فيها حرف الراء . وكان ألثغ في الراء ــ ولو استمر يتحدث الساعات الطوال ، وقد توفي واصل سنة ١٣١ هـ

ومن أعلامهم أيضا ابو الهذيل حمدان بن الهذيل العلاف المتوفى سنة ٢٣٥ هـ وقد عمّر حوالي قرن من الزمان ، وله فرقة تسمى الهذيلية ، وقد عمد أبو الهذيل إلى الإيغال في فلسفة العقيدة والصفات متأثرا بمذاهب الفلاسفة اليونان وفلسفة

---

(٧) ابن خلكان ١/٤٨١ .

النصرانية ، قال : إن الباري تعالى عالم بعلم ، وعلمه ذاته ، قادر بقدرة وقدرته ذاته ، حي بحياة وحياته ذاته . ويفسّر الشهرستاني القضية بقوله : الفرق بين قول القائل : عالم بذاته لا بعلم ، وبين قول القائل : عالم بعلم هو ذاته أن الأول نفى الصفة ، والثاني إثبات ذات هو بعينه صفة ، أو إثبات صفة هي بعينها ذات[٨] .

ولما كان أبو الهذيل يجعل القدم لله وحده فإنه قال باختيار الإنسان في الدنيا فقط ، أما الآخرة فإنها ليست دار تكليف شرعي ، فليس فيها اختيار ، وكل شيء هناك راجع إلى إرادة الله وحده ، ولَّن يكون في الحياة الآخرة حركة ، لأن الحركة لما كان لها مبدأ فلا بد أن تنتهي بانتهاء العالم ، وتبعا لذلك فإن الناس في الآخرة يصيرون إلى سكون دائم خامد ، وتجتمع اللذات في ذلك السكون لأهل الجنة ، وتجتمع الآلام في ذلك السكون لأهل النار .

وتحدث أبو الهذيل عن الآجال فقال : إن الرجل إن لم يقتل مات في ذلك الوقت ولا يجوز أن يزاد العمر أو ينقص .

ويقول أبو الهذيل إنه يجب على الإنسان أن يعرف الله بالدليل من غير خاطر وإن قصر في المعرفة وجبت عليه العقوبة ، كما ينبغي عليه التمييز بين الحسن والقبيح ، فيقدم على الحسن من صدق وعدل ، ويعرض عن القبيح من كذب وظلم .

ومن فرق المعتزلة « النظَّامية » نسبة إلى أبي إسحاق إبراهيم بن سيار بن هانئ البلخي المشهور بالنَّظَّام المتوفى سنة ٢٢١ هـ والذي مر ذكره قبل قليل ، والنظام تلميذ لأبي الهذيل ، وكان عنيفا في تعبيره عما يعتقد ، لا يتوخى الصيغ المهذبة عندما يتحدث عن الذات الإلهية ، كقوله إن الله لا يقدر على فعل الشر ولا يقدر أن يفعل إلا ما يعلم أنه الأصلح لعباده ، وأنه لا يقدر على أن يخلق أكثر مما خلق بالفعل وإلا فما الذي يمنعه من أن يظهر كل ما عنده من القدرة على خلق أشياء جديدة .

ويقول النظَّام إن الله خلق الدنيا دفعة واحدة على ما هي عليه الآن من معادن ونبات وحيوان وإنسان ، ويتحدث عن إعجاز القرآن فيقول إنه معجز من حيث

(٨) ابن خلكان ٤٨١/١ .

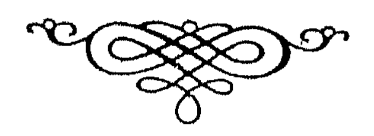
الإخبار عن الأمور الماضية والأمور الآتية . أما من حيث البلاغة فإن الله صرف العرب عن أن يأتوا بمثله ، ولو خلاهم لكانوا قادرين على أن يأتوا بمثله بلاغة وفصاحة ونظما .

وينكر النظّام الإجماع والقياس ، فمن الممكن — من وجهة نظره — أن يجتمع المسلمون على ضلال كإجماعهم على أن محمداً — دون سائر الرسل — قد أرسل إلى الناس كافة ، والله يرسل الرسل إلى الناس كافة .

وكان للنظّام اتجاه شيعي فقد كان يعترف بوجود الإمام المعصوم . والنظام برغم أنه لم يعمر طويلا ، وبرغم شطحاته وعنفه في جدله فإنه قد أسلم على يديه خلق كثيرون .

ومن أشهر فرق المعتزلة غير التي ذكرنا البِشْرِيَّة ، وهي فرقة بشر بن المعتمر ، وكان من أفضل علماء المعتزلة ، والجاحظية وهي فرقة أبي عثمان عمرو بن بحر بن محبوب المشهور بالجاحظ المتوفى سنة٢٥٥ هـ ، وكان أديبا أريبا بليغا كاتبا واسع المعرفة فكها ظريفا عاقلا ولذلك اتجهت فلسفته كلها نحو العلم والمعرفة ، فيقول إن المعرفة ضرورية طباع ، وجنح إلى الفلسفة شأنه في ذلك شأن أستاذه النظام وأستاذ أستاذه إبي الهذيل ، وكان يسخر من رجال الفقه والحديث ويقول عنهم إنهم عوام ، لأنهم يقلدون ولا يتكرون .

ومهما كان الأمر فبالرغم من جنوح المعتزلة في كثير من الأحيان إلى الشطح في التفكير والتعبير ، وبالرغم من انتهاج الشدة والاستعانة بالحكام والخلفاء في نشر مذهبهم فقد كانوا يمثلون المدرسة الإسلامية المفكرة ، فقد اتفقوا مع الشيعة في كثير من عقائدهم ، واتفقوا مع أهل السنة في العبادات وإن اختلفوا في مسائل علم الكلام ، كما أنهم دافعوا عن الإسلام دفاعا مجيدا ضد الزنادقة والمجسمة والرافضة وغيرهم ممن لو تركوا وشأنهم لكان خطرهم على المسلمين شديدا .



القسم الخامس

أهل السنة

- أهل الحديث والرأى
- أئمة أهل السنة
- المتصوفة



أهـــل السـنة

أهل الحديث والرأي :

في الوقت الذي ظهرت فيه بعض الأفكار الدينية المتطرفة أو الاعتقادات المذهبية الغالية يخوض معتنقوها في المسائل الاعتقادية بصور مختلفة ينسبونها إلى تحكيم العقل حينا أو إلى أصول مختلف على قيمتها حينا آخر ، كانت هناك طائفة من المسلمين ترجع الحكم في كل أمر إلى الكتاب العزيز وإلى السنة مكتوبة في شكل أحاديث أو مأثورة في شكل أفعال ، كما كانت هناك طائفة أخرى تقول بالرأى .

كان أمرا طبيعيا وقد اتسعت رقعة البلاد الإسلامية ودخل في الإسلام أشتات من الناس من مختلف الأجناس والثقافات أن تجدّ أمور وتستحدث مشاكل في البيئات الجديدة لم ترد بصددها نصوص صريحة فى الكتاب أو الحديث ، فقد صادف العرب المسلمون في تلك البلاد الجديدة مشاكل لم يألفوها من قبل ، وأمورا جديدة بالنسبة إلى بيئتهم ، وجرائم لم يسبق أن ارتكبت في بلادهم ، وأحوال زواج غير معروفة لديهم ، والشئون التى تتعلق بالدولة من إدارية ومالية

وتشريعية إلى غير ذلك من أمور لم يشر إليها القرآن ولم تعن بها الأحاديث النبوية . ولما كان الإسلام ضد الجمود في الأحكام فقد كان الصحابة أو الفقهاء يتناقشون في المسألة المستغلقة ثم يخرجون منها برأي يعتبر واجب التطبيق .

مثال ذلك في الميراث مسألة الجد مع الإخوة. وهل يرث الإخوة ، فالقرآن لم ينص على هذه المسألة وإنما نص على الأب مع الإخوة ، عرض الصحابة المسألة للرأي والمناقشة فقال أبو بكر وابن العباس بأنه يحجبهم كالأب . وذهب زيد بن ثابت وعمر وعليّ إلى إرثهم معه . وحين استشير زيد بن ثابت في مسألة أخرى هي حكم الميراث فيمن مات عن زوج وأبوين أفتى بأن تعطى الأم ثلث ما بقي ، فلما سأله ابن عباس : اين وجدت في كتاب الله ثلث ما بقي أجاب زيد : أقول برأيي وتقول برأيك . وحين رفع إلى عمر أمر زوجة قتلت زوجها بمساعدة خليلها تردد أول الأمر هل يقتل الكثير بالواحد ، ثم استشار علي بن طالب فأفتى بقتل الكثرة التي تشترك في قتل الواحد، فأخذ عمر برأيه وكتب إلى عامله أن اقتلهما ، فلو اشترك في قتله أهل صنعاء جميعا لقتلتهم[1] .

كانت تلك طبيعة عمر إذا استغلق عليه أمر وأعياه أن يجد فيه حلا من سنة رسول الله جمع رءوس الصحابة وخيارهم فاستشارهم ، فإن أجمعوا على شيء أخذ به ، يفعل عمر كل ذلك مع عميق فهمه للدين وجودة تفقهه فيه .

هذا النهج من التفكير الإسلامي سمي « بالرأي » وسمي العاملون به « أهل الرأي» وكان يعمل بالرأي في المدينة على أيام الصحابة ثم انتقل العمل به في العراق على أيام بني أمية وبني العباس ، وكان على رأس أهل الرأي الإمام أبو حنيفة النعمان مؤسس المذهب الحنفي ، فقد كان عظيم الحجة قوي البرهان واسع العقل والإدراك، إذا لم يجد من الكتاب والسنة ما يسعفه أعمل « الرأي » في حكمة وروية ونزاهة واتزان .

وكان يعارض هذا الفريق من المسلمين فريق آخر هم أهل الحديث ، وكانوا إذا سئلوا عن قضية من القضايا بحثوا عن إجابتها في الكتاب أو السنة ، فإن لم

---

(١) فجر الإسلام ٢٣٦ ٢٣٧ .

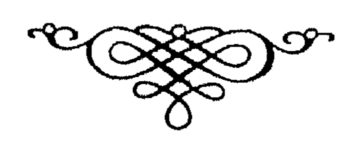
يجدوا امتنعوا عن الإجابة ، وكان من أنصار هذا الفريق بعض الصحابة كالزبير بن العوام ، وعبد اللهبن عمر ، وعبد الله بن عمرو بن العاص ، واستمرت مدرسة الحديث في التابعين وعلى رأسهم الشعبى .

لم يكن أمرا طبيعيا أن يطول الخلاف بين أهل الرأي وأهل الحديث ، فكل من الفريقين ممن حسن إسلامه ونأى عن الشهوات وابتعد عن الاندفاع والخطل ، ولذلك قامت مدرسة جديدة تقرب شقة الخلاف فجمعت بين الرأي والحديث ولا تعمل بالرأي إلا إذا انعدم النص ، ومن أعلام هذه المدرسة الإمامان الفاضلان مالك بن أنس ومحمد بن إدريس الشافعي .

ولما كانت هذه المدرسة الجديدة من المرونة وسعة الأفق بمكان ، فقد انتقلت نحو التيسير نقلة أوسع ، فنظمت فكرة الرأي وارتقت بها ، ووضعت له قواعد وشروطا وسمته « القياس » الذي كان لفكرته أجل الفوائد فيما يتعلق بمسائل التشريع الإسلامي .

على أن هناك من يرى أن القياس قد جرى على أوسع صورة عند أصحاب الرأي ، أي عند الحنفية ، ثم أخذ به بعدهم الشافعية .

ولكن ليس معنى ذلك أن نهمل «الإجماع» فإنه من أقوى أركان التشريع عند أهل السنة ، بل إنه سبق « القياس » من الناحية التاريخية ، وقد مر بنا قبل قليل أن عمر بن الخطاب كان إذا استبدت به الحيرة في مشكلة جمع الصحابة وعرضها عليهم فإذا أجمعوا على رأي أخذ به ، هذا هو أصل فكرة « الإجماع » التي أصبحت فيما بعد عنصرا أساسيا من عناصر التشريع والفقه الإسلامي .

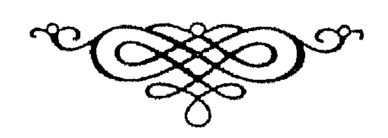


أئمة أهل السنة

يختلف مفهوم الإمامة عند أهل السنة عنه عند الشيعة اختلافا بيّناً ، فليست الإمامة السنيّة وظيفة أو وراثة ، كما أنها ليست حقاً دينيا أو شرفا موقوفا على أحد بعينه أو وصاية متلقاة ، كما أنه ليس للإمام أية حصانة أو عصمة أو انتماء أسري أو أيّة ميزة من تلك التي يتميز بها الإمام عند الشيعة على اختلاف مدارسها-اعتدالا وغلوّا ، وإنما الإمام عند السنة هو مجرد مسلم عرف بالاستقامة والعلم والعدل واتساع الأفق وامتداد الثقافة والتَّفَقُّه في الدين من كتاب وسنة ، وهو بعد ذلك قادر على حسن الاستنباط واستخراج روح المعاني وإصدار الأحكام ، ولا يشترط فيه بعد ذلك لون أو جنس أو نسب ، وليست له عصمة أو حصانة ، وإنما تفرض شخصيته على الناس احترامها وإجلالها ، كما تفرض آراؤه الدينية وأحكامه الفقهية على المسلمين اتباعها والعمل بها ، وبالتالي فإن الإمام عند أهل السنة لا يولد إماما وإنما يكتسب لقب الإمامة لاستقامته والإقبال على العلم والتفقه في الدين تفقها يجعله يسلس له القياد ويلين له ما استعظم من معضلاته ، واستمر من مشكلاته ، بل إن الواحد من الأئمة عند أهل السنة ربما لم يمنح هذا اللقب في حياته وإنما أطلقه عليه المؤمنون برأيه وفقهه من جماعات المسلمين بعد وفاته .

ومجمل القول في الإمام عند أهل السنة أنه أحد أبرز علماء المسلمين المعروفين بالاستقامة وكامل الإيمان ، المتفقهين في مسائل الدين ، القادرين على فهم روح الشريعة واستنباط أحكامها استنباطا سليما ، وإصدار الفتاوي فيما قد استغلق فهمه على المسلمين على أن يكون مستمدًّا براهينه من الكتاب والسنّة استمدادا مباشرا ومن سابق الإجماع على الرأي ، والقياس عليه قياسا سليماً دقيقا من غير ماتساهل أو تعصب .

وأئمة أهل السنة كثيرون ، منهم أبو حنيفة ومالك والشافعي وابن حنبل والأوزاعي والليث وابن حزم وغيرهم ، فكلٌّ من هؤلاء كان له اجتهاداته وأحكامه المستمدة من روح الشريعة ، وبالتالي فقد أصبح لكل منهم جمهور من المسلمين يفضل الأخذ بأحكام هذا أو ذاك ، حسب قربها من منطق الشريعة أو اتجاهها إلى التيسير ، فكان هناك الأحناف ، أي أصحاب أبي حنيفة ، والشافعية أو الشوافع أصحاب الشافعي ، والمالكية أصحاب مالك ، والحنابلة أصحاب ابن حنبل ، والأوزاعية أصحاب الأوزاعي ، والحزمية اصحاب ابن حزم وهكذا ، غير أنه لظروف سياسية حيناً واجتماعية حيناً آخر تبددت بعض المسميات على فضل في جوهرها ، وبقي البعض الآخر منها ، وهي الحنفية والمالكية والشافعية والحنابلة ، وقد يكون من المفيد النافع أن نلم بطرف من المعرفة عن كل إمام من هؤلاء وشيء من فقهه وفكره وآرائه وسيرته ، على أن الشيء الجدير بالمعرفة والاعتبار أنَّ هؤلاء الأئمة ممن ذكرنا لم يعرفوا في زمانهم أو بعده بعدّة قرون باسم أئمة أهل السنة ، وإنما كانوا أئمة لعامة المسلمين إلا من رأى غير رأيهم ، ذلك أن تسمية جمهرة المسلمين بأهل السنة تسمية متأخرة يرجع تاريخها إلى حوالي القرن السابع الهجري ، أي بعد عصر آخر الأئمة المشهورين ، وهو ابن حنبل بحوالي أربعة قرون .



الإمام أبو حنيفة
٨٠/١٥٠هـ

هو النعمان بن ثابت العالم الفاضل الفقيه المحقق ، ولد في الكوفة سنة ثمانين من الهجرة ، وبذلك يكون أول أئمة أهل السنة ميلادا ، توفر على طلب العلم منذ صباه ، وكان يقسم وقته بين التوفر على العلم والتكسب للرزق ، فكان يبيع الخزّ ، وربما كان ذلك سببا في تفتح عبقريته الفقهية في المعاملات فيما بعد ، ولم يلبث الإمام الجليل بعد أن اكتملت عنده أداة العلم أن جلس للتدريس والإفتاء .

علمه وتقواه :

وتجمع المصادر التي عرضت لحياة أبي حنيفة على أنه كان عالما عاملا زاهدا عابداً ورعاً تقياً كثير الخشوع دائم التضرع إلى الله ، فالإمام مالك يصفه وقد سئل عما إذا كان رآه : فيقول ، نعم رأيت رجلا لو كلمته في هذه السارية أن يجعلها ذهباً لقام بحجته[٢] . ويؤثر عن الإمام الشافعي قوله : الناس عيال على هؤلاء الخمسة ، من أراد التبحر في الفقه فهو عيال على أبي حنيفة ، ومن أراد أن يتبحر

---

(٢) وفيات الأعيان ٤٢/٥ .

في الشعر فهو عيال على زهير بن أبي سلمى ، ومن أراد أن يتبحر في المغازي فهو عيال على محمد بن إسحاق ، ومن أراد أن يتبحر في النحو فهو عيال على الكسائي ، ومن أراد أن يتبحر في التفسير فهو عيال على مقاتل بن سليمان ، وهذا يحيى بن معين يقول : القراءة عندى قراءة حمزة ، والفقه عندي فقه أبي حنيفة[٣] .

وإذن لقد توفرت صفة العلم الغزير عند أبي حنيفة ، على أن العلم وحده لا يكفي للانفتاح ، خاصة في الدراسات الدينية التى تحتاج إلى رابطة قوية بين العالم وخالقه ، ولقد كانت رابطة أبي حنيفة بربه موصولة ، فقد أثر أنه صلى صلاة الفجر بوضوء العشاء أربعين سنة ، ولما مات أبو حنيفة قام بغسله الحسن بن عمارة ، وما إن انتهى من ذلك حتى وجه الخطاب إلى الجسد المسجى أمامه قائلا : رحمك الله وغفر لك ، لم تفطر منذ ثلاثين سنة ، ولم تتوسد يمينك في الليل منذ أربعين سنة ، وقد أتعبت من بعدك وفضحت القراء .

رفضه تولي القضاء :

هكذا كان أبو حنيفة في ورعه ، وأخباره في ذلك كثيرة ، وهكذا كان أيضا في حياته وفرة تقى ووفرة علم ، والتقوى والعلم يورثان الانفتاح والفيض والإلهام ، ولذلك فقد رفض أبو حنيفة أن يلي القضاء خشية أن يظلم في حكم بدون قصد ، وقد تمثل الحديث الشريف : قاضيان في النار وقاض في الجنة ، وهو يُحمل على تولي القضاء حملا فيرفض رفضا يتعرض بسببه للضرّ والأذى ، فقد أراده يزيد بن عمر بن هبيرة على القضاء بالكوفة أيام مروان بن محمد فرفض ، فضربه مائة سوط ، وظل يضربه كل يوم عشرة أسواط لإقناعه ، فلما يئس منه خلى سبيله .

ولما قامت دولة بني العباس وبني المنصور مدينة بغداد استقدم أبا حنيفة من الكوفة حيث يقيم وعرض عليه أن يلي قضاء الرصافة ، فاعتذر أبو حنيفة عن ذلك

---

(٣) المصدر السابق ٤٢/٥ .

ولقي عسفا وعنتا ، ويجري بين أبي حنيفة والملك العباسي حوار في هذا السبيل يجمع إلى الطرافة الفطنة والذكاء والتقوى ، يقول الإمام للملك : اتق الله ، ولا ترع من أمانتك إلا من يخاف الله ، والله ما أنا مأمون الرضا ، فكيف أكون مأمون الغضب ؟ ولو اتجه الحكم عليك ، ثم تهددتني أن تغرقني في الفرات أو تلي الحكم لاخترت أن أغرق ، ولك حاشية تحتاج إلى من يكرمهم لك ، ولا أصلح لذلك . فيقول له المنصور : كذبت ، فيسرع أبو حنيفة وقد وجد المخرج قائلا : قد حكمت لى على نفسك ، كيف يحل لك أن تولي قاضيا على أمانتك وهو كذاب[٤] .

أبو حنيفة والبلاط العباسي

وكانت عشيرة الملك العباسى أبى جعفر المنصور من حجاب وقضاة يعكسون من تصرفاتهم إزاء أبى حنيفة صورة لمشاعر المنصور نحوه ، وكان المنصور يحس أن عواطف أبى حنيفة ليست معه . وإنما هى مع الحق ، هذا فضلا عن تسفيه الإمام لآراء الحاشية وتخطئتهم ، والأخبار فى ذلك كثيرة ولا تخلو من جدة وطرافة ، ثم هى فى نفس الوقت أحكام فقهية جادة صدرت فى مقام النقد تارة وفى مقام ردّ كيد مرة ثانية ، وفى مناسبة الإفلات من وقيعة مرة ثالثة وهكذا .

فهذا ابن أبى ليلى قاضى الكوفة من قبل المنصور ينظر فى أمر امرأة مجنونة سبّت رجلا وقالت له : يابن الزانيين ، فيقيم ابن أبى ليلى عليها الحد فى المسجد ، وهى قائمة ، ويحدها حدين حداً لقذف الأب وحدا لقذف الأم ، فلما بلغ ذلك أبا حنيفة ، قال : إن ابن أبى ليلى أخطأ فى ستة مواضع ، الموضع الأول أنه أقام الحد فى المسجد ، ولا تقام الحدود فى المساجد ، والموضع الثانى أنه ضربها قائمة والنساء يضربن قعودا ، والموضع الثالث أنه ضرب لأبيه حداً ولأمه حداً ، ولو أن رجلا قذف فى جماعة كان عليه حدٌّ واحد ، والموضع الرابع أنه جمع بين حدين ، ولا يجمع بين حدين حتى يخفّ أحدهما ، والموضع الخامس أن المجنونة ليس عليها حدّ ، والموضع السادس أنه حدّ للأبوين وهما غائبان ولم يحضرا فيدعيا[٥] . فأى

---

(٤) الوفيات ٥/٤٠ .
(٥) تاريخ بغداد ١٣/٣٥٦ .

براعة وأى دقة هذا النقد الفقهى الطريف الذى أوقع ابن أبى ليلى فى هذه المزمرة من الأخطاء الفريدة .

ويحاول الربيع حاجب المنصور أن يؤلب سيده على أبى حنيفة وأن يوقع به الأذى ، ويعد العدة لذلك بحيث يفاجئ أبا حنيفة بالأمر ، إن المنصور يدعو أبا حنيفة للحضور أمامه ، فيقول الربيع : يا أمير المؤمنين إن أبا حنيفة يخالف جدّك عبد الله بن عباس فى قوله : إذا حلف على اليمين ثم استثنى بعد ذلك بيوم أو يومين جاز الاستثناء ، ويقول أبو حنيفة : لا يجوز الاستثناء إلا متصلا باليمين ، فقال أبو حنيفة : ياأمير المؤمنين ، إن الربيع يزعم أنه ليس لك فى رقاب جندك بيعة ، قال : وكيف ، قال : يحلفون لك ثم يرجعون إلى منازلهم فيستثنون ، فتبطل أيمانهم ، فضحك المنصور وقال : ياربيع لا تعرض لأبى حنيفة ، فلما خرج قال الربيع : أردت أن تشيط بدمى ، فقال أبو حنيفة : لا ولكنك أردت أن تشيط بدمى فخلصتك وخلصت نفسى[٦] .

عطفه على جاره السكير :

وأبو حنيفة إلى جانب ذلك كله إنسان برّ يحب الناس ويرعى حقوقهم ، ويعطف على الجار ولو كان على إثم ، فقد كان لأبى حنيفة بالكوفة جار إسكاف يعمل نهاره أجمع حتى إذا جنّه الليل رجع إلى منزله وقد حمل لحماً فطبخه أو سمكة فشواها ثم لا يزال يشرب حتى إذا أخذ به الشراب مأخذه رفع عقيرته مغنيا :

أضاعونى وأىَّ فتى أضاعوا ليومِ كريهةٍ وسدادِ ثَغْرِ

فلا يزال يشرب ويردد هذا البيت حتى يأخذه النوم ، وكان أبو حنيفة يسمع جلبة الرجل السكران بينما هو مقبل على تهجده وسهره طوال الليل ، وذات ليلة افتقد أبو حنيفة صوت الرجل ، فسأل عنه فقيل إن العسس أخذوه منذ ليال

---

(٦) تاريخ بغداد ٣٦٥/١٣ .

وحبسوه ، فصلى أبو حنيفة صلاة الفجر ، وفى الغداة ركب بغلته واتجه إلى أمير الكوفة مستأذنا عليه ، فقال الأمير : ائذنوا له وأقبلوا به راكبا ولا تدعوه ينزل حتى يطأ البساط ببغلته ، ففعل ولم يزل الأمير يوسع له فى مجلسه سائلا عن حاجته ، فقال : لى جار إسكاف أخذه العسس منذ ليال ، يأمر الأمير بتخليته ، فاستجاب الأمير قائلا : نعم ، وكل من أخذ فى تلك الليلة إلى يومنا هذا ، فخلّى عنهم أجمعين ، فركب أبو حنيفة والإسكاف يمشى وراءه ، فلما نزل أبو حنيفة التفت إلى الإسكاف وقال : يافتى !! أضعناك ؟فقال الاسكاف : لا ، بل حفظت ورعيت ، جزاك الله خيرا عن حرمة الجوار ورعاية الحق ، وتاب الرجل ولم يعد إلى ما كان عليه[7] .

أبو حنيفة والرأى :

هذا هو أبو حنيفة العالم والإنسان ، وأما أبو حنيفة الإمام فإمامته مستمدة من علمه وإنسانيته ، ذلك أن اجتهاده جعله يصدر فتاواه نابعة من رأى مستمد من أحكام الكتاب والسنة ، وهو فى مصدره الثانى لا يأخذ إلا بالأحاديث الصحيحة الإسناد ولا يقيم للضعيفة منها وزنا فى مجال الأحكام ، كانت هناك فئتان من الفقهاء منهم أهل الحديث ومنهم أهل الرأى ، وكان أبو حنيفة زعيم المدرسة الثانية ، ولم يكن الخلاف بين الفئتين إلا خلاف من ينشد الحق ويبتغى الحفاظ على روح الشريعة ، وقد أخذ الفريقان فى آخر عصر أبى حنيفة يتقاربان ويلتقيان للدراسة أو الجدل والمناظرة[8] مستهدفين الخير لهذه الأمة .

لقد لخص أبو حنيفة منهج تفكيره الرائد فى قوله : «آخذ بكتاب الله تعالى فما لم أجد فبسنّة رسول الله ﷺ ، فما لم أجد فى كتاب الله ولا فى سنة رسول الله ﷺ أخذت بقول أصحابه ، آخذ بقول من شئت منهم ، وأدع من شئت منهم ، ولا أخرج من قولهم إلى قول غيرهم» .

---

(٧) ابن خلكان ٥/٤٣ .

(٨) أبو حنيفة للشيخ « أبو زهرة » ١٠٢ .

ويخرج أخونا الدكتور أحمد الشرباصى من الجزء الأخير من قول الإمام بأن تلك كانت الخطوة الأولى نحو الاجتهاد والرأى ، وإعطاء الرأى حقه فى المقارنة بين الأقوال ، واختيار بعضها دون البعض الآخر[٩] .

والإمام أبو حنيفة فى مجال «الرأى» يقول : «إذا جاء الحديث عن رسول الله ﷺ اخذنا به ، وإذا جاءنا عن الصحابة تخيرنا ، وإذا جاءنا عن التابعين زاحمناهم» .

فأبو حنيفة وقد ولد سنة ثمانين للهجرة وبلغ مرحلة من النضوج العلمى على نهاية القرن الأول يمكن اعتباره من جيل تابعى التابعين ، ومن ثم حُقّ له على النطاق الزمنى ، وعلى بساط العلم أن يتعامل مع الجيل السابق له بعامل الصيرفى الذى ينقد الجيد من الردىء والأصيل من الدخيل من الأحاديث والأخبار وأن يكون صاحب رأى فى هذا القبيل من القول أو ذاك ، وهو حين لايجد من وجهة نظره الشخصية أن أقوال التابعين غير ملزمة له ما لم تكن على سند من كتاب الله وسنة رسوله ، ولا قول من أقوال الصحابة حق له أن يُعمل فكره وعلمه وعدله ــ وقد سُلِّم له بالفكر والعلم والعدل ــ فى أن يجتهد وينتهى إلى الرأى الذى يراه صحيحا ويصلح لأن يعتمده المسلمون ويأخذوا به .

آراؤه السياسية :

واجتهاد أبى حنيفة وقد جعل الرأى أساسا له دفع به إلى أن يطبق أحكامه على الوضع السياسى العام للأمة الإسلامية طبقا لفهمه صلب الشريعة ونظام الحكم فى الإسلام الذى يتحتم أن يكون شوريا تسانده بيعة صحيحة ، عادلا بعيداً عن التحايل والاغتصاب أو سمات الملك ، ولذلك فهو يرى أن الخلافة الإسلامية الصحيحة انتهت بمقتل أمير المؤمنين على بن أبى طالب ، وتروى لأبى حنيفة فى ذلك آراء عديدة حول الذين خرجوا على علىّ ، من ذلك قوله : «ما قاتل أحد علياً إلا وعلىٌّ أولى بالحق منه»[١٠] وهذا الحكم ينسحب على حرب علىٍّ ومعاوية ، وبالتالى فهو يسلب الأمويين شرعية ما ادعوه من خلافة .

---

(٩) الأئمة الأربعة ص ٣٨ .

(١٠) أبو حنيفة عن المناقب للمكى ٢/٨٣ .

بل إن أبا حنيفة يصدر أحكاما صريحة في مختلف المعارك التى خاضها عليّ أو بالأحرى التي فرض عليه أن يخوصها ، مثل يوم الجمل وحرب طلحة والزبير ، فيقول عن يوم الجمل إن عليا سار فيه بالعدل « وهو أعلم المسلمين في قتال أهل البغي » ويقول عن الزبير وطلحة إن عليا « قاتل طلحة والزبير بعد أن بايعاه وخالفاه »[11] .

وأبو حنيفة يرى رأيا صريحا أن الحكم الأموي غير شرعي لعدم استناده على أصول الحكم في الإسلام ، ولذلك فإنه لم يتحرج في مناصرة زيد بن علي زين العابدين — رأس الزيدية — حينما خرج على ملك بني أمية متسلحاً ببيعة من جمهرة المسلمين ، وكان يرى نفس الرأي في ملك بني العباس ، وآية ذلك أنه كان يحض الناس على مناصرة إبراهيم الإمام وأخيه محمد النفس الزكية ابني عبد الله بن الحسن ، وذلك حين خرجا على المنصور العباسي ، وإن كان تأييد أبي حنيفة في الحالين لم يزد عن التأييد الأدبي ، فهو أمر طبيعي بالنسبة إليه ، لأن أبا حنيفة لم يكن رجل حرب حتى يخرج ويخوض المعارك بحد السيف في صف من رآهم على حق ، ولقد روي أن محمد بن عبد الله بن حسن قد ذُكر عند أبي حنيفة فكانت عيناه تدمعان[12] .

ولقد كان حب آل البيت ظاهرا في هذه الأحكام التي أصدرها أبو حنيفة بالنسبة لعليّ في خلافته ، وبالنسبة أيضا إلى زيد بن عليّ ، والأخوين محمد وإبراهيم ابني عبد الله بن الحسن ، الأمر الذي جعل الأستاذ الجليل الشيخ محمد أبا زهرة يعتقد أن أبا حنيفة كان فيه تشيع، وأنه بتشيعه أراد أن ينقي التشيع لآل البيت مما علق به من أدران مسخته وشوهته ، ولعل الأستاذ أبا زهرة قد استند في حكمه هذا — بالإضافة إلى مواقف أبي حنيفة السابقة — إلى أن أبا حنيفة قد روى عن محمد الباقر ، كما كان يروي عن جعفر الصادق ، وهما إمامان جليلان من أئمة الشيعة خاصة ، وأئمة المسلمين عامة .

والحق أنه إذا كانت أحكام أبي حنيفة قبل عليّ وخلافته وخلافه مع الأمويين ، ومع طلحة والزبير ومع السيدة عائشة ، وإذا كانت آراؤه في خروج زيد ومحمد

---

(١١) راجع المناقب للمكي ٨٣/٢ ، ٨٩ .
(١٢) أبو حنفة لأبي زهرة ص ١٦٣ عن مناقب المكي ٨٤/٢ والمناقب للبزازي ٧٢/٢ .

وإبراهيم ابني عبد الله تتفق مع احكام الشريعة الإسلامية فلا حاجة بنا إلى خلع صفة التشيع على الإمام الجليل ، لأن معنى ذلك أنه في أحكامه تلك قد صدر عن حب أو هوى ، وهو ما نجل أبا حنيفة عنه ، وإنما قد اعتمد الإمام الجليل في آرائه على أحكام الدين وضرورات التشريع وروح العقيدة ، وأما روايته عن الباقر والصادق فهو أمر طبيعي بالنسبة إلى أي مسلم منصف معتدل التفكير عادل الأحكام ، ذلك أن الباقر والصادق إمامان جليلان من أئمة المسلمين وليسا وقفاً على طائفة من المسلمين دون الأخرى ، وكما روى أبو حنيفة لهما فقد روى لغيرهما أيضا .

وإذا كان لأبي حنيفة أن يحب آل بيت الرسول وأن يكرمهم فهذا واجبه وواجب كل مسلم ، وأي مسلم ذلك الذي لا يحب آل البيت ويتعاطف معهم ويتعلق بهم ، وكيف يكون إسلام مسلم لا يحب آل بيت رسول الإسلام ؟

وإذن فتشيع أبي حنيفة لآل البيت إنما هو من قبيل العاطفة والحب والتقدير ، وهي مشاعر يكنها كل المسلمين لآل الرسول العظيم ، يستوي في ذلك السنة مع الشيعة ، ونحن جميعا من وجهة النظر تلك شيعة متحمسون ، ولكن لا علينا إذا اختلفنا مع المذهب نفسه في بعض أحكامه ، وإذا اختلفنا مع القوم في بعض عاداتهم المستحدثة التي هي في صلبها بعيدة عن التشيع كيوم عاشوراء وطقوسه ، وإبطال الجمعة والدفن في كربلاء ، والسجود على التربة وما إلى ذلك .

رأيه في الخلافة :

لأبي حنيفة في الخلافة رأي يتفق كل الاتفاق مع الشريعة الإسلامية نصا وروحا ، وهو في ذلك يختلف مع كل الفئات السياسية المعاصرة له والسابقة لزمانه من شيعة وخوارج وأموية وعباسية ، وقد استطاع الأستاذ أبو زهرة بتتبعه لحياة أبي حنيفة وآرائه أن ينتهي إلى رأي للإمام الأعظم يرى بمقتضاه أن الاختيار العام للخليفة يجب أن يكون سابقا على توليه السلطة[١٣] مستندا على رواية للربيع بن يونس حاجب المنصور تفيد أنه — أي المنصور — جمع الإمام مالكاً وابن أبي ذؤيب والإمام أبا حنيفة ليسألهم عن خلافته ، فقال مالك قولا لينا ، وقال ابن أبي ذؤيب قولاً صريحا شديدا

(١٣) أبو حنيفة لأبي زهرة ١٦٥

وقال أبو حنيفة ما نصّه : المسترشد لدينه يكون بعيد الغضب ، إن أنت نصحت لنفسك علمت أنك لم ترد الله باجتماعنا ، فإنما أردت أن تعلم العامة أننا نقول فيك ما تهواه مخافة منك ، ولقد وليت الخلافة وما اجتمع عليك اثنان من أهل الفتوى ، والخلافة تكون باجتماع المؤمنين ومشورتهم[١٤] .

هذا وإن فقه أبي حنيفة قد اهتم به تلاميذه فدونوه وبسطوه للناس في كتب شتى ومؤلفات عديدة ، وأما أبو حنيفة نفسه فلم يترك من المؤلفات إلا القليل ، وهي فيما يذكر المؤرخون : كتاب الفقه الأكبر وهو كتاب صغير ، وكتاب العالم والمتعلم ، ورسالة إلى عثمان بن مسلم البتي ، وكتاب في الرد على القدرية .

فقه أبي حنيفة :

وإذا كان لنا أن نلخص أهم الأصول التي يقام عليها مذهب أبي حنيفة فإننا نجده يعتمد بعد الكتاب والسنة على الرأي ، وقد سبق الحديث في شأنه . كما أنه يعتمد على القياس ، وهو أمر أثار عليه بعض الذين لم يرتفع مستوى تفكيرهم إلى القدر الذي يسمح لهم بهضم فكرة أبي حنيفة ، كما أثارهم عليه أخذه بالاستحسان والعرف الأمر الذي يستدل منه على أن الرجل الجليل كان واسع الأفق إلى الدرجة التي يتطلبها الإسلام من علماء المسلمين ، فالإسلام دين سمح ميسر فيه انطلاق مع الواقع وانسجام مع العقل وانفتاح على المستحدث ، وأبو حنيفة في كل آرائه وفتاواه لم يقدم شيئا على كتاب الله وسنة رسوله ، وكان يرد على خصومه قائلا : كذب والله وافترى علينا من يقول إننا نقدم القياس على النص ، وهل يحتاج بعد النص إلى قياس ؟ ويقول مستطردا : نحن لا نقيس إلا عند الضرورة الشديدة ، فإن لم نجد دليلا قسنا حينئذ مسكوتا عنه على منطوق به . ويقول أيضا في نفس القضية : إنا نأخذ أولا بكتاب الله ثم بالسنة ثم بأقضية الصحابة ، ونعمل بما يتفقون عليه ، فإن اختلفوا قسنا حكما على حكم بجامع العلة بين المسألتين حتى يتضح المعنى[١٥] .

---

(١٤) المناقب لابن البزازي ٢/١٦ .
(١٥) الأئمة الأربعة للشيخ الشرباصي ص ٤٣ .

ومع كل ذلك فإن العلماء بعد أبي حنيفة — وفي مقدمتهم الشافعي — قد ضبطوا القياس بما يتفق مع منهج أبي حنيفة تماما حين قالوا : إن القياس هو بيان حكم أمر غير منصوص على حكمه بأمر معلوم حكمه بالكتاب أو السنة أو الإجماع لاشتراكه معه في علة الحكم[١٦] ، ومن ثم فإن الشيخ أبا زهرة يرى أن اجتهاد أبي حنيفة ومسلكه في فهم الأحاديث مع البيئة التي عاش فيها من شأنه أن يجعله يكثر من القياس ويفرع الفروع على مقتضاه ، وأبو حنيفة بسعة أفقه لم يكن يقف به تفكيره عند بحث المسائل التي تقع أمامه بل يتسع في استنباطه ليشمل المسائل المتوقع حدوثها[١٧] .

ولقد فطن أبو يوسف — تلميذ أبي حنيفة — إلى قوة استنتاجه وقدرته على التقاط الأحكام من بطون الأحاديث حين قال : ما رأيت أحدا أعلم بتفسير الحديث ومواضع النكت التي فيه من الفقه من أبي حنيفة .

هذا وأبو حنيفة في صلب مذهبه يعمد إلى التيسير على المسلمين لا التعسير ، فالدين في روحه ومفهومه يسر لا عسر ، فهو ييسر على المسلمين في العبادات والمعاملات إلى الحد الذي يلفت النظر ، فإذا كان الحكم الشرعي لإزالة نجاسة الثوب بكل مائع طاهر يزيلها ، فإنه يجيز إزالةالنجاسة بماء الورد أو الخل على سبيل المثال ، وإذا تعذر على المرء تعيين القبلة للصلاة في ليلة مظلمة وتحرى مكانها بقدر استطاعته ثم صلى ، وفي الصباح تبين أنه أخطأ الاجتهاد فإن صلاته تكون صحيحة .

وفي مجال الزكاة يقف أبو حنيفة في صف الفقراء حين يوجب الزكاة على الحليّ من الذهب والفضة ، وفي تشجيع فرصة الزكاة مستهدفا التوسعة على الفقير ، بل إنه يقول إن الزكاة لا تجب على مدين يستغرق دينه كل ماله .

وأبو حنيفة يجعل للمرأة البالغة الرشيدة الحق في الزواج ممن تختار لا سلطان لأحد عليها من أب أو أخ ، ويجعل لها الحق في أن تباشر بنفسها عقد زواجها . كما

---

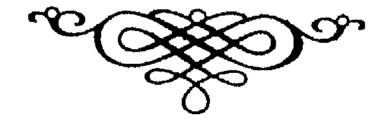
(١٦) أبو حنيفة لأبي زهرة ٣٢٤

(١٧) المصدر السابق نفس الصفحة

يرى أن الشهادة في عقد الزواج تجوز برجل وسيدتين ، ويرى أيضا أن الأب إذا زوج ابنته البالغة زواجا ترفضه وتكرهه لم يصح الزواج .

ومن طرائف أحكام أبي حنيفة ـــ وقد كان ذا عقلية اقتصادية ممتازة ـــ أنه جعل من حق ولي أمر المسلمين تمليك الأرض الموات لمن يحييها ويجعلها صالحة للزراعة ، كما أجاز شراء الثمر قبل أن ينضج ، كما أجاز الاتجار بمال اليتيم .

لا غرابة إذن وهذه شخصية أبي حنيفة وهذا مذهبه أن يشكل معتنقوه الأكثرية الساحقة من أهل السنة من المسلمين ، بقي أن نذكر أنه توفي سنة ١٥٠ في اليوم الذي ولد فيه الإمام الشافعي[١٨] فيكون قد انطوى علم من أعلام الإسلام لينتشر علم آخر من أعلام الإسلام ، ولكن بين وفاة هذا ونضوج ذاك ، ظهر فيما بين الفترتين إمام آخر جليل القدر رفيع الشأن هو الإمام مالك بن أنس .





الإمام مالك
٩٣ / ١٧٩هـ

إنه إمام دار الهجرة وشيخ المدينة وعالم أهل الحجاز أبو عبد الله مالك بن أنس ابن مالك بن أبي عامر الأصبحي الذي نشأ في رحاب العلم مخلصا له منقطعا إليه شأن كل إمام جليل ، يترهب في محراب العلم في أول حياته فلا يلبث العلم أن يشمله بفضله ويغمره ببركته ويكون له هادي طريق ونور بصيرة وواقياً من الزلل ودافعا إلى الخير ومخلدا على الزمان .

ومن الطريف أن مالكا قد رأى لنفسه رأيا في مستهل حياته لو أنه قام بتنفيذه لحرم العلم والدين شيخاً من شيوخه وإماماً من أئمته ، ذلك أنه قد راق له في باكر صباه أن يشتغل بالغناء ، ولعله قد أنس في نفسه صوتا رخيما وأداء جذابا ، ولكن أمه وكانت سيدة فاضلة سارعت إلى تقبيح الفكرة لديه موهمة إياه أنه قبيح المنظر والناس لا يقبلون سماع المغني إذا لم يكن جميل المحيا وضيء القسمات ، ونصحته بالإقبال على الفقه فأذعن لرأيها ، وأقبل على الفقه والحديث ذلك الإقبال الذي هيأ منه إماما جليلا من أئمة الإسلام ، ونحن نتساءل الآن عن الموقف الذي كان يتخذه مالك فيما لو نظر في المرآة ووجد أن أمه لم تكن على حق فيما ذهبت إليه من أن ابنها كان قبيح الوجه ، ذلك أن مالكا كان جميل المحيا مكتمل البنية أبيض

اللون إلى شقرة ، وظلت هذه السمات معه فكسته بالإضافة إلى حسن هندامه في الكبر هيبة ووقارا قلما توفر إلا عند القلائل من عظماء التاريخ ، فهذا سعيد بن هند الأندلسي يدخل على الإمام مالك فتأخذه هيبته فيقول : ما هبت أحدا هيبتي عبد الرحمن بن معاوية ــ يقصد عبد الرحمن الداخل ــ فدخلت على مالك فهبته هيبة شديدة صغرت معها هيبة ابن معاوية . وحتى حكومة المدينة ممثلة في واليها كانت تهابه وتحترمه ، والإمام الشافعي نفسه يقول : ما هبت أحدا قط هيبتي من مالك بن أنس .

على أن الهيبة التي جاءت مالكا كانت هيبة العلم ووقاره ، فكم من أنيق جميل المحيا لا يزن قدره عند الله والناس جناح بعوضة ، فلولا العلم والتقى اللذان خلعا على مالك رونقهما ما دخلت هيبته في قلوب الناس فضلا عن الحكام . إن الإمام الشافعي يقص قصة مقدمه صغيرا إلى المدينة مع خطاب توصية إلى واليها من والي مكة لكي يصله بمالك فيقول[19] : « دخلت إلى والي مكة وأخذت كتابه إلى والي المدينة وإلى مالك بن أنس ، فقدمت المدينة فأبلغت الكتاب إلى الوالي ، فلما قرأه قال : يا فتى ، إن مشيي من جوف المدينة إلى جوف مكة حافيا أهون عليّ من المشي إلى باب مالك بن أنس ، فلست أرى الذل حتى أقف بابه ، فقلت : أصلح الله الأمير ، إن رأى الأمير يوجه إليه حتى يحضر ، فقال : هيهات ، ليت أني إذا ركبت وأنا ومن معي وأصابنا من تراب العقيق نلنا حاجتنا ، فواعدته العصر وركبنا جميعاً ، فوالله لكان كما قال ، أصابنا من تراب العقيق ، فتقدم رجل فقرع الباب ، فخرجت إلينا جارية سوداء ، فقال لها الأمير : قولي لمولاك إني بالباب ، فدخلت فأبطأت ، ثم خرجت فقالت : إن مولاي يقرئك السلام ويقول : إن كانت لديك مسألة فارفعها في رقعة يخرج إليك الجواب ، وإن كان للحديث فقد عرفت يوم المجلس فانصرف ، فقال لها : قولي له إن معي كتاب والي مكة إليه في حاجة مهمة . دخلت وخرجت وفي يدها كرسي فوضعته ثم إذا أنا بمالك قد خرج وعليه المهابة والوقار ، وهو شيخ طويل ، فجلس وهو متطلس ، فرفع إليه الوالي الكتاب ، فبلغ إلى هذا ــ أي إلى هذا المواطن من خطاب التوصية ــ » إن

---

(١٩) معجم الأدباء ١٧/٢٨٥ .

هذا رجل من أمره وحاله فتحدثه ، وتفعل وتصنع » فرمى بالكتاب من يده ثم قال : سبحان الله ، أو صار علم رسول الله ﷺ يؤخذ بالوسائل ؟ فرأيت الوالي قد تهيبه أن يكلمه ، فتقدمت إليه وقلت : أصلحك الله إني رجل مطلبي ، ومن حالي وقصتي ، فلما سمع كلامي نظر إليّ ساعة ، وكان لمالك فراسة ، فقال : ما اسمك ؟ قلت : محمد ، فقال لي : يا محمد ، اتق الله واجتنب المعاصي فإنه سيكون لك شأن من الشأن .

هذا هو مالك بن أنس ذو الهيبة التي جعلت الحكام يقفون على بابه فلا يؤذن لهم بالدخول عليه إلا بمشقة وربما بشيء من المهانة ، إنه سلطان العلم ، فللعلم هيبة ، وللعلماء إجلال واحترام في نفوس الكبار قبل الصغار طالما حفظوا للعلم مقامة ، وحفظوا لأنفسهم أقدارهم وقد فعل مالك ذلك ، حافظ على العلم فحافظ العلم عليه ، ومنحه الحصانة التي حاول أن يتعداها أحد كبار بني العباس فكاد مُلك بني العباس أن يتزلزل تحت أقدامهم ، لولا أن الملك أبا جعفر المنصور قد اعتذر لمالك بنفسه على ما سوف نبين بعد قليل ، فما هي خطوات مالك في سبيل العلم .

مالك يتعلم ويعلم :

لقد كان مالك يتمتع بذكراه حافظة لاقطة ، بحيث يسمع الثلاثين من أحاديث رسول الله ﷺ فيحفظها جميعاً ، هذه الذاكرة التي أسعفته بحفظ كتاب الله في سن مبكرة كل الإبكار .

لقد تتلمذ مالك على عدد كبير من أعلام عصره فى المدينة مثل نافع بن أبي نعيم والزهري ونافع مولي عبد الله بن عمر[٢٠] .

كما تردد مالك أيضاً على ربيعة بن عبد الرحمن المعروف باسم ربيعة الرأي ، ومن الطريف أن أمه ، تلك المرأة الفاضلة التي حولت وجهته من الغناء إلى الفقه

---

(٢٠) الوفيات ٢٨٤/٣ .

كانت تلبسه أحسن الثياب وتعممه ثم تقول له اذهب إلى ربيعة فتعلم علمه قبل أدبه[٢١] .

وفي الوقت الذي كان يتردد فيه مالك على عدد من علماء عصره يجلس إليهم وينهل من علمهم ، كان يؤمن بالتفرغ إلى الجلوس إلى عالم كبير لأطول وقت ممكن ، فقد ذكر أنه انقطع إلى ابن هرمز سبع سنين كاملة لم يخلطه بغيره ، وكثيراً ما كان يجلس على بابه ساعات طويلة حتى يجد من وقت أستاذه فراغاً يسمح له بالجلوس إليه .

ويصيب مالك علماً كثيراً ويصبح أستاذاً لكبار الأئمة الذين عاصروه مثل الأوزاعي ، أو جاءوا بعده بقليل مثل الشافعي ويحيى بن سعيد ، بل إن بعض شيوخه من العلماء الكبار مثل يحيى الأنصاري ومحمد بن مسلم الزهري ونافع قد جلسوا إليه وترددوا على ندوته العلمية وسمعوا منه حديث رسول الله ، وتزداد ثقة العلماء بعلم مالك فينادي المنادي بالمدينة المنورة : ألا لا يفتي الناس إلا مالك ابن أنس وابن أبي ذئب[٢٢] ، وفي رأي أن الذي كان يأمر بذلك هو المنصور العباسي .

وكان الإمام يضع نفسه في مكانها الصحيح من الناحية العلمية فيقول : لا خير فيمن يرى نفسه في حالة لا يراه الناس أهلا لها ، ثم يقول في مناسبة جلوسه للإفتاء : ليس كل من أَحَبَّ أن يجلس في المسجد للحديث والفتيا جلس حتى يشاور فيه أهل الصلاح والفضل والجهة من المسجد ، فإن رأوه لذلك أهلا جلس ، وما جلست حتى شهد لي سبعون شيخاً من أهل العلم أني موضع لذلك[٢٣] .

---

(٢١) ترتيب المدارك للقاضي عياض ص ١١٥/١ .

(٢٢) الوفيات ٢٨٤/٣ ، وابن أبي ذئب هو أحد العلماء الكبار من تابعي التابعين واسمه أبو الحارث محمد بن عبد الرحمن بن المغيرة وكان يسمى فقيه المدينة .

* الأوزاعي هو عبد الرحمن بن عمرو إمام الشام عاش بين سنتى ٨٨ — ١٥٧ هـ .

(٢٣) المدارك ١٢٧/١ .

ويكرر الإمام هذا المعنى بصيغ شتى ، فمن ذلك قوله في مجلس له بالمسجد إن هذا العلم دين فانظروا عمن تأخذونه ، لقد أدركت سبعين ممن يقول : قال رسول الله ﷺ عند هذه الأساطين ـــ أى عند أعمدة المسجد ـــ فما أخذت عنهم شيئاً ، وإن أحدهم لو ائتمن على بيت مال لكان أميناً ، إلا أنهم لم يكونوا من أهل هذا الشأن ، أى لم يكونوا أهلا لرواية الحديث ، ومعنى ذلك أن مالكاً كان يدقق كل التدقيق في تقبل أحاديث رسول الله ﷺ بحيث لا يرويها إلا إذا تحقق من صحة نسبتها إلى قائلها عليه الصلاة والسلام ، ومن هنا جاء قول الشافعى : كان مالك إذا شك في شيء من الحديث تركه[٢٤] .

وكان الإمام مالك وهو إمام أهل الحديث ـــ إذا أراد أن يحدث قام فتوضأ ثم جلس على صدر فراشه وسرح لحيته وتمكن في جلوسه بوقار وهيبة ثم حدث ، وقد سئل في ذلك فقال : أحب أن أعظم حديث رسول الله ﷺ ولا أحدث به إلا متمكناً على طهارة ، وكان ـــ حتى وهو في شيخوخته ـــ لا يركب في المدينة ، ويقول : لا أركب في مدينة فيها جثة رسول الله ﷺ مدفونة[٢٥] . وكان مالك أيضاً محبًّا لمدينة الرسول مستمسكاً بالإقامة فيها لا يرضى عنها بديلاً ، وكان الملوك من بني العباس إذا أرسلوا إليه يستقدمونه إلى العراق اعتذر وأرجأ مناسبة اللقاء إلى موسم الحج حيث يفدون هم إليه ولايذهب هو إليهم ، وكان يقول في ذلك : المدينة خير لهم لو كانوا يعلمون ، وهو لذلك لم يطوِّف في البلاد تطواف أبى حنيفة أو الشافعى .

لقد كرّم مالك حديث رسول الله ومنحه ذوب نفسه وخلاصة عمره فكرمه الحديث وألقى إليه مقاليده وأسلس له قياده وفتح عليه بنوره ونور الله ، فكان أن أصبح مالك إمام الحديث وزعيم مدرسته بين علماء الإسلام والمحدّثين من رجاله .

مالك والسياسة :

لم يحاوِل مالك أن يسهم فى السياسة والحكم برأى إلا فى نطاق الشريعة ، وفى هدى من روح الإسلام ، ولقد تعرض للأذى بسبب ذلك ، شأنه فى ذلك شأن

(٢٤) انظر الأئمة الأربعة ٩٣ .
(٢٥) الوفيات ٣/٢٨٤ .

الإمام أبي حنيفة ، وإن كان أبو حنيفة قد تعرض للأذى مرتين ، أما الإمام مالك فقد تعرض مرة واحدة ، وذلك حينما سُعى به إلى جعفر بن سليمان بن على بن عبد الله بن العباس ، وهو عم أبى جعفر المنصور الملك العباسى ، وقيل له : إن مالكا لا يرى أيمان بيعتكم هذه بشيء ، فغضب جعفر ودعا به ، وجرده من ثيابه وضربه بالسياط ، ومدت يده حتى خلعت كتفه[٢٦]، ومهما اختلفت الروايات فى طبيعة الوشاية التى أوذى مالك بسببها فإن الراجح أن السبب هو أنه كان يحدث بحديث رسول الله ﷺ «ليس على مستكره طلاق» فقال الوشاة لجعفر هذا الذى مر ذكره : إن مالكا يفتى بألّا يمين على مستكره ، ومعنى ذلك أن ما أبرمتموه من بيعة الناس بالاستكراه ينقضه مالك بفتواه ، فكان الأذى الذى لحق بمالك من جراء تصميمه على صحة الحديث والتحديث به فى وقت كان ملك بنى العباس مهددا بسبب خروج محمد النفس الزكية ، ولكن الأذى الذى لحق مالكا أهاج خواطر الناس وبلغ بهم الغضب مبلغا شديدا أقلق المنصور نفسه واضطره إلى عزل جعفر من ولاية المدينة وإحضاره إلى عاصمة الملك على قتب ، وأرسل للإمام يستقدمه ولكنه اعتذر عن ترك المدينة ، وتأجل اللقاء إلى موسم الحج ، فكان استرضاء المنصور لمالك أثناء لقائهما من التكريم ما جعل مالكاً يغفر هذه الزلة للحكم العباسى ويثنى على المنصور وعلمه وفضله .

والإمام مالك لم يؤيد ملك بنى أمية ولا ملك بنى العباس ، لأنه يعلم أن كلا من النظامين نظام ملكى كسروى بعيد عن الشورى والإسلام ، وقد سئل مالك مرة هل يجوز قتال الخارجين على الخلفاء ، فأجاب إجابة تتسم بالدقة والحنكة قائلا : يجوز إن خرجوا على مثل عمر بن عبد العزيز ، ومعنى ذلك أنه لا تجوز مقاتلة الخارجين على بقية ملوك الأمويين والعباسيين ــ وقد عاش مالك فى العهدين ــ ويستطرد السائل قائلا : فإن لم يكونوا مثله ، أى مثل عمر بن عبد العزيز ، فيجيب مالك : دعهم ينتقم الله من ظالم بظالم ، ثم ينتقم من كليهما .

ويفسر الأستاذ أبو زهرة هذا الموقف من مالك بأنه مادامت أحكام الشورى معطلة ولا سبيل إلى الوصول إليها ، فإن الرضى بالسيئ خير من الانتقال إلى

---

(٢٦) وفيات الأعيان ٣/٢٨٥ .

الأسوأ ، ففى الخروج فوضى وفساد واضطراب وهتك للحرمات وتعريض الأعراض والأنفس والأموال للضرر ، وفوضى ساعة قد يرتكب فيها من المظالم ما لم يرتكب فى ظلم منظم فى سنين ، ومن ثم فإن الرضى بالأمر الواقع خير من التعرض لضرر أشد وفساد أعم[٢٧] .

وهناك فى آراء مالك السياسية أمر يدعو إلى بعض التأمل ، وخاصة فيما يتعلق بالخلفاء الراشدين ، فهو يرى أنهم ثلاثة وليسوا أربعة ، إذ هو يجعل خلافة الراشدين فى أبى بكر وعمر وعثمان ويجعلهم فى مرتبة دونها سائر الناس ، وأما علىّ فإنه فى نظره واحد من جملة الصحابة لا يزيد عنهم فى شىء الأمر الذى جعل الأستاذ أبا زهرة يذكر أن مالكا قد اتهم بأن فيه نزعة أموية[٢٨] برغم كونه غير راض عنهم مما يستفاد من استثنائه عمر بن عبد العزيز من بينهم ، والاستنتاج الذى أفضى إلى تصور الميول الأموية عند مالك يفهم من سؤال وجه إليه أثناء درسه : من خير الناس بعد رسول الله ﷺ ؟ فأجاب : أبو بكر ، فسئل ثم من ؟ قال : ثم عمر فسئل ثم من ؟ قال : عثمان . فسئل ثم من ؟ قال : هنا وقف الناس هؤلاء خيرة رسول الله ﷺ ، أمر أبا بكر على الصلاة واختار أبو بكر عمر ، وجعلها عمر إلى ستة ، فاختاروا عثمان ، ووقف الناس ها هنا ، وفى رواية ، زيدت عبارة : وليس من طلب الأمر كمن لم يطلبه[٢٩] .

وهناك رواية ذكرها ابن عبد ربه تدخل عثمان فى دائرة اعتراض مالك ، فقد روى أنه كان يذكر عثمان وعلياً وطلحة والزبير فيقول[٣٠] : « والله ما اقتتلوا إلا على الثريد الأعفر» يعنى الأبيض الممتلىء بالادام ، والمعنى فى رأيه أنهم اقتتلوا على دنيا وليس على دين .

على أننا نرى أن مالكا لم يكن ذا هوى سياسى وإنما كان يحكّم دينه وعقله وعدله فى المواقف السياسية ، إن تفضيله للراشدين الثلاثة فيما لو صح أنه لم يتردد

---

(٢٧) الإمام مالك ٦٠ ، ٦١ .
(٢٨) المصدر السابق ص ٧١ .
(٢٩) المدارك ٢٠٤/١ .
(٣٠) العقد الفريد ٢٣٥/١ .

فى الاعتراف بخلافة عثمان وإيثاره إياهم دون علىّ لا يحمل طعنا فى علىّ ، فقد وضعه مع بقية الصحابة الأخيار ، ولو كان مالك أموى الهوى لتناول عليا بالطريقة التى تناوله بها الأمويون وأشياعهم ، هذا من ناحية ، ومن الناحية الأخرى كان الحديث الشريف الذى ردده مالك وأوذى وضرب بسببه يؤدى بشكل مباشر إلى نصرة الطالبيين من آل الحسن ، فالحديث الشريف الذى ردده مالك وتمسك به برغم طلب العباسيين منه السكوت عن روايته هو : «ليس على مستكره يمين» ، لقد ردد مالك هذا الحديث فى وقت خرج فيه محمد بن عبد الله ابن الحسن على العباسيين ودعا لنفسه بالخلافة ، وكان ذلك تشجيعاً مباشراً للمسلمين على خلع بيعة العباسيين التى أكرهوا عليها إكراها ، ومنحها للطالبى محمد بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علىّ رضى الله عنه ، فلو كان مالك أموى الهوى ما عرض نفسه للأذى بسبب حديث فسر على أنه تشجيع للمسلمين على مبايعة سليل علىّ بالخلافة ، وليس ثمة شك فى أن انتشار مذهب مالك فى المغرب كان على يد إدريس بن عبد الله بن الحسن مؤسس دولة الأدارسة هناك ، وهو القائل — فى مجال التقدير لمالك — نحن أولى بمذهبه ، ومن ثم انتشر في المغرب وظل منتشرا بها حتى اليوم .

وهكذا يكون مالك بعيدا عن الانغماس فى السياسة غير مرتبط بهذا أو بذاك وإنما آراؤه تصدر عن ارتباط شخصى موصول دائما بمعنى دينى وليس بموقف سياسى .

فقه مالك :

كان مالك يعرف بالفقه والحديث ، ولم يرض لعلمه صورة أخرى من صور التفكير الإسلامى الذى كان يعايشه من اعتزال وتشيع وقدرية إلى غير ذلك من تلك الاتجاهات التى لم تكن فى نظره ونظر الكثيرين من المسلمين مأمونة العواقب ، لقد كان الإمام إذن فقيه المدينة ومحدثها ، وكان كثير الاستياء فى إصدار الأحكام ومن ثم فى اختيار السبيل الذى ألزم نفسه به فى تفكيره وبالتالى فى فقهه .

لذلك كان المصدر الأول لفقه مالك هو القرآن الكريم ، كتاب الله الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، وكان يستعين فى فهمه بالإضافة إلى مداركه الواسعة ، ومكتسباته الجمة بالحديث والسنة ، والمصدر الثانى للفقه والتشريع عند الإمام هو السنة النبوية الشريفة ، ذلك أن السنة مبينة لأحكام القرآن شارحة لنصوصه مفسرة لما جاء به من قضايا تحتاج إلى شرح وتبيان ، وكان الإمام كثيرا ما يتمثل فى هذا السبيل الآيات الكريمة التى توجه إلى الانتفاع بالسنة النبوية كقوله تعالى :

﴿ وما آتاكُم الرسولُ فخُذُوهُ ، وما نهاكُمْ عنه فانْتَهُوا ﴾أو قوله تعالى :﴿ **فَلَا وَرَبِّكَ لا يُؤمنونَ حتى يُحَكِّمُوكَ فيما شَجَرَ بَيْنَهُمْ ، ثُمَّ لا يَجِدُوا فى أنفسِهِم حَرَجاً مِمَّا قَضَيْتَ ويُسَلِّمُوا تَسْلِيماً** ﴾ أوقوله تعالى ﴿ **لَقَدْ كانَ لكُمْ فى رسُولِ اللهِ أُسْوةٌ حَسَنَة** ﴾

وكان مالك فى مقام تعلقه بالسنة الشريفة يردد دائما قول الشاعر :

وخيرُ أُمور الدِّين ما كان سُنَّة ... وشَرُّ الأُمور المُحْدَثَاتُ البدائعُ

المصدر الثالث من مصادر فقه مالك هو قول الصحابة ، فقد كانوا قريبين إلى الرسول ﷺ مرتبطين به فى حياتهم وتصرفاتهم ، وقد شاهدوا أفعاله وسمعوا أقواله وتتلمذوا له وتعلموا على يديه ، ويستوى فى ذلك عند مالك المهاجرون من الصحابة والأنصار .

وكان المصدر الرابع لفقه مالك الإجماع ، وهو ما يجتمع عليه أهل الفقه والعلم على حد سواء .

وكان مصدره الخامس هو ما يعملَه أهل المدينة ، لأنهم أبناء أولئك الذين صاحبوا رسول الله ، ولأن الأحكام العامة تعيش فى المكان لعدة أجيال .

وكان الإمام مالك ، بالإضافة إلى ذلك كله ، إذا أعوزه النص أو الدليل القريب ، يأخذ بالقياس والاستحسان والعرف وسد الذرائع والمصالح المرسلة ، ولكنه فى هذه الأخيرة ــ أى المصالح المرسلة ــ يشترط للأخذ بها عدة شروط أهمها :

١ ــ ألا تنافي المصلحة أصلاً من أصول الإسلام ، ولا دليلاً قطعيًا من أدلته .
٢ ــ أن تكون المصلحة مقبولة عند ذوى العقول .
٣ ــ أن يرتفع بها الحرج لقول الله تعالى : ﴿ **وما جَعَلَ عليكُمْ في الدين مِنْ حَرَج** ﴾[٣١] .

على أن هناك نصا فى المعارف لابن قتيبة يجعل فيه الإمام مالكا من أصحاب الرأى ، ويضعه مع ابن أبى ليلى وأبى حنيفة وأبى يوسف ومحمد بن الحسن[٣٢] ، ويلتقط الأستاذ أبو زهرة هذا النص ويجرى دراسة على فقه مالك ينتهى به إلى الموافقة على أنه فقيه رأى بالإضافة إلى كونه فقيه أثر ، وإن كان الرأى الذى ارتضاه مالك ليس هو الرأى الذى اختاره أبو حنيفة وأصحابه وسائر العراقيين من كل الوجوه ، وأن الفرق بينهما فرق فى طريقة الاستنباط بالرأى وليس فى مقداره[٣٣] .

على أن الأمر الجدير بالذكر فيما يتعلق بفتاوي الإمام مالك أنه لم يكن يبدي رأيه سريعاً فيما يسأل عنه ، وإنما كان يقتل المسألة درساً وتمحيصاً ، وكان يقول إنى لأفكر في مسألة منذ بضع عشرة سنة ما أتفق إلى رأى فيها إلى الآن . ومالك صادق الحس والنية عندما يقف طويلاً أمام مسألة قبل الافتاء فيها ويقول « ما من شيء أشدّ عليَّ من أن أسأل مسألة من الحلال والحرام ، لأن هذا هو القطع في حكم الله » وكثيرا ما كان يردد « إن نظن إلا ظنًّا وما نحن بمستيقنين » وكان تمثل اليوم الآخر والحساب دائماً في قلبه وعقله وهو يفتي في قضايا المسلمين ولذلك فإنه عندما كان يسأل كان يقول لسائله: انصرف حتى أنظر، أى أنه لم يكن يرتجل الإجابة، وأنما كان يرجع إلى ماتحت يديه من أسانيد ومصادر وأحكام، ويقلب الرأى من جميع وجوهه قبل أن يبت فيه، وقد حدثه بعض الناس في ذلك فبكى خشية وورعاً وقال «إنى أخاف أن يكون لي من هذه المسائل يوم أى يوم».

---

(٣١) انظر الأئمة الأربعة للشيخ الشرباصي ٩٨ ــ ١٠٢ .
(٣٢) المعارف ص ٢١٨ .
(٣٣) مالك ص ٢٢ .

ولذلك فإن مالكاً كان في فتاواه يلتزم الإجابة عن الأمور التي وقعت ولا يحبّ أن يخوض في أمور مفترضة أو أحداث متوقعة، كما كان يفعل أبو حنيفة، ولعل من أسباب ذلك أن مالكاً كان يعيش فى نطاق محدد من الأرض وهو الحجاز ـــ هذا بالإضافة إلى رأيه فى عدم التوسع فى الفتاوى ـــ أما أبو حنيفة فقد كان يطوف فى الأرض ويكثر من اتصاله بالناس ، سواء فى أول حياته عندما تعاطى التجارة ، أو فى وسطها وآخرها عند توفره على الدرس ، فكانت مشاكل الناس أمامه أكثر وضوحاً وأشد استشكالا ، الأمر الذى دفعه دفعاً إلى التشريع لما سوف يستقبل من أمور ومشاكل توقع ببعد نظره ضرورة ظهورها على مسرح الحياة .

لقد كان مالك يردد عبارة تكشف عن احتياطه في إجاباته وهى : إذا ترك العالم لا أدرى أصيبت مقاتلة[٣٤] . وفى بعض الأحيان كان إذا سئل سؤالا استغلقت عليه الإجابة عنه عمد إلى توبيخ السائل ، فقد سأله رجل عن قوله تعالى : «الرحمن على العرش استوى» كيف الاستواء ؟ قال مالك : الاستواء معقول ، والكيف مجهول ، ولا أظنك إلا رجل سوء[٣٥] .

مالك يؤلف كتاب «الموطأ» .

يذهب كثير من العلماء إلى أن الموطأ هو أول كتاب مؤلف فى الإسلام ثابت النسبة إلى مؤلفه وتناولته الأجيال جيلا بعد جيل[٣٦] .

وأما مناسبة تأليف الكتاب فقد كانت نتيجة غير مباشرة للمحنة التى تعرض لها الإمام مالك حين ضربه والى المدينة العباسى بالسياط على ما مر بنا قبل قليل ، ثم رأى العباسى المنصور أن يسترضيه ، وتم التراضى على أن يلتقى الإمام والمنصور فى منى فى موسم الحج ، وتم اللقاء بينهما وكرم المنصور مالكاً ، وجرى بينهما حديث طويل فى شئون شتى اتسم بالمجاملة ولم يخل من حوار فى الفقة أو

---

(٣٤) العقد الفريد ٢/٢١٧ .
(٣٥) العقد الفريد ٢/٢٢٦ .
(٣٦) مالك ٢٠٧ .

الحديث أو العلم ، ولم يلبث الملك العباسى أن قال لمالك : يا أبا عبد الله ، ضع هذا العلم ودوّنه ، ودوّن منه كتباً ، وتجنب فيه شدائد عبد الله بن عمر ، ورخص عبد الله بن عباس ، وشواذ عبد الله بن مسعود ، واقصد إلى أوسط الأمور ، وما اجتمع عليه الأئمة والصحابة رضى الله عنهم لنحمل الناس إن شاء الله على علمك وكتبك ، ونبثها فى الأمصار . ونعهد إليهم ألا يخالفوها ، ولا يقضوا بسواها ، فقال مالك : أصلح الله الأمير ، إن أهل العراق لا يرضون علمنا ، ولا يرون في علمهم رأينا . وفى رواية أخرى قال المنصور لمالك : اجعل العلم يا أبا عبد الله علماً واحداً ، فقال له مالك : إن أصحاب رسول الله ﷺ تفرقوا فى البلاد فأفتى كلّ فى مصره بما رأى ، وإن لأهل هذا البلد — يعنى مكة فقد كان اللقاء فى منى — قولا ، ولأهل المدينة قولا ، ولأهل العراق قولا تعدوا فيه طورهم ، فقال المنصور ، أما أهل العراق فلا أقبل منهم صرفاً ولا عدلًا ، وإنما العلم عند أهل المدينة ، فضع للناس العلم[٣٧] .

هكذا كانت ثقة أبى جعفر المنصور فى علم أهل المدينة بعامة وفى علم مالك بخاصة ، وكان مالك من رقة الأدب فى التعبير عن علم أهل العراق وعدم موافقته عليه بحيث قال كلمته الرائقة : إن أهل العراق لا يرضون علمنا ولا يرون فى علمهم رأينا .

وينصرف مالك إلى هذا العمل العلمى الجليل الذى كلفه به أبو جعفر المنصور ، ويجمع فى كتابه الحديث والسنة وأقوال أهل المدينة — أولئك الذين زكاهم المنصور وجعل العلم فيهم — ويظل عاكفاً على عمله العلمى الكبير لمدة إحدى عشرة سنة ، من سنة ١٤٨ إلى ١٥٩ هـ ويطلق على كتابه عنواناً طريفاً هو «الموطأ» والموطأ لغة هو الممهد الميسر المعبد ، ولا شك أن مالكا حين أطلق هذا العنوان على كتابه فإنما صدر فى ذلك عن اقتناع أن هذا الكتاب الذى جمع الفقه والحديث قد يسّر للمسلمين فهم دينهم على طريق ممهد معبد بعيد عن تلك الصعاب التى ذكرها المنصور وهو يصف لمالك الكتاب كما تصوره ، بعيداً عن شدائد عبد الله بن عمر ورخص عبد الله بن عباس وشواذ عبد الله بن مسعود .

(٣٧) المدارك صفحات ١/٣٠ — ٣٣ .

ويقدم لنا الإمام مالك النهج الذى اتبعه فى تأليف كتابه موضحاً سبيله فى الفقه فيقول : «أما أكثر ما فى الكتاب فرأى،لعمرى ما هو برأيى ، ولكن سماع من غير واحد من أهل العلم والفضل ، والأئمة المقتدى بهم الذين أخذت عنهم ، وهم الذين كانوا يتقون الله تعالى وكثر علىّ ، فقلت رأيى ، وكان رأيهم مثل رأيى مثل رأى الصحابة الذين أدركوهم عليه ، وأدركتهم أنا على ذلك ، فهذا وراثة توارثوها قرناً عن قرن إلى زماننا ، فهو رأى جماعة ممن تقدم من الأئمة» ويستطرد الإمام مالك فى شرح منهجه فى تأليف الموطأ ، فيقول :

«وما كان فيه الأمر المجتمع عليه ، فهو ما اجتمع عليه قول أهل الفقه والعلم لم يختلفوا فيه ، وما قلت الأمر عندى فهو ما عمل الناس به عندنا وجرت به الأحكام وعرفه العام والخاص ، وكذلك ما قلت ببلدنا فيه ، وما قلت فيه بعض أهل العلم فهو شيء استحسنته من قول العلماء ، وأما ما لم أسمعه منهم فاجتهدت ونظرت على مذهب من لقيته حتى وقع ذلك موقع الحق أو قريباً منه ، حتى لا تخرج عن مذهب أهل المدينة وآرائهم ، وإن لم أسمع ذلك بعينه فنسبت الرأى بعد الاجتهاد مع السنة وما مضى عليه أهل العلم المقتدى بهم والأمر المعمول به عندنا من لدن رسول الله ﷺ والأئمة الراشدين ، فذلك رأيهم ما خرجت إلى غيرهم»[٣٨] .

وكان الإمام مالك نقادة للرجال لا يأخذ العلم إلا ممن وثق منهم وتأكد أنهم أهل لذلك ، وكان له فى ذلك أقوال حكيمة يمكن أن تدخل فى نطاق الوسيلة التى اتبعها فى جمع الأحكام والأحاديث التى ضمنها كتابه ، فهو يقول مثلاً : «لا يؤخذ العلم من أربعة ويؤخذ ممن سواهم ، لا يؤخذ من سفيه ، ولا يؤخذ من صاحب هوى يدعو إلى بدعة ، ولا من كذاب يكذب فى أحاديث الناس وإن كان لايتهم على حديث رسول الله ﷺ ، ولا من شيخ له فضل وصلاح وعبادة إذا كان لا يعرف ما يحمل ويحدث به»[٣٩]

---

(٣٨) المدارك ٢٣٤ .

(٣٩) الانتقاء في فضائل الثلاثة الفقهاء لابن عبد البر ص ١٦ .

لقد كان مالك حسن الرواية للأحاديث حيد التمييز بين الضعيف والمتواتر وصحيح الإسناد ، ثم هو إلى جانب ذلك خبير بالرواة بارع التمييز بينهم براعة الصيرفى الماهر فى اختبار الدارهم . يعرف تمام المعرفة ممن يأخذ وممن يدع ، ولذلك جاء كتابه شيئاً فريداً اعتز به كبار العلماء وامتدحه جهابذة الفقهاء ، حتى إن الشافعى يقول عنه « ما فى الأرض — حتى زمانه طبعاً — كتاب فى العلم أكثر صواباً من موطأ مالك » ويعجب بالموطأ خليفة له شأنه فى فهم علوم الدين والأدب مثل الرشيد ، ويبلغ به الإعجاب المدى الذى يجعله يعرض على مالك أن يعلق كتابه على الكعبة تكريماً له وإكباراً ، ولكن مالكاً الإمام المتواضع فى علمه يقول : «يا أمير المؤمنين أما تعليق الموطأ فى الكعبة ، فإن أصحاب رسول الله ﷺ اختلفوا في الفروع ، وافترقوا في البلدان ، وكل عند نفسه مصيب » . وتتبدى سماحة مالك فى تفكيره ومحاولة التيسير على المسلمين فى أمور دينهم حين يقول فى نفس المناسبة موجهاً خطابة إلى الرشيد : « ياأمير المؤمنين ، إن اختلاف العلماء رحمة من الله على هذه الأمة ، كل يتبع ما صحّ عنده ، وكل على هدى ، وكل يريد الله» .

لعل هذا القول المفعم بالسماحة واليسر والإيمان كان الصورة الحقيقية لشخصية مالك الإمام الكبير الذى يرى أن الدين يسر وليس عسراً .

هذا وللإمام مالك مشاركة فعّالة فى التأليف ، فليس الموطأ أثره العلمى الوحيد ، وإنما له آثار علمية أخرى قيمة منها تفسير غريب القرآن ، رسالة فى الرد على القدرية ، رسالة في الأقضية ، رسالة في الفتوى إلى أبى غسّان ، كتاب السرور ، وأخيراً رسالته الممتعة إلى الليث بن سعد إمام أهل مصر في زمانه .

ورسالة مالك إلى الليث حوت بعض ملاحظات يأخذ فيها عليه أنه أفتى بأشياء خالف فيها فقه أهل المدينة ، وكانت كلها قضايا فقهية فى محيط العبادات والمعاملات ، ومن الطريف أن الليث قد رد على مالك ردًّا مسهبا ، مدعوماً بالأسانيد الفقهية الأمر الذى جعل بعض الأئمة يحكم بأن الليث كان أفقه من مالك ، ونحن نشير بذلك إلى قول الإمام الشافعى : «وكان الليث أفقه من مالك إلا أنه ضيعه أصحابه»



الإمـــام الشـــافـــعى
١٥٠/٢٠٤هـ

هذا علم من أعلام الإسلام ، كل نظرة خاطفة فضلا عن المتفحصة إلى شخصيته وسلوكه وتراثه تلزم صاحبها بالوقوف إجلالاً والتريث إعظاماً والإقبال عليه حباً وإعزازاً وتقديراً وإكباراً ، إنه أبو عبد محمد بن إدريس بن العباس بن عثمان بن شافع بن السائب القرشى الذى حدد معالم شخصيته القول الشريف «عالم قريش يملأ طباق الأرض علماً» .

إنه ثالث الأئمة الأربعة المشهورين من حيث حياتهم فى الزمان ، ولكنه فى نفس الوقت واسطة العقد بينهم من حيث شخصيته المتطورة المتجددة الدائمة التفتح ، ومن حيث نظرته للقضايا الفقهية وتناوله للمسائل الدينية وتعرضه للمعضلات الجدلية وهجومه على علوم زمانه المختلفة شكلا ، المتكاملة موضوعاً ، التى من حصيلتها تتكون الشخصية العلمية للإنسان ، فتوسع من آفاق مداركه ، وتضعه فى المكان الذى يمكّنه من العطاء والنفع ووزن الأمور وزناً صحيحاً ، والالتفات إلى الجواهر منها والتغاضى عن العرض دون حرج أو مبالاة .

وإذا كان الإمامان الجليلان السابقان على الشافعى زمناً ، وهما أبو حنيفة ومالك ، قد تزعم أولهما مدرسة الرأى ، وتبوأ ثانيهما رأس مدرسة الحديث ، فإن

الشافعى قد أخذ من منهج كل من المدرستين بطرف فى نطاق هضمه للكتاب والسنة وفى مجال فهمه الصحيح للفقه الإسلامى حتى إن العالم الفاضل الشيخ محمد أبا زهرة ـــ يرحمه الله ـــ يرى أنه قد جمع بين فقه أهل الرأى وفقه أهل الحديث بمقادير متعادلة[٤٠] ، وأن الأخ الجليل الدكتور أحمد الشرباصى قد رأى أنه أقرب إلى مدرسة الحديث والنقل منه إلى مدرسة الرأى والعقل[٤١] ، وكلا الرأيين للعالمين الجليلين يثبت مشاركة الشافعى فى منهج المدرستين السابقتين له ، هذا يرى مشاركة متوازنة وذاك يرى مشاركة يرجح أحد جانبيها الجانب الآخر .

ومهما كان أمر الاتفاق أو الاختلاف ، فإن شخصية الشافعى وعلمه وأدبه ودينه وسلوكه يشكل طرازا فريدا فى دنيا العلم والعلماء ، بحيث ذهب الإمام أحمد بن حنبل تلميذه ومريده إلى أنه مجدد القرن الثانى معتمداً على الحديث الشريف « إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها » ويرى ابن حنبل أن عمر بن عبد العزيز كان على رأس المائة الأولى ، ورجا أن يكون الشافعى على رأس المائة الثانية[٤٢] .

إن الإمام ابن حنبل يرى بفراسة المؤمن وببصيرة العالم وبنظرة الدارس وبحكم المخالط ـــ فقد كان منقطعاً إلى الشافعى زمناً طويلاً ـــ أن الإمام الجليل كان مجدد القرن الثانى وإماماً هادياً لما تلا من قرون .

هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى ، فإن أبا عاصم العبادى صاحب طبقات الشافعية يرى أن حديث الرسول عن « عالم قريش» لا ينطبق على أحد من قريش قدر انطباقه على الإمام الشافعى ، والحديث هو «**لا تسبّوا قريشاً فإن عالمها يملأ طباق الأرض علماً**» ، ويستطرد أبو عاصم قائلاً : «وما سارت من قريش من الكتب فى الأقطار استظهرها الكبار وأدّتها إلى الصغار ، وشاع ذلك فى البلاد بين العباد كما سار عنه ، فإن ما يروى عن الصحابة أصول معدودة ، وهو ـــ أى

---

(٤٠) الشافعي : حياته وعصره ـــ آراؤه وفقهه ص ١١ .
(٤١) الأئمة الأربعة ص ١٥٠ .
(٤٢) معجم الأدباء ٣١٤/١٧ .

الشافعي — أولى بهذا الخبر ، أى بهذا الحديث ، وبه الترجيح على مالك وأبي حنيفة ، ولأنه صنَّف الأصول ثم بنى عليها الفروع ، فيكون أحوط لأنه أكثر احتياطاً فى الطهارات وشرائط العبادات والأنكحة والبياعات وذلك معروف فى بيان مذهبه »[٤٣] .

شخصيته العلمية :

للشافعي شخصية علمية واعية واكبت مسيرة حياته منذ أن كان طفلاً ، وظلت ترافقه إلى أن لقى ربه فى مصر سنة مائتين وأربعة هجرية وله من العمر أربعة وخمسون عاماً .

إنه يقول عن نفسه حينما كان طفلًا : «كنت وأنا فى الكتّاب أسمع المعلم يلقن الصبى الآية فأحفظها أنا» . وكان فقيراً لا يجد من أدوات الكتابة ما يستعين به على تسجيل دروسه فيقول : «لما خرجت من الكتّاب كنت أتلقط الخزف والدفوف وكَرَبَ النخل وأكتاف الجمال أكتب فيها الحديث وأجىء إلى الدواوين فأستوهب منها الظهور»[٤٤] ، ويعد الشافعي نفسه للقاء مالك والتلقى عنه ، ذلك اللقاء الذى ذكرنا قصته فى الفصل السابق ، فيستعير الموطأ — وهو صفوة فكر مالك وفقه وجماع الحديث الصحيح — من رجل بمكة فيحفظه — حسب زواية ياقوت — فى تسع ليال ، فإذا ما تم لقاء الشيخ الكبير والفتى الصغير ، فإن شخصية الصغير تفرض على الكبير أن يستمع إليه وأن يمحضه العطف والود فيقرئه كتابه فى أيام يسيرة .

ولكن الشافعي كان قبل ذلك قد أعد نفسه إعداداً آخر ، كان أعد نفسه للغة والأدب ورواية الشعر وقوله ، فقد لزم قبيلة هذيل فى البادية لسنوات غير قليلة حتى حفظ أشعارهم وروى أخبارهم ، وهذيل أفصح العرب وأشعرها ، وعاد إلى

---

(٤٣) طبقات الشافعية ص ٩ .

(٤٤) المعجم ٢٨٤/١٧ . الدفوف الجلود التي يعمل منها الطبل ، كرب النخل أصول السعف الغلاظ العراض ، الظهور الأوراق .

مكة وتلك حاله من رواية الشعر فوجهه رجل من الزبيريين إلى الفقه قائلاً له : يا أبا عبد الله عزّ علىّ ألا يكون مع هذه اللغة وهذه الفصاحة والذكاء فقه ، فتكون قد سُدْت أهل زمانك ، ويذكر له الزبيرىّ مالك بن أنس ، ويضمن له التتلمذ عليه ، ومن الطريف فى هذا المقام أن نذكر أن الأصمعى كبير رواة شعر العرب يقول إنه قرأ أشعار الهذليين على فتى من قريش اسمه محمد بن إدريس(٤٥) .

وتكتمل للشافعى أسباب النضوج ويجلس فى ثوبه الأبيض ووجهه المشرق الذى تعلوه سمرة خفيفة على مقربة من بئر زمزم ينثر على الناس درر علمه فى يسر وسخاء وتواضع ، ويجيب على أسئلتهم فى ثقة وعدل وأمانة ، ويجادل مخالفيه فى الرأى بإيمان وثبات ومنطق نابع من كتاب الله وسنة رسوله ، وحصيلة علم ، وجماع ذكاء وعبقرية ، فيذيع اسمه ويكثر تلاميذه وفى مقدمتهم الإمام الجليل أحمد ابن حنبل ، ويجمع الناس على فضله وعلمه ودينه فتنطلق الأحكام من ألسنة الخلق مقرظة مادحة معجبة ، وهى فى تقريظها ومدحها وإعجابها لم تَعْدُ كبد الحقيقة أو تخرج عن جادة المحجة ، ذلك أن الشافعي إلى خلقه السمح كان بحرا من العلم قراره عميق وشاطئه بعيد ، علوم الدين من قرآن وحديث وفقه ولغة ، وعلوم الدنيا من نحو وعروض وشعر ونوادر وأخبار وأيام وفلك ورحلة ، فكان كما قال ابن حنبل لابنه «يابنى: كان الشافعى كالشمس للدنيا وكالعافية للبدن وهل لهذين من خلف أو لهما من عوض»(٤٦) لقد ألمّ بعلوم زمانه جميعاً فكان كما قال ابن خلكان(٤٧) : اتفق العلماء قاطبة من أهل الحديث والفقه والأصول واللغة والنحو وغير ذلك على ثقته وأمانته وعدالته وزهده وورعه ونزاهة عرضه وعفة نفسه وحسن سيرته وعلوّ قدره وسخائه . وهذا يونس بن عبد الأعلى يقول(٤٨) : كان الشافعى إذا أخذ فى العربية قلت هو بهذا أعلم ، وإذا تكلم فى الشعر وإنشاده قلت هو بهذا أعلم ، وإذا تكلم فى الفقه قلت هو بهذا أعلم . ويشير ابن حنبل إلى فضل

---

(٤٥) وفات الأعان ٣٠٥/٣ ومعجم الأدباء ٢٩٩/١٧ .

(٤٦) تاريخ بغداد ٦٦/٢

(٤٧) وفيات الأعيان ٣٠٧/٣ .

(٤٨) معجم الأدباء ٣٠٠/١٧ .

الشافعى على كل متعلم فى جملة بليغة مانعة جامعة بقوله : ما من أحد بيده محبرة إلا وللشافعى فى رقبته منَّة[٤٩] .

ثم يصف ابن حنبل فروع المعرفة التى بزّ فيها أستاذهُ غيره من العلماء فيقول : الشافعى فيلسوف فى أربعة أشياء : فى اللغة واختلاف الناس والمعانى والفقه .

ويذكر الربيع بن سليمان خادم الإمام وتلميذه ومريده أن الشافعى كان يجلس فى جامع عمرو فى حلقته إذا صلى الصبح فيجيئه أهل القرآن ، فإذا طلعت الشمس قاموا وجاء أهل الحديث فيسألونه تفسيره ومعانيه ، فإذا ارتفعت الشمس قاموا فاستوت الحلقة للمذاكرة والنظر ، فإذا ارتفع الضحى تفرقوا وجاء أهل العربية والعروض والنحو والشعر ، فلا يزالون إلى قرب انتصاف النهار[٥٠] .

وإذا كان مالك قد توفر على حديث رسول الله ﷺ حفظاً وتدويناً وتعليماً ، فإن الشافعى قد توفر عليه حفظاً وتعليماً وتلقيناً واستنباطا لأحكامه وفهماً لأصوله وتنبيها إلى شأنه ومكانته ، فهذا ابن حنبل على خطر قدره وجلال علمه يقول :[٥١] ما عرفت ناسخ الحديث من منسوخه حتى جالست الشافعى ، وينبه الزعفرانى إلى فضل الشافعى على علماء الحديث بقوله[٥٢] : كان أصحاب الحديث رقوداً حتى جاء الشافعى فأيقظهم فتيقظوا . وعلى هذا النهج من ترديد الاعتراف بفضل الشافعى على طلاب الحديث يقول ابن حنبل[٥٣] : قدم علينا نُعَيْم بن حماد فحضنا على طلب المسند (يعنى الحديث المسند) فلما قدم الشافعى وضعنا على المحجة البيضاء .

فالإمام الشافعى وهذه ثقافته ، وهذا إيمان العلماء بتقدمه عليهم وريادته لهم وتذليل الطريق أمامهم ومبايعتهم له ، كل ذلك بالإضافة إلى تطوافه فى الأرض الإسلامية ورحلته إلى العديد من أقطارها من حجاز ويمن وعراق ومصر ،

---

(٤٩) الوفيات ٣٠٦/٣ .
(٥٠) معجم الأدباء ٣٠٤/١٧ .
(٥١) الوفيات ٣٠٥/٣ .
(٥٢) المصدر السابق ٣٠٦/٣ .
(٥٣) معجم الأدباء ٣٠١/١٧ .

ومناقشته علماءها ومجادلته فقهاءها لا يكون مستغرباً منه أن يأتى فى ميدان العلوم الدينية بالجديد غير المبتدع ، فهو بإشراقة إيمانه ، وضافى علمه ، ووافى معرفته ، وصافى بصيرته ، وشمول نظرته ، كان أول من تكلم فى أصول الفقه وأول من استنبطه ، هذا فضلاً عن قضايا أخرى عديدة سوف نعرض لها عند الحديث على الفقه الشافعى .

الشافعى والسياسة :

ما دمنا قد عرضنا لكل من الإمامين الجليلين أبى حنيفة ومالك فى نطاق حديث السياسة ، فقد يقتضى الأمر أن نعرض شخصية الشافعى من الناحية السياسية ، وليس من الضرورى أن يكون له ولاء سياسى بعينه ، ذلك أنه إذا كان لأبى حنيفة نظرة سياسية بعينها أشرنا إليها فى موضعها ، وإذا كان مالك قد تصرف فى نطاق ما أملاه عليه دينه فى ارتباطه بهؤلاء وأولئك حيناً ورفضه لمسلكهم حيناً آخر ، بحيث لايمكن أن ننسب إليه ولاء سياسياً معيناً برغم أن له رأياً فى مجريات الأمور ، فإن الشافعى لم يكن له بدوره ولاء سياسى يرتبط به ، ولكن كان ولاؤه لما يمليه عليه دينه ، لقد كان دينه يملى عليه أن يحب أبا بكر صدّيق الرسول ورفيقه فى أقدس رحلة وأول خليفة على المسلمين ، وقد كان دينه أيضاً يملى عليه أن يحب علياً صهر الرسول وابن عمه وأول من أسلم من الصبيان وفاديه ليلة الهجرة ، وهو بحبيه يعلم أنه سيرمى من قبل الشيعة بأنه ناصبى ، ومن قبل خصومهم بأنه رافضى ، ولكنه مصر على عاطفته تلك الرحبة التى عمرها الحب للجديرين بالحب جميعاً ، ولذلك فهو ينشد شعراً طريفاً يقول فيه :

إذا نحن فضّلْنـــا عليّـــا فإننـــا روافضُ بالتفضيلِ عند ذوى الجهلِ
وفضلُ أبى بكـــر إذا ما ذكرتُـــه رُميتُ بنصْبٍ عند ذكرِى للفضلِ
فلا زلتُ ذا رفضٍ ونصْبٍ كلاهما أدينُ به حتـــى أُوسَّدَ فى الرمـــلِ

على أن مسحة الحزن التى رانت على المسلمين جميعاً باضطهاد آل البيت من قبل الأمويين والعباسيين على السواء ، وما تعرضت له العترة الطاهرة من تعذيب

وتقتيل قد جعلت المسلمين الصادقين جميعاً ــ والشافعي فى مكان الصدارة منهم ــ يرتبطون بآل البيت عطفاً ثم يتعلقون بهم حباً ، ولكن حب الشافعي حبٌّ شجاع لأنه صادر من إنسان له قيمته وخطره ، ولأنه معلنٌ ذلك شعراً رقيقاً سهل الحفظ خفيف الوقع على القلب والسمع ، ولأنه بعد ذلك كله قيل فى ثوب من التحدى وإطار من الإعلان على رءوس الأشهاد[٥٤] .

يا راكبــاً قف بالمحصَّبِ من مِنــى ... واهتـفْ بقاعـدِ خيْفِها والنــاهضِ
سحـراً إذَا فاض الحجيـجُ إلى مِنــىً ... فَيْضاً بمُلْتَطِـمِ الفُــراتِ الفــائِضِ
إنْ كان رَفْضاً حُبُّ آلِ مُحمَّـــدٍ ... فَلْيشْهــد الثَّقَــلانِ أنِّــى رافِضى

إن هذا الحب الذى يعلنه الشافعي لعترة الرسول الكريمة لا يعتبر ميلاً سياسياً بقدر ما يفسر على حقيقته الفعلية ، وهو تعلق مسلم مخلص بأهل رسول الإسلام وعترته الطاهرة .

على أن للشافعي رأياً فى الإمامة ، وهو بمعنى آخر رأى فى السياسة ، ولكنه رأى نابع من صميم تفكيره الإسلامى واجتهاده الفقهى وتخريجه الدينى ، بعيداً عن أى مؤثر آخر غير تلك التى ذكرنا ، فأما الإمامة عنده فلابد منها ،يعمل تحت ظلها المؤمن ويستمتع بها الكافر ، ويُقاتَل بها العدو ، وتأمن بها السبل ، ويؤخذ بها للضعيف من القوى ، حتى يستريح برّ ، ويستراح من فاجر[٥٥] .

والشافعي يرى الإمامة فى قريش دون تعيين بطن بعينها من بطونها ، يستوى فى ذلك الهاشميون والأمويون وغير الهاشميين وغير الأمويين ، فقد كان علىّ كرم الله وجهه هاشمياًّ ، وكان عثمان وعمر بن عبد العزيز ــ قد اعتبره الشافعي خامس الخلفاء الراشدين ــ أمويين ، وكان عمر مخزومياًّ ، والشافعي يرى أن الإمامة قد تجيء من غير بيعة إن كان ثمة ضرورة ، بل لقد أثر عنه رأى أبعد من ذلك وأشد جرأة رواه عنه تلميذه حرملة بن يحيى التجيبى ، وهو أن كل قرشى غلب على

---

(٥٤) معجم الأدباء ٣١٠/١٧ .
(٥٥) الشافعي ١٣٨ .

الخلافة بالسيف حتى سمى خليفة واجتمع عليه الناس فهو خليفة(٥٦) وإذن فالعبرة عنده فى الخلافة حسبما رأى الشيخ أبو زهرة فى أمرين : كون المتصدى لها قرشياً ، واجتماع الناس عليه سواء أكان الاجتماع سابقاً على إقامته خليفة كما هو الأمر فى حالة الانتخاب أو البيعة ، أم لاحقاً لتنصيب نفسه خليفة كحال المتغلب الذى أشار إليه(٥٧) .

والحق أنه رأى خطير من الإمام الجليل ، لأنه إذا صحت نسبة هذا الرأى إليه كانت خلافة معاوية صحيحة بل و «خلافة» يزيد صحيحة إذا صح لها أن تسمى خلافة ، وأخشى أن أقول إن بيعة الحسين وبيعة زيد لا تكونان صحيحتين فى ظل فتوى الإمام الشافعى واجتهاده . ذلك أن الحسين عليه السلام كان يحمل بيعة صحيحة كل الصحة ، وكذلك كان زيد يحمل بيعة صحيحة كل الصحة .

على كل حال ، إن آراء الشافعى هذه ــ برغم أنها السياسة بعينها ــ اجتهادات فقهية صرفة ، ولعل هذه الآراء إن كانت صدرت قبل لقائه مع الرشيد ، ذلك اللقاء الذى كانت حياته فيه على حافة الهاوية ، فإنها تكون السبب الحقيقى فى نجاته من تهمة الخروج على دولة الرشيد ، وهو مانحن بسبيل الحديث عنه بعد قليل ، غير أنى لا أستطيع إلا أن أقف وقفة غير قصيرة أتدبر فيها هذا الرأى الذى يلفت النظر ويصطدم اصطداماً مباشراً بالحديث الشريف الصحيح الإسناد : «الناس سواسية كأسنان المشط لا فضل لعربى على أعجمى إلا بالتقوى» وأن الشورى هى أساس الحكم فى الإسلام ، وأن هذه الشورى واحدة من مفاخر الإسلام العظمى .

براعة حواره وسرعة بديهته :

كان الشافعى من ذلاقة اللسان وإشراق البيان وسرعة البديهة ورباطة الجأش وجدية الحوار بحيث يستطيع إقناع من يستعصى إقناعهم ، وإفحام من يظنون أنهم

---

(٥٦) طبقات الشافعية ص ١٧ .

(٥٧) الشافعي ١٣٨ .

أفضل الناس علماً وبياناً ، بل إن حواراً جرى بين الشافعى والرشيد والسيف مرفوع فى وجهه والنطع مفروش تحت قدميه ليتلقى دمه ، فإذا بالحوار يحول الرشيد من آمر بالقتل إلى طالب علم وخاطب ودٍّ ، ويحوّل الشافعى من متهم بجرم إلى رائد ومعلم ، ذلك أن الشافعى قد اتهم مع تسعة من العلويين فى اليمن — وقيل فى مكة على اختلاف الروايات — بالخروج على الدولة العباسية ، فألقى القبض عليهم ومن بينهم الشافعى ، وكان إذ ذاك يتولى عملاً بنجران ، وأرسلوا إلى بغداد ، فضربت رقاب العلويين ، وجاء دور الشافعى وكان الفقيه الحنفى محمد ابن الحسن جالساً فالتفت إلى الرشيد وقال : يا أمير المؤمنين ، هذا المطلبى لايغلبنّك بفصاحته فإنه رجل لسن ، فقال الشافعى وهو فى موقفه الرهيب بين السيف والنطع : « مهلاً يا أمير المؤمنين فإنك الداعى وأنا المدعو ، وأنت القادر على ماتريد مني ، ولست القادر على ما أريد منك ، يا أمير المؤمنين ، ما تقول فى رجلين أحدهما يراني أخاه والآخر يراني عبده ؟ أيهما أحبُّ إليّ ؟ قال ؛ الذي يراك أخاه ، قال : فذاك أنت يا أمير المؤمنين ، إنكم ولد العباس ، وهم ولد عليّ ، ونحن بنو المطلب ، فأنتم ولد العباس ترونا إخوتكم ، وهم يرونا عبيدهم » ، وهنا يهدأ الرشيد و يسرى عنه و يستوى جالساً و يقول : يابن إدريس : كيف علمك بالقرآن ؟ فيجيب الشافعي : عن أى علومه تسألني ؟ عن حفظه ، فقد حفظته ووعيته بين جنبي وعرفت وقفه .. وابتداءه ، وناسخه ومنسوخه ، وليليّهُ ونهاريّهُ ، ووحشيّهُ وإنسيّهُ ، وما خوطب به العام يراد به الخاص ، وما خوطب به الخاص يراد به العام ، فيقول الرشيد : والله يابن إدريس لقد ادعيت علماً فكيف علمك بالنجوم ؟ فيجيب الشافعى : إني لأعرف منها البريّ من البحريّ ، والسهليّ والجبليّ والفيلق والمصبح وماتجب معرفته .

قال : فكيف علمك بأنساب العرب ؟ قال الشافعى : إنى لأعرف أنساب اللئام وأنساب الكرام ونسبى ونسب أمير المؤمنين ، قال لقد ادعيت علماً ، فهل من موعظة تعظ بها أمير المؤمنين ، فذكر الشافعى موعظة الطاووس اليمانى فوعظه بها فبكى ، وأمر له بخمسين ألفاً — لعلها من الدراهم — وحمل على فرس وركب

بين يدى الرشيد ، فما أن وصل الباب حتى فرقها جميعا على الحجاب والبوابين[٥٧] .

إنه موقف لايستطيع التغلب عليه والإفلات منه إلا ذو جأش رابط وإيمان بالله عميق وعلم غزير وبيان ناصع وبديهة سريعة ، وهكذا كان الشافعى .

ومناظرات الشافعى مع من عارضوه فى مذهبه كثيرة ، وما حاور واحداً منهم ألا غلبه ، ولا ناقشه إلا ظفر به وانتصر عليه .

وللشافعى مناظرات أخرى عديدة لعل أطولها وأطرفها تلك التى جرت بينه وبين إسحاق بن راهويه التى يمكن مراجعتها فى مصادرها لطولها .

الشافعى والشعر :

للشافعى كما ذكرنا مشاركة فى جميع علوم زمانه دينيّها ودنيويّها ، ولقد مرّ بنا أنه تفرغ فى صباه الأول للغة والشعر والأخبار ، وأنه عاش فى قبيلة هذيل يقوم لسانه ويحفظ أشعارها بضع سنين ، وأن الأصمعى صحح عليه شعر هذيل ، ومرَّ بنا أن مجلس الشافعى كان يبدأ بأهل القرآن وينتهى برجال الشعر والأدب ، ومرّ بنا أيضا قول يونس بن عبد الأعلى فيه : إذا أخذ فى العربية قلت هو بهذا أعلم ، وإذا تكلم في الشعر وإنشاده قلت هو بهذا أعلم .. وينسب إلى الشافعي أيضاً قوله : « من تعلم القرآن عظمت قيمته ، ومن نظر في الفقه نبل قدره ، ومن كتب الحديث قويت حجته ، ومن نظر في اللغة رق طبعه ، ومن نظر في الحساب جزل رأيه ، ومن لم يصن نفسه لم ينفعه علمه »[٥٩] واللغة التي يعنيها الشافعي هنا هى الأدب لأنه لا يرقق الطبع من علوم اللغة غير الأدب وكان أكثره على عهده شعراً .

إن النصوص الشعرية التي تركها الشافعي تنبئ عن موهبة شعرية خصبة وملكة قادرة دربها العلم وصقلها التحصيل ، ولولا أن الشافعي رفض أن يخرط نفسه في

---

(٥٨) المعجم ٢٨٧/١٧ .

(٥٩) طبقات الشافعية ص ٤٢ .

سلك الشعراء لكان له نصيب من شهرة في صفوفهم ، ولكنه التمس العظمة فيما هو أسمى من الشعر وهو الفقه والحديث وعلوم الدين ، وهذا الصنف من الرجال يرون أنه لا يجمل بهم أن يعرفوا بين جمهرة الناس كشعراء وهم في نفس الوقت لا يحاولونه ، فإذا حاولوه لا ينطلقون فيه إلى آخر الشوط ، ولعل خير ترجمان على هذا الرأي قول الشافعي نفسه :

ولـولا الشعـرُ بالعظمـاءِ يُزْرِي لكـنتُ اليـومَ أشعَـرَ من لبيـدِ

وهو مع ذلك لا يفتأ يصطنع الشعر ويفخر بأن له فيه نصيباً طيباً ، فمن ذلك قوله :[٦٠]

عنـدي يواقـيتُ القـريض ودُرُّهُ وعَلَـيَّ إكليـلُ الكـلامِ وتاجُـهُ
تُرْبِـي على روْض الرُّبـا أزهـارُهُ ويَـرِفُّ في نادِي النـدى ديباجُـهُ
والشاعـرُ المنطِيـقُ أسودُ سالـخٌ والشعـرُ منـه لعابُـهُ ومجاجُـهُ
وعـداوة الشعـراءِ داءٌ مُعضِلٌ ولقـد يهونُ على الكـريم علاجُـهُ

والواقع أن الفكرة في شعر الشافعي أكبر من ثوب الشعر نفسه ، أو بعبارة أخرى إن شعر الشافعي لا يسع أفكاره العميقة المتزاحمة ، والمثال على ذلك تلك الأبيات القافيّة التي يصبّ فيها بعض أفكاره الحكيمة :[٦١]

إنَّ الـذي رُزِقَ الـيسارَ ولم يُصِبْ حمداً ولا أجـراً لَغَيْـرُ موفَّـقِ
الجِـدُّ يُدْنِي كلَّ أمـرٍ شاسعٍ والجَـدُّ يَفْتَـحُ كلَّ بابٍ مُغْلَـقِ
وإذا سمعتَ بأنَّ مجدوداً حوى عوداً فأثْمَـرَ في يديْـهِ فَصَدِّقِ
وإذا سمعتَ بأنَّ محرومـاً أتى ماءً لِيَشْرَبَـهُ فَغَـاضَ فحقّـقِ
لو كان بالحِيَـلِ الغِنـى لوجدْتنـي بنجـومِ أقطـارِ السَّمـاءِ تَعَلُّقِـي
لكـنَّ مَنْ رُزِقَ الحِجَـى حرِمَ الغِنـى ضدَّانِ مفترقـانِ أيَّ تفَـرُّقِ
ومـن الدليـلِ على القضاءِ وكونِـه بؤسُ اللبيبِ وطِيبُ عيشِ الأحْمـقِ

---

(٦٠) الوفيات ٣/٣٠٨ .
(٦١) الوفيات ٣/٣٠٧ ، ٣٠٨ .

لا شك أن القدرة على اصطناع الحكمة خلال هذه الأبيات أكبر من القدرة على اصطناع الشعر الذي يلائم زنتها وقيمتها .

وللشافعي أبيات في الفخر لعل النسج والمعنى فيها قد سارا جنباً إلى جنب في تساوق ومساواة ، غير أننا لا ننتظر من العالم الجليل والإمام المقدم فخراً جاهليّ المعنى والمذهب . وإنما هو فخر في نطاق العلم ، والبيان والأخلاق[٦٢] :

إذا المشكـــلاتُ تصدَّيْـــن لِي ... كَشفْتُ حقائِقَهـــا بالنَّظَـــرْ
لسانٌ كشقْشقَـــةِ الأرْحَبِـــ ... ـيِّ أو كالحسامِ اليماني الذكـــرْ
ولستُ بإمَّعَـــةٍ في الرِّجـــا ... لِ أُسائِـــلُ هَذا وذَا ما الخبـــرْ
ولكنَّنِـــي مِدْرَهُ الأصْغَريْـــ ... ـنِ جلاَّبُ خيْـــرٍ وفـــرَّاجُ شرّْ

ومن لطائف شعر الشافعي في الفخر إثر محنة تعرض لها حين قطع عليه الطريق فدخل مسجداً وقد ارتدى ثوباً بالياً والناس يدخلون ويخرجون دون أن يلتفتوا إليه[٦٣] :

عَلَـيَّ ثيـابٌ لو يُبـاع جميعُهـا ... بفَلْسٍ لكـان الفلْسُ منهنَّ أكثـرَا
وفيهِنَّ نفسٌ لو يُقـاسُ ببعضِهـا ... نفـوسُ الـورَى كانتْ أجلَّ وأكبـرَا
وما ضَرَّ نصلُ السيفِ إخلاقُ غمدِه ... إذَا كانَ عَضْبا أيـن وجَّهْتَـهُ فَرَى

وإذا كانت النفس تفخر حيناً فإنها تشكو أحياناً ، ولا يضر النفس الكريمة أن تشكو مادامت شكواها مما لا ينال من قدرها ، بل إن الشكوى خليقة بأن تصدر من النفس الكريمة إذا ما أحست بشيء من الهوان ، فمن شعر الشافعي الذي يخاطب القلب خطاباً مباشراً قوله :[٦٤]

أصبحتُ مُطَّرَحاً في معشر جَهِلوا ... حقَّ الأديبِ فباعوا الرأس بالذنَبِ
والناسُ يجمعُهُمْ شَمْلٌ وبينَهـمُ ... في العقلِ فرقٌ وفي الآدابِ والحسَبِ

---

(٦٢) معجم الأدباء ٣٠٩/١٧ .
(٦٣) المعجم ٣٢٠/١٧ .
(٦٤) المصدر السابق ٣١٩/١٧ .

كمثلِ ما الذهبِ الإبْريزِ يَشْرَكهُ   في لونِه الصُّفْرُ والتفضيلُ للذهبِ
والعودُ لوْ لم تَطِبْ منهُ روائحُهُ   لم يَفْرِقِ الناسُ بينَ العُودِ والحَطَبِ

ويذكر الربيع بن سليمان المرادي خادم الشافعي وتلميذه ومريده أن سيده لما دخل مصر حين قدومه إليها جفاه الناس فلم يجلس إليه أحد ، فقال له بعض من قدم معه لو قلت شيئاً يجتمع إليك الناس ، فقال : إليك عني وأنشأ يقول :(٦٥)

أأنثُرُ دُرًّا بين سارِحَةِ البَهَمْ   وأَنظمُ منثوراً لراعيةِ الغَنَمْ
لعمرِي لئنْ ضُيِّعْتُ في شرِّ بلدةٍ   فلستُ مُضيعاً فيهمُ غُرَرَ الكلِمْ
لئن سهَّلَ اللهُ العزيزُ بلطفِهِ   وصادفْتُ أهلاً للعلومِ وللحِكَمْ
بَثَثْتُ مفيداً واستفدْتُ وِدَادَهُمْ   وإلاَّ فمكنونٌ لديَّ ومكتَتَمْ
ومَنْ مَنَحَ الجهَّالَ علماً أضاعَهُ   ومَنْ منعَ المستوجِبين فقدْ ظَلَمْ

وتستبد بالشافعي شكواه من مصاحبة من هو غير جدير بصحبته في غربته فيعبر عن ذلك في بيتين من الشعر الإنساني الرفيع قائلاً :(٦٦)

وأنزلني طولُ النَّوَى دارَ غُرْبةٍ   إذا شئتُ لاقيتُ امْرءًا لا أُشَاكِلُهْ
أُحَامِقُهُ حتى تُقَالَ سَجِيَّةٌ   ولو كان ذا عقلٍ لكنْتُ أُعَاقِلُهْ

والشافعي كثير الترحل محب للأسفار ، لقد حمل صغيراً من غزة إلى الحجاز . وفي الحجاز تنقل بين مكة والمدينة والبادية حيث تلقى الفصاحة والشعر في هذيل ، وحينما اشتد عوده سافر ليتقلد بعض الأعمال في اليمن ، ويزور العراق غير مرة ويقيم فيها مرة ثلاث سنين ومرة أشهراً ، ويختم حياته بزيارة مصر ، ومن ألف السفر ذاق لذته وأحس بقيمة ما يكتسبه منه من فوائد في العقل والنفس والبدن لا تقدر إلا بالثمن الربيح ، ولذلك فإن الشافعي يدفع نفسه إلى السفر دفعاً برغم ما فيه من مخاطر وفجاءات فيقول :

---

(٦٥) المصدر السابق ٣٠٩/١٧ .
(٦٦) المصدر السابق ٣١٠/١٧ .

سأَضربُ فِي طولِ البلادِ وعَرْضِها أنـالُ مرادي أو أمُوت غريبا
فإنْ تَلِفَتْ نفسي فَلِلَّهِ دَرُّها وإنْ سلِمَتْ كان الرجوعُ قريبَا

ولا تتلف نفس الشافعي من سفر بل تراض على الخبرة بالحياة والانتفاع بكل خطوة تخطوها في رحابها فيجعل من نفسه داعية للارتحال . ويدعو الناس إلى مشاركته حب السفر . ويقول أبياته النفيسة المشهورة المحفوظة عند كثرة من عقلاء الناس :

سافِرْ تجدْ عوضاً عمَّنْ تفارقُهُ وانْصَبْ فإنَّ لذيذ العيشِ في النَّصَبِ
إنّي رأيتُ وقوفَ الماءِ يُفْسِدُهُ إنْ سالَ طابَ وإنْ لمْ يجْرِ لَمْ يَطِبِ
والأُسْدُ لولا فِراقُ الغابِ ما افْترستْ والسَّهْمُ لَولا فِراقُ القَوْسِ لم تُصِبِ
والتِّبْرُ كالتُّرب مُلْقى في أماكِنِه والعُودُ في أَرْضِهِ نوعٌ من الحَطَبِ

وإذا عمد الشافعي إلى كتابة شعر وجداني فإنه يكون من أرق الشعراء لولا أن مكانته الدينية كانت تمنعه من التمادي فيه ، ولكنه ينهج سبيله في بعض المناسبات ، فقد مرض محمد بن عبد الحكم بن أعين القرشي المصري تلميذ الشافعي وصاحبه ، وكان قريباً إلى قلب الشافعي كل القرب ، بل كان أبوه وإخوته الثلاثة عبد الحكم وعبد الرحمن وسعد ــ فيما يروي صاحب الطبقات[٦٧] ــ من الملازمين للإمام ، وذهب الشافعي ليعود محمداً وعاد من زيارته وقد تألم لصديقه وتلميذه فقال هذين البيتين الطريفين :

مرضَ الحبيبُ فعُدْتُهُ فمرضْتُ من حَذَري عَلَيْهِ
وأتى الحبيبُ يَعُودني فبرِئْتُ من نظري إلَيْهِ

والحديث عن شعر الشافعي حديث قد يطول لو أطلقنا لأنفسنا فيه العنان ، لأن الشافعي كان شاعراً متمكناً ، وقد راض نفسه على فنون كثيرة من فنون العلم والقول ، وإذا كان هذا البحثُ لا يهتم بالشافعي الأديب قدر اهتمامه بالشافعي

(٦٧) طبقات الشافعية ص ٢٠

الإمام المجتهد ، فقد كان من الضرورة بمكان ونحن بسبيل استكناه شخصيته واستكشاف عبقريته أن نعرج على جانب الشعر فيه ، وأن نلم به إلمامه سريعة ، لأن الشعر واجهة من واجهات الأدب ، ولقد كان للشافعي مشاركة كبرى فعالة في الشعر والأدب حسبما تقدم من حديث .

فقه الشافعي :

سبقت الإشارة إلى أن الشافعي يجمع بين فقه أهل الرأي وفقه أهل الحديث ولكن بمقادير اختلف العلماء وبخاصة المحدثين منهم على ضبطها ، فمنهم من يرى أن الجمع بين مدرستى الفقه كان بمقادير متعادلة(٦٨) . ومنهم من يرى أنه في جمعه بين رأي المدرستين كان إلى مدرسة الحديث أقرب منه إلى مدرسة الرأي(٦٩) .

ومهما كان الرأي في الشافعي من حيث ارتباطه بهذه أو بتلك من مدارس الفقه ، فالذي لا شك فيه أنه كان فقيهاً مستقلا في رأيه متكاملاً في شخصيته ، غير متأثر كلياً بهذا أو بذاك من الأئمة الأجلاء الذين سبقوه ، لقد كانوا موضوع التقدير والامتداح لديه في مواطن شتى . كما كانوا موضع النقد الشديد متى دعت الحاجة العلمية والحقائق الفقهية إلى ذلك ، وأقرب دليل على هذا الرأي الأخير نقده لأستاذه مالك ، لقد ربى الشافعي علمياً وروحيا بين يدي مالك وظل ملازماً له حتى وفاته ، وبرغم استكمال أسباب النجاح وأدوات الإفتاء فإنه لم يجلس للفتيا في حياة أستاذه مع ما ذاع عنه من قدرة علمية فائقة أهّلته للإفتاء في الخامسة عشرة من عمره .

لقد نقد الشافعي آراء لأبي حنيفة مع احترامه الكامل لشخصه وعلمه وما أثر عنه فيه من أقوال كريمة . ولقد نقد كذلك الأوزاعي إمام أهل الشام وفقيههم ، ولا بأس في ذلك ما دام النقد لآراء أبدياها واختلف معهما فيها مع حفاظه على تقدير شخصية كل منهما .

(٦٨) راجع أبا زهرة في كتابة (الإمام الشافعي) ص ١٢ .
(٦٩) راجع الشرباصي في كتابة (الأئمة الأربعة) ص ١٥٠ .

أما الأمر فيما يخص الإمام مالك فمختلف إلى حدٍّ كبير ، ذلك أن الشافعي نشأ علميا في حجره كما يقولون ، ولكن حينما اشتد عوده واكتملت شخصيته واستقلت آراؤه المستمدة من حصيلته العلمية وملكته المجتهدة الخلاقة ، بدأ في إصدار أحكامه التي كانت تتفق حيناً مع آراء أستاذه وتختلف معها حيناً آخر . دون أن يقول شيئاً عن مدى اتفاقه أو اختلافه مع أستاذه الذي كان قد رحل عن الدنيا وبقي فقهه في كتبه وصدور تلامذته ومريديه .

لقد كان واضحا أن الشافعي ذو شخصية فقهية مستقلة مما كان يصدر عنه من آراء شفهية في أمور الدين في مجالسه في المدينة ومكة ، أو ما كان يصدر عنه مكتوباً ، مثل تلك الآراء التي صدرت عنه في « الرسالة » وقد كتبها في ريعان شبابه وبيّن فيها شروط الاستدلال بالقرآن والسنة والإجماع والقياس وبيان الناسخ والمنسوخ ومراتب العموم والخصوص ، إلى غير ذلك من الموضوعات الدينية والقضايا الفقهية التي جعلت رجلا مثل عبد الرحمن بن مهدي اللؤلؤي البصري أحد كبار حفاظ الحديث يقول حين قرأها : ما أظن أن الله عز وجل خلق مثل هذا الرجل ، يعني الإمام الشافعي .

وإذن فالشافعي حينما يعارض آراء أستاذه مالك فما كان ذلك طلباً لشهرة أو محاولة لاستقطاب الأنظار إليه ، فإن ذلك الأمر لم يكن في نطاق تفكيره ، وإنما لأن قدرته الاستنباطية وملكته الفقهية قد أهلتاه لمكانة من التفكير المستقل عن غيره والاستدلال المبني على أسس من العقيدة وأصول من الشريعة ودعامات من الكتاب والسنة لم يستطع غيره أن يفهمها فهمه إياها أو أن يجعلها قاعدة لاستنباطه ومصدراً لاجتهاده .

ولكن الأمر الذي يدعو إلى النظر هو أن معارضة الشافعي لأستاذه مالك كانت عالية الصوت لأنه ألف فى ذلك كتاباً أسماه « خلاف مالك » تردد في إعلانه على الناس بعض الوقت ، ثم ما لبث أن دفعته بعض الأسباب إلى إعلانه ، أهمها أن بعض المسلمين في الأندلس اتجهوا إلى جعل مالك شخصاً مقدساً . بل إنهم قدسوا آثاره وثيابه ، وقد كان له قلنسوة بالأندلس فأخذ الناس يتبركون بها

وزاد الطين بلّة أن قوماً من المسلمين كانوا إذا قالوا في مجال الاستشهاد قال رسول الله ، رد قوم آخرون قائلين : قال مالك ، الأمر الذي تهدّد العقيدة كلها بفتنة لا يعرف مداها إذا ما غُضَّ الطرف عنها إلا الله . هنا يتقدم الشافعي ويقدم على تخطئة مالك فيما لم يكن موفقاً فيه من آراء ليثبت للناس ، وخاصة أولئك الذين فتنوا به ووضعوا أقواله في مواجهة أقوال الرسول ، أن مالكاً بشر يخطئ ويصيب ، وأنه من الخروج على سنن هذا الدين أن يواجه قول الرسول بأي قول آخر غير كتاب الله إذا كانت ثمة أسباب إلى ذلك . وهو ما لم يحدث إلا في مجالات الإفصاح عن قضية جاء بها الكتاب العزيز مجملة فجاء الحديث الشريف ففصلها ، هذه هي في الحقيقة جوهر الأسباب التي دعت الشافعي إلى مخالفة أستاذه إلى المدى الذي جعله يؤلف كتاباً يثبت فيه ما هو كائن بينهما من خلاف ، ولكن الشافعي برغم هذا الخلاف في وجهة النظر لم ينل من أستاذه بكلمة واحدة خارجاً عن الجادة أو بجملة واحدة قد ندت على النهج المهذب في أدب النقد .

وإذن وقد ألممنا بالمرحلة التي هيأت للشافعي أسباب الاستقلال يمكننا أن نلخص أهم أرائه الفقهية في النقاط الآتية :

أولا : يقوم مذهب الشافعي على الأخذ بالكتاب والسنة والإجماع والقياس ، وهي المبادئ التي ذكرها في كتابه « الرسالة » فكانت بمثابة العناصر الجديدة المعالم في محيط الفقه الإسلامي عند جمهرة الفقهاء ، حتى إن واحداً من الفقهاء هو الكرابيسي يقول : ما كنا ندري ما الكتاب ولا السنة ولا الإجماع حتى سمعنا الشافعي يقول الكتاب والسنة والإجماع ، وحتى إن عالماً كأبي ثور يقول : لما قدم علينا الشافعي كان يقول : إن الله تعالى قد يذكر العام ويريد به الخاص ، وقد يذكر الخاص ويريد به العام وكنا لا نعرف هذه الأشياء فسألناه عنها فقال : إن الله تعالى يقول « إنَّ النّاسَ قد جمعُوا لكُمْ » والمراد أبو سفيان ، وقال « يا أيُّهَا النبيُّ إذا طلّقْتُمُ النِّساء» فهذا خاص والمراد به عام[٧٠] ، هذا نهج من الكلام في الفقه والأصول لم يكن المسلمون يعرفون عنه شيئاً قبل الشافعي .

---

(٧٠) الشافعي ١٤٥ .

ثانيا : فقه الشافعي مزيج من فقه أصحاب الرأي وهم أصحاب أبي حنيفة ، وأصحاب الحديث وهم أصحاب مالك ، وقد كان لكل من الفريقين سلوكه الخاص في الفهم والتفكير والاستنباط ، أهل الرأي أصحاب نظر وجدل وسعة أفق وقدرتهم على استيعاب الآثار والسنن محدودة ، وأصحاب الحديث حافظون لأحاديث الرسول ،متمكنون من أخباره وآثاره وأفعاله ، غير أنهم ليسوا أصحاب جدل أو عميق استنباط، ولابد للفقه وصاحب الفقه من أن يكون على مقدرة من الاستعانة بالحديث والرأي جميعاً . والإمام الشافعي صاحب رأى وجدل وحسن نقاش وسرعة بديهة ، وقد مرّ علينا شيء من ذلك في حواره مع الرشيد ، وهو في نفس الوقت عالم بالحديث ، أيقظ رجاله من سباتهم فتيقظوا ، وهو الذي وضعهم على المحجة البيضاء حسبما مر بنا قبل صفحات ، وهو في الجملة « ناصر الحديث » ذلك اللقب الذي خلعه عليه علماء عصره عن عدل وجدارة واقتناع ، وإذن فقد أصبح الشافعي ذلك الإمام القادر على المزج بين مقدرة أهل الحديث وإمكانية أهل الرأي فجاء فقهه مزيجاً من المدرستين ، ومن ثم فقد اعتبر الشافعي مؤسس علم أصول الفقه الذى صار أساساً من أسس مدرسته وعماداً من أعمدة مذهبه حتى إن الفخر الرازي قال في ذلك : إن نسبة الشافعي إلى علم الأصول كنسبة أرسطو إلى علم المنطق وكنسبة الخليل بن أحمد إلى علم العروض ، وليس من شك في أن الذي يقرأ « الرسالة » للشافعي يستطيع في يسر أن يلمح الجهد الذي بذله في وضع القوانين التي يمكن الرجوع إليها في معرفة مراتب الاستدلال في نطاق الشريعة الغراء .

ثالثاً : تبدو مدرسة الحديث عند الشافعي أوضح أصولا وأقرب متناولا ، ذلك أنه يعتمد أول ما يعتمد على القرآن الكريم في جميع الأحكام وأصول التشريع ، ويتبع الكتاب بالسنة التي أظهر وجوهها الحديث ، وهو ليس في حاجة إلى الأخذ بالرأى مادام الحديث الشريف قد سَدَّ الثغرة التي أمامه في حكم أو رأي ، وكان دستوره في ذلك قوله : مهما قلت من قول أو أصَّلْت من أصل وفيه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم خلاف ما قلت ، فالقول ما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو قولي . ولعل هذا الملحظ بالذات يفسر لنا الدافع الذي

حدا بالشافعي إلى الحملة على بعض آراء مالك حين جعل بعض أصحابه من آرائه أهلاً لأن تواجه الأحاديث الشريفة كمصدر للتشريع .

رابعاً : يأخذ فقه الشافعي بمبدأ الإجماع ، ذلك أن الحقائق الشرعية جميعاً تحمله على أن يعتبره حجة يجب الأخذ بها ، فوضع له المقاييس التي تنظمه والموازين التي تكشف بطلان دعوى من يعمد إلى استغلاله دون برهان ثابت أو أساس من الدين مكين ، على أن الشافعي جعل الإجماع ـــ وهذا منطق ـــ يأتي في المرتبة بعد مرتبة الكتاب والسنة لا يتقدم عليهما حتى ولو كان هناك حديث خبر آحاد .

خامساً : يأخذ فقه الشافعي بالقياس ، وكان الشافعي أول من تكلم فيه حين لاحظ أن الفقهاء لم يضعوا حدا بين الرأي الصحيح والرأي غير الصحيح ، فجاء الشافعي فقعّد القواعد للرأي الذي يعتقده صحيحاً والاستنباطات التي لا تكون صحيحة « فرسم حدود القياس ورتب مراتبه ، وقوة الفقه المأخوذ عن القياس بالنسبة للفقه المأخوذ عن النص ، ثم بيّن الشروط التي يجب توافرها في الفقيه الذي يقيس »[٧١] وبين الشافعي أن هناك فرقا كبيرا بين أنواع الاستنباطات الأخرى وبين القياس في نطاق الحدود التي رسمها له .

سادساً : أبطل الشافعي مبدأ الاستحسان ، وألف في ذلك كتاباً سماه « إبطال الاستحسان » وهو المبدأ الذي أخذ به أبو حنيفة من قبل ، ويعلل الشافعي نظريته في إبطال الاستحسان ، بأن الفقيه حين يأخذ بهذا المبدأ بعد أن استشار الكتاب والسنة والأثر والإجماع والقياس يكون قد أخذ بما استحسنه هو وليس بما أعطاه الدليل من الكتاب والسنة ، وثمة دليل آخر يسوقه الشافعي على إبطال الاستحسان هو أن الاجتهاد بطريق الاستحسان من غير الاعتماد على أصل من الشرع أو نص من الكتاب والسنة يكون اجتهاداً باطلاً ونتيجته تبعاً لذلك باطلة .

---

(٧١) الشافعي لأبي زهرة ص ٢٦٧ وانظر بقية فصل القياس عنده .

مؤلفات الشافعي :

للشافعي عديد من المؤلفات التي كتبها جميعاً متصلة بعلوم الفقه والحديث . لقد أورد ياقوت الحموي للشافعي مائة وسبعة وأربعين كتاباً[٧٢] ، هذا بخلاف المؤلفين الكبيرين « الرسالة » و « الأم » على أننا نستطيع الحكم بأن هذه الكتب العديدة كلها ليست كتباً بالمعنى الصحيح ، وإنما هي رسائل أو مباحث قصيرة لا يسمح العنوان الذي تحمله بأن يؤلف فيها كتاب ، مثال ذلك كتاب صلاة الكسوف ، كتاب صلاة الاستسقاء ، كتاب صلاة الجنائز ، كتاب اليمين مع الشاهد ، كتاب كري الإبل والرواحل ، كتاب المزارعة ، كتاب المساقاة ، كتاب الرضاع ، كتاب بيع المصاحف ، كتاب خطأ الطبيب ، كتاب جناية البيطار والحجام ، كتاب صلاة الخوف .. وهكذا ولا شك فى أن هذه الكتب ليست إلا مجرد رسائل محدودة الصفحات فضلا عن أن المتصفح لكتاب « الأم » يجد أن أكثرها مضمنا في موضوعاته. وإذن فإن أشهر ما للشافعي من كتب كتابان اثنان نفيسان هما كتاب « الرسالة » وكتاب « الأم » .

وكان الشافعي شأن كل عالم متفتح يعيد النظر في كتبه وأفكاره بين الفينة والفينة ، يستبعد منها ما يكتشف أنه لم يعد يتفق مع وجهة نظره ، ويضيف إليها ما قد استحدث من أفكار .

فأما « الرسالة » فقد قرئت ببغداد ، وإن كان اختلف في مكان تأليفها ، هل ألفت بمكة أم ألفت ببغداد ؟ وهي من أنفس ما أُلِّفَ في الفقه بل إن الشافعي وضع فيها علم أصول الفقه ، وقد انتفع بها القدامى والمحدثون ، فهذا إسماعيل بن يحيى المزني الفقيه يقول : إني أنظر في الرسالة منذ خمسين سنة ما أعلم أني نظرت فيها مرة إلا استفدت منها شيئاً لم أكن أعرفه ، ولقد ألف الشافعي « الرسالة » استجابة لرغبة محدِّث أهل العراق عبد الرحمٰن بن مهدي، وقد أعاد الشافعي النظر فيها وفي غيرها عند استقراره بمصر ، ولقد تُرْجِم هذا المؤلف النفيس إلى اللغة الإنجليزية ونشر في أمريكا قبل سنوات قليلة .

---

(٧٢) المعجم ١٧/ ٣٢٤ — ٣٢٧ .

وأما « كتاب الأم » فهو ثاني كتب الشافعي الكبيرة ، ونصيبه من الشهرة والتقدير لا يقل عن نصيب أخيه « كتاب الرسالة » وهو كتاب فقه ضم أكثر أفكار الشافعي في مسائل الفقه المتنوعة من عبادات ومعاملات ، وهي نفس الموضوعات التي ذكرها ياقوت في معجم الأدباء على أنها كتب مستقلة كما سبق القول .

وقد ذهب بعض المؤرخين إلى أن « كتاب الأم » ليس من تأليف الشافعي وإنما هو من تأليف تلميذه العالم الجليل أبي يعقوب يوسف بن يحيى البويطي ، على أن في الأمر كثيراً من اضطراب الروايات التي ينبغي أن نأخذها بالحذر الشديد ، فإن الشافعي كان يملي أفكاره حيناً ويكتبها حيناً آخر ، وحينما توفي لم تكن بعض كتبه قد جمعت ، وبالتالي فإن الذين قاموا بجمعها هم تلاميذه ومن بينهم البويطي والربيع بن سليمان ، ومن هنا حدث اللبس والغموض اللذان أثيرا حول كتاب الأم ، وقد ذهبت الكثرة من المحققين والفقهاء إلى تأكيد صحة نسبة « الأم » إلى الشافعي .

وهناك كتاب ثالث للشافعي ألفه في العراق عرف باسم « كتاب الحجة » اشتمل أيضاً على مسائل فقهية وعلى كثير من الفروع .

ومهما كان الأمر ومهما اختلف على نسبة بعض كتب الشافعي إليه فإنه الإمام العلم الذي ملأ آفاق الأرض الإسلامية علماً وفضلاً .

لقد قضى الشافعي السنوات الأخيرة القليلة من حياته في مصر ، وكان شديد الحنين إليها ، فقد طوف في كثير من أراضي المسلمين من حجاز وعراق ويمن وبقيت أمامه مصر التي تنبأ بأن ترابه سوف يكون فيها برغم أنه كان دون الخمسين حين وفد إليها ، مستجيباً لدعوة واليها العباس بن عبد الله . فقد قال في ذلك :

لقد أصبحتْ نفسي تتوقُ إلى مِصْرِ	ومِنْ دونِها قَطْعُ المَهامِهِ والقَفْرِ
فو الله ما أدْري أَلِلْفَوزِ والغِنى	أُسَاقُ إليها أَمْ أُسَاقُ إلى القَبْرِ

لقد أصاب الشافعي فيها الاثنين ، أصاب الفوز وغنى الشهرة ولو أراد لأصاب من غنى المال ، ولكن المال لم يكن يعنيه ، وأصاب أيضاً نهاية رحلة حياته ، لقد كانت رحلة الشافعي إلى مصر وإقامته فيها أول الأمر محفوفة بالمتاعب لكثرة أنصار مالك الذين كانوا يشغبون عليه ، ثم ما لبث القوم أن عرفوا قدره وتجمعوا من حوله وطابت له الحياة وفاض نبع علمه ونضجت ثمار فقهه ، ولكن أصحاب الرأي معرضون لاعتداء الحمقى في كل زمان ومكان ، فقد كان رجل من أنصار مالك اسمه فتيان يناظر الشافعي في بعض المسائل الفقهية فأفحمه ، الشافعي فلم يعجبه ذلك فشتم الشافعي الذي لم يقابل فتيان إلا بالتجاهل ، ولكن والي مصر آنذاك السريّ البلخي علم بما جرى من تطاول فتيان على الإمام الجليل فأوقع به عقوبة الضرب بالسياط والتشهير على جمل يطوف به ، وقد جعل مناد ينادي هذا جزاءُ من سبّ آل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولكن قوماً من السّفهاء تعصبوا لفتيان وتوجهوا إلى حلقة الشافعي حتى إذا رأوا انصراف تلاميذه هجموا عليه وضربوه ، فحمل إلى منزله ولم يزل به عليلاً حتى اختاره الله إلى جواره في رجب سنة مائتين وأربعة للهجرة ، وكان وصوله إلى مصر سنة ثمان وتسعين ومائة ، وفي رواية سنة تسع وتسعين ومائة ، وفي يقيننا أن ما تعرض له الإمام الجليل من عدوان لم يكن السبب المباشر في وفاته ، ذلك أنه كان موصول المرض بعله مصحوبة بنزيف لم يكن للطب آنذاك من سبيل إلى علاجها ، فكان طول مدة العلة واستمرار النزيف مؤديين إلى الضعف والوفاة ، وكان الإمام يردد هذه الكلمات البليغة المؤثرة الحزينة : أصبحت من الدنيا راحلاً ، وللإخوان مفارقاً ، ولكأس المنية شارباً ، وعلى الله عز وجل وارداً ، ولا والله ما أدري روحي تصير إلى الجنة أو إلى النار فأعزيها ، ثم أنشأ يقول :

فلمَّا قسَا قَلْبي وضاقَتْ مذاهِبــي	جَعلْتُ رَجَائِي نحْوَ عفْوِكَ سُلَّمَــا
تعاظَمَنــي ذنْبــي فلمَّــا قَرَنْتُــهُ	بعفْوِكَ ربِّي كانَ عَفْــوُك أعْظمَــا
فمازلت ذا عفْو عن الذنْب لمْ تزلْ	تجودُ وتعْفُــو مِنَّــةَ وتكَرُّمَــا
فلولاك لم يُقْــدرْ بإبْلــيس عابـــدٌ	فيكف وقَدْ أغْوَى صفيَّكَ آدَمَــا

الإمام أحمد بن حنبل
١٦٤ / ٢٤١ هـ

يأتي ترتيب الإمام أحمد بن حنبل بين أصحابه المشهورين من أئمة السنة الرابع من حيث الترتيب الزمني ، فقد ولد سنة مائة وأربع وستين وتوفي سنة مائتين وواحد وأربعين هجرية ، وأما من حيث وزنه العلمي والديني فنحن أمام رجل فريد في عقيدته وعلمه ، شجاع في رأيه ومسلكه ، لا يخشى في الله لومة لائم ، خاشع لربه ، صائم قانت ، ورع زاهد ، يرعى الله في كل قول وفعل ، ويخشاه في كل لمحة وحركة ، ويتمثله في كل لحظة وطرفة عين .

لقد كان ابن حنبل ملء السمع والبصر بحياته الحافلة بألوان من المجابهات الشديدة التي امتحن بسببها امتحاناً شديداً لم يتعرض لمثله الأئمة السابقون له ، برغم ما صادفهم من شدائد لا بد لأصحاب الرسالات دائماً من أن يصادفوها وأن يكتووا بنارها .

إن اسمه كاملاً أحمد بن محمد بن حنبل الشيباني وكنيته أبو عبد الله ، فهو عربي النجار وإن ولد بمرو حيث كان يعمل أبوه ، حمل إلى بغداد رضيعاً ورُبي يتيماً ، ونشأ فقيراً ، وأحب العلم حبًّا شديداً ولم يكن لديه من المال ما يقيم أوده ، لم

يتردد في الإقدام على أيٍّ من الأعمال ليكسب قوت يومه مادام هذا العمل شريفاً ، كان ينسج الثياب ويبيعها ، وكان يكتب بالأجرة ، وكان يلتقط بقايا الزرع من الحقول بعد الحصاد ، وكان يعمل حمالا مع الحمالين في بعض الأوقات إذا اقتضته الضرورة ، لقد صنع ذلك وهو في طريقه إلى اليمن لتحصيل حديث رسول الله الذي شغف به وتفرغ له حتى أصبح يلقب « إمام المحدِّثين » .

علمه وزهده :

هذا الرجل الفقير ـــ أحمد بن حنبل ـــ يجلس إلى كبار علماء زمانه يتلقى عنهم ، فيجلس إلى أبي يوسف يعقوب بن إبراهيم صاحب أبي حنيفة ، وهشيم بن بشير بن أبي حازم الواسطي أستاذ الحديث ببغداد ويلازمه سنوات أربع ويكتب عنه ثلاثة آلاف حديث ، ويطوف في الآفاق ويرحل إلى اليمن والكوفة والبصرة والمدينة ومكة ، والرحلة أمر ضروري لكل رجال الحديث ، ولقد سبق أن فعل الشافعي ذلك حين أحب السفر ومجّد الارتحال . وفي مكة يلتقي أحمد بالشافعي ويسمع عنه فيعجب به ويلزم مجلسه ، ثم ينتقل الشافعي إلى بغداد فتزداد صلة أحمد به توثقاً ، فيطيل الجلوس إليه ويتعلم منه الفهم والاستنباط واستخراج الأحكام ، ويرحل الشافعي إلى مصر ، ويكاد أحمد يلحق به غير أن ظروفه لم تساعده على ذلك ، فيبقى في بغداد ، وتظل المراسلات قائمة بينه وبين الإمام الشافعي على بعد الشقة وطول المسافة بين البلدين .

ولكن الشافعي لا يغادر بغداد حتى يشهد لأحمد شهادة تضعه على رأس علمائها ، ذلك أن الشافعي بوزنه العلمي الديني الكبير لا بد من أن تكون لشهادته قيمة تعدل وزنه ، ولذلك فهو يقول : خرجت من بغداد وما خلفت فيها أتقى ولا أفقه من ابن حنبل[٧٣] .

وكان الشافعي يقول له : أنتم أعلم بالحديث وبالرجال ، بل إنه ـــ أي الشافعي ـــ تقديراً منه لابن حنبل وشهادة منه له بالفضل قال يوماً لتلميذه الربيع

---

(٧٣) وفيات الأعيان ١٠/٤٨ .

ابن سليمان في مصر : أحمد إمام في ثماني خصال : إمام في الحديث ، إمام في الفقه ، إمام في اللغة ، إمام في القرآن ، إمام في الفقر ، إمام في الزهد ، إمام في الورع ، إمام في السنة[٧٤] .

لقد صدق الشافعي في كل صفة من هذه الصفات التى وصف بها ابن حنبل ، فإن ما جمع من أحاديث صحيحة ضمنها المسند وغير المسند تشهد لجامعها بإمامة الحديث ، وإذا كان أصحابه على عادتهم في المبالغة ، قد نسبوا إليه حفظ ألف ألف حديث وهذا مستحيل طبعاً ، لأن الأحاديث المنسوبة إلى الرسول لم تزد عن سبعمائة ألف حديث ، فإن المعروف أن ابن حنبل كان يسافر من قطر إلى قطر ليجمع أى عدد من الأحاديث مهما قلّ ، ولو رجع بحديث واحد لاعتبر نفسه فائزاً ، بل إن صفته التحديثية قد حجبت صفته الفقهية ، ولذلك حكم كثير من أهل التخصص بأنه محدّث أكثر منه فقيها ، والحق أن ابن حنبل اهتم بالحديث اهتماماً بالغاً ، وهل هناك شيء أخلق بالاهتمام والحفظ والتدوين ـــ بعد كتاب الله ـــ من حديث رسول الله ؟ لقد كان ابن حنبل حفاظاً منه على الحديث يدونه ويقول : الكتاب ـــ يقصد التدوين ـــ أحفظ شيء ، وكان يقول لتلميذه ابن المديني لا تتحدث إلا من كتاب ، ومثل هذا القول يدل من ابن حنبل على شعور كامل بمسئولية العلم وأمانته ، فما زالت أسلم الطرق للتحدث أو إلقاء الدروس أن يستعين المتحدث بشيء مكتوب أمامه ، تفادياً لخطأ غير متوقع وأماناً من زلل مفاجئ .

على أن هذا الذي نعتبره فضلاً عند ابن حنبل قد ذهب بعض معارضيه إلى اعتباره عيباً فيه وفي أصحابه ، لأنهم دائمو التدوين ، وبالتالي فليس لديهم الوقت للتفكر وإبداء الرأي ، فكان ابن حنبل يرد عليهم بقوله : أنا أطلب العلم إلى أن أدخل القبر ، وقد أرسل في ذلك جملته الشهيرة الرائعة : مع المحبرة إلى المقبرة .

والإمام ابن حنبل مع علمه كان تقياً ورعاً ، فقد ذكر ابنه عبد الله أنه كان يقرأ القرآن كل أسبوع ختمتين ، واحدة بالليل وواحدة بالنهار ، كما أثر عنه أنه كان

(٧٤) طبقات الحنابلة ١/٥ .

يصلي في الليلة ثلاثمائة ركعة فلما ضعفت صحته بدافع المرض جعلها مائة وخمسين .

وبالرغم من كونه محدثاً وفقيهاً فقد كان يناجي الله مناجاة الصوفية على ما بين الفقهاء والصوفية من خلاف أصيل ، كان ابن حنبل يقول : اللهم إن كنت تعلم أني أحبك خوفاً من نارك فعذّبني بها ، وإن كنت تعلم أني أعبدك طمعاً في جنتك فأحرمنيها ، وإن كنت تعلم أني أعبدك حباً مني لك وشوقًا إلى وجهك الكريم فأبحنيه مرة واصنع بي ماشئت[٧٥] . ومهما اختلف البعض في طبيعة هذا الدعاء وضرورة الشعور نحو الله جل وعلا بالخشية والرهبة إلى جانب الحب ، فإن دعاء ابن حنبل يدل على تعلق وفناء في الذات الإلهية بدرجة عالية لا تتوفر إلا للقليل من الصالحين .

وأحمد بعد ذلك زاهد إلى الحد الذي جعله يرفض الجلوس على الحصير لأنه ترف ، ومن ثم فقد آثر أن يجلس على التراب ، ويسعى إليه المجد من قبل الخليفة المتوكل ليتولى ابنه المعتز بالعلم والرعاية ولكنه يعتذر ، وليته فعل ، فقد كان الحكم آنذاك في حاجة إلى ملك يربيه إمام عظيم مثل ابن حنبل ، ولكن الإمام العظيم كانت له وجهة نظره الخاصة ، بالإضافة إلى أنه كان في تلك الفترة من حياته قد آلى على نفسه أن يمتنع عن التحدث .

إن أحمد بن حنبل قد استجمع كل صفات الإمامة ومقوماتها ، ولذلك فقد كان شيخ العراق وإمام مشايخ بغداد ، وكان الناس يسعون إلى درسه العام بالآلاف ، لقد كان له درس خاص في بيته ، ودرس عام في المسجد يحضره عادة من المريدين مايناهز الخمسة آلاف ، من بينهم خمسمائة يمسكون الأقلام ويكتبون ، والباقون يتعظون أو يتبركون .

ولم يكن الإمام أستاذاً للعامة وحسب ، لقد كان استاذاً وإماماً لخاصة الخاصة ، كان أستاذاً للمحدث عبد الرحمن بن مهدي ولأبي حاتم الرازي وموسى ابن هارون وبقي بن مخلد الأندلسي ، وعلى بن المديني ، ثم هو إلى ذلك كله أستاذ

---

(٧٥) طبقات الحنابلة ١/٢٣١ .

شيخي الحديث وعلميه الخفاقين محمد بن إسماعيل البخاري ومسلم بن الحجاج النيسابوري[٧٦] .

ولكن في غمرة هذه الشهرة كثيراً ما تجري أحداث مضحكة حيناً ومؤسفة حيناً آخر ، فأما الأحداث المضحكة فمنها أن الإمام ابن حنبل دخل مسجد المنصور ببغداد ذات يوم ومعه يحيى بن معين المحدث فوجدا فيه رجلاً قصاصاً ــ أي واعظاً ــ يقول : «حدثني أحمد بن حنبل ويحيى بن معين بكذا وكذا » ولم يكن أحد منهما حدثه بشيء ، وإنما أراد الرجل أن يدخل في روع سامعيه أنه مخالط لكبار المحدثين متلق عنهم ، وليته كان يقول حديثاً صحيحاً وإنما كان كلامه مليئاً بالخلط والأكاذيب ، فالتفت ابن حنبل إلى يحيى وقال له مغيظاً : أنت حدثته بهذا . فأجاب يحيى بالنفي ، فقال له أحمد : قم إليه فانصحه ، فرأى يحيى أنه من الأفضل لو نصحه ابن حنبل نفسه ، وتقدم إلى الرجل وقال له : أنا أحمد بن حنبل وهذا يحيى بن معين ، فمتى حدثناك بهذا ؟ ولكن الرجل كان من الوقاحة وسرعة البديهة وحدة الجواب بحيث قال لهما : مازلت أسمع بحماقتكما حتى رأيتكما . ألا يوجد في الدنيا أحمد بن حنبل ويحيى بن معين غيركما ، فلم يجد ابن حنبل ويحيى بدّا من أن يضحكا وينصرفا .

هذه واحدة وأما الأخرى فتتمثل في الشدة والخشونة البالغتين اللتين اتصف بهما أنصار ابن حنبل وأتباعه وتلاميذه ، يصفهم واحد من أجلة الفقهاء الحنابلة وهو شيخ الإسلام أبو الوفاء بن عقيل الحنبلي فيقول إنهم « قوم خشن تقلصت أخلاقهم عن المخالطة وغلظت طباعهم عن المداخلة ، وغلب عليهم الجد ، وقل عندهم الهزل ، وغربت نفوسهم عن ذل المراءاة ، وفزعوا عن الآراء إلى الروايات ، وتمسكوا بالظاهر تحرجاً عن التأويل ، وغلبت عليهم الأعمال الصالحة فلم يدققوا في العلوم الغامضة ، بل دققوا في الورع وأخذوا ما ظهر من العلوم ، وما وراء ذلك قالوا : الله أعلم بما فيها من خشية باريها » .

---

(٧٦) وفيات الأعيان ١/٤٨ .

ومن الأمور التي بدت فيها حدة التصرف والاندفاع ذهابهم إلى الطبري وعتابهم له لأنه في كتابه « اختلاف الفقهاء » عدّ ابن حنبل محدثاً ولم يعدّه فقيهاً ، فلما أجابهم بقوله : ما رأيته رُوي عنه ولا رأيت له أصحاباً يعول عليهم ، وثبوا عليه ورموه بمحابرهم ثم قذفوا داره بالحجارة إلى أن تدخلت الشرطة واضطر الرجل حفاظاً على نفسه أن يعتذر لهم ، وعندما مات الطبري منع الاحتفال به ودفن في داره ليلاً .

هكذا يصفهم أحد أعلامهم بما يمكن أن يسمى بالسلبية الفكرية في العصر الحديث . هذا وللقوم مبالغات في بعض الآراء والأخبار دفع بهم إليها حماسهم لمذهبهم وتعلقهم بشيخهم وإمامهم وإمام المسلمين ، لأنه يستحق ذلك عن جدارة ، ولكن ما كان ذلك سبباً يذهب بأحدهم ، وهو علي بن المديني ، إلى القول بأن الله أيد هذا الدين باثنين لا ثالث لهما هما أبو بكر الصديق يوم الردة وأحمد بن حنبل يوم المحنة .[77] ثم لا يلبث ابن المديني أن يقطع في الحماس لنفس الموضوع شوطاً أبعد من ذلك حين يروي الميموني على لسانه أنه ما قام أحد بأمر الإسلام بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم ما قام أحمد بن حنبل . فقال له : يا أبا الحسن ولا أبو بكر الصديق ؟ قال : ولا أبو بكر الصديق . إن أبا بكر كان له أعوان وأصحاب وأحمد لم يكن له أعوان وأصحاب[78] ومن هذه المبالغات ما ذكره علي ابن موفق المعروف بأبي الحسن العابد من أنه قرأ أن أحمد بن حنبل حج ستين حجة[79] ، ومن المعروف أن أول حجة حجها ابن حنبل كانت سنة مائة وست وثمانين وأنه مات سنة مائتين وواحد وأربعين ، فلو أن ابن حنبل أدى الفريضة كل سنة منذ أول حجة حتى يوم وفاته ، وهو ما لم يحدث ، لما وصلت عدد المرات التي حج فيها إلى هذا القدر . وعلى درب هذا اللون من الحماس يقول زكريا بن يحيى الساجي : أحمد بن حنبل أفضل عندي من مالك والأوزاعي والثوري والشافعي[80] وهو أمر لو صح عنده واقتنع به فإن فضل هؤلاء الأئمة

---

(٧٧) [illegible] ١٣١

(٧٨) [illegible] ١٧

(٧٩) [illegible] ٣٣١

(٨٠) [illegible] ١٨

الأعلام ينبغي أن يقف بالساجي عند حد المتعارف عليه من وجوب التوقير عند الحديث على الأئمة ، وينسب صاحب الطبقات إلى الربيع بن سليمان أنه سمع الشافعي يقول : من عاند أحمد بن حنبل فهو كافر ، ويكمل المؤلف الحوار حتى يمكّن الشافعي من الدفاع عن وجهة نظره . يقول الربيع : تطلق عليه اسم الكفر ؟ فيقول الشافعي : من عاند أحمد بن حنبل عاند السنة ، ومن عاند السنة قصد الصحابة ، ومن قصد الصحابة أبغض النبي ، ومن أبغض النبي صلى الله عليه وسلم كفر بالله العظيم[٨١] . ومن هذه المبالغات أيضاً ما ذكر في طبقات الحنابلة من أنه « يوم موت ابن حنبل وقع النوح في المسلمين واليهود والنصارى والمجوس وأسلم عشرون ألفاً منهم »[٨٢] الأمر الذي جعل الذهبي يعلق على ذلك وينكره قائلاً : لو أسلم عشرة لكان عظيماً ولرواه أكثر من عشرة .

والأمثلة على ذلك كثيرة وهي إن قصد بها تعظيم ابن حنبل وتمجيده فإنها قد تؤدي عند غير العالمين إلى عكس ذلك ، فإن أحمد بن حنبل بفضله وعلمه وورعه وزهده وتقواه وتوفره على حديث الرسول ودفاعه عن السنّة الشريفة وذوده عن صلب العقيدة وشجاعته التي لم تتكرر إلا عند القليل من أمثاله كل ذلك — دون تلك الحواشي الزائدة والمبالغات غير المقبولة — يضعه في مكان الصدارة بين علماء المسلمين وفي الصف الأول من أئمتهم العظام .

أحمد بن حنبل والسياسة :

لم يكن لأحمد بن حنبل عقيدة سياسية بعينها الأمر الذي قد يثير التساؤل عن الهدف من كتابة هذه الفقرة ، والواقع الذي نقصد إليه هو وجهة نظره في السياسة الإسلامية من خلافة وإمامة .

وحتى الرأي بأن ابن حنبل لم يكن له ميل سياسي معين لا بد أن يعاد النظر فيه ، ذلك أنه كان يقول الأئمة من قريش ويعين على إمامة ولد العباس ويقول

---

(٨١) المصدر ١٣/١ .

(٨٢) المصدر ١٨/١ .

العباس أبو الخلفاء ، وإذن فلقد كان الإمام ابن حنبل عباسي الميل السياسي ، ولعله الوحيد بين الأئمة الأربعة الذي يرى هذا الرأي ، على أن ذلك ينبغي أن يحسب له لا عليه ، فمهما اختلفت الآراء حول أحقية بني العباس بالملك ، فإن تأييد ابن حنبل لملكهم ، أو لخلافتهم — وهم الذين أوقع ثلاثة منهم به صنوف العسف والجلد والسجن والعذاب — ليعتبر نوعاً من النزاهة الفريدة المثال والعدالة المنقطعة النظير ، إن الرجل العظيم يبدي رأيه في خلافتهم بِغَضٍّ النظر عن تصرفهم حياله ، ويرى أنهم برغم ذلك أحق بالخلافة من غيرهم .

إن ابن حنبل يرى الخلافة في قريش ما بقي من الناس اثنان ليس لأحد أن ينازعهم فيها ولا يخرج عليهم ، ولا نقر لغيرهم إلى قيام الساعة[٨٣] ، إنه في ذلك لا يقل حماساً عن أستاذه الشافعي . ويستطرد الإمام ابن حنبل قائلاً : « والجهاد قائم مع الأئمة برّوا أو فجروا ، لا يبطله جور جائر ولا عدل عادل ، والجمعة والعيدان والحج مع السلطان وإن لم يكونوا بررة عدولا أتقياء .. والانقياد إلى من ولاه الله[٨٤] آمركم لا تنزع يداً من طاعته ، ولا تخرج عليه بسيفك حتى يجعل الله لك مخرجاً » .

ويقر ابن حنبل خلافة الراشدين على ترتيبهم التاريخي ، ويقف عند عليّ كما وقف قبله الإمام مالك فيقول : خير الأمة بعد النبي أبو بكر وعمر بعد أبي بكر ، وعثمان بعد عمر ، وعليّ بعد عثمان ، ثم يتحفظ قليلاً قائلاً « ووقف قوم عند عثمان » ثم لا يلبث أن يثبت علياً بين الراشدين فيقول : « وهم خلفاء راشدون مهديون ، ثم أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد هؤلاء الأربعة خير الناس»[٨٥] .

وابن حنبل يتمسك بالإمامة تمسكاً كاملاً ويقول : «من مات ورقبته عريّة من اعتقاد الإمامة فميتته جاهلية» ، وهو تشدد شبيه بتشدّد الشيعة في ذلك .

(٨٣) طبقات الحنابلة ٢٦/١

(٨٤) المصدر السابق نفس الصفحة .

(٨٥) نفس المصدر ٣١/١

على أن لابن حنبل موقفاً نبيلا من جميع أصحاب رسول الله مهما اختلفوا وتحاربوا ، إنه يطالب بالإمساك عن الخوض فيما شجر بينهم من خلاف وعدم التعليق على ذلك ، ويأمر بالثناء على الزبير وطلحة وعبد الرحمن ، بل إنه يذهب إلى تكفير من تبرأ من الخلفاء الراشدين ومن سبّ عائشة .

والإمام ابن حنبل لا يمس معاوية بسوء ويمسك عن الخوض فيما جرى بواقعتي صفين والجمل ، ويقول : دماء صان الله يدي عن ملابستها فأصون لساني عن الخوض فيها . ويردّ ما حدث إلى اجتهاد الفريقين ، وليس كل مجتهد مصيباً ، للمصيب أجران وللمخطئ أجر .

بل إن الإمام أحمد ذهب فيما يتصل بيزيد إلى مدى لم يره كثرة وافرة من المسلمين حين كان يمسك عن يزيد بن معاوية ويرى أن يكله إلى الله[٨٦] .

أصول العقيدة :

الإمام ابن حنبل هو إمام السنة ، منها يقتبس وبها يهتدى وبنصها يلتزم ، ومصدر هذا الدين هو كتاب الله وسنة رسوله ، تؤخذ منهما العقيدة في غير ما تخريج ولا تحريف ولا تحايل ، ولا مكان لإعمال العقل أو تخريج الفكر ما دامت الأمور واضحة المحجة ظاهرة النهج غير معوجة ولا مستبهمة ، ومن ثم فقد نفر من أهل الكلام ورفض آراءهم وكفرهم .

يقول ابن حنبل : «القدر خيرة وشره ، وقليله وكثيره ، وظاهره وباطنه ، وحلوه ومره ، ومحبوبه ومكروهه ، وحسنه وسيئه ، وأوله وآخره من الله قضاءً قضاه ، وقدراً قدره عليهم ، بل هم كلهم صائرون إلى ما خلقهم له واقفون فيما قدر عليهم لأفعاله ، وهو عدل منه عزّ ربنا وجل . والزنا والسرقة وشرب الخمر وقتل النفس وأكل المال الحرام والشرك بالله والمعاصي كلها بقضاء وقدر ، من غير أن يكون لأحد من الخلق على الله حجة ، بل لله الحجة البالغة على خلقه لا يسأل عما يفعل وهم يسألون» .

(٨٦) طبقات الحنابلة ٢/٢٧٢ ــ ٢٧٤ (مقدمة الإمام أبي محمد بن تميم الحنبلي في أصول المذهب) .

«ومن زعم أن قتل النفس ليس بقدر من الله عزّ وجل وأن ذلك بمشيئته في خلقه ، فقد زعم أن المقتول مات بغير أجله ، وأي كفر أوضح من هذا ؟ بل ذلك بقضاء الله عزّ وجل وذلك بمشيئته في خلقه ، وتدبيره فيهم ، وما جرى من سابق علمه فيهم ، وهو العدل الحق الذي يفعل ما يريد[٨٧]» .

وعن الحياة الأخرى يقول ابن حنبل : « وعذاب القبر حق ، يسأل العبد عن دينه وعن ربه ، وعن الجنة وعن النار ، ومنكر ونكير حق ، وهما فتّانا القبر ، نسأل الله الثبات » .

« وحوض محمد صلى الله عليه وسلم حق ، ترده أمته ، وله آنية يشربون بها منه ، والصراط حق يوضع على سواء جهنم ، ويمرّ الناس عليه ، والجنة من وراء ذلك ، نسأل الله السلامة ، والميزان حق توزن به الحسنات والسيئات كما يشاء الله أن توزن ، والصور حق ينفخ فيه إسرافيل فيموت الخلق ، ثم ينفخ فيه الأخرى فيقومون لرب العالمين وللحساب والقضاء . والثواب والعقاب والجنة والنار واللوح المحفوظ تستنتج منه أعمال العباد لما سبق فيه من المقادير والقضاء . والقلم حق كتب به الله مقادير كل شيء وأحصاه في الذكر تبارك وتعالى » .

« والشفاعة يوم القيامة حق ، يشفع قوم في قوم فلا يصيرون إلى النار ، ويخرج قوم من النار بشفاعة الشافعين ... ويذبح الموت يوم القيامة بين الجنة والنار[٨٨] وقد خلقت الجنة وما فيها ، والنار وما فيها خلقهما الله عز وجل ، وخلق الخلق لهما ، لا يفنيان ولا يفنى ما فيهما أبداً » .

ويتحدث ابن حنبل عن القرآن ـــ وسوف يكون لنا حديث عن محنته في ذلك بعد قليل ـــ فيقول : «والقرآن كلام الله ، تكلم به ، ليس بمخلوق ، ومن زعم أن القرآن مخلوق فهو جهمي كافر ، ومن زعم أن القرآن كلام الله ووقف ، ولم يقل ليس بمخلوق ، فهو أخبث من قول الأول ، ومن زعم أن الفاظنا به وتلاوتنا

(٨٧) طبقات الحنابلة ١/٢٥ ، ٢٦ .
(٨٨) المصدر ١/٢٧ ، ٢٨ .

له مخلوقة والقرآن كلام الله فهو جهمي ، ومن لم يكّفر هؤلاء القوم كلهم فهو مثلهم[٨٩] .»

ويتحدث ابن حنبل عن الذات العلية فيقول : ولله عز وجل عرش ، وللعرش حملة يحملونه ، والله عز وجل على عرشه ليس له حد ، والله أعلم بحده ، والله عز وجل سميع لا يشك ، بصير لا يرتاب ، عليم لا يجهل ، جواد لا يبخل ... يتحرك ويتكلم وينظر ويبصر ويضحك ويفرح ويحب ويكره ويبغض ويرضى ويغضب ويسخط ... ويمضي ابن حنبل في ذكر الأفعال المستمدة من أسماء الله الحسنى إلى أن يقول : وينزل كل ليلة إلى سماء الدنيا كيف يشاء ، ليس كمثله شيء وهو السميع البصير . وقلوب العباد بين إصبعين من أصابع الرحمن ، يقلبها كيف يشاء ويودعها ما أراد . خلق ادم بيده على صورته . والسموات والأرض يوم القيامة في كفه ، ويضع قدمه في النار فَتَنْزَوِى ، ويخرج قوماً من النار بيده ، وينظر أهل الجنة إلى وجهه يرونه فيكرمهم ، ويتجلى لهم فيعطيهم ، ويعرض عليه العباد يوم القيامة ، ويتولى حسابهم بنفسه ، لا يلي ذلك غيره عزّ وجلّ .[٩٠]

هذه هي أصول العقيدة كما صورها ابن حنبل لا يقبل في صورتها جدلاً ولا نقاشاً ، ومن لم يسلم بذلك فهو منكر كافر .

ابن حنبل ومحنة خلق القرآن :

لقد كانت فتنة خلق القرآن محنة تعرض لها المسلمون بغير وجه حق ، سالت فيها دماء زكية ، وضربت علماء كرام ، وجلد فيها أئمة أفاضل نتيجة ضيق الأفق من قوم عرفوا عند جمهرة المسلمين بسعة الأفق ، دفعوا بملك عرف عند الناس بمشجع الثقافة وراعي العلوم ، ولكن ما أقدم عليه من تعذيب الناس وإهانة العلماء قد سلب منه الصفات التي خلعتها عليه أعماله السابقة للمحنة .

---

(٨٩) الطبقات ١/٢٩ .

(٩٠) المصدر السابق نفس الصفحة .

لقد تسلط جماعة المعتزلة ـــ وفي مقدمتهم القاضي أحمد بن أبي دؤاد ـــ على المأمون وأدخلوا في روعه مسألة لا يفيد التفكير فيها الدين في شيء بل إنها تسيء إليه وإلى جمهرة علماء المسلمين وتزرع الفرقة بينهم .

إن المأمون وهو على أهبة الخروج إلى طرسوس على حدود بلاد الروم سنة ٢١٨ بعث إلى إسحق بن إبراهيم عامله على بغداد كتاباً يأمره فيه أن يستحضر علماء بغداد وقضاتها وأن يمتحنهم في موضوع خلق القرآن .

وكتاب المأمون هذا من أشنع الكتب التي حوت سباً وتطاولا على علماء المسلمين من أهل السنة ، فهو يصفهم بأخس الألفاظ وينعتهم بأقبح ما يُنعت به عالم . يقول المأمون في كتابه معرضاً بعلماء السنة بعد مقدمة طويلة :

« فرأى أمير المؤمنين أن أولئك شر الأمة ورءوس الضلالة ، المنقوصون من التوحيد والمخسوسون من الإيمان نصيباً ، وأوعية الجهالة وأعلام الكذب ولسان إبليس الناطق في أوليائه والهائل على أعدائه من أهل دين الله ، وأحق من يتهم في صدقه وتطرح شهادته ولا يوثق بقوله ولا عمله ، فإنه لا عمل إلا بعد يقين ، ولا يقين إلا بعد استكمال حقيقة الإسلام وإخلاص التوحيد ، ومن عَمِيَ رشده وحظه عن الإيمان بالله وبتوحيده ، كان عمّا سوى ذلك من عمله والقصد من شهادته أعمى وأضلّ سبيلاً . ولعمر أمير المؤمنين إن أحجى الناس بالكذب في قوله ، وتخرص الباطل في شهادته ، من كذب على الله في وحيْه ولم يعرف الله حقيقة معرفته ، وإن أولاهم برد شهادته في حكم الله ودينه من رد شهادة الله على كتابه ، وبهت حق الله بباطله » .

« فاجمعْ من بحضرتك من القضاة ، واقرأ عليهم كتاب أمير المؤمنين هذا إليك ، فابدأ بامتحانهم فيما يقولون ، وتكشيفهم عما يعتقدون في خلق الله القرآن وإحداثه ، وأعلمهم أن أمير المؤمنين غير مستعين في عمله ولا واثق فيما قلده الله واستحفظه من أمور رعيته بمن لا يوثق بدينه وخلوص توحيده ويقينه ، فإذا أقروا بذلك ووافقوا أمير المؤمنين فيه وكانوا على سبيل الهدي والنجاة ، فمرهم بنصّ من يحضرهم من الشهود على الناس ومسألتهم على علمهم في

القرآن ، وترك إثبات شهادة من لا يقرّ أنه مخلوق محدث ولم يره ، والامتناع من توقيعها عنده ... واكتب إلى أمير المؤمنين بما يكون في ذلك إن شاء الله »[٩١] .

لقد نشر كتاب المأمون في الأمصار الإسلامية وجرى امتحان القضاة فيها ، أما في بغداد عاصمة المقاومة فقد طلب المأمون إزاء ما رأى فيها من صمود يقوده أحمد بن حنبل أن يُرْسَلَ إليه سبعة من علمائها الكبار فأشخصوا إليه وانتزع منهم اعترافاً بوجهة نظره وأذاع اعترافهم ــ وهم من أهل السنة ــ على الملأ حتى يضعف مقاومة ابن حنبل ، ولكن أحمد صمد في وجه هذه المحنة التي بدأت تتخذ أشكالاً من الضغوط لم يألفها المسلمون حتى ذلك العهد .

لقد اكتوى كثير من علماء المسلمين بنار تلك الفتنة وفي مقدمتهم الإمام أحمد ابن حنبل الذي تحمل النصيب الأوفى من أذاها ، والقدر الأكبر في الصمود أمام جهالة مشعلي نارها ، وكان كالطود الشامخ الذي تكسرت على قمته وجانبيه كل رياح الانحراف ، وكان يقاوم آراء مشعلي نار الفتنة بالحجة والبرهان والمجادلة وخلق الارتباك في وجهات نظرهم ، حتى اضطر المأمون وهو في طرسوس على حدود بلاد الروم أن يبعث في طلبه هو ومحمد بن نوح ، فحملا إليه حملاً غير كريم وقد استعدّا إلى مقارعة الخليفة المتطرف فيما ذهب إليه من عقيدة شاردة ، وتشاء الأقدار أن يموت المأمون حيث هو ، وأحمد ورفيقه في الطريق إليه ، وكانا قد وصلا إلى أذنه مصعّدين إلى طرسوس ، فيعاد ابن حنبل مرة ثانية مقيداً إلى بغداد ويموت رفيقه ابن نوح في الرحلة فيصلي عليه ويدفنه ، ويودع أحمد السجن حتى يتم تعيين الملك الجديد ، ويعين المعتصم ويسير على نهج أخيه في طريق الفتنة بوصيّة منه ، ويجابه الملك الجديد ابن حنبل عدة مرات في حضور الرأس الأصلي للمحنة القاضي ابن أبي دؤاد ، ولا يستطيع المعتصم بعد شهور عديدة من السجن والقيد أن ينتزع من ابن حنبل الموافقة على قضية الانحراف ، فيجلد الإمام الجليل ويعذب ويودع السجن لمدة بلغت ثمانية وعشرين شهراً ، ثم لا تلبث الفتنة أن تخمد نارها أمام المقاومة الشديدة التي حمل لواءها واكتوى بنارها الإمام الجليل .

---

(٩١) الطبري ١١١٢/٢ وما بعدها .

ولما كانت محنة خلق القرآن من أشد وأدهى المحن التي واجهت الإسلام والعهد غير بعيد بالرسالة ، فإنه لو قد كتب لخالقيها النجاح لكان الإسلام قد تعرض فيما تلا من قرون إلى شطحات بعض المشتطين في أفكارهم ، الغالين في تصوراتهم بحيث أنه كان من الممكن أن يكون إسلامنا الآن صورة مختلفة تماما عن طبيعة جوهره ، ولما كان الفضل في مقاومة الفكرة ومجابهتها يرجع إلى الإمام ابن حنبل ، ولما كانت الأمانة العلمية والتاريخية تقتضي سماع بعض أطراف الجدل الذي جرى من خلالها على لسان كل من الفريقين فقد بات من الضروري أن نعرض نماذج من المجادلة التي جرت مرويّة عن كل من الحنابلة والمعتزلة .

رواية الحنابلة لمحاكمة الإمام :

فأما رواية الحنابلة فقد عرضها سليمان بن عبد الله السّجزي ، قال[٩٢] « أتيت إلى باب المعتصم وإذا الناس قد ازدحموا على بابه كيوم العيد ، فدخلت الدار فرأيت بساطا مبسوطا وكرسيا مطروحاً ، فوقفت بإزاء الكرسي ، فبينما أنا قائم فإذا المعتصم قد أقبل ، فجلس على الكرسي ، ونزع نعله من رجله ، ووضع رجلا على رجل ، ثم قال : يحضر أحمد بن حنبل . فأحضر ، فلما وقف بين يديه وسلم عليه ، قال له : يا أحمد تكلم ولا تخف ، فقال أحمد : والله يا أمير المؤمنين ، لقد دخلت عليك وما في قلبي مثقال حبة من الفزع . فقال له المعتصم : ما تقول في القرآن ؟ فقال : كلام الله ، قديم غير مخلوق ، قال الله عز وجل ﴿**وإن أحدٌ من المشركين استجارك فأَجِرْهُ حتى يسمع كلام الله**﴾ فقال له : عندك حجة غير هذا ؟ فقال أحمد : نعم ، يا أمير المؤمنين : قول الله عز وجل ﴿**الرحمن عَلّمَ القرآن**﴾ ولم يقل « الرحمن خلق القرآن » وقوله عز وجل ﴿ **يس والقرآن الحكيم** ﴾ ولم يقل « يس والقرآن المخلوق » فقال المعتصم : احبسوه ، فحبس وتفرق الناس . فلما أصبحتُ قصدت الباب ، فأدخل الناس ، فدخلت معهم . فأقبل المعتصم وجلس على كرسيه ، فقال : هاتوا أحمد بن حنبل ، فجيء به فلما أن وقف بين يديه قال له المعتصم : كيف كنت يا أحمد في مَحْبَسك البارحة ؟

(٩٢) طبقات الحنابلة ١٦٤/١ ــ ١٦٧ .

فقال : بخير ، والحمد لله ، إلا أني رأيت ياأمير المؤمنين في محبسك أمراً عجباً ، قال له : وما رأيت ؟ قال : قمت في نصف الليل فتوضأت للصلاة ، وصليت ركعتين . فقرأت في ركعة (الحمد لله) و (قل أعوذ برب الناس) وفي الثانية (الحمد لله) و (قل أعوذ برب الفلق) ثم جلست وتشهدت وسلمت ، ثم قمت فكبرت وقرأت (الحمد لله) وأردت أن أقرأ (قل هو الله أحد) فلم أقدر ، ثم اجتهدت أن أقرأ غير ذلك من القرآن فلم أقدر . فمددت عيني في زاوية السجن ، فإذا القرآن مُسَجّىً ميتا ، فغسلته وكفنته ، وصليت عليه ودفنته . فقال له : ويلك يا أحمد ، والقرآن يموت ؟ فقال له أحمد : فأنت كذا تقول : إنه مخلوق ، وكل مخلوق يموت . فقال المعتصم : قهرنا أحمد ، قهرنا أحمد ، فقال ابن أبي دؤاد وبشر المريسي : اقتله ، حتى نستريح منه ، فقال : إني قد عاهدت الله أن لا أقتله بسيف ولا آمر بقتله بسيف ، فقال له ابن أبي دؤاد : اضربه بالسياط . فقال : نعم . ثم قال : أحضروا الجلاّدين . فأُحضروا . فقال المعتصم لواحد منهم : بكم سَوْطٍ تقتله ؟ فقال : بعشرة يا أمير المؤمنين . فقال : خذه إليك . قال سليمان السجزي : فأخرج أحمد بن حنبل من ثيابه ، وائتزر بمئزر من الصوف ، وشُدَّ في يديه حبلان جديدان ، وأخذ السوط في يده ، وقال : أضربه يا أمير المؤمنين ؟ فقال المعتصم : اضرب . فضربه سوطاً . فقال أحمد : الحمد لله . وضربه ثانياً . فقال : ما شاء الله كان . فضربه ثالثاً ، فقال : لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم . فلما أراد أن يضربه السوط الرابع نظرت إلى المئزر من وسطه قد انحل ، ويريد أن ينسقط . فرفع رأسه نحو السماء وحرك شفتيه ، وإذا الأرض قد انشقت . وخرج منها يدان فوزرتاه بقدرة الله عز وجل . فلما أن نظر المعتصم إلى ذلك قال : خلوه . فتقدم إليه ابن أبي دؤاد وقال له : يا أحمد ، قل في أذني : إن القرآن مخلوق ، حتى أخلصك من يد الخليفة . فقال له أحمد : يابن دؤاد قل في أذني : إن القرآن كلام الله غير مخلوق ، حتى أخلصك من عذاب الله عز وجل . فقال المعتصم : أدخلوه الحبس . قال سليمان : فحمل إلى الحبس ، وانصرف الناس ، وانصرفت معهم . فلما كان الغد أقبل الناس ، وأقبلت معهم . فوقفت بإزاء الكرسي ، فخرج المعتصم ، وجلس على الكرسي ، وقال : هاتوا

أحمد بن حنبل . فجيء به . فلما وقف بين يديه ، قال له المعتصم : كيف كنت في محبسك الليلة يابن حنبل ؟ قال : كنت بخير والحمد لله . فقال : يا أحمد ، إني رأيت البارحة رؤيا . قال : وما رأيت يا أمير المؤمنين ؟ قال : رأيت في منامي كأن أسدين قد أقبلا إليَّ وأرادا أن يفترساني ، وإذا ملكان قد أقبلا ودفعاهما عني ، ودفعا إليَّ كتاباً . وقالا لي : هذا المكتوب رؤيا رآها أحمد بن حنبل في محبسه . فما الذي رأيت يابن حنبل ؟ فأقبل أحمد على المعتصم ، فقال له : يا أمير المؤمنين فالكتاب معك ؟ قال : نعم ، وقرأته لما أصبحت وفهمت ما فيه . فقال له أحمد : يا أمير المؤمنين ، رأيتُ كأن القيامة قد قامت ، وكأن الله قد جمع الأولين والآخرين في صعيد واحد . وهو يحاسبهم . فبينما أنا قائم إذ نودي بي . فقدمت حتى وقفت بين يدي الله عز وجل . فقال لي : يا أحمد ، فيم ضربت ؟ فقلت : من جهة القرآن . فقال لي : وما القرآن ؟ فقلت : كلامك اللهم لك ، فقال لي : من أين قلت هذا ؟ فقلت : يا رب حدثني عبد الرزاق . فنودي بعبد الرزاق ، فجيء به حتى أقيم بين يدي الله عز وجل . فقال له : ما تقول في القرآن ، يا عبد الرزاق ؟ فقال : كلامك اللهم لك . فقال عز وجل : من أين قلت هذا ؟ فقال : حدثني معمر . فنودي بمعمر ، فجيء به حتى أوقف بين يدي الله عز وجل . فقال الله عز وجل له : ما تقول في القرآن يا معمر ؟ فقال معمر : كلامك اللهم لك . فقال له : من أين قلت هذا ؟ فقال معمر : حدثني الزهري ، فنودي بالزهري فجيء به ، حتى أوقف بين يدي الله عز وجل . فقال الله عز وجل له : يا زهري ، ماتقول في القرآن ؟ فقال الزهري : كلامك اللهم لك . فقال : يا زهري من أين لك هذا ؟ قال : حدثني عروة . فجيء به . فقال : ما تقول في القرآن فقال : كلامك اللهم لك . فقال له : ياعروة : من أين لك هذا؟ فقال: حدثتني عائشة بنت أبي بكر الصديق. فنوديت عائشة، فجيء بها ، فوقفت بين يدي الله عز وجل ، فقال الله عز وجل لها : يا عائشة : ما تقولين في القرآن ؟ فقالت : كلامك اللهم لك . فقال الله عز وجل لها : من أين لك هذا ؟ قالت : حدثني نبيك محمد صلى الله عليه وسلم . قال : فنودي بمحمد صلى الله عليه وسلم ، فجيء به ، فوقف بين يدي الله عز وجل : فقال الله عزَّ وجل له : يا محمد ، ما تقول في القرآن ؟ فقال له : كلامك اللهم لك .

فقال له : من أين لك هذا ؟ فقال النبي صلى الله عليه وسلم : حدثني به جبريل . فنودي بجبريل ، فجيء به ، حتى وقف بين يدي الله عز وجل فقال له : يا جبريل ، ما تقول في القرآن ؟ قال : كلامك اللهم لك . فقال الله تعالى له : من أين لك هذا ؟ فقال : هكذا حدثنا إسرافيل . فنودي بإسرافيل ، فجيء به ، حتى وقف بين يدي الله عز وجل . فقال الله سبحانه ، يا إسرافيل : ما تقول في القرآن ؟ فقال : كلامك اللهم لك . فقال الله له : ومن أين لك هذا ؟ فقال إسرافيل : رأيت ذلك في اللوح المحفوظ ، فجيء باللوح ، فوقف بين يدي الله عز وجل . فقال له : أيها اللوح ، ما تقول في القرآن ؟ فقال : كلامك اللهم لك . فقال الله تعالى له : من أين لك هذا ؟ فقال اللوح : كذا جرى القلم عليَّ . فأتى بالقلم حتى وقف بين يدي الله عز وجل . فقال الله عز وجل له : يا قلم ، ما تقول في القرآن ؟ فقال القلم : كلامك اللهم لك . فقال الله : من أين لك هذا ؟ فقال القلم : أنت نطقت وأنا جريت . فقال الله عز وجل : صدق القلم ، صدق اللوح ، صدق إسرافيل ، صدق جبريل ، صدق محمد ، صدقت عائشة ، صدق عروة ، صدق الزهري ، صدق معمر ، صدق عبد الرزاق ، صدق أحمد بن حنبل : القرآن كلامي غير مخلوق .

قال سليمان السجزي : فوثب عند ذلك المعتصم . فقال : صدقت يا بن حنبل وتاب المعتصم . وأمر بضرب رقبة بشر المريسي وابن أبي دؤاد ، وأكرم أحمد بن حنبل ، وخلع عليه . فامتنع من ذلك . فأمر به فحمل إلى بيته .

رواية المعتزلة للمحاكمة :

وأما رواية فريق المعتزلة فيعبر عنها الجاحظ ، وهو معتزلي معروف وصاحب مدرسة معروفة باسم الجاحظية ، وقد عاصر المحنة وشهدها وكان أحد مؤيديها . قال الجاحظ :[٩٣]

---

(٩٣) مقدمة كتاب أحمد بن حنبل والمحنة ص ١٢ — ١٤ .

« وبعد فنحن لم نُكَفِّر إلا من أوسعناه حجة ، ولم نمتحن إلا أهل التهمة . وليس كشف المتهم من التجسس ولا امتحان الظنين من هتك الأستار . ولو كان كل كشف هتكاً وكل امتحان تجسساً ، لكان القاضي أهتك الناس لستر ، وأشد الناس كشفاً لعورة . والذين خالفوا في العرش ، إنما أرادوا نفي التشبيه ، فغلطوا ، والذين أنكروا أمر الميزان ، إنما كرهوا أن تكون الأعمال أجساماً وأجراماً غلاظاً . فإن كانوا قد أصابوا ، فلا سبيل عليهم ، وإن كانوا قد أخطأوا ، فإن خطأهم لا يتجاوز بهم إلى الكفر ، وقولهم وخلافهم بعد ظهور الحجة تشبيه للخالق بالمخلوق ، فبين المذهبين أبين الفرق .

وقد قال صاحبكم (أي الإمام أحمد بن حنبل) للخليفة المعتصم ، يوم جمع الفقهاء والمتكلمين ، والقضاة والمخلصين اعذاراً وانذاراً : امتحنتني ، وأنت تعرف ما في المحنة ، وما فيها من الفتنة ، ثم امتحنتني من بين جميع هذه الأمة . قال المعتصم : أخطأت بل كذبت ، وجدت الخليفة قبلي قد حبسك وقيدك ، ولو لم يكن حبسك على تهمة ، لأمضي الحكم فيك ، ولو لم يخَفْك على الإسلام ، ما عرض لك . فسؤالي إياك عن نفسك ، ليس من المحنة ، ولا من طريق الاعتساف ، ولا من طريق كشف العورة ، إذ كانت حالُك هذه الحال ، وسبيلك هذه السبيل ، وقيل للمعتصم في ذلك المجلس : ألا تبعث إلى أصحابه حتى يشهدوا إقراره ، ويعاينوا انقطاعه ، فينقض ذلك استبصارهم ؛ فلا يمكنه جحد ما أقر به عندهم ؟ فأبى أن يقبل ذلك ، وأنكره عليهم ، وقال : لا أريد أن أوتى بقوم ، إن اتهمتهم مُيزت فيهم بسيرتي فيهم ، وإن بان لي أمزهم ، أنفذت حكم الله فيهم ، وهم ، ما لم أوت بهم ، كسائر الرعية ، وكغيرهم من عوام الأمة ، وما شيء أحب إليَّ من الستر ، ولا شيء أولى بهم من الأناة والرفق .

ومازال به رفيقا وعليه رقيقا ، ويقول : لأن أستحييك بحق ، أحب إليَّ من أن أقتلك بحق ، حتى رآه يعاند الحجة ويكذب صراحاً عند الجواب ، وكان آخر ما عاند فيه ، وأنكر الحق وهو يراه ، أن أحمد بن أبي دؤاد : قال له : أليس لا شيء إلا قديم أو حديث ؟ . قال : نعم ، قال : أو ليس القرآن شيئاً ؟ . قال : نعم . قال : أو ليس لا قديم إلا الله ؟ قال : نعم . قال : فالقرآن إذاً حديث ؟ قال :

ليس أنا متكلم . وكذلك كان يصنع في جميع مسائله ، حتى كان يجيبه في كل ما سأل عنه ، حتى اذا بلغ المُنْخَنَق ، والموضع الذي إن قال فيه كلمة واحدة ، برئ منه أصحابه ، قال : ليس أنا متكلم . فلا هو قال في أول الأمر : لا علم لي بالكلام ، ولا هو حين تكلم ، فبلغ موضع ظهور الحجة ، خضع للحق ، فمقته الخليفة ، وقال عند ذلك : أف لهذا الجاهل مرة ، والمعاند مرة .

وأما الموضع الذي فيه واجه الخليفة بالكذب ، والجماعة بالقحة ، وقلة الاكتراث ، وشدة التصميم ، فهو حين قال له أحمد بن أبي دؤاد : أتزعم أن الله تعالى رب القرآن ؟ . قال : لو سمعت أحداً يقول ذلك ، لقلت . قال : أفما سمعت ذلك قط من خالف ولا سائل ، ولا من قاص ، ولا في شعر ، ولا في حديث ؟ .... قال : فعرف الخليفة كذبه عند المسألة ، كما عرف عناده عند الحجة . وأحمد بن أبي دؤاد ، حفظك الله تعالى ، أعلم بهذا الكلام وبغيره من أجناس العلم ، من أن يجعل هذا الاستفهام مسألة ، ويعتمد عليها في مثل تلك الجماعة ، ولكنه أراد أن يكشف لهم جرأته على الكذب ، كما كشف لهم جرأته في المعاندة ، فعند ذلك ضربه الخليفة .

« وأية حجة لكم في امتحاننا إياكم ، وفي إكفارنا لكم ؟ وزعم (أي الإمام أحمد بن حنبل) يومئذ أن حكم كلام الله تعالى كحكم علمه ، فكما لا يجوز أن يكون علمه محدثاً ومخلوقاً ، فكذلك لا يجوز أن يكون كلامه مخلوقاً ومحدثاً . فقال (أي أحمد بن أبي دؤاد) له : أليس قد كان الله يقدر أن يُبَدل آية مكان آية ، وينسخ آية بآية ، وأن يذهب بهذا القرآن ويأتي بغيره ، وكل ذلك في الكتاب مسطور ؟ قال : نعم . قال : فهل كان يجوز هذا في العلم ، وهل كان جائزاً أن يُبَدل الله علمه ويذهب به ويأتي بغيره ؟ . قال : لا .

وقال (أي أحمد بن أبي دؤاد) له : روينا في تثبيت ما نقول الآثار ، وتلونا عليك الآية من الكتاب ، وأريناك الشاهد من العقول التي بها لزم الناس الفرائض ، وبها يفصلون بين الحق والباطل ، فعارضنا أنت الآن بواحدة من الثلاث . فلم يكن ذلك عنده ، ولا استخزى من الكذب في هذا المجلس ، لأن عدة من حضره أكثر من أن يطمع أحد أن يكون الكذب يجوز عليه .

وقد كان صاحبكم هذا (أي الإمام أحمد) يقول : لا تقية إلا في دار الشرك ، فلو كان ما أقر به من خلق القرآن ، كان منه على وجه التقية ، فقد أعملها في دار الإسلام . وقد أكذب نفسه ، وإن كان ما أقر به على الصحة والحقيقة ، فلستم منه ، وليس منكم ، على أنه لم ير سيفاً مشهوراً ، ولا ضُرب ضرباً كثيراً ، ولا ضُرب إلا بثلاثين سوطاً ، مقطوعة الثمار ، مشعبة الأطراف ، حتى أفصح بالإقرار مراراً ، ولا كان في مجلس ضيق ، ولا كانت حاله حال مؤيسة ، ولا كان مثقلا بالحديد ، ولا خُلِع قلبه بشدة الوعيد . ولقد كان ينازع بألين الكلام ، ويجيب بأغلظ الجواب ، ويرزنون ويخف ، ويحلمون ويطيش » .

أما وقد بسطنا روايتين متقابلتين لطرفي النزاع ، فإننا مع احترامنا للجاحظ كعالم فذ من علماء الثقافة الإسلامية ، إلا أننا لا نستطيع أن نجرده عن الهوى ، فقد كان أحد أصحاب ابن أبي دؤاد رأس الفتنة وخالقها ومشعل نيرانها ، وكان الجاحظ أيضا من القائلين بأن القرآن مخلوق ، المكفرين لعباد الله من علماء المسلمين وعامتهم الذين لا يشاطرونه هذا الرأي ، وهو في رسالته يدافع عن فكر المعتزلة أكثر مما يدخل إلى موضوع الخلاف ولبه ، فيقول « إن كانوا قد أصابوا فلا سبيل عليهم ، وإن كانوا قد أخطأوا فإن خطأهم لا يتجاوز بهم إلى الكفر » ، والجاحظ قد حرم على الفريق الآخر ما أحله لنفسه حين جعل اجتهاد جماعته في قضية خلق القرآن ، نافعة إن أصابوا ، غير ضارة إن أخطأوا ، وليس الأمر كذلك ، وهو إلى ذلك قد حرمهم حق اجتهادهم من أن القرآن قديم ، وهو الرأي الذي قالوا به مؤيدا بالبرهان القرآني مقرونا بالشواهد التي مر ذكر شيء منها في أقوال الإمام أحمد . هذا من ناحية ومن ناحية فإن نتيجة الاجتهاد لا تفرض تكفير المعارضين ماداموا مؤمنين بالأسس الأصلية التي يكون المرء بها مسلما ، كما أن نتيجة الاجتهاد لا تستتبع ضرب الرقاب وإراقة الدماء وجلد العلماء أمام الأنظار وسجن المعارضين منهم ووضعهم في القيود والتمثيل بهم .

لقد جنح الجاحظ إلى جانب قومه مع تجنّيهم وارتكاب الحماقات والحجر على الفكر بالقتل والسجن ، وما علم أن السنة التى استنتها جماعته لأنفسهم وشريعتهم قد تستعمل ضدهم غداً ، وهذا هو الذي حدث بالفعل عندما حرموا السلطان

وزال عنهم الحكم وانتقل إلى غيرهم ، هناك أذيقوا نفس العذاب الذي أذاقوه معارضيهم ، وشربوا نفس الكأس التي سقوها خصومهم ، وهي سابقة خطيرة في تاريخ الفكر هم استنوها بأنفسهم فكانت وبالا على الإسلام ونكالا على المسلمين .

ومهما يكن من أمر فإن الإمام أحمد بن حنبل قد واجه المحنة بقلب المؤمن وعزيمة الشجاع وسلاح العالم وصبر المنيب وكان له النصر في آخر المعركة وكان للعقيدة السلام على يديه .

فقه ابن حنبل :

يستمد أحمد بن حنبل فقهه من مناهل الدين الأصيلة الصافية ويقول : «الدين إنما هو كتاب الله عز وجل وآثار وسنن وروايات صحاح عن الثقات بالأخبار الصحيحة المعروفة ، يصدق بعضها بعضاً حتى ينتهي ذلك إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه والتابعين وتابعي التابعين ، ومن بعدهم الأئمة المعروفين المقتدى بهم ، المتمسكين بالسنة ، والمتعلقين بالآثار لا يعرفون بدعة ولا يطعن فيهم بكذب ولا يرمون بخلاف ، وليسوا بأصحاب قياس ولا رأي ، لأن القياس في الدين باطل ، والرأي مثله وأبطل منه ، وأصحاب الرأي والقياس في الدين مبتدعة ضلاّل ، إلا أن يكون في ذلك أثر عمن سلف من الأئمة»[٩٤] .

وإذن فالإمام أحمد يبطل الرأي والقياس ثم يعمد إلى الاستثناء « إلا أن يكون في ذلك أثر عمن سلف من الأئمة » .

على أن المصادر التي لا تقبل الجدل عنده فيستمد منها فقهه هي كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم والإجماع .

ولما كان تلاميذ الأئمة ومريدوهم المتوفرون على دراسة آرائهم واجتهادهم هم أكثر الناس فهما لها ، فإن الشيخ ابن تميم الحنبلي يوضح لنا بشكل أوسع أصول فقه الإمام ابن حنبل في مقدمته لأصول المذهب الملحقة بآخر كتاب الطبقات ويردها إلى مصادر خمسة :

---

(٩٤) طبقات الحنابلة ١/٣١ .

أولها : كتاب الله معتمدا على الآية الكريمة ﴿ **مَا فَرَّطْنا في الكتابِ مِنْ شَىْء** ﴾ .

وثانيها : سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم معتمداً على الآية الكريمة : ﴿ **فإنْ تَنَازَعْتُمْ في شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إلى الله والرَّسُول** ﴾ وإلى الآية الكريمة ﴿ **وما آتاكُم الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وما نهاكم عَنْهُ فانْتَهُوا** ﴾ وإلى قول الرسول صلى الله عليه وسلم « **عليكم بِسُنَّتي** »

وثالثها : إجماع أهل العصر من العلماء أهل العقد والحل إذا لم يختلفوا ، فإن خالف بعضهم ولو كان واحدا ، لم يكن إجماعا ، وإذا انتشر القول عن بعضهم وعلمه جميعهم فلم ينكروا شيئا منه فهو إجماع ، ويقول أيضا : الإجماع إجماع الصحابة ، ومن سواهم تبع لهم . وذهب بعض أصحاب الإمام إلى أن إجماع كل عصر على الشرط الأول بمنزلة إجماع الصحابة لقول الرسول صلى الله عليه وسلم « **لا تجتمع أمتي على ضلال** » وكان الإمام أحمد يحبّ إجماع أهل المدينة ويقدمه على غيره ، لأنه أشد اتباعا وأكثر رواية وأخص دراية بأفعال الرسول ومن كان بعده .

رابعا : قول الواحد من الصحابة إذا انتشر ولم يُعْرَفْ له مُنْكِرٌ أنكره ، معتمدا على الحديث الشريف « **أصحابي كالنجوم بأيّهم اقتديتم اهتديتم** » .

خامسا : القياس وهو الذي ذكره الإمام مشروطا وفي حالات الضرورة ، فالقياس عند الحنابلة هو رد الشيء إلى نظيره بعلة تجمع بين أصله وفرعه ، فإن انعدم ذلك فلا قياس ، ولابد للقياس من أن يكون عن طريق الشبه والمقاربة حتى يكون له علة صحيحة تجمع بين الأصل والفرع .

والقياس عند ابن حنبل في الأدلة بمنزلة الميتة مع الضرورة والتراب عند عدم وجود الماء .

وكان الإمام أحمد يرفض الاستحسان ولا يأخذ به .

وكان ابن حنبل ورعا الورع كله الأمر الذى دفعه إلى تجلية الأحكام تجلية لا تترك أمامها لبسا ولا إبهاما ، ومن هنا كانت سمات التشدد والقطع واضحة فى المذهب الحنبلي بحيث صارت فيما تلا من قرون صفة من صفاته وعلامة من علاماته .

تشدد المذهب فى أمور الطهارة والنجاسة ، فقال إن نجاسة الكلب يجب أن تغسل ثماني مرات بينما هي سبع مرات عند الشافعي ، بل إن الكلب ليس بنجس عند مالك ، وابن حنبل يوجب غسل اليد عند القيام من النوم بينما ذلك سنة عند الأئمة الآخرين ، كما أنه يوجب الوضوء بعد أكل لحم الإبل ، ويوجب المضمضة والاستنشاق في الوضوء وهي سنة فى المذاهب الأخرى .

وابن حنبل يحرم الغناء ويشدد فيه ويأمر بكسر الملاهي ، وحرم الغناء والألحان في القرآن والشعر[٩٥] ويروي حديث الرسول « بعثت بكسر الطبل » .

ويقول ابن حنبل بوقوع الطلاق الثلاث فى لفظ واحد ، ولا يبيح الرجوع إلا بعد زوج آخر وإصابة[٩٦] ويذهب إلى حديث ابن عمر « يا رسول الله : أرأيت لو طلقتها ثلاثا ؟ فقال : بانتْ منك زوجك وعصيْتَ ربك » .

على أن الإمام أحمد برغم تشدده في الأحكام فقدكانت له نظرات بناءة تدل على فهم للدين ينمي المجتمع ويستهدف صلاحه ، فهو مثلا يفضل الزواج على الحج فى حالة خشية الرجل على نفسه وليس لديه إلا مال يكفيه لواحد من اثنين حج أو زواج . لقد سئل الإمام : « إذا كان مع الرجل مال ، فإن تزوج لم يبق معه فضل يحج به ، وإن حج خشي على نفسه ؟ فأجاب : إذا لم يكن له صبر عن التزوّج تزوج وترك الحج[٩٧] .

وفى مجال العناية بالمجتمع والاهتمام بأفراده يرى الإمام ابن حنبل أن القرابة كلها توجب النفقة ، فكل من يرث الفقير العاجز عن الكسب تجب عليه نفقته في حالة عجز هذا الفقير . والميراث عند ابن حنبل يشمل الأقارب من قاصين ودانين ، ومن

---

(٩٥) طبقات الحنابلة ٢٧٦/٢ ، ٢٧٩ .
(٩٦) المصدر السابق ٢٧٧/٢ .
(٩٧) طبقات الحنابلة ٢٣/١ .

أصول وفروع ، ويضم إليهم أصحاب الفروض وذوي الأرحام ، وهذا اتجاه عظيم من ابن حنبل يرى فيه الصديق الدكتور أحمد الشرباصي أنه أقرب شيء إلى روح التكافل الاجتماعي[98] .

مؤلفات ابن حنبل :

كان الإمام أحمد بن حنبل منقطعا إلى العلم بصفة عامة وللحديث بصفة خاصة ، ولذلك فإنه ترك رصيدا نفيسا من المؤلفات تندرج جميعا تحت باب الحديث أكثر من اندراجها تحت أي باب آخر من العلوم الدينية ، وحتى تلك التي لا يدل اسمها على أنها كتب حديث تعتمد أكثر ما تعتمد على الأحاديث الشريفة تأخذ منها مادتها وتنسج منها موضوعاتها .

والكتب التي ذكرت لابن حنبل في طبقات الحنابلة هي كتابه العظيم « المسند » والتفسير ، والناسخ والمنسوخ ، وحديث شعبة ، والمقدم والمؤخر في كتاب الله ، وجوابات القرآن ، والمناسك الكبير ، والمناسك الصغير ، ثم يضيف المصدر ، وغير ذلك من التصانيف[99] ، ومعنى ذلك أن للإمام تصانيف أخرى لم يُعن مصنف الطبقات بتسجيلها إما لشهرتها آنذاك أو لأنها رسائل صغيرة .

فإذا رجعنا إلى ما بين أيدينا من كتب للإمام وجدنا بعضها لم يذكر فى النص السابق ووجدنا بعض الكتب التي ذكرت لم تصل إلينا .

والكتب التي بين أيدينا مطبوعة للإمام هي : المسند ، وكتاب الصلاة ، وهو كتاب صغير ، وكتاب السنة ، وهو رسالة صغيرة ، وكتاب الورع ، وكتاب الزهد ، وكتاب مسائل الإمام أحمد الذي جمعه أبو داود السجستاني وقام على نشره الشيخ رشيد رضا ، ورسالة الرد على الجهمية .

هذه هي كتب الإمام المنشورة إلا أنها جميعا على ما فيها من خير لا تقف منتصبة القامة أمام عمله الجليل الخالد « المسند » .

---

(٩٨) الأئمة الأربعة ص ٢٠٩ .

(٩٩) طبقات الحنابله ١٨٣/١ .

لقد توفر أحمد على جمع المسند طوال أيام حياته ، ضمَّنه ثلاثين ألف حديث حسب رواية أبي الحسين بن المناوي ، وذهب قوم إلى أن عدد أحاديث المسند أربعون ألف ، وبعض المستشرقين ممن اهتموا بالحديث مثل جولدسيهر ونللينو يقدرون أنها دون الثلاثين ألف ، ومهما كان الأمر فلا بدّ من متخصص فى الحديث لكي يتوفر عليها ، ويرسم حدود كل حديث مستقل بذاته ، ويقدم لنا الرقم الصحيح لعددها .

على أن أحاديث المسند قد انتقيت من سبعمائة وخمسين ألف حديث ، رويت من أكثر من سبعمائة صحابي ، والإمام أحمد قد أحس بخطر هذا العمل الذي قام به بأمانة ودقة ، وهما صفتان من صفات الإمام الجليل ، وكان الإمام يملي الأحاديث على خاصته ، وخصوصا ولده عبد الله الذي كني به ، كما كان يسجل بعضها في كثير من الأحيان بنفسه ، ولكنه توفي قبل أن يخرج العمل الكبير للناس بنفسه ، فقام ابنه عبد الله على إعداده ، وإضافة بعض ما سمع من أحاديث صحيحة نصّ على أنه أضافها بعد وفاة أبيه .

على أن شكل الكتاب كان متضحا في نظر ابن حنبل ، وكان قد اتخذ شكلا يجعله أقرب إلى التماسك بين دفتين منه إلى نثار مفرق من الأوراق ، وهو لذلك يقول « إن هذا الكتاب قد جمعته وانتقيته من أكثر من سبعمائة وخمسين ألف حديث فيما اختلف فيه المسلمون من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فارجعوا إليه ، فإن كان فيه ، وإلا ليس بحجة » ومعنى كلام الإمام أن حديثا ينسب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا يكون موجودا في المسند لا يلتفت إليه . وهو يعلم قدر كتابه كل العلم ، لأنه يكرر أنه المرجع الأخير في أحاديث الرسول بأكثر من عبارة فيقول مرة أخرى : « عملت هذا الكتاب إماماً إذا اختلف الناس في سنة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم رُجع إليه » .

والأمر المسلم به بين جمهور المشتغلين بالحديث والعلوم الدينية أن المسند أحد المصادر الكبرى لأحاديث الرسول ، بالرغم من أن كتبا أخرى قد ذاع صيتها ألفت بعده مثل صحيح تلميذيه البخاري ومسلم .

وفاة ابن حنبل :

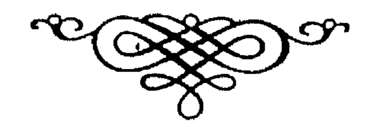
لم يشغل مرض إمام من أئمة المسلمين الناس كما شغلهم مرض الإمام ابن حنبل ، فلم يكد سكان بغداد يعلمون ، بمرضه حتى توافدوا في حشود ضخمة دافقة إلى بيته يسألون عنه ويتنسمون أخباره ، وظل الأمر كذلك والإمام مريض حتى سُدَّت المسارب والدروب التي تؤدى إلى داره بأجسام البشر ، وحتى اضطرت الشرطة إلى التدخل وإلى اغلاق باب الدرب ، ولم يكن يسمح لأحد بزيارته إلا من يرغب هو في رؤيتهم ، بالإضافة إلى الأطباء الذين كانوا يترددون عليه .

على أن مرض الإمام لم يكن موضع قلق الناس وحدهم بل كان موضع قلق الدولة نفسها ، فكانت أخبار مرضه وحالته ترسل يوميا من بغداد إلى العسكر حيث يقيم الخليفة .

لم يكن أحمد إذن مجرد عالم ديني أو مجتهد أو فقيه أو محدِّث وإنما كان للناس إماماً وزعيماً قاد الدفة بصبر وجلد وإيمان في أيام المحنة حتى تغير وضع الخلافة ، وأصبح الخليفة على آخر العهد يأخذ بنصائحه ويتبع مدرسته الفكرية .

ولم تطل فترة مرض ابن حنبل أكثر من تسعة أيام أسلم في نهايتها روحه الطاهرة إلى بارئها في يوم الجمعة الثاني عشر من ربيع الأول سنة ٢٤١هـ ، فخيم على بغداد الحزن العميق ، وشيعت جنازته بعد ظهر يوم وفاته . واختلفت الروايات حول عدد المشيعين والمصلين عليه الذين تراوح عددهم بين ثمانمائة ألف مشيع ومشيعة ومليونين ونصف من المشيعين والمشيعات ، وفتح الناس أبواب منازلهم ينادون من أراد الوضوء . وتقدم الوالي ابن طاهر يريد الصلاة عليه ولكن صالح ابن الإمام رفض أن يصلى عليه الوالي وأصر أن يصلي هو على أبيه ، فتقدم رجلان من رجال ابن طاهر وقبضا على يديه حتى صلى الأمير متصدرا الحشود الضخمة ، وظلت مئات الآلاف حول القبر تحيط به لعدة أيام من كل جانب بحيث أن أحد أصحاب الإمام ، وهو أبو الحسن التميمي مكث أياما يحاول أن يصل إلى القبر فلم يصل إليه إلا بعد أسبوع .

لقد كان ابن حنبل إماما جليلا عظيما في حياته ، عظيما يوم مماته ، كما أنه علم من أعلام تاريخ المسلمين ، وإمامٌ كبير من أئمة المؤمنين .





الأشاعرة أول من سُمُّوا بأهل السنة :

مرّ بنا كيف نشأت فكرة الاعتزال ، وكيف غلا القوم في تعطيل صفات الله والتعسف في تناول قضية أفعال الإنسان وفتنة خلق القرآن وما أريق حولها من دماء المسلمين والإيغال في ربط العقيدة الإسلامية بالفلسفة اليونانية بحيث كان المعتزلة يمثلون دور التحرر المطلق فى التفكير الإسلامي ، ولكن في نفس الوقت كانت هناك جماعات تمثل جانب التحفظ في التفكير الإسلامي حين تناولت مسائل الجبر والاختيار وفاعل الكبيرة والخلود فى الجنة أو النار ، وغير ذلك من القضايا الدينية ، تناولت كل ذلك من زاويتها الخاصة مخالفة المعتزلة كل المخالفة بحيث أصبح المعسكران طرفي نقيض .

ولما كان التطرف والاندفاع في الأفكار بدون روابط ينتهي إلى الشطط والزيغ ، ولما كان أيضاً الجمود والكسل يؤديان إلى تجميد الدين ، وكل من الأمرين مرفوض مرذول ، فقد ظهر من بين صفوف المعتزلة المندفعين مفكر كان يؤمن بما يقولون أول الأمر ، ثم ما لبث أن اختط خطة معتدلة ، لا هي إلى الشطط فتؤذي ولا هي إلى الجمود فتضر ، هذا المفكر الإسلامي هو أبو الحسن علي بن إسماعيل الأشعري من نسل أبي موسى الأشعري صاحب قضية التحكيم المشهورة . ولد أبو الحسن سنة ٢٦٠ وتوفي سنة ٣٢٤ هـ وكان تلميذا لأبي هاشم الجبائي المعتزلي .

استطاع الأشعري أن يصدر أحكاما في قضايا العقائد في جو من الاعتدال والصفاء بعيدا عن التهور والاندفاع ، وبالرغم من أن بعض الفقهاء ارتابوا في عقيدته وأن الحنابلة رموه بالكفر ، فإن ذلك لم ينهض دليلا على زيغه ، بل نصره كبار العلماء ، كأبي بكر الباقلاني وإمام الحرمين والاسفرائيني وغيرهم من الأعلام الذين تبنوا أفكاره بعد موته ، وقد سمى هؤلاء الأعلام رأي الأشعري بمذهب أهل السنة والجماعة[١٠٠] وهكذا نسمع لأول مرة عن هذا المذهب ، أى مذهب السُّنة والجماعة برغم أن أهل الحديث الذين سلفت الإشارة إليهم يعتبرون من أهل السنة ، وبرغم أن كثيراً من الصحابة والتابعين يعتبرون من أهل السنة أيضاً .

لقد كان الأشعري معتزليا أول أمره ، لكنه رجع إلى مذهب السلف الصالح فى أكثر مسائل الخلاف ، بل إنه صرح باتباع الإمام أحمد بن حنبل .

. فإذا كان الجبرية يقولون إن الله خالق أفعال الإنسان ، وإذا كان المعتزلة يقولون إن الإنسان خالق أفعال نفسه فإن الأشعري يقول : إن أفعال الإنسان لله خلقا وإبداعا ، وإنها للإنسان خلقا ووقوعا عند قدرته ، فالإنسان يريد الفعل وتتجرد له همته والله يخلقه .

وفى قضية القرآن وهل هو مخلوق أو قديم يقول الأشعري : ينبغي أن نفرق بين كلام الله القائم بذاته وهو قديم ، وبين الكتاب الذي بين أيدينا والذي أنزل على محمد في زمن بعينه فيقول ما نصه : « كلامه واحد هو أمر ونهي وخبر واستخبار ووعد ووعيد ، وهذه الوجوه ترجع إلى اعتبارات في كلامه لا إلى عدد في نفس الكلام والعبارات ، والألفاظ المنزلة على لسان الملائكة إلى الأنبياء عليهم السلام دلالات على الكلام الأزلي ، والدلالة مخلوقة محدثة والمدلول قديم أزلي ، والفرق بين القراءة والمقروء والتلاوة والمتلو كالفرق بين الذكر والمذكور ، فالذكر محدث والمذكور قديم »[١٠١] .

---

(١٠٠) رسالة التوحيد للإمام محمد عبده من ١٩ .

(١٠١) الملل والنحل ١/٨٧ .

يقول في رؤية الله في الآخرة : «إن المصحح للرؤية إنما هو الوجود ، والباري تعالى موجود فيصح أن يرى ولا يجوز أن تتعلق الرؤية على جهة ومكان وصورة ومقابلة واتصال شعاع أو على سبيل انطباع فإن كل ذلك مستحيل»

وفيما يتعلق بنظرية العدل عند المعتزلة يرد عليها بقوله : «إن الله قادر على مجازاة العبيد ثوابا وعقابا ، والثواب والنعيم واللطف كله منه فضل ، والعقاب والعذاب كله عدل . والإيمان عنده بتوفيق الله ، والكفر والمعصية بخذلانه»

وتحدث عن الإمامة بما يخالف المعتزلة والشيعة فقال : إن الإمامة تثبت بالاتفاق والاختيار دون النص والتعيين ويجعل الخلفاء الراشدين مترتبين في الفضل ترتبهم في الإمامة ، أي أن أفضلهم أبو بكر ثم عمر ثم عثمان ثم علي .

وهو حين يتحدث عن الذات الإلهية يتحدث بما يليق نابذا الأساليب السخيفة التي عمد إليها المعتزلة حين خاضوا فى هذا الموضوع .

وهكذا نجد أن لقب « أهل السنة » أطلق أول ما أطلق على جماعة الأشاعرة ومن نحا نحوهم ، ثم اتسعت دائرته فشملت أصحاب المذاهب والفقهاء من أمثال الشافعي ومالك وأبي حنيفة وابن حنبل والأوزاعي وأهل الرأي والقياس والإجماع ، وابتعدوا عن خطل المعتزلة ولم يؤمنوا بالإمامة إلا على الأسلوب الذي جرى في انتخاب أبي بكر وعمر ثم عثمان ثم علي ، وأنه ليس هناك إمامة في أسرة بعينها ولا وصاية ، بل الإمامة تصح في أي مسلم صالح لها مهما كان جنسه ولونه ، ولا فضل لعربي على عجمي إلا بالتقوى .

عقيدة أهل السنة :

قد شرح البغدادى عقيدة أهل السنة وعدد أصنافهم فيما يلى :

أولا : من أحاطوا العلم بأبواب التوحيد والنبوة وأحكام الوعد والوعيد والثواب والعقاب وشروط الاجتهاد والإمامة والزعامة وسلكوا فى هذا النوع من العلم طرق الصفاتية من المتكلمين الذين تبرأوا من التشبيه والتعطيل ومن بدع الرافضة والخوراج وسائر أهل الأهواء الضالة

ثانيا : أئمة الفقه من أهل الرأى والحديث الذين اعتقدوا فى أصول الدين مذاهب الصفاتية فى الله ، وفى صفاته الأزلية ، وتبرأوا من القدر والاعتزال ، وأثبتوا رؤية الله تعالى بالأبصار من غير تشبيه ولا تعطيل ، وأثبتوا الحشر من القبور مع إثبات السؤال فى القبر ، وإثبات الحوض والصراط ، والشفاعة وغفران الذنوب التى دون الشرك ، وقالوا بدوام نعيم أهل الجنة على أهلها ، ودوام عذاب النار على الكفرة ، وقالوا بإمامة أبى بكر وعمر وعثمان وعلى ، وأحسنوا الثناء على السلف الصالح من الأمة ، ورأوا وجوب الجمعة خلف الأئمة الذين تبرأوا من أهل الأهواء الضالة ، ورأوا وجوب استنباط الشريعة من الكتاب والسنة ومن إجماع الصحابة ، ورأوا جواز المسح على الخفين ووقوع الطلاق الثلاث ، وتحريم المتعة ، ووجوب طاعة السلطان فيما ليس بمعصية ، ويدخل فى هذه الجماعة أصحاب مالك والشافعى والأوزاعى والثورى وأبى حنيفة وأصحاب أحمد بن حنبل وسائر الفقهاء الذين اعتقدوا فى الأبواب العقلية أصول الصفاتية ولم يخلطوا الفقه بشىء من أهواء أهل البدع الضالة .

ثالثاً : الذين أحاطوا علماً بطرق الأخبار والسنن المأثورة عن النبى وميزوا بين الصحيح والسقيم منها ، وعرفوا أسباب الجرح والتعديل[١٠٢] ولم يخلطوا علمهم بذلك بشىء من بدع أهل الأهواء الضالة .

رابعا : الذين أحاطوا علما بأكثر أبواب الأدب والنحو والتصريف وجروا على سمت أئمة اللغة كالخليل وأبى عمرو بن العلاء وسيبويه والفراء والأخفش والأصمعى والمازنى ، وسائر أئمة النحو من الكوفيين والبصريين الذين لم يخلطوا علمهم بشىء من بدع القدرية أو الرافضة أو الخوارج .

خامساً : الذين أحاطوا علماً بوجوه قراءات القرآن ووجوه تفسير آياته وتأويلها وفق مذاهب أهل السنة دون تأويلات أهل الأهواء الضالة .

---

(١٠٢) الجرح : التجريح الدي يجعل الإنسان غير ثقة لرواية الحديث . والتعديل : إثبات الصفات التي تجعله غير عرضة للتجريح .

سادسا : الزهاد والصوفية الذين أبصروا فأقصروا واختبروا فاعتبروا ، ورضوا بالمقدور وقنعوا بالميسور ، وعلموا أن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك مسئول عن الخير والشر ، دينهم التوحيد ونفى التشبيه ، ومذهبهم التفويض إلى الله تعالى والتوكل عليه والتسليم لأمره والقناعة بما رزقوا به والإعراض عن الاعتراض عليه .

سابعا : المرابطون فى ثغور المسلمين يحمون حمى الوطن الإسلامى ويذبون عنه ويظهرون فى ثغورهم مذاهب أهل السنة والجماعة[١٠٣]

هؤلاء هم أهل السنة كما حددهم البغدادى ، وهو أحد علماء السُّنة ، ومن الخبراء الثقاة فى أهل الفرق والمذاهب المتعددة ، وهكذا نرى أن أهل السنة هم هؤلاء الذين ساروا على درب الصحابة والسلف الصالح ، ولم يلتزموا الاتجاهات التى يغلب عليها الافتعال والتعسف ، بل كانوا واضحين فيما ارتضوه لأنفسهم من عقائد مرجعها جميعاً إلى الكتاب والسنة والرأى والإجماع والقياس والاجتهاد ، والبعد عن الغلوّ فى العقيدة أو التعسف فى إصدار الأحكام .

السلفيون :

حينما تعددت الآراء حول العقيدة الإسلامية ، وتعددت المذاهب التى يعتمد بعضها على الفلسفة حينا والعقل حينا آخر ، واشتدت الملاحاة بين هؤلاء وهؤلاء ، رأى فريق من أئمة الإسلام أن يردوا كل ما يتعلق بالعقيدة الإسلامية إلى طبيعتها الأولى حسبما كانت عليه في أيام الصحابة والتابعين ، فلا يأخذونها إلا من معينها الأصلى ومنابعها الأولى ، أى من الكتاب والسنة ، فنهج هؤلاء الطريقة التى كان يتبعها السلف الصالح ، ولذلك أطلقوا على أنفسهم لقب «السلفيين» .

لقد سبقت الإشارة إلى أن الأئمة الأربعة كانوا يستمدون العقيدة من الكتاب والسنة ولكنهم مع ذلك لم يعرفوا باسم السلفيين ، لأن الشقة الزمنية بينهم وبين الصحابة والتابعين لم تكن بعيدة ، بل لعلهم رأوا وتتلمذوا لكثير من التابعين ، ولكن مع امتداد الزمان وانشعاب الجماعات الإسلامية فى أفكارها متمذهبة

---

(١٠٣) الفرق بين الفرق ص ٣٠٠ ــ ٣٠٣ .

بالكثير من المذاهب بين قديمة كالشيعة والخوارج والمعتزلة وحديثة كالأشعرية والماتريدية[١٠٤] ، نظرت هذه الجماعات الجديدة نظرة جادة إلى الانحراف الذى أصاب صلب العقيدة عن طريق المذاهب السالفة ، خصوصا الأشاعرة الذين قويت شوكتهم وقوى سلطانهم ، واشتد الجدل بين السلفية وأصحاب المذاهب عامة ، وبينهم وبين الأشعرية خاصة ، لأن كلا من الفريقين يدعى لنفسه أنه الوحيد الذى يدعو إلى مذهب السلف ، وما لبث الفريق الجديد أن اشتد عضده حين قام الإمام أحمد ابن تيمية فى القرن السابع يقود حركته ويغذى منهجه بالتأليف والرد على خصوم المذهب ومحاجتهم ، وقرع الحجة بالحجة والبرهان بالبرهان .

وإذا كانت السلفية عرفت هكذا فى القرن السابع الهجرى فليس معنى ذلك أنها أتت بجديد ، فواقع الأمر أن هؤلاء السلفيين هم امتداد لمدرسة الإمام أحمد بن حنبل وأن الحنابلة هم الذين وضعوا الأسس التى سار عليها السلفيون من بعد ، مثل الكلام فى التوحيد وصلة ذلك بالأضرحة ، كما تناولوا آيات التأويل والتشبيه .

وعلى هذا الأساس ينكر ابن تيمية على «أهل العقل» من فلاسفة الإسلام منهجهم وينتهى إلى أنه لا سبيل إلى معرفة العقيدة والأحكام وكل ما يتصل بها إجمالا وتفصيلا واعتقادا واستدلالا إلا من القرآن والسنة المبينة له والسير فى مسارهما ، فما يقرر القرآن وما تشرحه السنة مقبول لا يصح رده ، وإنكاره خروج على الدين ، وليس للعقل سلطان فى تأويل القرآن وتفسيره أو تخريجه إلا بالقدر الذى تؤدى إليه العبارات وما تضافرت عليه الأخبار ، وإذا كان للعقل سلطان بعد ذلك فهو فى التصديق والإذعان وبيان تقريب المنقول من المعقول وعدم المنافرة بينهما ، فالعقل يكون شاهدا ولا يكون حاكما ، ويكون مقررا مؤيدا

---

(١٠٤) الماتريدية فرقة إسلامية أنشأها أبو منصور الماتريدي في بلاد ما وراء النهر ، وكان الماتريدي معاصراً للأشعري ، وكان مستهدفا في منهجه الحد من اندفاع المعتزلة وتهورهم في نسبة كل شيء إلى العقل ، فهو بذلك قريب الشبه بالأشاعرة وإن كان أقرب منهم إلى المعتزلة ، والماتريدية لم تشتط في الأحكام ولم تحكم على أحد بجتهدي المسلمين بالكفر ، وإنما كانت تستهدف اقرب المناهج إلى الصحابة والتابعين .

ولا يكون ناقضاً ولا رافضا ، ويكون موضحا لما اشتمل عليه القرآن من الأدلة[١٠٥] .

وهكذا حدّ السلفيون من سلطان العقل في القضايا الدينية ، وهذا النهج برغم خطورته وخشية أن يؤدي إلى الجمود فقد اضطر السلفيون إلى مسايرته اضطرارا بعد الشطحات والانزلاقات الكثيرة التي تردى فيها المعتزلة نتيجة لإخضاعهم كل أمور الدين للعقل .

ولما كانت هناك بعض المشاكل الكبرى التي هزت كيان المجتمع الإسلامي العقائدي وخاض فيها أئمة الفرق المختلفة كالجبر والاختيار ، وخلق القرآن ، والوحدانية أو وحدة الذات والصفات ، فقد كان من الضروري أن يدلي السلفيون بدلوهم في هذه الموضوعات التي شغلت المسلمين فترة طويلة من الزمان .

ففي مسألة الجبر والاختيار ذهب ابن تيمية إلى وجوب الإيمان بالقدر ، سواء أكان ذلك خيرا أم شرا ، والله خالق كل شيء وليس في الكون شيء بغير إرادته ، وهذا يخالف بطبيعة الحال رأي المعتزلة ، كما مر بنا عند الحديث عن مشكلة الجبر والاختيار عندهم ، كما يرى ابن تيمية أن الله سبحانه ييسر فعل الخير ويرضاه ولا ييسر فعل الشر ولا يرضاه . ويعلل هذا بأن للعبد مشيئة وإرادة كاملتين تجعلانه مسئولا عما يفعل ، وهكذا يختلف ابن تيمية مع المعتزلة حينا ويتفق معهم حينا آخر ، فرأيه في مشكلة الجبر والاختيار فيه الكثير من البساطة والسهولة واليسر .

فإذا تعرض السلفيون لمسألة خلق القرآن التي كان من شأنها وخطرها ما قد ذكرنا في صفحات سابقة عند الكلام عن الإمام ابن حنبل وعن المعتزلة ، رأيناهم يقولون إن القرآن كلام الله غير مخلوق ولكنه ليس قديما ، فيقول ابن تيمية في ذلك ، « السلف قالوا : لم يزل الله متكلما إذا شاء بالعربية كما تكلم بالقرآن العربي ، وما تكلم به فهو قائم به وليس مخلوقا منفصلا عنه ، فلا تكون الحروف التي هي في أسماء الله الحسنى وكتبه المنزلة مخلوقة لأن الله تكلم بها »[١٠٦] . وبعد

(١٠٥) أبو زهرة : المذاهب الإسلامية ٣١٥ ، ٣١٦ .

(١٠٦) راجع الجزء الثالث من كتاب رسائل ومسائل ص ٢١ وما بعدها .

كثير من الجدل الذهني وضرب الأمثلة الكثيرة ينتهي ابن تيمية إلى أن صفة كلام الله قديمة وأما كلامه الذي يخاطب به الخلق كالتوراة والإنجيل والقرآن فلا يستطيع القول بأنه قديم كما لايستطيع القول بأنه مخلوق .

وأما رأي السلفيين في وحدانية الله وصفاته فيقولون بأن الله تعالى يوصف بما وصف به نفسه أو بما وصفه به رسوله ، ومن هنا كانت أوصافه مأخوذة من الكتاب والسنة ، فأثبتوا له صفات المحبة والغضب والرضا والسخط والكلام والاستقرار على العرش والنزول فى ظلل من الغمام ، كما أثبتوا الوجه واليد ، ولكنهم يقولون إن اليد بغير كيف أو تشبيه والوجه من غير كيف ، وعلى ذلك يكون السلفيون قد اتخذوا موقفاً بين المعطلة والمشبهة فهم لا يمثلون ذاته بذوات خلقه ولا ينفون عنه ما وصف به نفسه ، وهم في قولهم هذا قد استمدوا تلك الآراء من الحنابلة الذين بنى السلفيون على آرائهم ، بحيث يمكن أن تعتبر المدرسة السلفية في ماضيها وحاضرها امتداداً لمدرسة أحمد بن حنبل .

وإذا كان المعتزلة والمتصوفة يكفرون خصومهم الذين خاضوا في الحديث عن وحدانية الذات والصفات ، فإن السلفيين لم يكفّروا خصومهم ولكنهم اعتبروهم من أهل الزيغ ، خصوصا الصوفية الذين يقولون بالاتحاد والفناء في الذات الإلهية .

على أن لجمهور السلفية رأيا انفردوا به عن سائر المذاهب وتشددوا فيه إلى حد بعيد ، فيقولون إن التوسل بالأنبياء والأولياء نوع من الشرك وإفساد لعقيدة الوحدانية ، وإن زيارة الروضة النبوية مع استقبالها أو إقامة الشعائر حولها أو الدعاء لله مع استقبال ضريح نبي أو ولي كل ذلك مناف للوحدانية ،الأمر الذي دعا خلفاءهم الوهابيين أن يسوّوا أضرحة الصحابة الكرام بالأرض كما سيأتي بعد قليل .

وإذا كانت هذه الفرقة قد أطلقت على نفسها اسم « السلفيين » باعتبار أنها تستمد روح الدين من الكتاب والسنة فإن جمهور أهل السنة قد وقف منها موقف غير اتفاق في كثير من المسائل ورد عليهم الحجة بالحجة ، وبخاصة في مسألة القرآن والتوسل .



المتصوفة

مرّ بنا ونحن نعرض لعقيدة أهل السنة أن الزهاد والصوفية يعتبرون ممن احتواهم هذا اللواء فتفيأوا ظله واندرجوا تحت رايته ، ذلك أن الزهاد والصوفية مهما بدا منهم من أمور لا تلقى رضى من بعض المسلمين ، فهم دون شك يسيرون في صدق وأمانة باحثين عن الحقيقة متبعين أسلوباً من العبادة ونهجاً من الرياضة كي يصلوا من خلالهما إلى الحب الإلهي . قد تتعدد السبل وتختلف الدروب وتتباين الوسائل ، ولكنها جميعا تتسربل بالإخلاص والصدق وتستهدف أنبل الغايات وأسمى المقاصد ، حتى يتم الوصول الذي تنشده النفس عن طريق المكابدة والرياضة وتصل إلى مبتغاها الأسمى وهو العشق الإلهي .

وإذا كان لبعض ذوي الرأي مآخذ بعينها على مسلك التصوف ، فلأن التصوف يهدف — في الأغلب — إلى دفع النفس إلى الانشغال بالروحيات والفناء فيها دون الماديات ، والاهتمام بالجوهر دون العرض والإيمان بالباطن دون الظاهر الأمر الذي أثار جمهرة الفقهاء على جماعة المتصوفة ، وتبع ذلك ما تبعه من عراك وجدال واتهامات شغلت الرأي العام الإسلامي حقبة من الزمان غير قصيرة ، بل إن ذيولاً لها ما تزال رواسبها كامنة في خواطر الفريقين إلى أيامنا هذه .

على أن الأمر الذي لا شك فيه أن التصوف في نطاق الاعتدال والبعد عن الإسراف في تناول الذات الإلهية عن طريق ما هو معروف بالشطحات الصوفية إنما هو في مداه تعميق للإيمان وإثراء للعقيدة وتثبيت للنفس والروح على طريق الصواب .

وكيف ننكر مبدأ استهدف الوصول إليه ــ ولو بطرق متباينة ــ أعلام من رجالات الإسلام لا يستطيع مفكر أن يغض الطرف عن أقدارهم وأفكارهم وآرائهم ممن أثروا الفكر في نطاق العقيدة ومهدوا للروح على طريق الإيمان ، إنه من الصعب ، بل من الغفلة بمكان ، أن ننكر فكر الغزالي ٥٠٥ هـ . والقشيري ٤٦٥ هـ . والبسطامي ٢٦١ هـ والمحاسبي ٢٤٣ هـ . ومن قبلهم ومن بعدهم الحسن البصري ١١٠ هـ . ومن سار على الطريق من أمثال مالك بن دينار ١٣١ هـ . ورابعة العدوية ١٨٥ هـ . والجنيد البغدادي ٢٩٧ هـ . وأبي نصر السراج ٣٧٨ هـ . وعبد القادر الجيلانى ٥٦١هـ وأحمد الرفاعي ٥٧٨ هـ . وأحمد بن علي بن إبراهيم الحسيني المعروف بالسيد أحمد البدوي ٦٧٥ هـ . وأبى العباس المرسى ٦٨٦هـ . وابن عطاء الله السكندرى ٧٠٩هـ .

هذا ولم تكن لذة التصوف ومتعة الفناء في حب الله مقصورة على بعض المشارقة دون غيرهم من مسلمي المغرب والأندلس ، فإن هناك في ديار المسلمين بالأندلس من انصرفوا إلى سلوك أهل الطريق وكانت لهم تأملاتهم الصوفيةوآثارهم الروحية ، فابن عربى أندلسيّ المولد والنشأة ثم بدا له أن يرحل إلى المشرق ، شأن كثرة من علماء الأندلس الذين أقدموا على تلك الرحلة ، التى كانت تعتبر أمرا ذا قيمة سامية في نظرهم ، تماما كما فعل بعض المشارقة الذين هاجروا إلى الأندلس وألقوا هناك عصا الترحال .

لقد وجد على أرض الأندلس من الزهاد والعابدين والمتصوفة فريق ربما ناهز عددهم مثيله في المشرق الإسلامي أو زاد عليه ، حتى إن ابن بشكوال صنّف كتابا في هذا الموضوع جعل عنوانه : « زهاد الأندلس وأئمتها »[110] ولكن هذا

(١١٠) التكملة لابن الأبار ص ٧١٨ .

الكتاب لقى مصير غيره من مجموعات الكتب الإسلامية النفيسة التي تعرضت للضياع أو الغرق أو التلف ، غير أننا نستطيع أن نذكر من زهاد الأندلس الأمير عبد الله بن عبد الرحمن الناصر ٣٣٩ هـ . وأبا بكر المغيلي ٣٦٤ هـ . وأبا وهب ابن عبد الرحمن العباسي ٣٤٤ هـ . وهو أمير من بني العباس رحل من بغداد إلى الأندلس حيث استقر في قرطبة ، وله وللمغيلي الذي ذكرناه قبل قليل شعر في الزهد من أرق وأمتع وأصفى ما كتب فى هذا المقام .

ومن زهاد الأندلس أيضاً عبد الرحمن بن مروان الأنصاري القنازعي صوام النهار قوام الليل الذي رفض أن يكون مستشارا لعليّ بن حمود ، مثلما رفض الحسن البصري أن يكون مستشارا لعمر بن عبد العزيز ، ومن متصوفة الأندلس أيضا بكار بن داود المرواني الذى شارك فى الجهاد واستشهد وهو يحارب أعداء الإسلام في النصف الثاني من القرن الخامس ، ومنهم أبو الوليد الباجي إمام أهل الأندلس واسمه الأصلي سليمان بن خلف ، وهو الذي أثار الناس على ابن حزم حينما بدت من هذا الأخير بعض الأفكار التي اعتبرها فريق من المسلمين غير متمشية مع جوهر فكر الإسلام وعقيدته وهو صاحب البيتين المؤمنين الزاهدين :

إذا كنت أعلم علماً يقيناً ... بأن جميع حياتيَ ساعهْ
فلِمْ لا أكونُ ضنيناً بها ... وأجعلُها في صلاحٍ وطاعهْ

وسليمان بن خلف هذا هو أستاذ أبى عمر بن عبد البر صاحب كتاب الاستيعاب .

وإذا كنا قد ذكرنا قبل قليل محيى الدين بن عربى الأندلسى المولود فى مرسية ، فإن من الخير أن نذكر أن تصوفه لم يكن من وحي ذاته ، وإنما هو تلميذ لمتصوف أندلسي كبير هو الشيخ أبو عبد الله الغزال . رئيس المتصوفة على عهد الموحدين في مدينة المرية ، والشيخ الغزال بدوره كان تلميذاً للزاهد الكبير ولي الله أبي العباس ابن العريف الذي يعتبر رأس الصوفية في الأندلس وصاحب كتاب « محاسن المجالس » الذي ضمنه أصول طريقته ، ولقد عاش أبو العباس بن العريف في المرية الشطر الأول من حياته وقضى الشطر الثاني منها في مراكش ، بعث به إليها يوسف

ابن تاشفين وفيها توفي سنة ٥٣٦ هـ[١١١] ، ومن الثابت أن أبا الحسن الشاذلي قد تأثر بابن العريف فى طريقته ، ومن هنا يكون للمدّ الصوفي الأندلسي طريقان إلى المشرق أحدهما كان واسطته ابن عربى ، والثاني كان واسطته أبو الحسن الشاذلي الذي ولد فى غمازه في أفريقية وتعلم في تونس ورحل إلى المشرق ثم استقر فى الإسكندرية وتوفى فى عيْذاب بمنطقة البحر الأحمر .

ونستطيع أن نضيف أيضاً أن المدّ الصوفي المغربي والأندلسي قد ترامت آثاره إلى المشرق عن طريق قطبين جليلين من أقطاب الصوفية ، أحدهما السيد أحمد البدوي الذي ولد في المغرب ثم وفد إلى المشرق وأنشأ طريقة « الأحمدية » التي كان من أتباعها ملك مصر الجليل الظاهر بيبرس ، والثاني هو أبو العباس أحمد بن عمر المرسي الفقيه المتصوف الذي وفد هو أو أبوه من مرسية في الأندلس ، واستقر به المقام في الإسكندرية ، وليس من شك في أنه كان معاصراً للسيد البدوي ، وغير بعيد أن يكونا قد التقيا ، فقد توفي الأول فى مدينة طنطا سنة ٦٧٥ هـ . وتوفى الثاني في مدينة الإسكندرية سنة ٦٨٦ هـ . بفارق أحد عشر عاما بين وفاة كل منهما .

سبق القول أن الصوفية مدرسة من مدارس السنة ، والحق أنهم كذلك برغم ما قد يتبادر إلى الأذهان من أن الأمر لم يكن كذلك للخلاف الشديد الذي جرى بينهم وبين الفقهاء . لقد حدث خلاف شديد ومقارعات بين الطرفين . ولكن الواقع أن هذه المقارعات والاتهامات كانت ضد المتطرفين الغلاة من المتصوفة الذين خرجوا على نطاق مألوف العقيدة وذهبت بهم شطحاتهم مذاهب بعيدة تجعل عقلاء المتصوفة ومعتدليهم ، فضلا عن جمهرة المسلمين ، يستهجنون ما ذهبوا إليه من حلول وغلوّ ، وفي أحيان أخرى كانت الفتنة تشتد بسبب تشدد بعض الفقهاء وليس بسبب غلوّ المتصوفة ، كما حدث على عهد القشيري المتصوف الزاهد المحدث الفارس الأشعري الشافعي ، فقد خاصمه جماعة من الحنابلة وتطور الخصام إلى اقتتال مات فيه عدد من الفريقين[١١٢] .

---

(١١١) راجع فصل « تطرف أهل الاندلس » من كتابنا الأدب الأندلسي .

(١١٢) وفيات الأعيان ترجمة رقم ٣٩٤ .

لقد كان الحسن البصري والغزالي والسراج والقشيري والجنيد وابن المبارك والمحاسبي ومالك بن دينار وعبد القادر الجيلاني وأحمد البدوي وأحمد الرفاعي من المتصوفة ذوي الأثر العميق في مسلك المريدين ووضعهم على الطريق إلى معرفة الله . ولقد كان الحلاج وابن عربي وجلال الدين الرومي وعمر بن الفارض متصوفين أيضا ، ولكن هناك فارقا كبيرا بين سلوك الفريق الأول وطريقة تعبيره عن الحب الإلهي الذي هو غاية كل صوفي وبين الفريق الثاني الذي أثار جمهرة المسلمين عليهم بشططهم في التعبير عن حبهم حتى رموا باعتقاد الحلول والتجسيم ، ومن ثم كان عدد من هذا الفريق الثاني قريبا كل القرب من عواطف المستشرقين ، وخصوصا الحلاج على سبيل المثال الذي اهتم به كل من المستشرق الألماني جولدزيهر والمستشرق الفرنسي ماسينيون ، وكتب كل واحد منهما عنه كتابا ، والأمر في نظرنا لا يتعدى كون الحلاج بشططه في البحث عن طريق الوصول والاتحاد كان غير بعيد عن المفهوم المسيحي لفكرة الله وإمكان تجسيم الخالق وحلوله في جسمٓ إنسان .

فإذا ما تركنا الشطط الصوفي جانبا ، وبالتالي مضينا في الخط الصوفي المعتدل ، وجدنا الصوفية هدفا للخوارج يهاجمونهم ويعيبون مسلكهم ، ووجدنا المتصوفة بعيدين عن التشيع ، كما نجد الشيعة ينكرون التصوف ، لأن الحياة الصوفية تتمثل في طلب الرضا من غير توسل بالأئمة ، والإمامة على ما هو معروف تشكل عنصرا أساسيا في عقيدة الشيعة ومبادئهم . ووجدناهم أيضاً ينفرون من الاعتزال ويهاجمونه ، كما فعل المحاسبي في رسائله « الرد على المعتزلة » ، ومن قبله كان الحسن البصري يمثل بؤرة التفكير الديني المعتدل الذي عليه خرج المعتزلة وهجروا حلقته .

بل إننا لو أمعنّا النظر في النشأة الأولى لكل صوفي كبير لوجدناه نشأً فى حجر تفكير أهل السنة ونما وترعرع مفسراً أو محدثاً أو مفسراً محدثا معا أو آخذاً بمذهب أحد الأئمة الأربعةالمشهورين ، فمالك بن دينار كان محدثا ورعا ، والمحاسبي كان فقيها عالما بالأصول والمعاملات ، وأبو يزيد البسطامي مستمسك بالشريعة أولا برغم أنه في القمة بين من أخذ عليهم التصوف مجامع كيانهم . ومن أقواله الخالدة

في هذا السبيل : لو نظرتم إلى رجل أعطي من الكرامات حتى يرتفع في الهواء فلا تغتروا به حتى تنظروا كيف تجدونه عند الأمر والنهي وحفظ الحدود وأداء الشريعة . وعبد القادر الجيلاني كان فقيها محدثا أديبا ، وابن عبدك مؤرخ صوفي عالم بالحديث ، والجنيد اعتبره العلماء شيخ مذهب التصوف ، ولكنه كان متصوفا في نطاق الكتاب والسنة وضبط سلوكه بهما ضبطا كاملا ، وكان يقول : من لم يحفظ القرآن ولم يكتب الحديث ولم يتفقه لا يقتدى به . والقشيري كان محدثا أشعري الفكر إذا تحدث في الأصول ، شافعي المذهب إذا تحدث في الفروع . وأبو نصر السراج كان شيخ الصوفية على طريقة أهل السنة ، وهو صاحب كتاب « اللمع » المشهور . والغزالي هو من نعرف صدق إيمان وفيض علم وقوة استمساك بالحديث والسنة ، وقد ناصب المذاهب التي لا تلتزم التمسّك بالكتاب والسنة العداء ، وقد ألف بين الكثير الذي ألف كتابا بعنوان « فضائح المعتزلة » وكتابا آخر بعنوان « فضائح الباطنية » .

وعمر بن الفارض نشأ شافعي المذهب ، وكان له في علم الحديث شأن كبير . فقد أخذ الحديث عن ابن عساكر ، وأخذ منه الحديث الحافظ المنذري ، وكان سليمان بن خلف الباجي الذي تصدى لابن حزم في بعض مزاعمه على تصوفه مالكي المذهب . وقد سبقت الإشارة إلى أن ابن عبد البر صاحب الاستيعاب كان أحد تلامذته .

فالصوفية إذن جماعة أو بالأحرى مدرسة من مدارس المجاهدة الإسلامية غلا بعضهم في مسلكه فنهض لهم من العلماء من ردوهم إلى الصواب أو أنشأوا حائطا من الفكر السليم والنهج القويم يحول بين أفكار هؤلاء الغلاة وبين أن يبلبلوا أفكار الجمهرة الإسلامية التي لم تلق من الثقافة الدينية ما يعصمها من تطرف القول واستبهام التعبير ، ولكن تبقى الصوفية بعد ذلك إذا ما تخلصت من تطرف القول وانحراف الفكر من مدارس الإيمان وطريقة للصفاء الروحي والمجاهدة النفسية التي تحتاج إليها كل نفس مؤمنة .

لقد فطن صفوة من خلفاء المسلمين وحكامهم إلى نقاء سريرة الزهاد والمتصوفة وصلتهم بالله واستقامة مسلكهم فكانوا يكرمونهم ويكبرون من شأنهم

ويتقربون إليهم ويسألونهم العون والشورى فى كثير من مشكلات الأمور . فمن ذلك ما حدث لعمر بن عبد العزيز حينما آلت إليه خلافة المسلمين ورأى أن أقدر الناس على معاونته هم القريبون إلى الله عملا وفكرا ، فاتجه نظره إلى الحسن البصري يسأله أن يعينه في اختيار حكام أمناء ، وكتب إليه يقول : إني ابتليت بهذا الأمر فانظر لي أعواناً يعينوني عليه . فأجابه الحسن هذه الإجابة الرائعة المختصرة الجامعة قائلا : أما أبناء الدنيا فلا تريدهم ، وأما أبناء الآخرة فلا يريدونك ، فاستعن بالله . وليس ذلك بغريب عن الحسن البصري ، فقد كان على نسكه وتصوفه وبساطته وتواضعه يدخل على الولاة فيأمرهم وينهاهم ، فإذا ما دخل المسجد وتسنم مقام الوعظ والتعليم والإرشاد صار كما يصفه الغزالي : أشبه الناس كلاما بالأنبياء وأقربهم هديا من الصحابة .

وكما تقرب عمر بن عبد العزيز إلى الحسن البصري وتقدم إليه يطلب عونه في شؤون الحكم فإن علي بن حمود في الأندلس فعل نفس الشيء مع عبد الرحمن بن مروان القنازعي ، وطلب إليه أن يكون مستشاره فرفض برغم ما كان عليه من فقر وفاقة وحرمان[113] .

وكان عبد الكريم القشيري صاحب « الرسالة » مكرما معظما لدى ألب أرسلان كما كان ولده عبد الرحيم محلا لاحترام الملك ، وقد أخذ نظام الملك جانبه وكرمه إبان الفتنة التي حدثت بسببه في بغداد بين الحنابلة والشافعية .

وكان لعمر بن الفارض نفس المنزلة من التكريم والإجلال عند الملك الكامل ، الذي كان ينزل بنفسه لزيارته إكباراً منه لشأنه وإعظاماً لمنزلته .

والأمر فيما يتعلق بالسيد أحمد البدوي كان يفوق التكريم والاحترام ، فقد خرج الملك الظاهر بيبرس على رأس جنده لاستقباله عند وفوده إلى مصر من الحجاز وأنزله في ضيافته . فالقوم كانوا في مكانة من العلم والسلوك والوقار والوصول بحيث يستحقون تكريم الملوك فضلا عن تعلق عامة الناس بهم ، ولم

---

(١١٣) المغرب ١/١٦٦ .

يكن هذا التكريم لغير ما سبب ، أو لأسباب عابرة ، وإنما كان للقوم وزنهم وقيمهم وفضلهم وعلمهم الذي جعلهم أهلا للحب والتكريم والإجلال .

أصل التسمية :

ولكن من هو الصوفي ؟ وكيف سمي هذا الطراز من السلوك نحو التعرف إلى الله والقرب منه والفناء في حبه تصوفاً ؟ وكيف عرّف المتصوفة بأنفسهم ؟

لقد كثرت التعليلات وكثر المعللون حول هذه التسمية ، فذهب بعض المؤرخين إلى أن كلمة الصوفية يونانية الأصل « سوفيا » بمعنى الحكمة ثم أخذت شكلا عربيا فصارت « صوفية » وهو تعليل خاطئ في منطقه يستهدف نسبة الكثير من المبادئ والقضايا والمسميات العربية الأصيلة إلى منبع أجنبي تماما كنسبة الفسطاط إلى الكلمة الأجنبية فستاتم Fostatem ونسبة الدروز إلى اسم القائد الفرنسي De Rose .

وهناك من نسب الصوفية إلى العصر الجاهلي ، وفي مقدمة هؤلاء ابن الجوزي الذي ذهب إلى تبني هذا الرأي برغم جلال علمه ، فقال إن قوما في الجاهلية كان يقال لهم صوفة انقطعوا إلى العبادة حول الكعبة ونسبهم إلى الغوث بن مرّ الذي كان يعرف باسم صوفة ، أطلقته أمه عليه لأنها لم يكن يعيش لها أولاد فنذرت لئن رزقت بولد لتجعلن برأسه صوفة وتهبه للكعبة ، فولدت الغوث وعرف باسم صوفة وظلت الصفة عالقة بأولاده من بعده[١١٤] وهو رأي يصعب الأخذ به لسذاجته .

وهناك من يعطي التسمية وجها إسلامياً ويربط بينها وبين الرسول صلى الله عليه وسلم والصحابة الأكرمين عليهم الرضوان ، فقد نسب لبس الصوف إلى الرسول في عدة أقوال ، منها قول أنس فيما رواه ابن ماجه أن الرسول صلى الله عليه وسلم « أكل خشنا ولبس خشنا ، لبس الصوف واحتذى المخصوف » ومنها الوصف الشريف الذى جاء على لسان عمر وهو يبكي الرسول ويصنفه بالبساطة

(١١٤) تلبيس ابليس ص ١٦١ .

والتقشف على رغم كون الدنيا بين يديه « لقد والله جالستنا ونكحت إلينا وواكلتنا ولبست الصوف وركبت الحمار وأردفت خلفك » . ونحن وإن سلمنا بصحة الخبرين فإن هذا التسليم تسليم جزئي ، لأن الرسول صلى الله عليه وسلم لبس الصوف وغير الصوف ، ومن ثم فإنهما لا ينهضان سببا لتسمية عريضة ولكنهما مجرد دلالة على ما بين لبس الصوف والتواضع والاخشيشان ، وكان الرسول صلى الله عليه وسلم يقول « اخشوشنوا فإن النعمة لا تدوم » .

وقيل إن الصوفية نسبة إلى الصُفّة ، وأهل الصفة هم الفقراء الزهاد من الصحابة المهاجرين ، وكانوا يسكنون صفّة المسجد في المدينة ، وكانوا يقلون حينا ويكثرون حينا آخر ، فمن استقرت أحواله واستغنى ترك المسجد وذهب إلى مأواه . ويذكر ابن تيمية أن الذين كانوا يأوون إلى الصفّة كان بينهم الغني والفقير والأعزب ، فالذي لا يتيسر له مكان يأوي إلى تلك الصفة التى في المسجد حتى يتأهل أو تتيسر له سبل الإقامة(١١٥) .

والذين نسبوا الصوفية إلى الصفّة استهدفوا أن يربطوا بين التصوف والمهاجرين من الصحابة ، غير أن الأمر على جانب كبير من الخطأ ، لأن النسبة إلى الصُّفّة صُفّيّ وليست « صوفي » .

وهناك من جعل الصوفية امتدادا للخط الصحابي الجليل لما أثر عن صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم من أنهم كانوا يلبسون الصوف ، مثل أبي ذر الغفاري وسلمان الفارسي اللذين يعتبرهم بعض المتصوفة رائدين للتصوف ، غير أن هذين القطبين لم يكونا الوحيدين اللذين يلبسان الصوف بين صحابة الرسول ، فقد أثر عن الحسن البصري قوله : أدركت سبعين بدريا كان لباسهم الصوف ، والبدريون هم الذين حاربوا مع الرسول في بدر ، وكلهم يمثلون الصفوة الماجدة الرائدة من صحابة الرسول صلى الله عليه وسلم .

والحقيقة أن الأخبار متواترة حول ارتداء صحابة الرسول الصوف ، فهذا أبو عبيدة بن الجراح الصحابى الجليل والقائد المظفر يظهر للناس وهو بالشام وعليه

---

(١١٥) مجموعة الرسائل والمسائل لابن تيمية ٣٦/١ وما بعدها .

الرداء الخشن من الصوف فيطلبون منه إصلاح ذات شأنه واستبدال ملابسه وارتداء ما هو أرق وأفخم لقربه من الأعداء الذين تؤثر المظاهر على معنوياتهم فيرفض قائلا : ما كنت بالذي أترك ما كنت عليه في عصر الرسول صلى الله عليه وسلم[١١٦] .

لقد أثرت أخبار أخرى عديدة عن لبس الصحابة والتابعين الصوف ، ولبس الصوف يحمل بدون شك معنى التقشف والتواضع والبعد عن الزهو وتمثل الفقر إلى الله سبحانه ، ومن ثم فإن الزهاد والنساك الذين جعلوا حياتهم سعيا في مسالك الطريق إلى الله يبتغون رضاه وينشدون محبته ويعشقون كماله ويفنون في جلاله قد ارتضوا لأنفسهم هذه التسمية ، وأطلقوها عن رضى واقتناع .

وقال بعض الباحثين إن لفظ صوفى مشتق من الصفاء أو الصفو ، والمراد صفو قلوب المتصوفة وانشراح صدورهم ورضاهم بما يجريه الله عليهم ، ثم إنهم مع الله فى صفاء لا يشوبه شاغل ، وهم بما أطلعهم الله عليه قد صفوا من كدر الجهل ، وكان اللفظ المشتق فى الأصل «صفوى» فاستثقل فقيل «صوفى»[١١٧] .

والحق أن كلمة صوفى قد أصبحت منذ زمن مبكر تعنى الزاهد فى حطام الدنيا الراضى بالقليل النافر من أسباب الزينة ومظاهر الحياة ، يؤيد ذلك قصة محمد بن واسع مع قتيبة بن مسلم الباهلى عامل خراسان ، فقد دخل محمد على قتيبة وعليه مدرعة صوف خشنة وربما بالية ، فقال له قتيبة : ما يدعوك إلى لباس هذه ، فسكت ولم يحر جواباً ، فقال له قتيبة فيما يشبه الغضب : أكلمك فلا تجيبنى ؟ فأجاب محمد فى خشوع وهدوء : أكره أن أقول زهدا فأزكى نفسى ، أو أقول فقرا فأشكو ربى[١١٨] .

لقد كان محمد بن واسع بإجابته هذه الصادقة ، معبرا خير تعبير عن هذا النمط من العباد الزهاد القانعين الذين يرغبون عن زينة الحياة الدنيا وعن صادق رغبة ،

---

(١١٦) مروج الذهب ٤١٨/١ .
(١١٧) دائرة المعارف الإسلامية مادة تصوف .
(١١٨) العقد الفريد ٢٢٥/٦ ، ٢٢٦ .

ومن ثم فإن اختيار المتصوفة لأنفسهم أو اختيار الناس لهم هذا الاسم قد جاء مشتقا من الصوف متصلا به اتصالا لفظيا ومعنويا لدلالة لبس الصوف على الزهد فى الحياة والتقشف بعيدا عنها ، ومن ثم السعى إلى التقرب من الخالق ، وهو الرأى الذى ذهب إليه ابن خلدون فى مقدمته[١١٩] .

ولكن ليس معنى أن لبس الصوف علاقة القربى من الله أن يكون الجنوح عن لبسه بعدا عن الله وانغماسا فى حب الدنيا ، فقد ذكر ابن عبد ربه أن القاسم بن محمد كان يلبس الخز وسالم بن عبد الله كان يلبس الصوف ومقعدهما واحد فى مسجد المدينة فلا ينكر بعضهما على بعض شيئاً[١٢٠] ذلك أن التزين فى وقار والتطييب فى قصد والتأنق فى غير ما إسراف أمور ترفع من قدر المرء فى ظل دينه وخلقه ومروءته ، وقد أثرت عن الرسول ﷺ أحاديث عديدة فى هذا السبيل ، فقد قال مرة لأم المؤمنين عائشة : مالى أراكِ شعثاء مرهاء سلتاء ؟ قالت : يارسول الله أو لسنا من العرب ؟ قال : بلى : وربما أُنسِيت العربُ الكلمة فيعلمنيها جبريل[١٢١] وفى حديث آخر قوله ﷺ : إياكم والشعث حتى لو لم يجد أحدكم إلا زيتونة فليعصرها وليدّهن بها .

وإذن لم يكن لبس الصوف بمانع من اللباس الناعم لمن أراد ، ولكن القوم استحسنوا أن يجعلوه علامة للتقشف ورمزا للزهد ، وهم قد قصدوا الصوف الخشن قصدا ، فإن بين الألبسة الصوفية وبخاصة فى زماننا ما يغضى أثمن الحرير لبهائه حياء .

على أن لبس الصوف ليس دائماً علامة على الخشوع والزهد والقرب إلى الله ، فكثيرا ما كان بعض المنحرفين يتخذون من التصوف سترا يحجب رذائلهم ونفاقهم ــ وما زالت هذه الظاهرة قائمة حتى زماننا هذا ــ فقد ذكر صاحب العقد أن ابن السماك قال لأصحاب الصوف منذرا متهكما : والله لئن كان

---

(١١٩) المقدمة ١٠٦٣/٣ تحقيق الدكتور على عبد الواحد .

(١٢٠) العقد الفريد ٢٢٦/٦ .

(١٢١) المصدر السابق نفس الصفحة . الشعثاء التى لا تدهن ، المرهاء التى لا تكتحل . السلتاء التى لا تختضب .

لباسكم وفقا لسرائركم لقد أحببتم أن يطلع الناس عليها ، ولئن كان مخالفا لقد هلكتم . ثم يمضى صاحب العقد موردا بيتين لمحمود الوراق فيمن أسماهم ـــ نفس الاسم السابق ـــ أصحاب الصوف قائلا[١٢٢] .

تصوّف كى يُقـــال له أميـــنٌ ومـــا يعنـــى الـتّصَوُّف والأمانـــهْ
ولم يُرد الإلـــه به ولكـــن أراد به الطريـــقَ إلى الخيانـــة

ولا شك أن بعض المنحرفين عن الجادة قد أرادوا أن يخفوا عن الناس سوء سلوكهم ، فلبسوا الصوف حتى لايفطن أحد إلى فسادهم ، وليس أدل على ذلك من أن الحسن البصرى الذى روى أنه رأى سبعين بدريا يلبسون الصوف يقول عن أصحاب الأكسية ، أى لابسى الأكسية الصوفية : لقد أكنُّوا الكبر فى قلوبهم ، وأظهروا التواضع فى لباسهم ، والله لأحدهم أشد عجبا بكسائه من صاحب المطرف بمطرفه . وهذا سفيان الثورى الملقب بأمير المؤمنين فى الحديث يقول : لولا أبو هاشم الصوفى ما عرفت دقيق الرياء[١٢٣] .

وقد اعترض على لباس الصوف من قبل من ربطوا بينه وبين لباس النساك من النصارى الذين اعتادوا لبس الخشن من الصوف فى الأديرة تقشفا وتعبدا ، فقد زار حماد بن سلمة البصرة فجاءه فرقد السبخى وعليه ثياب صوف فقال له حماد : ضع عنك نصرانيتك هذه . ومن الطريف أن بعض المستشرقين مثل نيكلسون ونولدكه وجيوم ذهبوا إلى النساك المسلمين الذين أخذوا لفظ المتصوفة اسما لهم إنما لبسوا الصوف محاكاة لرهبان المسيحيين[١٢٤] وأكثر من ذلك أن نفس هؤلاء المستشرقين قد ادعوا أن الإسلام حسّن العزوبة وشجعها ، وضربوا أمثلة ببعض المتصوفة الذين لم يتزوجوا لسبب أو لآخر مستهدفين من وراء ذلك ربط التصوف الإسلامى بالترهب المسيحى شأنهم فى محاولات أخرى كثيرة فى الدراسات الإسلامية من عقائدية وحضارية ، وكان ينبغى عليهم قبل إصدار

---

(١٢٢) العقد الفريد ٢٢٦/٦ .
(١٢٣) اللمع السراج ص ٤٢ .
(١٢٤) في التصوف الإسلامي ترجمة أبي العلا ، عفيفي ص ٤٨ ،٤٩ .

حكمهم أن يزدادوا إلماماً بحياة الزهاد الحقيقيين من متصوفة المسلمين الذين عملوا فأكلوا من كسب أيديهم ، وعلموا فنقلوا علمهم إلى الناس فيضاً من المعرفة ووفرة من الكتب وسيلا من الرسائل على ما سوف نبين بعد قليل .

لقد ذكر لقب الصوفى إذن كمرادف للعابد الفقير المتقشف منذ وقت مبكر فى الإسلام ، وليس قبله ، فقد أثر عن الحسن البصرى قوله : رأيت صوفيا فى الطواف فأعطيته شيئا فلم يأخذه وقال معى أربعة دوانيق فيكفينى مامعى ، والحسن توفى سنة ١١٠ هـ على ما هو معروف ، وقد مرّ بنا قبل قليل ما ذكره سفيان الثورى عن أبى هاشم الصوفى وقوله . لولاه ــ أى لولا أبو هاشم ــ ما عرف سفيان دقيق الرياء ، ولقد توفى سفيان سنة ٢٠٠ هـ . وأما أبو هاشم فقد توفى سنة ١٠٥هـ . ومن هنا فإن كلمة صوفى بمدلوها المذهبى المتداولة يمكن أن تكون قد طبقت لأول مرة فى القرن الثانى للهجرة ، ويكون أول من عرف بهذه الصفة هو أبو هاشم الصوفى .

على أن أبا هاشم الصوفي بسلوكه الذي جعل أمير الحديث سفياناً الثوري يصفه بالرياء لا يستتبع بالضرورة أن يكون بقية المتصوفة من نسج أبي هاشم ، أو ربما كانت تهمة سفيان لأبي هاشم من قبيل العداوة التقليدية الجارية بين الفقهاء والصوفية ، ومن ثم فرأي سفيان في أبي هاشم لا يشكل قاعدة تنطبق على كل المتصوفة .

ويذهب الأستاذ ماسينيون [١٢٥] إلى أن من لقب بالصوفي هو عبدك الصوفي المتوفي حوالي ٢١٠ هـ . وكان متشيعا يقول بأن الإمامة بالتعيين ، ويذهب مرة ثانية إلى أن لفظ « صوفي » ورد لقبا مفردا لأول مرة في النصف الثاني من القرن الثامن الميلادي كصفة لجابر بن حيان ، وجابر توفي سنة ٢٠٠ هـ . ومعنى ذلك من وجهة نظره أن لقب صوفي قد أطلق في النصف الثاني من القرن الثاني الهجري ، والواقع أن اسم جابر بن حيان ورد في كتب التراجم مقرونا بلفظ « الصوفي » كلقب له ، وليس لدينا في الحقيقة ما يدل عل أن هذا اللقب يتصل

(١٢٥) ماسنيون مادة تصوف فى دائرة المعارف الإسلاميه.

بالمعنى الذي نعالجه ، فقد يكون لقبا عارضا لسبب آخر ونسبة مختلفة عن الصوفية الروحية ، ومن ثم فإننا نميل إلى أن أبا هاشم الصوفي هو أول من وصف بهذا الوصف على الحقيقة الموضوعية .

من هو الصوفي :

ولكن مهما كان الرأي حول التسمية وحول أول شخص لقب بالصوفي فإنه ينبغي أن نتساءل عمن هو الصوفي على وجه التحديد ؟ الواقع أن بين أيدينا عددا كبيرا من التعريفات المتفقة المختلفة ، ربما تكون فيها ألوان اتفاق معنوي أو مسلكي ولكنها مختلفة من حيث اللفظ ودقة المعنى ، وإذا كان تعريف المرء بنفسه يساعد طالب المعرفة كثيرا فإننا نحاول هنا أن نستعرض تعريفات بعض الصوفية لمن هو الصوفي .

يقول ذو النون المصري : الصوفي لا يتعبه طلب ولا يزعجه سلب[١٢٦] ويقول أبو تراب النخشبي : الصوفي لا يكدره شيء ويصفو به كل شيء[١٢٧] ويقول سهل بن عبد الملك التستري : الصوفي من صفا من الكدر ، وامتلأ من الفكر ، وانقطع إلى الله من البسر واستوى عنده الذهب والمدر[١٢٨] . ويقول الشبلي : الصوفي منقطع عن الخلق متصل بالحق[١٢٩] . ويقول أبو سعيد الخراز : الصوفي من صفى ربه قلبه فامتلأ نورا ومن حل في عين اللذة بذكره الله[١٣٠] ويقول الجنيد : أن يختصك الله بالصفاء ، فمن اصطفى من كل ما سوى الله فهو الصوفي[١٣١] .

هذه طائفة من تعريفات الصوفي كمفرد ، فإذا ما انصرف التعريف إلى الصوفية كجماعة فإنه لا يكاد يخرج عن مفهوم تعريف المفرد ، مثال ذلك قول

(١٢٦) عوارف المعارف ص ٤٣ .
(١٢٧) نفس المصدر ص ٤١ .
(١٢٨) المصدر السابق ص ٤٣ .
(١٢٩) الرسالة القشيرية ص ١٣٩ .
(١٣٠) نيكلسون ٣٠ .
(١٣١) المصدر السابق ٣٣ .

ذي النون المصري : الصوفية قوم آثروا الله على كل شيء فآثرهم الله عز وجل على كل شيء[١٣٢] . وكقول أبي الحسين النوري : الصوفية قوم صفت قلوبهم من كدورات البشرية وآفات النفس وتحرروا من شهواتهم حتى صاروا في الصف الأول والدرجة العليا مع الحق ، فلما تركوا كل شيء ما سوى الله صاروا لا مالكين ولا مملوكين ، وقوله أيضا : التصوف كراهية الدنيا ومحبة المولى[١٣٣] أو كقول الجنيد : التصوف تصفية القلوب حتى لا يعاودها ضعفها الذاتي ومفارقة أخلاق الطبيعة وإخماد صفات البشرية ومجانبة نزوات النفس .

إن رسالة القشيري وتذكرة الأولياء لفريد الدين العطار وغيرهما من كتب التصوف مليئة بمئات الصيغ التي تعرف بالصوفي والمتصوفة ، وهى جميعا على اختلاف وسائل التعبير وتشعب أسباب التناول تنتهي إلى مقصد واحد هو العزوف عن لذائذ الحياة ونشدان صفاء النفس والسعي إلى الحب الإلهي في نطاق السمو الروحي والمجاهدة النفسية .

على أن هذه التعريفات قديمها وحديثها لا تخلو من جنوح أحيانا إلى الغموض وتلاعب بالألفاظ يطمس وضوح المعاني ، وشاهدنا على ذلك الأقوال الكثيرة التي جرت على ألسنة الجنيد وفريد الدين والحلاج وغيرهم من القدامى ، فإذا عرضنا لأقوال بعض المحدثين من أهل الطريق وجدنا صفة الغموض تلازمهم أيضا ، فهذا صوفي معاصر يعرف التصوف بأنه : اطراح الأستار النورانية الناشئة عن المعلومات والمعارف الحائدة عن طريق الحق في ذاته طلبا لتحقيق الحقائق الوجودية والإلهية على قدر الطاقة البشرية رجوعا إلى الحق في ذاته[١٣٤] .

إن التصوف في طبيعته شيء أيسر في التعبير من هذا الذي عبر عنه ممارسوه ، وهو أبعد ما يكون عن التعمية لفظاً والإلغاز معنى ، إنه السمو والرياضة والمجاهدة والبعد عن أسباب الماديات الرخيصة ، والسعي إلى معرفة الخالق والتقرب إليه والتحبب إلى ذاته ، وينبغي أن يكون التعبير عنه متمشيا مع سمو المسلك وسهولة

---

(١٣٢) الرسالة القشيرية ص ١٣٩

(١٣٣) نيكلسون ص ٣٢ .

(١٣٤) المدخل إلى التصوف الإسلامي لأبي الفيض المنوفي ص ٩

المدرج ونقاء المنفذ وصفاء الطريق . وأننا لا نشك في أن التعبير عن التصوف بأقوال مستغلقة الفهم هي التي دفعت بالغربيين إلى تسميته بلفظ معناه الغموض Mysticism وتسمية الصوفي بلفظ معناه الغامض الخفي .Mystic .

بين الفقهاء والمتصوفة :

على أن هناك خلافا قديما احتل مكانه بين الفقهاء الذين يعيشون بالحرف والمتصوفة الذين يغلون بالشطح ، وإن المتتبع لطبيعة العلاقة بين الفقه والتصوف ، أو بالأحرى بين الفقهاء والصوفية ، يلمس فارقا واضحا بين مفهوم كل من الفريقين للعبادة في نطاق الشريعة ، فجانب علم الشريعة الذي يهتم بالعبادات والأحكام والمعاملات من حدود وزواج وطلاق وبيع وشراء وفرائض وقصاص اصطلح على تسميته — على ما هو معروف — بعلم الفقه ، وعلماؤه هم الفقهاء ، وبالتالي فإن علم الفقه هو علم الظاهر والفقهاء بدورهم هم علماء الظاهر ، وأما الجانب الثاني من علم الشريعة فهو ذلك الذي يهتم بالباطن المتعلق بأعمال القلوب ، والذي اصطلح على تسميته بعلم التصوف ، وعلماؤه تبعا لذلك هم أرباب الباطن وأصحاب الحقائق . وأهل الظاهر يؤثرون الأحكام الدينية الواضحة المعالم ، وهم تبعا لذلك يسعون إلى تحصيل العلم ومداومة الاطلاع والدراسة ، وأهل الباطن لا ينصرفون إلى تحصيل العلم عن طريق الدراسة ولا يحرصون على ذلك كل الحرص ولكن الوسيلة إلى التحصيل تكون بطريق المجاهدة والإقبال على الله في نطاق طهارة النفس وصفاء الروح وتحرير الجسد ومحاسبة الضمير توقعا للتجلي الذي يمد المتصوف بأسباب المعرفة .

ومن باب إحقاق الحق ينبغي تقرير أن كبار المتصوفة من غير الغلاة كانوا ملتزمين دائماً بأحكام الشرع وإن تجاوزوا الصيغة الحرفية إلى المفهوم الكلي الذي هو في ذاته روح الشرع وكنه فلسفته ، بل إن بعضهم ألحوا على الالتزام بظاهر الشرع . فهذا أبو سعيد الخراز المتوفى سنة ٢٧٧ هـ ، وكان من كبار المتصوفة يقول : كل باطن يخالف ظاهرا فهو باطل . والقشيري صاحب الرسالة يطالب الصوفية في مستهل رسالته بالرجوع بالتصوف إلى سيرته الأولى لما لمس في الكثير

منهم ـــ أي من المتصوفة ـــ من انحراف ظاهر في قضايا الشريعة متذرّعين بما أسموه الحقيقة .

ثم جاء حجة الإسلام الغزالي بعد القشيري بقليل وجدّ في السعي إلى التوفيق بين التصوف وتعاليم الدين ، أو بين الحقيقة ـــ المفهوم الصوفي ـــ والشريعة ـــ المفهوم الديني العام ـــ فمزج عناصر التصوف بعناصر من الكتاب والسنة ، ومن ثم أعاد إلى التصوف وقاره ، وكسب إلى جانبه فئة من المسلمين كانت قد حاربته وأنكرته . إن الغزالي يقول قولا قريبا من قول أبي سعيد الخرّاز في حتمية الربط بين الظاهر والباطن ، أو بلغة المتصوفة بين الشريعة والحقيقة : من قال إن الحقيقة تخالف الشريعة والباطن يخالف الظاهر فهو إلى الكفر أقرب ، وكل حقيقة غير مقيدة بالشريعة فغير محصولة . وأضفى الغزالي في مواطن شتى من « الإحياء » مسحة تصوفية على هذه القضية بقوله : الشريعة جاءت بتكليف الخلق ، والحقيقة إنباء عن تعريف الحق ، والشريعة أن تعبده والحقيقة أن تشهده ، والشريعة قيام بما أمر ، والحقيقة شهود لما قدر وأخفى وأظهر[١٣٥] .

وعلى الرغم من أن الصوفية يفضلون أنفسهم على الفقهاء فإن سعة أفق أئمة أهل السنة قد غضت الطرف عن بعض سمات التحيز التي التزمها هؤلاء المتصوفة حيال تمييز أنفسهم على جمهرة الفقهاء ، فالسراج يصرّ على تفضيل المتصوفة على أهل الفقه والحديث فيقول : إن الصوفية ارتفعوا إلى درجات عالية وتعلقوا بأحوال شريفة ومنازل رفيعة من أنواع العبادات وحقائق الطاعات والأخلاق الجميلة ولهم في معاني ذلك تخصص ليس لغيرهم من العلماء والفقهاء وأصحاب الحديث[١٣٦] .

يقابل هذا الحماس للمتصوفة سماحة من جانب المستنيرين من الفقهاء متمثلة في الإمام الشافعي من خلال هذه القضية . كان أحمد بن حنبل عند الشافعي ذات يوم فمرّ أمامهما شيبان الراعي الصوفي فقال الإمام ابن حنبل موجها الحديث إلى

---

(١٣٥) التصوف للدكتور عفيفي ص ١١٩ ـــ ١٢١ .

(١٣٦) المصدر السابق ١٣٠ .

الإمام الشافعي : أريد يا أبا عبد الله أن أنبه هذا ــ يقصد شيبان ــ على نقصان علمه ليشتغل بتحصيل بعض العلوم ، فقال الشافعي : لا تفعل ، فلم يقتنع ابن حنبل واتجه إلى شيبان متسائلا : ما تقول فيمن نسي صلاة من خمس صلوات في اليوم والليلة لا يدري أي صلاة نسيها ؟ ما الواجب عليه ياشيبان ؟ وأراد الإمام أحمد إجابة فقهية ، وتوقع أن يعجز شيبان عن إبداء أية إجابة ولكنه سرعان ما سمع من الصوفي العابد إجابة هي إلى الله أقرب وللوجدان أشفى . أجابه شيبان : يا أحمد هذا قلب غفل عن ذكر الله فالواجب أن يؤدب حتى لا يغفل عن مولاه ، فغشي على أحمد من روعة الإجابة وعمقها وسدادها ، فلما أفاق قال له الشافعي : ألم أقل لك لا تحرك هذا ؟[١٣٧] .

وإذن فالاشتغال بالحقيقة في نطاق الإيمان وعدم إغفال الشريعة ــ وهو مسلك المتصوفة المستنيرة ــ مزج أصيل لتعاليم الشرع بروح العقيدة ، أو بعبارة أخرى هو المزج بين الفهم المادي والإحساس الروحي الذي تميز به الإسلام حين جعل عقيدته مصلحة من أمر الدنيا مستهدفة ثواب الآخرة ، وهذا يدفع بنا إلى تقرير أن الصادقين من المتصوفة كانوا أهل علم وعمل ، كانوا يكتسبون المعرفة ويأكلون من عمل أيديهم ولم يكونوا عالة على أحد ، فالعامل الذي يعول عابدا ثوابه عند الله يرجح مرات ثواب العابد ، ولقد صور هذا المبدأ صوفي عظيم هو الحارث بن أسد المحاسبي ٢٤٣ هـ في قوله : خيار هذه الأمة الذين لا تشغلهم آخرتهم عن دنياهم ولا دنياهم عن آخرتهم .

بعض مؤلفات المتصوفة :

إنه فى مجال العمل والكسب وعدم الاعتماد على الغير نستطيع أن نورد أكثر من مثل لصوفية عظام كانوا يأكلون من عمل أيديهم ، إن مالك بن دينار الناسك المحدث الورع كان يكتب المصاحف بالأجرة ويجعل من المهنة مصدراً للعيش ، والجنيد البغدادي ٢٩٧ هـ كان يعمل في الخز ، وهو لذلك قد عرف بالخزازي ،

---

(١٣٧) راجع الرسالة القشيرية ص ١٨١ .

وغير خاف أنه معروف بين المتصوفة بشيخ مذهب التصوف ، والصوفي العظيم عبد القادر الجيلاني ٥٦١ هـ كان هو الآخر يأكل من عمل يده . هذا ولم يكن المتصوفة — كما هي صورتهم في أذهان كثير من الناس — يهيمون في الطرقات على وجوههم أو يتقوقعون في التكايا ينشدون الراحة ويغرقون أنفسهم فى التأمل وإنما كانت الكثرة الوافرة منهم تسعى وراء العلم ، تنشد المعرفة وتحصلها ثم تذيعها في مجالسها وفي عديد من الكتب التي خلفوها والتي تشيع الحكمة في حواشيها ، فالحارث المحاسبي المتوفى سنة ٢٤٣ والذي مر ذكره قبل قليل ترك عددا من الكتب القيمة ، منها : الرعاية لحقوق الله ، والمسائل في الزهد ، والبعث والنشور ، والمسائل في أعمال القلوب والجوارح ، وأكثر كتبه كما هو واضح من عناوينها في الزهد ، غير أنه ألف كتبا أخرى تتسم بالموضوعية والفكر في الرد على المعتزلة .

والحلاج ٣٠٩ هـ الذي يلقب بشهيد الصوفية له العديد من الكتب التي تحمل عناوين على شيء من الغرابة ، ولا غرو في ذلك ، فقد كان الرجل نفسه غريب الأطوار ، فمن كتبه : الظل الممدود والماء المسكوب والحياة الباقية ، ومنها قرآن القرآن والفرقان ، ومنها علم البقاء والفناء ، ومدح النبى والمثل الأعلى ، والوجود الأول ، والوجود الثانى ، وكيف كان وكيف يكون ، وهو هو ، والقيامة والقيامات .

والقشيرى الذى كان يلقب بزين الإسلام وشيخ خراسان ترك لنا عدا رسالته النفيسة المشهورة تفسيره الذى جعل عنوانه التيسير فى التفسير ، وكتابا آخر لايزال مخطوطاً هو لطائف الإشارات .

وأما أبو حامد الغزالي ٥٠٥ هـ فهو غني عن التعريف من حيث الكنوز الفكرية التي خلفها فيما يقرب من مائتي كتاب أشهرها الإحياء ، وتهافت الفلاسفة ، والاقتصاد في الاعتقاد ، ومقاصد الفلاسفة ، والمنقذ من الضلال ، وبداية الهداية ، وإلجام العوام عن علم الكلام ، ومنهاج العابدين ، وعقيدة أهل السنة ، وفضائح المعتزلة ، وفضائح الباطنية .

وكان حجة الإسلام الغزالي باعتباره من منطقة طوس بخراسان من ذوي اللسانين ، فكان يجيد العربية والفارسية ، وكما ترك مؤلفات بالعربية ترك أيضا بعض المؤلفات بالفارسية .

وعلى نفس الشاكلة من حيث العطاء كان محيى الدين بن عربي مع بون شاسع وفارق واسع في فهم كل من العالمين الشهيرين للتصوف ، فقد ترك ابن عربي نحواً من أربعمائة كتاب ورسالة خصصها جميعا لتصوراته الصوفية ، أهمها الفتوحات المكية ، وفصوص الحكم ، ومفاتيح الغيب ، والتعريفات ، وكنه ما لا بد للمريد منه ، وروح القدس ، والأنوار (في أسرار الخلوة) ، والتجليات . وشجرة الكون ، وديوان شعره .

موضوعات التصوف :

فإذا ما عدنا إلى الحديث عن موضوعات التصوف وجدنا أنها تتناول أربعة مباحث ، وذلك حسبما أحصاها الشيخ مصطفى عبد الرازق في استيفائه لمفهوم المذهب وإكماله للمادة التي كتبها الأستاذ ماسينيون في دائرة المعارف الإسلامية ، هذه المباحث هي[١٣٨] .

أولا : المجاهدات وما يحصل عنها من الأذواق والمواجد ومحاسبة النفس على الأعمال لتحصيل تلك الأحوال والترقي منها إلى غيرها .

ثانيا : الكلام في الكشف والحقيقة المدركة من عالم الغيب مثل الصفات الربانية والعرش والكرسي والملائكة والروح .

ثالثاً : التصرف في العوالم والأكوان بأنواع الكرامات .

رابعاً : ألفاظ ذوات باطن يختلف عن مدلول الظاهر اصطلح على تسميتها بالشطحات أو الشطحيات ، ويورد الشيخ مصطفى عبد الرازق بعض الأمثلة على هذه الشطحات ، منها ما يروى عن أبي اليزيد البسطامي أنه قال : رفعني مرة

(١٣٨) دائرة المعارف الإسلامية ملحق مادة تصوف .

فأقامني بين يديه وقال لي : يا أبا يزيد إن خلقي يحبون أن يروك ، فقلت زيّني بوحدانيتك ، وألبسني أنانيتك ، وارفعني إلى أحديتك حتى إذا رآني خلقك قالوا رأيناك فتكون أنت ذاك ولا أكون أنا هناك . ويورد صاحب المادة كمثال آخر في هذا السبيل بيتا لابن عربي يقول فيه :

عقد الخلائق في الإله عقائدا وأنا اعتقدت جميع ما اعتقدوه

ونستطيع أن نضيف من جانبنا في هذا السبيل أبياتا لنفس الشاعر ابن عربي يقول فيها :

لقد صار قلبي قابلاً كل صورة فمرعى لغزلانٍ وديرٌ لرهبانِ
وبيتٌ لأوثانٍ وكعبةُ طائفٍ وألواحُ توراةٍ ومصحفُ قرآنِ
أدين بدين الحب أنى توجهتْ ركائبه فالحبُّ ديني وإيماني

والحق أن هذه الشطحات التي صدرت عن المتصوفة ، وبخاصة ما يرتبط منها بالذات الإلهية ، هي التي دفعت المستشرقين ـــ وأكثرهم مسيحيون ـــ إلى أن يربطوا بين التصوف والمسيحية أو بينه وبين بعض الأديان الأرضية من هندوكية وزرادشتية ، وهو ما يناقض مفهوم الإسلام مناقضة صريحة لا لبس فيها ولا إبهام ، وبذلك يكون كثير من المتصوفة المسلمين ـــ مثل الحلاج وابن عربي وجلال الدين الرومي والبسطامي ـــ على فضله ـــ في مثل الشطحة التي ذكرناها قبل قليل ـــ قد هيأوا للدارسين الغربيين أسبابا وذرائع يخرجونهم من خلالها عن النطاق التعبدي الإسلامي الصحيح ، ويدفعون بهم إلى أحضان أديان أخرى ، ومن ثم يربطون بين التصوف وهذه الديانات في حذق ومهارة ليست من صنعهم ولكنها من صنع بعض متصوفينا أنفسهم بغلوهم وشطحاتهم .

لقد تنبه إلى هذه المزالق المتصوف المعاصر السيد محمود أبو الفيض المنوفي فجعل يحدد معالم بذاتها للتصوف « الإسلامي » حتى لا يختلط الطريق وتتداخل الماهيات ، وهو من أجل ذلك اشترط لسالك طريق « التصوف الإسلامي

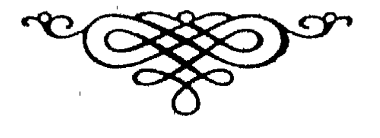
الخالص » أن يكون على علم بالشرع الشريف وأن يعمل به وأن يخلص لله فيه ليكون على هدى من ربه ونور من قلبه ، وهذا لا يتم إلا باتباع الشرع على شريطة صفاء النية والإخلاص في العمل وإحكام أمر المعتقد في التوحيد والتنزيه لله عز وجل ، فإذا طبق هذا العلم على العمل مع خلوص النية أفيض على العبد من أنوار الحق ما ينشرح به صدره ويكمل به إيمانه(١٣٩) .

هذا ويبقى التصوف بعد ذلك طريق مناجاة لله وحبا لذاته وعشقا لصفاته وسعيا إليه وفناء فيه وبين يديه ، يصوره قول ذي النون المصري وهو يساق إلى المطبق في بغداد وقد سعى به بعض القوم وبكى من أجله بعض القوم .

لك من قلبي المكان المصونُ ... كل لوم عليّ فيك يهونُ
لك عزم بأن أكون قتيلاً ... فيك والصبر عنك ما لا يكونُ

ويحسن تصويره أيضا في غير ما شطح ولا إلغاز ولا غموض ولا تهور ولا تعسف ولا تجسيد ولا حلول قول شهيدة العشق الإلهي رابعة العدوية :

أحبك حبّين : حبَّ الهوى ... وحباً لأنك أهلٌ لذاكا
فأما الذي هو حبُّ الهوى ... فشغلي بذكرك عمن سواك
وأما الذي أنت أهلٌ له ... فكشفك لي الحجب حتى أراكا
فلا الحمد في ذا ولا ذاك لي ... ولكن لك الحمد في ذا وذاكا



(١٣٩) التصوف الإسلامي الخالص ــ المقدمة .

القسم السادس

حرب وقتال بسبب المذاهب



حرب المذاهب:

كان لتعدد المذاهب واختلاف الفرق أثر سيئ خطير على الإسلام والمسلمين ، فالإسلام الموسوم بالسماحة ، الداعى إلى السلام قد تخضبت دماء أبنائه بدماء بعض نتيجة للخلافات المذهبية وضيق الأفق الذى حل بهؤلاء المتعصبين لمذاهبهم ، وانتهى الأمر فى كثير من الأحيان — ولفترات طويلة من الزمان — إلى القتال الدامى الذى ترك رواسب كثيرة فى نفوس المسلمين من أبناء الطوائف المختلفة .

وقد ابتدأت دماء المسلمين تسيل أول الأمر على يد الخوارج الذين دعوا أنفسهم بالشراة ، ورأوا أن الإسلام لا يتم إلا بالجهاد وقتل باقى المسلمين ممن لا يعتنقون مذهبهم ، ومن بعد الخوارج قام القرامطة الذين أقضوا مضجع العالم الإسلامى وحل شرهم فى كل بلد وأسالوا الدماء فى كل صعيد وواد ، وانتشروا فى العراق والشام والحجاز يوقعون الفزع ويبثون الرعب فى قلوب المسلمين مع قتل ونهب وسلب حتى إنهم كثيرا ما هاجموا حجاج بيت الله وقتلوهم وطموا بهم بئر زمزم ونهبوا ستائر الكعبة وهدموها ونقلوا الحجر الأسود إلى عاصمتهم هجر .

هذه الآلاف من أرواح المسلمين التى أزهقت بسيوف الخوارج والقرامطة لم يكن سبب إزهاقها إلا الأفق الضيق والتعصب الأعمى . والإسلام من كل ذلك براء .

ومع عجلة الزمان أخذ الخطر ينتشر من مكامنه وأخذ الصراع بين المذاهب المختلفة ــ بخاصة الشيعة والسنة ــ يحتل مكانا ظاهرا فى حياة المسلمين ، والغلبة للقوى صاحب السلطان من الطرفين ، وهكذا نجد الشيعة حينا معتدين غالبين ، ثم ينتقل الأمر إلى السنة فنجدهم أيضا معتدين غالبين . ومن الغريب أن الأمر لم يكن مقصوراً على معسكرى الشيعة والسنة ، بل كثيرا ما وقع الخلاف بين أحزاب السُنة أنفسهم .

على أننا نلاحظ أن أكثر الفرق الإسلامية خسارة أرواح وأنفس هم الشيعة أنفسهم ، وذلك لعدة أسباب أهمها عطف الناس عليهم أول الأمر باعتبارهم أهل البيت الكريم ، وشدة تعلقهم بهم الأمر الذى كان يرتعد منه الخلفاء الأمويون والعباسيون فرقا ، فكانوا يشددون عليهم النكير ويوقعون بهم الأذى ، ما كان إلى إيقاع الأذى بهم من سبيل .

وسبب آخر هو التفاف بعض الغلاة حولهم ، أولئك الذين كانوا يؤلهونهم حينا أو يرفعونهم إلى مراتب النبوة حينا آخر ، الأمر الذى كان يجعل جمهور المسلمين ينفر منهم وبوقع الأذى بهم ، فالكيسانية والسبئية والإسماعيلية ، كل أولئك كانوا يثيرون المسلمين بما ينادون به من مبادئ هى أبعد ماتكون عن الإسلام .

والأمر الذى لايقل عن السببين السالفين من حيث الأهمية هو ذلك التيار الشعوبى الذى كان يستتر خلف التشيع ، فالذى لا شك فيه أن الشيعة ــ وأعنى منهم المعتدلين ــ قوم طيبون يحبون الرسول وآل بيته ، ولكن جماعة الشعوبيين ممن كانوا يظهرون التحمس للإسلام ويبطنون له الشر والضر قد استتروا وراء أنصار آل البيت مما كان سببا فى وقوع الأذى على آل البيت أنفسهم .

وإذا ما تتبعنا المصادمات والخلافات التى وقعت بين الشيعة والسنة ، سواء أكان المعتدون هؤلاء أم أولئك فإننا سنجد صفحات دامية سوداء لوثت أفق الحياة الإسلامية لبضعة قرون من الزمان .

فرجل فاضل مثل أبى عبد الرحمن النسائى — وكان متشيعا — يسأل فى دمشق عن معاوية وفضائله فيرد ردا به مساس بالخليفة الأموى، فإذا بالناس يدفعونه ويخرجونه من المسجد ويدوسونه حتى يموت بسبب ذلك .

وينشب فى مصر فى يوم عاشوراء سنة ٣٥٠هـ خلاف بين الجنود السنة من أتراك وسودانيين من جانب والشيعة من جانب آخر ، ويسير الجنود فى الشوارع يسألون من يجدونه فى الطريق : من خالك ! فإذا لم يقل معاوية يلقى من الضرب والأذى ما لا طاقة له به[١] .

وتقع فتن دامية أعوام ٤٠٨ ، ٤٤٤ ، ٤٤٥ ، ٤٤٩ هجرية ، ويجرى قتال رهيب بين كل من الشيعة والسنة وتسيل الدماء — دماء المسلمين — من الطرفين أنهاراً ، وتخرج نساء الشيعة ناشرات شعورهن حزنا على من ماتوا من أزواجهن ويلهبن عواطف العامة ، فيشتد الأمر وتشتعل الحرائق إلى أن تأتى على الأخضر واليابس لغير ما سبب إلا أن فريقا من المسلمين يخالف فريقا آخر فى الرأى[٢] .

ويتربص الحنابلة فى بغداد بالشيعة وينسبونهم إلى الكفر ويقفون فى طريقهم ويترصدونهم ويمنعونهم من زيارة قبور الأئمة ويوقعون بهم الأذى ، ولا يزال الأمر كذلك حتى يتدخل الخليفة لإخماد الفتن ومنع أى اثنين من الحنابلة من الاجتماع فى مكان واحد .

وفى مصر نقرأ فى أحداث سنة ٣٥٣هـ أن أحد كبار الشيعة يحبس لغير سبب فيموت فى الحبس فيحمل إلى قبره ، ولكن يأبى التعصب الكريه أن يترك جثة الرجل تمر فى أمان بل يلتحم الجند بأصحاب الشيخ وتقع بين الفريقين معارك دامية .

ويظل الشيعة عرضة للمطاردة فى كل بقعة من بقاع المسلمين فى العراق وفارس والحجاز ومصر وإفريقية وتركيا، ومازالت الدماء الشيعية التى أراقها

---

(١) متز ١ / ١١٢ .

(٢) راجع ابن الأثير أحداث السنوات المشار إليها .

السلطان التركى سليم الأول فى مستهل القرن السادس عشر الميلادى نقطة سوداء فى تاريخه ، لأن الدافع إلى هذا الانتقام لم يكن له من سبب معقول إلا التعصب فى ظل المذهب ، فقد كان سنياً وأولئك شيعة .

على أن بعض الشيعة أنفسهم كانوا مسئولين عما يصيبهم من الأذى فى بعض الأحيان لإظهار تعصبهم ضد الصحابة الكرام ولعنهم جهارا ، الأمر الذى كان يثير عليهم جمهور المسلمين ، ففى أحداث سنة ٣٤٥هـ قامت فتنة كبيرة فى أصبهان — وكان سكانها سنيين — لأن رجلا من أهالى قم — وهم شيعة غلاة — قد سب صحابة رسول الله فوقع كثير من القتلى ونهبت أموال التجار من أهل قم .

وللسبب نفسه قتل عدد ضخم من الشيعة فى القيروان رجال ونساء وأطفال ونهبت ديارهم وأحرقت بالنار ، وأحكم الحصار حولها فمات عدد كبير منهم جوعا ومن كان يخرج كانت السهام تتلقفه فيخر صريعا .

وإذا كانت حوادث الشيعة كلها تتخذ هذا الطابع الدامى الحزين ، فإن هناك حوادث لم تكن تخلو من طرافة برغم أن سببها هو التعصب ، فقد حدث أن تولى أمر «قم» وال جديد ، وكان الوالى سنيا متشددا ، وكان أهالى قم شيعة غلاة ، فبلغه أن القميين لشدة بغضهم للصحابة لايوجد بينهم من اسمه أبو بكر أو عمر ، فجمعهم يوما وقال لهم بلغنى أنكم تبغضون صحابة رسول الله ﷺ ، وأنكم لشدة بغضكم لهم لا تسمون أولادكم بأسمائهم ، وأنا أقسم بالله العظيم لئن لم تجيئونى برجل منكم اسمه أبو بكر أو عمر ويثبت عندى أنه اسمه لأفعلن بكم ولأصنعن ، فاستمهلوه ثلاثة أيام وفتشوا مدينتهم فلم يعثروا إلا برجل صعلوك حافى القدمين عارى الجسم أحول أقبح خلق الله منظرا اسمه أبو بكر ، لأن أباه كان غريبا واستوطن البلدة وجاءوا به للوالى فما إن رآه حتى شتمهم وقال : جئتمونى بأقبح خلق الله تتنادرون عَلَىَّ ، وأمر بصفعهم ، فقال له بعض ظرفائهم أيها الأمير اصنع ماشئت فإن هواء قم لا يجيء منه من اسمه أبو بكر أحسن من هذا . فغلبه الضحك وعفا عنهم .

ويقال إن قم هذه كان يسكنها قوم من الغلاة هم الغرابية ، ومذهبهم أن المال كله للبنت فلما ولى أمرهم قاض حكم للبنت بالنصف هددوه بالقتل ، وإنما يحكمون للبنت بكل المال تكريما للسيدة فاطمة الزهراء .

على أن الشيعة لم يكونوا المعتدى عليهم بصفة دائمة فكثيرا ما كانوا المعتدين ، خصوصاً إذا كانت الأمور فى يد دولة شيعية كالبويهيين أو الفاطميين أو حيث يكثر تجمعهم ، فلم يكن إنسان يستطيع أن يذكر الصحابة بالخير فى بعض الأزمنة فى الكوفة لأن مصيره يكون القتل السريع ، ولذلك قيل : من أراد الشهادة فليدخل دار البطيخ «بالكوفة» وليقل رحم الله عثمان[3] .

وكان فى القيروان قاض سنى اسمه أبو سعيد فاستدعاه داعى الدعاة الفاطمى وطلب إليه أن يعتنق المذهب الشيعى فرفض القاضى قائلا : لو نشرتنى إلى اثنين مافارقت مذهب مالك ، فأمر به داعى الدعاة فقطع لسانه[4] .

وكان البويهيون لتعصبهم للتشيع يكرهون أهل السنة ، وكثيراً ما أوقع معز الدولة البويهى الأذى بالخلفاء من قتل أو سمل عيونهم لا لشىء إلا أنهم سنيون .

على أن أكثر ما حل بأهل السنة ، من أذى كان على يد الشيعة من الفاطميين ، فقد ضرب رجل فى مصر وطيف به فى القاهرة لأنهم وجدوا عنده الموطأ للإمام مالك ، وأمر الحاكم بأمر الله نائبه بدمشق بعقاب رجل مغربى ضُرب وطيف به على حماره ونودى هذا جزاء من أحب أبا بكر وعمر ، وبعد انتهاء الطواف ضربت عنقه .

وقد بالغ الفاطميون فى مصر فى إيذاء أهل السنة فعزلوا كل السنيين من المناصب الحكومية ، وحبسوا قاضى القضاة لأنه رفض أن يعترف بإمامة على ، وسبوا الصحابة والخلفاء الراشدين بكتابات منقوشة على جدران المساجد وفى الشوارع ، ولعنوا أهل السنة على المقابر ، إلى غير ذلك من أصناف الأذى التى أريق بسببها الدماء حينا أو حل الأذى والتحقير مكان الدماء حينا آخر .

---

(٣) متز ١ / ١٠٢ عن تاريخ بغداد المخطوط .

(٤) حسن إبراهيم حسن ـــ الفاطميون ص ٣٣٣ .

ولم يقف أمر الخلاف الدامى بين المسلمين على السنة والشيعة وحدهم ، بل إنه جرى بين المعتزلة والسنة أيضاً ، ولعلنا مازلنا نذكر فتنة خلق القرآن ، فقد أوقع المعتزلة بمساعدة بعض الخلفاء العباسيين ــ كالمأمون والمعتصم ــ الأذى والضر والقتل ببعض أهل السنة ممن رفضوا القول بخلق القرآن ، على مامر بنا عند الحديث عن المعتزلة .

ولعل أيادى خفية كانت حريصة على إذكاء نار الفتنة بين المسلمين حتى بين أبناء الطائفة الواحدة ، فقد جرت خلافات ومصادمات بين أهل السنة بعضهم وبعض ، ولقد كان الحنابلة (أنصار أحمد بن حنبل) على رأس المعتدين دائما واشتهروا بالعنف فى معاملة خصومهم من أبناء المذهب الشافعى ، فقد ثاروا عليهم وألحقوا بهم الاعتداء ، وأرادوا أن يجعلوا لأنفسهم مركزا حصينا ينقضون منه على خصومهم ، فبنوا مسجدا فى بغداد جعلوا منه وكرا للمشاغبة ، واستعانوا بفريق من العميان مسلحين بالهراوات كانوا يطلقونهم على الشوافع فيوسعونهم ضربا حتى يشرفوا على الموت[٥] .

وبلغ الأمر بالحنابلة وعنف خصومتهم أن منعوا دفن ابن جرير الطبرى ، فاضطر أصحابه أن يدفنوه فى داره ليلا ، فقد استعانوا بالعامة فى ذلك لا لشىء إلا أن الطبرى لم يعترف بابن حنبل كفقيه واعتبره محدثا ليس غير[٦] ، وكان ابن جرير قد أسس مذهبا خاصا وكان صاحب علم وفضل .

المذاهب أضعفت الإسلام :

هذه الفرقة القاتلة ، وتلك الدماء المهراقة على مر القرون لم تفد الإسلام فى شىء ، بل نخرت عظامه وأضعفت مقاومته لتيارات الغدر والاستعمار ، إن هذه الخلافات من الخطورة بحيث أن كل مسلم صحيح الإسلام غيور على دينه ووطنه لا بدّ وأن يتحمل جانبا من تلك المسئولية ، سواء أكان من السلف أم المسلمين المعاصرين .

---

(٥) ابن الأثير ٨ / ٢٢٩ .

(٦) المصدر السابق ٨ / ٩٨ .

لم يندك خنجر الفرقة فى صدر الإسلام بأيدى المسلمين ولكن بأيدى قوم ادعوا الإسلام ليصلوا إلى هذه الغاية ، ولم يدخل الإسلام يوما إلى قلوبهم ، فالمجوسية والسبئية والشعوبية قد لعبت أدوارها بمهارة كاملة حين بذرت بذور الخلاف بين المسلمين منذ فجر الإسلام إلى يومنا هذا ، وكلما مرت عليه الأيام امتدت جذوره فى الأرض قوة وثباتا ، وفى أيام الفاطميين لعب اليهود من أمثال ابن كلس ونشتكين الدرزى دورا خطيرا فى تفتيت العقيدة الإسلامية وتمزيق وحدة المسلمين ، بل إنهم مكنوا لبعض الخونة من تولى الوزارة والتعلق بها حتى لم يجد بعضهم أية غضاضة فى أن يستعين على خصومه من المسلمين بأعداء الإسلام من الصليبيين الذين كانوا مغتصبين لديار العرب والمسلمين فى ذلك الزمان .

لا شك أن أول نتيجة مؤسفة لهذه الخلافات التى اتخذت مكانها فى عمق مرير بين صفوف المسلمين أن ضاعت الأندلس ، وأجلى عنها أجدادنا من الصناديد الفاتحين بعد أن عشنا على أرضها ثمانية قرون أو تزيد .

ومن عجب أن الاستعمار الحديث أو بالأحرى الصليبية المعاصرة والصهيونية الماكرة التى يعتنقها كل المستعمرين ، كل أولئك الأعداء لا يزالون يستفيدون من تفرق المسلمين فى مذاهبهم ، وهم من أجل ذلك يوسعون شقة الخلاف بين المسلمين من أبناء الوطن الواحد ، ففرقوا بين السنى والشيعى فى العراق ولبنان ، وبين السنى والإباضى فى تونس والجزائر ، وساروا على نفس الطريقة فى بقية بلاد المسلمين ، والفرقة تؤدى دائما إلى الضعف ، وضعف المسلمين يمكّن للمستعمرين أعداء الإسلام أن يثبتوا أقدامهم فى أرض المسلمين ، وأرض المسلمين اليوم هى أغنى بلاد العالم بالمواد الخام التى تحتاج إليها الصناعات الضخمة المعاصرة ، ولا سبيل أمام المستعمر للوصول إلى هذه الثروات الضخمة إلا عن طريق تمزيق الشمل وتفريق الكلمة ، وتأليب المسلم على أخيه المسلم ، ثم تقريب بعض ضعاف النفوس من ابناء بعض الفرق الإسلامية وتشجيعهم والإغداق عليهم ، وبناء آمال لهم كذاب ، وبذلك يخرجونهم عن الصف ، ويتخذون منهم معاول هدم وأدوات تدمير .

وقد تمكن الاستعمار بهذه الطريقة الجبارة من أن يحرز بعض الانتصارات المؤقتة ، فكما ضاعت الأندلس فى الماضى نتيجة الفرقة والتمزق فإن فلسطين قد ضاعت منذ بضعة عشر عاما لهذا السبب ، وطرد العرب من ديارهم وديار آبائهم وأجدادهم وسلبوا أموالهم ومرابعهم وأراضيهم ، ونخشى إذا استمر الأمر على تلك الفرقة أن يسقط الوطن الإسلامى بلدة إثر بلدة كأوراق الخريف فى يوم عاصف شديد .

ومن أسف أن الاستعمار والصهيونية استطاعا أن يجدا أعوانا فى بعض البلاد الإسلامية من أبناء المسلمين أنفسهم ، ففى الهند والباكستان كان ينادى ميرزا غلام القاديانى علنا وفى مقالاته بمهادنة الإنجليز ، وتعطيل الجهاد من أجل بقاء الاستعمار فى أرض يعيش فيها أكثر من مائة وثلاثين مليون مسلم ، وفى سورية فى الماضى استطاع الاستعمار الفرنسى أن يستخدم بعض أبناء المسلمين من العلويين وأن يستعين بهم فى خلق فتنة بعد الاستقلال مباشرة ، وفى العراق كان الإنجليز يخلقون الوقيعة بين السنة والشيعة من أبناء الوطن الواحد حتى ينشغل المواطنون بخلافاتهم ويظل المستعمرون مغتصبين للبلاد ، وفى الجزائر وتونس حاول الاستعمار الاستعانة بالإباضية ولكنه فشل ، غير أنه بكل أسف استطاع الاستعمار الصهيونى أن يجتذب بعض الغافلين من الدروز وضمهم إلى جيشه وهيأ لهم محاربة إخوتهم فى العروبة والإسلام .

ومن عجب أن هذا الاستعمار لا يفرق بين الجماعة الإسلامية بالإغراء بالمال والآمال وحدهما ، بل إنه يزوِّر بعض الوثائق التى تتعلق ببعض الفرق الإسلامية المعاصرة كالدرزية فى سوريا ولبنان ، والعلويين فى سوريا ويحاول بهذه الوسائل أن يباعد بين أصحاب المذهبين المذكورين وبين الإسلام الدين السمح الذى منه تفرعت هذه الفروع ، وكثيرا ماصدَّق بعض المخدوعين من الأطراف المعنية هذه المحاولات المسمومة فأصبحوا يتصورون أن السنيين هم حملة الأذى والعذاب .

قد يكون للعلويين — مثلا — بعض الحق فى تصورهم هذا بالنسبة إلى الماضى ، فلقد أوقع بهم الدونمة الاتراك الكثير من الاضطهاد والأذى ، ولما كان الأتراك سنيين فقد تصور هؤلاء الإخوة العلويون أن الأذى بالنسبة إليهم كامن فى

كل سنى يتقرب منهم أو يختلط بهم ، والحق أن ما حل بهم من أذى فى الماضى كان نتيجة لضيق الأفق التركى ولم يكن بسبب المذهب السنى الذى كان يعتنقه الأتراك .

وإنصافا للحق نقول إن التركى المسلم ما كان ليوقع الظلم والأذى بإخوة له فى الإسلام ، ولكن الذين لعبوا هذا الدور الخسيس جماعة من الأتراك الحاقدين على الإسلام تظاهروا باعتناقه واندسوا بين الحكام ، وأسلس أولو الأمر لهم قياد الأمور فعمدوا إلى تنفيذ مؤامراتهم الدنيئة وهى تفتيت الجماعة الإسلامية وتمزيق عرى الروابط بين شعوب دولة الخلافة . كان هؤلاء الحاقدون — ومازالوا — من اليهود الذين تظاهروا بالإسلام ، وهم المعروفون بجماعة «الدونمة» ، وبالحيلة والمكر والخديعة والدس والدهاء والخيانة واستعمال الوسائل البعيدة عن الشرف تمكنوا من الوصول إلى أهدافهم فى إضعاف الخلافة الإسلامية بادئ ذى بدء وتصويرها تصويرا مشوها أمام الدول ، ثم أنهوا مؤامراتهم الطويلة حين أغمدوا خنجرا ضخما مسموما فى قلب الخلافة فقضوا عليها وتسلموا بعد ذلك زمام الحكم فى الدولة الإسلامية العزيزة .

ومن عجب أن بعض ساسة تركيا الحديثة قد ساهم فى طرد عرب فلسطين من ديارهم وتقديم الأرض العربية الطاهرة لقمة سائغة وهدية ثمينة للصهيونيين من شذاذ الآفاق . ومازالت كلمات وزير خارجية تركيا الأسبق رشدى أراس تؤذى مسامع العرب والمسلمين حينما قال إنه لا يستطيع أن يخفى عطفه على اليهود لأن أجداده منهم . والذى يقول مثل هذا الكلام ليس بمسلم عن عقيدة وإنما إسلامه مزيف ، إسلام المتآمرين على الإسلام الحاقدين عليه الهادمين لصرحه المدمرين لشامخ بنيانه .

فإذا كان بعض العلويين والدروز لا يزالون يربطون بين ظلم الأتراك لهم وبين المذهب السني ، فإن ذلك يعدو الحقيقة التاريخية فى كثير من جوانبها ، ذلك أن الظالمين من الأتراك كانوا مدفوعين بغايات استعمارية حينا وصهيونية حينا آخر ، وكان هدفهم المؤكد تشتيت صفوف المسلمين من أبناء المذاهب المختلفة بالرغم من الخلافة .

ومن ناحية أخرى نستطيع أن نقول إن ظلم الاستعمار التركى لم يقع على العلويين والشيعة دون السنيين ، فلقد لقى السنيون منه أفظع ألوان العذاب والقتل والتشريد ، فكم نصبت المشانق لأبطال الاستقلال فى ساحة المرجة بدمشق ، وكم آلاف من العراقيين تنقلت رءوسهم بين السيف والمشنقة ، وكم من نساء محصنات أريد الاعتداء على عفافهن لأنهن زوجات أو أخوات الشهداء من الزعماء العراقيين ، فكانت المرأة العراقية تفر منهم بعرضها وتلقى بنفسها فى عرض نهر دجلة حتى ابتلعت مياهه كثيراً من المحصنات العراقيات شهيدات للعرض والوطن .

فالاستعمار التركى السنى شكلا البعيد عن الإسلام موضوعاً لم يفرق فى أذاه بين علوى ودرزى وشيعى وسنى ، ولذلك ينبغى للعقلاء من العلويين أن يضعوا هذه الحقيقة نصب أعينهم ولا ينظروا بريبة إلى إخوانهم السنيين .

ولكن هناك كلمة حق ينبغى أن تقال عن الشعب التركى ، ففرق كبير بين الشعب التركى الذى يحب المسلمين فى كل شبر من الأرض يعيشون فيه وبين بعض حكام الأتراك فى بعض فترات التاريخ السالف واللاحق ، فمهما مال الحكام الأتراك عن الجادة وحاربوا الإسلام وتآمروا عليه حيناً أو تخلوا عنه وأعطوه ظهورهم حيناً آخر ، فإن الشعب التركى نفسه لا يزال على عقيدته المسلمة الصافية ، ولا يزال الأتراك من أبناء الشعب يؤمنون إيماناً فعلياً بالحديث الشريف « **مثل المؤمنين في توادهم وتعاطفهم وتراحمهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى** » .

تقريب المذاهب :

المذاهب التى تعرضنا لها بالحديث فى هذا الكتاب بعضها مندثر وبعضها قائم وبعضها تداخل فى مذاهب قائمة ، فأما المذاهب المندثرة فهى الأزارقة والصفرية والنجدات والبيهسية والعجاردة والثعالبة من الخوارج ، ولم يبق منهم إلا الإباضية الذين يعيشون الآن فى عُمان وطرابلس وتونس والجزائر وشرق إفريقية ، وهؤلاء يغضبون ممن يطلق عليهم اسم الخوارج ، والمذاهب المندثرة من الشيعة كثيرة مثل

السبئية والكيسانية والمغيرية والكاملية والمنصورية والنعمانية والخطابية والهشامية واليونسية ، ولم يبق منهم إلا الإمامية والزيدية والإسماعيلية والدروز والعلوية .

وأما المعتزلة فقد اندثر حزبهم كمذهب قائم بذاته ، فلم نعد فى عصرنا الحديث نسمع عن الواصلية أو الهذيلية أو النظامية أو الجاحظية أو البشرية أو الجبائية إلى غير ذلك من المدارس الاعتزالية الفرعية ، وإنما ذاب المذهب فى تعاليم الشيعة الزيدية ، بحيث أخذ المذهبان أطيب ما عند المعتزلة من أفكار واطرحا ما قد تورط فيه علماء الاعتزال من تطرف واندفاع .

وإذن نستطيع أن نعد من المذاهب الإسلامية المعاصرة أهل السنة والإباضية ، والشيعة الزيدية والشيعة «الاثنا عشرية» وغير الغلاة من الإسماعيلية والدروز والعلويين والأحمدية .

وإذا أنعمنا النظر جيداً واطرحنا الأفكار البالية الجامدة خلف ظهورنا ، فإننا لن نجد كبير خلاف بين كل من مذهب السنة ومذهب الشيعة الإمامية ومذهب الشيعة الزيدية ، وكذلك لن نجد كبير خلاف بين السنة وبين الإباضية ، فالإمام أبو حنيفة السنى كان تلميذا للإمام زيد بن على الذى إليه ينتسب المذهب الزيدى ، أخذ عنه الفقه وأصول العقائد ، والإمام زيد تلميذ لواصل بن عطاء أحد رءوس المعتزلة وكان ملازماً له ، وقد ليم فى ذلك لأن واصلا لا يوافق الشيعة فى كل ما قالوه عن الإمامة ، ولكن زيداً صاحب الأفق الواسع والمدارك السمحة ضرب بكل ذلك عرض الحائط وظل مخلصاً لتعاليم واصل بن عطاء وأخذ عنه ، ولذلك فإننا نرى الكثير من سمات الاعتزال طافية واضحة على صفحة المذهب الزيدى ، وبذلك نرى كيف أخذ الإمام أبو حنيفة السنى عن الإمام زيد الشيعى الزيدى عن واصل بن عطاء المعتزلى .

وليس ذلك وحسب ، بل إن إماماً سنياً آخر يأخذ عن إمام شيعى آخر ، وذلك هو الإمام مالك بن أنس الذى كان تلميذاً للإمام جعفر الصادق رأس الشيعة الإمامية أو الجعفرية ، وكان إماماً فاضلا ورعاً له من الإيمان والثقافة الدينية ما لم يتوفر لإمام آخر من معاصريه ، ولذلك فإن فقهه ونظراته محل احترام جميع

أهل السنة . ومن هنا لا يبدو الأمر غريباً أن يتفقه الإمام مالك السنى على الإمام جعفر الشيعى ويأخذ عنه هو وغيره من الأئمة الذين عرفوا فيما بعد باسم السنة .

وإذن فليس ثمة خلاف واسع بين السنة والشيعة الإمامية والشيعة الزيدية طالما أن أئمة هذه المذاهب قد ارتبط بعضهم ببعض فى ثقافته وعقيدته وأفكاره على النهج الذى ذكرنا .

على أن الأمر لم يقف بنا فى علاقات المذاهب بعضها وبعض عند هذا الحد ، بل إن الإمام البخارى حافظ السنة كان يجلس بين يدى عمران بن حطان الخارجى يتلقى عنه الحديث ويدونه ، فتكون هذه صلة جديدة بين الخوارج والسنة ، بل إن واصل بن عطاء وعمرو بن عبيد رئيسى المعتزلة أخذا علمهما من الحسن البصرى الذي يعتبره الشيخ محمد عبده شيخ السنة من التابعين ، والاعتزال في أول أمره وقبل أن يدخل عليه التطرف الذي جاءه من الثقافة اليونانية في عصوره المتأخرة لم يكن بعيداً عن السنة بعداً كبيراً ، حتى أن الحسن البصرى يسأل عن عمرو بن عبيد رأس المعتزلة فيجيب سائله قائلاً : « لقد سألت عن رجل كأن الملائكة أدبته وكأن الأنبياء ربته ، إن قام بأمر قعد به ، وإن قعد بأمر قام به ، وإن أمر بشىء كان ألزم الناس له ، وإن نُهى عن شىء كان أترك الناس له ، مارأيت ظاهراً أشبه بباطن منه ، ولا باطناً أشبه بظاهر منه »[7] .

إن عالماً جليلًا مثل الحسن البصرى لا يمكن أن يصف عمرو بن عبيد بهذه الأوصاف لو كان فيه قيد شعره من انحراف فى مذهبه واعتقاده ، وإنما الانحراف جاء فيما بعد وعلى يد خلفائه ممن تأثروا بالفلسفة اليونانية كما ذكرنا ، فالاعتزال إذن فى أصله وروحه ليس بعيداً عن السنة ذلك البعد الذى ظهر فيما بعد .

وهكذا نجد تلك الروابط الأكيدة التى تجمع بين السنة والإمامية فى شخصى مالك وجعفر ، وبين السنة والزيدية فى شخصى أبى حيفة وزيد ، وبين السنة والمعتزلة فى أشخاص الحسن البصرى وعمرو بن عبيد وواصل بن عطاء ، وبين الزيدية والمعتزلة فى شخصى زيد وواصل ، وبين الزيدية والإمامية فى شخصى

---

(٧) [illegible]

الأخوين زيد ومحمد الباقر ، وبين السنة والخوارج فى شخصى البخارى وعمران ابن حطان الذى أملى الحديث على البخارى بل الخوارج والإباضية ـــ بصفة خاصة ـــ هم أول من جمع الحديث الذى يعتبر المصدر الثانى لفقه السنة وعقائدها .

هى إذن روابط أكيدة متينة لها وزنها وقداستها تلك التى جمعت بين المذاهب سالفة الذكر التى يعتنقها عدد كبير من المسلمين ، أى السنة والإمامية والزيدية والإباضية ، وليس ثمة تنافر فى إمكان التقريب بين الإباضية والشيعة : هذين المعسكرين اللذين يبدوان لأول وهلة أبعد ما يكون الواحد منهما عن الآخر ، ذلك لأن الإباضية لا يعتبرون أنفسهم خوارج ، بل إنهم يغضبون أشد الغضب ممن يطلق عليهم هذه الصفة ، وهم لا يلعنون علياً كما يشيع بعض الفقهاء ولكنهم يعتبرون التحكيم الذى جرى بينه وبين معاوية باطلًا ، ويقولون إن الإمامة لا ينبغى أن تكون مقصورة فى بيت علىّ ، بل هى جائزة فيمن تتوفر فيه سروطها من عامة المسلمين .

فالخلاف إذن بين الإمامية والإباضية لا يكاد يبعد كثيراً عن الخلاف بين الإمامية والسنة ، وهو الخلاف على الإمامة ، وهو خلاف يمكن شجبه ، فليس هناك فى الوقت الحاضر نظام لحكام المسلمين عن طريق الإمامة إلا فى اليمن[٨] ، والإمام هناك طالما توفرت فيه الشروط فهو يجمع بين السلطتين الزمنية والدينية .

قد يثير سائل مسألة الإمام المستور الذى يعتقد الإمامية بظهوره ولا تأخذ برأيهم فيه بقية المذاهب الإسلامية ، ونحن نقول إن هذه أيضا مسألة لا تدعو للخلاف وتفرقة صفوت المسلمين مادام الإمام لم يظهر بعد ، وحين يظهر يمكن أن نتفق أو نختلف ، أما الخلاف على أمور لم تحدث بعد فإن ذلك أمر لا يتفق مع تفكير العقلاء ، هذا فضلاً عن أن عدم الاعتقاد بالإمام المهدى فى رأى الشيعة أنفسهم لا يدفع بصاحبه إلى مزالق الكفر ومهاوى الضلال .

---

(٨) انتهى حكم الإمامة في اليمن منذ عام ١٩٦٢م

وهناك مسألة خلافية أخرى بين الشيعة الإمامية من ناحية وبين بقية المذاهب المشار إليها آنفاً من ناحية أخرى هى مسألة المتعة ، ونحن نقول إنها مسألة فقهية محضة ، ولهؤلاء حججهم من سنة رسول الله ولأولئك حججهم من سنة رسول الله وتشريع صحابته .

هذا بالإضافة إلى أمور أخرى ليست بأهل لأن توسع شقة الخلاف بين هذه المذاهب ، لأن الخلاف يقوم أحياناً بين أئمة المذهب الواحد نفسه ، فأبو حنيفة أقرب إلى الزيدية فى بعض المسائل منه إلى الشافعى ، مع أن كليهما إمام من أئمة أهل السنة ، ولم يقل عاقل إن أحداً من الإمامين الفاضلين قد خرج عن الجادة أو انزلق عن الربقة ، ففى كثير من الحالات نجد إماماً سنياً أقرب فى اجتهاده وتفكيره إلى إمام شيعى منه إلى زميل له من أئمة السنة .

فنحن نستطيع أن نقول إنه لا يوجد الخلاف الذى يؤدى إلى هذه الفرقة الطويلة الخطيرة بين السنة والإمامية والزيدية والإباضية اللهم إلا ما كان نتيجة الجهل والجمود والتعصب عند بعض من ينتسبون إلى واحد من هذه المذاهب ممن جعل العامة لهم مكانة دينية مرموقة .

فمن الميسور إذن أن تقترب هذه المذاهب الواحد من الآخر فى سهولة ويسر وأن تلتقى فى منتصف الطريق ، وأن تعقد الجلسات والمؤتمرات التى تظللها السماحة ويكون رائدها الخير للإسلام والمسلمين ، وإذا كانت وزارة الأوقاف المصرية قد بدأت الخطوة الأولى بمحاولة التقريب بين السنة والجعفرية فإن من الخير أن تبادر إلى توسيع الدائرة ودعوة الزيدية والإباضية إلى نفس الغرض ، ونحن نعتقد مخلصين أنه لو حسنت النيات وألقيت رواسب الماضى البعيد لخرجنا من هذه المحاولات صفاً واحداً لا يفرق جماعة من جماعة إلا كما يحدث من خلاف بين أئمة المذهب الواحد .

فإذا ما انتهينا من هذه الخطوة الأولى كان علينا أن نسارع إلى الخطوة الثانية التى تشمل الدروز والعلويين والأحمدية والإسماعيلية . حقاً إن شقة الخلاف واسعة بين عقائد هذه المذاهب الأخيرة وبين مذاهب السنة والإمامية والزيدية

والإباضية على الوضع الذى مر ذكره عند الحديث عن عقيدة كل فرقة من هؤلاء ، ولكن القوم ينتسبون إلى الإسلام ، والمنبع واحد ، ولعل تيارات من الجهل والاضطهاد والمؤامرات هى التى باعدت بين جمهرة المسلمين وبينهم من الناحية المذهبية أو العقائدية ، أما من ناحية الوطنية فلا يستطيع عاقل أن يذكر الدروز إلا بكل خير وكل ثناء ، والأمر قريب من ذلك بالنسبة للعلويين ، وإن اختلف بالنسبة للأحمدية والإسماعيلية ، غير أن الأحمدية قد قدمت خدمات كبيرة للإسلام فى أوربا بصفة خاصة ، ثم إنها هى والإسماعيلية تعتبران وجهاً بارزاً من وجوه الإسلام لشهرة كل من المذهبين فى أوربا وأمريكا ، ومن هنا وجب السعى إليهم ومحاولة تصفية المذهبين من كل الشوائب .

والأمر فيما يتعلق بالدروز نستطيع أن نقول إنه وإن لم يكن غير ممهد من ناحية أركان العقيدة إلا أن لدى كثير من القوم رغبة أكيدة فى التفاهم ولم الشمل وتضييق شقة الخلاف ، وإن كثيراً من عقلائهم ينادى بذلك حتى يتخلصوا من سلطان بعض العقليات غير المستنيرة التى تجعل من نفسها قيّمة على هذا المذهب . وغير خاف أن كثيراً من الدروز الآن يتعبد على طريقة أهل السنة أو الشيعة غير الغالية .

ومايقال عن الدروز يقال فى يسر تام عن العلويين فى سوريا ، ذلك أن طبيعة الموقف بالنسبة للمذهبين واحدة ، وإن اختلف الأمر بالنسبة لتفاصيل المعتقدات ، ولدى عقلاء القوم استعداد تام للمناقشة والمقابلة على الطريق السوىّ المؤمن الصافى .

بقى المذهب الإسماعيلى بفرعيه من أغاخانية وبهرة ، ثم المذهب الأحمدى ، وهؤلاء يمكن الالتقاء معهم إن لم يكن سريعاً فمع مرور الزمن واطراد السعى ومداومة الإخلاص واستهداف الخير العام للإسلام والمسلمين حينئذ يستطاع ضمهم إلى الصف الإسلامى الموحد .

تلك هى فكرة «الإسلام بلا مذاهب» نادينا بها فى ظل هذه الدراسة ، ولم يكن هناك من دافع إليها سوى ما لمسناه من الشر والضر والأذى الذى يقع على المسلمين متفرقين ، والخير والنفع والعزة التى يعيش فى ظلها المسلمون ما كانوا متكاتفين متحدين ، هذا فضلاً عن أن لب العقيدة واحد ومصدرها واحد وإلهها واحد ورسولها واحد .



مراجع الكتاب

* القرآن الكريم
* الأئمة الأربعة
  للدكتور أحمد الشرباصى — ط دار الهلال — مصر .
* الأئمة الأربعة
  للدكتور مصطفى الشكعه — دار الكتاب اللبنانى .
* الإباضية فى الجزائر
  لعلى يحيى معمر
* ابن حنبل
  للأستاذ محمد رجب البيومى — ط دار القومية — مصر .
* أبو حنيفة : حياته وعصره - آراؤه وفقهه
  للشيخ محمد أبى زهرة — ط دار الفكر العربى — مصر .
* إحياء علوم الدين
  للإمام أبى حامد محمد بن محمد الغزالى الطوسى ط القاهرة .
* أخبار الأئمة الرستميين
  لابن الصغير — ط الجزائر
* الأدب الأندلسى
  للدكتور مصطفى الشكعه — ط دار العلم للملايين — بيروت .
* الإرشاد فى تاريخ حجج الله على العباد
  لأبى عبد الله محمد بن النعمان المشهور بالشيخ المفيد — ط . حجر إيران .
* الإسلام عقيدة وشريعة
  للإمام الأكبر الشيخ محمود شلتوت — ط الأزهر .
* الإسلام والمرأة
  للأستاذ سعيد الأفغانى — ط دمشق .
* الإسلام والنصرانية مع العلم والمدنية
  للامام محمد عبده — منشورات المؤتمر الإسلامى .
* أضواء على مسلك التوحيد « الدرزية »
  للدكتور سامى مكارم — ط صادر — بيروت

* الأم
للإمام محمد بن إدريس الشافعى — ط القاهرة .

* الامام جابربن زيد العمانى وآثاره فى الدعوة
للدكتور صالح بن أحمد الصوافى — وزارة التراث القومى بعمان ١٩٨٩

* الانتقاء فى فضائل الثلاثة الفقهاء
لابن عبد البر — ط القاهرة .

* الباكورة السليمانية فى أسرار الديانة النصيرية
تأليف سليمان الأدنى — ط بيروت .

* بلوغ الأرب فى معرفة أحوال العرب
لمحمود شكرى الألوسى — ط مصر .

* البوسعيديون حكام زنجبار
للشيخ عبدالله بن صالح الفارسى — سلسلة تراثنا سلطنة عمان

* بيان القرآن (تفسير الأحمدية)
لمحمد على

* البيان والتبيين للجاحظ
تحقيق عبد السلام هارون — لجنة التأليف والترجمة والنشر .

* بين الديانات والحضارة
لطه المدور — ط بيروت .

* بين الدين والعلم
للدكتور محمد أحمد الغمراوى — سلسلة الثقافة الإسلامية .

* التاج المذهب لأحكام المذهب
« شرح الأزهار فى فقه الأئمة الأطهار
لأحمد بن قاسم العنسى اليمانى » — ط الحلبى — مصر .

* تاريخ آداب اللغة العربية
لجرجى زيدان — ط الهلال .

* تاريخ الإسلام السياسى
للدكتور حسن إبراهيم حسن — ط النهضة المصرية .

* تاريخ بغداد
لأحمد بن على بن ثابت الخطيب البغدادى — ط مصر

* تاريخ الدولة الفاطمية
للدكتور حسن إبراهيم حسن — ط النهضة المصرية .
* تاريخ الشعر السياسى
للأستاذ أحمد الشايب — ط النهضة المصرية .
* تاريخ العلويين
لمحمد أمين غالب الطويل — ط دار الأندلس ١٩٦٦ — بيروت .
تبليغ رسالت
لميرزا غلام أحمد القادياني
* تحرير الوسيلة
لآية الله الخمينى
* تحفة الندوة (رسالة)
لميرزا غلام أحمد القادياني
* ترتيب المدارك وتقرير المسالك
للقاضى عياض بن موسى — منشورات دار الحياة — بيروت .
* ترياق القلوب
لميرزا غلام أحمد القادياني — ط الهند .
* التصوف الإسلامى الخالص
للسيد محمود أبى الفيض المنوفى — ط نهضة مصر .
* التصوف الإسلامى وتاريخه
لرينولد نيكلسون ، ترجمة أبى العلا عفيفى — ط لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٥٦ .
* التصوف الثورة الروحية فى الإسلام
للدكتور أبى العلا عفيفى — ط دار المعارف
* تلبيس إبليس
لعبد الرحمن بن على بن محمد بن الجوزى — القاهرة ١٣٦٨ هـ .
* تنقيح المقال فى أحوال الرجال
لآية الله المامقانى — ط النجف ١٣٥٢ هـ .
* الثقافة الإسلامية والحياة المعاصرة
(مجموعات أبحاث)
للأستاذ محمد خلف الله أحمد وآخرين — ط القاهرة .

* ثلاثة علماء من شيوخ بنى معروف
لعارف أبو شقرا — ط بيروت .
* ثورة الشيخ صالح العلى
لعبد اللطيف اليونس — مطبوعات وزارة الثقافة السورية ، نشر دار اليقظة العربية بدمشق .
* جابربن زيد .
للدكتورأحمد درويش — مطبعة جامعة السلطان قابوس . عمان
* الجزائرلتوفيق المدنى — ط الجزائر
* جمهرة خطب العرب
لأحمد زكى صفوت — ط الحلبى — القاهرة .
* حقائق الإسلام وأباطيل خصومه
لعباس محمود العقاد — منشورات المؤتمر الإسلامى — القاهرة .
* حقوق الإنسان فى الإسلام
للدكتور على عبد الواحد وافى — منشورات وزارة الأوقاف المصرية .
* حقيقة الوحى
لميرزا غلام أحمد القادياني
* دائرة المعارف الإسلامية ، مادة تصوف .
* ديوان عمر بن الفارض
شرح البورينى — ط مصر .
* الرسالة
للإمام محمد بن إدريس الشافعى — ط مصر .
* رسالة التوحيد
للإمام محمد عبده — منشورات المؤتمر الإسلامى بالقاهرة .
* الرسالة القشيرية
لعبدالكريم بن هوازن بن عبد الملك القشيرى ط الحلبى — مصر .
* رياض الصالحين من كلام سيد المرسلين
لمحيى الدين أبى زكريا
يحيى بن شرف الدين النووى — ط القاهرة .

* السير لأبى العباس أحمد بن سعيد الشماخى

* الشافعى ، حياته وعصره ، آراؤه وفقهه للشيخ محمد أبى زهرة — ط دار الفكر العربى — القاهرة .

* الشعاع الشائع باللمعان فى ذكرى أئمة عمان لحميد بن حمد بن رزيق — وزارة التراث عمان

* الشيعة أصلها وأصولها للشيخ محمد حسين كاشف الغطاء — ط العرفان — بيروت .

* الشيعة والتصحيح للدكتور موسى الموسوى — ط لوس انجلوس ١٩٨٧ .

* الصحف الموسومة بالشريعة الروحانية فى علوم اللطيف والبسيط والكثيف — نشر مشيخة الدروز — بيروت .

* ضحى الإسلام للدكتور أحمد أمين — ط لجنة التأليف والترجمة والنشر — القاهرة .

* طائفة الإسماعيلية للدكتور محمد كامل حسين — المكتبة التاريخية ط النهضة — مصر .

* طائفة الدروز للدكتور محمد كامل حسين — ط دار المعارف — مصر .

* طبقات الحنابلة لأبى الحسن محمد بن أبى يعلى — ط السنة المحمدية — مصر .

* طبقات الفقهاء الشافعية لأبى عاصم محمد بن أحمد العبادى — ط لبدن .

* طبقات المشايخ بالمغرب لابى العباس أحمد بن سعيد الدرجينى

* طلقات المعهد الرياضى فى حلقات المذهب الإباضى للشيخ سالم بن حمود السيابى — وزارة التراث القومى عمان

* العقد الفريد لأحمد بن عبد ربه — ط لجنة التأليف والترجمة والنشر .

* زعماء الإصلاح
للدكتور أحمد أمين — ط لجنة التأليف والترجمة والنشر — القاهرة .

* العلويون
لمنير الشريف — ط دمشق

* العلويون فدائيو الشيعة المجهولون
لعلى عزيز إبراهيم العلوى — (طبع لحساب المؤلف) .

* عمان عبر التاريخ
للشيخ سالم بن حمود السيابى — ط وزارة التراث القومى عمان

* عمان فى فجر الاسلام
للدكتورة سيدة اسماعيل الكاشف — وزارة التراث القومى عمان

* عوارف المعارف
لعبد القاهر بن عبد الله البكرى الصديقى السهروردى — ط القاهرة .

* الفتح المبين فى سيرة السادة البوسعيدين لابن رزيق
تحقيق عبدالمنعم عامر ومحمد مرسى عبد الله — وزارة التراث عمان

* فجر الإسلام
للدكتور أحمد أمين — ط لجنة التأليف والترجمة والنشر .

* فرق الشيعة
لأبى محمد الحسن بن موسى النوبختى — ط استانبول .

* الفرق بين الفرق
لأبى منصور عبد القاهر بن طاهر البغدادى — ط دار المعارف — مصر .

* فقه الامام جابر بن زيد
ليحيى محمد بكوش — طبعة ثانية

* الفكر الإسلامى الحديث وصلته بالاستعمار الغربى
للدكتور محمد البهى — ط القاهرة .

* فن المنتجب العانى وعرفانه
للدكتور أسعد أحمد على — ط دار النعمان ١٩٦٨م — لبنان .

* فيض الخاطر
للدكتور أحمد أمين — لجنة التأليف والترجمة والنشر .
* الكافى فى علم الدين
لمحمد بن يعقوب الكلينى — ط ١٣٨١ هـ .
* الكامل فى التاريخ
لأبى الحسين على بن أبى الكرم الشيبانى — ط ليدن .
* كتاب الصلاة والصيام وفق المذهب الجعفرى
للشيخ عبد الرحمن الخير . الطبعة الثانية — مطبعة الإنشاء — دمشق .
* كشف الأسرار
لآية الله الخمينى — ط عمّان .
ترجمة الدكتور محمد البندارى
* ما بعد القمر
للشيخ أحمد محمد حيدر — (الناشر أو المطبعة غير معروفين) .
* مالك بن أنس ، حياته وعصره – آراؤه وفقهه
للشيخ محمد أبى زهرة — ط دار الفكر العربى — القاهرة .
* مجموعة الرسائل والمسائل
للإمام أحمد بن تيمية — ط مصر ١٩٢٢
* المختصر النافع فى فقه الإمامية
لأبى القاسم نجم الدين جعفر بن الحسن الحلبى
المتوفى سنة ٦٧٦ هـ — ط دار الكتاب العربى — القاهرة .
* المدخل إلى التصوف الإسلامى
للسيد محمود أبى الفيض المنوفى — ط الدار القومية للطباعة — مصر .
* المذاهب الإسلامية
للشيخ محمد أبى زهرة — ط مكتبة الآداب — القاهرة .
* مذهب الموحدين « الدروز »
للأستاذ عبد الله النجار — ط دار المعارف — مصر .
* المرأة فى القرآن
للأستاذ عباس محمود العقاد — ط القاهرة .
* المراجعات
للشيخ عبد الحسين شرف الدين الموسوى — ط بيروت ١٩٥٩ .

* مروج الذهب ومعادن الجوهر
لعلى بن الحسين المسعودى ط باريس .
* المسند
للإمام أحمد بن حنبل ط القاهرة .

* مصحف المنفرد بذاته نشرته مشيخة الدروز ببيروت .
* المعارف
لعبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينورى ط القاهرة .
* معجم الأدباء
(إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب)
ياقوت الحموى ط دار المأمون ـــ مصر .

* معرفة الله والمكزون السنجارى
للدكتور أسعد أحمد على ط دار الرائد العربى ١٩٧٢ م ـــ بيروت .

* المغرب فى حلى المغرب
للحجارى ابن سعيد وآخرين
تحقيق دكتور شوقى ضيف ط دار المعارف .
* مقاتل الطالبيين
لأبى الفرج على بن الحسين الأصبهانى ط الحلبى .
* المقدمة
لعبد الرحمن بن خلدون
تحقيق الدكتور على عبد الواحد ط القاهرة .
* الملل والنحل
لأبى الفتح محمد بن عبد الكريم الشهرستانى
المتوفى سنة ٥٤٨ هـ
تحقيق الدكتور محمد بن فتح الله بدران ط الأنجلو ـــ مصر .

* من كنوز الإسلام
للدكتور محمد غلاب المكتبة الشرقية ـــ مصر .

* المناقب الْكَرْدَرِيَّة فى سيرة الإمام أبى حنيفة
لمحمد بن محمد بن شهاب الكردرى الشهير
بالبزازى — ط القاهرة .

* المنقذ من الضلال للإمام الغزالى — ط القاهرة .

* موجز التاريخ العام للجزائر
لعثمان الكعاك

* الموطأ
للإمام مالك بن أنس — ط القاهرة .

* النبأ اليقين عن العلويين
للشيخ محمود الصالح — (الناشر أو المطبعة غير معروفين) .

* نشأة التصوف الإسلامى
للدكتور إبراهيم بسيونى — ط دار القومية للطباعة ـــ مصر .

* النقط والدوائر فى العقيدة الدرزية
تحقيق كريستيان سيبول — طبعة أولى ـــ ألمانيا ١٩٠٢ .

* نهضة الشعوب الإسلامية فى العصر الحديث
للأستاذ محمد حبيب أحمد — ط النيل ـــ مصر .

* الواقع الدرزى وحتمية التطور
مجموعة محاضرات لبعض المفكرين من الدروز — مطبوعات رابطة العمل الاجتماعى ببيروت .

وثائق قضية الأحمدية على أهل السنة — محكمة مدبنة الكاب سنة ١٩٨٥

* وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان
لأحمد بن محمد بن أبى بكر بن خلكان — ط النهضة ـــ مصر .

بعض المراجع الأجنبية

- Arabic Thought and its place in History.
  By De Lacy O'Leary, London, 1945.
- Encyclopedia of Islam.
- Islam.
  By Alfred Guillaume, Paperbacks, London.
- Medieval Islam.
  By Gustave E. Von Grunebaum, Chicago Univ. Press.
- Mohammedanism.
  By. H.A.R. Gibb, N. Y., Oxford Press 1962.
- Modern Islam.
  By Gustave E. Von Grunebaum, University. of California Press, 1962.
- The Social Structure of Islam.
  By Reuben Levy. Cambridge Univ. Press.
- The spirit of Islam.
  By Sayed Ameer Ali, University Paperbacks, London.

مراجع مترجمة

* أحمد بن حنبل
لوالترباتون
ترجمة عبد العزيز عبد الحق — دار الهلال .
* تاريخ الدول العربية
يوليوس فلهاوزن
ترجمة الدكتور محمد عبد الهادى أبى ريدة — ط لجنة التأليف والترجمة والنشر .
* تاريخ الفلسفة فى الإسلام
لدى بور ترجمة الدكتور أبى ريدة — ط لجنة التأليف والترجمة والنشر .
حقوق المرأة فى الإسلام
للكاتب التركستانى أحمد أجايف
ترجمة سليم قبعين — ط مصر .
* الخوارج والشيعة
ليوليوس فلهاوزن
ترجمة الدكتور عبد الرحمن بدوى — ط نهضة مصر .
* عن « النصيرية » كتبت مجلة « الجنان »
فصلا غير قصير ص ٧٠٠ وما بعدها وفيه
الكثير من الغرائد عقائد .

محتـــويات الكتـــاب

الموضـــوع	الصفحة

القســم الأول

القســم الثانــى

القســم الثالــث

القسم الرابع

القسم الخامس

القسم السادس

رقم الإيداع
١٩٩١/٤٠٢٠
I. S.B. N
977 - 5083 - 36 - 2

طبع بالمطبعة الفنية ت ٣٩١١٨٦٢

